

الدكتور سمير الطائي

# العنف السياسي في بلاد الرافدين

## دراسة في جذوره التاريخية



ناشر  
مكتبة  
عبد الحميد شومان العامة

مكتبة عبد الحميد شومان العامة  
الإهداء والتبادل



E.X080845 1







العنف السياسي في بلاد الرافدين

(الجزء الأول)



# العنف السياسي في بلاد الرافدين دراسة في جذوره التاريخية

د. سمير الطائي

٢٠٠٩

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2008/6/1851)

956.3

الطائي ، سمير .

العنف السياسي في بلاد الرافدين / سمير لؤلؤ الطائي . عمان: دار دجلة 2008.

( ) ص

ر.أ.: (2008/6/1851).

الواصفات: / العنف السياسي // العراق // تاريخ العراق /

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

978-9957-71-033-0:ISPN

دار دجلة

للشؤون وموزون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص.ب: 712773 عمان 11171 - الأردن

جمهورية العراق

بغداد - شارع السعدون - عمارة فاطمة

تلفاكس: 0096418170792

خلوي: 009647702152755

خلوي: 009647705855603

خلوي: 009647902225549

E-mail: dardjlah@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو

تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

All rights Reserved No Part of this book may be reproduced. Stored in a retrieval system. Or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.



## الجزء الأول

من العصور القديمة إلى نهاية عصر الخلفاء

الراشدين

## الإهداء

الى الشعب العراقي

الى الشعب العربي في كل مكان.

## المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
4	الإهداء
9	المقدمة
16	الفصل الأول: تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة.
16	1- المعالم الفنية.
26	2- الحياة الاجتماعية والقوانين في بلاد الرافدين.
31	3- صعوبات الحياة في بلاد الرافدين.
32	4- تطور العقيدة الدينية في حضارة وادي الرافدين.
47	5- أساطير خلق الكون والإنسان في حضارة وادي الرافدين.
60	6- مناقشة ما ورد في تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة.
61	أ - تأثير نشأة المعتقدات الدينية في فلسفة الحياة
65	ب - موروث الفكر الشمولي في السلوك والحكم
68	ج - موروث فكرة المقدس والمدنس في بلاد الرافدين
76	د - موروث حالة الخوف والتشاؤم في بلاد الرافدين
81	7- خلاصة الفصل الأول
84	الفصل الثاني: تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام.
85	1- الزراعة والرعي يشكلان نمط الحياة الاقتصادية في الجزيرة.
87	2- الفروع الأخرى من الأقتصاد (التجارة والحرف البسيطة).
89	3 - نمو الرعي في الجزيرة العربية وأثره في الحالة الاجتماعية والاقتصادية

94	4 - تطور الوعي الديني عند ظهور الرعاة على مسرح التاريخ العربي.
99	5- نشأة الديانة اليهودية القديمة في الجزيرة العربية
114	6- الأديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام.
116	1-6- الحنفية
117	2-6- الصابئة المندائية
118	3-6- الدهرية
119	4-6- المسيحية
121	5-6- الأيزيدية وغيرها من الديانات الأخرى المتفرقة
123	7- الظروف المساعدة على ظهور ديانة جديدة في الجزيرة العربية
124	8- الأحوال الاجتماعية في الجزيرة العربية
133	9- الشعر عند العرب قبل الإسلام
139	10- خلاصة الفصل الثاني
142	الفصل الثالث: عصر فجر الإسلام
144	1- عصر تكوين الدولة الإسلامية أو فترة الدعوة المحمدية.
149	2- تطور المعتقدات الدينية لدى العرب بعد الإسلام.
152	3- إقتران الدعوة الإسلامية بالسيف.
167	4- المرغبات في الجهاد في الإسلام.
173	5- شكل نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام.
179	6- نشأة القنسية والغلو في عصر فجر الإسلام.
185	7- الحالة الاقتصادية في عصر فجر الإسلام.
195	الفصل الرابع: عصر الخلفاء الراشدين
196	1- فترة حكم أبو بكر الصديق وحروب الردة.
201	2- خلافة عمر بن الخطاب
205	3- مصرع الخليفة عمر

208	4- خلافة عثمان بن عفان
211	5- مصرع عثمان والفتنة الكبرى
214	6- خلافة الأمام علي بن أبي طالب
217	7- معركة صفين
223	8- مصرع الإمام علي ونهاية الخلافة الراشدة
226	9- وصية الإمام علي الى مالك الاشر:
229	الخاتمة: الخلاصة والاستنتاجات:
238	المصادر



## المقدمة

لاشك ان ماحدث في العراق من تغيير سياسي منذ نيسان 2003، افرز العديد من الحقائق والتساؤلات حول الاحداث والاوضاع التي اعقبت ذلك التغيير، والتي لم تكن في الحساب بتقدير المتفائلين على الاقل، ممن كانوا يعتقدون ولهم الحق في ذلك ان مجرد زوال النظام الدكتاتوري العدواني وبأي طريقة كانت، من شأنها ان تعيد البلاد الى وضعها الطبيعي اللائق بين دول العالم، لما تمتلكه من ثروات وامكانيات وطاقات في جميع النواحي. خاصة وأن العراق كان موطن اول الحضارات في العالم حيث بدأ التاريخ من سومر من خلال اكتشاف الكتابة، وبعد كل ذلك الظلم والقهر الذي تكبده، وعانى منه الشعب العراقي بمختلف فئاته وطوائفه وقومياته.

لكن واقع الحال كان غير ذلك المتوقع، وحصل ما لم يخطر ببال الكثيرين، فأن اعمال السلب والنهب والحرائق وتحطيم البنى التحتية للبلاد، وماتلاها من مسلسل القتل والاغتيال والدمار والاساليب الوحشية المتبعة في تنفيذ تلك الاعمال، قد اصبح امراً يفوق التفسيرات البسيطة التي يطلقها البعض، والتي تصب في مجملها بأن هناك اخطاء مورست من قبل الأميركيان والحلفاء والقوى الوطنية العراقية التي تولت زمام الامور، او وجود تدخل خارجي لأفضل مشروع الاصلاح، او مايعتقد البعض بوجود مايسمى بنظرية المؤامرة وغير ذلك من التفسيرات التي قد يكون قسم منها صحيحاً لحد ما وفي جوانب معينة، ولكنها لاترتقي للوصول الى الاسباب الحقيقية بعمق وتفسير فلسفي يأخذ جميع جوانب المشكلة بنظر الاعتبار

لاشك في ان هناك امثلة عديدة حصلت في مناطق اخرى من العالم من خلال حصول تغيرات مماثلة، ولكن ليست بالحدة والحجم الذي حصل في العراق ولايزال يعيش معنا يوماً رغم الخطوات التي تقدمت بها العملية السياسية لحد الان.

لذلك فقد دعت الحاجة للمزيد من الدراسات والبحث والتقصي العلمي الدقيق من اجل زيادة المعرفة عن طبيعة المجتمع العراقي، ومحاولة الاقتراب من فهم مايدور ببال الفرد العراقي والعربي، هذا الفهم

الذي يقود بالنتيجة الى معرفة الاسباب المؤثرة في سلوك الانسان الراقديني خاصة والانسان العربي عموماً. وباعتقادي ان اول ما يمكن البدء به هو العودة لتقليب صفحات الماضي ودراسة الموارث التاريخية المؤثرة، والتي تبعث موجاتها في عقل الانسان لتتحكم في سلوكه وتصرفاته وفهمه لما يدور حوله. ومن اجل ذلك لا بد من العودة لألقاء ضوء بسيط على الظروف والاحداث انهممة والمؤثرة التي مرت على البلاد والتي ألقت بضلالها في رسم سلوك وعادات ومفاهيم وخلفت ورائها مجتمع أسير لماضيهِ، لما لتلك الاحداث من اهمية في توارثها داخل العقل الباطن، تبرز وتتسط في سلوكه ونمط حياته كلما سنحت الفرصه لها بالظهور

ان دراسة الموارث التاريخية يعتبر احد الجوانب الهامة في فهم الانسان العراقي من جميع الاتجاهات والتي تهدف بالنتيجة الى وضع الخطط الاستراتيجية الناجحة من قبل المسؤولين ومن اجل الوصول بالبلد الى بر الامان والازدهار، وتعويض ما فاتنا من فرص العيش الرغيد، من خلال التسيير في ركب الحضارة الحديثة اسوة ببقية دول العالم، والذي اصبح عبارة عن قرية صغيرة لا يمكن الإنعزال عنها، او وضع حواجز من شأنها ان تبقينا نعيش في عصر متأخر غير العصر الذي نحن فيه الان. كما يحلم بعض المتشددین والمتعصبين في ذلك للأسف الشديد. وهنا تبرز اهمية العودة لتقليب الماضي من اجل فهم هؤلاء المتشددین ونظريتهم المقاومة للتغير، ويساعد في كيفية التعامل معهم بأقل خسارة.

لقد كان يظن الكثيرون ان منحصل في العراق في الماضي القريب هو مجرد نتيجة عرضية لأخطاء حصلت في الفترة القريبة الماضية، فقد قدر البعض ان الانتكاسة كانت قد بدعت منذ تسلم البعث للسلطة، بينما يذهب آخرون الى انها بدعت بالانقلابات العسكرية منذ عام 1958 وذهب آخرون الى انها بدعت منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة عام 1921 وقال آخرون انها بدعت بأول انقلاب عسكري ليكر صدقي عام 1936 في العهد الملكي، فيما ذهب آخرون الى ابعد من كل ذلك، اذ انهم قالوا ان السبب في ما نعاني منه يرجع الى بداية وضع الحجر الاساسي للدولة الاسلامية في القرن السابع الميلادي، وهكذا بدأنا نبتعد شيئاً فشيئاً في التوغل في الماضي من اجل اكتشاف الاسس الخاطئة التي قادتنا الى مانحن عليه الان.



ومن اجل الاجابة على السؤال الكبير وهو لماذا سبقونا؟! ولم يسبقنا الغرب فحسب بل سبقنا الغرب والشرق والشمال والجنوب والدول المحيطة بنا.

انه امر مؤسف ولكن لا بد من فهم الاسباب الحقيقية اولا، لكي يسهل وضع الحلول الناجحة والخروج من هذا الوضع المزري تماما.

ومن اجل معرفة المؤثرات الحقيقية لابد لنا من مراجعة تاريخية منذ بدأ الانسان في العيش في هذه المنطقة ومنذ ان نشأت اول حضارة كانت الأساس في حضارات البشريه جمعاء.

ان كل حقبة تاريخية تقودنا لتقليب حقبة ابعد من خلال تسلسل المواريث المؤثرة في نتائج ماحصل في كل مرحلة. لذلك توجب علينا مراجعة تاريخنا بأكمله.

وعلى الرغم من ان مثل هذه الدراسة تحتاج الى جهود كبيرة من قبل معاهد متخصصة لهذا الغرض، الا ان ذلك لا يمنع من محاولة الاقتراب من دراسة اولية للمواريث التاريخية ابتداءً من الحضارات القديمة. لذلك فقد تناول هذا الجزء من الكتاب الذي يشمل اربعة فصول متواضعة ومختصرة، الاول يخص المواريث التاريخية لحضارة وادي الرافدين القديمة بينما يشمل الفصل الثاني دراسة تاريخية متصلة لمنطقة الجزيرة العربية برمتها في عصر ما قبل الاسلام او ما يسمى بالعصر الجاهلي. كما يشمل الفصلان الثالث والرابع عصر فجر الاسلام، بدءاً بالدعوة النبوية الشريفة وعصر الخلفاء الراشدين، كجزء اول من كتاب سوف يحوي الاجزاء الاخرى منه على دراسة المواريث التاريخية للعصور التي تلت ذلك.

ولا يمكن اعتبار الكتاب من الكتب التاريخية الصرفة، رغم سردنا لبعض الاحداث التاريخية بشكل تفصيلي خاصة في الفصلين الثالث والرابع، لأنني ببساطة لست مؤرخاً، ولكن لا بد من الاعتماد على مصادر تاريخية موثوقة من اجل استنباط حقائق معينة تصب في خدمة الوصول الى فهم المواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا في الوقت الحاضر.

ان ماتم التطرق اليه من احداث تاريخية يمكن اعتبارها بمثابة مقطعات لعناوين تاريخية واسعة لاجال لتفصيلها هنا. وقد ركزنا بشكل خاص عن موروث العنف السياسي وترسيخ اشكال نظم الحكومات الشمولية ومنع الحريات وتأثير المعتقدات الدينية، بجانب المواريث

الاخرى التي تخص السلوك والنشاط الاجتماعي والاقتصادي وغيره. ومن اجل الوصول الى الحقيقة توخينا في طرحنا لبعض المواضيع الحساسة الموضوعية والصراحة، وما على القاريء الا ان يعود الى المصادر والمراجع المؤشرة للتأكد والاستدلال وللتوسع في استيعاب بعض المواضيع التي لم تأخذ حقها في الشرح المفصل لخفايا الاحداث التاريخية، والتي حاول بعض المؤرخون اخفائها او عدم الولوج في تفاصيلها. لقد كلفت هذه الدراسة جهداً كبيراً من خلال البحث والتقصي في العديد من المصادر التاريخية، وحاولنا صياغة بعض النتائج التي نأمل ان تنال اهتمام المختصين، وتفتح الشهية لهم للبدء في اغناء هذا الموضوع في زيادة التأليف والبحث للوصول الى فهم اوسع للإنسان العراقي والعربي عموماً.

ولابأس في نقد جميع ماوصلنا اليه بأسلوب موضوعي يصب بالنتيجة في الوصول الى الحقيقة، وبناء قاعدة معلومات تعيد النظر في الاحداث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر.

اننا لسنا وحدنا في العالم من يمر بأزمات ومحن عصبية فقد حصلت تجارب عالمية عديدة، قد تكون اكثر مرارة عما يجري عندنا، وقد تم التغلب عليها وتجاوزها، وذلك من خلال زيادة فهم المجتمعات لمشكلاتها من جميع الجوانب. لذا علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار كل تلك التجارب وان نفكر بعمق بعد قراءة كل المعطيات المتوفرة للوصول الى حلول بعد كل هذه المخاضة الصعبة التي يمر بها الشعب العراقي ولايزال يعاني منها نلى هذا اليوم، ولايد لنا من البدء في تعريف اهم المصطلحات التي نريد معالجتها في الدراسة لتحديد ماينهدف اليه عند اطلاقنا لكل مصطلح يرد وكما يلي: -

### الموروث التاريخي:

انه كل ما هو عالق في اذهان الناس من احداث مؤثرة بشكل ملحوظ وماتنتج عنها من افكار عبر فترات زمنية طويلة في تاريخ المجتمع الانساني، والتي قد تمتد الى تاريخ قديم جداً. اذ ان سلوك وعادات الانسان لما قبل ظهور التاريخ ( قبل الكتابة )، قد تكون مطبوعة في عقل الانسان والتي ترجع لممارسات كانت اعتيادية لديه، عندما كان يعيش في الكهوف والغابات. ولاتزال تمارس بشكل أو بآخر دون الانتباه الى جذورها

التاريخية ونشأتها الأولى بالتحديد. ان السلوك والعادات المطبوعة في عقل الإنسان منذ القدم تصبح جزءاً من كيانه الحالي، وتكون في الغالب محدده لسلوكه وطريقة تفكيره، وتعامله مع محيطه الحالي لحد كبير. ومن بين ذلك ما هو سلبي وإيجابي، وميهمنا هنا هو الموروث السلبي لدينا من أجل الوصول الى معالجته، واهم موروث سلبي لدينا هو موروث العنف السياسي.

### العنف السياسي: -

هو الوسيلة القسرية التي تفرض رأي أو حل أو موقف موحد. وهو يجسد التطرف الفكري والمثالية العقائدية في منطق " الاعتقاد الجازم" لكل طرف بأنه هو صاحب " الحق المطلق" دون غيره من الناس. وهو بهذا المعنى يقوم بإلغاء حق الغير أو الغاء وجوده كلياً. ويتراوح في مداه ما بين التعذيب النفسي بما في ذلك الوعيد والتهديد وأستخدام لغة الشتيمة وتحقير الغير. وبين التعذيب الجسدي بدءاً بالضرب ولغاية القتل بأشكاله المختلفة. وتعتمد درجة الميل نحو التنازع أو التعاون في اطار المجتمع الواحد على مدى تطوره الحضاري او بعبارة اخرى درجة تطور عقله، فإن نمو وتطور العقل البشري عبر التاريخ يأتي بالدرجه الاساس في تحديد سلوك ذلك المجتمع في كل مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة. ولا يمكن تجاهل حجم هذا التطور الناجم عن سلسلة المعطيات والظروف المحيطة بذلك المجتمع. أن درجة تطور العقل البشري هذه تعتمد على عوامل عديدة لامجال لذكرها هنا، الا أن المهم هو ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار درجة النضج الذي وصل اليها العقل البشري في كل حقبة تاريخية وفي كل مجتمع.

**صفة التنازع البشري:** تجد صفة التنازع بين البشر منطقتها في

ثلاثة امور...

**اولا:** الحاجات البشرية الانهائية.

**ثانيا:** الموارد البشرية المحدودة.

**ثالثا:** اختلاف العوامل الوراثية والبيئة المناخية المكونة لشخصية

الفرد والمجتمع.

من هنا تأتي اهمية دراسة الموروث التاريخي للمجتمع وبالذات لأنسان بلاد وادي الرافدين في لعب دوره الاساسي في سلوكه المتسم بالعنف السياسي المتأصل. لقد أصبح العنف السياسي هو السمة المتأصلة لدينا ان رضىنا أم ايينا. ولا بد من زيادة الفهم لتاريخ وجذور تلك الصفة

من أجل الوصول الى معالجات ناجحة. لقد اصبحت حالة العنف السياسي متميزة تجسدت بأعلى درجاتها في العراق عبر فترات زمنية طويلة كانت ابرزها فترة حكم الحزب الواحد والفرد الواحد الماضية، حيث كانت أعنف فترة مرت بكل تاريخ العراق القديم والحديث ومن أجل معرفة ذلك لابد لنا من عمل زيارة سريعة للتاريخ القديم والحديث. بقدر يكفي لزيادة فهمنا لظاهرة العنف السياسي في العراق اولاً، وتوفير وألقاء الضوء على سلوك وعادات وتقاليد إنسان وادي الرافدين القديمة ثانياً.

# **الفصل الأول**

## **تاريخ حضارة**

### **وادي الرافدين القديمة**

## الفصل الأول

### تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة

#### 1- المعالم الفنية: -

يقصد بالحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين تلك الفترة الممتدة منذ عصر فجر السلالات الثلاث قبل ان تبدأ من 3000 سنة ق.م وبعد عصور ما قبل التاريخ (أي ما قبل الكتابة) ولغاية سقوط بابل عام 480 ق.م تقريباً.

نتناول بأختصار الجوانب الفنية المؤثرة وذات المعالم الواضحة في موضوع بحثنا عن الموارد التاريخية لسكان المنطقة. لقد تركت حضارة وادي الرافدين أثارها على الحضارات البشرية اللاحقة والمعاصرة، فكان سكان وادي الرافدين من الاوائل الذين اكتشفوا الزراعة<sup>(1)</sup>، والكتابة، ووضعوا اسس الرياضيات وعلم الفلك وتوصلوا الى نظرية فيثاغورس الاغريقي قبل توصله اليها بعدد من السنين. وصنعوا الفخار وأدوات البناء، وكانت لديهم صناعة البرنز والذي سمي العصر بأسمه "العصر البرونزي" لما قدمه هذا المعدن من أدوات ومميزات خاصة في حياة الانسان مكنته في تذليل العديد من المعوقات التي كانت تواجهه قبل ذلك الاكتشاف. كما كانوا السباقين في اكتشاف واستخدام الخيول ومارسوا انفروسية، وبنوا أول مجتمع سياسي منظم (المدن السومرية والسامية والاكديية) والتي كانت تعرف بالدويلات السامية والسومرية الصغيرة والمتصارعة فيما بينهما في فترات زمنية معينة<sup>(2)</sup>. لقد كشفت الآثار التاريخية في كهوف المنطقة الشمالية الجبلية عن وجود الانسان القديم منذ زمن لا يقل عن 120 ألف سنة حيث كانت هناك كهوف في منطقة كردستان العراق تحوي أثاراً للإنسان القديم المتجول وغير المستقر في ذلك الحين. ومنذ أكثر من عشرة الاف سنة وبعد ان أخذ الانسان فن العيش في مناطق مكشوفة بدلا من الكهوف الضيقة، وبعد ان استطاع ان ينقل البشرية من عصر جمع القوت الى عصر انتاج القوت، واصبحت

(1) طه باقر<sup>33</sup> مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة<sup>34</sup>، بغداد، 1986، 32.

(2) طه باقر المصدر نفسه 195-197، 236-243.

كردستان العراق بؤرة الثورة الزراعية القديمة<sup>(1)</sup>، كما فعل ذلك قداما السومريين في الجنوب، ومع انتشار القرى الزراعية في بلاد وادي الرافدين.

لقد بدأ الأستيطان في الجنوب بحدود 5000 - 6000 سنة ق.م وبرزت جهود الاوائل ممن استوطنوا السهل الرسوبي بتحويل بيئة وحشية من الاهوار والمستنقعات والاحراش والبادية الجرداء الى بيئة زراعية مروية ومعتاء، بحيث ان هذه المنطقة شخصت في التوراة بجنة عدن، وذكر فيها النهرين التوأمين دجلة والفرات ضمن اربعة انهار تتبع في الجنة، وذلك من خلال ماكان يدور في ذهن الأنسان في ذلك العصر من مثالية العيش على ضفاف هذين النهرين<sup>(2)</sup> ولايد من الاشارة هنا الى ان اكتشاف حبة الشعير والقمح في بلاد وادي الرافدين كانت تعتبر طفرة كبيرة في حياة البشرية، لما لعبته من دور فعال في استقرار ذهن الانسان وتكوينه للمجتمعات المدنية الصغيرة التي تعرف بالمدن. ولما تشكلت تلك الحبة من قابلية على الخزن لمدة طويلة من الزمن دون الحاجة الى التنقل وترك مكان العيش يوميا الى مكانات اخرى بحثا عن لقمة العيش التي تحقق له البقاء والمحافظة على وجوده في هذه الدنيا، وبالتالي فقد استطاع الانسان من خلال ذلك الاكتشاف ان يستقر ويفكر بتنظيم حياته وحياة عائلته ومجتمعه البسيط ضمن الاسرة والعشيرة ثم تطورت بعدها الى القبيلة المكونة من عدد من العشائر وهكذا ليشكل المدينة. ان عملية التحضر والمدنية لم تأتي جزافا بل كانت نتيجة لتأمين الحاجة الاساسية للإنسان وهي الغذاء، والذي يستطيع من خلالها التفرغ للتفكير بالأمور الحضارية الاخرى بعد استقراره وشعوره بالأمان من خلال خزنه لمؤونة الغد. ولايد من الاشارة هنا ايضا الى حضارات اخرى نشأت في اجزاء اخرى من العالم فقد كان اكتشاف حبة القمح في مصر سببا لنشوء حضارة وادي النيل، وحبة الرز في الصين والذرة في مكانات اخرى وهكذا. وقد انتقلت وتمازجت الحضارات الانسانية القديمة في كافة ارجاء المعمورة بعد حصول الانسان على الاستقرار والأطمئنان على موارده

(1) جورج رو" العراق القديم" ترجمة حسين علوان حسين ناز الشؤون الثقافية العامة/ الطبعة الثانية بغداد، 1986، 29 تقي النباغ حضارة العراق، ج 1 30.

(2) وليد ويلكوكس" من جنة عدن الى عبور نهر الأردن" ترجمة محمد الهاشمي.

الغذائية أولاً. لقد برزت جهود الأوائل من السومريين في الزراعة والموارد الاساسية التي بنوا عليها حضارتهم في منطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات) من خلال توفير الماء والارض الخصبة والشمس وفي ظروف الأفتقار الى مواد الحضارة الأخرى من اخشاب واحجار ومعادن، والذي دعى الى الحاجة لنمو الأعمال التجارية التي استمرت اهميتها لتشكل مجالاً حيوياً مهماً لنمو الحضارة التي عرفت فيما بعد بحضارة وادي الرافدين القديمة.

لقد نشأت الحاجة الى الأخشاب وتطورت التجارة بين بلاد الرافدين ومنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط (سوريا، ولبنان وفلسطين حالياً) لتوفر الأخشاب لديهم وكانوا يبتدعون طرقاً عديدة في توصيل تلك الأخشاب الثقيلة إليهم ومبادلتها بمواد متوفرة لديهم.

كما نشأت وتطورت الحرف والصناعات بحكم نمو وأستقرار الإنسان في المدن بدلاً من السير والتجوال والخوف من الغد وتوفير وتأمين حصوله على قوته اليومي، كما كان يفعل الإنسان القديم غير المتحضر قبل اكتشافه الزراعة، وبالأخص زراعة الحبوب القابلة للخبز وعدم تعرضها الى التعفن والتلف لفترة طويلة من الزمن أو لموسم كامل على الأقل.

وكما يقول الأثريون أن المدينة لم تبدأ في التاريخ الا بعد ما اكتشف الانسان الزراعة. فقد كان الانسان قبل ذلك يلتقط القوت من الشجر او يقتنصه من على الأرض، وكان متجولاً لا يعرف الاستقرار.

أن زراعة الحبوب تحتاج الى تديير خطة وانتظار وأدخار. فالزراع يعمل في يومه ويأمل ان يحصد لغده. وهو مضطر أن يصلح الارض ويشق الترع ويحراث ويبذر ويروي ويحصد ويجمع ويخزن الحبوب في مكان آمن. وهو بالتالي يحتاج الى ان يفكر في الغد ويستعد لهذا الغد، وكذلك اصبح مضطراً لبناء المساكن ودراسة الفلك لكي يزرع بالمواسم الملائمة للزرع ويحصد في الوقت المناسب للحصاد وهكذا...

وقد بدأ في اختراع الكتابة فالزراعة تدعو الى الاستقرار في الارض والأستقرار يؤدي الى بناء بيت دائم، وهذا البيت يحتاج الى تسجيل حساباته المعقده لتلا ينساها، والى ضبط ديونه لتلا تتكرر، وهي تدفع الى مراقبة النجوم والشمس والقمر لكي يضبط بها مواسم البذر



والحصار وما الى ذلك<sup>(1)</sup>. وكل هذه الأمور تؤدي بالنتيجة الى دفع الانسان نحو أتقان العلوم والفنون بشتى انواعها وهكذا نجد ان السلسلة في بناء الحضارة في بلاد وادي الرافدين لم تكن بناءاً على رغبة الجماعة او لكي يكونوا متميزين عن غيرهم في مناطق اخرى، ولكي نقول عنهم بعد الاف السنين كم كانوا عظماء؟ ان خطوات نشوء الحضارة التي بدأت بالزراعة وتبعتها الحاجة الى المعرفة بالهندسة والحساب والفلك والحاجه الى التدوين والمحافظة على ما هو مكتوب بالفخار والتزجيج قد ساق الانسان خطوة اخرى الى الأمام نحو الفلسفة والتي تؤدي بدورها الى الشك والتساؤل والقلق. لقد استقر السومريون قبل حوالي 3500 سنة ق.م في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين<sup>(2)</sup> وكونوا لهم حضارة عريقة تعرف بالحضارة السومرية وكان اشهر ما فيها الكتابة المسمارية والفخار حيث كانت تكتب على صفتاح من الأطين الناعمة جداً، والتي كانت متوفرة في المنطقة الرسوبية الناجمة عن تراكم الأطين بعد ترسبها ايام الفيضان لندجلة والفرات، وكانت تستخدم طريقة في الحفر بألة حادة مثانة الشكل من الحجر الصلب عرفت الكتابة بأسمها وأطلق عليها اسم الكتابة المسمارية نسبة الى المثلث الحاد المستخدم في الأداء<sup>(3)</sup> ويفخر الطين بعد ذلك ليبقى الحفر عليه ثابتاً.

إن اكتشاف الكتابة لم تكن بين ليلة وضحاها بل مرت بأدوار عديدة وبمئات السنين فقد ظهرت في بادئ الأمر على هيئة صور رمزية ولا صوتية. ولقد سميت الحقبة التي شهدت ظهور الكتابة في مراحلها الأولى بـ "الدور الشبيه بالكتابي" وهو دور يتميز بكون الكتابة في أطوارها الأولى ومحدودية استعمالها وانتشارها، وقد أطلق المختصون بالمسماريات تعبير "النصوص البدائية" "Prim Archaic" على رقع الطين التي تعود إلى هذا الدور الممتد من 3000-2600 ق. م<sup>(4)</sup>.

لقد مرت الكتابة في هذا الدور (الشبيه بالكتابي) بثلاثة مراحل مهمة من التطور هي:

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي اترافدين" دار المدى للثقافة والنشر 2004 سوريا دمشق، ص 35.

(2) طه باقر" مقامة في تاريخ الحضارات القديمة" ص 236-241.

(3) عبد الوهاب حميد رشيد حضارة وادي الرافدين ص 112.

(4) فاضل عبد الواحد علي- العراق في التاريخ- الفصل التاسع ص 272

(1) الطور السوري: أي التعبير عن الشيء برسم الصورة المصغرة له.

(2) الطور الرمزي: أي استنباط معاني جانبية من صورة الأصل كاستخدام العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معانٍ ومشتقات كل ما هو مضيء منها مثلاً (لامع، ساطع، مشرق) وبالمثل التعبير عن كلمة يوم لأن شروق الشمس وغروبها يمثلان يوماً.

(3) الطور الصوتي: وفيه استخدمت العلامة ليس من أجل معناها الصوري أو الرمزي وإنما من أجل صوتها فقط. وبهذه الوسيلة أمكن كتابة أسماء الأعلام والأشياء على هيئة مقاطع صورتها. وقد صاحب هذه التغييرات في مدلول العلامات تغييرات في الشكل أيضاً. إذ أخذت العلامات تفقد شكلها الصوري بصورة تدريجية نتيجة عوامل عديدة لعل من أبرزها أن المادة المستعملة للكتابة، وهي الطين غير ملائمة لرسم صورة الأشياء، ولكنها ملائمة جداً لكتابة العلامات بشكل خطوط مستقيمة، وذلك بضغط رأس القلم قليلاً على وجه الرقيم. وبذلك صارت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة أفقية وعمودية ومن زوايا مائلة. كما أن القلم المثلث أعطى هذه الخطوط رؤوساً تشبه المسامير، ثم أن عدم توصل سكان بلاد وادي الرافدين إلى الكتابة الهجائية كان عاملاً معوقاً اضطرهم إلى استخدام أعداد كبيرة جداً من العلامات المسمارية. وقد بلغ عددها في العصور الأولى من تاريخ الكتابة ما يزيد على 3000 علامة، ولكنها لم تلبث أن اختزلت بمرور الزمن حتى أصبحت في نهاية عصر فجر السلالات الثاني (2600 ق.م) في حدود 800 علامة فقط. وقد انتشر الخط المسماري وصار وسيلة للتدوين في منطقة سومر وأكد وحتى خارج حدود بلاد الرافدين، مما أوجد روابط وثيقة في نقل كثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتائج الأدبية والثقافية، وكان أعظم إنجاز حضاري قدمته بلاد الرافدين في تاريخها القديم، أفادت منه شعوب الشرق الأدنى عموماً الذي كانت لديه أقدم وسائل

التدوين التي توصل إليها الإنسان للحفاظ على تاريخه وتراثه ومنجزاته.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن الخط المسماري في بلاد الرافدين قد استعمل في تدوين لغتين أساسيتين هما : (1) اللغة السومرية: وهي لغة ظلت محكية في بلاد سومر وأكد ثم استبدلت بعد سنة 2006 ق. م إلى اللغة البابلية التي كانت لغة الأموريين حكام البلاد الجدد. وأخذت السومرية بالاضمحلال تدريجياً كلغة محكية في المجتمع بعد هذا التاريخ. (2) اللغة الأكادية وفروعها البابلية والآشورية: وتمثل الفرع الشرقي من لغات الجزيرة في حين كانت الكنعانية والعبرانية والفنيقية والآرامية تمثل الفرع الغربي منها.

ويمكن الرجوع إلى المصادر المختصة في مجال نشأة اللغات للمزيد من المعلومات عن كيفية انتقال اللغة إلى بقية البلدان ومنها الأوروبية من خلال الانتقال بمراحل اللغة اللاتينية وهناك العديد من المفردات لا زالت متشابهة ما بين تلك اللغات. (انظر طه باقر- من تراثنا اللغوي القديم- كذلك لمحات من تراث حضارة وادي الرافدين في الحضارة اليونانية (1980)).

وهكذا تم معرفة الكثير عن التاريخ القديم من خلال تلك اللوحات المفخورة والتي تم العثور عليها ضمن الآثار المكتشفة، ومكنت من ثروة كبيرة في استعادة ومعرفة اصل الحضارة عبر القرون.

ان من بين تلك المعلومات كانت القوانين والمعارف السائدة في ذلك الحين ومن بين المعلومات ايضا قائمة بأسماء أصباغ واللوان ملابس كانت تستخدم للنساء مما يدل على انهم استخدموا تلك الألوان لصباغة ملابسهم، وهناك ادلة من خلال العثور على ملابس وأزياء كانت مدفونة من قبل الملوك الذين كانوا يدفنون مع حاجاتهم في تلك القبور، والتي بقي جزء يسير جداً منها ( والتي استخدمت بطريقة الصدفة من قبل ملوك الفرس والذين جاءوا للمنطقة بعد فترة طويلة من الزمن، كما ورد ذلك في اقوال هيروdotس\* احد اشهرالكتاب الرومان الذين دونوا الكثير عن ترحالهم القديم ). وهذا دليل واضح على انهم صنعوا الآلات الحياكة

\* هيروdotس- هو من مواليد إحدى المدن الساحلية على بحر إيجه الجنوبية في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) والتي كانت تابعة للبيزنطيين (الإغريق) وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد وهو من أشهر ما كتب عن التاريخ القديم ودون في رحلته لمنطقة الشرق الأوسط تعتبر من أشهر وأهم المصادر التاريخية لدى المؤرخين.

والخياطة واكتشفوا الاصباغ الثابتة من أصل نباتي وحيواني لملابسهم<sup>(1)</sup>. كما ان من بين تلك القبور التي عثر عليها والتي كانت تابعة للمملكة شبعات ( ملكة تميم ) في الجانب السوري حيث كانت تحوي على جميع الذهب والقلاند الحمراء البراقة والملابس الصوفية الملونة بالوان متعددة، مما يدل على انهم استخدموا الصوف والكتان للأغراض الملبسية قبل اكتشاف القطن. ومن الأمور التي تستحق الذكر هنا هو استخدام السومريين للصابون، فقد وجد في العراق وبالقرب من مدينة صغيرة كانت تعرف بأسم تيلو والتي تطورت بعدها في العصر البرونزي الى " مدينة لكش" لوحه مسمارية مفخورة يعود تاريخها الى ثلاثة الاف سنة ق.م تدل على استخدام السومريين للصابون. وتوجد هذه اللوحة الآن في المتحف التركي في اسطنبول. ان هذه اللوحة تعتبر من أقدم الأدله على حقيقة استخدام مادة الصابون. ومما يدل على انهم استخدموا الزيوت النباتية وخاصة زيت الزيتون وعرفوا مادة الصودا الكاوية المستخدمة في هذه الزيوت لأغراض صناعة الصابون كما تدل ايضا على أنهم استخدموا مادة الصابون لأغراض مختلفة منها تنظيف الملابس مما يدل على انهم اكتشفوا الوان ثابتة لملابسهم بحيث تمكنهم من غسلها دون ان تفقد من شكلها ورونقها بعد الغسل، وهذا يتطلب ايضا اكتشاف طرق في تثبيت تلك الألوان على الملابس وذلك باستخدام مواد كيميائية مساعدة لهذا الغرض.

لقد عرفت صناعة الصابون في بلاد الرافدين في حين لم تكن هناك دلائل واضحة لوجود مثل هذا الاستخدام في مناطق معروفة من العالم كاليونان.

فلا يوجد دليل على مثل هذا الاستخدام في حضارة الأغريق والرومان في تلك الفترة ولا بد لنا من ذكر اكتشافهم للألات الموسيقية كالقانون والقيثارة التي اشتهرت فيما بعد وتوجد لها آثار في العديد من المناطق العالمية مما يدل على عمق حضارة وادي الرافدين وقدمها في العديد من المجالات. وفي حوالي عام 2700 ق.م اصبحت القبائل النعمورية هي السائدة في تلك المنطقة والتي جعلت بابل عاصمة لها وكانت بابل مدينة صغيرة مطلة على نهر الفرات، والتي عرفت مملكتهم

(1) Bayer Farben Revue "Notes on the history of dyeing" No.8 (1965)

بالمملكة البابلية الأولى. وقد اتسعت بعد ذلك لتكون امبراطورية بابلية مشهورة لتشمل ضفتي كلا النهرين على يد الملك الكبير والمشهور بأسم حمورابي الذي عاش في الأعوام 1750-1792 ق.م<sup>(1)</sup>، ذلك الملك المشهور بمسلته المعروفة بكونها أشهر لائحة قانونية تشرع في التاريخ والمعروفة بمسلة حمورابي والمحافظة الآن في متحف اللوفر بباريس (النسخة الأصلية) ولا بد من الإشارة هنا الى انها ليست أول لائحة في التاريخ كما هو شائع، بل هناك لوائح اخرى قبله كما سيأتي ذكرها لاحقاً وجاء بعد ذلك اقوام اخرى كالكلدانيين والاموريين والاشوريين، والذين جاءوا من الشمال حيث كان عهداً اخرأ من عهود إقامة حضارة عريقة تلت الحضارة البابلية الأولى. بينما أقام الأشوريين امبراطوريتهم في شمال العراق وبسطوا سيطرتهم على منطقة الشرق الأدنى برمتها بما في ذلك الشام وفلسطين وجزءاً من مصر في بعض الأحيان وأقاموا حضارة عريقة<sup>(2)</sup>،

وكان أشهر ملوكهم هو آشور بانيبال والمعروف لدى الأغريق بأسم "ساردونابولس". ان أشهر ما قام به هذا الملك هو تأسيسه لأول مكتبة في العالم وفي التاريخ القديم، التي كانت منظمة على اسس رصينة. لقد احتوت هذه المكتبة على عدد من المنحوتات المسمارية المجمعة على رفوف منتظمة مع لائحة بالمحتويات وقائمة المراجع. ان هذه المجموعة من اللوائح الفخارية المكتوبة بالخط المسماري المتداول في لغة بلاد الرافدين تعد من اعظم ما حفظه التاريخ لنا من مادة مفيدة للإنسانية في العالم أجمع. لقد اكتشفت أكثر من 100.000 مخطوطة بعضها كان يعود في القدم الى 2000 سنة ق.م<sup>(3)</sup> ولا تزال الترجمات مستمرة الى يومنا هذا، لمجموعة من المخطوطات. لقد اشتهر الاشوريين ايضا بالثور المجنح، حيث كانت قصور ملوكهم تزين بالعديد من الثيران المجنحة الضخمة المنحوتة من الحجر الذي كان متوفراً في المنطقة وبأحجام كبيرة ايضاً،

بينما كان الكلدانيون وهم من الأقوام السامية في جنوب شرق بلاد الرافدين متحدين مع سكان منطقة الوسط وكان الساسانيين في الشرق ( بلاد فارس ) في صراع مع الاشوريين في الشمال، وقد تمت السيطرة

(1) طه باقر، مقدمة في التاريخ... 481-482.

(2) طه باقر، المصدر السابق.. 406-430.

(3) Bayer Farben Revue. المصدر السابق.

على نينوى (العاصمة) في عام 606 ق.م حيث احتوت مناطق اواسط الفرات والجنوب على امبراطورية بابل الثالثة وعاد البابليون الى مجدهم في حين بقي الشمال تحت حكم الاشوريين وملكهم ساكوريس<sup>(1)</sup>. لقد اصبحت امبراطورية بابل الثالثة ذات اهمية كبيرة جداً أيام حكم الملك المشهور " نبوخذ نصر الثاني" الذي اشتهر بالعنف للأعوام بين 605-562 ق.م واشتهر في برج بابل وبقيامه في حملات مشهورة ضد اليهود في فلسطين والمعروفة بالسبي البابلي وأسر منهم العديد، وجاء بهم الى بابل، وأستقر عدد منهم منذ ذلك الحين الى يومنا هذا بينما أعاد قسم منهم الى فلسطين على يد كورش احد ملوك الفرس (الأخمينيين) الذين استطاعوا احتلال بابل واجتياح المنطقة برمتها والى مصر. ومن ابرز ملامح الحضارة البابلية الباقية الى يومنا هذا هو طريق المعبد المؤدي الى قصر الملك الموجود حالياً في منطقة بابل. وكذلك باب عشتار والتي نقلت الى برلين ولا تزال موجودة هناك، وتعتبر دليلاً قاطعاً على مدى أنتشار استخدام التصاميم الملونة في ذلك العصر. ويتميز التصميم المعماري المستخدم لدى الامبراطورية البابلية الجديدة من خلال الاستخدامات الواسعة للألوان السيراميك المتنوعة في تزيين واجهات الأبنية الخارجية دليلاً على ماتوصل اليه القوم من فن في مجال صناعة الزجاج والسيراميك الملون. لقد ترك البابليين ارثاً ثقافياً وحضارياً واسعاً نقل الى مناطق عديدة من العالم لتنشأ حضارات أكثر غزارة وتطوراً عن سابقتها وكان من بينها الحضارة الأغريقية والرومانية أن من يتطلع في الآثار التاريخية لتلك الحضارات وحسب التدرج الزمني كما هو معروض في متاحف أثينا باليونان و متاحف روما وغيرها يجد بوضوح ان اسلوب النحت والأدوات المستخدمة كانت في البداية مشابهة تماماً لما هو عليه الحال في بلاد الرافدين وحصل ان تطورت الى منحوتات أكثر تعقيداً ودقة بمرور الزمن و كانت سلسلة واحده من عمل الجنس البشري الواحد. أن عمل الجنس البشري الموحد هذا لايمكن أن يتكامل ويبنى بناءً فوقياً دون ان يتدرج في هيكل بناء فوقي موحد ومستند واحداً على الأخر.

وهكذا سقطت بابل على يد كورش كما ذكرنا وهو قائد الامبراطورية الفارسية في الشرق وكان ذلك بحدود عام 480 ق.م<sup>(2)</sup> والذي استولى على كافة ارجاء منطقة الشرق الأدنى، وكانت سيطرة هذه

(1) عبد الروهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" دار المدى، 2004، ص 79.  
(2) فضل عبد الواحد علي" من أواح سومر الى الثورة" دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (2000)، ص 25.

الإمبراطورية قد استمرت الى القرن السابع الميلادي، اي إلى حد ظهور الإسلام وكان من بين أشهر ملوكهم سيروس وداريوس وكوركيوس وغيرهم. وكانت تلك الدولة في صراع دائم مع الأغريق، وقد جاء الإسكندر المقدوني الذي يعرف بالإسكندر الكبير ليسلك طريق الحرير نحو الشرق ليصل الى الهند، بعد أن أستكمل أحكامه على بلاد وادي النيل (مصر) وقد استطاع هذا القائد المشهور في التاريخ بقوته وجبروته ان يقهر الفرس وان يحتل المنطقة بأسرها في الفترة ما بين 323-356 ق.م. وقد اخذ الأغريق العديد من الغنائم من شتى انحاء الإمبراطورية الفارسية التي مروا بها وكان من بينها بابل التي لم تنجو من هذا الغزو ولكنهم استعادوا بعدها سيطرتهم عليها الا انها تقلصت هذه المرة لتشمل الجانب الشرقي من المنطقة فقط،

بينما بقي الجانب الغربي المطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط تحت السيطرة البيزنطية (الإغريق)، وبقيت المعارك الدائرة بين الفرس والإغريق لفترات طويلة تارة يندحر فيها الفرس واخرى يندحر فيها الإغريق الى الخلف الى ان ضعفت الإمبراطوريتان في القرن السابع الميلادي بعد ظهور الإسلام على الساحة العالمية.

وأخيراً نقول ان المعالم الفنية لحضارة وادي الرافدين تزخر بها العديد من متاحف التاريخ القديم العالمية والعراقية، يمكن الرجوع اليها والى المراجع التفصيلية التي لامجال لنا هنا من الخوض في تفاصيلها ومعرفة مفرداتها بدقه.

## 2- الحياة الاجتماعية والقوانين والأفكار في بلاد وادي الرافدين: -

لقد أوجدت الزراعة متسعاً من الوقت للإنسان لان يتأمل ويفكر وينظم حياته نحو الاحسن، وبالتالي فقد تطلب نمو المجتمع وتعدد الحياة الاجتماعية الى سن قوانين منظمة للعلاقات والتعاملات بين الناس، فشهدت الألفية الثانية قبل الميلاد صدور قوانين عدة سومرية وبابلية مثل قانون أور-نمو وقانون لبت-عشتار وقانون أشنونا وقبلها جميعاً اصلاحات أور-كاجينا والتي حرم فيها تعدد الزوجات وفرض عقوبة الرجم على المرأة المخالفة<sup>(1)</sup>... الخ وظلت هذه العقوبة سارية المفعول الى فترة زمنية ليست بالقصيرة، وأخيراً صدور شريعة حمورابي والتي سبقت قانون النبي موسى (عليه السلام) بعدة قرون ومنها الوصايا العشرة المعروفة عند المسيحيين ايضاً وكان بضمنها عقوبة الرد بالمثل ( العين بالعين والسن بالسن... الخ) وقطع يد السارق وغيرها من العقوبات التي كشفت موادها انتحال القانون العبري (اليهودي) للكثير منها، ولتعطي دليلاً اضافياً بأن جزءاً من التوراة المدون حالياً والمتداول الى يومنا هذا... ماهو الا صياغة معدلة من " ملحمة الخليقة البابلية" مع القوانين السومرية والبابلية الأخرى ومنها قانون حمورابي الذي مر ذكره والتي كانت سائدة في ذلك الحين في تلك المنطقة<sup>(2)</sup>.. وكما ورد في كتاب بوتيرو\*.

لقد أوجد السومريين وطبقوا نظرية الحق الالهي المقدس للملك الحاكم قبل ان يوجدها توماس هوبز "The Divine Right Of King" (1588-1679) Thomas Hobbs وهذا النظام الالهي يشكل أصل نظام الحكم في حضارة وادي الرافدين القائمة على الملكية الوراثية والتفويض

(1) سلكز، هاري" الحياة اليومية في العراق القديم (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الثقافة العاق، بغداد (2000) ص 167.  
\* جان بوتيرو" ولادة اله للتوراة والمؤرخ" ترجمة جهاد حواشر، عبد الهادي عباس دار الحصاد للنشر والتوزيع سوريا دمشق 1999.



الإلهي المقدس الذي نشره توماس هوبز<sup>(1)</sup>. ونظراً لأهمية الملك باعتباره مصدر رفاه شعبه وأن أي شر يلحقه يضر بالبلاد، وعليه تمت حمايته بمختلف الطقوس.

لقد كانت بلاد ما بين النهرين ومنذ أقدم العصور، ملتقى شعوب مختلفة. فما أن استقر بها السومريون وبدأوا فيها بناء حضارة زاهرة حتى اجتاحتهم جماعات الأموريين السامية الأصل. والتي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت بعد تنقلات عديدة، في بلاد ما بين النهرين حيث سيطرت على سومر والبلدان المجاورة لها. وقد أصبحت بابل البوذية التي انصهرت وتمازجت فيها الحضارات السومرية والسامية. وكان للساميين الفضل في إحلال لغتهم محل اللغة السومرية وهي أكثر منها طوعية ومرونة، فمكنت الفكر من الانطلاق خطوة إلى الأمام<sup>(2)</sup>.

لقد حدد ماسون أوسيل أثر بلاد الرافدين في الفكر العالمي وأرجعه إلى ما يلي:

1- نظرية الزمان المبنية على النظام الكوني وكثير من المعارف الناجمة عن رصد النجوم ومراقبة الأفلاك، وتقديس الشمس التي أصبحت أساساً للديانات الفلسفية الشمسية المنتشرة في سوريا ونجد والمتغلغلة في الفكر اليوناني القديم من جهة، ومن جهة أخرى في الفكر الهندي القديم عن طريق إيران المتصلة ببلاد الرافدين أيضاً.

2- الاعتقاد بالقضاء والقدر المسيطر على نظام الكون وعلى المصير الإنساني: وهذا القدر هو ناموس إلهي يسيّر كل كائن ويعين اتجاه تطوره، وقد أخذ اليونان هذه الفكرة

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" الديمقراطية والتحول الديمقراطي" السويد (2000) ص: 31.  
(2) حنا الفاخوري وخليل الجر "تاريخ الفلسفة العربية" ج1، دار الجيل بيروت (1993) ط3 ص21

وجعلوا منها "الكلمة المولدة"، كما أخذها الهنود فأصبحت عندهم "المرسوم الإلهي".

إن دراسة تطور الفكر الإنساني التي تعنى بالعلاقات الظاهرة والخفية التي تربط المظاهر المختلفة لهذا الفكر عند الشعوب تبدو لأول وهلة بعيدة كل البعد بعضها عن بعض، وما هي في الحقيقة، سوى اتجاهات مختلفة لمفاهيم أساسية تطورت في البيئات المختلفة، واتخذت أشكالاً خاصة وفقاً للظروف المعينة التي رافقت تطورها، والعناصر الجديدة التي دخلت عليها هنا وهناك. ولكن على الرغم من كل ذلك التطور والمساهمات الفكرية لبلاد ما بين النهرين لكن نمط التفكير الذي جاءت به حضارة وادي الرافدين لا مكان فيه متميزاً عن الدين.

وذلك لم يتمكنوا من وضع نظرية عميقة في الكون، ولم تتكون الفلسفة عندهم نظاماً من التفكير مستقلاً قائماً بذاته يكون نتاج العقل الخالص. وعلى الرغم من وصول بعض فرقهم ومفكرهم إلى نظرية ما في المعرفة كما أسلفنا إلا أن تلك المعرفة كانت محدودة تقوم على أساس الذوق والكشف لتلبية احتياجاتهم الأنية في تلك الحقبة من الزمن، ولا تستند على أساس العقل والمنطق، كما فعل اليونانيون أيام أفلاطون وأرسطو والذين بنوا قاعدة راسخة تمكن الأجيال القادمة من التواصل في إعلائها وبنائها، والبناء الثابت والرصين عليها.<sup>(1)</sup>

لقد بنى السومريون والأكديون والبابليون (سرجون/حمورابي) الدولة الوطنية الموحدة بعد أن كانت مدن مبعثرة وأهدوا للبشرية القوانين المنظمة الاجتماعية (شريعة حمورابي) والذي شكل القانون العبري بعد ذلك وأمتدت آثاره للحضارة المعاصرة، هذا بعد أن ولدت هذه الأرض أول حاكم مصلح في تاريخ البشرية إلا وهو الحاكم أوركاغينا (2400 ق.م) كما أوردناه وكتبوا أول الملاحم البطولية الحية وأعظمها وهي ملحمة كلكامش الشهيرة التي دونت بصيغتها البابلية قبل 2000 سنة

<sup>(1)</sup> محمد عبدالرحمن مرحب "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة. بيروت (2000) ج 1، ص 62

ق.م<sup>(1)</sup>. وأبتدعوا القصص على لسان الحيوانات قبل أيثوب الأغريقي بأكثر من ألف عام وأسسوا نظاماً شاملاً للدين شكل أساس الديانات الرئيسية في العالم وعلموا البشرية العظلة الاسبوعية (السبت البابلي)، الذي تمسك به اليهود لتصبح جزءاً من ديانتهم وطقوسهم يقسونها الى يومنا هذا. وما كلمة السبات والثبات وغيرها من المفردات العربية ألا مشتقات من كلمة السبت البابلي الذي حرم فيه العمل من قبل البابليين اولاً وأعتبروه بمثابة الراحة التي يجب ان يتمتع بها الإنسان الذي يعمل طيلة أيام الأسبوع الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن تقسيم الأيام إلى سبعة أيام في الإسبوع والاشهر الى ثلاثين يوماً في الشهر والتي عشر شهراً في السنة وحتى اليوم الى 24 ساعة ما هي إلا تقاسيم سومرية أو رافدينية في الأصل. وتركوا أول كتاب مقدس (ملحمة الخليقة البابلية) لديانة عالمية شكلت مصدراً رئيسياً للديانة اليهودية وديانات الشرق المختلفة. فهناك العديد من القصص والأساطير في هذه الملحمة مشابهة لما جاء في التوراة القديم وبالذات مع قصص اسفار التكوين والطوفان وايوب وغيرها كما أن هناك تشابه كبير في الطقوس والماراسيم الدينية مع العديد من ديانات الشرق عموماً كالبودية والهندوسية والكمفوشية والزرانشتية والمانوية والتي جاءت بعدها أو أن تكون متمازجة فيما بينها وأخذت بعضها من بعض من خلال اختلاط الحضارات القديمة.

لقد قام مجتمع بلاد الرافدين اساساً على طبقتين رأسييتين لامجال للمقارنة بينهما هما الأحرار والعبيد، ضمت الأحرار فئات وشرائح عديدة منها الطبقة الحاكمة والمنتفعة، ومنها الطبقة المحكومة (عامّة الناس) وكان هذا هو التقسيم الاجتماعي الذي ينظم علاقات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية منذ بداية تكوين التجمعات السكانية المدنية المتحضرة والتي جاءت كمرحلة متقدمة عن مرحلة شيوعية الإنسان البدائي الذي كان يعيش منفرداً في الكهوف. وقد جسد كلاً من القصر والمعبد، مركز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني لمجتمع وادي الرافدين، فالملك نائب (ممثل) الآله في حكم ارضه ومخلوقاته، والكاهن والعالم والمفسر لأرادة الآله والوسيط بينه وبين الناس شكلاً معاً مصدر السلطة والأمتيازات (الحقوق).

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" (المصدر السابق): ص: 167.

لقد كانت تلك السلطة أكثر تسلطاً مما هو معهود لها في عصرنا ضمن مفهوم الدكتاتورية المتداول. وكلما اقتربت العلاقة من القصر و المعبد، كلما زاد الاقتراب من الحاكم وازدادت السلطة والامتيازات وكلما ابتعدت باتجاه عامة الناس زادت التبعات الى حدود السخرة والعبودية. (من هنا لا بد لنا ان نتذكر نظام صدام حسين المقبور ذو الطابع العشائري والذي كان قائماً على اساس السلطة والنفوذ وبالتدرج حسب نسبة القرابة من القصر والمتمثل بعشيرته وأقاربه والحلقات المحيطة به بالتدرج حسب مدى القرابه منه، ومايعتقده من درجة الأخلاص له، وكما كان سائداً منذ اقدم العصور).

أن النظام الاجتماعي السائد في بلاد الرافدين كان نظام الأسرة الأبويه، فالأب هو رأس الأسرة وشأنه في ذلك شأن الملك في مملكته<sup>(1)</sup>. وهو مسؤول عن اعالة أسرته وله الحق في بيع او رهن أحد أو كل افراد أسرته. وتصل العقوبة بالأبن العاق الى العبودية.

وكان ضرب الزوجة عادة بابلية تقرها القوانين البابلية والأشورية ايضاً، وأولوية التفضيل في الأنجاب للذكور والرغبة عند الأب جامحة ان يكون الطفل الأول ذكراً - والأبن البكر- الوريث الشرعي وحامل اسم الأب وشجرة العائلة وكان يرنو الى هذا الأمل العظيم الأب الملك والأب الفلاح على حد سواء.

كما تماثلت نسبياً عادات الزواج والطلاق والتبني والأرث والوصايا والعلاقات الجنسية مع الكثير من القيم السائدة في المجتمع الشرق أوسطي لحد الآن.

فمثلاً ان تقليد التحجب بالنسبة للمرأة قد مورس من قبل الأشوريين للتمييز بين النساء السيدات والنساء العبيد. وكذلك شاع الزواج الأحادي مع امكانية اتخاذ زوجة شرعية ثانية، علاوة على الخطبة اذا ماتممكن له ذلك من خلال قدرته المالية ونفوذه في المجتمع<sup>(2)</sup>. ان جوانب عديدة من حياة المواطن العادي الاجتماعية في ربوع بلاد الرافدين، قد بقيت كما هي تقريباً منذ اربعة آلاف سنة ولحد الآن دون ان يطرأ عليها تغيير جذري اما البيت البابلي والذي كان قلعة وأستقرار الرجل، فقد كان يماثل

(1) عبد الوهاب حميد رشيد ( المصدر السابق): ص 135.

(2) سناكر، هنري المصدر السابق ص: 13.

البيوت الشرقية الموجودة في يومنا هذا (القديمة والمنقرضة في بعض محلات بغداد القديمة)، والمكونة من: الحوش والتتور وصفوف الغرف لتحقيق مطلبين هما الاستقلال (العزلة عن الخارج) لاسيما فيما يخص عدم انكشاف نسائه على الخارج اولا والوقاية من حرارة الشمس المحرقة في الصيف ثانياً<sup>(1)</sup>.

### 3- صعوبات الحياة في بلاد وادي الرافدين:-

عُرِفَت منطقة وادي الرافدين ومنطقة الأهوار جنوب العراق والتي كان يقطنها السومريون الأوائل في قديم الزمان بصعوبة الحياة بسبب حرارة الجو الخائقة وشدة تطرف نهري دجلة والفرات من حيث وقت فيضانها في مواسم غير مناسبة للزراعة، وقوتها المدمرة، علاوة على الجهود الضخمة التي تطلبتها أعمال تجفيف الأراضي، وكذلك نسبة الملوحة الناجمة عن تجفيف تلك الأراضي، حيث ان التبخر السريع للمياه بعد الفيضان او حتى بعد هطول أمطار غزيرة في بعض السنين، فأن ارتفاع المياه الجوفية والمحتوية على نسبة عالية من الأملاح تصعد الى السطح لتغطي كافة الأراضي بالأملاح البلورية البيضاء التي تمنع الزراعة في العديد من المناطق وعلى وجه الخصوص في الجنوب من العراق<sup>(2)</sup>. وهذا يقلل من كفاءة الأراضي المحيطة بالأنهار من حيث الناتج الزراعي ويؤدي الى هجرة المزارعين الى أراضي اخرى أقل ملوحة. ومن هنا بذل سكان بلاد الرافدين جهوداً شاقه لترويض هذه البيئة القاسية وأنعكست آثار هذا الصراع البشري مع الطبيعة في ظهور أول المجتمعات السياسية من خلال بذل تلك الجهود في تحويل بيئة وحشية عنيفة من الأهوار والمستنقعات والأحراش الى بيئة معطاء. يقول طه باقر (استاذ تاريخ العراق القديم) بهذا الخصوص مايلي " لايسع المرء المتتبع لتاريخ هذه الحضارة الا ان يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهري دجلة والفرات وهي من اشد انهار العالم عفاً". ويذكر جاكنتا هاوكس<sup>(3)</sup> في كتابه ( الحضارة ): ( ان الزائر لمنطقة سومر، مهد الحضارة، في الصيف، حيث لم يتبدل المناخ منذ الألف الرابع ق.م قد يصاب بالدهشة والرعب بسبب صعوبة العمل في ظل الحرارة الخائقة)، كما قال كيفن يونغ في كتابه المشهور

(1) سلك، ماري المصدر السابق: 204-205.

(2) طه باقر " مقمة في تاريخ الحضارات القديمة من: 26.

(3) "3" p-23 Jacqnetta Hawkes London (1971) " First Great Civilization"

عودة الى الأهورا"<sup>(1)</sup>: ( تشكلت هذه الحضارة العظيمة في ظروف غير ملائمة على حافة الأهورا - وحتى في وسطها - حيث تصل درجة الحرارة في الصيف الى 120 درجة فهرنهايت (50 درجة مئوية) مصحوبة برطوبة كثيفة تجعل التنفس فضلاً عن العمل البدني، أمراً صعباً بل وفي غاية الصعوبة). ان الاختلاف المتضاد لهذه البيئة الطبيعية بين الهدوء والانتظام، وبين العنف والتدمير له انعكاساته على مواصفات ومقومات تلك الحضارة من الناحية الفنية والدينية والأدبية والسياسية والاجتماعية. ان الأفكار والمعتقدات تتأثر بالتأكيد من المحيط البيئي للإنسان بشكل كبير، وكما جاء في النظرية الماركسية وفي فلسفة العالم الألماني الشهير هيكل في القرن التاسع عشر الميلادي، بأن الأفكار والنظريات التي ينتجها الإنسان ماهي الا انعكاساً للظروف والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين البشر في كافة المراحل التاريخية. وبالتالي فإن الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي ندرسها حالياً ماهي الا بناءً فوقياً ونتاجاً للظروف والأحوال المعيشية التي يعيشها ويعاني منها المجتمع خلال مراحل حياته التاريخية وهكذا نجد ان الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي نشأت في بلاد وادي الرافدين ماهي الا انعكاساً لتلك البيئة القاسية الظالمة بما فيها من حرارة الشمس وخطورة فيضانات الأنهر.

#### 4- تطور العقيدة الدينية في حضارة وادي الرافدين :-

أن الاختلاف المتضاد في البيئة الطبيعية بين العنف والتدمير الحاصل نتيجة الفيضانات المدمرة لجدلة والقرات وفروعها الأخرى قديماً قد انعكست بنفس المواصفات تقريباً في المقومات الحضارية لبلاد وادي الرافدين حيث تحققت عملية خلق الكون (حسب عقيدتهم الدينية) من خلال صراع طويل وحرب رهيبه في السماء بين عدد كبير من الآلهة التي كانت تعمل في الظلام وقبل خلق الإنسان والشمس والأرض وغيرها (2). ان البيئة القاسية وآثارها المدمرة في الفيضانات كانت عاملاً مهماً في تدمير تلك الحضارة التي نشأت فيها اولاً. لقد ساهمت تلك الظروف في زوال وتحجيم تلك الحضارة للحد الذي عجزت عن تقدمها وأزدهارها ونموها بشكل تسلسل تدريجي منسجم مع تطور الحضارات العالمية

(1) كيف يونغ "العودة الى الأهورا" ترجمة حسن الجنبلي دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الأولى دمشق 1998، عن طه باقر ( المصدر السابق) من: 35.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد "حضارة وادي الرافدين" 88.

الأخرى وبالذات حضارة الغرب المتميزة والتي نعيش في كنفها الآن، رغم قدم حضارة وادي الرافدين. لقد تجسدت حصيلة الفيضانات المدمرة والملوحة القاتلة للزرع وتحول مجرى النهرين في واحدة من نتائجها الخطيرة في ظاهرة متكررة، في ترك مناطق الأستيطان القديمة والانتقال الى أرض جديدة لشق وبناء مشاريع ري جديدة، وبما رتبها هذه الظاهرة من التأثير باتجاه عدم الأستقرار السكاني والسياسي كما شكلت عوامل كمنت فيها جذور الحرب الأهلية والوحدة السياسية على حد سواء. ويعتقد ان هذين الخطرين (الملوحة والفيضانات) هما سر ذلك التناؤم المتواصل الذي يميز فلسفة سكان بلاد الرافدين القدماء. وبالعلاقة مع الواقع يعد وادي الرافدين أرضاً مفتوحة على الخارج، مما يؤدي الى تعرضها الى هجمات الأقوام الكثيرة من مناطق وأرجاء متعددة حولها والى غزوات عنيفة وأختلاط السكان مع أناس يختلفون في الطباع والعادات ومايتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين الاجتماعي - السياسي، وبروز ذلك في أختلاف سير تلك الحضارة، وعدم تمكنها من الخروج الى أطار أوسع في التطور، كما هو عليه الحال في حضارات لمناطق أخرى من العالم. ونستشهد بذلك مايقوله لي أوينهايم في كتابه الشهير عن "بلاد ما بين النهرين" بما يلي: " - اننا نعرف بأن جميع مدن ما بين النهرين الكبيرة والصغيرة قد دمرت لمرات عديدة بواسطة الحروب"<sup>(1)</sup> ويذكر التاريخ تفصيلاً عن تلك الحوادث والحروب المدمرة التي أدت الى أنقراض مدن بأكملها وحضارات لم يبق منها سوى الأثار المكتشفة حديثاً، ولولا المعاويل والقزمات والتي بدعت في القرن التاسع عشر الميلادي للتقيب عن آثارنا ماكان لنا لنعرف شيء عن تلك الأقوام وعن أصولنا وماضيها الا النزر اليسير. ومن الأمور التي لايمكن تجاوزها بهدف فهم جذور العنف السياسي في العراق هي دراسة العقيدة الدينية

(1) لي أوينهايم "بلاد ما بين النهرين" ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والاعلام بغداد، (1981) 272.

لبلاد وادي الرافدين، هذه الدراسة التي تعتبر جزءاً من دراسة حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي لا تزال تعيش معنا بهذا القدر أو ذاك ضمن معتقداتنا الدينية وسلوكنا وقيمنا الاجتماعية على الرغم من مرور أكثر من خمسة الألف عام على نشوء تلك الحضارة، والتي كانت من أنضج الحضارات في ذلك الحين أي قبل ثلاث الاف سنة قبل الميلاد، لقد نشأت تلك الحضارة وماتت في أحضان الدين، ذلك ان القوم عاشوا في الدين كما يعيش السمك في الماء يزودهم بالأوكسجين الروحي والفكري، وهكذا شكل الدين وعاء الحضارة لبلاد وادي الرافدين وروح المجتمع. وفي هذا المجال نستشهد بقول جورج روو الذي قال<sup>(1)</sup> "لم يلعب الدين دوراً كبيراً بمثل ما لعبه في أي مجتمع قديم بالمقارنة مع بلاد وادي الرافدين لأن الإنسان في هذه البلاد كان يشعر على الدوام بأنه يعتمد كلياً في استمراره بالوجود على إرادة الآلهة". وهذه الآلهة التي تجسدت في العوامل الطبيعية ذاتها (حسب عقيدتهم) بكل مواصفاتها، من خير وشر كان يواجهها الإنسان يومياً في حقله وعمله وحياته الاجتماعية. وأرتباطاً بكثرة الظواهر الطبيعية - الكونية، كثرت آلهة سكان بلاد الرافدين، فحسب العلاقة مع عقيدتهم بوجود قوى خفية في مختلف الظواهر الطبيعية، الكونية - فمثلاً أن ظهور الشمس كل صباح وأختفاءها في المساء وظهور القمر في ليالي بشكل متكامل والكواكب والنجوم والسماء والأرض والهواء والأمطار والأنهار والمياه والنباتات بل حتى الخمر والشعير قد جسدت لكل هذه الأمور آلهة معينة.

وشبه القوم تلك الآلهة بالبشر فخلعوا عليها جميع الصفات البشرية، فهي حسب معتقداتهم تأكل وتشرب وتتزوج وتفرح وتحزن وتمرض وتحب وتكره وتغضب وتحقد وتنمو وتنقم وتتخاصم وتتحارب وتجرح وحتى تموت أحياناً، وتذهب الى العالم الأسفل أي تشبه الآلهة بالبشر في هينتها العامة وحواسها وعلاقتها الاجتماعية وسلوكها وكافة تصرفاتها، عدا أفرادها عن البشر بالخلود والقدرة الخارقة.

(1) جورج روو المصدر السابق 128.



وباختصار كانت الآلهة تمثل افضل الجوانب البشرية وأسوأها موضوعة في ميزان ما فوق بشري (خارق). وتبعاً لذلك، صورت الآلهة بأنها تعيش كما يعيش البشر في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط محددة، وعلى رأس هذا المجتمع رئيس الآلهة (الملك - او الأب) يساعده في ادارة شؤون مجمع الآلهة وهو عدد من الآلهة الكبار. وان المجتمع البشري عبارة عن نسخة مطابقة للمجتمع الألهي السماوي، وان مايقع من احداث في السماء كانت في اعتقادهم تقابلها أحداث مماثلة في الأرض. فقد كان الاعتقاد السائد في ذلك الحين بالنسبة لتفسيرهم للكوارث الطبيعية على سبيل المثال، بأن هناك معركة كبيرة قد حصلت في السماء بين مجموعة من الآلهة المتخاصمة ادت بالنتيجة الى غضب بعضها على الأخر وانعكست في الأرض بهيئة كوارث طبيعية كالفيضان أو الحريق أو الجراد أو الأمراض السارية أو الزلازل... الخ. والاكثر من كل هذا هو الموت الذي كان يدعو الإنسان في كل مناطق العالم بالتمسك بالمعتقدات الدينية.

وهناك تفاصيل دقيقة عن تطور وتبلور تلك المعتقدات في ذلك الزمان من خلال ترجمات العديد من المخطوطات القديمة باللغة السومرية أو البابلية الى لغاتنا نجدها في كتب التاريخ القديم لامجال في الولوج بها هنا<sup>(1)</sup>. والمهم أن الإنسان في مجتمع تلك الحضارة كان معتمداً على الآلهة اعتماداً كلياً في عقله وعمله وحياته وزراعته، فعند حصول القحط مثلاً كان الملك الأشوري يكتب بنفسه الى نوابه من الحكام، ليقيموا مع الكهنة والناس الصلاة للآلهة من أجل انزال المطر. وهذا يذكرنا بما هو معمول الآن بصلاة الأستسقاء عند الأسلام<sup>(2)</sup>.

لقد كان القوم في بلاد الرافدين يعتقدون أن رضى الآلهة عنهم يجلب لهم المطر وكل مايتفون، وكانوا بذلك يؤدون الصلاة بأمانة وصدق لأنها تشكل حلقة الصلة بينهم وبين الآلهة لكي تستجيب لهم مايطلبونه في الأرض. والآلهة حسب معتقدهم عبارة عن قوة خارقة خالدة وهي بالتالي مصدراً لكل شيء ومحرك لكل الأحداث التي يعيشونها وتدور حولهم. وهكذا تبلورت لديهم فكرة ان تلك القوى الخارقة تتجسد في القدرة على الخلق، وتقوم على النطق بالكلمة، فعندما يقول الإله لشيء ما "كن"

(1) خزعل المالجدي "الدين السومري" دار الشرق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، عمان (1998).

(2) عبد الروهاب حميد رشيد (المصدر السابق) 93.

فيكون. وهنا يذكر كريمير في كتاب "عالم السومريات"<sup>(1)</sup>: ان فلاسفتنا السومريون طوروا مبدءاً صار فيما بعد عقيدة في كافة انحاء الشرق الأدنى، وهذه العقيدة قائمة على مبدأ القوة الخارقة والمسئولة عن الخلق والكامنة في الكلمة الألهية. فكل ما على الآلة الخالق ان يفعله وفقاً لهذا المبدأ هو أن يضع خططه، وينطق بالكلمة "كن" ويعلن الأسم الذي يريده في خلق جميع ماحولنا وفي خلق الإنسان نفسه بكلمة واحدة. كما تتجسد القوة الألهية في القدرة على تحديد هيئة المخلوق وصفاته الجسدية والروحية، اي تعيين جوهره وقواه البننية والعقلية وسلوكه من خير وشر وفي القدرة على رسم مصير المخلوق مسبقاً (النصيب والقضاء والقدر)، أي يوم وولادة المولود، فترة حياته، طبيعة الأحداث اليومية التي ستواجهه مكانته الاجتماعية والوظيفية والمالية والصحية وفي القدرة على منح المخلوق وسائل يستطيع من خلالها تنظيم مجتمعه وبناء حضارته (النواميس الألهية)، والتي قيل انها بحدود مائة ناموس، تتقدمها الملوكية والتاج والصولجان، بالإضافة الى عدد من المهن والقيم الأخلاقية الطبيعية والسينة وتمكينه من معرفة ارادة الآلهة وفق علامات كونية طبيعية وبشرية وحيوانية تتطلب الفحص والتفسير وبقراءة الطالع والتنبؤ (الفال) والسحر. ويمكن استخلاص الكثير من الطوالع من ولادة الكائنات الحية وغيرها من الظواهر الطبيعية والبشرية - الحيوانية - فالتشوه الخلقى عند الإنسان المولود أو الحيوان (حيث لم يكن وارداً في عقيدة بلاد الرافدين ان تمنع الآلهة ولادة اطفال معوقين أو مشوهين). والتصدع في بيت وهو في طور البناء كل ذلك وغيره عبارة عن طوالع سيئة لعلها بالآلهة. وهناك ما لا يحصى من الظواهر والحركات الغريزية وحتى الصرخات وحركات المجى والرواح للحيوانات والطيور الداجنة والبرية فضلاً عن حركات النجوم والكواكب ومظاهر الكون الأخرى، والتي كانت محل دراسة الكهنة الذين كانوا مختصين ويسكنون المعابد التي شيدت من أجلهم. في ذلك الزمان، وما تزال اثارها باقية دون غيرها من الأبنية الأخرى، وهذا يدل على درجة تمسك القوم بأمور الكهنة ومنزلتهم الرفيعة لديهم. أن من يقرأ " ملحمة الخليفة البابلية" والتي جاءت من أصول سومرية قبلهم يعرف جيداً حكاية الخليفة وسر التكوين لدى البابليين، حيث

(1) خزعل الماجدي "متون سومر"، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998) ص 257.

تحكي قصة وقوع حرب رهيبية طويلة جداً وقعت بين جيل الآلهة الحديثة (الأبناء) من القوى الخيرة وبين قوى الشر من جيل الآلهة القديمة (الأباء) وبعد انتصار القوى الخيرة على قوى الشر خلقت الآلهة الحديثة الأرض والسماء والشمس والقمر والكواكب والهواء والعواصف والأمطار والمياه والموارد، ثم قررت ان تخلق الإنسان من التراب ودم اله شرير (او من التراب والماء في بعض الأساطير القديمة الأخرى) ليكون هذا الإنسان عبداً للآلهة، يقوم على طاعتها ويعمل في أراضيها ويزودها بمتطلباتها من النذور والقرايين ليكسب رضاء آلهته ويحقق الصحة والنجاح والمركز الاجتماعي وطول العمر ويحتفظ باستمرار بالآلهه و بالآله الحامي (الملاك الحامي الرمز) معه، والمسئول عن حمايته ضد الأخطار المحدقة به طيلة فترة حياته، والأفاته سيثور ويغضب وينتقم اذا عصاه وبالتالي قد يتخلى عنه الهه الحامي ويكون عرضة لهجوم الشياطين والعفاريت المنتشرة حوله في كل مكان وتسبب له الكوارث والأمراض والقحط وقصر العمر... الخ. من هنا ورثنا اصل القرايين ونحر الذبائح في العديد من المناسبات الى يومنا هذا استمراراً للتقليد المتبع لدى أقوام بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابليين والأشوريين وغيرهم) لقد كان البابليين يبالغون كثيراً في نحر الذبائح يومياً ويقدمونها الى رموز الآلهة المنحوتة لديهم لتعود فتأكلها الكهنة في الليل دون علم الرعية من العامة بذلك الأمر. لقد آمن سكان بلاد الرافدين القدماء بوجود الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة فعلى سبيل المثال هناك اسطورة جاءت في النص السومري" أن سبعة آلهه شريرة (مجموعة من العفاريت) شقت طريقها نحو قبة السماء وتجمعت غاضبة حول هلال آله القمر" وفي هذا النص كانت الآلهة تتعامل مع المعضلة ولكن للناس دورهم حين يحدث الخسوف وذلك بالمساعدة على طرد تلك العفاريت التي سببت الخسوف اذ يتم نصب نوع من الطبله (النقارة) في ساحة المعبد ويتم قرعها والنداء بصوت عال لفق القمر من محنته وهذه العادات ظلت تمارس لدى الناس حتى بعد أن أكتشف البابليون سبب الخسوف من خلال تقدمهم في علم الفلك وأستطاعوا حساب الكسوف والخسوف بدقة الا ان ممارسة سلوك ديني معين لفترة طويلة من الزمن يصبح من الصعب جداً تغييره حتى وأن أنتفت الحاجة اليه وهكذا أستمرت ممارسة دق الطبول في ليالي خسوف القمر مطبقة الى حد أوائل القرن العشرين في العديد من المدن

والقصبات والأحياء الشعبية العراقية، عندما كان النساء والأطفال يهرعون الى السطوح عند خسوف القمر ومعهم ما كان متاحاً من أدوات المطبخ النحاسية وغيرها يضربون بعضها ببعض ليحدثوا أصواتاً عالية من أجل تخويف المغاريت وطردها وتحرير القمر منها<sup>(\*)</sup>. ومن الحقائق التي أدركها القوم في ذلك الحين هي حتمية الموت على الإنسان وأستحالة نياله الخلود، وأن التفتيش عن الخلود لايد ان يأتي من خلال العمل كما جاء في ملحمة كلكامش الشهيرة، والتي تتركز بالدرجة الأساس على أن سر الوجود للإنسان يكمن في عمله بعرق جبينه. وكان في ذلك حكمة عالية للقوم اذا ما أدركوها فعلاً. وقد اختلفت في ذلك المفهوم عن حضارة وادي النيل العظيمة، والتي انشغل أهلها وفلاسفتها كثيراً في تفسير الموت، وكان اعتقادهم السائد بالنسبة للملوك على الأقل بأن الموت للإنسان قد ينقله الى العالم الآخر ليعود بعدها بنفس الهيئة، وبالتالي عليه ان يهيا كافة مستلزمات العودة مما يحتاجه في الحياة الثانية من أكل وشرب وأدوات مطبخ وخدم وغير ذلك، وقد أنشغلوا كثيراً بالتحنيط وفن تحنيط الجثث بعد موتها مباشرة، وكان بناء الأهرام هدفاً لأبقاء تلك الجثث بكامل حيويتها، من خلال مرور تيار قوي يحدثه البناء العالي والفتحات الهوائية الجانبية التي تحدث تياراً هوائياً قوياً، ومن خلال مرور ذلك التيار على حوض من الزيت والمواد الكيميائية الخاصة بالمحافظة على البروتين المكون لجسم الإنسان لأكثر فترة زمنية ممكنة، وقد نجحوا في ذلك بشكل مذهل جداً، ولا تزال الأهرام محط أعجاب الأمم والأجيال العديدة. أن عملية بناء الأهرام من قبل المصريين القدماء لم يكن امراً اعتباطياً أو انهم بنوا ذلك لكي نقول عنهم بعد الألف السنين بأنهم كانوا عظام بما فيه الكفاية بل أنهم كانوا منشغلين جداً في التفكير بالموت ومبدأ العودة الى الحياة ثانياً، وكيفية المحافظة على الأجسام بعد موتها لكي تبقى الى ان تعود ثانياً حسب اعتقادهم. بينما أدرك ملوك بلاد الرافدين القمامة حتمية الموت على الإنسان وأستحالة نياله الخلود. فالألهة

\* ونذكر البسته البخداية المعروفة الى عهد قريب لدينا ومحتواها ياحوتة يا لمحتوتة هدي كمرنا العالي وانكن ما تهنينا أضربك بالمسكنة الخ لقد عاصرنا تلك الطقوس أيام الصغر. ونعود هنا لنذكر بأن هناك العديد من التقاليد والعادات الموروثة تمارس الى يومنا هذا كتدت قد جاءت اليها من أصل تاريخي قديم يعود الى عصر السومريين والبابليين والآشوريين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين منذ آلاف السنين.

جعلت الموت من نصيب الإنسان منذ بدأ الخليقة بينما أستأثرت لنفسها هي بالحياة الأزلية الخالدة. وعند الموت (انقطاع آخر نفس للإنسان) تخرج روحه لتذهب الى العالم الأسفل - عالم الأموات وعالم اللاروجة - بينما يعود جسمه الى التراب، وفي هذا العالم المظلم الذي يلفه الغبار والتراب، ويعدم فيه الهواء والضوء لاتجد أرواح الموتى ما تعيش عليه سوى مايقدم لها من نور وقرابين. وإذا لم يتذكرهم أحد من أهلهم وأقاربهم فسوف يردون الى الأرض على هيئة أشباح مؤنية للإنسان العايش والذي لايزال محيطًا حول الأموات. وهكذا يحدث الشئ نفسه عند عدم دفن الميت أو عدم أداء الطقوس الدينية أثناء الدفن وبعده من صلوات وذبح قرابين. ووفق هذه العقيدة يصبح الإنسان بعد الموت في عقلية بلاد الرافدين القديمة أقل شأنًا مما كان عليه رغم ضالته وتفاهته في الحياة الدنيا. وعليه لا وجود لمفهوم الثواب والعقاب في الآخرة حسب عقيدتهم لحد تلك الفترة الزمنية من تاريخهم القديم (وسوف نأتي الى كيفية تطور العقلية الدينية في مكان آخر من الكتاب على كيفية نشوء فكرة الثواب والعقاب لما يقوم به الإنسان من أعمال في دنياه ويتلقى القرار بالثواب أو العقاب في الحياة الثانية في فصل آخر من هذا البحث). لقد كانت الآلهة في بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابليين على وجه الخصوص) آلهة حسودة وطاغية لأبعد الحدود، حيث انها خلقت الإنسان لخدمتها فقط، وليس هناك مايسمى ثوابًا للإنسان لما يفعله من خير وعطاء لأجل خدمة تلك الآلهة. ولكن بالمقابل يوجد هناك عقاب فقط اذا لم يقم بواجباته كاملة أتجاهها.

ومن خلال هذا الاعتقاد نستنتج أن القوم اعتقدوا بأن الإنسان مركب من عنصرين أولهما حسي مادي منظور وهو الجسد، وثانيهما غير منظور وهو الروح والتي أطلق عليها السومريون كلمة "كدم"<sup>1</sup> (GIDM) كما صور القوم روح الميت على هيئة مخلوق بجناحين من الريش. وقد تصور السومريين ايضاً بأن الروح تتجسد في دم الإنسان فقط وتسري في جميع انحاء جسده، وعندما يتوقف الدم عن الجريان، هذا يعني أن الروح قد انفصلت عن جسده وبالتالي برد جسمه ولم يعد له أي حركة. وهكذا حرموا منذ ذلك الوقت تناول شرب الدم لما تتجسد فيه من روح قد تكون شريرة، وتنتقل لشاربه ليتمثل فيه كل الشر أو يساق الى

(1) طه بقر "مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، كلية الآداب، دار الحرية للطباعة بغداد (1976).

الهاوية، بينما لم يكن ذلك مطبقاً لدى اقوام أخرى في أفريقيا مثلاً، وربما يفسر هذا اعتقادهم في قدرة هذه الأرواح على التنقل السريع، فقد أخذ العرب في عصر الجاهلية هذا المفهوم وصوروا روح الميت على هيئة طائر أطلقوا عليه اسم (الهامة). وحين تعود هذه الروح لشخص مقتول مثلاً يهيم الطائر (روح المقتول)، في حالة عدم أخذ ثأره من قاتله، وهو ينق (أسقوني، أسقوني) <sup>(1)</sup> وهنا يكمن اصل الثأر القبلي عند عرب الجاهلية انطلاقاً من هذا المعتقد كأحد العوامل المؤثرة والفعالة في عملية أخذ الثأر للمقتول. ولاتزال آثار هذا الاعتقاد تشكل أحد العوامل المؤثرة في التمسك بأخذ الثأر لدى العشائر العربية الى يومنا هذا مما يعطي دليلاً آخر على تأثير المواريث التاريخية في سلوكنا وعاداتنا الحاضرة، والتي لا بد من زيادة الفهم والمعرفة عن جذورها لكي نستطيع بالتالي من إيجاد السبل والوسائل الكفيلة بمعالجتها بالطرق الناجحة.

لقد تميزت الحضارة السومرية منذ نشأتها في عصر فجر السلالات القديمة بالعلاقة مع خصائصها السياسية بالظهور على أساس عدة دول ومدن حضارية مستقلة عن بعضها البعض ولكل منها حدودها وأسوارها وأسرتها الحاكمة والاهها الحامي (الوطني) ونظمها وقوانينها. وقد شكلت دول المدن السومرية هذه أولى الأنظمة السياسية المعروفة كما ذكرنا سابقاً، وكان ذلك ما يصطلح عليه بـ (دولة المدينة). وكان ذلك العصر يدعى بعصر القضاة حيث كان الأمر والنهي في النزاعات التي تحصل داخل تلك الوحدة المحددة من التجمع السكاني البسيط يحل من قبل شخص واحد مختار من هو أقوى وأكفاً وأكبر سناً من بقية الناس في المدينة. وبالعلاقة مع عقيدتهم الدينية في ذلك الحين، فإن ما يحدث في السماء يقع في الأرض بمقدار مناسب ومشابه كما ذكرنا سابقاً. لذلك فإن الآلهة خلقت البشر لخدمتها وطاقعتها وأن المدينة بما فيها من أرض وموارد ومحاصيل زراعية هي (ملك) الآلهة الحامي، وأنه أختار من بينهم حاكماً لتمثيله في الأرض وتنفيذ أوامره وتعظيمه، وبعد أن ازداد التجمع السكاني في المدن وازداد الاقتراب بين المدن بعضها لبعض ازدادت الحاجة لأختيار ملك على عدد من تلك المدن، لكي تستطيع من الدفاع عن المنطقة برمتها

(1) تامل حنون عقائد ما بعد الموت في حضارة وني الرافدين (1986) 110-111 بشأن مفهوم الثأر لدى عرب الجزيرة هاشم 18، عبد الوهاب حميد رشيد المصدر نفسه 92.

وبالتالي لأرضاء الآلهة في أديانها الجماعي. وهكذا برز عصر الملوك المتمثل بنفوذ الملك وسطوته على مدن ومساحات أوسع من القضاة. وقد كانت من أولويات واجبات الملك قيادة شعبه لرفع شأنه ومنزله أمام الآلهة الحامي (الوطني) ذلك لأن هذا الآلهة الحامي سيرتفع شأنه أمام مجمع الآلهة السماوية وسيمم الخير على الجميع من خلال هذا التقرب والنصر الذي يحرضه القوم على أعدائهم. وهذا يجسد بالتالي رفع شأن مدينته أو مدنها ورفع منزلتهم بين الملوك. كما أن نظام الملوكية في بلاد الرافدين قام أصلاً على أساس ديني وأن العلاقة بين الملك والآلهة الحامي تتمثل في أن انتصار الحاكم في الحرب يعزز دور الآلهة ومنزلتهم ورضائهم عن مدينته، ومن هنا يلاحظ مثلاً أن الملوك الآشوريين الأقوياء الذين بسطوا سيطرتهم على إمبراطورية شاسعة من نهر النيل إلى بحر قزوين في الشرق من أمثال آشوربانيبال لا يعتبرون أنفسهم أكثر من عبيد متواضعين يسعون لأرضاء آلهتهم "آشور" وهنا ربما كان أحد المبررات الرئيسية ذات الجذور الدينية العميقة لظهور نزاعات وصرعات (عنف) بين دول المدن المختلفة، والتي استمرت بصورة متصاعدة في مراحل لاحقة من حضارة بلاد الرافدين سواء أكان هذا الصراع ناجماً عن الدفاع عن أرض الآلهة من الهجمات المعادية أم بهدف توسيع أرض الآلهة الحامي من خلال الفتوحات العسكرية. وعامل التبرير للحملات العسكرية الدامية هذا لا ينفي بطبيعة الحال الدوافع الاقتصادية ورائها بقدر ما يمنحها زخماً إضافياً أكبر كترجمة عملية لهذا الصراع. ولاشك أن كل عمل عسكري يحتاج إلى فكر ومعتقد قوي يستطيع أن يعطي للمقاتل معنوية وزخم قتالي عالي، وهكذا نجد أن فكرة الآلهة الحامي إنما استغلّت لصالح الملوك كمحصلة نهائية. من هنا أيضاً تبده المنافسة والتناحر بين المدن وأنظمتها السياسية القائمة التي نشأت على العقيدة الدينية بهدف الاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر المياه وطرق التجارة الموصلة إلى المواد الأولية وبقية الموارد، ولاسيما أن أبتلاع مدينة لأخرى كان يعكس حسب عقيدة القوم، أحداثاً مرادفة في السماء، ومن هنا أيضاً صار النظام الألهي المقدس (النظام الملكي) الأقل استقراراً في بلاد الرافدين بسبب كثرة الحروب والنزاعات على الموارد المحدودة، خاصة وأن تزايد السكان السريع يجعل من عملية توزيع الموارد المحدودة تلك، ليس بالأمر الهين مما ينشأ عنها نزاعات وحروب، إلى درجة كان يطلق عليها بعض المؤرخين بأن

ماكان يحدث في بلاد الرافدين عبارة عن حرب اهلية مستديمة بين المدن الصغيرة تلك. كما أن العقيدة الدينية لأنسان بلاد الرافدين في ذلك الحين قد رسمت اشكالا معينة من التصرفات والممارسات من أجل ارضاءالآلهة وأخرى لاترضي الآلهة وتكون عرضة لجلب غضب وأنقام الآلهة على القوم باكمله، وبالتالي فقد حرص القوم على ارضائها لتحاشي غضبها المؤدي بالنتيجة الى انزال الشرور والأمراض بهم أن لم يفعلوا ذلك. وهكذا أصبح المعتقد الديني وبالا على القوم وجلب لهم الماسي دون أن يشعروا بذلك. وكما أنهم حرصوا على تقديم القرابين لأرواح موتاهم لأعتقادهم بأنها تحقق الراحة والأستقرار لروح الميت في العالم الأسفل، وأهتموا كذلك بالمراسيم والطقوس الدينية الخاصة بدفن موتاهم لكي يمنعوا خروج روح الميت عليهم بهينة شبح مخيف يلحق الأذى بالناس جميعا، وهكذا بقي الأنسان في ذلك العصر يعيش في خوف دائم من الهاجس الألهي الجائر وآلهة غير مبالية بهم، وبملاحظة أنتصار الشر على الخير دوما، وبالتالي أستمرت حياة التشاؤم وأصبحت تلك النظرة سائدة من خلال الأعتقاد بأن حياة الأنسان ليست ذات جدوى أن لم تكن تافهة نظرا للصعوبات التي كان يعاني منها الأنسان من حر شديد وكوارث طبيعية لم يكن ليهتدي بعد إلى حلها أو فهم أسبابها الحقيقية. أن الأعتقاد السائد في ذلك الحين بأن ارتكاب ذنب معين أو خطيئه تتجم عنها أضرار جسيمة سواء على المدينة التي يقترف اهلها الذنوب أم على الشخص المذنب، فالآله الشخصي قد يتخلى عنه ولايدافع عنه فيما بعد ولايحميه من المخاطر المحيطة به، وبالتالي يصبح عرضة لهجمات الشياطين والعفاريت، وكذلك حال المدينة المذنبه إذا تخلى آلهتها الحامية لها عنها، فأنها تصبح مقفوحة أمام الأعداء وعرضة لأشكال المصائب والويلات والخراب بمعنى ان زوال المدينة (الدولة) والتي تساوي القرية في عصرنا الحاضر يقع على عاتق أهلها ممن تخلوا عن واجباتهم تجاه آله المدينة فهجروهم آلهتهم وتركوها أمام الأعداء لتدميرها. وهكذا كان الأعتقاد السائد بأن مدنا باكملها قد دمرت بسبب عدم رضاءالآلهة عن اهلها، وهناك العديد من القصص المذكورة في كتبهم المقدسة تعطي مثلا على ذلك وهناك قصص مشابهة في التوراة و العهد القديم في سفر النبي لوط مثلا. لقد ولدت تلك المعتقدات وما أرتبط بها من هاجس الموت والبؤس والحرمان والمرض والحزن وهموم الحياة العامة، عناصر الكتابة



والقلق والخوف والتشاؤم وعدم الأطمئنان وغياب الأستقرار النفسي والمعيشي. هذه الظروف أحاطت بأنسان بلاد الرافدين خاصة عندما كان يشعر بضعف ادائه لواجباته والتزاماته أتجاه الآلهة. وكان يتلقى بنفس الوقت الضربات والمصائب التي لا يستحقها أصلاً وبدون أن يعي أسبابها بدقة. ولم يكن التشاؤم لدى أنسان وادي الرافدين حالة عرضية لليأس بل كان ميتافيزيقي الأصل في تفكيره غيبياً بشكل مطلق كمنت جذورة في الآلهة ذاتها التي تجسدت في عناصر الطبيعة والكون وحملت ذاتها عناصر الخير والشر وأصبحت مصدراً للحياة والكوارث معاً فالأنهار والرياح والأمطار مثلاً، وهي الجالبة للخير والحياة يمكن ان تتحول مرة واحدة الى قوى شر مدمرة تهلك الزرع والأنسان والحيوان، وبمواجهة هذه الظواهر الطبيعية (الالهية) القاسية، وجد القوم انفسهم بلا حول ولا قوة، ولفهم القلق الشديد أزاء ترقبهم لغد غير مضمون تجاة حصيلة جهودهم وحياتهم الغير مستقرة، فكانت حياة الأنسان وعائلته ونتاج حقله وماشيته ومستويات الأنهار والفيضانات وتوالي الفصول المختلفة وحتى الكون ذاته تحت رحمة القضاء والقدر على الدوام وكان لاحول ولاقوة للأنسان، الا أن يطلب المغفرة من الآلهة على ذنوب لم يرتكبها أصلاً. فأذا بقي البشر أحياء، واذا عادت الحياة الى الحقول بعد لهيب الصيف وأذا استمر القمر والشمس والنجوم والكواكب في حركتها، فإن كل هذا يتحقق بأرادة الآلهة التي تقر مصائرهم ومصائر الكون المحيط بهم سنوياً. ولهذا السبب كانت تجري عندهم احتفالات هائلة سنوياً وفي العديد من المدن، ففي بابل بالذات كان يجري في مطلع كل ربيع احتفالات تشمل تلاوة ملحمة الخليفة، وأعادة تثبيت الملوك، وتتوج أخيراً بأجتماع الآلهة الذين يقضون في المصائر (للسنة الثانية) وعندئذ فقط يصبح بوسع الملك العودة الى مقره والفلاح الى حقله والحرفي الى ورشته وهكذا<sup>(1)</sup>

(1) ساكنز ماري المصدر نفسه 227-228.

لقد استمرت الاحتفالات السنوية في مطلع كل ربيع وامتدت في أرجاء واسعة ولا ندري من أخذ من الآخر هذا التقليد الذي أصبح ما يعرف بعيد نوروز عيد الربيع في الحادي والعشرين من آذار في كل عام وتمسك الإيرانيون والأكراد والعرب في جنوب العراق بهذه الأعياد الى يومنا هذا، ولحد فترة قريبة كثت الاحتفالات الربيعية بالعيد الذي يعرف أحياناً بدورة السنة وقد يطلق عليه العلامة بنفس الكلمة باللغة الفارسية (سن رة بدر) حيث يخرج الناس الى البساتين والأرياف ويمتلون الأكلات الخاصة ويشعلون الشموع احتفالاً بتلك العيد الذي كان أصلاً في بابل لتجديد العهد بين الناس والآلهة باعادة الحياة والخير للجمع في السنة المقبلة وأنه حقا تقليد تاريخي ينبغي الاحتفاظ به كذكرى تاريخية مهمة.

كذلك يستعيد سكان بلاد الرافدين ثقتهم بما حولهم وبأماكن العالم كله أن يستمر بالوجود بإرادة الآلهة المسترضاة لعام آخر أيضاً. وكانت تلك المراسيم السنوية تجري بمثابة الحجيج عندهم. إذ كانت فكرة الحج المطبقة في العديد من الأديان في الشرق تنطلق أساساً من فكرة تأسيس عقد ولاء وتراضى بين الإنسان والآلهة الحامي والمسؤول عن رعاية ما يدور حوله من ظواهر طبيعية وكونية (ولا تزال إحدى الطوائف العراقية العريقة في القدم وهم الصائبة يحتفلون إلى يومنا هذا بعيد الخليفة في شهر أذار من كل عام أحياءاً لتلك الذكرى) ولكن هناك اختلافات من حيث درجة التشاؤم والفرح التي يتصف بها كل دين وحسب طبيعة المنطقة ودرجة عطاها وظروفها، ففي المقارنة بين أنسان وادي الرافدين وأنسان وادي النيل المصري هناك فرق ملحوظ على نحو ما يقول جورج روو وكذلك جورج كونتينو والذي ورد ذكره سابقاً حيث قال "إذا كانت حياة البابلي شاققة مثل حياة المصري فأنها لم تستطع أن تحطم بشأسته الطبيعية ومرحه أثناء عمله اليومي، غير أن انسان بلاد الرافدين كان غريباً عن الضحك، ويبدو أنه لم يتعلم كيف يلهو"<sup>(1)</sup> <sup>(2)</sup> وفي مثل هذه العقيدة التي جعلت الإنسان في مرتبة العبد على أفضل افتراض، خضع أنسان بلاد الرافدين في عقله وجسده وحياته إلى ثلاثة أشكال من القوى المسيطرة عليه سيطرة لامجال للتخلص منها: - الأولى: هي خضوعه لقرارات القدر التي لا تُرد ماتقررها الآلهة وهي التي تحدد الخطوط العريضة والتفصيلية لحياته، والثانية: هي الخضوع لسلطة مطلقة يمارسها الملك باعتباره نائباً للآلهة في أرضه وأن طاعته وتلبية احتياجاته امراً محتوماً لامجال من الأفلات منها. والثالثة: وهي خضوعه لوهم هجوم القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به من كل جانب، والتي تترقب الفرصة لمهاجمته في كل لحظة، ولامجال لأنكار الأخيرة لأنها ملموسة وحاصلة فعلا في الظروف القاسية التي كان يعيشها أنسان بلاد الرافدين في ذلك العصر. وهكذا قادت هذه العوامل الثلاثة المسيطرة على عقل أنسان بلاد الرافدين (الآلهة، الملك، الشياطين) إلى خضوعه، وبالتالي خضوع عقلية القوم للغيبيات، متضمنة

(1) جورج روو "العراق القديم" الطبعة الثانية (مترجم) بغداد (1977) 27.

(2) طه باقر "مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة" بغداد (1989) 36.

مسلمات دينية وطقوس سحرية متداخلة معها. ولا بد لنا أن نستشهد هنا بما جاء به جورج كونتينو في هذا الصدد" لقد كانت الآلهة العنيفون المسارعون للغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية والتي كانت تخص كل عمل من أعمال الحياة الدنيوية في شبكة من التزامات خالية من الرحمة. من أمثال تصوير العالم وهو مأهول بالعفاريات والآتة (جمع تنين وهو الحيوان الخرافي الذي تصوره البابليين كرمز لقوة الشر) التي تطارد فرانسها الطبيعية المعادية لها. وحياة في الأخرة أكثر شقاءً من الحياة الأرضية<sup>(1)</sup> ذلك الفرع هو الانطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين في ذلك العصر والذي كان لا يرحم، والذي كان بالنسبة لسكان بابل لا يدينون به فحسب بل أصبحوا أسرى له وأصبحت تلك المعتقدات مصدر شقاتهم وتعاستهم. وهكذا كان على أنسان بلاد الرافدين دوماً سواء ارتكب خطيئة بقصد أو دون قصد أو حتى لم يرتكب أي خطيئة أصلاً عليه أن يتوجه أثناء التزاماته الدينية اليومية (الصلاة مثلاً) نحو الآلهة طالباً المغفرة من ذنوب ربما لم يرتكبها أصلاً، وكان يتلو الصلاة والتعاويذ للعديد من المرات يومياً بل تتعدى ذلك إلى طوال وقته أحياناً سواء كانت في الليل أو النهار حسب طبيعة الإنسان ودرجة مخاوفه وشدة اعتقاده بالآلهة. وكان التكرار في العبادات التي يتلوها يومياً تزيد من درجة أطمئنانه بالنجاة من المصائب المحيطة به. ولا بد لنا أن نذكر هنا إحدى التعاويذ السومرية المعروفة والتي كان يتلوها السومري التائب وحسب ماجاءت في المصدر السابق وكما يلي " أيها الآلهة أن أخطائي وأسأتي كثيرة جداً وأن البشر خرس لا يعرفون شيئاً وأن الإنسان مهما بلغ مركزه فهو لا يعرف شيئاً؟ سواء أتى اثماً أم خيراً فإنه لا يعرف شيء". ومن مفارقات الأمور أن مثل هذه التلاوة الموجودة في كتابهم المقدس مثل " ملحمة الخليفة البابلية" وغيرها مكررة في عدد من الكتب المقدسة التي كانت منتشرة في الشرق، وفي ذلك الحين وما بعده مثل كتاب الزرادشت لدى الأكراد والفرس في ذلك الوقت، وما بعده في كتب دينية معروفة.

مما يدل على أن تلك المفاهيم والقيم هي الأكثر ملائمة وتقبلاً لعقول الناس ضمن معطيات المرحلة وطبيعة ماتقدمه الأرض من خيارات

(1) جورج كونتينو " الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور 500.

وكوارث طبيعية في آن واحد في منطقة الشرق الأدنى برمتها. لقد تضمنت ملحمة الخليقة البابلية مضامين فلسفية واسعة، إذ وضعت الخلق، ليس باعتباره بداية التكوين بل نهايته، وليس عملاً غير مبرر حيث قررت الآلهة ولم يكن من قرار اله واحد، بل كانت نتيجة معركة كونية هائلة بين وجهي الطبيعة "الخير والشر" "النظام والفضو" وكشفت بين أمور أخرى وجوب خدمة البشر للآلهة، وشرحت سبب تواجد عنصر الشر لدى البشر المخلوقين من دم اله شرير كما اسلفنا. يقول جورج روو بهذا الصدد مايلي " اذا كانت قصيدة (حينما في العلى... الخ ) قد بقيت تتلى من قبل الكهنة في بابل كل عام، ففي اليوم الرابع من الاحتفالات للسنة الجديدة طوال الف سنة تقريباً، كان يشعر البابليين فيه بأن القتال الكوني لم ينته تماماً وإلى الأبد وأن قوى الشر والفضو لاتزال مستعدة على الدوام لتهديد ومنازلة النظام الكائن المستديم للآلهة الخيرة. وكان اعتقاد نهاية العالم يشكل أحد المخاوف الكبيرة التي جعلت أنسان بلاد الرافدين يعيش في قلق مستمر من توقعات حصول الكارثة الكبرى أكثر من غيره من الناس في مناطق بعيدة أخرى، وبينما كان أنسان بلاد الرافدين هدفاً مستمراً لهجمات الشياطين والعمالقة (الجن) في كل لحظة متوقعة كان عليه اتباع ماكشفه طوالعه والعمل على تحريك تلك السينة منها، وهذا قد يتطلب منه تعديل حياته سواء بالعلاقة مع عمله ورزقه أو عائلته وعلاقاته الاجتماعية وغيرها<sup>(1)</sup>. من هنا أصبح أنسان بلاد الرافدين ضحية أو هام وخرافات، تائهاً منقاداً لتصورات الأخطار (الخرافات) الشديدة التي يتخبط فيها، وكان عليه دوماً أن يكشف طالعه ويميز بين الخير والشر تجنباً للمصير المؤلم الذي ينتظره كل يوم وكل لحظة ولكن في مقابل ذلك كان المجتمع السومري أبعد ما يكون عن البدائية، بل كانت حياته الاجتماعية في المدن السومرية راقية بالمقارنة مع المناطق الأخرى في ذلك الحين. وقد سادت حياته التنظيم المتكامل وعرف الشعب السومري بأنه كان صارماً في عمله وجهدة وذا عقلية (بيروقراطية) ترك الألاف من السجلات والقوائم والعقود وخلف حضارة معطاء مفتوحة. ويقول جورج كريمر في كتابه "التاريخ بيد من سومر" {كان السومريون يتمسكون بالطيبة والصدق، وبالقانون والنظام، وبالعدل والحرية،

(1) لي لويندهلم "بلاد ما بين النهرين" (المصدر السابق نفسه) 339.

وبالاستقامة والصراحة، وبالرحمة والشفقة، وكانوا يمتنون الشر والكذب والفوضى والأضطراب، والظلم والقهر والأفعال الآثمة والأذى والقسوة وعدم الشعور<sup>(1)</sup>. وهكذا بقيت مشكلة العنف في العراق ممتدة خلال الحقب التاريخية التي تلت ذلك في إطار بيئة اجتماعية تقوم على الوجدانية والغيبية، السرية المطلقة والعنف، هذه البيئة التي ولدت في أحضان الحضارة السومرية في بادئ الأمر، تلتها حضارة البابليين والآشوريين وغيرهم من الأقوام الذين أستوطنوا في تلك المنطقة أو بالقرب منها، وأستمرت المراحل التالية بما تخللتها من غزوات. ولا بد لنا قبل التطرق الى تلك المراحل باختصار أن نناقش ماورد من أفكار ومفاهيم موروثه تاريخياً في عقول الناس في بلاد الرافدين، لم نكن نعرف عنها شيئاً الا بعد أن تمكن المستشرقين الأجانب (الأوربيين على وجه الخصوص) من التنقيب والحفر بين الأتربة والصخور للتفتيش عن ماكان يدور في ذهن الأقدمين من أفكار كانت في عقلنا الباطن ولم نكن نعرف منشأها وأصلها دون الرجوع إليها. أن التصفح في طيات التاريخ يمهّد لنا السبيل لزيادة الفهم عن أمور عديدة، وسلوك وعادات نهج التعامل معها وفهم جذورها. أن ماورد من أفكار ومعتقدات كانت سائدة في الماضي في بلاد الرافدين قد شكلت أساساً لكل الأفكار والمعتقدات التي تلتها. وبالتالي لا بد لنا من مناقشة انعكاس تلك المعتقدات والأصول الدينية على الواقع الحالي لأنسان بلاد الرافدين قبل الانتقال الى مرحلة اخرى لأغناء مايستحقه الموضوع من مناقشة ولكن قبل ذلك لا بد لنا من نقل بعض الأساطير والقصص والملاحم التي خلفتها حضارة وادي الرافدين لكي تكتمل الصورة عن أصول الفكر الديني في الحضارات القديمة.

## 5- أساطير خلق الكون – الانسان لحضارة وادي الرافدين:

علنا نقترب أكثر لفهم الانسان الرافديني القديم من خلال قراءة الاساطير والملاحم المدونة منذ الألف السنين والمترجمة الى لغتنا الحاضرة عن طريق المصادر المتخصصة. والأسطورة هي القصة الخيالية التي تعبر عن تصورات الاقوام في البيئة البدائية وتدون من قبل الكهنة لتسود في الاعتقاد لأغلبية السكان ولفترة زمنية طويلة. إن الاساطير تعبر عن المرحلة الزمنية من تطور العقل البشري وعن الأدوات والالات المستخدمة والعلاقات الاجتماعية

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر نفسه) 107.

السادرة والنظم السياسية وعلاقة تلك النظم مع بعضها البعض في المناطق المجاورة، وبالذات في المجتمعات الزراعية البدائية.

إن أقدم ملحمة مكتشفة للخليقة هي "إسطورة المعول" سادت في الألف الرابع ق.م، وظهرت بدايتها الأولى في الأقسام الشمالية المعتمدة على الزراعة الديمية (المطرية) خاصة المناطق المتذبذبة الأمطار. فما دام الهواء هو العنصر الفعال في حركة الأمطار لذلك صار لـ (أنليل) - إله الجو- نور كبير في حياة القوم وأصبح في نظرهم هو خالق الكون والبشر. والمعول هذا هو أول إكتشاف ألي للإنسان إستطاع من خلاله ان يعتمد على الزراعة في حياته وإستقراره وبناء مدنه وحضارته. وقد كان سلم الحضارة الأول الذي شكل حاضنة لحضارة وادي الرافدين القديمة ثم بناء مجتمع متكامل ولفترة زمنية طويلة طبقاً لفلسفة القوم المنسجمة مع ظروفهم في ذلك الوقت.

تذكر القصيدة قيام أنليل بفصل السماء عن الأرض، ثم خلق الانسان ووضع في يده المعول للعمل وخدمة الآلهة وتنص الاسطورة كما يظهر في هذا المقطع:-

فحفر شقاً في الأرض...

وخلق المعول...

ووضع بدايات البشر في الشق...

وعندما بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض...

كان إله أنليل ينظر مرتاحاً إلى شعبه السومري.

..... الخ.

تشير هذه الملحمة بوضوح لبداية إنتشار الزراعة. وهي الملحمة الوحيدة التي تقول بظهور الانسان مثل الحشيش من باطن الأرض وتعكس مفهوماً زراعياً صرفاً لحضارة وادي الرافدين التي قامت في مراحلها على الزراعة المطرية خلال الفترة 8000 - 5000 ق.م<sup>(1)</sup>.

وكذلك تشير الاسطورة ان السومريين هم ابناء أولئك الرواد الذين خرجوا من كهوف الشمال (كرديستان) ونقلوا البشرية من عصر جمع القوت الى عصر إنتاج القوت (الزراعة المطرية). ثم إنتشروا لغاية الجنوب (زراعة الري)، ونقلوا البشرية من عصر ما قبل التاريخ الى عصر التاريخ (إختراع الكتابة) وثجسد إسطورة" إله الشعير (أشنان)

(1) خزعل الماجدي، "متون سومر" (المصدر السابق نفسه) ص 168.

(والنعجة)" - التي يعتقد بظهورها قبل الانتقال الى القسم الجنوبي من البلاد - بدايات الحياة الزراعية الصرفة بما في ذلك تدجين الحيوانات. والطريف فيها أنها لا تخلو من أفكار عصرية عن طبيعة البشر الاوائل وأصل الانسان (القرد). فيعد ولادة آلهة الأنوناكي العظام، حيث لم تُخلق النعجة بعد ولم يُخلق أشنان إله الشعير، كيف كان حال البشر الاوائل؟ تقول الاسطورة كما يظهر في المقطع:-

البشر الاوائل لم يعرفوا أكل الخبز...

ولم يعرفوا إرتداء الملابس بعد...

وكانوا يسبرون على أيديهم وأرجلهم...

ومن القنوات يشربون الماء<sup>(1)</sup>... الخ.

أخذت أهمية عناصر البيئة الطبيعية موقعها في حضارة وادي الرافدين بالتغيير مع الانتقال من الزراعة المطرية (الشمال) الى الزراعة المروية (الجنوب)، وبدأت قنسية (انليل) - اله الجو - بالتراجع لصالح (انكي) - اله المياه السطحية والجوفية - وذلك لأن الأمطار لم تعد نافعة في الجنوب لأتمام ري الشعير الى نهاية الموسم.

ومن هنا ظهرت "أسطورة اله (أنكي) أو الآلهة (تتماخ)" وهي تتسبب خلق الأنسان لـ (أنكي) وتعبّر عن مجتمع زراعي يقوم على الري الصناعي وأعتمدت المقومات المتاحة في بلاد سومر، وتكشف عن غضب صغار الآلهة لتحميلهم مشاق العمل تحت سيطر الآلهة الكبار، فجاء خلق الأنسان حلاً لهذه المعضلة: - " أن يكون مصيره العمل" وكان الخالق أو الأمر بالخلق هو (أنكي)<sup>(2)</sup>..

بدأت مكانة (انكي) بالتراجع أيضاً بعد منتصف الألف الثالث ق.م وذلك حين ظهور أفة الملوحة والتصحّر وهجرة الأرض والمدينة في بلاد سومر، حيث لوحظ كيف أن هذا العامل شكل أحد العوامل الرئيسية في فقدان بلاد سومر لسلطتها السياسية لصالح سلطة بابل التي بدأت أهميتها بالتعاظم منذ عام 2000 ق.م. وأصبحت في حدود 1800 ق.م مركز السلطة السياسية في بلاد الرافدين. هذه التطورات السياسية دفعت كهنة بابل لأحداث تطوير في قصة الخلق تتناسب ومكانة حضارتهم

(1) فوزي رشيد" حضارة العراق" ج 1 ص 167-168.

(2) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 172-173.

ومكانة كبير الآلهة لديهم والمدعو (مردوخ) -اله بابل- فظهرت" ملحمة الخليفة البابلية<sup>(1)</sup>.

تعتبر هذه الملحمة من أبرز القصائد الشعرية في الأدب الديني وواحدة من أكثر الروائع الأدبية في محتواها وقدمها وشهرتها. تُعرف أيضاً بقصيدة (أنيوما أيلش) - حينما في العلى - نسبة الى فاتحتها. وهي تظم أكثر من ألف بيت شعر، وأسبغت عليها صفة القدسية مثل (الكتاب الديني)، إذ كانت تتلى أثناء احتفالات رأس السنة في مدينة بابل وعلى مدى حوالي ألف عام.

تذكر الأسطورة انه في البداية لم يكن هناك سوى العماء - المياه الأزلية: (أبسو) - المياه العذبة - منكر.. و(تيامات) - المياه المالحة - مؤنث.. وبعد امتزاجهما تولد جيل من الآلهة. وعن طريق الزواج ولدت أجيال جديدة من الآلهة أشهر منهم الثلاثة الذكور الكبار (أنوا، أنليل، أنكي) وبعد أن تكاثر عدد الآلهة وأخذ ضجيجهم يقض مضجع أبيهم الكبير (أبسو)، قرر الأخير تصفيتهم لينعم بالراحة.

يذهب أبسو يصحبه وزيره "حمو" الى تيامة شاكياً همه ويخبرها بقراره، لكنه يجد معارضة من تيامة<sup>(2)</sup>: -

**ولما سمعت (تيامة) ذلك غضبت وصرخت بزوجها...**

**أدركت في قلبها مايببت (أبسو) من شر وخاطبته:**

**"علام ندمر ما أوجدناه بأنفسنا**

**حقاً أن صنيعهم يسبب الألم**

**ولكن لنصبر على ذلك ونتحملة عن طيب خاطر".**

استمر (أبسو) في خطته بمعاونة وزيره بتصفية جبالآلهة الحديثة بعد أستبعاد (تيامة) من الخطه. ولكن جبالآلهة الحديثة أدركوا نواياه قبل تنفيذ خطته، فأصابهم الرعب والهلع ولاذوا ب ( أنكي) المتبحر بالمعرفة والحكمة لحمايتهم.

عمد (أنكي) الى قوته السحرية فعمل تعويذة سحرية شلت حركة (أبسو) ثم قتله وأنتزع منه تاج الألوهية وسجن وزيره (حمو). وهنا أشدت حمق (تيامة)، وأنتفضت لأخذ ثأر زوجها. فولدت جيشاً من العفاريت

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 174.

(2) طه بقر، "مقدمة في أدب العراق القديم" ص 71-75.



على رأسهم (كنكو) الذي أصبح قائد جيشها وزوجها. وأثناء هذه الفترة الطويلة ولد لـ ( أنكي ) ابنه ( مردوخ ) الذي سيلعب دوراً هامياً في الأساطير البابلية.

أُتصف ( مردوخ ) بالحكمة والثقافة" وكان أعجوبة منذ ولادته... وكان هيكله هائلاً..."

وبعد أن أدركت الآلهة الخطر المحدق بهم وجبن كبارهم مثل (أنو، أنليل، أنكي ) عن مواجهة (تيامات) وجيشها المرعب، علاوة على فشل محاولتهم الصلح معها، وافق (مردوخ) على اقتراح الآلهة اضطلعه بهذه المهمة الخطيرة ومنازلة (تيامات)، ولكنه طلب مقابل ذلك أن يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة. وهذا الأمر أقتضى اجتماع الآلهة وعقد مجلس الشورى (مجلس الأنوناكي) لمنحه الصلاحيات المطلوبة.

ولما أنتظم عقدهم في وليمة عامرة بالطعام والشراب وذهب عنهم الخوف بتأثير ماأحتسوه من خمر جيد، أقاموا منصة لـ (مردوخ) وأنفقوا بالأجماع على نقل سلطاتهم وزعاماتهم إليه، وفوضوه تقرير المصائر والأقدار وصارت" أرادته لا ترد ولا تبذل" وتوجه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون، وهتفوا قائلين" حقاً مردوخ ملك" وقدموا له الخضوع والولاء والطاعة بصفتهم ملكهم، وقلدوه شارات الملكية والسلاح الذي لا يقهر وحرضوه على قتال ( تيامة )

هياً مردوخ أسلحته للنزال الرهيب، تتقدمها أسلحته السحرية: العاصفة والبرق والنور الوهاج ومجموعة مخلوقات مخيفة، علاوة على أسلحته التقليدية الضخمة: الشبكة والقوس والسهم. أقرب ( مردوخ ) من جموع ( تيامات) بقيادة (كنكو) فصعقت من جلال الوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة وهربت تلك الجموع، عدا (تيامات) التي ثبتت أمامه، وقبل النزال بودلت الشتائم بينهما. وعندما تقدمت تيامات لمنزلته، نشر مردوخ شبكته فأصطادها، ولما فتحت فاهها لأبتلاعه ساق في فمها الرياح الشريرة، فنمعا من أطباق شفقتها من شدة الرياح التي ساقها ولم تستطيع أطباق شفقتها عليه. وسلط عليها الرياح فانتفخ جسمها وعندئذ رشقها بسهم في فمها الفارغ فأصاب قلبها وقضى عليها، ووقف على جثتها منتصراً. قبض على أتباعها وسجنهم وأنتزع من قائد جموعهم (كنكو)، لوح الأقدار وختمه بختمه وعلقه على صدره. ثم عاد الى جثة (تيامات) فشق جسمها نصفين متطابقين، صنع السماء من أحدهما والأرض من النصف الآخر. وبعد أن عين للآلهة الكبار ( أنوا، أنليل، أنكي ) الأجزاء التي يحكمونها

من الكون وحدد أماكنهم في السماء قرر تقسيم الآلهة الى مجموعتين: الأولى والأكبر في السماء والأخرى في الأرض.

وأما الإنسان فإن (مردوخ) يأمر بخلقه، ولكن الخالق الحقيقي وحسب الاختصاص بقي لـ(انكي) ومادة الخلق هنا هي الطين: التراب ودم أخذ من الآله (كنكو- الشريز) بعد ذبحه. كما بقي هدف ودوافع خلق الإنسان نفسه نتيجة شكوى صغار الآلهة من عناء العمل المضني تحت ضربات سياط الآلهة الكبار، وإيجاد بديل (الإنسان) للعمل وخدمة الآلهة<sup>(1)</sup>. وعرفانا بفضل مردوخ وبطولة عمل آلهة الأنوناكي (مجمع الشورى للآلهة) طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم (أي - ساقلا) في بابل. وبعد أن تم تشييد ذلك اجتمع الآلهة في حمل وليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتلا لآلهة بمديح مردوخ وتمجيدته وتنازلوا له عن أسمائهم وصفاتهم، فصار لـ (مردوخ) خمسون اسماً من الأسماء الحسنى، وتنتهي القصيدة بترتيل يرتل تمجيداً لآلهة بابل في عيد رأس السنة من كل عام.

بموجب هذه الاسطورة البابلية تكون المادة الاولى ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادة وإلاها في نفس الوقت، أي أن المادة أزلية منذ البدء... هذا على خلاف الاديان الرئيسية حيث أن وجود الخالق الازلي سبق وجود المادة التي أوجدوها<sup>(2)</sup> لكن معرفتهم الثنائية لطبيعة المادة، رغم أنها تشكل فكرياً معاصراً قامت على فلسفة ميتافيزيقية لم يكتب لها التحرك والتطور في غياب منهج التفكير العلمي.

لقد وردت أساطير خلق أخرى كثيرة تستحق الذكر منها: - أسطورة أصل الآلهة". وقد تم ترتيب الآلهة في شكلها البابلي على هيئة زوجين ذكر وأنثى والاتصال الجنسي بينهما يتم بزواج الولد من أمه وقتل أبيه، وزواج الأخت من أخيها وقتلها لأمها<sup>(3)</sup>. في "أسطورة الهبوط" التي تنتمي الى مجموعة أساطير أنليل (اله الجور) وترد في صيغ عديدة تتضمن معاشرته لـ (ننليل) قبل أن تصبح زوجته. فجاءت نتائج هذه المعاشرة ولادة المطر والفيضان وخصوبة الأرض وأخصاب العائلات البشرية. وفي صيغة أخرى يقوم أنليل باغتصاب ننليل ويحكم من قبل مجلس الآلهة بالنفي الى العالم الأسفل (الأرض).

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 175

(2) جورج بوييه شمار ص 381-398.

(3) المصدر السابق نفسه ص 92-94.

وتشير الى أنحدار مركز (أنليل) من مرحلة الانتقال من الزراعة المطرية في الشمال الى الزراعة المروية في الجنوب. وفي صيغة ثالثة تتم الخطبة والزواج ويطلق أنليل عليها لقب سيدة الهواء. من الملاحظ هنا ان عملية الانتقال من الزراعة المطرية الى الزراعة المروية تعتبر بالنسبة لهم عقوبة لما يعاني المزارع من مشقة في الأرواء وهكذا ذهب خيالهم الى الصراع الإلهي الحاصل في السماء مصدر الأمطار ( حسب عقيدتهم )، وهكذا أستمرت المفاهيم حول السعادة والراحة الناجمة عن هطول الأمطار من السماء وبالتالي ترفع الأيادي للدعاء دائماً باتجاه السماء بأعتبره مصدر الخير ومقر الآلهة في مجتمعهم الزراعي...

وفي أسطورة " أنكي و نخرساك": فيها وصف لأرض دلمون – (البحرين حالياً): غزيرة المياه عالية الخصوبة، كثيرة الخيرات، ذات زرع وحقول وبساتين، والتي جعلها أنكي أرضاً طاهرة.. وتتحدث الأسطورة عن حصول جماع بين أنكي والآلهة نخرساك ثم مجامعته لأبنته، ثم حفيدته... وهكذا في ظل ولادات سريعة. وفي آخر جماعه بأبنة لحفيدته تلد ثمانية أنواع من النباتات والأشجار. وعندما شاهدها (أنكي) أراد معرفة ماهيتها فأمر رسوله (أسيمود) - ذات الوجهين - أن يقطعها ويأكلها، وعندئذ غضبت (نخرساك) ولعنت (أنكي) وأحلت به الأمراض. ومن خلال وساطة ناجحة للثعلب تحضر (نخرساك) لمجمع الآلهة في دلمون وتشفي (أنكي) من علله بعد أن غفرت له أساءته" وأخذته وأجلسته على فرجها" فعاد أنكي وتبوأ مركزه السامي بين الآلهة<sup>(1)</sup>.

وتتحدث " أسطورة أنكي وتنظيم الكون" عن قيام (أنكي) - اله المياه والمعرفة والحكمة - بجولة في أقاليم الأرض المعروفة لديهم آنذاك والتي تبدأ من بلاد سومر وتنتهي في البحر وأخذ بتنظيم أحوال الأرض وأنهارها وبحارها، فضلاً نهري دجلة والفرات بالمياه العذبة والاسماك، وأوجد احراش القصب والأجر والحيوانات، ومن أجل تنظيم المجتمع البشري نصب لها لكل ناحية من نواحي النشاط الحضاري فمثلاً خصص للأشراف على الفلاحة والزراعة الآلهة (إينمكدو) والخضار والغلال الآلهة (أشنان) والماشية والرعي الآلهة (دموزي) - تموز.. وهكذا.

(1) طه باقر (المصدر السابق) ص 89-90.

وتتطابق" أسطورة تمجيد عشتار" مع عصر ما قبل التاريخ والعصور التاريخية المبكرة، وتتضمن محاولة إعادة هيبية (أنو) - اله السماء - من قبل كهنة (الوركاء) - وهي أقدم مدينة سومرية في جنوب العراق وكانت مركز عبادة (أنو) :-.

تتناول الأسطورة كيف أن (أنو) أشرك أبنيتها الآلهة (عشتار) في تاجه بعد فترة حب طويلة لها. وأعترافاً بجميلها رغب أن يرفعها الى درجة المساواة معه بناءً على نصيحة مجمع الآلهة، وأمر أن يكون أسمها بعد الزواج منها (أنتو) - صيغة المؤنث لـ (أنو). وبعد أن مَجَّنت (عشتار) وِجَلَّتْ أحتلت مكاناً مهماً في السماء حيث مقر (أنو)، ثم شخصت بالكوكب السيار (الزهرة)<sup>(1)</sup> وأصبحت رمزاً للجمال والحب لدى البابليين. وفي" أسطورة نقل النواميس الآلهية الى الوركاء" قصة تحايل عشتار - أننا لحيازة (النواميس الآلهية) من أنكي - أيا المختص بحيازتها، ونقلها لمدينتها الوركاء - أوروك، والتي تشكل العناصر الأساسية للحضارة والمدنية من بينها: السيادة والألوهية ونظام الحكم والتاج والصولجان ووظيفة الكهانة والصدق والخداع والتزوير والفن والموسيقى والعداوة والبغضاء والصلاح والعدل والطوفان والجماع والبغاء وطائفة من الحرف والصناعات التي كانت متداولة لديهم كالنجارة والحدادة والبناء والحياسة... ونجاحها في مهمتها بعد أن أكثرت له في الشراب<sup>(2)</sup>.

وتحدثت" أسطورة ننورتا" عن الكفاح الذي خاضه الأله ننورتا ابن أنليل ضد قوى الشر وأنتصاره عليها. وقد منح الصخور التي حاربت معه أحسن الأسماء (الرخام والأزود والمرمر... الخ) وظلت تلك الأنواع من الصخور تستخدم في الأبنية ذات القدسية لدى الإنسان لفترة طويلة، وكذلك تستخدم في زخرفة القصور والمعابد ومواد التماثيل والهيكل الخاصة بالآلهة، بينما أعطى الصخور التي حاربت ضده أردد الأسماء فصارت تستعمل في بناء عتبات الأبواب وتدوسها الأقدام.

وتعود أسطورة" تعويذة الولادة - خلق الإنسان" السومرية الأصل الى عصر أنكي وتتضمن جوانب من آراء القوم في خلق الإنسان من قبل

(1) جورج كونتينو- المصدر السابق- ص 333.

(2) طه باقر المصدر السابق ص 91-92.

(مامي) - اله الخلق. ويطلب من أنكي والآلهة الأخرى تم خلق الإنسان من الطين ( التراب) بعد خلطه بدم أحد الآلهة المضحي به لهذا الغرض. وهي تشبه في هذه الناحية" ملحمة الخليقة البابلية" والتي أصبحت مصدراً للعديد من القصص والروايات الدينية في الشرق وتُعتبر أسطورة" تعويذة وجع الأسنان" عن عصر الآلهة الكبار" والتي تنص على أن الخلق جرى على النحو الآتي: بعد أن خلق الآلهة أنو السماء، خلقت السماء الأرض وخلقت الأرض الأنهار والجدول والقنوات وخلقت الجداول الأهوار وخلقت الأهوار الدودة" ... وبعد ذلك ذهبت الدودة للآلهة شمش وأنكي تشكو لهم وتقول" ماذا تعطيني لطعامي؟ ومتعطيني لأمتصه؟"" أجابها أنكي سأعطيك التين والزيتون والشمش" ولكنها لم تقتنع وقالت" وماجدوى التين الناضج أو الشمش بالنسبة لي؟ أنا أريد أن تضعني في الأسنان وتجعل مسكني اللثة لكي أمتص دم الإنسان وأقرض اللثة وأكل جذورها" ووافق أنكي على اقتراحها هذا. وعلى ضوء هذا المعتقد أخذ الكهنة يعمل تعويذته للمريض الشاكي المآ في أسنانه أو لثته والتي تتضمن" لأنك قلت هكذا للآلهة يادودة فليحطمك الآلهة أيا... الخ".

وهناك العديد من الملاحم الأخرى كان أشهرها على الإطلاق ملحمة" كلكامش" وهي تبحث عن حقيقة الموت المطلقة وعن معرفة سر الخلود من رجل الطوفان. وتجمع هذه الملحمة عدة أساطير منها: ملوكية كلكامش وصدافته لغريمه أنكيو ومغامرتهما، ثم موت أنكيو ورحلة كلكامش بحثاً عن الخلود وقصة الطوفان وأخيراً موت كلكامش.

أن قصة الطوفان هي قصة حياة تتكامل مع ملحمة كلكامش. وقد ورد خبرها في قائمة الملوك السومرية، حيث تضمنت أن الطوفان جرف البلاد بعد حكم مدينة (شروباك)- تل فارة الواقعة على بعد 40 ميل جنوب شرق مدينة الديوانية جنوب العراق وأعتبر هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريخ وادي الرافدين: أي ما قبل وما بعد الطوفان. كما أن ما يذهل القارئ الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الإنسان البدائي والصراحة في وصف هيجاتها وغضبها<sup>(1)</sup>.

ومن الناحية التاريخية تشكل القصة الأكثر قديماً، إذ إستقرت فكرة الطوفان في وجدان العالم القديم. والمعتقد أنها ترجع في أصولها إلى

(1) جورج كوتينو للمصدر السابق ص 329.

الفيضانات العارمة للنهرين (دجلة والفرات). وذهب الباحث الأثري المعروف "ولي" الذي نقب في أور الى احتمال وقوع هذا الطوفان في حدود 4000 ق.م كما أستنتج العالم الفرنسي "مورغان" الذي ترأس بعثة التنقيب في سوس (الشوش حالياً) في بلاد عيلام (إيران). أن قصص الطوفان تُخلد ذكرى فيضان حدث بدرجة من الجسامة لايمكن نسيانها وذلك في آخر عصر جليدي يرجع تاريخه الى 8000 سنة من الآن<sup>(1)</sup>.

وجدت قصة الطوفان في ثلاث روايات رئيسية تتشابه في خطوطها العامة والعديد من تفاصيلها. وقد بدأت في أصلها كمأثرة أدبية سومرية، ثم ضمنت إليها أو عدلت وطورت وأخرجت بصيغة بابلية، كما هو عليه الحال في العديد من آداب الحضارة في بلاد وادي الرافدين.

وأولى تلك الروايات وبطلها (زيوسيدرا) الذي أنقذ البشرية من طوفان شمل الأرض كلها (حسب عقيدة القوم) والثانية وبطلها (أوتو-نبتسم)، والثالثة وأكثرها تفصيلاً وبطلها (أتراحاسيس) الذي يقوم بدور مشابه في أنقاذ البشرية.

كانت عقوبة الطوفان في رواية أتراحاسيس آخر سلاح تلجأ إليها الآلهة للحد من تكاثر البشرية التي أخذت ضوضانهم وضجتهم تقض مضجعاً للآلهة وتحرمها من الراحة والهدوء، ويظهر أنليل - إله الجو / الرياح، كان المعرض على قيام الآلهة بمجموعة خطوات متلاحقة كان الغرض منها فتك البشرية وأهلاكهم. ففي المرة الأولى أقنع أنليل الآلهة بأنزال الأمراض والأوبئة وفوضت - (نمتار) " الإله المسنول عن الأمراض والأوبئة" - بتنفيذ تلك المهمة، فانتشرت الأمراض في البلاد وأخذ يلبثهم الناس ألتهاماً. وعندئذ أستنجد أتراحاسيس ب أنكي/أيا لتخليص الناس من هذا الهم. وقد جاءت توصية أنكي إليه ببناء معبد للآلهة نمتار وتقديم الهدايا والنذور له ليرفع نمتار يده عنهم. وبمرور فترة زمنية أخرى وتكاثر أعداد الناس من جديد وأزدياد صخبهم وضجيجهم، قرر أنليل أن يعاقبهم بالجفاف والقحط والمجاعة. وهكذا أصدر أوامره للآلهة: أدد لحبس المطر، أنكي لمنع المياه الجارية، نيسابا - إلهة الحنطة لمنع محصول الحنطة من النضج. وهكذا حلت المجاعة بين الناس لمدة ستة

(1) جورج كوتيتنو المصدر السابق ص 350.

سنوات متوالية (وهذه فكرة مشابهة للحلم الذي راه النبي يوسف (ع) في مصر في قصة يوسف).

فلم يئبب الزرع، وسادت المجاعة وفتكت الأمراض بالناس، وأصبحت الأجسام ضامرة، وتوقفت الولادات وأصاب الناس الجرب وتشوهت ملامحهم" أتخذوا من البنت عشاء لهم وأتخذوا من الولد غداء لهم لكنهم لم يشبعوا حتى ألتهم كل جار جاره. وكان الناس أحياء لكن على حافة الموت<sup>(1)</sup> ولكن هنا يبادر أنكي مرة أخرى الى الأشفاق على الناس وأنهاء مصيبتهم فيسمح بتدفق المياه من العمق، وبهذا التصرف عرض نفسه لغضب أنليل الذي صمم هذه المرة أن تؤدي جميع الآلهة القسم لأرسال الطوفان وتدمير الأرض ومن عليها.

وبتحريض من أنليل صدر قرارهم لأفناء البشر بتسليط الطوفان عليهم بعد أن اجتمعوا الثلاثة الكبار (أنو- أنليل - أنكي)، ولكن أنكي يادر منذ البداية الى الوقوف الى جانب البشر، ونقل قرار الآلهة بشكل غير مباشر لـ أوتو - نيشتم أذ وجه ندائه كما يلي:

" " ياكوخ القصب! ياكوخ القصب! أسمع ياكوخ وأفهم ياحلظ، يارجل مدينة تروباك يابن أوبار \_ توتو قوؤص بيتك وأبني لك فلكا. تخلُ عن مالك وأطلب النجاة. أنبذ الملك وأنج بحياتك، وأحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة، والسفينة التي تبني أضبط قياسها ليكون عرضها مساوي لطولها، وأختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ أبسو"".

ولما سمع رجل شروباك (أوتو نيشتم) تصدع للأمر، وفهم قرب حدوث الفيضان وكيف يتصرف، وصنع السفينة بمساعدة أهل المدينة في سبعة أيام وجهزها بالمؤن والمتاع وأدخل من كل حي بذرة علاوة على أهل بيته وذوي قرياه.

كما عين الأله شمش له موعداً بقوله " حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار الموت والهلاك في المساء فادخل السفينة وأغلق بابها". ولما حان الوقت المحدد سقط المطر المهلك" فولجت السفينة وأغلقت بابي... " وفي هذه الأثناء أخذ كل من آله السماء والأرض دوره في إطلاق الفيضان ليصل الى أقصى حالاته من رعود مزمجرة تصل عنان السماء وزوابع وأمطار غزيرة، علاوة على إطلاق مياه العمق، فدمرت

(1) طه باهر (المصدر السابق) 258.

المساكن والأبنية والسدود، وساد الظلام الداكن وصار الأخ لا يبصر أخاه والناس لا يميزون من السماء" حتى الآلهة أرتعدوا من شدة الهول فأخذوا يترجعون الى الخلف حتى وصلوا سماء آتو. (السماء السابعة).

استمر الطوفان ستة أيام وسبع ليال، وفي اليوم السابع هدأت الأوضاع، ونظر أوتونيشتم من فتحة صغيرة في سفينته الى الجو فرأى أنسكون المطبق وقال " رأيت البشر وقد أستحلوا جميعاً الى طين فسجدت وأنهر الدمع على وجهي". أستقرت السفينة على جبل فمسكها الجبل ولم يدعها تجري. وباشر رجل الطوفان في معرفة مدى أمكانية الخروج من السفينة والعودة الى الأرض، فأخرج حمامة وأطلقها فما لبثت أن عادت لأنها لم تجد محطاً لها، وحصل للسنونو نفس الشيء في المحاولة الثانية، وفي المرة الثالثة أطلق الغراب فطار ولم يعد بعد أن وجد مكاناً يحط به. وحالما تأكد رجل السفينة من أماكن العودة الى الأرض، أخرج مافيها وقربت القرابين وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل... وكندست أسفلها القصب والاس والأرز فشم الآله شذاها، وتجمعوا حولها كأنهم الذباب. ولما وصل أنليل قال غاضباً للآلهة "عجبا كيف نجت نفساً واحدة وكان المقدر أن لاينجو بشر من الهلاك؟ أجابه (ننورتا) بقوله " من ذا الذي يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير آيا... " وهنا قال آيا مخاطباً أيها البطل أنت أحكم الآلهة، فكيف لم تبصر فأحدثت طوفان! حمل صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي إثم أعتدائه، ولكن في العقاب لنلا يعن في الشر... أما أنا فلم أفس سر الآلهة ولكن جعلت أوتو نبشتم يرى رؤيا فأدرك سر الآلهة، والآن تدبر أمره وقرر مصيره. هدا أنليل ولان وخفت سورة غضبه ثم دخل السفينة وجعل رجل الطوفان وزوجته يسجدان أمامه ولمس ناحيتهما وباركهما قائل: " لم يكن أوتونيشتم قبل الآن سوى أحد البشر، ولكنه منذ الآن هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة وسيعيش أوتونيشتم بعيداً عن فم الأنهار". وهكذا أصبح رجل الطوفان واحد من الآلهة وعاش طويلاً. وهنا يوجه أوتونيشتم كلامه الى كلكامش حين قصده الأخير ليسدي له النصيحة في الحصول على الخلود الأزلي: من سيجمع الآلهة من أجلك لتتال الحياة الخالدة؟ تعال أمتحنك" لانتام ستة أيام وسبع ليال" (وهي المدة التي مكثت فيها السفينة في البحار أثناء الطوفان). لكن كلكامش أخذته سنة النوم حال جلوسه، فالتفت بطل الطوفان لزوجته قائلاً " انظري وتأملي هذا الإنسان القوي الذي ينشد الحياة قد غلبه النوم." فأترحت عليه زوجته



أيقاظ كلكامش ليعود أدراجه من حيث أتى، لكن أوتونبشتم حذرهما قائلاً "لما كان الخداع سمة البشرية فإنه سيخدعك. فأخزي له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه، بعدد الأيام التي ينام فيها وأنشريها على الجدار". ففعلت ما أمرها. ولما كان الرغيف السابع لا يزال على الجمر لمس أوتونبشتم كلكامش فاستيقظ وقال له "لم تكذ تأخذني سنه من النوم حتى لمستني فأيقظتني. أجابه أوتونبشتم "ياكلكامش عدّ أرغفتك يبنك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمتها. عندئذ ينس كلكامش... وأمر رجل الطوفان ملاحه أخذ كلكامش ليغتسل ويبدل ثيابه ويعود به الى مدينته أوروک. وقبل أن يهما برکوب سفينة العودة تشفعت له زوجة بطل الطوفان عند زوجها بأن لايدعه يعود خائباً لبلاده. فکشف له أوتونبشتم سر نبت شوکي عجيب ينبت في أعماق البحر له خاصية سحرية في تجديد الشباب وأطالة العمر. نجح كلكامش في العثور على ذلك النبات وفرح وقال لرفيقه الملاح أنه سيحمله معه الى أوروک ويشرك الناس معه لياكلوه، وسيكون أسمه (يعود الشيخ الى صباه كالشباب). أما هو فسيأكل منه في أواخر أيامه حتى يعود الى شبابه. ولكن أثناء توقفهما في الطريق تسرق الحية منه هذا النبات وتأكله، فتنزع جلدها حالا وأصبحت تجدد شبابها كل عام. وهكذا أتخذت صورة الحية رمزاً للتطبيب والشفاء والحياة. وفي الغرب تم أخذ الحية رمزاً عن اليونان من خلال الأسطورة اليونانية الشهيرة المشابهة لما جاء في ملحمة كلكامش من حيث الهدف. ويصبح ربط هذه الأسطورة بأسطورة العداء الذي أستحكم بين الحية وذرية حواء وأدم بعد حادثة أغواء حواء وطرد آدم وحواء من الجنة. أو الشيطان المتمثل بالحية وذلك من خلال أقتناعهما أن يأكلا من الشجرة المحرمة<sup>(1)</sup>.

حزن كلكامش بعد أن ضاعت عليه الفرصة الأخيرة لحصوله على الخلود. لكن الملاح يفتح عين كلكامش على طريق آخر لخلود الأنسان من خلال ما يتركه خلفه من عمل طيب ينفع الناس. وفي ختام هذه الملحمة ترد قصة "موت كلكامش" وهي قصة سومرية الأصل يعود تدوينها للعصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) ورغم قلة ماتبقى من النص الأصلي فهي تلقي ضوءاً ساطعاً على جانب مهم من معتقدات القوم

(1) طه باهر، مقامة في ادب... ص 125.

عن عالم الأموات والتي تختلف تماماً عما كان عليه الحال في حضارة وادي النيل كما أوردنا سابقاً.

هكذا كانت الاساطير المدونة والتي تُعبر عن تطور الافكار السائدة في حضارة وادي الرافدين القديمة وعن حياتهم وما يدور بينهم من علاقات اجتماعية وتقاليد. وقد يبدو لنا عند قراءتها في العصر الحديث مضحكة وساذجة الا أننا نقرأ تلك الحكايات بعد آلاف السنين توصل الانسان خلالها الي كم هائل من المعلومات العلمية وأصبح واسع الأفق الي درجة كبيرة. أما في العصر القديم (السومري والبابلي و الآشوري ) فقد شكلت تلك الاساطير خطوة متقدمة جدا الي الأمام بالمقارنة مع عصور قديمة سابقة، ففي العصور الحجرية الاولى عندما كان الانسان يعيش متنقلا وينام في الكهوف كانت الرسومات الرمزية للحيوانات المقترسة وغيرها من الأدلة التي تعكس تصورات الانسان القديم أكثر تخلفا وتدل على ضعف أفته ومداركه بالمقارنة مع القصص والاساطير السومرية مثلا، ويجدر الإشارة هنا الي أن ذلك العصر كان متميزا بالاساطير الخرافية وكان هناك تشابه كبير بين الاساطير التي كتبها الصينيون والهنود القدماء. كما أنها في تشابه كبير أيضا مع أساطير مصر واليونان والرومان التي اُكتسبت شهرة كبيرة في عصرنا الحديث بعد أن تُرست واعطيت الكثير من الاهتمام، واستخلص من خلالها الكثير من الدروس والعبر، على العكس مما نحن عليه من ضعف في الاهتمام بذلك التراث من الاساطير. وباختصار كان وازع الخوف من المخاطر المحيطة بالانسان الرافديني هي الصفة المميزة والمحفة لكل تلك الاساطير.

#### 6- مناقشة ما ورد في تاريخ حضارة وادي الرافدين: -

أن التفاخر بأجداد الماضي والأدعاء بقدم الحضارة وعراقتها يتطلب منا دراسة ومعرفة مدى تأثير تلك الحضارة على واقعنا الحالي، وتحديد نقاط قوة وضعف النشأة الأولى، وما تبقى من كل تلك الأحداث من موجات ترددية داخل عقولنا وتأثير تلك الموجات في حياتنا الاجتماعية والسياسية والنفسية، سواء أكان ذلك الموروث قد أثر تباعا في السلسلة التاريخية اللاحقة وما آلت اليه الأحداث التي أوصلتنا الي مانحن عليه الآن، وما هو حاصل ولايزال يعيش فينا وفي عاداتنا وتقاليدنا دون أن ندرك ذلك بالتفصيل. وقد أوردنا العديد من المواريث التاريخية في

حضارة وادي الرافدين ولو بشكل سريع جداً وبلمحة خاطفة جداً لأن الغور في هذا المجال يحتاج الى مجلدات وكتب عديدة ومن يرغب في التفاصيل الدقيقة عليه أن يرجع الى المصادر المشار اليها في هذا الكتاب، وضمن النظرة السريعة هذه برزت ثلاثة نقاط رئيسية لا بد من مناقشتها من أجل الوصول الى زيادة في فهم المجتمع العراقي وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا عن تأثير المواريث التاريخية في حضارة وادي الرافدين القديمة علينا وكما يلي: -

#### أ - تأثير نشأة المعتقدات الدينية في فلسفة الحياة: -

لقد نشأت الأفكار والمعتقدات الدينية في عقل الإنسان الذي كان يقطن بلاد الرافدين منذ آلاف السنين وترسخت في كيانه وعقله وأصبحت ذات تأثير مباشر على حياته وسلوكه اليومي في كل المجالات، مثل حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونظراته للأمور والظواهر الطبيعية المحيطة به. أن قيام حضارة وادي الرافدين على قاعدة دينية جعلت التركيز من قبل العلماء والكهنة في كافة مجالات المعرفة منصباً على كشف رغبات الآلهة وتنفيذ كل تلك الرغبات لأرضاتهم ولحماية الناس وتأمين مستقبلهم. وهذا هو السبب الذي جعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة الى فنون وعلوم تطبيقية من جهة وأمور فلسفية من جهة أخرى، تبدو غريبة عن تصورهم، حيث اعتبروا كل العلوم ذات أهمية متساوية ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة من خلال تراكم المعرفة والخبرة لدى العقل البشري عبر العصور، كما هو حاصل في عصرنا الحديث. ومع أنهم عالجوا قضايا لا تقل شأنًا وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، إلا أن تفكيرهم في معالجتها جاء خيالياً وشعرياً وأسطورياً. وغاب عنهم المنهج الموضوعي الذي تمسك به فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم والذي بني على أساس الاستقراء والاستنتاج. وقد تمت الإشارة الى سبب ذلك من خلال الظروف والمخاطر الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها،

والمختلفة عما هو عليه الحال في بلاد الأغر يق لقد أسس المفكرين في بلاد الراقدين القدماء علومهم وفنونهم على مبادئ تستند على الخيال وما يعرف بما وراء الطبيعة ( الميتافيزيقية ) وهي بعيدة عن القواعد الفيزيائية ( الطبيعية ) الملموسة فأوجدوا الباب أمام الجهد المثمر عن تفسيرات عقلانية لنشأة الظواهر الطبيعية المحيطة بهم. رغم أنهم كشفوا الكثير من الأجوبة عن الأسئلة التي تخص التساؤل في "متى" و "ماذا" يحدث هذا أو ذلك من تلك الظواهر الطبيعية، إلا أن النظرة الفوقية ( الطوباوية ) لتلك الأمور قد منعتهم من أن يتساءلوا عن "كيف" و "لماذا" حدث هذا أو ذلك من تلك الظواهر ولم يجربوا أبداً تأسيس نظرياتهم في هذا المجال، طالما أقتن أسلوبهم بالتفكير على التركيز في مبدأ التمثيل القياسي، أي تفسير وقوع الحدث بما كان يحدث سابقاً عليه، فعلى سبيل المثال كانوا دائماً يفسرون موت صاحب الدار بعد نعيق الغراب الذي نزل على سطح داره، إذ أن الغراب جاء منذراً بقرب ساعة موت صاحب الدار قبل حصول الوفاة<sup>(1)</sup> وهكذا حصرت هذه الحضارة العقل البشري وكافة فروع الحياة في مجالات فكرية محددة تحيطها أعداد ضخمة من القيود والمحرمات والممنوعات، لأن الدين هنا أصبح وعاء تلك الحضارة وحاضنتها دون منازع، وعاملاً مستقلاً محددًا ومقيداً لحركة وتطور عناصرها الدنيوية، والتي أصبحت تابعة للدين. وعلى خلاف ذلك تمسك الغرب بالفلسفة اليونانية المبنية على مبدأ "كيف" و "لماذا" حصل هذا وذلك من الظواهر بأسلوبها المعتمد على تفسير ما هو محيط بهم دون قيود، وهكذا بنيت حضارة الغرب بعد الآف السنين من بداية حضارة الشرق الأدنى، إلا أنها شقت طريقها في تحريرها للعقل البشري من دون قيود وراحت تتطرق بلا حدود نحو اكتشاف المجهول ووفرت حرية النمو والتطور لعناصرها الأساسية، وأكثر من ذلك أصبح الدين نفسه كأحد عناصر تلك الحضارة ومتكيفاً معها وعيناً لها. لقد ارسى فلاسفة اليونان

(1) جورج كوتينيون 365 (المصدر السابق). عبد الوهاب حميد رشيد 218 (المصدر السابق).

أسس وقواعد الحضارة الغربية الحديثة والتي أصبحت بعد ذلك سمة الحياة كافة وتغلبت على كافة الأفكار الخرافية في جميع أرجاء المعمورة لما أضافت الية تلك الحضارة من بناء فوقي كانت أساساً لكل العلوم والتقنيات الحديثة، وبقي الشرق عموماً ومنطقتنا الشرق أوسطية خصوصاً مقيداً بمفاهيم وأغلال عاشتها في الماضي ولا يزال يعاني من ثقلها وتأثيراتها حتى في أستياعها وتقبلها في الوقت الحاضر. وهكذا أصبحت مساهمتنا في بناء الحضارة الحديثة في مجال علوم التكنولوجيا ضئيلة جداً وتكاد تكون مخزية حسب التقارير المرفوعة حديثاً من قبل هيئة الأمم المتحدة وخاصة التقرير السنوي الذي أثار ضجة كبيرة في 2002 والخاص بمنطقة الشرق الأوسط خاصة بالشأن الثقافي. ان هذا الأمر واضح وبدون الرجوع حتى الى تفاصيل تلك التقارير فإن الممارسات اليومية والواقع الذي يعيش فيه الشرق الأوسط يعتبر متخلفاً جداً عما هو عليه الحال في الغرب المتطور، ولو أخذنا نسبة مساهمة علماءنا في الأكتشافات الأصيلية بالمقارنة مع مساهمة البلدان الغربية لوجدنا أنها لاتساوي شيئاً على الإطلاق. ومن هنا أيضاً جاءت الأزواجية في شخصية وتفكير الفرد في الشرق الأدنى عموماً والعراقي خصوصاً في العصر الحديث، والتي كتب عنها علماء الأجتتماع كثيراً وكان أولهم عالم الأجتتماع المغربي " ابن خلدون" حينما ركز في مؤلفاته وبالذات " مقدمة ابن خلدون" على تفسير الموروث الثقافي القديم وتقبل الأفكار والمكتشفات الحديثة ذات الطابع الملموس والواضح على الأزواجية في سلوك وطريقة تفكير الفرد في عصرنا الحديث<sup>(1)</sup>.

كما ركز د.علي الوردي (عالم الأجتتماع العراقي المعروف) على تلك الأزواجية في العديد من مؤلفاته وبالذات في "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" والذي نشر عام 1965. أن تفكير الإنسان في مجتمع بلاد الرافدين القديم والمعتمد كلياً على الآلهة كقوة خارقة وخالدة، وأن

(1) ابن خلدون" مقمة ابن خلدون" دار القلم، الطبعة الأولى بيروت (1987) 90.

سير الأحداث وخلقها جاءت في كلمة (كن) فيكون حسب ماأسلفنا في موضوع العقيدة الدينية لدى بلاد الرافدين، قد ظل مطبوعاً في فكر الإنسان الرافديني والتي منعت من التفكير في كيفية حصول الأشياء بمراحلها المختلفة وكيفية تطوير حياته وحل مشكلاته بنفسه بحرية. فكان لا يتورع من منع وباء أو درء خطر فيضان مثلاً، بقدر أو بأخر ضناً منه في أن ذلك العمل من اختصاص الآلهة، وأن عمله هذا غير مقبول، بل وقد يؤدي الى غضب تلك الآلهة ولامجال من صد تلك الأخطار سوى الطاعة والقبول بالأمر الواقع وعدم الاعتراض على أرائها، أما المجال الوحيد في درء تلك الأخطار ( حسب اعتقادهم ) هو تأدية الواجبات والالتزامات الدينية المناطة بهم حسب تعليمات الكهنة لأرضاء تلك الآلهة المسئولة عن حمايتهم من تلك الأخطار وهكذا بقيت المنطقة على حالها من دون إقامة سدود منيعة لمنع تلك الفيضانات أو اكتشاف سبل لمنع إنتشار الأوبئة. وهكذا لم تتسلم تلك الحضارة في الصعود بوتيرة واحدة نحو التطور والصمود بوجه كافة المخاطر التي واجهتها، ولم نجد منها نحن في عصرنا الحديث سوى الأحجار والمنحوتات وبعد عناء من الحفر والتنقيب للتعرف على كل معالمها وأبعادها. فبرغم عظمة تلك الحضارة وقدمها وعمقها، الا أنها للأسف الشديد بقيت داخل شرنقتها دون أن تستطيع من تحطيم تلك القيود وتحرير العقل.

أن الاعتقاد بالنصيب والقضاء والقدر منذ ولادة الفرد وطيلة فترة حياته والى مماته قد أوصدت بذلك كل طموح وآمال ذلك الفرد والمجتمع برمته في تحسين مستوى حياته وتطويرها نحو الأفضل والتمتع بما فيها من فرح وبهجة. ومن هذا المنطلق أيضاً وجدنا أن الإنسان في منطقة بلاد الرافدين كان محافظاً على أسلوبه ونمط حياته وأدوات عمله وطريقة غذائه وملبسه وكل عاداته وتقاليده الاجتماعية منذ آلاف السنين ولحد الآن دون حصول تغييرات جذرية ملموسة، وأذا ماحصل وتطور فإن ذلك يعود بالأصل الى الأقتباس والتقليد من الغرب الأكثر تقدماً من الناحية العلمية والتقنية على الأقل. وهكذا حصل الأضطدام الفكري عندما تواصلت الحضارات وأصبح الأختلاط بالعالم الأكثر تحضراً أمراً لا بد منه ولايمكن تجاهله، وذلك من خلال تشابك المصالح وتطور وسائل النقل وبقية وسائل الأتصالات المختلفة، وقد أدى ذلك الى صراع فكري يعرف بصراع الحضارات ما بيننا وبين حضارات قامت على أسس البحث

والتقصي والتفكير العلمي المتواصل المبني على السببية والأستنتاج الحر الخالي من القيود، كتلك الحضارات التي قامت في الغرب. وكان نموها متسلسلاً وعبر قرون من أنواع الصراعات والحروب، الا أنها على الرغم من كل تلك الصراعات والحروب، أستطاعت أن تبني صرحاً متيناً لايقبل الفناء والضمور نظراً لأن ذلك البناء كان مستنداً على اسس متينة وراسخة، بينما بالمقابل أعتمدت الحضارات الشرق أوسطية على أسس ميتافيزيقية بعيدة عن التساؤل عن كيف ولماذا؟ وهكذا ضاعت تلك الجهود المضنية التي بذلها السومريون والبابليون القدماء ودفنت معهم تحت التراب بعد كل ماقدمته للبشرية من خدمة في معارف الإنسان النسيطة. أننا أذ نثمن جهود وحضارت الأقدمين لدينا في توصلهم لتلك المعارف والمعالم الغنية المختلفة أنفة الذكر عبر الآف السنين التي مضت والتي كانت ضمن سلسلة تطور العقل البشري عموماً، لابد لنا من الاعتراف بأن ماوصلنا من علم ومعرفة وفلسفة من الغرب كانت الأساس في حصول القفزة الهائلة في نمط وأسلوب حياتنا في العصر الحديث، ولابد لنا من إعادة النظر في بعض مخلفاتنا الفكرية التي كانت قد أعاقت من الأستمرار في النمو والتطور بشكل يضاهاي حضارة الغرب الحديثة ومحاولة استيعابها والتخلي عما هو سيء منها والبقاء على ما هو صالح. ولايمكن أن يأتي ذلك الا باتباع منهج البحث والتقصي العلمي بعيداً عن الغيبيات والميتافيزيقيا المقيدة للعقل بأغلال وسلاسل راسخة.

### ب - موروث الفكر الشمولي في السلوك والحكم: -

أن أعطاء صفة السلطة الألهية وتنفيذ أوامرها وتعظيمها، ذلك الأعتقاد الذي أختاره القوم منذ بداية نشأة السلالات السومرية انقديمة، والذي كان أسلوبهم المفضل في إدارة وتسيير شؤونهم الحياتية في ذلك الوقت، قد جعل من نظام الحكم الدكتاتوري ( الشمولي ) المتسلط على رقاب الناس وتوارث ذلك الحكم من الأب الى الأبناء أمراً راسخاً في الأذهان يصعب أزالته أو أستبداله بنظام آخر، يستمد قوته وشرعيته من قوة الشعب، ويعتمد عليهم في تمشية أمور البلاد الحياتية. في حين جعل فلاسفة اليونان مسألة أرساء أسس الديمقراطية مفهوماً ثابتاً في كيفية

أختيارهم للحاكم قبل أكثر من الفي عام. أن نظام الحاكم الألهي القديم في بلاد الرافدين كان منسجماً مع النظام الأقتصادي والأقتصادي القائم على أساس الأحرار والعبيد، وقد أستغل في تسخير العبيد لخدمة الطبقة الحاكمة وأزداد تظخيماً لتلك المفاهيم من أجل المزيد من سيطرة الحاكم الألهي في بابل، إذ كان يبطش في الناس بطشاً لا يمكن وصفه، وكمثال على ذلك ماجاء في قصة النبي دانيال في التوراة وفي الكتاب المقدس (العهد القديم) في سفر النبي دانيال ( عليه السلام ) وملخص مادار هو: أن النبي دانيال كان مقرباً من الملك نبخذ نصر أحد أشهر ملوك بابل، وعندما أستطاع ثلاثة من مقربي النبي دانيال من أقناعه بأن يقدموا على الملك نبوخذ نصر ويقولوا له بأن القرابين التي تقدم يومياً الى الألهة إنما تذهب في حقيقة الأمر الى الكهنة، عندما يتفرغون لها في الليل ويأكلونها لوحدهم بعد أن يذهب الناس الى بيوتهم، فغضب عليهم ولم يتقبل ذلك الكلام وأمر بجمع الحطب من أجل حرقهم أمام أعين الناس جميعاً عقاباً على مانطقوا به عن الألهة. ولكن صديق دانيال أستطاع من أنقاذهم من الحرق بطريقة بهلوانية فنية إنطلت عليهم ودون أن يكشفها أحد. وكان هذا الشخص المدعو حبقوق نبياً أيضاً ومن أحد أنبياء اليهود الذين جاءوا الى بابل كأسرى بعد السبي البابلي. وهكذا أستطاعت المجموعة أن تثبت للملك البابلي صحة قولهم من خلال المعجزة الخارقة التي قاموا بها... الخ<sup>(1)</sup>. وتدل القصة على مدى القسوة التي كانت تمارس من قبل الملوك على الناس، وبغض النظر عن مدى صحة القصة هذه وغيرها، من حيث حصولها في أرض الواقع أو كونها قصة مختلفة، إلا أنها تعطي دلالة واضحة على مدى ممارسة العنف والتسلط المطلق من الملوك على الناس في ذلك العصر. أن الخوف من الكوارث الطبيعية كالفيضانات والتهديدات بالقحط وانتشار الأوبئة والتهديدات الخارجية من الأقبام والغرباء الذين كانوا يجتاحون تلك المناطق لأغراض السلب والنهب، قد جعلت أنسان

(1) الكتاب المقدس "العهد القديم والعهد الجديد" إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (بنان) 1995.



بلاد الرافدين يفتش عن وسيلة في حماية نفسه وعائلته وبالطريقة المتاحة له في تفكيره وذلك باللجوء الى الآلة الحامي. ومن يمثله في أرضه وهو الملك أو الحاكم في تلك المنطقة. وهكذا كانت الأفكار السائدة منسجمة لمصلحة الطرفين، العبيد من جهة والأحرار أو العائلة المالكة من الناحية الثانية، إذ أصبح ولاء الناس وطاعتهم للحاكم أو الملك جزءاً من واجب يؤدونه لغرض حماية أنفسهم من تلك المخاطر. كما ظل الملك يعد العدة ويقود الجيوش من أجل أبعاد الأعداء عن أمته وجلب المزيد من المكاسب والمؤن لعائلته في مقابل ذلك. وهذا الأنطباع ظل راسخاً فينا لأجيال وقرون. ونذكر هنا درجة التنافس التي كانت قائمة عبر التاريخ والى فترة قريبة بين العوائل المقربة من السلطة من أجل التنافس والفوز بمنصب الرئاسة، وهذا ماكان يدور في عقل أغلب الحكام المتسلطين. ولا بد لنا أن نذكر هنا فترة حكم صدام حسين وزمرته، فكان يحكم بفكرة أن كل شيء يجب أن يسخر للحاكم، وأن مصير الأمة ووجودها يتوقف على وجود قائدها القوي الذي يحافظ عليها من الأعداء. وهكذا ظل الشعب العراقي يعيش فترة خمسة وثلاثون عاماً ضمن هذه الفلسفة كوسيلة لتبرير تسلطه وأشباعاً لرغباته. وظل كذلك يلقي الأطفال لجيل كامل بهذه العقلية أي أن الأمة بقائدها ولايهم إذا ذهبت كلها الى الفناء والدمار على أن يبقى هو (أي القائد الضرورة) حياً وسليماً ومايدمر أو يخرب يمكن أصلاحة وأعادته الى ماكان عليه وليقطع لسانه كل من خالفه الرأي أو قام بعمل منافي لما يعتقد هو لأنه يمثل الأمة وكيانها وهيبته (حسب نظريته العقيمة)، هكذا كانت قراءة البعث العربي في العراق للتاريخ. وهكذا استمد منها قائدهم تلك المفاهيم وكان يجاهر بها علناً فمثلاً عندما رفع شعار " من نبخذنصر الى صدام حسين بابل تنهض من جديد" كان المقصود فعلاً ولو في عقلم الباطن ان مجد الامة أنما ينبثق دانماً بفعل الحاكم المستبد الظالم والقوي المتسلط. وكان يشعر بالراحة والغبطة حينما يأتي الناس اليه ليؤدوا ولاتهم له ويلقون بالأشعار والمديح والنفاق أمام

كمرات التلفزيون. كما كان يفعل البابليون عند تأديتهم مراسيم الصلاة ويقدمون القرابين وبما يتوفر لديهم من ماشية وغذاء على أساس تقديمه للآلهة عن طريق نائبه "الحاكم أو الملك"، والذي يقدمه بدوره الى رموز الآلهة من الكهنة والرهبان في المعابد بعد أن يأخذ حصته وعائلته كاملة وهكذا نجد أن حاكماً استحضر سلوكاً وتقاليده وعقليته كانت سائدة منذ آلاف السنين في المنطقة لتطبيقها في العصر الحديث. أن اتخاذ الأصنام في ذلك العصر بمثابة رموزاً لكل اله كانت جزءاً من أساليب جلب الطمأنينة ومنع الخوف المتزايد من الناس حيث كانوا يؤدون الصلاة أمام تلك الرموز ويقبلونها ويتلمسونها ويلتمسون منها الرحمة والشفقة وحتى ييكون من شدة حاجتهم الى الرحمة والأطمئنان من المجهول، لشدة اعتقادهم بأنها تخبأ ورائها قوة مستمدة من قوة الآلهة، وبالتالي فإنها تعمل كالوسيط لنقل الرسالة والشفاعة الى الآلهة الحامية. ولتكون شاهداً عليهم بأنهم قد أدوا واجباتهم اتجاهها على أحسن مايرام. والدليل على ذلك أنهم كانوا يحتفظون برموز تكاد تكون صغيرة لاتتعدى الحصى أو الحجر البسيط في البيوت كرمز وشاهد بحسن وصدق نيّتهم ووفائهم أتجاه الآلهة الحامية وتجاه من ينوب عنهم من الملك والكهنة وسكنة المعابد. وهكذا أيضاً قادت تلك المفاهيم البعض بأن كل المصائب التي لحقت بالأمة انما جاءت من ضعف الحاكم مثل سقوط بابل وسقوط بغداد في عصر المغول ولم يتورعوا في التفكير بنمط علمي وموضوعي عميق للأسباب الحقيقية وراء تلك الكوارث والحروب والنكبات.

### ج - موروث فكرة المقدس والمدنس في بلاد وادي الرافدين:-

لقد كان الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها تحترم الأحجار وتقديسها اعتقاداً منهم بأن تلك الأحجار تخبئ ورائها قوة خارقة ناجمة من قوة الشياطين والعفاريت. ومن أجل تجنب شرورها لا بد من العناية بها وتقديسها، ويزداد التمسك بتلك الرموز كلما ازداد ضعفهم أتجاه مخاطر الطبيعة كالأمراض والفيضانات وحصول القحط وشحة

المياة في بعض السنين. من هنا نشأت فكرة المقدس الدينى والمقدس  
الدينوى فى بلاد الرافدين، أذ تعبر فكرة أو جوهـر المقدس بالطاقة  
والشحنة أو القوة المركزية المسنولة عن التحكم فى المادة وجذبها نحوها  
وقد عبرت عن هذا الجوهـر أديان العصور الحجرية بالقوة السارية غير  
المشخصة وغير المنظورة حسب فلسفتهم، وهى قوة المقدس الكونى"  
طاقة الكون" التى يشعر بها الإنسان ولا يعرف معناها الا المقربين من  
تلك القوة، وممن يثبتون للعالم بمعجزة خاصة لا يستطيع فعلها أى أحد.  
أن قوة المقدس الكونى هذه تأخذ شكل القوة السارية لكنها تتجلى فى بعض  
مظاهرها العظمى فى توازن الكون وقوى الكواكب والنجوم وتناغمها،  
ولهذه القوى مظاهر مضطربة تعبر عن التحول من نظام معين الى نظام  
آخر وتنفض اعباء النظام القديم عنها. ولذلك كانوا يعتقدون بأن الأجرام  
السماوية كالنجوم والكواكب قابلة للتبديل والولادة وأنها عندما تستنفذ كل  
طاقاتها المتمثلة فى الضوء القادم الى الأرض فانها تسقط على الأرض  
على هيئة أحجار بأحجام مختلفة. وبالتالي لا بد وأن تكون هذه الأحجار  
الناجمة عن سقوط النيازك بكثرة فى ذلك الزمان بأنها ذات قيمة مقدسة  
حسب عقيدتهم. كما أن مظاهر القوى المضطربة هذه قد تظهر على  
الأرض على هيئة فيضانات وعواصف وزلازل وبراكين وغير ذلك من  
الكوارث الطبيعية. ولم يتمكنوا من تفسير هذه القوة السارية فى تلك  
الفترة، وأزدادوا خوفاً منها ولم يكن بأيديهم مايفعلونه سوى عبادتها  
وأرضائها لكي لاتعود وتغضب عليهم كرة أخرى.

وفى مقابل العالم الدينى المقدس الذى هو عند الإنسان القديم عبارة  
عن استسعار او حدس لطاقة الكون، كان هناك العالم الدينوى أو المدنس  
الذى هو فى تماس مع المادة. وهكذا وضع هذان العالمان المتميزان فى  
تضاد شديد، الأول: هو العالم المقدس الذى يسعى الدين لكشفه والتمثل  
به قدر المستطاع، والثانى: هو العالم المدنس الذى تسعى الدنيا لكشفه  
والتمثل به، وكان هذا التعارض قديماً وحديثاً، مثار جدل ساخن وتصادم

شديد، فقد كان المقدس يعادل القوة والطاقة والمثبوع للكيان والفعالية، بينما كان المندس المتمثل بكل مادة ملموسة يعادل الخواء والمادة التافهة الزائلة والمزيفة. ورغم أننا لانميل لفصل الدين عن الدنيا فهما متداخلان شئنا أم ابينا، ولكننا من أجل الدراسة النظرية وألقاء الضوء على الأفكار الدينية والأفكار الدنيوية وهي تتلاحم وتتفصل ضمن محرکاتها أحياناً وتتفصل أحياناً أخرى ضمن قواه الداخلية. فكما أن جوهر الدين يكمن في المقدس فإن جوهر الدنيا تكمن في المندس وأن نواة وجوهر هذا المندس تكمن في الجنس البشري. أما الطاقة السارية فهي جوهر المقدس. وقد تكون تلك الطاقة كامنة وغير ظاهرة للعيان، كالمكان المقدس والمعبد والكتاب المقدس في مقابل الأماكن الكونية التقليدية كالبيوت والشوارع والأراضي الزراعية وغيرها من الأماكن الدنيوية المحيطة بنا. وهكذا صار اهتمام الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها يهتم اهتماماً شديداً بالأماكن المقدسة ولايبال بغيرها التي يعتبرها مدنسة. وجاءت تلك المفاهيم ضمن مواريت تاريخية قديمة جداً في عقول الكثيرين منا. وهناك العديد من الأمثلة عن أحداث دموية وكوارث حصلت في التاريخ، لأسباب قد تكون ظاهرياً تافهه من وجهة النظر الحديثة للقداسة ودرجة تأثيرها على حياة الأنسان وسعادته. وهكذا أحتوت بلاد الرافدين أكثر من غيرها من البلدان في المنطقة على أماكن تعتبر مقدسة لايسطيع أحد المساس فيها كذلك أنقسم الزمان ( حسب اعتقاد البابليين ) الى زمان مقدس أسطوري حصل فيه حدث عظيم مثل بداية الخليقة أو الطوفان (قصة طوفان) كما في نزول الوحي أو الشهادة في القتال في سبيل الله عند المسلمين... الخ في مقابل زمن تاريخي تقليدي يضح بالأحداث الدنيوية العادية. ويتم أستعادة الزمن الأسطوري المقدس من خلال طقوس الأعياد الدورية التي هي بمثابة استذكار لذلك؛ الزمن، وأعادة تكثيف له وسط تراتب الزمن التقليدي. ومن هذا المنطلق اصبح كل شئ مباح عند الزمن التقليدي المندس، في حين يحرم عمل الكثير من الفعاليات الدنيوية في

أوقات معينة من السنة تعتبر مقدسة لديهم وهكذا تتناظر الرموز السماوية عن الرموز الأرضية، ويتناظر النص المقدس ( الكتاب البابلي المقدس ) عن بقية الكتب. وكذلك يحمل الملك كثافة مقدسة لديهم أكثر من غيره من البشر وهكذا. ولقد كان المقدس منذ العصور الحجرية للإنسان القديم أمراً مدهشاً وغامضاً شُد فيه الإنسان الى عالم آخر وجعله يشعر بأنه لا يعيش وحيداً في هذا الكون بل أنه مرتبط بجوهر كوني سرعان ما يعود اليه ويتحد معه بعد الموت بصور وأشكال مختلفة حسب مخيلة الإنسان القديم في كل منطقة من مناطق العالم، وكانت تلك المعتقدات تتجسد في الرسومات والمنحوتات التي كان يصنعها ذلك الإنسان الحجري في الكهوف والبيوت القديمة جداً. ولم ينفرد بهذا المعتقد أهل الراقدين بل سرى على جميع أرجاء العالم تقريباً. وكان نموذجاً يمثل مرحلة من مراحل تطور العقل البشري ضمن البيئة التي يعيش فيها، وما وفرته تلك البيئة من معلومات وادوات متراكمة حوله، قادت الى الوصول لمثل هذه الأفكار والنظريات. الا أن الشيء المميز هنا هو رسوخ الأثر المقدس من حيث المكان والزمان في بلاد وادي الراقدين ليصبح جزءاً من حياتهم ومورد رزقاً لهم الى يومنا هذا. بالإضافة الى المكان والزمان المقدس فقد أخذت حروب التوسع بالإمبراطوريات كالإمبراطورية الآشورية شكل القتال المقدس والذي عرف فيما بعد بالجهاد المقدس. أي أن الآلهة تأمر ممثلها على الأرض والمتمثل في الملك أو القائد، ان يخوض حرباً ضد الأعداء، وهي بالتالي حرب مقدسة من أجل إرضاء الآلهة. وهكذا استخدم الآشوريون شتى الوسائل القسرية في تجنيد الناس وإجبارهم على خوض معارك بحجة القداسة، بينما كانت تصب في صالح الملوك والأمراء. وكانوا يستخدمون البشر كجسور لعبور الآخرين أحياناً ولا يعبهون بالأرواح والخسائر البشرية التي تنجم عن تلك الأفعال، كما يستدل على ذلك من خلال الرسومات المنحوتة على بعض الجدران في مرور الجيوش على جسر من البشر تحتهم. ولم تكن للحياة الدنيا قيمة لديهم في

ذلك الوقت وكانت حياتهم مرهونة بأوامر وإرادة الآلهة ولا يمكن لأحد أن يحيد عنها أو يعصياها. وهكذا اتخذ القوم من الحروب المقدسة وسيلة لكسب الطاقة المعنوية المطلوبة للقتال، واستطاعوا من التوسع في إمبراطوريتهم شرقاً وغرباً لتشمل كل أرجاء الشرق الأدنى في غضون القرن السادس قبل الميلاد. ولا بد من الإشارة هنا على ان القائد المغولي "جنكيز خان"، وقد استخدم ذات الأسلوب حينما صعد فوق التل ليقول لقومه بأنه جاء له إichاء من السماء بخوض الحرب وتوسيع مملكته، وقد استطاع أن يحشد جيوشه وأن يقيم أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ من خلال إدخال هذه الأسطورة في عقول قومه الرعاة المتوحشين كما سنأتي لتفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب. أن أول طرق التعامل الجدية مع هذا المقدس الديني كان السحر (الذي هو أول عتبات الدين) وقد كان السحر أما حقيقياً يتضمن وجود قوة براسايكولوجية (قوة الحدس والحواس المخفية في عقل الإنسان والتي تسمى بالحاسة السادسة) والخرافة عند المتعبد والتي تؤثر على بعض قوانين القوة السارية المعتادة لدى الإنسان. أو أن تكون قوة وهمية شكلية يحاول بها الساحر أن يؤثر بها من خلال منطلق نفسي معين على قوانين هذه القوة. ويستطيع من سلوكه وتصرف معين أن يقنع الناس المحيطين به بوجود قوة غير اعتيادية يمتلكها هو دون غيره، جعلت منه انساناً قادراً لصنع شئ ما لا يستطيع غيره أن يفعله. وبالتالي أمثلك جزء من القداسة التي يدعي بها. وأن هذه القداسة لم تأتي اعتباراً اليه بل أنها مُنزلة من المقدس الأعلى منه أو الطاقة المسيرة لكل الأمور في الكون. وهكذا كان السحر أول أشكال العلاقة بين الإنسان والمقدس، ولذلك فهو أول قناة للاتصال بين المقدس والإنسان<sup>(1)</sup>. وتتضمن هذه القناة شحنات إيجابية من الإنسان المقدس (وهو مانسميه بالسحر) وشحنات سلبية الى الإنسان (وهو مانسمية بالخرافة) وكلاهما كان من وجهة نظرنا العلمية أول شكل من

(1) هاري سلكز المصدر السابق 211. عبد الوهاب رشيد المصدر السابق 93.

أشكال الشعر، إذ أن الشعر بصورته العلمية إنما يعبر عن ممارسة من تركيب كلمات وجمل ذات وقع موسيقي مؤثر في أذن السامع. وجاءت في مرحلة أخرى متقدمة بعد السحر وهي مرحلة الأرواحية وظهور الآلهة فقد تجسدت مرحلة الأرواحية في تلاوة التعاويذ التي كانت وظيفتها طرد القوى الخفية، التي تأتي بالبشر الى البشر والمتمثلة بالشياطين، وأحاطة الشخص المصاب بداء معين مثلا بسور من الحماية أو الحجاب عن ذلك الشر أو ذلك الشيطان<sup>(1)</sup>.

أن ما يهنا هنا في هذا المبحث ومن خلال تعرفنا للمقدس وعلاقته بالموروث الفكري لأنسان بلاد الرافدين، هو مبدأ عدم التخلي عن الحاكم الظالم المتسلط على رقاب الناس من خلال ما يمتلكه من قداسة وقوة سماوية خارقة (حسب اعتقادهم) وماتبقى من هذا الموروث الذي ظل معشعشأ في عقولنا لآلاف السنين مضت، من تاريخ هذه المنطقة وربما في مناطق الشرق برمته. فقد كان دائما يعبر عن الشعب بالرعية وهم خدم مطيعين للحاكم (الملك). ومن الصعوبة بمكان أن يدركوا أن الحاكم ماهو الا بشر مثلهم ويجب أن يكون هو وحاشيته خدما للشعب ويجب أن يتم اختياره منهم، ويجب أن يتبدل كل فترة زمنية محددة، وبعد إجراء أنتخاب من قبل الشعب. أن تلك المفاهيم الديمقراطية الغربية عن المنطقة لم تكن من نسج الخيال في مناطق أخرى من العالم وحتى في التاريخ القديم. فلو عدنا الى حضارات في مناطق أخرى وتفحصنا ماكانوا يمارسونه من طرق اختيار لحكامهم، نجد أن اليونان مثلا كانت تمارس قدر كبير من تلك الممارسات الديمقراطية في عصور قبل الميلاد، وهكذا الحال بالنسبة للرومان. ويبدو أن تلك البلدان كانت بعيدة عن المنطقة ولم يكن هناك اتصال حضاري يكفي لنقل تلك الأفكار الا في فترة متأخرة. أن ذلك لايعني أن الملوك والحكام في تلك المناطق كانوا أقل قسوة وظلما من ملوك وحكام بلاد الرافدين في تلك الفترة، الا أن هناك أختلاف في الأساليب وطرق العقاب والثواب المطبقة في كل منطقة ضمن المراحل الزمنية المختلفة ويتباينون في طرق اختيارهم وتنصيبهم للحاكم. فقد كان الأغريق والرومان مثلا يجرون سباقات رياضية عنيفة جدا ليظهروا من

(1) المصدر نفسه 213.

هو الأقوى من القوم ليتم اختياره ملكاً عليهم ومثال على ذلك كان الإمبراطور الأغرقي المشهور هرقل الذي كان حاكماً على الإمبراطورية البيزنطية برمتها في بداية القرن السابع الميلادي، والذي اشتهر في قوته الجسمانية الموصوفة بالخارقة كما يمكن أن نضرب مثلاً على كيفية اختيار الحاكم في اليونان عن طريق الانتخاب وذلك بوضع أنواع من الحصى الصغيرة بألوان مختلفة في صناديق الاقتراع كلاً يمثل واحداً من المرشحين الذين كانوا يعملون الدعاية لأنفسهم بين الناس قبل إجراء الانتخاب وكانوا يلبسون البدلة البيضاء ويطوفون في المدينة ويدعون بالكandidates (أي المرشح). وهكذا بقيت التسمية إلى يومنا هذا عن المرشح لكل شئ كالمرشح للشهادة الجامعية والمرشح لنيل الجائزة وغيرها. وهكذا فهناك أمثلة كثيرة في التاريخ يمكن للمتابع الوصول إليها لمعرفة ما يدور من خيارات وأحداث أصبحت أرتناً لتلك الأمم لها تأثيراتها السلبية والإيجابية على سير الأحداث في التاريخ الحديث. أن الموروث الثقافي لسكان بلاد الرافدين عند زمن السومريين والبابليين لا يمكن في قداسة الحاكم المتسلط فحسب، بل يتعدى ذلك إلى وراثته للأبناء والأحفاد. فكما كان الناس يترقبون ويبدون ولانهم للمقربين من الملك أو الحاكم ومن أولاده وحاشيته، كانوا يعتقدون بأن القداسة المتمثلة بالقوة الإلهية، تنتقل هي الأخرى بالوراثة إلى الأبناء، وإلى أجيالهم القادمة على مر الزمن، وبالتالي فإن الاحترام والتبرك والتقديس كان سارياً لتلك الأجيال من الملوك والحكام والكهنة وبشكل خاص إذا كان ذلك الحاكم مؤثراً بقوة من خلال فعله المتميز. لقد بقي الناس في بلاد الرافدين يفتشون عبر السنين عن حاكم أو ملك يتسلط عليهم ويقودهم حتى وأن كان بالنار والحديد، ومن هنا جاءت تسمية الراعي والرعية تشبيهاً للحاكم والشعب والتي ترجع في الأصل إلى راعي الماشية ورعيته من الأغنام والماعز يتحكم بهم كما يشاء ويبيع ويشترى بهم متى ما شاء. أن الأفكار والمعتقدات السائدة لديهم قد أبعدتهم كل البعد عن تصور أن الحاكم يجب أن يكون خادماً للشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات وما إلى ذلك من مفاهيم ديمقراطية كانت قد أخذ بها فلاسفة اليونان القدماء وأستمد منها الغرب وعملوا بها منذ فترة طويلة. وتكرست لديهم تلك المفاهيم بحيث أصبح الفرد الأوربي في العصر الحديث يؤمن بأنه هو السيد في بلاده وأن كل ما يدور حوله هو مسخر لخدمته، لا لأذلاله وتحطيم معنوياته. أنه يشعر



بأن جميع السلطات الحكومية قد وجدت من أجله ولخدمته وتلبية حاجاته وأنه هو وحده الأهم والأحق في بلده وأن الحكومة وجدت لخدمته. من هذا المفهوم ينطلق الفرد في العالم الغربي ليتفهم أن عليه حقوق وواجبات مثلما منحتة تلك السلطات من حقوق وأميازات وأستحقاق. وهكذا أصبح الإنسان لديهم حراً في تفكيره وتطلعاته الى المستقبل وأحترامه للقانون ودفاعه عن كيانه ودولته وأمتة التي منحتة كل تلك الأميازات والحرية. وبالتالي أستطاع أن يبدع ويغور في البحار والمحيطات ويغزو الفضاء وكل تلك الحضارة الحديثة التي نعيش في كنفها بما فيها من علوم وتكنولوجيا مذهلة في كافة المجالات

لقد سخر الحكام المستبدون كل المعتقدات والمفاهيم والنظريات من أجل بقاءهم وبقاء سلطتهم بأسماء وعنوانين مختلفة عبر التاريخ. أن القيود وذلك التسلط من قبل الحكام كانت واحداً من أهم أسباب بقاء الإنسان في بلاد الرافدين يعيش بنفس الأسلوب والأدوات والمعدات التي كان يعيشها أجداده منذ آلاف السنين دون حصول تغيرات جذرية، ودون أسهام فعال في رفد العلوم الحديثة كجزء من نشاط العقل البشري الشامل على هذا الكوكب، الا النذر اليسير، وابطس مثال على ذلك ماكان عليه الحال في أهوار العراق الجنوبية وغيرها من المناطق. لقد كانت تلك المناطق ذات الحضارة السومرية العريقة عرضة للغزوات تلو الغزوات والحروب المدمرة من مناطق وأطراف بعيدة عنها عبر فترات زمنية متعاقبة، مما زادت في قهره ومعاناته. فكيف له أن يحارب ويُقتل و في قرارة نفسه أنه يحارب من أجل الحاكم ومن أجل زيادة ثروته ومزيديا من القيود على رقباه وهو مضافا لما تفرضه البيئة من صعوبات ومصائب عليه بالإضافة الى طبيعة الأرض التي يعيش فيها والمتصفة بالانفتاح وعدم وجود حواجز طبيعية لمنع الأعداء من الوصول اليها وغزوها. وأخيراً نقول لقد أصبح مفهوم الحاكم المستبد والظالم أمراً مقبولاً ومسلماً به في بلاد الرافدين عبر التاريخ وماعلى القوم الا الدعاء بأن يجلب الله لهم حاكماً رؤوفاً وأقل قسوة من سابقه وماعليهم الا أن يصبروا الى أن ينتهي الحاكم الأكثر ظنماً بطريقة ما عسى أن يأتي بعده حاكماً أقل منه قسوة وتسلطاً.

## دموروث حالة الخوف والتشاؤم في بلاد الرافدين:-

الأمر الأخطر من كل ماورد هو حالة الخوف والتشاؤم التي يتصف بها الإنسان في بلاد وادي الرافدين والناجمة من العوامل الرئيسية الثلاثة المسلطة على رقابه وهي خضوعه لقرارات القدر التي تقررها الآلهة، وخضوعه الى السلطة المطلقة التي يمارسها الملك نائبالآلهة في أرضه، وخضوعه لوهم هجمات القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفرات المحيطة به، وبالأضافة الى مايعانيه من كوارث طبيعية حقيقية كالفيضانات والأوبئة وحرارة الجو المحرقة في الصيف، كل تلك العوامل جعلت من حالة التشاؤم والحزن أمراً ملازماً لشخصية الإنسان في بلاد الرافدين الى يومنا هذا. وبالمقارنة بالإنسان المصري الذي هو قريب اليه من حيث طبيعة الأرض والمناخ، نجد أن هناك فروقا واضحة وملموسة(1)، لعدم حصول الفلاح المصري على نفس الكوارث الطبيعية التي كان يتعرض لها أنسان بلاد الرافدين، حيث أن فيضان نهر النيل كان يحصل في أوقات محددة ومعروفة لديه. وكان يستعد لها ويهيء لزراعته في مواعيد منسجمة مع فيضاتها، بالأضافة الى أن الجفاف وحرارة الشمس أخف في مصر عما هو عليه الحال في منطقة وادي الرافدين. ولذلك تمكن الإنسان المصري أن يخلق حالة من الفرح والفن المقترن بالأرث الفولكلوري الغنائي والرقص والموسيقى والتمثيل والأستنناس بالفكاهة والضحك لدرجة مميزة، ونجد الفرق واضحا الى الآن في هذا المجال بالذات. أن ملازمة الحزن والبكاء في حياتنا في العراق قد أصبح أرثا واضحا لدينا حتى في مناسبات الأفراح، ففي حفلات الزواج والأعراس والموايد نجد أن العائلة العراقية تحاول أن تستنكر أحزانها القديمة وأحيانا تقيم مراسيم العزاء للأنمة والرموز المقدسة في تلك المناسبات بدلا من الفرح والضحك في بعض مناطق

(1) جورج كونتينو "الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور" ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام  
Hawkes Jacquetta p. 186 وكذلك 501 (1979)

العراق. ومن الجدير بالذكر أن مواكب العزاء والمراسيم التي تقام بمناسبة عاشوراء أحياءاً لذكرى مقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في المناطق الجنوبية والوسطى من العراق ما هي الا تعبيراً صادقاً عن حالة الحزن والتشاؤم التي يعاني منها العراقي والموروثة من أيام السومريين والبابليين. وقد يكون أسلوباً مشابهاً قد مورس بشكل أو بآخر وبمناسبات تاريخية وقصص مختلفة عبر الأجيال المتعاقبة الا أنها تحمل نفس الطابع الحزين والمتشائم. أن رسوخ هذا الطابع المتشائم في عقول الناس قد جعل من الصعب جداً القضاء أو إزالة تلك المراسيم مهما عملت الدولة من منع أقامتها في فترات زمنية مختلفة من تاريخ العراق الحديث وذلك باستخدام القوة العسكرية، إذ تختفي لفترة محددة وتعود بعدها كلما سنحت الظروف لذلك بزخم وعنف أقوى وأكثر اتساعاً من السابق. لقد أصبحت تلك الممارسات الوسيلة الوحيدة التي يريح الأُنسان فيها عن نفسه ويزيل بها جزءاً من همومه وأحزانه حتى أنهم يتهيئون لها منذ مدة ويبتدعون القصص والأضافات لأجل أطالتها والتوغل في تفاصيل وحوادث محزنة تسهل على السامع من زرف الدموع بغزارة. وقد أصبحت كذلك مورداً اقتصادياً مهماً من خلال توسيع السياحة و قدوم الناس من أطراف بعيدة الى مناطق إقامة تلك المراسيم. أننا لسنا في مجال الاعتراض على تلك المراسيم والطقوس الدينية التي تقام حتى في الوقت الحاضر، إذ أن هناك مراسيم وطقوس دينية لاتزال تمارس في دول ومناطق مختلفة من العالم بأشكال مختلفة تنبع من تراثهم الفكري القديم، وعلى سبيل المثال لاتزال تمارس والى وقت قريب في بعض القرى في إيطاليا وهي بلد متقدم من الطراز الأول، إذ يقفون بشخص شبيهه بالسيد المسيح ويعملون به عملاً مشابهاً لما تم فعله في أيام الرومان بالسير الى الصليب ويجولون به في أنحاء القرية للتشبيه بالعذاب الذي كان يعاني منه السيد المسيح (عليه السلام) أثناء تلك المسيرة وتمارس هذه الطقوس كل عام ضمن الواجبات الدينية لديهم وكذلك

تمارس الطقوس والتقاليد الدينية في الهند والصين والعديد من دول العالم بأشكال مختلفة إلا أن المبالغة في حالة الحزن والتشاؤم الموروثة من قديم الزمان والتي تمارس طقوسها الى حد الآن في بلادنا، قد حددت من طموح الإنسان ورغبته في التفكير بتحسين حاله وممارسة عمله وطموحه في التطلع الى مستقبل أفضل. أن حالة الحزن والتشاؤم التي تنسم بها شخصية الفرد العراقي بالذات، كانت ولا زالت إحدى العوامل المؤثرة جداً في قدراته لتخطي كافة العقبات التي تواجهه في حل مشاكله اليومية وتحديد طموحه نحو المستقبل، وبالتالي أعماده الرئيسي على الغير في تغيير نمط حياته. ولذلك نجد الكثير منا ينتظر من يأتي اليه من الخارج لينصحه بعمل ما يكون من شأنه تطوير البلد وتحسينه دون أن يساهم هو في ذلك، أو أن تكون مساهمته مقصورة على جهد عضلي محدد. أن إنتزاع الحزن والتشاؤم وأحلال الفرح والتفاؤل منذ الطفولة مروراً بفترة الحداثة والشباب تسهم في زرع الأمل والتطلع لحياة أفضل ومستقبل مفرح وزاهر. أن نشأة الإنسان ومنذ طفولته وحداثته على الحزن والتشاؤم تخلق محيطاً خصباً لكسب الشباب نحو أعمال العنف التي نشهدها حالياً، وذلك في سهولة أقناعهم من قبل الكبار في تفجير أنفسهم من خلال عمليات غسل الدماغ بأفكار تؤول الى ان هذه الحياة التي يعيشونها لاجدوى منها ولا يوجد فيها ما يبهج النفس ويمتعها. ولذلك نجدهم يذهبون بسهولة نحو الهاوية والهلاك معرضين أرواحهم وأرواح غيرهم الى الفناء. أن حالة الحزن والتشاؤم والتي أصبحت جزءاً من مكونات شخصية الفرد العراقي والموروثة منذ عصور قديمة إنما تقلل من قيمة الحياة الدنيا والتمسك بها والأستمتاع بملذاتها كما يفعل الأوربي مثلاً، وما ينتج عن ذلك من سهولة في تضييعها وهدرها بأي شكل من الأشكال، وعدم الأكتراث في تضييع الوقت والفرص الساتحة في التقدم والتطور نحو الأفضل. وقد يؤثر ذلك سلبياً في بناء المجتمع على أسس صحيحة وقوية ومحترمة من قبل العالم كله. ولو أننا عدنا الى علم النفس وتحليل

الشخصية، لوجدنا أن حجم الحزن والتشاؤم هذة تؤثر تأثيراً خطيراً على سلب أرادة الفرد ومنعه من القدرة على اتخاذ القرار الصائب، وبالتالي نجد الإنسان غير قادر على اتخاذ قرارات تخص حياته الشخصية ومستقبله ويكون معتمداً على الغير في توجيهه وتسيير أموره. أن حالة الخوف التي ذكرناها سابقاً بالإضافة الى الحزن والتشاؤم التي أصبحت سمة من سمات شخصية الفرد في بلاد وادي الرافدين، قد أثرت على قدراته العقلية وأتخاذة القرارات الصائبة التي يحتاجها ضمن حياته ومعيشته. ولما كان المجتمع عبارة عن مجموعة أفراد فإنه بالتالي يتصف عموماً بصفات تلك المكونات وتكون درجة تطور وتقدم ذلك المجتمع نحو الرقي والأزدهار مرهونة بصفات شخصيات أفرادهِ. لذلك فقد أتسمت حالة الضعف والتدهور على المجتمع ككل بما في ذلك كافة مؤسساته وأحزابه وفئاته، وبالتالي فقد أدت به لأن يكون عرضة للغزوات من جهات عديدة في التاريخ القديم والحديث. كما أن تلك الصفات والسمات كانت إحدى الأسباب الرئيسية في تدهور الوضع السياسي المعاصر وفي مسيرة العراق الحديثة وفي المطبات والمهالك التي لانزال نعاني منها الى يومنا هذا.

ومن هنا نوصي المسؤولين في العراق أن يضعوا نصب أعينهم وضمن برنامجهم السياسي بعيد الأمد، كيفية بناء وإعادة بناء شخصية الإنسان العراقي، وذلك باستعادته بنفسه من خلال برنامج تربوي مكثف ابتداءً من طفولته مروراً بمرحلة الشباب، وبكل الوسائل المتاحة. وضمان حياة مستقرة آمنة بعيدة عن الخوف والمخاطر، لكي يستطيع بناء شخصيته القادرة على اتخاذ القرارات الصائبة في حياته الخاصة والعامة. وبالتالي ستكون النتيجة الأبداع والمساهمة في ركب الحضارة العالمية الحديثة عموماً، وأستعادة بناء وطنه المخرب، والسير قدماً الى الأمام اسوةً ببقية بلدان العالم المتمدن. لقد كانت الخطوة الأولى الهامة والمبشرة بالخير في هذا الأتجاه هو السير في بناء الديمقراطية والتي يجب التمسك وعدم التفريط بها مطلقاً، حيث أن هذه السكة ستقود بالنتيجة الى زرع الثقة بالنفس، والبدء بأستعادة الشخصية القوية الواثقة وطرده المخاوف

والتشاؤم والحزن الموروث منذ آلاف السنين. لقد أن الأوان للمسئولين في السلطة أن يكتفوا من برامج الفرح والبهجة ونبذ برامج الحزن والتشاؤم، وتقليص التحضير والأعداد للأحزان والبكاء في مناسبات تاريخية ذهبت مع الماضي بكل ما فيها من مفاهيم وقيم، ولم يبق لها من مقومات الأستمرار والصعود. لقد أن الأوان بأن نعيد حساباتنا في مواردنا التاريخية، ونمسح ما هو ضار ومؤذي ومعرقل لمسيرة التقدم والبناء الصحي، ونبقي على ما هو نافع يدعو الى الأعتزاز والفخر، ويزيد الثقة بالنفس ويبعد الخوف والتشاؤم ويزرع الأمل في المستقبل. وبالتالي أن يتعلم الإنسان الحب وكيف يحب الحياة ويحب الناس ووطنه ولا يفرط بهذه الحياة التي وهبها الله له مطلقاً. وقد تؤدي حالة الخوف والأحباط لدى الإنسان بالشعور بالأنكسار والهزيمة النفسية والتي تقوده بسهولة لأن يجنح لأرتكاب الجرائم الكبرى. وقد يكون لقمة سائغة وسهلة للأنخراط في صفوف المتطرفين والأرهابيين من خلال حالة الهروب من الواقع المنهزم الذي يعيش فيه أو يتهيأ له بأنه يعيش فيه.

## 7-خلاصة الفصل الأول:

يمكن أن نستخلص من مواريت الحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين والتي كانت من أقدم الحضارات في العالم النقاط الرئيسية التالية:

1- لقد نشأت حضارة وادي الرافدين القديمة من خلال أكتشاف الإنسان للزراعة وكان من بين معالمها الرئيسية الكتابة، والفخار، وسن القوانين الخاصة بتنظيم الحياة، والمدن، وقد تطورت العقيدة الدينية ابتداءً من شكلها البسيط من خلال معاناة الإنسان من الكوارث الطبيعية والفيضانات للأنهار والهجمات الخارجية، الى أن وصلت الى مرحلة تدوين ملاحم وأسفار كانت أساساً للعديد من الديانات التوحيدية اللاحقة، الا أنها أصبحت تشكل قيوداً وأسباباً في تحجيم وعرقلة تقدم وأزدهار تلك الحضارة عن طريق اعتمادها على السحر والميتافيزيقية في التفكير ومعالجة المشاكل المحيطة بها، وأبتعادها عن المنهج العلمي السليم المعتمد بالتفتيش عن السببية.

2- أن الأثر الثقافي الخاص بمفهوم السيطرة والتسلط السلطوي (الدكتاتوري \_ أو الشمولي) الراسخ في عقلية الفرد الشرق أوسطي والعراقي بالذات تمتد جذوره من الموروث الثقافي منذ عصور الحضارة الرافدينية القديمة، والنابعة من فكرة أن الحاكم أو الملك يستمد سلطته من الأله الحامي، والذي كان يمثل الأله في الأرض في ذلك العصر. وظلت فكرة الحاكم المستبد يُخدم من جميع الناس وفق مفهوم أن حياة الناس وجودهم مستمدة من وجوده هو ورضاءه عنهم. وتوارث تلك السلطة الى الأبناء والأحفاد قد أصبحت أرتناً متناًصلاً الى فترة طويلة من الزمن ليصعب التخلص منها وكانت سبباً للعديد من المعاناة والكوارث والقصور السياسي في المنطقة.

3- أن حالة الخوف والتشاؤم الموروثة في عقول الناس في بلاد الرافدين والناجمة عن معاناة الإنسان من الكوارث الطبيعية والظروف المناخية الحارة والتسلط الدكتاتوري السلطوي ومفاهيم القضاء والقدر ضمن العقيدة الدينية للقوم في ذلك الحين، قد

أصبحت سمة مميزة من سمات شخصية الفرد العراقي التي تعايشت معه عبر آلاف السنين. وقد أستطاعت من النيل بطموحاته وتطلعاته في التقدم والأستمرار في بناء حضارته المتميزة. ومنعت من وصوله نحو الخطوط الأمامية بين الشعوب الأخرى والحضارات البشرية الأخرى التي أصبحت متميزة عن حضارته بكثير علماً بأن حضارة وادي الرافدين كانت الأقدم. أن سمة الخوف والتشاؤم في شخصية الفرد العراقي أصبحت مرابطة له عبر التاريخ وحددت من تقدم وأزدهار الحضارات التي تلت الحضارة الرافدينية القديمة من خلال تحجيم القدرة على اتخاذ القرارات الصائبة وتأطير الطموح في التقدم والأزدهار في البلاد.



**الفصل الثاني**

**تاريخ الجزيرة العربية**

**قبل الإسلام**

## الفصل الثاني

### تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام

لما كانت بلاد الرافدين جزء من الجزيرة العربية، ومن أجل اكتمال الصورة عن مواريتنا التاريخية لا بد لنا من لقاء ضوء بسيط عن تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام على اعتبار أن ما كان يجري في المنطقة ككل، كان ينعكس مباشرة على جميع أنحاء المنطقة ومنها بلاد الرافدين بالإضافة لذلك فإن وفرة المصادر التاريخية للمنطقة تتيح فرصة أسهل للدراسة والبحث الشامل والمترابط. أن موجات الهجرة من الأقوام السامية والتي كانت قادمة من الجزيرة العربية<sup>(1)</sup> واليمن ومناطق محيطية بهما إلى بلاد الرافدين ضمن موجات كانت في غالبها ناجمة عن حروب بين القبائل المتصارعة في الصحراء الشحيحة من الموارد الطبيعية وبالتالي فإن نزوح تلك القبائل إلى ضفاف نهر الفرات أولاً، عبوراً إلى ضفاف دجلة ثانياً تجعلها تجد ما تحتاج إليه من ماء وما يتيسر لها من عشب يكفي ويشجع في بقاءها دون الأكتراث بالعودة إلى مناطقها الأصلية التي نزحت منها أي من عمق الصحراء داخل الجزيرة العربية ولا يعود إلا القليل من القبائل المهاجرة والأكثر توحشاً<sup>(2)</sup>. وهكذا أصبح العراق ومنذ زمن بعيد قبل دخوله في الإسلام في غالبية من العرب، بينما بقيت الأقوام الأخرى القادمة من المناطق الشمالية والشرقية محصورة في مناطق محددة في الجانب الشرقي من دجلة، وفي الشمال حيث المرتفعات والجبال التي لا تتلائم وطبيعة البدو القادمين من الصحراء في الجزيرة العربية. لذلك ولكي تكتمل الصورة عن مواريتنا التاريخية، لا بد لنا من مناقشة طبيعة الحياة الاجتماعية وتطور المعتقدات الدينية والجوانب الاقتصادية خلال الفترة التي تلت سقوط بابل ولغاية ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، والتي تقرب من عشرة قرون، إذ أن المنطقة بعد ذاتها مترابطة جغرافياً ولا يفصلها حاجز طبيعي أو سياسي يمنع من الاتصال بين الأسر والقبائل التي كانت تعيش فيها ولم تكن هناك حدود سياسية واضحة كما هي عليه الآن في منطقة الشرق الأدنى فقد كانت القبائل الصحراوية تنتقل أينما تجد هناك عشب وماء يكفي لبقاءها وتتحول في جميع أرجاء الجزيرة العربية مروراً بالعراق ثم تمتد أحياناً لتصل إلى أواسط آسيا من دون أن تحتاج لموافقة سلطة مركزية بالتنقل.

(1) احمد سوسنة" حضارة وادي الرافدين بين الساميين والمومريين سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للنشر

1980.

(2) ستيفن همبلي لونيكرينك "تاريخ العراق بين عام 1900-1950" ترجمة جعفر الخياط.

أن المعتقدات والعادات الاجتماعية في الجزيرة العربية قد تأثرت بشكل كبير في حضارة وادي الرافدين بحيث يمكن اعتبارها جزءاً مكملاً لتلك الحضارة. أن تاريخ العرب قبل الإسلام موضوع شائك وطويل ويحتاج للعديد من المؤلفات. وأن ما كتب بأعتقنا من المراجع الهامة نخص بالذكر منها "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد علي<sup>(1)</sup> والذي أحتوى على 12 جزء بالإضافة للأخرين أمثال د.محمد عابد الجابري في دراسته عن "العقل السياسي العربي"<sup>(2)</sup> وكتاب "تاريخ العرب" لفليب حتي وغيرهم.

وكل ما نحتاج إليه هو الجانب الاقتصادي والعلاقات الطبقيّة التي كانت سائدة لغرض فهم طبيعة التطور الفكري والديني للمجتمع والمنسجمة مع طبيعة تلك العلاقات وظروفها المناخية والجغرافية، وبالتالي زيادة الفهم عن مواريتنا التاريخية وسلوكنا المتأثر بتلك المواريت في عصرنا الحاضر.

ولذلك سوف نقصر بالأشارة لأهم النقاط التي تهم موضوعنا: -

## 1 - الزراعة والرعي يشكلان نمط الحياة الاقتصادية في الجزيرة: -

مما لا شك فيه أن الزراعة تعتمد بالدرجة الأساس وعلى الأقل في العصور القديمة التي نحن بصدها على وفرة المياه والأمطار وخصوبة الأرض، ولما كانت الجزيرة العربية متميزة في نقص الأمطار، فقد أصبحت الزراعة فيها محدودة جداً، ومقتصرة على مناطق محددة في الجنوب (اليمن) وبعض الواحات في الوسط، ولكنها قد تكون مزدهرة نسبياً في شمال الجزيرة (والمقصود هنا بلاد الشام وأرض الرافدين).

لكن الرعي الذي يعتمد على عناصر مختلفة عن الزراعة كأستئناس الحيوان وتطور الأدوات المعدنية بالإضافة للزراعة كجزء مطلوب في تغذية الإنسان والحيوان معاً، أن هذه العوامل كبيرة الأهمية لكون أن عالم الزراعة سيبقى بلا تطورات جذرية في حين أن أستئناس الأبل والخيول وجلب المواد الحديدية التي كانت من أسهم الأقوم الأكثر بربرية في المنطقة مثل أقوم الهكسوس الذين عاشوا في الجانب الغربي من الجزيرة وكانوا ملوك الرعاة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وأحدثوا الكثير من الخراب، مما أدى بالفعل لتحول التأثير الأكبر في التاريخ إلى الرعاة على حساب المزارعين. أن أنتشار الحديد والخيول وتغفل الأبل في

(1) جواد علي "المفصل لتاريخ العرب قبل الإسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (1965).

(2) محمد عابد الجابري "العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت شباط (1990)

الجزيرة العربية، قد أهل المناطق الأكثر اتساعاً وصحراوية فيها بأن تتمتع باستقلالها شبه المطلق في مناطقها الصعبة والوعرة.

وقد حاول الرومان مرة واحدة من غزوها في حملة عسكرية عندما عرفوا أن بلاد اليمن تدفع ضريبة إلى السلطة الفارسية في إيران، فأصيبوا بكارثة كبيرة في تلك الحقبة التاريخية وعادوا بخسارة كبيرة ولكن البيزنطيين والإغريق، هم الذين استطاعوا من التقدم لاحتلال المناطق الساحلية الغربية، وظلوا مسيطرين على الجانب الغربي الشمالي أي بلاد الشام وفلسطين، بينما كان الجانب الشرقي من نصيب الأباطورية الفارسية (الآيرانية) لفترة طويلة من الزمن. وخلاصة القول فإن اقتصاد المنطقة كان مبنياً على القليل من الزراعة بينما سادت بعض الصناعات الحرفية البسيطة والتجارة فيما قبل غزو الهكسوس في الجانب الغربي من الجزيرة العربية، والتي تلت ذلك الغزو بقرون عديدة، فقد ظهر فيها أقوام الرعاة الآخرين وأشهر تلك الأقوام هم الآراميين والكتعانيين والعبرائيين والذين كانوا مهدين لظهور العرب جنساً ولغة في تلك المنطقة.

وأذ كانت الزراعة لاتتفصل كلياً عن الرعي في حقبتها الأولى، الا انها أحدثت انفصالاً واضحاً حين تمكن الرعاة من الأسئناس بالحيوانات ذات الأهمية القصوى في تطورهم، وبالذات رعاة الخيول والأبل، تلك الحيوانات المتكيفة تماماً مع الطبيعة الجغرافية للمنطقة، والتي تستطيع الصمود أمام قطع المسافات الشاسعة من الأراضي القاحلة، وقد فتح لها أفاق أخرى في ممارسة التجارة ونقل البضائع بين الجنوب والشمال وبالعكس، وبالتالي وفر المزيد من الثروة التي ساعدت على النمو والبقاء والسيادة لتلك الأقوام. لم ينفصل الرعي عن الزراعة، فحين تتواجد الظروف المائية الكافية كان يمكن الجمع بين الاقتصادين، الا أن الانفصال الكبير قد حدث ووجدت المساحة الأكبر لتطور الرعاة وهي الجزيرة العربية المتميزة بنقص مواردها المائية خاصة في المناطق الوسطى التي تعتبر مركز المنطقة كلها. ومن الملاحظ أن الممالك العربية التي كانت تقطن في الجزيرة العربية كانت ذات طبيعة أمومية<sup>(1)</sup> وليست

(1) أمومية: والمقصود بالأمومية هي أن تكون الأم معزولة عن نشأة الأطفال ويرجعون بالتسمية إليها نظراً لكثرة تنقل الأب وعدم مكوته كثيراً مع بقية أفراد عائلته وتلك إحدى سمات الحياة الرعوية الأولى في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

أبوية كما ذكرنا في الفصل الأول بالنسبة لسكان بلاد الرافدين أيام السومريين والبابليين. إلا أن صفة الأمومية لا تنطبق على المناطق الساحلية في اليمن والحجاز والبحرين وعمان تلك المناطق التي كانت أقل رعية من الداخل (داخل الجزيرة العربية). وذلك بسبب نشوء المدن الزراعية فيها. إلا أن العمق الرعوي هو الذي كان يتحكم في الحركة التاريخية للعرب حيث لم تستطع أية مدينة أن تفرض نفسها على الرعاة الأنداء عبر منطقة هائلة الأتساع.

ويمكن ملاحظة بدايات التطور الحضاري لدى العرب الشماليين القيسيين في مدائن صالح<sup>(1)</sup> ولدى المناذرة والغساسنة في العراق والأنباط في الأردن وفي الشريط الساحلي الغربي الحضاري للحجاز، والذي تآثرت فيه المدن التمدنية حيث كانوا يصنعون السيوف والرماح وبعض الأدوات الزراعية البسيطة، إلى أن جاءت سيطرة مكة (مركز الجزيرة) ترويجاً سياسياً واقتصادياً طويل الأمد. ومن خلال أنتعاش التجارة بين شمال وجنوب الجزيرة كما سنأتي عليه لاحقاً

## 2- الفروع الأخرى من الاقتصاد (التجارة والحرف البسيطة):-

لما كانت المدن في مشرق الجزيرة العربية وبلاد الرافدين قد تشكلت من القرية الزراعية التي كان المعبد ثم القصر هما شكلاً التطور السياسي الديني المهيمن فيهما كما ورد في الفصل الأول، فإن الزراعة في المشرق الخصب قد ساعدت في تشكيل السلطة السياسية التي سيطرت على خريطة المدن والمجتمع اقتصادياً أيضاً، وذلك من خلال فائض الزراعة، ومن ثم الحرف والتجارة التي شكلت الحياة الاجتماعية والثقافية المختلفة فيها.

ولكن الزراعة لا تمثل تشكيلة اقتصادية، اجتماعية متكاملة مثلها مثل الرعي والحرف، فهي مهن وعمليات إنتاجية وتوزيعية متعددة، على الرغم من أن الزراعة حرفة واسعة وتشكل المصدر الأساسي للإنتاج خاصة عند تواجد الأنهار الكبرى (مثل دجلة والفرات) والتي أنتجت

(1) تقع مدائن صالح في محافظة العلا في المملكة العربية السعودية حالياً وهي شمال المدينة المنورة فيها آثار هائلة لمدينة متروكة، ويعتقد أنها كانت مزدهرة لغاية القرن الثاني قبل الميلاد ومنذ ذلك الحين أصبحت مهجورة ولا يسكنها أحد.

أوسع الحقوق الزراعية ودعت الدولة للهيمنة المطلقة عليها، بسبب الصعود السريع للأجهزة الاقتصادية والسياسية فخضعت الحرف والتجارة للتطورات الحاصلة في الزراعة، مستفيدة من فيضها بل ومؤثرة عليها، إلا انهما خضعتا للتطور في النتيجة النهائية فعلى طريقة توزيع الفائض الزراعي يتحدد التطور الحرفي والتجاري. فقد كانت الطبقة المسيطرة تتسلم الفائض الزراعي بصورة عينية نقدية، ثم تركزت الفوائض بشكل نقدي شبه كلي في تطور التاريخ، حيث أصبح بالإمكان تحويل النقد الى أي بضاعة أخرى.

أن التبادل السلعي بالنقد قد أحدث تطوراً تاريخياً مهماً، إذ تركزت الفوائض بشكل نقدي، وعبر تسليمه تكونت مؤسسات الدولة، والتي لاتعتبر بمثابة خزانة لتراكم إنتاج الفلاحين من الموارد الزراعية فحسب، بل لاستغلالها لأغراضها الخاصة وبحجة الدفاع العسكري عنها سواء أكانوا حقيقيين أم ضمن الأوهام الدينية التي كانت سائدة من طرد للشياطين والعفاريت كما أسلفنا (انظر الفصل الأول).

وبالتالي نجد أن التجارة والحرف البسيطة السائدة كانت تلعب دوراً مستقلاً في تطور الاقتصاد، فهما مترابطان بفائض الزراعة التي تتحكم بها الخزينة الملكية، والتي تغدو مشروعاتها الاقتصادية والاجتماعية رهناً ذاتياً للحكم المطلق، ويتم التحكم بها وفقاً لرغباتها وأفكارها وقوانينها... الخ. وهكذا تصبح الزراعة التابعة للطبيعة بالدرجة الأساس ذات طبيعة شبه مطلقة تهيمن على الحرف والتجارة من خلال تحكم الأسرة الحاكمة أو القصر مما يلحق هتان المهنتان الى التبعية للطبيعة وأقدارها أيضاً وبالتالي وكان كل شئ يتعلق بالحاكم المطلق، الذي هو نائب الأله الحامي. أن شكل الإدارة للمجتمع الزراعي البدائي في ذلك العصر كانت تتركز على ذاتية الحكم ولاتنفضل مطلقاً عن طبيعته، وهي أيضاً مرتبطة في مراحل تطور تلك الذاتية وصراعاتها، كما أنها تلعب دوراً حاسماً في تطور تلك المملكة أو الإمبراطورية، فمثلاً إذا كان الحاكم قد توحد بالأله وغدا جزءاً منه أو امتداداً اسرياً أو تجسيدا نورانياً له، فإن ذلك سوف ينتج عنه سيطرة شاملة للحاكم على المدينة والزراعة، وبالتالي المملكة والإمبراطورية وهكذا كانت إدارة الحياة الاقتصادية متمشية مع نمط وأسلوب التطور في تلك المرحلة التاريخية. أن الحاق التجارة بالقصر كانت قد فقدت قدرتها على تفكيك الملكية الزراعية العامة الشاملة، فرأس

المال الكبير لا ينمو الا عبر الأرباح المتراكمة والناجمة عن التجارة بالمواد المهمة والثمينة التي يستخدمها القصر، ومن ثم القصور الملكية المتعددة والبذخ للطبقة الحاكمة كلها من الحاشية المحيطة بالملك والكهنة (رجال الدين في ذلك الوقت) وكبار التجار... الخ.

ولهذا فإن رأس المال لا يتعامل علمياً بالحرف وأدواتها وآلاتها، الا اذا كانت مؤثرة في انشاء قصر أو عمل مركز رصد للحاكم أو قبر يخلد فيه اسمه، كما حصل في بناء الأهرام في مصر وبناء الزقورات و المعابد في بلاد الرافدين... الخ. ومن هنا فقد أصبحت العلوم والمعارف الإنسانية عبارة عن مجموعة متضائلة من المعارف المفككة غير المترابطة بعضها ببعض، وتفقت الى المنهجية العلمية التي تساعد على غرابة المعلومات وتنميتها للوصول الى مراحل متقدمة من شأنها أن تحدث طفرة في حياة ذلك المجتمع.

وهكذا ظلت الحياة مقصورة على النحو المذكور ثم ضعفت وأضمحلت شيئاً فشيئاً وأندثرت تحت التراب والأففاض ونشأت فوقها اجيال أخرى الى أن وصلت اليها بعثات الأستكشاف الحديثة لتتقّب عنها وتعرف عنها الجزء اليسر الذي نحن بصدد.

### 3 - نمو الرعي في الجزيرة العربية وأثره في الحالة الاجتماعية والاقتصادية:

لقد كان الرعي أساس تشكيل الفائض الاقتصادي في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية كما كانت الزراعة تشكل فائض اقتصادي أساسي في المناطق الحضرية منها وعلى حافات الأنهار والواحات البسيطة في شمال الجزيرة كما أسلفنا.

وعلى الرغم من أن الفوائض بالنسبة للرعي قليلة ومحدودة، ألا أنها تظهر وتتدفق على المدن والأسواق. فالرعي لن يكون سوى ملحق أخير بأقتصاد المدينة حيث يسيطر الحاكم المطلق، ويقوم بتبادل السلع التي ينتجها من قطعانه مستبدلاً بها سلع ضرورية كالمواد الغذائية والملبوسات والأسلحة. ولم تكن لتلعب دوراً الا في المدن الصحراوية والقرى التي تمد الرعاة بالوسائل التي تجعلها تستطيع التغلغل أكثر فأكثر داخل الصحراء بدون عناء أو كلال، وخاصة رعاة الأبل الذين يتم تعيين طرقهم بواسطة

الانتشار الواسع في الصحراء وتتمو القبائل الأشد فقراً وتوحشاً كنتيجة لذلك الانتشار.

أن هؤلاء الرعاة ذوي التجمعات الأكثر تضاداً مع بذخ المدينة ومراكزها الكبيرة خاصة قد ازدادت احتياجاتهم للأبناء من الرجال خاصة من بعد اتساع قبائلهم وانتشارها في مساحات شاسعة، إلا أن ذلك أدى بالنتيجة إلى اشتداد الفقر والحاجة في مستوياتهم التحتية، في حين انفصل رؤساء القبائل والعشائر عن البقية الباقية من الأبناء الجدد بعد حين من الزمن ليكونوا طبقة ارسوقراطية خاصة تشكل مصدراً آخر لاستغلال الرعاة. ولكي يستطيع هؤلاء الزعماء أن يحولوا القبائل إلى شرطة سياسية وعسكرية للدويلات الصغيرة المتألفة على هيئة عدد محدد من القبائل أو حتى من جزء من قبيلة انفصلت عن القبيلة الأم لظروف ما.

وقد تم بذلك تشكيل خفر لقوافل التجارة كحراسة القوافل التجارية عبر الصحراء وقد يتحولون هؤلاء الحراس أنفسهم إلى لصوص وقطاع طرق، فيشنون الغارات على القبائل الأخرى أو المدن العامرة في الثراء. وهكذا نشأت على مر السنين عادة السلب والنهب عند العرب القمام خاصة منهم الرعاة في الصحراء، وأصبحت جزءاً من كيانهم الاقتصادي والاجتماعي وتوارثته الأجيال وترسخت في العقول، وأصبح جزءاً من البطولة والفروسية التي يفتخر بها بعض افراد تلك القبائل، وكان واضحاً في أقوالهم وأشعارهم في عصر الجاهلية حتى أنها أصبحت تأخذ أسماء أخرى مقبولة بعض الشيء كالحصول على الغنائم في الحرب أو الغزو، وأصبحت مهنة لبعض القبائل التي لا تجيد أي مهنة أخرى سوى السلب والنهب وأصبح بذلك معروفاً عن تلك القبائل بأن كيانها ووجودها وتخصصها معروفاً ومقروناً بتلك المهنة.

ولا ينفرد في ذلك بعض العرب في الجزيرة لوحدهم في مثل هذا السلوك فإن جميع سكان الصحاري في العالم يمتنون تلك المهن ويتصفون بنفس الصفات تشدد وتخف حسب شحة الموارد الطبيعية وقساوة المحيط، ففي الصحراء المنغولية مثلاً تكون الظروف المناخية أكثر شدة من حيث البرد مما تنعكس على سلوك القاطنين هناك بنفس



القدر من القسوة والقهر ويكونون أكثر شدة في القتال وأكثر تحمسا للسلب والنهب<sup>(1)</sup>.

أن الطبيعة الصحراوية في كل بقاع العالم سواء أكانت في الصحراء العربية أو في أواسط آسيا أو في أمريكا الشمالية أو أستراليا وفي شتى أنحاء العالم، تفرض عليهم نفس الطبيعة البدوية نظراً لشحة الموارد الطبيعية. ولا بد من الإشارة هنا إلى الاختلاف في طبيعة المناخ غير الصحراوي في المناطق الأوربية حيث أن كثرة هطول الأمطار وتوزيع الثروة على أساس توزيع الأمطار بالتساوي قد نشأ عنها تطوراً تاريخياً مختلفاً تماماً عن المناطق الصحراوية. ومن الأنصاف الإشارة هنا أيضاً إلى أن السلب والنهب الذي أصبح جزءاً من سلوك أجتاماعي للعربي أتصف في الوقت نفسه بالكرم والجود لما يبذله من سخاء وكرم عندما يأتي إليه الضيف المحتاج. وأصبح هناك هدف آخر للسلب والنهب لدى القوم وهو توزيع الغنائم على بقية أفراد القوم، وبالتالي يعود إليه بالفخر والأعتزاز لهذا العطاء السخي.

أن سهولة الحصول على الثروة تؤدي بالنتيجة إلى سهولة إعطاءها وصرفها في آن واحد. كما أن العربي أصبح يقدر أن مثل تلك المواقف قد تكون ديناً أو رصيماً لجهد بذله في يوم ما قد يحتاجه في أيام أخرى تضمن له عطاءً ومالاً أكبر، مهما كانت عمليات التخلخل الأجتاماعي داخلها، ومهما ظهر بها من صعاليك ومتمردين وقتلة ومهما أستغلهم رؤسائهم. فالوحدة القبلية أقرب للتكوين البيولوجي منها للتكوين الأجتاماعي، فإن القبيلة التي تكونت وتجمت في الصحراء وقاست وصمدت لقسوة تلك الصحراء المضنية، قد غنت بمثابة الرحم الطبيعي للفرد في الجزيرة العربية. أن الحياة الأجتاماعية في جميع أطوارها وأشكالها لا بد أن يتوازن فيها جانب التعاون وجانب التنزاع فألى جانب السلب والنهب هناك عطاء وكرم من أجل استمرار الحياة في الصحراء القاسية. أن القبائل العربية من خلال هذه الوحدة الصخرية أصبحت قوة أجتاماعية منظمة في مواجهة مدن مستغلة ومفككة أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة للقبائل في الصحراء.

(1) د. علي الوردي "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" بغداد 1965 مطبعة العائلي 83

أن القبيلة تعتبر أشبه بوحدة عسكرية متنقلة قادرة على الترحل والصمود في أفسى الظروف المناخية والاقتصادية، وهي قوة موحدة قتالياً وجاهزة وتمتلك مواردها وأستقلالها الروحي والمادي. وهي لهذا السبب أصبحت مؤثرة في مواجهة المدينة بما فيها من مصالح متباينة خاصة عندما تبدأ مؤسسات المدينة بالتفكك والضعف، وتصبح الأمور أكثر خطورة عندما تتألف القبائل وتتحد لتكون قبيلة كبرى. لذا أصبحت القبيلة الكبرى هذه هي الوحدة الاجتماعية الكبرى للعديد من القبائل المتحالفة مع بعضها البعض.

وهذه القبائل تضم في تكوينها الداخلي العشائر المتحالفة أيضاً، وتكون تلك العشائر في كثير من الأحيان متحالفة ومتقاربة في الأسر، من حيث الحسب والنسب والمصالح الاقتصادية التي تربطها بعضها ببعض. وهكذا هو التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي أستدام فترة طويلة من الزمن في شبه الجزيرة العربية والى يومنا هذا، دون أن يمسه خلل أو تغيير جذري يسمح منه الطابع المتميز بل وأكثر من ذلك فقد ترك لنا موارث في العقول أثرت كثيراً في سلوك وعادات وطرق تفكير غير منسجمة مع تطور العصر، بعد أن تغير كل شيء وأصبحت الحياة الصناعية الحضرية مزدهرة في العالم الآخر (العالم الغربي على وجه الخصوص).

ولا بد لنا هنا أن نذكر مقالته المؤرخ فنيب حتى<sup>(1)</sup>: "أن الغزو ينفع البدو في حياتهم الصحراوية إذ أن القتال الذي يجري يقلل من عدد الأفواه الأكلة. وأن سكان البادية هم في حياتهم الأعتيادية على حافة مجاعة دائمة لمحدودية المياه والموارد الأخرى ولهذا صارت نزعة القتال عندهم كأنها حالة ذهنية مزمنة. أن القتال في البادية هو بمثابة صمام الأمان يمنع سكانها من التكاثر فوق الحد المكافيء لمواردهم المشححة. فما دام سكان البادية بوجه عام لا يستطيعون تكثير تلك الموارد فيها بطرق الأستصلاح وأستخدام الطرق الحديثة في زيادة الثروة كما هو معمول في عصرنا الحديث فالطريق المفتوح أمامهم أذن هو أن يقللوا من العائشين عليها". وهذا يحدث عادة في معارك الغزو حيث يسقط القتلى فيها بين حين وآخر. لذا فإن هذه الظاهرة تدخل ضمن أطار التوزيع الطبيعي للكائنات،

وهي تنطبق أيضاً على جميع الكائنات الحية فمثلاً أن البُرْك المائية التي تكثر فيها التماسيح عندما يزداد عدد تلك التماسيح بالتكاثر غريزياً وأن عدد الأسماك التي تتغذى عليها تبدء بالتناقص، تجد أن كبار التماسيح الأقوياء تخرج إلى اليابسة وتتقاتل مع بعضها البعض لكي يقل العدد ويستمر الجنس (التماسيح) بالبقاء على قيد الحياة ضمن تلك الظروف الصعبة، لأن التزايد المفرط وغير المتوازن مع كمية الغذاء اللازم للبقاء يصبح مشكلة تهدد باندثار تلك الكائنات، فبدلاً من حصول الهلاك المحتم لكل المجموعة بسبب نقص الغذاء يصبح القتال أداة للانتقاء والبقاء<sup>(1)</sup> وفي الجانب الآخر فإن البدو الرحل يحتقرون المهن وكل من يكسب رزقه بعرق جبينه فهم يحتقرون الحائك والحداد والصانع والصفال والدباغ والحلاق وغير ذلك<sup>(2)</sup>. يقول الأستاذ حافظ وهبه بهذا الخصوص مايلي " أن البدو إذا أرادوا تحقير أنسان وسبّه بكلمة تكون مجمع السباب أن قالوا له ياأبن الصانع"<sup>(3)</sup> بينما يقول السيد عبد الجبار الراوي " أن الغزو محمده عند البدو وتمجيد ولائم فيه ولا تنقيصة، وهو يختلف أذن عن الخطف والأبتزاز والسرقة. وكثيراً مايتطوع الرجل القوي للغزو، ويلقي بنفسه في المهالك، ويبذل من ماله وشباب قومه أضعاف مايربح من الغزو. وذلك لكي يعوز بالسمعة الحسنة في أندية القوم حيث سيبتغى بمدحهم الشعراء ويلهج بذكره الناس"<sup>(4)</sup>.

وهكذا تجد أن البدو الرحل الذين يعتمدون على الرعي والقتال من أجل الملب والنهب بعضهم لبعض من القبائل والمدن المنتشرة في مسافات متباعدة في المناطق الصحراوية من الجزيرة، هي السائدة على الزراعة والحرف الصناعية البسيطة جداً بالإضافة إلى التجارة في الأونة الأخيرة بين تلك المناطق المتباعدة، وانحاكمة في شكل وهيكل التنظيم الإداري والسياسي وعلى نمط الحياة الاجتماعية والعلاقات بين القبائل خلال تلك الفترة من الزمن. بالإضافة إلى بروز التجارة مع العالم الخارجي، فقد امتدت التجارة التي كان مركزها مدينة مكة من الدولة الرومانية والبيزنطية شمالاً إلى الهند شرقاً. وكانت واحدة من أهم أسباب بروز دور مكة، ومن فيها من قبائل أشهرها قبيلة قريش تأخذ مركزاً

(1) برنامج تلفزيوني في محطة (BBC) بعنوان " الصراع من أجل البقاء" 2004.

(2) علي الوردي (المصدر السابق) 158.

(3) حافظ وهبه (جزيرة العرب في القرن العشرين) 132م/ نقاهرة (1964) علي الوردي المصدر السابق

62.

(4) عبد الجبار الراوي (البداية) 242 علي الوردي "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" 63.

ومكانة قيادية مرموقة بين أطراف الجزيرة المترامية كافة من خلال ممارستها مهنة التجارة.

#### 4- تطور الوعي الديني عند ظهور الرعاة على مسرح التاريخ العربي:-

لعل واحدة من أهم المواضيع التي نتناولها بشأن المواريث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر هو تطور الوعي الديني في المنطقة، لما لهذا التطور من أهمية بالغة في رسم معالم الحياة والحضارة وسير الأحداث التاريخية منذ أقدم العصور ولحد الآن.

لقد تباينت التطورات الدينية بين القسمين الحضاريين في الجزيرة العربية الأول: القسم الزراعي المتمثل في شمال الجزيرة العربية (بلاد النهرين /حجلة والقرات وبلاد الشام وفلسطين) والقسم الثاني الرعوي المتمثل في وسط وجنوب الجزيرة العربية (عدا اليمن). وكما انقسمت الجزيرة الى قسمين اقتصاديين في كلا الجانبين، إلا أنهما لم يكونا متضادين بشكل مطلق، فالجانب الرعوي والذي تمكن من التحول الى قرى ومدن صغيرة، وبالتالي يتمدن ويتحضر ويتأثر بما تنتجه المدن المستقرة من معطيات مادية وروحية، ولكن تبقى هناك تباينات واسعة قائمة مع كل ذلك التحضر والتمدن.

فعلى سبيل المثال نجد أن أقوام الهكسوس في احتلالهم لمصر قديماً كانوا من بين ما يعبدون الإله الشيطاني فيها (اله الواحد المدعو ست ولعلها مشتقة من سبت (ثيت) اله الشر المصري والتي اشتقت منها كلمة شيطان) متوجهين الى ما يشبه التوحيد الديني الخاص بهم (اله الخير). ورافضين شبكة الآلهة المصرية المعبرة عن حشود العالم الزراعي المسالم. وهكذا تميز ملوك الرعاة في ذلك الزمان عن غيرهم من المزارعين في المعتقد الديني، وبدعت بوادر التوحيد تتبلور وتأخذ حيزاً ضمن المعتقدات الدينية السائدة في ذلك الحين، والتي كانت معتمدة على تعدد الآلهة. فقد كانت هناك العديد من الأقوام المتمسكة في عبادتها للأوثان، بأعتبارها واسطة للوصول الى الخالق الأعلى، وكان قسم منهم يعبدون الشمس والقمر والكواكب والنجوم أو أن يجعلون منها رموزاً مرئية يتشبثون في التمسك بها من أجل حمايتهم من الأخطار المحيطة بهم، ومن الشياطين غير المنظورة. ومنذ ذلك الحين بدء الإنسان بالتفكير

بالفلسفة لتفسير ما يدور حوله من ظروف وأحداث كونية وطبيعية بدلا من الاعتماد على السحر والأساطير التي ترسمها له الكهنة.

وقد تطور العقل البشري لمرحلة متميزة بحيث أصبح هناك مساحة في الدماغ قادرة لتفسير ما يدور حوله بتمعن وبإفق أوسع بمرور الزمن ومن خلال الاحتكاك بالأقوام الأخرى المحيطة بهم. يقول الكاتب المصري المشهور سلامة موسى في كتابه عن "نظرية التطور وأصل الإنسان" بهذا الخصوص مايلي ("أن خروج الإنسان من الوثنية الى التوحيد نشأ عند الأمم التي لاتحسن صناعة البناء والتماثيل والأصنام، ولذلك ظهر بين الأمم البدوية التي تعيش في الخيام مثل الهكسوس والأسرائيليين والعرب. والأغلب أن الهكسوس هم أول من آمن بأله واحد يجدونه في كل مكان يدخلون اليه ولا يحتاجون الى تمثيله في صنم يرهبهم حمله ونقله. أما الأمم المتحضرة فكانت تجيد صناعة الأصنام، وتحتها من المرمر فتخلب أفئدة المتعبدين وكانت لها هياكل ثابتة عليها كهنة ولها أوقاف. فكان من الصعب جداً أن تروج بينها فكرة التوحيد"<sup>(1)</sup> وفي الحقيقة فإن أول ظهور للتوحيد في المنطقة هو التوحيد الأخناتوني ذلك الفرعون والفيلسوف المصري "أخناتون" الذي يعتبر من أوائل الموحدين في التاريخ، وكان ذلك تعبيراً صادقاً عن حلم هؤلاء الرعاة المشردين، ولكي يمكنهم من تأسيس دولة خاصة بهم ترعى شؤونهم السياسية وتحميهم من المخاطر، وقد ظهر بعدها توحيد العبريين في منطقة فلسطين الكبرى، لدى بني إسرائيل الذين كانوا يمتنون الرعي في بادئ الأمر، وقد انتشروا داخل الجزيرة العربية برمتها.

ولكن كل تلك الأفكار التوحيدية لم تكن بدرجة النضج التي نعرفها الآن من أن الله واحد أحد خالق كل شيء، بل كان التوحيد مقتصرأ على أن الآله الواحد خالق ذلك القوم لوحدهم دون غيرهم، وهو المسئول عن حمايتهم دون غيره من الآلهة. وقد جرى التوحيد المطلق المعروف لدى الأديان السماوية عبر فترة زمنية طويلة أتخذ خلالها جملة من مراحل التطور في الفرضيات والأستنتاج. وقد كانت الأفكار التوحيدية في بادئ الأمر تهدف من ورائها غايات سياسية معينة. فالقبائل اليهودية (العبرية) كانت تعتبر من الأمم الرعوية لانخل لها بالزراعة، ومن هنا نجد الأمثلة

(1) سلامة موسى "نظرية التطور وأصل الإنسان" نشر الياس انطون الياس المطبعة المصرية- مصر 228.

الملموسة في تضاد الأمم الرعوية مع الأمم الزراعية. فالقبائل اليهودية عبر توحيدها كانت تحاول أولاً: أن تشكل سلطة سياسية وفكرية داخلها، وعبر التفافها حول اله واحد والذي كان يدعى بالآلة يهوه<sup>(1)</sup>. وثانياً: تريد أن تستغل لوحدها في كيان خاص لا يخضع لسيطرة الدول المجاورة الذين كانوا في خصام دائم معها كالكنعانيين الذين كانوا يقطنون بلاد الشام والآشوريين والبابليين الذين أسسوا إمبراطوريات ضخمة في بلاد الرافدين من جهة الشرق، بينما المصريين أيام الإمبراطوريات الفرعونية كانوا يحدونهم من الجنوب الغربي، وكانت منطقة فلسطين تعتبر منطقة صراع دائم بين كلتا الإمبراطوريتين المذكورتين وموضعاً مستهدفاً لهما. وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا بعد من التخلص من عبادتهم للآلهة أيل (اله الكنعانيين) وبعل (اله الفينيقيين) خاصة وأن الفينيقيين الذين كانوا يعيشون على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط كانوا يتفننون ويجيدون نحت الآلهة على الصخور والمرمر بدقة متناهية، تُبهر العقول لازل قسم منها في المتاحف الأوربية الشهيرة. بينما كانت آلهة بلاد الرافدين المتعالية والتي كانت مسنولة عن الخصب والمهيمنة على الموارد الزراعية والتحكم في توزيع مواردها (كما أسلفنا في الفصل الأول) لاتتعدى أحجاراً بسيطة منحوتة بأشكال غير دقيقة.

أن اله اليهود الجديد "يهوه" كان اله المدينة التي لم تتشكل بعد، أي اله الرعاة الحالمين بتشكيل دولة من نوع مثالي يصعب تحقيقه في ذلك العصر. وحين قام الآله بذلك عبر تشكيل الدولة ومؤسساتها، نجد أن التوراة (أو التلمود آنذاك) كان يشكوا دائماً في بداية الأمر من ملوك إسرائيل الذين لم ينفصلوا كلياً عن أيل، وتقاليد الشرق الأدنى ذات الطابع التعددي في الآلهة، وبالتالي نستطيع القول بأن الآله الرعوي قد عاد الى منطقة أيل أيضاً<sup>(2)</sup>. وذلك يعود الى منطقة فلسطين التي كانت تتصف بالخصب الزراعي بعد أن كانت معتمدة على الرعي. لقد ظهر التناقض في المعتقد عندما ازدادت ممارسة الزراعة لدى العبريين (اليهود) وأبتعدوا نسبياً عن الرعي. أن ظهور اليهود من جهة الشمال والعرب من الجنوب على مسرح التاريخ في منطقة الجزيرة العربية كان أحد

(1) عبد الله خليفة "الاجامات المثالية في الفلسفة" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).

(2) المعهد القديم "الكتاب المقدس" المصدر السابق 333.

المؤشرات على صعود وسيطرة الرعوية القبلية. وقد سيطرت الحياة الرعوية في الشمال والجنوب على كل المناطق الزراعية والصحراوية على حد سواء. صحيح أن الرعاة كانوا في البداية يظهرون قوتهم عند حصول هجمات كاسحة ضمن مناطق مختلفة من الجزيرة، كما حصل من قبل الهكسوس والقيسيين العرب على المناطق الزراعية، وذلك لحاجة الرعاة الى تلك المناطق لاستغلالها للرعي.

فقد أورد العديد من المؤرخين والباحثين في مؤلفاتهم عن العرب واليهود، أن هؤلاء كانوا من أوائل الرعاة، ونجد أنهم لأول مرة استطاعوا أن يشكلوا جسم اجتماعي وسياسي مستقل أنبثق داخل هذا التكوين في جميع مفرداته الثقافية عبر فترة زمنية طويلة، ولا بد من الإشارة هنا الى أن القبائل اليهودية قد تمكنت من تكوين دولتين مستقلتين بعد ذلك بعدة قرون. ألا أن تلك الدولتين (المقصود: دولة الشمال والجنوب اليهوديتين المعروفتين في منطقة فلسطين الكبرى في التاريخ القديم)، كانتا لا تفلحان في الصمود على مسرح الصراع في المنطقة، بسبب وقوعهما بين دولتين كبيرتين وقويتين أيضاً كما أسلفنا. (دولة بلاد الرافدين شمالاً ودولة الفراعنة المصريين جنوباً) ونعود هنا لنجد أن الآله الرعوي الذي يتحول الى آله بيد الدولة من دون أن يستطيع الأفلات من التقاليد السائدة في المنطقة ككل آنذاك. وأنطلاقاً من مبدأ ينص على أن كل كيان سياسي لدولة، لا بد لها من فكر ومعتقد وفلسفة ثابتة تستطيع من خلالها فرض وتسيير أمورها وتثبيت وجودها في عقول الناس وعقول الأقسام المجاورة وتستطيع أن تدوم لفترة تتناسب وصحة تلك الأفكار مع الظروف المحيطة بها، وضمن المرحلة التاريخية من تطور العقل البشري، من خلال مامتوفر من معطيات علمية تم التوصل إليها في ذلك الحين. وكما أوضحنا أيضاً في الفصل الأول، كيف أنبثقت الدولة بمؤسساتها وكيف تم بناء المدينة في المنطقة الزراعية عبر نماذج مدن بلاد الرافدين أيام السومريين والكلدانيين وغيرهم، وفي منطقة بلاد الشام أيضاً حيث كانت تلك المدن متمثلة في وحدة صراع مستمرة بين الآله المتعالي الذكوري المسيطر، وبين بقية الآلهة الذكورية والأنوثية الأقل تعالياً وسيطرة لدى الكنعانيين (حسب اعتقاد القوم في ذلك الزمان). فإن هذه الوحدة كان يشدها قطبا الدولة المسيطرة المتعالية، واقتصاد زراعي بتقاليد الأسطورية التي تمنع الانفكاك بين القطبين المتنازعين. ولذلك فإن الهـ"

أشور" وهو رمز لآله الشمس لدى الآشوريين في الشمال، كان لايفصل عن الآلهة تموز في الجنوب لدى البابليين. وهكذا بالنسبة لبلاد الشام فإن الآلهة "أيل" (الكنعانيين) لايلغي الآلهة "بعل" (الفينيقيين) كما أن الآلهة رع لايلغي الآلهة أوزوريس (لدى المصريين).

بينما كان الآلهة "يهوة" (اليهود القدماء) يحاول أن يلغي وجود أيل وبعل على اعتبار أن الآلهة يهوه ينتمي للرعاة، بينما تنتمي بقية الآلهة إلى الخصب والزراعة. وهكذا كان هناك صراع وتصادم بتواجد تلك الآلهة مع بعضها، وبشكل خاص فإن كراهية الآلهة بعل (الفينيقيون) كانت أشد لكونها تتجسد في التقاليد والطقوس الفلاحية الصرفة، حيث أن الآلهة (بعل) يتصف بسعيه من خلال ذيله الطويل أن يعوض عن الاستعباد والدونية من دون أن يمتلك القدرات البشرية والمادية الكافية في تلك المرحلة التاريخية، بالمقارنة مع ماكان عليه الحال لدى الأقوم الرعوية. لذلك تميزت تلك الفترة من تاريخ الديانة اليهودية بظهور سلسلة من الأنبياء والذين جاءوا بعدد من المعجزات التي ساهمت ببحر تعدد الآلهة ودعم أفكار الآلهة يهوه. إلا أن ذلك كان محصوراً في منطقة محددة بينما كانت الأفكار الوثنية الأخرى السائدة في منطقة بلاد الرافدين أكثر قوة من الناحية الفنية، ولذلك فقد تم اعتبار الأسر البابلي (السبي البابلي الأول) لليهود أن المعتقدات الدينية (والتي تعتبر بعيدة عن التوحيد) كانت سبباً للكوارث والنكبات التي حلت عليهم بسبب عدم تمسكهم بخدمة آلهتهم بالشكل المطلوب، دون أن يخطر ببالهم أن وقوعهم على طريق مرور الأمبراطوريات العملاقة في ذلك الحين (البابلية والمصرية)، ومحاولتهم التمييز والتفرد الإلهي ضمن قدراتهم البشرية القليلة والمحدودة، (كان عدد اليهود من نبي أسرائيل قليلاً في ذلك الوقت مقارنة مع بقية الأقوام في المنطقة) كان السبب وراء كل تلك الكوارث المتلاحقة عليهم. لقد كانوا دائماً عرضة للعديد من الهجمات المتلاحقة من قبل الأمبراطوريتين البابلية والآشورية والتي كانت تتكرر لفترات زمنية متتالية بدون انقطاع. وهكذا نجد أن فكرة التوحيد التي نشأت بادئ الأمر لدى الأقوام الرعوية والتي لاقت مقاومة شديدة من قبل الأقوام الزراعية المستقرة في المدن والثابتة قد أخذت فترة طويلة من الزمن في بلورة وترسيخ الأفكار الأكثر تطوراً وملانمة للعصر ليس فقط في منطقة الشرق الأدنى بل في



مناطق مختلفة من العالم ضمن فترات تاريخية متقاربة مما يدل على أن نمو العقل البشري كان يسير بوتيرة واحدة في كل أرجاء العالم. ففي الوقت الذي كانت تنمو وتتبلور الأفكار التجريدية عن الآله الواحد في الجزيرة العربية عن طريق الرعاة، الذين يتجولون في الصحراء ويعيشون في الخيام ولا يوجد لديهم طموح في الاستقرار في مكان واحد، وتطوير ذلك المكان وبناءه والوصول بالحضارة الى الأزدهار والتقدم بشكل منسجم مع العصر. كانت هناك شعوب وأقوام مجاورة في الشرق قد توصلت الى وضع يتسم بالاستقرار ويشجع على نمو الأفكار الفلسفية المتطورة في أمور المعتقدات الدينية والجوانب التشريعية المهمة في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن بين تلك المعتقدات كانت هناك الزرادشتية التي ظهرت في المناطق الشمالية من بلاد النهرين (الرافدين) وكذلك في منطقة إيران الشرقية منها والشمالية الى الهند والصين، بينما ظهرت البوذية والكمفوشية في المناطق الأبعد منها. وكل تلك الأفكار كانت توحيدية بشكل أو بآخر وقبل ميلاد المسيح بمئات السنين رغم أنهم كانوا يقصدون النار ويقسمون أمور أخرى لكنهم في النهاية يعبدون الله رغم اعترافهم بأن التعاليم التي جاءت بها تلك الديانات ليست سماوية (أي لم تكن منزلة بوحى من السماء حسب ادعائهم).

ولامجال للتطوير في شرح كل تفاصيل تلك الديانات، الا أننا سنأخذ الديانة اليهودية منها على سبيل المثال نظراً لكون تلك الديانة كانت واحدة من بين ثلاثة ديانات سماوية تعتبر من أشهر الديانات التي ظهرت في الشرق الأدنى، ولكي تكون الصورة واضحة عن كيفية تطور الديانات وعلاقتها بتطور المجتمع من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعلاقتها بطبيعة الأرض والظروف المناخية للمنطقة. وماورثناه من طقوس وتعاليم وتشريعات متشابهة الى يومنا هذا.

## 5 - نشأة الديانة اليهودية القديمة في الجزيرة العربية:-

كما أسلفنا فإن الآله الرعوي المحمل بعناصر القوة الرمزية من بني إسرائيل وهو يخرج من مصر على (يد النبي موسى عليه السلام)،

وبتقاليد الزراعة المصرية داخل منطقة زراعية أخرى أكثر خصوبة من الأولى (فلسطين).

لايستطيع الأنفكاك من شريط العالم الأخضر بتقاليده الطقوسية الأكثر تعبيراً عن نفسها في العزلة والعيش في الصحراء وأستثارة التقاليد الحربية حتى يفتح الأرض (الموعودة). أن هذا المحرك الرعوي قد أنتج الآلهة شبه المجردة، (التفكير التجريدي \_ البعيد عن التفكير المادي الملموس) على الرغم من أن المرحلة الفكرية في ذلك العصر لم تكن قادرة على تجسيد الآلهة الا بشكل حسي<sup>(1)</sup> مما اضطرهم إلى إعطاء صفات للإله الواحد الأحد تشبه صفات البشر كي يتقبلها عامة الناس<sup>(2)</sup>.

فالرعاة مثلهم مثل الفلاحين لا يستطيعون الوصول الى التجريد مرة واحدة وفي فترة زمنية قصيرة، خاصة وأن الآلهة المجرد غير ممكن تشكيله في المرحلة الدينية الأولى في المشرق لأن العلاقة بين القائد السياسي (النبي أو الملك) والجمهور الأمي تتطلب ترابطاً وثيقاً يتيح للقائد من تحريك الجسم الرعوي الذي يتم تدريبيه وتوجيهه داخل المنطقة الزراعية لغرض احتلالها والتسلط عليها، ولهذا السبب فإن تشكيل ورسم الآلهة المجردة أمر غير ممكن وغير مفيد في بادئ الأمر. الا أنه لا بد من وجود اختلاف عن آلهة الأمم المجاورة المعادية لهم، وبالتالي لا بد ان يكون هناك وجود لهذه الآلهة ضمن أملاء القضاء الفكري المتاح لكي يختلف عن كل الآلهة المجسدة والمنظورة. وفي هذا الصدد يقول جان بوتيرو في كتابه عن ولادة آله التوراة<sup>(3)</sup> "ليس الآلهة "يهوة" هو الآلهة الوحيد الحق في المطلق ولكنه الوحيد بالنسبة لبني اسرائيل كما كانوا يعتقدون. فهو الوحيد الذي يهتم به بني اسرائيل من دون بقية الآلهة الموجودة، فهم يعتبرون أن الآلهة "يهوة" هو الخالق الوحيد. وأن هذا الآلهة خلافاً لكل ماكان متعارف عليه يجب أن لايتصورة أحد وأن لايحاول أحد من إعطاءة شكلاً معيناً أو صفة معينة حتى في مخيلته. وكان ممنوعاً لديهم أن يُعطى شكل العجل الذي كان معمولاً به قبل ذلك للأله بعل.

(1) عبد الله خليفة - المصدر السابق نفسه.

(2) ول ديورانت "قصة الحضارة" ترجمة محمد بران الجزء (14) جامعة الدول العربية، القاهرة (1964).

(3) جان بوتيرو- "ولادة آله التوراة والمؤرخ" 119 ترجمة جهاد الهواش، عبد الهادي عباس- دار الحصاد-

سوريا دمشق (1999).

ويكفي فقط أن نقول أنه موجود وأنه آله ويتوجب أجله ليس فقط بتكريس أوقات معينة حصراً لذكره بل لخدمته أيضاً".<sup>(1)</sup>

وخدمته قبل كل شيء تتطلب احترام الآخرين من ناحية حياتهم وأموالهم وذلك يتطلب أيضاً إقامة العدل والأخوة مع الآخرين - ولو أن الآخرين ليسوا سوى بقية من أسرائيل، فإن ذلك يرضيه (أي يرضي آله يهوه).

وبذلك أرتبطت بني أسرائيل بيهوه وفق المفهوم العميق والعالي الذي شكل الأنبياء عن هذا الآله وعن العهد.

وكما يعتقد المؤرخون أن النبي موسى قد ظهر بحدود عام 1250 ق.م أيام الفرعون رمسيس الثاني فرعون مصر. وهكذا ظهر التجريد في المعتقد الديني في الجزيرة العربية، والتي كانت في بادئ الأمر تتأرجح بين التجريد (غير الملموس) والملموسية وذلك من خلال المهمات السياسية المطلوبة لنمط الآله المطلوب لدعم تلك المهمات والمستوى الفكري (تطور العقل البشري) لحملة تلك الأفكار والمدعوين لتنفيذ تلك المهمات.

أن هذه الانفصالية غير ممكنة للشعب العادي، واذ تحدث العملية شبه التجريدية للآله فهي لا تدوم طويلاً، سواء غاب النبي لفترة وجيزة أو أسس خلفاؤه مملكته عند غيابه<sup>(1)</sup>

أن الرعاة أنفسهم مرتبطين بالتقاليد الزراعية الأقوى حضوراً، فمتى ما أتجهوا نحو الأرض لزراعتها، يجدون أنفسهم أنهم بحاجة إلى المحصول الوفير الذي كان مرتبطاً حسب معتقداتهم القديمة بالآلهة الملموسة، ومدى خدمتهم وأدائهم لواجباتهم أتجاهها، وفي آن واحد فإن الرعاة مرتبطين أيضاً بانفصاء الفكري للمنطقة، والمتسم بالتجسيم المادي للآلهة والتجسيم ليس سوى تعددية الآلهة التي تعكس تعدد مستويات السلطات في العالم القديم المفكك اقتصادياً، سواء على مستوى المدن أم على مستوى القبائل والعشائر والأسر المنتشرة في المنطقة العربية في ذلك الحين.

وكانت معتقداتهم أن كل هذه الآلهة تخلق آلهة مضادة وهي الشياطين والعفاريت، فإن وجود الأبيض لابد من أن يقابله وجود أسود

(1) جان بوتيرو (المصدر السابق) 75.

شريـر، وقد نشأت الدولة المستبـددة في هذه المنطقـة عبر تجاوز هذه التقسيمات وعبر السيطرة عليها. فأذا كان الأله يهيمن بشكل علوي ويترك شبكة الآلهة الأقل أو السلطات المحلية المختلفة تعمل وتستقل ذاتياً، فإن ذلك يهدد ويتيح للوحدة والتعددية والأختلافات والصراعات بين الآلهة، وهذا يشكل أمكانية تبرير الصدامات والتباينات في العالم الأرضي الذي هو حسب الوعي السائد في ذلك الوقت لايمتلك أمكانية تشكيل مصاتره بنفسه، وإنما يعتمد على القدر الألهي وعلى خرق هذا القدر عبر مساعدة آلهة أخرى. فيمكن رد مختلف تباينات الوضع الأنساني الى وجود أختلافات علوية مابين الآلهة نفسها<sup>(1)</sup>. وهكذا كانت تدور الأفكار التجريدية في المجتمع الرعوي، وكما ذكرنا في الفصل الأول عن الواح القدر التي كانت تكتب وتقدم في بدء موسم أحتفالات الربيع (إحتفالات الخصب) في بابل كل عام معبرة عن مقادير الأنتاج الزراعي الذي يقدمه الناس (الفلاحين) والذي يحدد مصائر الناس لسنة كاملة غير قابلة للنقص، وقد يتخلل في هذا اللوح طوفان أو هجوم أجنبي أو خير عظيم.

وفي الواقع فإن الأقدار لا تعرف الا بعد حصولها لتكتب لاحقاً، ولكن هذه الطريقة توضح الحالات التجسيمية التعددية للوعي الديني. ومع صعود الأله الواحد المسيطر بشكل مطلق على الوجود تدريجياً أم دفعة واحدة، فإن هذه الأمكانية للصراع والتباين الألهي البشري تزول أيضاً، حيث يصبح الوجود من صنع اله واحد، وبالتالي فلا يوجد تباين بين البشر من حيث نسبة المحصول الزراعي، الا أن ذلك التفكير قد واجه آنذاك خللاً كبيراً في تفسير كيف أن الأله الواحد يمكن أن يخلق الخير والشر في آن واحد. ولكن الإيمان بالقضاء والقدر ظل راسخاً لديهم وكان سبباً في تأطير أفكارهم وعدم قدرتهم على تطوير حياتهم المستقبلية<sup>(2)</sup>.

وهكذا تولدت فرق وعدد من الفلسفات التي كان قسماً منها يفصل اله الخير عن اله الشر أو أعداء اله الخير من الشياطين والعفاريت. لقد شجعت الضرورات السياسية فرض تلك الفلسفات، ففي مصر في عهد أختاتون حيث أراد أن يُجهز على سلطة الكهنوت ويمركز السلطة في يديه، مما دعتـه الى تعميم عبادة الأله آمون، مثلما قادت الضرورة القبائل

(1) عبد الله خليفة المصدر السابق.

(2) ول ديورانت "قصة الحضارة" (المصدر السابق) جزء (13).

اليهودية الى عبادة اله واحد مخصص لها. لم يكن ليصبح الاله الكوني الوحيد في بادئ الأمر بل كان اله بني اسرائيل.

ولكن تقاوم الهزائم والكوارث الطبيعية التي حصلت عبر مئات السنين والتي هزمت مشروعهم السياسي، فوجه اليها خامات الشعب اليهودي نحو الاله الواحد خالق ومسئول عن جميع ما يحيط بهم وجسدوا هذا الاله الواحد تجسيدا مطلقا لحلم زال. وهكذا فان توجيه الأمور نحو وجود اله واحد لا بد من أن يعيد النظر في الأثر الديني التعددي والتجسيمي السابق، ويزيل كل عوامل الصراع الألهي السياسي ويمركز السلطة في ذات واحدة وسلطة واحدة مطلقة، وهكذا ومنذ ذلك الحين بدأت تتبلور فكرة الاله الواحد، وتتجه نحو التجريد أكثر فأكثر نظراً لحاجات الشعوب للتمركز السياسي وتكوين دولة واحدة.

أن الحاجة تدفع لبروز وعي بالاله الواحد المجرد لتذويب الوحدات السياسية والاقتصادية المتباينة في بودة واحدة ولتشكيل دولة موحدة قوية وتجميع السلطات في يدها. ولكن تجميع السلطات في لحظة تاريخية ما، لا بد أن تقود في لحظة أخرى الى تفكيك هذه السلطة المركزية. فتتراوح صورة الاله بين لحظتين متضادتين: التجريد الأقصى والوحدانية وبين التعددية والملومية المباشرة. وقد عانى الفلاسفة الأقدمون الكثير في التوفيق بين هذين المتناقضين منذ أن بدأ الإنسان التمسك بالتفكير الفلسفي وترك السحر والشعوذة. ففي التجريد الأقصى تقع صورة الاله في العزلة عن الوجود المادي وأستحالة معرفة كيف تتم العلاقة بين المجرى الكلي والأشياء الملموسة، وفي التعددية والملومية تقع صورة الاله في دائرة الأمتداد والحركة والتجسيم وبأختصار كيفية الربط بين الأشياء الملموسة وخلقها من قبل قوة خلقية غير ملموسة.

أن الرعاة وهم يريدون تشكيل دولتهم لحاجتهم الاقتصادية بذلك من خلال الحاجة للتوسع في الرقع الجغرافية للأستفادة من ذلك في الرعي في مساحة أوسع، قد أخذوا يستعينون بفكرة الاله الواحد تعبيراً عن الرغبة في الدولة الواحدة، وحيث يقتحمون البلاد الزراعية يريدون الأحتفاظ بهذه الوحدانية التي يرفضها سكان تلك المناطق.

أن صورة الاله المطلق تظهر أنن ولا تزال في طور التجسيم ولم تتبلور بشكل مجرد بالكامل لكونها تمثل تطوراً في نمو الأساطير السائدة لحد تلك الفترة الزمنية، والتي لا يمكن أن تكون من نتاج الفكر المجرى مرة

واحدة، أن الأسطورة العبرية والتي تشكلت بناءً على رغبة في تشكيل دولة واحدة، واله خاص بها إنما تحتك وتتصارع مع أساطير الأمم المجاورة (السومرية والبابلية) من جهة والمصرية من الجهة الأخرى. ثم يقوم متفوها بالاستفادة من الأثر الراقديني ووادي النيل ليغفوا بها صورة آلهتهم الفقيرة روحياً، فمثلاً يأخذون من هذا الأثر الراقديني مسألة الخلق الأول لأبي البشر وقصة الطوفان لنوح وأيوب وغيرها من القصص الموجودة في كتاب ملحمة الخليقة البابلية وملحمة كلكاش وغيرها من الكتب المدونة والعناصر وهكذا، وتلغى تعددية الآلهة بما يتفق مع مركزية السلطة ووحداية الآلهة ثم يعودوا بهذا الأثر إلى فلسطين ليبدعوا بشكل جديد ضمن أسفارهم<sup>(1)</sup> \* المذكورة في التوراة القديم الأول (التلمود).

لقد كان اليهود من بني إسرائيل ساميين من جهة مما سهل لهم الأمتزاج بالكنعانيين، الذين كانوا يقطنون منطقة الشام قبلهم، والذين وجدوا أن لديهم العناصر المرغوبة لهم وهي بحالة الكمال نوعاً، بينما كانت بذورها وبداياتها على حالتها البدائية لديهم فقد أوجدوا كنزاً كبيراً من الطقوس والواجبات والأساليب المتبعة في العبادة والتحرير جاهزة ليكملوا عليها.

انهم أخذوا كل شيء من الكنعانيين والبابليين ماعداً تمسكهم الشديد بالآلهة يهوية وأيمتهم به وما تبع ذلك وبخاصة التحالف الذي قطعوه على أنفسهم كأساس لعلاقتهم مع الجيران. وهكذا تفاعل العنصران الروحي والوراثي من جهة والثقافي المكتسب حديثاً من جهة أخرى والذات تفاعلاً وأدبياً إلى تقدم بني إسرائيل في حياتهم الجديدة في فلسطين نوعاً بالمقارنة مع حالتهم أيام كانوا في مصر الفرعونية. ومثال على ذلك فإن حلم التوحيد في منطقة المشرق العربي ونبذ الماضي المتشردم والهيمنة الأجنبية التي كانوا عليها أيام كانوا في مصر وكذلك استعادة آن وأيل ورع وغيرها من الآلهة المعروفة قد قدمت لهم شيء مشجع للبحث والتنقيب في أيجاد سبل ومعتقدات أخرى أكثر تطوراً، ويمكن أن يُثبت كياتهم أكثر. ففي بعض الحالات كان العاملان متجانسان وتوافقاً بالواقع

(1) \* الأسفار المتكاملة بما فيها من تسلسل وأحكام وتفاصيل كما جاءت في الكتب المقدسة القديمة كذلك انظر طه باقر "ملحمة كلكاش وقصص أخرى" دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد (2002) يقرن فيها خبر الطوفان في التوراة مع الملحمة الملحق السادس (ص246).

وبدون أشكال فأغنى كل منهم الآخر، فمثلاً في مجال قواعد التصرف الجماعي والتشريع كانت الالتزامات الاجتماعية التي يعترف بها بني إسرائيل بوصفهم حلفاء يهوه تتلخص بشروط العهد أي بعض القواعد الواردة في الوصايا العشر (الذي جاء بها النبي موسى عليه السلام) وهي في الواقع عبارة عن مواقف تجاه الأشياء أكثر مما هي قواعد سلوكية، ولكنهم عندما تبنوا حياة اجتماعية أكثر تعقيداً ومختلفة الاتجاه توجب عليهم أن يتعلموا توفيق مبادئهم القديمة مع طريقة حياتهم الجديدة والحالات الطارئة التي تفرضها الظروف، بالإضافة إلى ما تفرضه كل حضارة تعرف الكتابة في ذلك الحين.

وقد تحتم على كل من ينتمي إلى بني إسرائيل أن يخضع نفسه وسلوكه ورغباته وغرائزه إلى الشريعة المشتركة. إن أساس الشريعة الراسخة هو وجود الله فوق الناس أجمعين (أنه الله الواحد الأحد والكلّي الوجود، والقدّيس المقننر، وأصل كل حياة والذي لا شريك له). إن كل من يدنس اسمه ماله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً، وأن يلتزموا بكتماته، وعليهم حتى في صلواتهم وتقوسهم الدينية التي كانوا يؤدونها يومياً بجانب حائط الميكب أن يبذلوا اسمه "يهوه" باسمه ليحل محله "أدوناي" وتعني (الرب) بالنبغة العبرية.

ومن المبادئ البديهية الواردة في التلمود البابلي والكتاب المقدس (العهد القديم) وجود إله عاقل قادر على كل شيء. والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر فهو يحب ويبغض ويغضب ويضحك ويبيكي ويحس بوخز الضمير ويلبس العمائم، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم. وهناك بعض الصفات المتناقضة فمثلاً كان غضوباً ووديعاً، دمويًا ومسالماً، معانداً وذا نزوات ورحيماً ولكن الويل لمن لا يمثل لصوته، لأنه رازحاً تحت لعناته... وهكذا فقد بقي التوصيف يأخذ إلى حد ما طابع البشر مثلما كان السومريين والبابليين يصفون بها آلهتهم. ويعود السبب في ذلك هو أن العامة من البشر لا يمكن أن يتقبلوا إلهاً بغير تلك الصفات في ذلك العصر. ويعترف رجال الدين (الحاخامات) بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما، ويقولون "إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه، وكما جاء في التلمود " وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على

أساس الصفة المادية فليس الذنب واقعا عليهم". وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة، السارية فيه كله، تمده بالحياة، تسمو عليه وتلازمه في وقت واحد، تعلق على العالم، ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن وفي كل جزء من أجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسكينة (السكن) تكون حقيقة بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة، وفي ساعات الصلاة والدرس، لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد كما يردد اليهود "سمع يسرائيل أدوناي الوهينا أدوناي واحد" أي "اسمعي يا إسرائيل، الله إلهنا، الله واحد". ويقول التلمود "الناس كلهم أبناء آدم ولكن الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب الحيوان وكانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القرود".\*

ويتكون الإنسان من جسم وروح، فروحه من عند الله وجسمه من الأرض، والروح تدفعه إلى الفضيلة والجسم يدفعه إلى الخطيئة أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان، ومن هذا العدد الهائل من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان. بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً.

ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كاد الإنسان أن يتناسل، وفي إحدى الفقرات من التلمود: "تعال نعر الخير لآياتنا، فإبهم لو لم يأتوا لما جننا نحن إلى هذه الدنيا". والخطيئة من فطرة الإنسان ولكن ارتكابها ليس موروثاً، وقد قبل اليهود عقيدة سقوط الإنسان ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية. فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من ذنوب، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو أنه يستحقه على ذنوبه، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذا الذنب أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة (سفر أيوب).

ولهذا يجب على الإنسان أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء. أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان، وغير الأثم بحق لا يموت الإنسان أبداً فالموت دين على البشرية الأثمة لباعث الحياة جميعها<sup>(1)</sup>.

\* انظر عز يزي القارئ أوجه التشابه بما جاء في التلمود البابلي والأساطير السومرية والبابلية القديمة التي أشرنا إليها في الفصل الأول (ص47). مما يدل على أن نظرية تطور الإنسان لم تكن بعيدة عنهم.  
(1) ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء الثالث من المجلد الرابع (14) ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ط2، (1964) (ص18).



ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب. فقد صوروا النار على أنها جهنم "Ge Hinnom" أو شاول (كان وادي هنم كومة من الأقدار في خارج مدينة أورشليم تظل النار متقدة فيه لمنع الأوبئة، أما شاول فقد كانت مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات). وقسموها كما قسموا السماوات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب، أما الجنة فهي في السماء السابعة وكانوا يسمونها جنة عدن "Gen Eden" وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية، فخرها من كروم احتفظ بها منذ الأيام الستة التي خلق فيها العالم، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية والله نفسه سيجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه، بيد أن بعض أخبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر، لكنهم كانوا يلبسون العمائم كي تكسبهم القدسية وتطردهم الجن والشياطين وما يأتي منهم من شرور.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التلمود قد أجاز تعدد الزوجات: "يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء، ولكن يوجد فقرة ثانية تحدد عدد الزوجات بأربع وتطلب فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى، إذا أرادت هي الطلاق، فنظام تعدد الأزواج هذا عادة يهودية قديمة وكذلك يطالب اليهودي أن يتزوج من أرملة أخيه. وجملة القول فإن قوانين التلمود الاجتماعية بوجه عام من وضع الرجال وأنها تحابي الذكور محابة بلغ من قوتها أن بعثت في النفوس إجبار اليهود الفزع من قوة المرأة وهم يلومونها، كما يلومها الآباء المسيحيون لأنها أطفأت "روح العالم" بسبب تشوف "حواء" المنبعث عن نكاتها. وكانوا يروون أن المرأة "حقيقة العقل"<sup>(1)</sup>.

لقد كان عليهم كتابة هذا الإثراء في واجباتهم الذي يرافقه شيء من التخفيف. أما بالنسبة للشرق الأدنى القديم (بلاد الرافدين) فكان تدوين اصول السلوك أمراً مألوفاً منذ نهايات الألف الثالث قبل الميلاد. وهناك دلائل عديدة عما اقتبس اليهود من الكنعانيين من حضارة، أضافت إليهم قوة ومنعة في ذلك العصر وهكذا دون اليهود منذ ذلك الحين

(1) ول ديورانت، المصدر السابق، نفسه ص 38.

كل تراثهم القديم في "التلمود"<sup>(2)</sup> ذلك الكتاب الضخم الذي جُمعت فيه أحاديث اليهود القدماء وأحكامهم. وقد ظهرت أبان السبي البابلي جماعة أطلق عليها سوفريم (وتعني الكتاب بالعربية) وهم الذين أولوا اهتماماً بكتابة التوراة والأحكام الدينية الأخرى، ومهما قيل ويقال عنه فإنه جزء من تراث أنساني أستطاع أن يحافظ على نتاج فكر وثقافة لا تقتصر على جماعة معينة بل هي ملك للبشرية جمعاء. بالإضافة لأنه ولدت من رحمة العديد من الديانات والتشريعات التوحيدية في المنطقة كالمسيحية، وكذلك كانت تتهل منه العديد من المؤلفات الأدبية خارج نطاق الكتب الدينية، (القصصية ذات الطابع الكلاسيكي المشهور) والمتعاقبة عبر التاريخ، والتي كانت جزءاً من أسباب تمكين البشرية من الوصول الى ما وصلت اليه من تقدم وقهر للطبيعة. أن من أبرز كتب التلمود كان للكاتب النبي "عزير" الذي عاش في القرن الخامس ق.م. ولعله كان من أبرز الشخصيات التي ظهرت في أوساط اليهود في ذلك العصر بعد النبي موسى "ع" حيث عقد العزم على إثراء شريعة موسى من خلال أستخراج نصوص من كتاب العهد القديم والتي تعني بمتطلبات المجتمع اليهودي في عصره. وكانت خطواته تلك البداية للسنة الشفوية، ثم أصبح بعد عزير أسلوب جديد في تفسير وتأويل النصوص الدينية تسمى "مدراش" ومعناه البحث والتتبع، لأن العلماء تتبعوا على ضوءه المعاني الكاملة في التوراة بغية وضع حلول في جميع المشاكل والمستجدات. بدأ منذ ذلك الحين علم التأويل والتفسير بما يتلاءم مع متطلبات العصر، خاصة بعد الاطلاع على الفلسفة اليونانية ومحاولة التوائم بينهما.

وينقسم التلمود الى ستة أقسام تتضمن "63" رسالة في "523" فصلاً وهذه الأقسام هي كالتالي:

1- كتاب زراعي، أي البذور: ويتضمن القوانين الخاصة بالأرض والزراعة.

2- كتاب موعد، أي العيد أو الموسم: ويتضمن الأحكام الدينية والفرائض الخاصة بالسبت والاعياد والايام المقدسة.

(2) التلمود: اشتقت كلمة تلمود التي تعني "التعليم" من الفعل الثلاثي العبري "لمد" ويعني "علم" وهي ذات علاقة بلفظ "تلميذ" بالعربية ومشتقته الذي هو رباعي في اللغة العربية وثلاثي في العبرية.

- 3- كتاب نزيقين، أي الأبرار: ويتضمن جزءاً كبيراً من الشرائع المدنية والجنائية.
- 4- كتاب ناشيم، أي النساء: ويتضمن الأحكام والنظم الخاصة في الزواج والطلاق.
- 5- كتاب قداشيم، أي المقدسات: ويحتوي على الشرائع الخاصة بالقرابين وخدمة الهيكل.
- 6- كتاب طهاروت، أي الطهارة: ويتضمن الأحكام الخاصة بما هو طاهر ونجس وما هو حلال وحرام من المأكولات والمشروبات وغيرها.

ومن الجدير بالذكر هنا ان كل المحرمات التي ذكرت عند اليهود تتشابه مع ما موجود في الأسلام. مثل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك<sup>(1)</sup>.

علماً بأن كل كتاب من هذه الكتب يتألف من عدة رسائل. وكل تلك الرسائل قد أنقسمت الى قسمين الأول دُونَ من قبل علماء اليهود في فلسطين، والثاني من علمائهم في بابل من الذين أستقروا بعد السبي البابلي ولم يغادروا بلاد النهرين حتى بعد مجئ الفرس وبعد أن أعطاهم قائدهم كورش الأذن بالعودة الى فلسطين. علماً بأن أول طبعة للتلמוד ظهرت بالنص العبري والتي جاءت على يد شخص يدعى "دانيال يومبرغ" في مدينة البندقية في ايطاليا، وتم طبع التلمود البابلي في الأعوام 1520 – 1523 م بينما طبع التلمود الفلسطيني في الأعوام 1523-1524 م ويقع التلمود البابلي وفقاً لتلك الطبعة في "5894" صفحة وترجم الى العديد من اللغات كان أحد تلك الترجمات باللغة الأنكليزية وتقع في "18" مجلداً – طبعة لندن- وهي محفوظة في المكتبة البريطانية في لندن. ويتألف التلمود من عنصرين أساسيين: أحدهما "هالاخاه" وتعني الطريق والأسلوب وهي عبارة عن تعاليم دينية للحياة الصالحة والأخرى "الهغدا" أي الحديث وهي عبارة عن أحاديث الريانة التاريخية والخلقية والدينية التي تهدف الى بناء شخصية المؤمن بالعقيدة اليهودية عبر الأمثال والعبر والقصص المشتقات من تاريخ وسير حكماهم وعظماهم ومن خلال وصف أنواع الثواب والعقاب في هذا العالم والعالم الآخر.

<sup>(1)</sup>ول ديورانت قصة الحضارة المصدر السابق "عقائد اليهود الجزء 14 (ص23)

ويذكر أن الكثير من تلك الأحكام أقتبست من كتاب الخليفة البابلية وكتب الإديان الأخرى المتعايشة معهم في المنطقة كالافستا (زرادشت) وغيرها. كما أن التلمود أعتبر وثيقة تاريخية مهمة أسندت إليها أدیان أخرى جاءت إلى الجزيرة العربية فيما بعد كالمسيحية والإسلام وأبسط دليل على ذلك هو أوجه التشابه في أحكام وتعاليم وقصص الأنبياء<sup>(1)</sup> وأشعارهم في كل تلك الديانات. وقد تكلف التلمود بأعباءه دائرة معارف غزيرة المحتوى بالحفاظ على الديانة اليهودية، وأضحى مصدراً مهماً من مصادر التشريع اليهودي، ولكونه يتضمن الطعن بالنبي عيسى (ع)، فقد رفضه المسيحيون وأعلن زعماء الكنائس في القرن السادس الميلادي عن مخالفتهم له، مما أثار حفيظة المسيحيين جميعاً إلى أن قام أحد اليهود الذي أعتنق المسيحية وبترخيص من البابا عام 1239 م بحرق كتاب التلمود، ومنذ ذلك الوقت أصبح حرقه أمراً رائجاً إلى ما قبل صدور أول طبعة له<sup>(2)</sup>.

لقد مرت الديانة اليهودية بمراحل عديدة من التطور، إذ أنها دامت طويلاً وعانت الكثير من الاضطراب في زمن الشباب الأول، ولكنها بعد سقوط بابل بدأت بدأت تأخذ بالانتشار بأرجاء واسعة في منطقة الشرق الأدنى خاصة وأن اليهود أصبحوا أقل عرضة للاضطهاد والتكفير. ففي زمن السبي كانوا ياملون فقط في العودة إلى وطنهم والاستقلال، وعندما تحرروا وعادوا إلى موطنهم أو عاد القسم الأكبر منهم كان عليهم أن يعترفوا بأن الإله قد أوفى بوعده بعد أن تأثروا كثيراً بفترة الآلام والشقاء الطويلة. وكانوا قد أصطدموا بالامبراطوريات الكبرى، فتحطموا وعرفوا حجم شعبيهم الصغير، شعب لا يستطيع القيام بنفسه بأي دور في عالم أخذت أفاقه تتوسع يوماً بعد يوم. ومنذ أن ظهر لهم النبي أشعيا الثاني ذلك المفكر الديني المبدع والذي أعاد التراث وتمسك بفكرة التوحيد. بافتراض الإله السمو الكامل المنفصل عن كل ماهو مخلوق، وإن الوجود في العالم الفوق روحاني التي قادت إلى معرفة

(1) صباح زكنة " قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه " مقالة في جريدة الصباح العراقية عند 488 في 2005/3/1 الثلاثاء

\* أن كتب قصص الأنبياء المؤلفة من قبل اعلام الإسلام المشهورين كالبخاري وغيره تمتد في تفاصيلها على تفصيص الواردة في التوراة دون الإشارة إلى المصدر، وخاصة تلك القصص التي لا تتوفر تفصيلها في القرآن الكريم.

حقيقة ووحداية الله، وان الله خالق كل شعوب الارض من اشوريين وبابلين ومصريين وميديين وفرس وعبريين. بعد أن أنتفت الحاجة للعلاقة الوثيقة مع يهوه والعهود والمواثيق المبرمة معه من أجل اليهود فقط وأصبحوا موحدين وإلههم أدوناي كما ذكرنا. كما ظهر أرميا الذي عانى الكثير من الآلام والتي اعتبروها تكفيراً لخطاياها وخطايا الآخرين، وكان ذلك قبل ظهور السيد المسيح (ع) بفترة قصيرة نسبياً. وقد تميزت فترة أنتهاء السبي بالاهتمام بالتشريعات الدينية، والتطبيق الدقيق للنص المكتوب والذي يفترض أنه يعبر عن إرادة الرب بالذات. وهكذا تبلورت المعتقدات الدينية لدى اليهود وبشكل خاص بعد أن عادوا من السبي وقاموا غزو الاسكندر المقدوني عام 336 ق.م والمد الهليني\* أكثر من أي مجموعة أخرى في الشرق الأدنى ومن الجدير بالذكر هنا الى أن الاسكندر الكبير (المقدوني) هذا كان تلميذاً للفيلسوف اليوناني "أرسطو". لقد جاء الإغريق بمفاهيم أخرى غير متوافقة مع الفكر التوراتي، تلك الافكار التي كانت تسمى بالانسيه (humanism) التي جاءت بها الفلسفات الإغريقية المعروفة، إلا أنها توافقت مع المسيحية التي انبثقت من رحم اليهودية، والتي تمسك بها الرومان بعد فترة طويلة من الزمن وساعدوا في ابقائها ونشرها الى مناطق بعيدة عن الجزيرة العربية.

لقد تميزت الفترة التي تلت غزو الاسكندر المقدوني بعد عام 336 ق.م بالاستقرار والتطور الفكري بالنسبة للدولة العبرية، وظهر عدد من المفكرين والأنبياء أمثال أشعيا الثاني وأرميا وكذلك فلاسفة اليهود في الاسكندرية بمصر أمثال فيلون وأفلوطين وغيرهم. وبدءوا بوضع الأجوبة على العديد من التساؤلات، التي كانت تتبادر لأذهان الناس عن الفرق بين من يتبع التعاليم الدينية ويسير بالاتجاه الصحيح في الحياة حسب ماتطلبه تعاليم الديانة اليهودية، وبين من يسير باتجاه الشر ويؤذي الآخرين، ووضعوا تفسيرات لكل ما جاء في التلمود بالشكل الذي ينسجم مع المنطق ولا يختلف عن المفاهيم الفلسفية التي دخلت المنطقة من اليونان بعد غزو الاسكندر لها.

\* المد الهليني- أو العصر الهليني الذي يمتد من فتح الاسكندر للشرق عام 336 ق.م. وحتى الفتح الإسلامي والهبانية "Hellenisme" من هيلين Helene أي يوناني، وتعبّر عن طابع الفكر والحضارة على أثر فحوق الاسكندر للشرق وامتزاج الفكر اليوناني بالروح الشرقية.

وحيث أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لم تتغير كثيراً في المنطقة وذلك في طبيعتها الزراعية والرعية، لذلك بقيت الأفكار الدينية متأثرة ومتشابهة مع الكثير من طقوس العبادة والتراتيل والمراسيم والأعياد الدينية مع المعتقدات الدينية الوثنية التي كانت سائدة لفترة طويلة رغم كل التطور الوارد ذكره في مجال التوحيد.

ولكن التطور الكبير الذي ظهر في الديانة اليهودية على يد الفيلسوف اليهودي فيلون (25 ق.م-4 م.ب.م) المصري (من أسيوط) وعاش في الاسكندرية في القرن الأول الميلادي. وقد اتسمت فلسفته بالدرجة الرئيسية بما يعرف بالتأويل "allegaries" في تفسير بعض القصص الواردة في التوراة والتي تتعارض مع الحقائق المنطقية التي جاءت بها فلسفة اليونان بعد الغزو الذي قام به الاسكندر الكبير للشرق عام 336 ق. م.

وكان يعتقد أن الكتب السماوية التي جاء بها الرسل والأنبياء إنما تخاطب الناس جميعاً بلا استثناء، وليس لنخبة خاصة تستطيع أن تفهم حقائق الكون وتتقبلها في ذلك العصر الفقير بالمعرفة والنضج الفكري. ولهذا فهي تلجأ إلى الرموز واستعمال المجاز ضناً بالحقيقة على غير أهلها وشدأ لها لغرض فهم الأمثلة والصور والرموز التي تقرب الحقائق إلى إفهام الناس جميعاً، فيأخذ العامة بظاهر النصوص، ويجدون فيها مقنعاً والكفاية. أما المتخصصين في العلوم فيتناولونها ويأخذون بجوهر معانيها وبذلك يستخرجون ما في التوراة من فلسفة كانت ستظهر عارية منها لو أخذت بنصوصها حرفياً.

إن التأويل في نظر "فيلون" ممكن على أن نعرف كيف نؤول نص التوراة في ضوء الفلسفة. فمن الضروري تأويل النصوص التي تثبت الله -إذا أخذنا حرفياً- ما لا يليق به من صفات وأحوال كالتجسيم والكون في مكان والكلام بصوت مع النبي موسى (ع) والغضب والندم... إلخ فإله كما يقول "فيلون" لا يستغزه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات، وليس له من مكان يقر فيه. وعندما يعرض "فيلون" لقصة خلق الله للعالم في ستة أيام ينفي عن الله الحاجة إلى مدة زمنية يخلق فيها العالم، ولكن موسى (ع) لا يسهه إلا أن يستعمل الله التي نفهمها نحن البشر في عصره ليصف لنا العالم الذي خلقه وترتيبه ومنزلته بعضه من بعض. فمن

السذاجة الاعتقاد أن العالم خلق حقاً في ستة أيام أو في فترة من الزمن أقل أو أكثر من ذلك. وهذه القصص إنما يراد بها الوصول إلى فهم العامة بأن الله هو الواحد الذي خلق الكون بالشكل الذي نحن فيه. وفي تأويله لسفر التكوين (العهد القديم) يؤكد أن أول ما خلق الله العقل السماوي الذي يحيا بالعلم والفضيلة، ثم خلق الله على مثاله عقلاً أرضياً يرمز به لأدم. ثم تفضل عليه بنعمة الإحساس الذي يرمز لحواء، فانقاد العقل للحس واستسلم للشهوة التي يرمز لها بالحية. ثم تأس النفس على ما فرطت في جنينه الله وتندم، فيجئ نوح (ع) الذي يرمز للعدالة ويقع الطوفان رمز للتطهير التام. ثم يمضي فيقول "أن كل ما وصف الله به في التوراة أنه موجود بلا كيف ولا صفة، وكل ما جاء به التوراة من تشبيهه بالحوادث فيجب تأويله وحمله على غير ظاهره النصي".

والله لفرط علوه عن العالم ولعظم الهوة بينهما، فإنه لا يؤثر في العالم تأثيراً مباشراً وإنما هو يؤثر فيه بمجموعة من الوسطاء أو القوى الإلهية، وهم سفراء الله ورسله، كما أن النفس لا تبلغ إلى الله إلا بالوسطاء أيضاً، وهؤلاء الوسطاء يختلفون بعضهم عن بعض تبعاً للأعمال التي يقومون بها وهم: اللوغوس (أو الكلمة) وهو أشبه بمثل أفلاطون، إذ هو النموذج الذي يخلق الله العالم على صورته ومثاله. ويصفه فيلون بكل صفات الكمال من حق وخير وجمال ويُلبيه الحكمة الإلهية (أوسوفيا) التي يتحد بها الله لينتج عن اتحادها بها هذا العالم وكثيراً ما يطلق عليها فيلون اسم "أم العالم" وقد يصفها بأنها "روح الله". ومن الوسطاء أيضاً الملائكة والجن، وهم كائنات نارية أو هوائية لا يعصون الله ولا يخالفون عن أمره. وهؤلاء الوسطاء يتوسطون كذلك بين النفس الإنسانية والله. فتطهير النفس بالزهد والعبادة لا يزال يصعد بها من وسيط إلى وسيط حتى تبلغ الوسيط الأعلى اللوغوس أو الكلمة. ولا يتم التطهير أو الصعود والعودة إلى الله إلا بالمجاهدة والتصفية والعلم والنجاة بالنفس من هذا العالم المتناهي عالم الوهم والخيال، عالم المادة ومصدر الشر.

وغاية الإنسان إنما هي الوصول إلى الله والاتحادية والفناء فيه. وهذا الاتحاد في أعماق الروح الإنسانية بنوع من التجدد الداخلي والإشراق النفسي والطمأنينة المطلقة والسكينة العظمى، وهي الحالة التي لا يمكن تحديدها بالألفاظ، إذ يضيق عنها نطاق النطق، وإنما تعرف بالذوق، والكشف وفيها لا يبقى شاهد ولا مشهود ولا عارف ولا معروف.

هناك البهجة العظمى والسعادة القصوى<sup>(1)</sup>.... هذا وقد ظهر عدد من فلاسفة اليونان عاشوا في الاسكندرية بمصر عدا فيلون منهم نومينيوس "Numenius" ويوسيبوس "Eusebius" وأمونيوس "Ammonius" وأشهرهم على الإطلاق أفلوطين شيخ الاسكندرانيين الذي وصف بالشخصية التي تعبق بالروحانية وثني لكنه في الحقيقة مسلم بلا نبي الإسلام، ومسيحي بلا مسيح. وكلهم حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين فما في الدين لا يناوئ الفلسفة وما بين الفلسفة لا يناوئ الدين بعضه بعضاً، وقد شملت نزعة التوفيق هذه بين الأنبياء أنفسهم، فقد حاول أمونيوس التوفيق بين موسى وعيسى (عليهم السلام)<sup>(2)</sup>. وإذا جاء فيلسوف التأويل الأول فيلون في القرن الأول الميلادي فما بالك عزيزي القارئ بالحاجة للتأويل في عصرنا بعد كل ما حصل من تطور في علم الطبيعة والإنسان والفلسفة؟ وبعد كل ما يحصل حالياً من عنف وقتل بسبب الفهم الخاطئ للآيات القرآنية الشريفة؟

## 6- الأديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام<sup>(1)\*</sup> -

لم يكن الإسلام أول من أدخل التوحيد عند العرب كما يتوهم الكثيرون في ذلك. فقد كان ما يعرف بعرب الجاهلية موحدين، وكانت هنالك خمسة أديان موحدة في الأقل منتشرة في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام وهي اليهودية والمسيحية والحنفية والذهرية والصائبة عدا اليزيدية والزرادشتية في شمال بلاد الرافدين. وربما تعود مهمة هذا التوحيد الى قوة الرعاة، الذين أتاحت ظروفهم في الجزيرة المحكمة الأخلاق أن يتكاثروا فيها ويتطوروا. ولاتوجد منطقة رعوية تمتلك مثل هذه الخصائص الفريدة، أن تقرب من المناطق الحضارية المركزية وتستوعب منجزات تلك الحضارات وتتأى عن سيطرتها.

(1) محمد عبدالحق من مرحبا " من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة. بيروت (2000م) ص(225)

(2) أوليري " علوم اليونان وميل انتقالها إلى العرب" (الترجمة العربية) ص28 عويدات للنشر والطباعة.  
\* يقصد بالفترة قبيل ظهور الإسلام هي الفترة التي سبقت البدء بالدعوة الإسلامية وتمثل في أواخر القرن السادس الميلادي.



أن عشرة قرون من الأحتلالات الأجنبية المتتابعة للمشرق العربي الذي أخذت تتشكل فيه جذور العروبة والتي أمتدت من عمق الجزيرة حتى بوادي الشام، لم تظهر فيه قوة محلية قادرة على طرد الغزاة. وقد أصبحت السيطرتان البيزنطية والفارسية عبئاً ثقيلاً على المنطقة، فمنذ سقوط بابل على يد كورش ملك الفرس وماتلاها من حروب بين الأباطوريين الفارسية والإغريق (البيزنطيين) كانت ساحتها الرئيسية هي الجزيرة العربية وخاصة القسم الشمالي منها. وكانت الفوائض المالية والزراعية والرعية تذهب إلى العاصمتين الفارسية والرومانية لتهدرها في البذخ والحروب. ولهذا فإن المناطق الرعية والريفية كانتا تعيشان في أزمة اقتصادية خانقة، فعلى سبيل المثال كانت عائلة هاشم بن عبد مناف القرشية تعيش حياة فقر ومتفاقمة الديون في مكة في بادئ الأمر<sup>(1)</sup>، في حين كانت مكة مركزاً اقتصادياً رئيسياً في الجزيرة.

لقد أخذت الجزيرة العربية ومنذ زمن بعيد أثراً ثقافياً خاصاً للقبائل والشعوب السامية الشمالية وأجنوبية وقد كان الأحتكاك بين الجانبين كبيراً وعميقاً على مر التاريخ. فعلى سبيل المثال ظل مفهوم كلمة أن وتعني السيد والذي ظهر في حوض بلاد الرافدين قبل القرن الرابع ق.م وظل وصفه القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحى بهما السماء (الله بمفهومنا الحالي) مترسخاً في ذهنية تلك الحضارة لأكثر من ألفي عام، وفي العصور المتأخرة ساد هذا المفهوم في المنطقة العربية عموماً. ويذكر المؤرخين أن مختلف أنحاء المشرق العربي قد التصقت فيها كلمة أو مقطع من كلمة أن و آيل مثل ظهران وجيزان وغمران وكذلك سعد آيل وثيم آيل وغيرها، تجسدياً لمفهوم الآلهة المجرّد الواحد. ونستطيع أن نلاحظ أن ثمة قوة مقاومة للأحتلال البيزنطي (الإغريق) والفارسي عبر الحركة الفكرية التي تشكلت من المخاض الاجتماعي السياسي الطويل في المنطقة على مدى عشر قرون، إلا أن تلك الحركات الفكرية المتمثلة بالحركات الدينية المختلفة، لم تكن مؤهلة لخلق تلك الوحدة. وهكذا بدأت تتناهى وتتبلور الحاجة لظهور حركة دينية موحدة تستطيع القيام بدور توحيد كل أنحاء الجزيرة العربية، وأقامة كيان سياسي مستقل بعد أن بدأت علائم أضمحلل وضعف كلتا الأباطوريين، من خلال أنتهاء

(1) شاكور النابلسي "المال والهلال" الطبعة الأولى، دار الساقي بيروت-لبنان (2002)، 48.

دورها في السيطرة تاريخياً. ولا بد لنا هنا من استعراض لبعض الحركات الدينية الرئيسية التي كانت منتشرة في الجزيرة في تلك الفترة القريبة من عصر فجر الإسلام أي في القرن السادس الميلادي تحديداً، وباختصار (1) فيما عدا اليهودية التي تطرقنا إليها كانت هناك ديانات توحيدية متفرقة وكما يلي:

## 6-1- الحنيفية\*:-

وقد عرفت منذ زمن طويل في الجزيرة العربية ويقول بعض المؤرخين أنها لم تظهر قبيل ظهور الإسلام بل كانت راسخة قبل ذلك بكثير والدليل أن كعب بن لؤي بن غالب (أحد أجداد الرسول الأولين) كان من الأحناف (2). وكان الحنفيون على ملة إبراهيم موحدين يعبدون الله وحده ولا يشركون.

ولم تكن الحنيفية فرقة واحدة أو عقيدة واحدة ولكنها كانت مجموعة من التيارات اختلفت في ما بينها. وهناك قواسم مشتركة عقائدية كثيرة بين الحنيفة والمسيحية واليهودية. ويقول بعض المستشرقين أنها كانت مذهباً نصرانياً، بينما أجزم آخرون بأنها تأثرت بطقوس يهودية رغم عدم إيمانها بجوهر الديانة اليهودية. وبالتالي نفهم أن الحنيفة عبارة عن نزعة عرفت بها طائفة ولم تكن بعيدة عن التأثير بالمسيحية واليهودية على السواء. وأن هذه الطائفة كانت في شك وحيرة (3).

أن أول مايلفت النظر في النشأة الحنيفية التوحيدية في الجزيرة العربية أنها نشأت في مجتمع زراعي - رعوي (يمامة نجد). وليس في مجتمع تجاري كالمجتمع المكي الذي أصبح غارقاً في تلك الفترة بالأوراق التجارية والملذات وتمتع الحياة، والذي يتعارض كلياً مع الحنيفة على الرغم من أن معظم أفراد الحنيفية كانوا من الأسر الغنية المثقفة والتي كان بإمكانها شراء الكتب السريانية والعبرية والطواف والسفر خارج الجزيرة العربية بحثاً عن المعرفة والحكمة المكتسبة من البلاد المتقدمة نسبياً مثل العراق والشام. ولا يشير المؤرخون الى وجود صحف أو كتاب متخصص بالحنيفية إلا أن أهم القواسم المشتركة بينهم وبين الإسلام مثلاً،

(1) شاكر النابلسي المصدر السابق 108.

(2) عبد الله العلايلي المصدر السابق 44، 45.

(3) عبد العزيز سالم "دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام" 438

هو الدعوة الى التوحيد، والأقرار بالربوبية والأذعان للعبودية، وعبادة خالق واحد وحج البيت وأتباع الحق والمناداة بالأصلاح الاجتماعي والخلقي، وعدم القيام بالأعمال المنكرة والنهي عن وأد البنات، وعدم أكل لحوم قرابين الأصنام وتحريم أكل الميتة ولحم الخنزير والأختتان وقطع يد السارق وتحريم الزنا وتحريم الربا... الخ.

ولكن رغم كل ذلك فقد كانت الحنيفية تفتقر الى قيادة شجاعة وحصيفة وخبيرة بشؤون قريش ومكة والجزيرة العربية عموماً.

## 2-6- الصابنة<sup>(1)</sup> \* المندائية: -

كانت الصابنة في أصلها فرقة دينية بابلية قديمة بارزة عبتت الأجرام السماوية وما تحوي السماء من نجوم وكواكب، وقد ظهرت كذلك في اليمن منذ أيام بلقيس حيث كان الدين الرسمي في تلك الفترة من تاريخ اليمن. وأن أسم الصابنة يعود الى صابئ بن لامك شقيق نوح. وبدا كانت الصابنة من الموحدين بالله الواحد أيضاً.

أن الصابنة كانت جماعة من بين سكان مكة من الذين جاءوا اليها عن طريق التجارة مع بلاد الرافدين أي أنهم كانوا أصلاً في بلاد الرافدين قبل ذلك بكثير. ومن القواسم المشتركة مع الإسلام هو الصوم شهر في السنة بالامتناع عن الأكل والمشرب أثناء النهار والصلاة خمس مرات كل يوم<sup>(2)</sup> والوضوء قبل الصلاة وأداء الحج وتقديم الأضاحي وأداء الزكاة وتحريم أكل لحم الخنزير وجواز الطلاق. ولاتزال الطائفة (الصابنة المندنيين) تعيش في جنوب العراق وبعداد محافظين على طقوسهم الدينية الموروثة منذ أيام انبأبيين. أما المندائية فقد جاءت من درجة تمسكهم بالاعتسال بالماء خاصة أثناء أداء طقوسهم الدينية حيث لا يزالون يذهبون الى ضفاف الأنهار ومجاري المياه الأخرى بثياب بيضاء ويغمرون أنفسهم في المياه كجزء من طقوسهم الدينية.

(1) أسم الصابنة يعود الى صابئ بن لامك شقيق النبي نوح وبدا كانت الصابنة من الموحدين بالله أيضاً - شاكرو النابلسي "الملك والهلل" 121. سوف تأتي بتفصيل أكثر حول كيفية إطلاق التسمية على هذه الفئة في الجزء الثاني من الكتاب.

(2) كانوا يعينون الكواكب السيارة الخمسة: المشتري والزهرة وزحل وعطارد والمريخ. كان الصابنة يتوجهون لكل كوكب بصلاة في كل يوم، فيصبح المجموع خمس صلوات كل يوم. انظر "قريش من القبيلة الى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم 240.

### 3-6- الدهرية: -

وكان يطلق عليها أسم الزنادقة. والزنديق هو القاتل ببقاء الدهر (الزمن) وهم من أتباع ماني وكان من بينهم من قريش كبار الأغنياء كابي سفيان وعقبة ابن معيط والنظر بن الحارث والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة وغيرهم<sup>(1)</sup>. وهي فرقة أشبه ماتكون اليوم بالعلمانية، وكما يقول محمد الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل" بأنهم كانوا ينقسمون الى ثلاث فرق وهي:

- 1- مجموعة أقرت بالخالق والخلق الأول ولكنها أنكرت البعث.
- 2- مجموعة أقرت بالخالق والخلق ولكنها أنكرت الرسل.
- 3- مجموعة أنكرت الخالق والبعث وقالت بالطبع المحيي والدهر المنفي<sup>(2)</sup>.

وعلى الرغم من اختلاف هذه المجموعات الثلاث وتباينها بوجود الخالق وبنكران البعث والرسل الا أنها كما يبدو أنتمت الى تيار فكري عقلائي علمي، وكان أشهر قانتهم في الجزيرة العربية الحارث بن قيس. وكانت تنفي الغيب أيضاً وتعتبر أن الزمان هو السبب الأول للوجود، وهذا الزمان غير مخلوق وغير نهائي، وأن المادة لا تنفي، وأن الدهر قديم، وبذا وقتت الدهرية ضد الديانات السماوية وضد الوثنية في أن واحد. ولا يوجد من المصادر الا النزر اليسير عن عقائد تلك الفلسفة العربية، وفي الأغلب أن جذور هذا التيار الفكري قد استمدت من الفلسفة اليونانية التي تمثلت بفلسفة أرسطو بشكل خاص وقولة "يقدم العالم" وأستبعاده لفكرة الخلق وأن العالم لا يحتاج الى خالق، وكل شئ فيه أزلي أبدي، لا يفترق الى خالق يخرج به الى حيز الوجود. وأن العالم موجود منذ الأبد وسيظل موجوداً الى الأبد. وأن الزمان لا بداية له ولا نهاية، وذلك لأن كل أن منه له قبل وبعد فلا أن أحق بالزمانية من أن<sup>(3)</sup>. ولا بد من الإشارة هنا الى أن أرسطو كان يعتقد أيضاً: "أنه لا بد من التوقف عند محرك أول تكون عليه جميع الحركة ولاعلة له، وهذا هو المحرك الأول أو علة العلل وهو الله". وبالتالي فهذا الرأي مطابقاً مع أقوال الدهريين العرب وفلسفتهم. وهذا دليل واضح على اتصال العرب بالفلسفة اليونانية والثقافة

(1) شاعر النابلسي "الملل والهلال" 104.

(2) محمد الشهرستاني "الملل والنحل" جزء 3.

الفارسية والكردية وأطلعهم عليها بفضل التجارة المكية والتي أسهمت في تكوين عوامل اقتصادية وفكرية واجتماعية منها:

- 1- وجود العنصر الطبيعي المتعارض مع العنصر الغيبي.
- 2- تأثير الثقافة الفارسية على الثقافة العربية
- 3- تطور الأوضاع الاقتصادية في مكة والمدينة وفي الحجاز بصفة عامة في القرن السادس الميلادي وتحولة من مجتمع زراعي \_ رعوي ، الى مجتمع تجاري مدني.

الا أنهم لم يكونوا منتشرين بكثرة في الحياة العربية ولم يكن لهم اهتمام في سلطة أو تنظيم سياسي، وبالتالي يمكن القول أن مثل تلك الأفكار لم تكن بمقدورها أن تثبت وتستمر بالبقاء طويلا في بيئة الجزيرة العربية في ذلك الزمان. ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن الزنادقة ظهرُوا في العهد العباسي الأول من بين المسلمين الذين لم يدخل الإسلام الى قلوبهم وتم الساسانيين. وكان يسمى أحيانا "زند" وتطلق الكلمة على أتباع ماني ومزدك خاصة<sup>(1)</sup>. ويقال أيضا أن المانوية المشتقة من الزرادشتية كانت هي الأخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية. وهكذا يمكن القول أن الزنادقة هم أتباع كتاب الزند والمتأثرين بالزرادشتية، بينما كانت الكلمة تطلق في العصر الإسلامي لكل من يلجأ في تفسير بعض أحكام الإسلام الى كتاب الأبتساق (الزنديستا) وهو كتاب زرادشت.

#### 4-6- المسيحية:-

أما المسيحية فقد كانت إبنة التطور الفكري والسياسي للمنطقة الشرق أوسطية والتي هي الجزء الشمالي للجزيرة العربية (فلسطين) ولكنها لم تستطيع أن تنمو وتترعرع في أجوانها. بينما أستطاع متفقون ينتمون للحضارة الأخرقية والرومانية أن يحولوها الى استجابة فكرية لحاجات الأمبراطورية الرومانية في التوحيد والتجميع. ومن هنا تغلغت المسيحية في العالم المسيطر والبلد المهيمن والبلدان المهيمن عليها والمنهوبة من قبلهم، ولم يعد ثمة فرق بين من يستغل ويتلقى العذاب، ومن يقوم بالاستغلال والتعذيب، عبر مجموعة من الأفكار التي راحت تنمو وتتجدد لصالح توليفة من الأنسجام، والتوفيق بين الأطراف المتصارعة

(1) كنزل بروكلمان " تاريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة نبيه أمين فارس ومترى البعلبكي الضبعة السابعة، دار العلم للملايين بيروت ( 1977 ) 184.

المختلفة، سواء عبر أفكار تتجاوز اليهودية المحصورة، أي عبر الغاء (الخطيئة) الأصلية الذي يعني تجاوز اليهودية وأستيعابها، ومن خلال نشر ثقافة اللاعنف والتسامح، بحيث يشكل مخرج تاريخي لنظام العبودية المتعدد الألوان بين الغرب والشرق، وتستعيد الزراعة دورها التاريخي ويتم تخفيف العبودية... الخ.

وهكذا فإن المسيحية عبر تطورها الخاضع لهيمنة الثقافة الأخرية والرومانية، انفصلت حينذاك عن الحاجات السياسية والاجتماعية الملحة للجزيرة العربية، وغدت وعياً سياسياً يتجه لتغيير بؤرة السلطة في العاصمة السياسية للإمبراطورية (روما). وغدت تخفيفاً من الهدر الألهي التعددي الوثني وتركيزاً له وإختزلاً لبذخه، فصار إنتصار التثليث موظفاً للحاجات السياسية للإمبراطورية أكثر منه للشعوب خاصة المشرقية ولشعوب شمال أفريقيا المستغلة كذلك. وكان تغلغل المسيحية في عالم الغرب الزراعي أكثر منه في عالم المشرق الرعوي. من هنا تظهر مرة أخرى أهمية طبيعة الأرض الزراعية والمناخ في أن تلعب دوراً في أنتشار الأفكار التي تدعو الى اللاعنف، وتحول دون أنتشارها في مناطق نشأت فيها أصلاً. وذلك بسبب الأختلاف في البيئة والمناخ في المنطقة الأوربية (إيطاليا) مثلاً بالمقارنة مع الجزيرة العربية، والمتمثلة في نقص مياه الأمطار وأنتشار التصحر والرعي، بالإضافة الى الأقتال والسلب والنهب بين القبائل، والذي أصبح جزء من مهنة وسلوك يصعب التخلي عنها، وعلى الرغم من حصول الأنتشاقات الفكرية حول كينونة السيد المسيح (ع) والسيدة مريم العذراء وكجزء من حالة المطالبة بالانفصال عن الإمبراطورية الرومانية، إلا أن المسيحيون العرب وغيرهم من الأجزاء التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية، لم يكونوا قادرين على مواجهة القوة العسكرية القوية لدى الرومان الذين إتخذوا المسيحية كمنهج فلسفي لتسيير دولتهم وسيطرتهم على مناطق واسعة من العالم. وعلى الرغم من إنتماء عدد من القبائل العربية الى الديانة المسيحية في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، إلا أن الديانة المسيحية لم تنتشر وتلقى الرواج الواسع بشكل يؤهلها أن تلعب دوراً هاماً في توحيدها فكراً وسياسياً واقتصادياً لأسباب أهمها كونها كانت تشكل منهجاً فلسفياً للدولة المهيمنة الرومانية في ذلك العصر، بالإضافة لأيقالها بمنهج التسامح غير المنسجم والطبيعة الصحراوية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

## 6-5- الأيزيديه<sup>(1)</sup>\* وغيرها من الديانات الأخرى المتفرقة:-

لابد من الإشارة الى وجود ديانات توحيدية أخرى كانت منتشرة في المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين ومنها اليزيدية. أما اليزيدية فأتتها ديانة توحيدية للأكراد في لغتهم وكان الوصف الشائع لهم بوجه عام أنهم من عبدة الشيطان الذين يسمونه "ملك طاوس" لكن الأصح هو أنهم موحدون، تلك العقيدة القائلة بوجود اله واحد في الكون. وهم يستعطفون في عبادتهم الروح الخبيثة معتقدين أن تلك الروح هي ملك هبب من السماء وسيعود في المستقبل الى حالته السابقة، ويمارسون بالإضافة الى ذلك طقوساً دينية يمكن تتبعها وأرجاعها في الأصل الى عبادات الأشوريين في نينوى<sup>(2)</sup>.

بالإضافة الى كل تلك الديانات فكانت هناك ديانات توحيدية أكثر أنتشاراً في شمال العراق وهي الزرادشتية التي كانوا يعتبرونها من الديانات المقرونة بعيدة النار والحقيقة أن الزرادشتية التي كانت منتشرة في بلاد فارس وشمال العراق هي ديانة توحيدية وأما يقدمسون النار ويوقدونها في كل مناسباتهم وطقوسهم الدينية. كما يفعل الكثير من الديانات التوحيدية الأخرى في الشرق، وخاصة المنتشرة منها في الهند، ويجدر الإشارة هنا الى أنه لايزال يتدين قسم ضئيل من الأكراد بالديانات الزرادشتية الى يومنا هذا. ولهم كتابهم المقدس والذي يعرف بالأهستا يدعو الإنسان الى عمل الخير وتجنب الشر والتوحيد وفيه العديد من قصص الأنبياء وأسفار التكوين المشابهة لما جاء بالكتب السماوية المعروفة الأخرى. ولا بد لنا قبل الانتقال الى مواضيع أخرى الى ذكر فئة دينية أخرى لدى الأكراد والمعروفة بالكاكائية وترجمة هذه الفئة باللغة العربية تعني "الأخوان". ويعيش الكاكائيين في منطقة بالقرب من خانقين في شمال شرق العراق كما أن هناك عدد منهم في سوريا ولبنان وإيران، وتتميز هذه الفئة بالغموض وعدم وجود مصادر وبحوث عنهم، إلا أنني ومن خلال محادثاتي "شخصية" مع أناس يتصفون بالكاكائية في تلك المنطقة، تمكنت من معرفة أن هذه الفئة حديثة العهد وتعود بدايتها الى عصر خلافة الإمام علي ابن أبي طالب (ع) الأسلامية في الكوفة، وذلك عندما أقتع بعض الناس من أداء الزكاة والجزية الى بيت مال المسلمين

(1) الأيزيدية: الكلمة مشتقة من كلمة يزيد وتعني اله الخير لدى الأشوريين.  
\* كما من بيل" فصول من تاريخ العراق الحديث" ترجمة جعفر الخياط الطبعة الثانية - وزارة التربية والتعليم (1971) 157.

تبرع قسم من الفتوة ( الشقاوة بالمصطلح العراقي العامي ) لأن يساعد الدولة بجمع المال للمسلمين بالقوة واستخدام الهراوة الغليظة وكان هؤلاء الناس يتصفون في مظهرهم بطول الشوارب تعبيراً عن القوة وتخويف الناس. ولكنهم مقابل ذلك إستطاعوا أن يحتفظوا بالكثير من العادات والطقوس الدينية القديمة المتأصلة لديهم منذ آلاف السنين كذبح الديك في مناسبات محددة وغير ذلك. ونتيجة لعزلتهم عن المدينة والعالم الخارجي، فقد أستمرت طقوسهم ومعتقداتهم الغامضة تمارس الي يومنا هذا ولكن على نطاق ضيق، وتعتبر ديانتهم من الديانة التوحيدية أسوة ببقية الديانات الأخرى. لقد قاموا بجمع الضرائب من الناس من أجل أن يغض النظر عنهم في أداء طقوسهم الدينية القديمة دون أحراج.



## 7- الظروف المساعدة على ظهور ديانة جديدة في الجزيرة العربية:-

لقد أخذت الاتجاهات التوحيدية تنمو في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام وذلك بسبب تعاضد المصالح المشتركة للقبائل وتنامي العلاقات الاقتصادية والفكرية بينهما. وكانت العبادات الوثنية التي سبقتها في القدم قد عبرت عن مصالح مستقلة للقبائل المتباعدة عن بعضها البعض وكانت غير قادرة أن تستجيب لعلاقات التوحيد الاجتماعي والسياسي المتصاعد في عصر قريب للقرن السادس الميلادي. أن شبكة الآلهة الوثنية في مكة عبرت عن مكانة مركزية منهارة للمرأة فقد سيطرت الآلهة الأنثى: اللات والعزى ومناة على القبيلة الألهية، ولكن الآلهة الذكورية (هبل) كان يتمتع بمكانة خاصة، غير أن سيطرة الآلهة الأنثوية كان يمثل تناقضاً كبيراً مع تنامي العلاقات الأبوية الذكورية القوية في المنطقة العربية، ولم يكن ثمة شيء من المرحلة الأمومية سوى بقايا أسماء، وكانت جميع أسس الحضارة قد تشكلت بين القبائل المسماة بالعدنانية، وهي التي كانت ضاربة في البداوة بخلاف القبائل القحطانية التي استقرت في اليمن وكونت دولا. غير أنها لم تستطع القيام بالتوحيد السياسي للمنطقة لأسباب تتعلق بالبنية الزراعية المفككة، وقد ضعفت الزراعة مع انهيار سد مأرب وانتشار الكثير من القبائل اليمانية (القحطانية) للارتحال والبداوة من جديد. لقد لعب انهيار سد مأرب دوراً كبيراً في تاريخ العرب القديم وكان نقطة تحول مهمة في انتشار العرب في الجزيرة برمتها. وهذا قد وضع أساساً للتقارب بين التجمعين العربيين الكبيرين (عدنان وقحطان)، إلا أن التمايز القبلي ظل لفترة طويلة يلعب دوراً مهماً في المزيد من التدهور لغالبية سكان المنطقة، وزاد في استمرار الحروب الأهلية العربية، بالإضافة لما سببته حروب الأمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية فيما بينهما، والتي انعكست على زيادة تدهور الحالة المعيشية للسكان، خاصة في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية (العراق والشام).

لقد تضخم عدد القبائل الرعوية في الجزيرة، وأصبح العدنانيون (القيسيين) القوة الكبرى فيها وتشكلت لهم مدن هامة، خاصة مكة التي لعبت دوراً توحيدياً تجميعياً، وكان موقعها المميز قادراً على توحيد الجزيرة وقيانها. لقد كان العرب في وضع استقبال طويل للمؤثرات العربية الشمالية منها خاصة، حيث التفاعل الطويل بين الشمال والجنوب

\* ضارب يرمز بهذه الكلمة لانتشار القبائل في منطقة الجزيرة العربية وتسمى المنطقة أو الحيز الذي تشغله القبيلة.

مروراً بالمركز المعروف (مكة). أن تصاعد الأفكار التوحيدية السياسية في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية قد بدأ يتدفق بسبب تدفق الرعاة المستمر الذين أخذوا يجعلون المنطقة بدوية أكثر فأكثر، بالإضافة لمهمة طرد الغزاة، والتي كانت تنمو عبر القرون. لكن هذا الصراع ظل مستمراً من دون حسم، بسبب التداخل بين البنييتين الرعوية والزراعية، وعدم قدرة المؤسسات السياسية على الانفصال الكلي عن الجمهور. لقد رأينا كيف توغلت الآلهة الشمالية في الجزيرة العربية وكان اندماج أسمى أيل وأن بمناطقها ومنهما وأسماء البشر والآلهة فيها مؤشراً على الترابط والتلاحم بين الجزئين العربيين، ولكن تطور مكانة الإله أيل (الكنعانيين) خاصة، قد عبر عن النفوذ الفكري المتزايد للشمال السوري مثلما أخذت البادية السورية إمتداداً لتدفق الرعاة من الجنوب.

لقد حدثت عملية التجريد الثالثة في التاريخ العربي من دون صعوبات هائلة. كما كانت عليه الحال في عمليتي التجريد الأولى والثانية في أمون لدى المصريين ويهوه لدى اليهود في مناطق فلسطين وذلك بسبب محدودية الأثر الزراعي وطقوسة والدور الكبير الذي لعبته القبائل الرعوية فعدت عملية التوحيد الدينية والسياسية بمثابة عسكرة لهذه القبائل وتوجيهها نحو التوسع وتغيير طابع المنطقة، وطرد القوى الأجنبية منها وأحدثت عملية تقدم حضاري كبيرة وهكذا ظلت الجزيرة العربية وكأنها في حالة ترقب لظهور دين جديد يملئ عليها احتياجها للتوحيد المتكامل، ولم الشمل وأيجاد نظم سياسية قادرة على حل مشاكلهم الداخلية، والقضاء على النزاعات والحروب القبلية، وطرد الغزاة من الفرس في الجانب الشرقي والبيزنطيين في الجانب الغربي من الجزيرة. كما أن ظهور مكة كمركز تجاري مهم في قلب الجزيرة وبروز طبقة التجار المؤهلة لوضع أسس الإدارة السياسية قد ساعدت كثيراً في ظهور كيان سياسي عربي موحد وكان ذلك بظهور الإسلام.

## 8- الأحوال الاجتماعية في الجزيرة العربية:-

أذا أنتقلنا الى أحوال بلاد العرب الشمالية وجدنا الصحراء التي تؤلف الجزء الأكبر في المنطقة، وهي التي تقرر الأحوال الاجتماعية للسكان، ذلك أن مراعيها الشتيتة لا تكفي الا لأفائة المواشي الصغيرة والجمال الذي تشبع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة والذي يجد فيه العربي قوام طعامه ولباسه، وأذ كانت العناية بهذا الحيوان لا يمكن الا بالرحلة والضرب في المناطق النائية في الصحراء، فقد صار كل تنظيم سياسي قائم على الاستقرار في السكنى هو أمراً متعذراً على البدوي

والصلة الدموية هي وحدها التي تعين الفلك الذي تضرب به حياة البدو. فهي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل والقبائل بالشعوب التي لاتزال تعين أنسابها بواسطة قرابة دموية قد تكون مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسبي يشبه نظام الأنساب عند اليهود القدماء (كبنى إسرائيل مثلاً) بينما عند العرب تنسب الى عدنان وقحطان<sup>(1)</sup> لكن هذا الشعور الاجتماعي لاينتظم الشعب كله، أنه يمتد من العشيرة التي تشمل الأسرة القريبة الضاربة في خيامها جنباً الى جنب، الى القبيلة التي تعد بضعة الألف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى، وكل من يتجرئ على التقدم الى منطقة قبلية غريبة إنما يعرض نفسه للقتل أو السلب على يد أولئك الأغراب الذين لايعدون أن يكونوا أعداء. وهو لن ينجو من مثل هذاالمصير الا اذا وُقق الى أن يلمس ثياب عدوه أو خيمته، أو أن يدخل عليه منزلة كما جرت العادة لديهم.

وقد تمنح هذه الحماية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب خاطر. وقد يُضم أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً الى عشيرته ضمّاً لأنفصام له وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثل في جماعات كبيرة، وتعتبر في أول الأمر دخيلة حتى اذا انفصمت بضعة أجيال مُنحت جميع الحقوق في الصلة الدموية كسائر أفراد القبيلة. والبدوي كائن فردي النزعة، مفرط في الأنانية قبل كل شيء<sup>(2)</sup>، وهذا ناجم عن ظروفه الصحراوية الصعبة. أن الأنانية المفرطة لدى البدوي لاينفرد بها العربي في الجزيرة العربية بل تشمل كافة أنحاء المناطق الصحراوية بالعالم على حد سواء، وهذه الصفة ترتبط بالتنازع على البقاء ويتصف بها كل من يقطن الصحراء من الكائنات الحية بما في ذلك الحيوانات والنباتات على حد سواء فتحاول تخزين الماء والغذاء الكافي للأستدامة لفترة أطول دون التفريط بتلك الموارد. ولاتزال والى وقت قريب تتردد بعض الأحاديث التي تسمح للعربي الداخل في الإسلام في الجزيرة العربية أن يقول في دعائه أثناء الصلاة " اللهم أرحمني ومحمداً ولاترحم معنا أحداً"<sup>(3)</sup>.

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" 17 عن ولهاوزن (1900) *JWelhausen*

(2) بروكلمان "المصدر السابق" 18.

(3) كارل بروكلمان "المصدر السابق" 18.

أن حالة التقشف التي يعيشها البدوي في الصحراء تفرض عليه أن يكون مفرطاً بالإنانية لضرورة بقائه وأستدامة حياته من خلال الأبقاء على الأجزاء الضرورية اللازمة والمتوفرة بشكل شحيح في الصحراء. ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية القبلية، فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في المهمات، وليس له أن يتساءل أن كان أخوه ظالماً أو مظلوماً. وليس من شك في أن هذا الواجب يقع على عاتق العشيرة التي يعينها الأمر، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرتها إلا إذا كانت العشيرة التي يعينها الأمر ضعيفة وقليلة الحول. ولكن هذا المجتمع القائم على أساس المساواة والحرية العامة يتكشف مع ذلك عن نزاعات متعددة نحو تركيز السلطة، وكان ذلك واضحاً في سلوكهم حتى بعد ظهور الإسلام، حيث أخذت النزاعات الدموية تلعب دورها الفاعل في تركيز السلطة على الأمة بأسرها، ولا تقتصر على القبيلة الواحدة أو القبيلة الكبرى. كما سنأتي عليه في الفصل الثالث. لقد وجد الباحثون في المجتمع البدوي أن كل قبيلة فيه عبارة عن تفاعل بين عامل التجاذب والتنافر. فالبدوي شديد التعلق بقبيلته حين تصطدم بغيرها من القبائل، وتراه آنذاك محباً لأبناء قبيلته يناصرهم في الحق والباطل وقد يضحى بنفسه أحياناً في سبيلهم، ولكن مع ذلك يشعر أحياناً بشئ من الحسد والحقد والبغضاء لأقاربه، لاسيما إذا لاحظ فيهم تفوقاً عليه أو امتيازاً، أو شدة في المنافسة، لا يستطيع من هضمها وإستيعابها والتعايش معها كحالة طبيعية ناجمة أصلاً من الاختلاف في الخلق بين الناس بعضهم بعضاً من حيث درجة الذكاء والقابلية في اغتنام الفرص التي يطلق عليها تسمية الحظ.

ولهذا نجد أن القبيلة البدوية لا تكاد تكبر حتى تنقسم إلى أفخاذ، وكثيراً ماتقوم الحروب الشعواء بين أفخاذ القبيلة الواحدة، ويصبح كل فخذ منها كتلة معادية لبقية الأفخاذ، ولعلنا لانغالي إذا قلنا أن من أعداء الفرد القبلي أخوة وأبن عمه أحياناً وتتشأ عداوة بينهم وتؤدي الى القتل لكي يحظى بالرياسة، وتاريخ العرب ملئ بالأحداث التي تعزز هذه المقولة، وحيث أن العشائر والقبائل ترتضي لزعمائها رجالاً أستطاعوا بسجاياهم وكفائتهم أن ينتزعوا أعراف الناس بتقدمهم عن غيرهم برضى وطيب نفس، وعلى الرغم من أن هذه المرتبة كثيراً ماتنتقل من الأب الى الأبن فيتعين على هذا الأخير أن يحققها لنفسه بأن يقيم الدليل، مستقلاً على شدة

بأسه وقوة مراسه، ولم يكن لهؤلاء الزعماء (السادة) حقوق فعلية على الإطلاق، ولم تكون نزعة الناس الى الأستماع لهم في المجالس العامة أقوى من نزعتهم الى الأستماع لغيرهم. أما واجباتهم فهي على العكس كبيرة ومتعددة. أنهم في حالة الحرب خليقون بأن يكونوا أبداً على أستعداد للتضحية بأرواحهم، وهم في حالة السلم خليقون بأن يضحوا بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة وأبتغاء إغاثة المعوزين من أفرادها.

ولكن مهمتهم تتركز في المحافظة على وحدة القبيلة أولاً، والتي كثيراً ماتتهدها المصالح الشخصية بأعظم المخاطر. فالخلافات التي قد تنشأ بين أعضاء القبيلة الواحدة على ملكية لشيء ما تسوى في المجالس اليومية، أما حين ينشأ الخلاف بين أفراد ينتسبون الى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون الى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة أو الى امرأة تمت لها هاتان الميزتان، وكثيراً ما يكون الحكم في هذه الحالة الى كاهن أو عراف، ولكن حكم الحكم لا يكون ملزماً للمختصمين الا اذا أرتضاه الفريقان أو حتمه تفوق أحدهما على الآخر في قوته وبأسه (لا يزال المثل الشائع لدينا بحكم القوي على الضعيف الى يومنا هذا).

ولما كان زعماء القبيلة أنفسهم لا يملكون القوة التنفيذية أيضاً، فقد إنعدم عند عرب البدو وجود القانون الجنائي، وأمسى من الضروري أن ينزع كل فرد الى أستخلاص العدالة من قاتل نسيبه أو سالبه بالطرق الشخصية. أما اذا عثر على أحد الأفراد مقتولاً بيد مجهول في منطقة إحدى العشائر، ووقعت الشبهة على أحد أفرادها تقسم العشيرة الأيمان على براءته، وقد يجرح صدق هذا القسم ويبطل فعله بقسم آخر تقسمه عشيرة القاتل، وإنما يقع الثأر للقتيل على عاتق أقرب الناس اليه. وأذا كانت عشيرة الجاني تنزع في الأعم الأغلب الى أن تنصره فقد يتولد عن الأنتقام للدم ثأر جديد لا يلبث أن يتناول في الكثير من الأحيان فسيستخرق أجيالاً تتجدد فيها النزاعات وتسفك الدماء.

صحيح أن جريمة الدم (القتل) قد يكفر عنها بالديات يقدمها أهل القاتل جمالاً ونيافاً الى أهل القاتل، وصحيح أن من واجب الزعماء في القبيلة أن يعملوا على أيجاد تسوية بين المتخاصمين من غير أن يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيراً ما لاتنتهي قراراتهم الى الأخذ بهذه التسويات الا بعد أن تكون قد تفاننت ودقت بينها فترة طويلة يستطيعوا نسيان ما حصل لهم من مأساة. أما اذا سلم القاتل طوعاً لاكرها

الى الطرف الآخر لينزل فيه إنتقامه فعندئذ لايبقى مجال للثأر، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة فهي تفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعاً ويلحق بها العار. أن حاسة الشرف السامية هذه التي إتسم بها جميع أعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض عليها صرح الأخلاق عندة، ولا بد لنا أن ننكر واقعة حصلت في تاريخ العرب قبل الإسلام وهي حرب البسوس التي دامت قرابة ثلاثين عاماً لم تكن لتسجل الأسباب والمبررات الحقيقية ورائها بدقة والتي كانت حرباً أهلية بين القبائل الضاربة في عمق الصحراء وكانت تعكس نموذجاً حياً لنمط الحياة والعلاقات الاجتماعية السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويقال أنها نشأت من أجل ناقة أصابها شيخ من بني تغلب بسهم فأدماها، فغضب لها رجل من بني بكر، وأسرع الى الشيخ فقتله، فثارت تلك الفتنة العمياء والتي سقط فيها الألوف من القتلى والجرحى. ومثل هذا القول عن حرب تدعى "داحس والغبراء" وهي لاقتل شهرة عن حرب البسوس. كان سببها المباشرة والمعلن أن سباق قد جرى بين حصان عيسى وفرس ذبيانية. فحدث جدال بين صاحبيها مما أدى الى أن تشترك قبيلتهما وأحلافهما في قتال مرير لا يقل شأناً عن قتال البسوس.

يمكن القول أن الأهانة البسيطة التي تؤدي الى مثل هذه المعارك الطاحنة هي بمثابة شرارة تقع على برميل مشحون بالبارود<sup>(1)</sup>.  
 أن الحرب والقتال مركب أساسي من الثقافة البدوية في الصحراء، ولهذا كانت الحرب في البداوة دائمة ومتصلة ولا تخمد لها أوار. فهي لا تتوقف فترة الا لتثور بعدئذ. أن القيم البدوية بشتى مركباتها وخصالها تدور حول تمجيد الغزو والغلبة والفروسية والحمية المفروضة التي لا حدود لها. أما البداوة فأنها جوع مزمن ولا بد أن يكون فيها تنازع البقاء شديداً، حيث يفنى فيها الضعيف ويبقى الأقوي انصامد. ويمكن القول أن الحرب هي الأصل في البداوة وما السلم فيها الا حالة طارئة، وهذا هو سر بقاء المنطقة محدودة التطور والأزدهار عبر التاريخ لأن حالة الحرب لا تنتج سوى الخراب والدمار ولا تتم الحضارة الا في ظروف السلم.

(1) محمود شكري الألويسي (بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب) الجزء الأول / علي الوردي (المصدر السابق) 68.

ولابد لنا أن نذكر هنا عن عادة اجتماعية لبعض القبائل العربية قبل الإسلام ألا وهي وُد المولود إذا كان الطفل بنت من أول أيام ولادتها. ويعود السبب الحقيقي وراء ذلك السلوك إلى حالة الفقر والعوز الذي كانت تعاني منه المنطقة الصحراوية القاحلة ذات الموارد المحدودة. أن معرفتهم بأن تلك المولودة ستكون وتلد وبالتالي تزيد من عدد السكان الذين لا يستطيعون من إنتاج قوت يكفي لبقائهم على قيد الحياة والأستمرار بالبقاء لذا تجدهم يقبلون على فعل هذه الجريمة التي حرّمها الدين الإسلامي. وقد فعل المصريون في عصر الفراعنة عملاً مشابهاً وذلك من خلال رميهم للأطفال حديثي الولادة في نهر النيل عند حصول القحط ونقص المحصول الزراعي في عدد من السنين التي مرت وحصلت فيها فيضانات مدمرة<sup>(1)</sup>. وتعطي عادة وُد البنات في الجزيرة العربية قبل الإسلام دلالة أخرى في مدى إعتراز العرب بالمحافظة على عفة المرأة وشرفها ومنعها من الظهور بين الناس، من أجل أحكام السيطرة على الأنجاب وذلك بتقليص أو السيطرة على الأنجاب بشكل لا يؤثر على حجم السكان لأن المرأة هي بمثابة المنجم الوحيد لتكاثر السكان، وأن العناية والسيطرة على هذا المنجم يعني بالنتيجة العناية والمحافظة على إبقاء المجتمع بشكله المعتاد دون أن يتضخم لدرجة تصبح فيه الحروب أمراً لا مفر منها، وهنا أيضاً يبرز دليل واضح أن سلوك وعادات أي مجتمع يصبح مرهوناً بظروفه الاقتصادية ومقدار مانتنتجه الأرض من موارد طبيعية تتحكم في بقاءه.

ويمكن القول أن الغزو هو حاصل ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية ألّمت بالاعراب وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الخشن، كارهين أو مختارين، فليس للاعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير هذا الغزو. وقد بقي يغزو حتى في الإسلام مع منع الإسلام له، ولا يجد فيه مع ذلك غضاضة ولا بأساً.

(1) موسوعة الكتاب المقدس " دار منهل الحياة / منصورية المثني \_ لبنان ( 1993 )  
صفحة 68 "مفر الخروج وولادة موسى" { أمر فرعون كل شعبه وقال لهم أطرحوا في النهر كل نكر يولد من بني إسرائيل وأبقوا كل أنثى } . بالإضافة لذلك كان المصريون يرمون الأطفال في النيل كقربان للإلهة ويعتبر ذلك أحد الواجبات الدينية المقدمّة، ويرمون البنات الجميلات بعد تزويجهم ولبسهم ملابس العرائس إلى النيل كي يعرض عليها للآلهة الغاضبة، ويتخلصوا من غضب إله النيل.

لقد فرضت الطبيعة على الأعرابي أن يكون محارباً غازياً، فقد حرّمته من خيرات هذه الدنيا ومن طبيبات ما تنبت الأرض، حرّمته من وجود حكومة تحميه وتدافع عنه وحرّمته حتى من وسائل الدفاع عن النفس، فجعلته لا يمتلك شيئاً يكنّ إليه في البوادي ليحمي نفسه من الرياح والسموم ومن أشعة الشمس القاسية ومن الحيوانات الوحشية، وجعلته يقابل المرض بمفرده، ولم يكن أمامه والحالة هذه، إلا أن يتعلم الصبر وأن يصير محارباً غازياً لا يبالي بالنصر أو الخسارة، إلا أن يتعلم الصبر. فهو إن خسر هذه المرة حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة. وهكذا لأنه إن ينس وجلس واستسلم للزمان أكله جار له يطعم في ماله مهما كان، فهو لا بد له من استعداد لغزو جديد. وفي الغالب يكسب النصر من له عدد وافر وكثير من الخيل وفرسان شجعان يأخذون الخصم بمباغثة ومفاجأة. وللخيل نصيب كبير للغزو لما يتمتع به من سرعة في الحركة بالمقارنة مع الجمل أو الرجال الراجلة. إلا أن للإبل فضل في تحمل الجوع والعطش ولصلاحياتها على المشي في البوادي، فقد صارت خير أليف للعرب، واشتركت في الغزو والحروب أيضاً. والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة، ولولا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم والتنقل فيها من مكان إلى مكان. وبفضله اتصل العرب بعضهم ببعض، وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة في بلاد العرب وقهر العربي ظهر باديته، وتكونت فيها تجارة برية وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل، صابر على العطش حتى يصل إلى مرحلة بعيدة فيها ماء، ويتحمل الجمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف و25 يوماً في الشتاء. وقد وردت قصص عديدة في حروب الغزو لدى العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إليها في المصادر المتخصصة<sup>(1)</sup>، أما فيما يخص القوانين والشرائع فقد كان هناك فقه في أهل مكة أكثر تطوراً من أهل المدينة مثلاً. ومهما يكن من أمر فإن القوانين والشرائع هي من بنات المحيط، ومحيط الجزيرة العربية محيط قبلي مجتمعاته صغيرة متباعدة ومشكلاته محصورة في ضمن إطار حياتهم فإن المعضلات القانونية عندهم تكاد تكون محدودة نابعة من

(1) جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج5 دار العلم للملايين-بيروت- ط2 (1978) ص 333.



ظروف جزيرة العرب في الغالب، ومعالجتها وأحكامها نابعة من هذه الظروف أيضاً فهي وفق معيشة الجاهليين وأحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية لا يمكن أن تجد فيها ما نراه في قوانين اليونان والرومان في ذلك العصر من توبيخ وتعقيد لاختلاف الحياة وتباين المحيط ونوع الحكم الذي كانوا عليه<sup>(1)</sup>.

يتضح مما تقدم أن المجتمع في الجزيرة العربية قد أصبح في حالة ترقب لظهور منقذ من هذا الوضع والحاجة الى وضع تشريعات ونظم لأنقاذهم من واقعهم المؤلم والى تكوين كيان سياسي جديد قادر على جمع شملهم وتوحيدهم وتنظيمهم ضمن هذا الكيان وتخليصهم من الهيمنة الاجنبية التي كانت قائمة في شرق البلاد من الفرس وفي غربها الشمالي من الرومان، وبالتالي سيكونوا قد وفروا بأقل تقدير مقداراً من الثروة، التي كانت تذهب الى ذلك المهيمن لأجل تحسين أحوالهم الاقتصادية المتدهورة. وعلى العموم فقد كانت قوانين الصحراء تطبق في مدن الجزيرة كافة. مثل الطائف ومكة والمدينة (يثرب)، إذ كانت تلك المدن مكونة من عشائر مختلفة كما كان يعيش البدو في خيامهم في عمق الصحراء، ولذلك كانوا يعيشون عيش الحرية والاستقلال فلا يطيعون أحداً، وليس من شك في أن شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء قد وجد ما يخفف عنه بعض الشيء في مكة بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة، والتي كان يؤمها الجميع من كافة الأديان والأرجاء. ومن التجارة التي كانت تعتمد على أزدهارها. وإذ كان كل فرد من أبناء مكة معنياً بهذه الشؤون فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها أكثر تعقيداً. وتفوق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة أكثر مما كان عليه الحال في بقية أنحاء الجزيرة. أما في المدينة (يثرب) فقد كانت فيها بعض موارد العيش الرئيسية المعتمدة على الزراعة والعناية بالنخيل، وكانت الحياة الاجتماعية أكثر سداجة عما هو عليه الحال في مكة، حتى إذا جاء الاسلام فقد وصلت الثارات الدموية الى درجة عالية بحيث صار الفرد لا يكاد يجرأ على مغادرة منطقته المحصنة من غير أن يعرض نفسه لأشد الاخطار. وهكذا أصبحت مكة مركزاً قيادياً مهماً في كافة أرجاء الجزيرة العربية كما أسلفنا، وبدأ قادة ورؤساء

(1) جواد علي "المصدر السابق نفسه" ص 484

القبائل يفكرون جدياً في إيجاد كيان سياسي يتمكن من توحيد كافة القبائل والمناطق المحيطة وإدارة شؤونها. ومن هنا جاء الاسلام ليبي كل تلك المتطلبات المذكورة سلفاً.

وأن من الانصاف أن نشير هنا الى وجود صفات وعادات أجتماعية رائعة في الصحراء العربية تم التعرض اليها في كتاب الدكتور علي الوردي عن دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. الا أننا نركز هنا في المواريث التاريخية للعنف السياسي السلبية ونفتش عن أسباب ودواعي السلوك السيئ الموروث في عقولنا من أجل الوصول الى نتائج تقودنا الى فهم أفضل لمجتمعنا في الوقت الحاضر.

## 9- الشعر عند العرب قبل الاسلام:-

العرب كما أشرنا سابقاً مدينون بأحاسيسهم أنهم يؤلفون أمة واحدة على الرغم من اختلافاتهم القبلية وحرورهم فيما بينهم، وذلك لمواهبهم الروحية العامة في الدرجة الاولى. فقد ترعرع الشعر عندهم وأزدهر في رعاية الدين الى حد كبير، فأغلب الظن أن الشعر عند العرب قد ارتبط ومنذ نشأته الاولى بالدين (قبل ظهور الاسلام)، وليس من شك في انه وجد حافزه الاول في غريزة اللهو والمتعة التي كان يجدها الانسان البدائي في الصوت والايقاع، فتساعده على احتمال أعباء ومتاعب الحياة. أن الكلمة الملفوطة لفظاً مهيباً (الشعر) أستطاعت في الوقت نفسه أن تضمن للإنسان البدائي الحصول على التأثير المقصود بواسطة قواه الخاصة ليس الا.

وبهذه الطريقة ساعد فن البلاغة القديم على خدمة السحر، الذي لم يكن يتعارض في هذا الطور من أطوار الحياة الفكرية مع الدين في المرحلة التي كان الدين معتمد على السحر والكهنة.

لقد أصبح الشعر فناً من الفنون المتميزة في الجزيرة العربية الى درجة انها ربما كانت المجال الوحيد في المباراة واطهار القبليات المتميزة لبعضهم دون الاخر. وفي أوقات الحرب، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة، حتى اذا ضعف الايمان بالقوة تطورت الى قصيدة هجائية، وأنتقلت من دائرة التناحر بين القبائل الى دائرة التشاحن بين الأشخاص لتنتهي الى أخر المطاف، بوضعها سلاحاً مخوفاً الى أن تبتذل فتصبح مورد رزق لشاعر لا يخشى الفضيحة والتهديد. ولم يمثل الحب الجنسي في الشعر العربي كما هو عليه الحال لدى الشعوب البدائية الا دوراً ثانوياً. ذلك ان الشاعر الجاهلي كان يصطنعه، في الشعر الفني الذي لم يحفظ لنا غيره، كمقدمة للغرض الذي يقصد اليه، وهو التمدح بنفسه أو الاشادة بمحامد قبيلته أو مدح سيدة أو أميرة، اذا كان شاعراً محترفاً. وأما كانت هذه القصائد تجري على سنن تقليدية مرسومة. فكان الشاعر يستهل قصيدته بالحنين الى أيامه الصالحة التي سعد فيها بالحب، وقيل أن يبلغ غرضه الحقيقي كان يعمد الى امتاع سامعيه بأبيات في وصف الطبيعة.

وربما كان النقص في التغني في الحب وتكرسه لدى العرب واحداً من العوامل المؤثرة على استمرار أحداث التطاحن والحروب، والحق أن العرب قد وقفوا في الإبداع بوصف الصحراء وحيواناتها النموذجية كالجمال الذي اتصلت حياتهم به اتصالاً وثيقاً. ولكن هذه اللوحات التصويرية المبدعة نفسها لم تعتمد على الملاحظة الشخصية أيضاً بل أفرغت في قوالب تحدرت الى الشعراء من الاجيال القديمة.

ومن هنا لم يفسح هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لأظهار شخصياتهم الا في القليل النادر حيث تكون المفارقة صريحة جداً. ومن أفضل الامثلة على ذلك الشاعر امرؤ القيس ذلك الملك الضلل الذي سبق لأبائه من كندة (العشيرة العربية اليمانية) أن وحدوا القبائل البدوية الشديدة الشكيمة في الشمال عند بداية القرن السادس الميلادي ووجهوها في غزوات مخربة على الامبراطوريتين الرومانية والفارسية، والذي أنفق عمره في السعي لاسترداد مجد أسرته هذه الى أن مات آخر الامر مسموماً كضيف للامبراطور البيزنطي في أنقرة بأسيا الصغرى (تركيا اليوم).

وكذلك الشاعر زهير ابن أبي سلمى شاعر الحكمة العملية الجامعة، والاعشى المنشد المحترف الذي قاد تطوافه في سبيل التكسب الى جنوبي غرب بلاد العرب.

ولم يكن أصطناع اللغة العامة للتعبير الشعري وفقاً على الشعراء الفنيين وحدهم، فقد شاركهم في ذلك رعاة هذيل الذين كانوا يضربون خيامهم قرب مكة، فأصطنعوا في أشعارهم لغة تختلف اختلافاً بيناً عن لغة التخاطب اليومي على الرغم من أستمدادها من جميع اللهجات العربية السائدة في ذلك الحين، وفهم العرب لها في كل مكان.

ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية التي نجد مثيلها عند كثير من الشعوب البدائية لم تسود في نجد والحجاز فقط، بل أمتدت سيادتها الى قلب بلاد الرافدين أيضاً.

ثم أنها صارت أم العربية الفصحى التي جعلها الاسلام من خلال أنتشاره لغة عالمية في الشرق الادنى وشمال أفريقيا وتحديداً على طول

\* لقد كان العرب يطلقون على البيزنطيين اسم الرومان خطأ وقد أبقينا على هذا الخطأ نفسه في بعض فقرات هذا الكتاب تماثياً معهم.

الساحل الجنوبي من البحر الابيض المتوسط بكامله. بعد أن كانت لهجات مشتقة من لغات متفرقة في المنطقة كالعبرية والكلدانية والكنعانية والفينيقية والفارسية... الخ لقد أصبحت البلاغة اللغوية هي السمة الغالبة في تراث المنطقة العربية منذ ذلك الحين، ولايفتنا أن نذكر هنا القصائد المعروفة بالمعلقات السبعة وهي أشهر ما قالته عرب الجاهلية من شعر في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام وفي مكة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو الارث الثقافي القديم وما تركه من آثار على سلوكنا الاجتماعي (في العراق وبقية البلاد العربية) لحد الان. لقد أصبح البيت الشعري أو القصيدة التي تلهب مشاعر الناس أو المثل وحتى العبارة الواحدة ذات الدلالة المؤثرة أصبحت قانوناً ملزماً للناس دون منازع في الالتزام بمعناها وتطبيقها حرفياً، وكأنها دستور منزل من السماء لايمكن مناقشته أو الطعن بصحته (مهما اختلفت الظروف). ومن هنا يمكن أن تكون الكلمة سيفاً ذو حدين فقد تقود الناس في اكتساب قيم أخلاقية لصالحهم في فترة زمنية معينة، الا انها لايمكن أن تبقى كذلك لكل الأزمنة والظروف. ومن هذا المنطق فقد أصبحت البلاد العربية كلها أسيرة بأغلال وقيود صنعتها بنفسها، ولعبت دوراً لايستهان به في تقييد العقول وربما منعها من الانطلاق لغد أفضل. أن الالتزام بالنص في الظرف الذي قيل فيه هذا النص والهدف الاساسي منه، قاد الكثير نحو السير بالاتجاه الخاطئ وقد أساؤا لانفسهم دون غيرهم، من خلال ذلك التزمّت والالتزام المفرط بالنصوص، مهما كانت من قوة في البلاغة والصياغة اللغوية. ولو امعنا النظر في قوة الصياغات اللغوية لوجدنا أنها لاتعدو مجرد لحن موسيقي مستساغ من قبل السامع وكثيراً ما يكون خالي من العمق الفلسفي الواقعي الذي يصب في صالح الارشاد نحو المثل الاخلاقية العالية، فقد يكون فعلاً لصالح ظرف تاريخي معين ومنسجماً مع شكل وطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ومستوى تطور العقل البشري ضمن المرحلة التاريخية التي جاء فيها ولهذا السبب أيضاً بذل العديد من الفقهاء والمصلحين الدينيين في عصرنا مجهوداً كبيراً في أخراج قنوى أن زوال الحكم بزوال أسباب النزول بالنسبة لما جاء في القرآن والسنة النبوية<sup>(1)</sup>. ومن وجهة النظر المتعلقة

(1) أحمد أمين "رعماء الإصلاح في العصر الحديث" دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

يعلم النفس فإن الامم والشعوب تحتاج الى نوع معين من الفنون في كل مراحل حياتها كحاجتها الى الماء والهواء، ولابد أن تكون القوة البلاغية اللغوية (الشعرية والنثرية) هي الفن الوحيد المتميز في الجزيرة العربية في ذلك الحين. وبذلك يصبح التمسك به أمراً ضرورياً من أجل أدامة الحياة والاستمتاع بها بقدر أكبر، ومن هذا المنطلق نجد أن الشعوب العربية كلها متمسكة بحفظ النصوص والاشعار العربية القديمة وتتغنى بها، وتعتبر الصفة الفنية المتقدمة عن غيرها من الشعوب دون سواها من أنواع الفنون الاخرى المعروفة كالموسيقى والتمثيل المسرحي وحتى الرسم والنحت وفنون العمارة وغيرها من الفنون التي ازدهرت في مناطق أخرى من العالم حتى في تلك الفترة التي تحدث عنها. ويعود ذلك بالدرجة الأساس الى نمط النظم الاستبدادية التسلطية من قبل رؤساء القبائل في المنطقة. ويجدر الإشارة هنا الى أن عصر فجر الاسلام قد تميز بأضمحلال الشعر أي بمعنى المديح للحاكم، فقد أنتهى دور الشعراء العرب وأعتبره الناس من السلوك والعادات الجاهلية<sup>(1)</sup>، والتي تخدم السحرة والمشعوذين ولكن بَدء دور الخطابة وذلك لتحول المجتمع من نظامه القبلي القديم الى نظامه الديني الجديد فقد غاب عن الساحة العربية في عصر فجر الاسلام الشعراء المشاهير الذين عرفناهم من أيام المعلقات السبعة قبل الاسلام. الا ان معاوية ابن أبي سفيان كان من محبي الشعر وبَدء يقرب الشعراء ويكرمهم بالمال فعاد من جديد عصر الشعراء العرب في بداية تكوين الدولة الاموية، كما أن يزيد بن معاوية كان هو الاخر مولعاً بالشعر. وقد قال هو في الشعر الكثير ويعتبر واحداً من شعراء عصره كما أنه أغرى الاخطل وأكرمه وقربه منه كثيراً، وكان مسيحياً وهو أحد مشاهير عصره في الشعر وهكذا نجد أن الشعر كان أحد ألوان الفنون التي تنمو وتزدهر عندما يكون هناك حكماً أرسينقراطياً مستتبداً يحتاج للمدح والذعاية وأكتساب رضى الناس من خلال أسماعهم بالاشعار المنمقة والمستساعة لأسماعهم.

لقد عاد العرب في عهد بني أمية الى الشعر كما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتناحر القبلي، وأصبح الناس آنذاك يقضون معظم أوقاتهم في الجدل حول الشعر والشعراء وفي المفاضلة بينهم وكثيراً

ماكانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم وربما أهتم الخليفة أو الامير بذلك الخصام فبعث الى بعض الاخصائيين في الشعر يسأله عن رأيه. وهكذا أستمر هذا الموروث الثقافي الى وقت قريب، يستفيد منه الحكام والولاة في أشغال الناس في الجدل حول الشعر تاركين في الوقت نفسه أهم الامور المتعلقة بمصيرهم وتحسين أمورهم الاجتماعية والسياسية.. وفي هذا المجال نذكر قول علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين، " لقد عمل الامويين على إثارة قلوب العرب ضد غيرهم من الاقوام، فصارت دولة عربية شعرية لا تفهم الاسلام إلا على أساس قومي بدوي. وأخذ العرب في تلك الايام يعتبرون ان الاسلام قد جاء للعرب لكي يرفع من مكانتهم بين أمم الارض، وأصبح محمد (ص) في نظرهم بطلاً قومياً من طراز جنكيز خان أو تيمورلنك"<sup>(1)</sup>.

وصار الاعاجم الذين دخلوا الاسلام مؤخراً محقرين في نظر العرب على عهد الامويين وأخذوا يطلقون عليهم أسماء مستهجنة كان يسمونهم (النييط) أو (الحمراء) أو (الموالي). وانتشر بينهم المثل القائل (ولايقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار وكلب ومولى). ولا بد أن نذكر هنا الى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (الخليفة الزاهد) في العصر الاموي قد حاول أولاً منع الشعراء من الوقوف في بابيه وأعلن أنه لايقبل الشعر ولايقابل الشعراء وأعتبر جوائز الشعراء سرقات من بيت مال المسلمين<sup>(2)</sup>.

وهكذا نجد هنا أثراً كبيراً قد بقى مخزوناً في ذاكرتنا نحن العرب من احتقار للأجنبي في أعتباره (موالي) وندعوه بالعجمي حسب اللهجة العراقية السائدة الى يومنا هذا.

كما لا يزال الكثير منا لايستسيغ من الشعر سوى المقفى والموزون على طريقة عرب الجاهلية ويعتبرون الشعر الحديث ليس بالشعر الصحيح حسب مذاقهم.

وأخيراً يمكن القول بأن الشعراء في أيام الجاهلية، كانوا نيوان العرب ووسيلتهم الكبرى في الافتخار القبلي. ولم تهتم امة من الامم بشيء

(1) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص 268.

(2) علي الوردي "المصدر السابق نفسه" ص 162.

كما أهتمت أمة العرب بالشعر. فكان الشعر سلاحاً ثانياً يساعد السيف في  
التنازع على البقاء، الذي كان شديداً في حياة الصحراء كما أسلفنا سابقاً.  
وربما فضل العرب الشاعر على الفارس، حيث كان الشعر  
أقوى عوناً للقبيلة البدوية من الفارس القوي أحياناً، وكان واحداً من أهم  
اهتمامات قبيلة قريش لمنحها الجوائز للشعراء، وبهذا صار الاعراب  
ينظرون إلى قريش نظرة احترام وتقدير.



## 10- خلاصة الفصل الثاني:-

يمكن أن نوجز ما جاء بهذا الفصل بالنقاط الهامة التالية والتي تتعلق بموضوع بحثنا عن المواريث التاريخية: -

- 1- أن شحة الموارد الطبيعية في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية المتمثلة بقلّة الامطار وحرارة الجو العالية، قد ساعد في إنتشار القبائل الرحل والرعاة في مناطق متباعدة بعضها عن بعض، وكان عاملاً رئيسياً في اكتساب حالة الاقتتال والتنافس بين القبائل، والذي أصبح سمة مميزة للحياة في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام. بينما أتخذت القبيلة شكل التنظيم الاداري والاقتصادي والسياسي للناس في ذلك الحين، وهيمنت إدارة الزراعة والحرف والصناعة من خلال القوة القتالية التي تتمتع بها، بالإضافة لأعمال الغزو والسلب والنهب التي أصبحت مهنة تقليدية لدى بعض القبائل المنتشرة في الصحراء وأنطبتت في أذهانهم لتصبح أراثاً تاريخياً ثقيلاً يصعب أزالته والى يومنا هذا.
- 2- أن الديانات التوحيدية التي ظهرت في الجزيرة العربية، بدعت تنمو وتتلور تدريجياً عن طريق الرعاة، وقد أتخذت أشكال متعددة من التجريد، الى أن وصلت الى مرحلة متقدمة ملائمة لتكوين كيان سياسي متقدم قادر على الصمود والسيطرة وتنظيم حياة الناس، الا انها لم تستطع ازالة المعتقدات الدينية من حيث الطقوس والواجبات وبعض القوانين التي سبقت مرحلة التوحيد من الديانات الوثنية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين ومصر وغيرها، وانتقلت لتشمل كل أرجاء الجزيرة العربية وغيرها من المناطق المجاورة، وقد أستمدت العديد من الطقوس والممارسات الدينية من ذبانات بلاد الرافدين القديمة وأخذت منها الكثير من التشريعات التي كانت تمارس منذ الاف السنين، أن ذلك أدى الى المزيد من القيود والتسلط من قبل الحاكم أو رئيس القبيلة، بأعتبار أن سلطته مستمدة من الاله الحامي، وان خدمته لأستدامة الحياة وصيرورتها، وبالتالي زيادة الاستبداد والتسلط وتحجيم حضارتهم، وقد ساعد ذلك في استمرار ظاهرة الاستبداد كموروث ثقافي قديم في المنطقة.

3- لقد كان الشعر والسجع أحد أهم مظاهر الحضارة العربية في العصر الجاهلي وساهم في تطوير وتوسيع المفردات اللغوية وتوحيد اللهجات السائدة الى أبعد رقعة في المنطقة، بالإضافة الى المساهمة في ترسيخ القيم والمبادئ الأخلاقية السامية، الا انه ساهم في الجانب الآخر في مدح وأدامة الحكم الاستبدادي المبني على أساس أن الحاكم ممثل الاله في الارض، بالإضافة لذلك فإن التمسك بالنص أدى بالنتيجة الى الابتعاد عن المنهج العلمي في التفكير، وبالتالي ساهم في تقييد المجتمع وتحجيم حضارتهم، والتي لاتزال مطبوعة في الازهان في عدم التخلي عن النص رغم تغير الظروف والاحوال التي قيل بها هذا الشعر أو ذاك النثر.

## الفصل الثالث

### عصر فجر الإسلام

## الفصل الثالث عصر فجر الاسلام

لا توجد فترة في تاريخ الجزيرة العربية أخذت من البحث والتقصي والتدوين الدقيق لأحداث أكثر مما أخذته فترة ظهور الإسلام أو ما يسمى بعصر فجر الإسلام، فقد إمتلأت المكتبات بالعديد من المصادر والكتب المتخصصة بتفاصيل الأحداث حتى البسيطة منها، وغطت تلك المصادر الكثير من الأحداث اليومية التفصيلية البسيطة منها والمهمة على حد سواء. منها ما هو موضوعي وعلمي يهدف الى الوصول للحقيقة، ومنها ما هو متحيز لطانفة دون أخرى حسب تفكير وعقيلة الباحث أو كاتب الحدث ومنها ما هو من نسج وتلفيق الرواة انذين لا هم لهم ولا علاقة لهم بالحقيقة والموضوعية، بل الهدف هو الإثارة والإمعان بالأفكار الغيبية وتكريس الأفكار الميتافيزيقيا البعيدة عن الواقع، وكثيراً ما يقع هؤلاء في مطبات وتناقضات تكشف كذب وتلفيق أقوالهم ومصادرهم من خلال عدم تطابق تلك الأحداث مع بعضها البعض من حيث التواريخ وتعارضها مع المنطق العقلاني المقبول وبشكل ساذج. لقد كتب الشاعر العراقي المشهور معروف الرصافي كتاباً بعنوان "الشخصية المحمدية"<sup>(1)</sup> يكشف فيها الكثير من زيف وألعياب الرواة وتناقضات تلك الروايات التي تسببت في العديد من المشاكل والحروب والى عهد قريب وتنقل ما كتبه في آخر كتابه بهذا الخصوص في عبارة مؤثرة تدل عن إنطبأعه عما قرأه وسمعه من روايات متناقضة عن تلك الفترة وكما يلي: "أصبحت لا أقيم للتاريخ وزناً ولا أحسب له حساباً لأنني رأيت بيت الكذب، ومناخ الظلال وتتسجم أهواء الناس، إذا نظرت فيه كنت كأني منه في كتابان من رمال الأباطيل قد تغلغت في ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة". والمقصود بالتاريخ هنا هو ما مدون من أحداث في عصر فجر الإسلام. ويستند الرصافي في كتابه هذا الى السير والسنن النبوية المشهورة بدقة وحذر شديد من أي تلاعب أو تناقص والتي كتبت بأعداد كبيرة ومعترف بها من قبل الجميع كان اشهرها السيرة الحلبية وسيرة ابن هشام وديحان والزمخشري وابن كثير والبخاري وألترمذي ومسلم وابن قيم الجوزي وغيرهما. ولذلك ومن أجل عدم حصول التكرار والخوض بتفاصيل أخذت حقها في الكتابة ننتقي بعض من هذه الأحداث المؤثرة والتي لازالت أثارها باقية لدينا ونذكر كل ما يتعلق بموضوع البحث من مواريت تاريخية تأصلت ولعبت دوراً أساسياً في حياتنا وفي سلوكنا وعاداتنا الاجتماعية ووضعنا السياسي والاقتصادي العام

(1) معروف الرصافي- "كتاب الشخصية المحمدية" أو حل النزاع المقلد- منشورات الجمل/ المانيا (2002).

سواء أكان في العراق أو على نطاق المنطقة الإقليمية برمتها. وسوف نكرس جزءاً بسيطاً منها والمتعلق بالموروث التاريخي للعنف السائد في المنطقة دون غيرها من مناطق العالم في الوقت الحاضر على الأقل، نظراً لأهمية الموضوع، أمل أن تتاح لي الفرصة في البحث عن الموضوعات الأخرى الموروثة والمؤثرة في حياتنا الحاضرة وفي المستقبل، بالإضافة لذلك فإن هذه الفترة المتعلقة بشكل مباشر في الدين، لاتزال حساسة جداً ولا يتقبل العديد من مناقشتها والولوج في تفاصيلها نظراً لشدة موروثنا التاريخي الثقافي المطبوع في الأذهان من عدم تقبل الرأي والرأي الآخر بالمقارنة مع المواضيع الأخرى. لقد أصبح تاريخ فجر الإسلام والسير النبوية أحد أهم الدروس في كافة المدارس الدينية واقتصرت دراسة التاريخ لدينا في دراسة تاريخ فجر الإسلام بالدرجة الأساس وكل ما كان قبل ذلك عبارة عن عبث وجاهلية ولا داعي للخوض والتحدث به خاصة في المناهج المدرسية، كما يعتقد بعض المغالين والمتعصبين دينياً وقومياً. وهذا خطأ فادح بحق جيلنا والأجيال القادمة، فلا يمكن فهم أي موضوع مهما بلغت أهميته ما لم يتم دراسة الأصل. وطالما كان الهدف هو الوصول الى الحقيقة، ومحاولة زيادة الفهم عن الموراث التاريخية الثقافية والسلوك الاجتماعي وما آلت إليه الأمور لتصل بنا الى ما نحن عليه، فلا بد من البحث والتقصي خلال كل الفترات التاريخية دون استثناء. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن هناك تفاصيل صغيرة لا أهمية لها، وأن أمر البحث بها وتكرارها قد تضرر ولا تنفع لأنها قد تعطي دلالات معاكسة للهدف المطلوب في إظهار القيم والمبادئ السامية المراد ترسيخها، والاقتداء بها في الوقت الحاضر، وكذلك فإن الخوض في التفاصيل الدقيقة للأحداث اليومية في عصر فجر الإسلام وما بعده، إنما تعطي فرصة واسعة للرواية والمشعوذين في إبتداع أنواع القصص والبدع العارية عن الصحة والتي تقود أحيانا الى المزيد من الاختلاف في المذاهب والطوائف، وبالتالي تزيد الفجوة بين الناس. وكثيراً ما شهد التاريخ معارك وعداوات كان أساسها الروايات التفصيلية لسلوك وتصرفات عدد من الصحابة في عصر فجر الإسلام، والمقصود هنا بعصر فجر الإسلام تلك الفترة الممتدة من بداية الدعوة النبوية الشريفة وطيلة فترة حياة الرسول محمد (ص)، في حين تمتد هذه الفترة لدى بعض الباحثين لتشمل عصر الخلفاء الراشدين وما بعدها أيضاً لتصل الى فترة أفول الدولة العباسية.

## 1- عصر تكوين الدولة الإسلامية أو فترة الدعوة المحمدية:-

كما أسلفنا في الفصل الثاني، فإن منطقة الجزيرة العربية كانت مهينة لإستقبال أو ظهور دين موجد جديد ينفذ البلاد من التشتت والفرقة والحروب الأهلية الدائرة بينهم بشكل مستمر ودائم، خاصة في فترة القرن السادس الميلادي حيث بدأت الإمبراطوريتين العظيمةتين الفارسية والرومانية تؤول الى الإول، نظراً للتطورات الكبيرة التي حصلت في العالم ودرجة التطور الذي وصل إليه العقل البشري والذي لم يعد يتقبل مثل تلك الأنظمة ودرجة تسلطها وسيطرتها على رقاب المنطقة برمتها. إن حالة الترقب هذه في البلاد العربية قد نشأت أيضاً من خلال ظهور مركز تجاري مهم في قلب الجزيرة العربية وهي مكة بقيادة قبيلة قريش\* المتمرسه في التجارة. ولما كانت التجارة بطبيعتها تدعو الى السفر والاختلاط بالعديد من البلدان والتي توجب على ضوء ذلك الاطلاع على المزيد من الثقافات واكتساب المعارف الجديدة وتطوير معتقداتهم بما يتناسب وطبيعة المعتقدات السائدة في مناطق مختلفة من العالم. بالإضافة الى زيادة الثروة التي تمكنهم من التفرغ والتفكير بجميع نواحي الحياة وتطوير واقعهم السياسي. وقد برز العديد من المفكرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام على يد محمد بن عبدالله (ص) هذا النبي العظيم الذي غير وجه المنطقة برمتها في فترة قصيرة ونشر الاسلام في سرعة فائقة لم يسبق لها مثيل. وليس محمد (ص) هو أول من أنكر عبادة الأصنام وأبغضها في بلاد العرب بل أنكرها وخرج عليها رجال كثيرون من عرب الجاهلية قبله<sup>(1)</sup>. وفي زمانه، وهم الذين يُسمون في كتب السيرة النبوية الشريفة بالمتملّئين أو المتحنفين وهؤلاء أناس لم يحالفهم الحظ ولم يكونوا بالمقدرة القيادية لعمل شيء يُذكر لهم التاريخ، كما فعل النبي محمد (ص). ومن بين هؤلاء نخص بالذكر منهم ورقة بن نوفل وعبدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، ولهؤلاء قصص نكرها صاحب السيرة الهاشمية<sup>(2)</sup> عن ابن إسحق قال: "[اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكانوا يعظمون وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدبرون به، وكان عيداً لهم في كل سنة يوماً. فقال: فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وذكر هؤلاء الأربعة ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض، قالوا أجل فقال بعضهم

\* قريش كان يطلق قبل الدعوة المحمدية وأثناءها وبعدها على مجموعة من القبائل تنتمى الى فهر وكان هذا لقب بقريش وهو جد قصي بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فهر ويقال أنه من الحنثانيون جد العرب في الشمال. وعندما سكنت قبائل قريش هذا في مكة وأصبحت لها سلطة عليها صار هذا اللقب يميزها عن القبائل العربية الأخرى، حيث كانت مجموعة القبائل العربية تعيش في مكة بدون سلطة مركزية، وكانت السلطة منحوبة نافذة وغير مفسرية لشيوخ مجموعة القبائل المشتركة في النسب الى جد واحد والمتجارة في السكن. وتشمل مجموع تلك القبائل في عصر النبي محمد اثني عشر قبيلة ترجع في نسبها الى قريش يمكن الرجوع في تفاصيلها الى المصدر المشتر إله. (محمد عابد الجابري- المصدر السابق).

(1) محمد عابد الجابري "العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت (1990) ص 201.  
(2) سيرة ابن هشام\* أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرون. دار الكتب العلمية- بيروت الجزء الأول، ص 222-223.

لبعض تعالوا والله ما قولكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم ائتمسوا لأنفسكم، فأنكم والله ما أنتم على شيء، قال: فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية دين إبراهيم<sup>(1)</sup> وزاد ابن الجوزي عن هؤلاء الأربعة جماعة آخرين منهم أبو بكر الصديق ورباب بن البراء وأسعد بن كريب الحميري وقيس بن ساعدة الأيادي وأبا قيس بن حرمة، فأما ورقة بن نوفل فدخل اليهودية ثم تركها، فدخل في المسيحية وأستحکم فيها واتبع الكتب من أهلها حتى علما من أهل الكتاب، وقد قالوا عنه أنه لم يدرك البعثة، وأنه آخر من مات في تلك الفترة، وأنه لم يمّت مسلماً<sup>(2)</sup>. وهذا غير صحيح لأنهم نكروا أيضاً في قصة الوحي أن خديجة أخذت محمد عندما نزل الوحي عليه وأنطلقت به إلى ورقة بن نوفل تسأله حيث قال لها: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى، وقال أيضاً: إن هذا لبداء النبوة وإن محمد نبي هذه الأمة. وقال البعض أنه أدرك الدعوة إلى الله ومات مسلماً. وأما عبيدالله بن جحش، وهو ابن عمه النبي محمد(ص) أميمة بنت عبدالمطلب، فقد أدرك البعثة وأسلم وهاجر إلى الحبيشة مع من هاجر من المسلمين وهاجرت معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قيمها تنصّر (أي صار مسيحياً)، وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانياً. أما عثمان بن الحويرث فلم يدرك البعثة وقدم على قيصر ملك الروم وتنصّر وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد ذكروا أنه كان قبل النبوة زمن الفترة على دين إبراهيم، فإنه لم يدخل في يهودية ولا في مسيحية وأنه إعتزل الأوثان والذبايح التي تذبح للأوثان، ونهى عن وأد البنات ونكروا أنه كان يحي النموّودة فإذا أراد احدهم وأد ابنته أخذها من أبيها وكفلها. ويذكر أنه بادي قومه يعيب ما هم عليه وإن كان إذا دخل الكعبة يقول لبيك حقاً تعيداً ورقاً، عدت بما عاذ به إبراهيم. وفي سيرة ابن هشام أيضاً عن ابن أسحق: "وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: " رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري"، ثم يقول: " اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبيتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته<sup>(2)</sup>. وفي السيرة الحلبية أن زيد بن عمرو بن نفيل هذا كان يوبخ قريشاً ويقول لهم: والذي زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري. حتى أن عمه الخطاب (والد الخليفة عمر) أخرجته من مكة وأسكنه بحراء، ووكّل به من يمتعه من نخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم، وفي سيرة ابن هشام: " كان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنفية دين إبراهيم، فكانت صفيه بنت الحضرمي (وهي زوجته) كلما رأته قد تهيأ للخروج وأرادته أنتت به الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه، وكان يعاتبه على فراق دينه وكان الخطاب قد وكل صفيه به وقال: إذا رأيته قد همّ بأمر فأذنيني به. قال: وكان الخطاب قد أذى زيداً حتى أخرجته إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية/ 129 عن السيرة الحلبية الجزء الأول/250.

(2) سيرة ابن هشام 2251/1.

مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهاتهم فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سرا منهم فإذا علموا بذلك أنكروا به الخطاب، فأخرجوه وأتوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم<sup>(1)</sup>. فهؤلاء كلهم سبقوا محمد في الخروج على التقاليد الموروثة لا سيما زيد بن عمرو بن نفيل. ولا بد من الإشارة إلى أن أبانز الغفاري كان هو الآخر خارجاً على التقاليد الموروثة قبل لقاءه بمحمد، وكان قد جاء من قلب الصحراء يحمل كل تقاليد العربي البدوية ولم يكن له صلة بأهل مكة، ولكن كل هؤلاء لم يكن لهم ما كان لمحمد من عزم وحزم ودهاء ونكاء ومن فصاحة وبلاغة ومن أعوان وعشيرة قوية ومؤثرة، ولم يكن لهم أيضاً ما كان لمحمد من طموح إلى غاية عظيمة وأحداث نهضة كبرى. ببديهي أن كل تحول تاريخي مهم لا يمكن أن يحدثه فرد من أفراد المجتمع مهما بلغت إمكانياته وقدراته الذاتية ولا بد من تهيئة ظروف وعوامل عديدة، بالإضافة لتلك الامكانيات والقدرات الذاتية لكي تكون مجتمعا، لإنجاح ذلك التغيير الحتمي والذي لا بد له من الحصول عاجلاً أو متأخراً بعض الشيء. وعودة إلى زيد فقد جاء في كتاب الشخصية المحمدية لمعروف الرصافي ما يلي: لا شك أن محمد قد تأثر بزيد بن عمرو بن نفيل وأخذ منه فقد جاء عن عائشة قالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما نبح لغير الله، فكان يقول لقريش الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض الكلال ثم تدبونها على غير اسم الله؟ فما نقت شيئاً نبح على الغضب حتى أكرمني الله برسالته<sup>(2)</sup> وفي البخاري عن عبدالله بن عمر أن النبي لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبي الوحي، وقد قدمت إلى النبي سفرة فيها شاة نبحت لغير الله، أو قد قدمت النبي إليه، فأبى أن يأكل منها وقال: أني لست أكل ما تدبجون على أنصابكم ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه<sup>(3)</sup>. فهذان الحديثان يؤيدان أن محمد(ص) تأثر بزيد وأخذ منه، ولكن الفرق أن زيد وقف عند الخروج على التقاليد القومية، وأن محمد(ص) لم يقف عند ذلك بل جاوز إلى إيجاد تقاليد دينية جديدة أخرى، وإلى أحداث نهضة عربية عالمية كبرى بواسطة تلك التقاليد الجديدة. لقد كان محمد على علم بامر هؤلاء المصلحين وبخروجهم عن التقاليد الموروثة، كما كان على علم بأنبياء الأولين من بني إسرائيل وغيرهم. وقد حث أصحابه عن خالد بن سنان العبسي وقال عنه: أنه نبي ضيعة قومه<sup>(4)</sup>. وخالد بن سنان هذا لم يدركه محمد، وقد ذكروا أن ناراً خرجت من الأرض بين مكة ويثرب كادت العرب أن تعيدها، وأن خالد بن سنان نهاهم عن عبادتها، ولعل هذه النار هي بركان هاتج في أرض الحجاز البركانية المليئة بالثروات النفطية، ولم يذكروا عن خالد بن سنان أنه تعرض لعبادة الأصنام

- (1) سيرة ابن هشام 231-299/1.
- (2) معروف الرصافي "الشخصية المحمدية" 131 عن السيرة الحلبية 123/1.
- (3) صحيح البخاري، كتاب المناقب، الحديث رقم: 3540 مسند احمد رقم 5836 عن السيرة الحلبية 123/1 عن معروف الرصافي الشخصية.
- (4) السيرة الحلبية 239/3، السيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زين حلان بهامش السيرة الحلبية 45/3.



وأنكرها ونهى قومه عن عبادتها، كما نهاهم عن عبادة النار آنفة الذكر، مع أن الاصنام كانت آنذاك موجودة في بلاد العرب. أن قول النبي محمد عن خالد بن سنان بأنه كان نبي أضاعه قومه يدل على أن النبي محمد(ص) يقر بتعريف النبي بأنه "هو كل مصلح الذي ينكر التقاليد الموروثة ويقوم بإصلاحها مهما كلف الأمر". وإطلاقاً من هذا التعريف فإن خروج محمد (ص) قبل النبوة على التقاليد الموروثة، وطموحه إلى معالي الأمور والغاية التي يرمي إليها في طموحه، وما كان له من قوة وعزم وثقوب فكر وسعه علم بأخبار الماضيين، إضافة إلى رؤيته وسماحه لجبرائيل الذي هو السفير بين الله وأنبيائه، فقد حصلت فكرة النبوة لمحمد(ص) وجاهر بها وهو في الأربعين بعد تزوجه من خديجة بنت خويلد بخمسة عشر عاماً، فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت له خير معين. وأما جاءت الرسالة المحمدية في بدايتها لأصلاح قومه ولكنها أصبحت بعد ذلك لعموم الناس وذلك بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة. ولا ريب في أن محمد(ص) بعد تصميمه على القيام بهذه الدعوة ما كان يفكر به هو وضع الأساس (أو ما يسمى في عصرنا بالدستور أو القانون الاساسي) الذي تقوم عليه الدعوة، وهذا الأساس هو القرآن، والقرآن في اللغة يعني القراءة، أي أن الدعوة تقوم بكتاب يقرأ ويحفظ لا يشعر يروى وينشد<sup>(1)</sup>. وإذا صرفنا النظر عما في القرآن من قصص الانبياء وأخبار الاولين والشرائع، وجدناه يتكلم عن أمرين عليهما مدار الكلام دائماً وأبداً، أحدهما وحدة الآله وترك الشرك ونفي الأنداد، والثاني الحياة الأخرى وما يتعلق بها من البعث بعد الموت والجزاء والجنة وجنهم. فإن محمداً(ص) جعل هذين الأمرين أساساً للدعوة، إذ كان يقول للناس آمنوا بالله وحده لا شريك له، فإن آمنتم فأنتم في الجنة، وإن لم تؤمنوا فأنتم في جهنم فأنكم مبعوثون بعد الموت لا محالة. ولم يفكر فيما عدا ذلك في أول الأمر بل تركه لما تجيء به الحوادث من البواعث والدواعي وذلك ما يسمونه بالمصطلح الديني بأسباب النزول. لقد كتب الشاعر المعروف المعروف الرصافي بهذا الخصوص في كتابه عن الشخصية المحمدية ما يلي: "بعد وضع محمد الأساس في الصورة التي تقوم بها الدعوة، وبعبارة أخرى في الوساطة التي يؤدي بها الدعوة، ومعلوم أن الدعوة إنما تؤدي بالكلام ولكن بأي صورة من الصور الكلامية يصاغ ويسبك كلام الدعوة، يجعل شعراً منظوماً أم نثراً مسجوعاً، أم ماذا؟ إن هذا هو أهم ما كان يفكر فيه محمد في غار حراء. وهنا يتجلى لك دهاء محمد(ص) وما له من فطنة ونكاء. حيث لم يجعله شعراً يروى وينشد بل جعله قرأناً يحفظ. وسواء كان محمد يحسن قرض الشعر أم لا يحسنه، يعد كل البعد عن دهائه ونكاته أن يجعل الكلام في الدعوة شعراً منظوماً، لأنه يعلم أن لو جعله شعراً منظوماً لما كان فيه إلا كلد الشعراء الذين هم في زمانه أكثر من أن يُحصوا، ولما كان له من التأثير في نفوس القوم أكثر من أشعار المتألهين الذين رأهم وسمع شعرهم كزيد بن عمرو بن نفيل وأميرة بن أبي الصلت، وغيرهما. وكيف يجعله شعراً منظوماً وقد سمع كثيراً من شعر أمية بن أبي الصلت وفهم ما

(1) طه حسين "الفتنة الكبرى" ص 32 ج 1، دار المعارف بمصر 1964.

فيه من العظات الدينية والصفات الالهية، وما أنطوى عليه من قصص الأنبياء وأخبارهم حتى قال عنه لما سمع بعض شعره بعد النبوة أنه آمن شعره وكفر قبره. وهو مع ذلك قد علم أن شعر أمية هذا لم يبق له قائمة في نفوس العرب أكثر من شعر غيره من سائر الشعراء فلذلك قد فر فرارة أن تقوم الدعوة بالقرآن (والكلام هنا للشاعر الرصافي) وقد نجح كل النجاح إذ جاء بقرآن لا هو من الشعر المنظوم ك شعر المتألهين ولا هو من الكلام المسجوع ككلام الكهان<sup>(1)</sup>.

ومهما يكن من أمر فإن النتيجة أن أصبح هذا الكتاب مقدساً ولا يجوز المساس به أو مناقشة أو حتى قراءة غيره من الكتب. ومن هنا جاء الموروث التاريخي لهذه الامة والذي نحن بصدد دراسته والوقوف على كافة الاسباب التي أدت بنا الى ما نحن عليه من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة. وسوف نجد في هذا البحث أصل تلك القاعدة التي بدأت منذ عصر فجر الإسلام ولحد الان والتي تتص بأنه من غير المحبذ قراءة أي كتاب دون القرآن، وقد ذهب البعض لأكثر من ذلك في إيداع أن كل ما يحتاجه الانسان من علوم ومعارف حديثة إنما جاءت من القرآن أو أنها موجودة في القرآن ضمن تفاسير مختلفة وما على القارئ إلا أن يكون بارعاً في النحو ويفسر ما في الآيات من معاني خفية ومتعددة الوجوه تتسجم مع كل ما يحتاجه الانسان من معارف وعلوم سواء أكانت في الفقه أو في الامور الحياتية المختلفة وفي كل زمان. أن هذا المعتقد كان أحد الاسباب في ترسيخ الابتعاد عن التفكير والاكتشاف العلمي وعن تطوير حياتهم في استخدام أسلوب البحث والتقصي للوصول الى نتائج تؤدي الى تطوير المجتمع الى الأمام. وهكذا بدأت الهوة بين شعوب الغرب الذين اعتمدوا في حياتهم على فلسفات وأسس واقعية رصينة وبين العالم الاسلامي الذي لا يزال بحاجة الى التطوير والتقدم في المعارف الحديثة<sup>(2)</sup>. لقد كان وقع القرآن الكريم في قلوب الناس سواء أكان من العرب أو الاجانب امراً لا يوصف. وصحيح أنه أدى دوره المطلوب في إنتشار القيم والمبادئ الاسلامية الراسخة في كافة أرجاء العالم وكان سبباً في إزدهار الامبراطورية الاسلامية لعدة قرون، وكان هذا الابتعاد عن كل قراءة أخرى لكي لا يبتعد الناس عن تلك القيم والمبادئ. وفي الجانب الآخر حصلت إنتكاسة في المقطرة على الإبداع الفكري والتقني من خلال ضعف القراءة والإطلاع على نتاجات فكرية أخرى ضمن نتاج الفكر البشري في بقية أرجاء المعمورة. وظهرت مدارس وعلماء متخصصون في تفسير القرآن أدت الى بروز مذاهب مختلفة وإجتهدات متنوعة محصورة فقط بما جاء في القرآن والسنة النبوية الشريفة. كما ظهرت فئة الباطنية التي تقول بأن الآيات القرآنية لها معنى ظاهر ومعنى باطن لا يفهمها إلا الأنمة (الإسماعيلية).

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمديّة/ ص 140، ج 1.

(2) طه حسين في الأدب الجاهلي" ص 135.

## 2- تطور المعتقدات الدينية لدى العرب بعد الاسلام:-

لقد تطرقنا الى المعتقدات الدينية لدى بلاد الرافدين في الفصل الاول ثم بدأنا في الفصل الثاني نستعرض كيفية تبلور المعتقدات التوحيدية في الجزيرة العربية. ولا بد لنا هنا أن نذكر بعض التطورات التي جاء بها الاسلام في العقيدة الدينية السائدة لدى القوم في ذلك الحين. إذ كان الناس في عصر الجاهلية يعتقدون بوجود أرواح غير مرئية، منها طيبة ويستجدونها ويرجون خيراً، ومنها خبيثة يخافونها ويتقون شرها، وهذه كانت قد إنتقلت إليهم من بلاد الرافدين والبلدان المجاورة لها والتي كانوا يعتقدون كما أسلفنا في الفصل الاول بوجود آلة خير وآلة شر وكانوا يشبهون لها رموزاً وأحجاراً ومنحوتات ليتبركوا بها ويلتمسوا منها الرحمة والشفقة كما كان يعرف بالاديان الوثنية. وكان العرب في الجاهلية يعتقدون بوجود الأرواح غير المرئية ويسمون الطيبة منها بالملائكة ويسمون الخبيثة منها بالجن والشياطين. وهناك إشارة في القرآن الكريم تدل على ذلك. وقد تفرغ من إعتقادهم بالكهانة، فكان لهم كهان، وكان الكاهن يخبرهم بالمغيبات<sup>(1)</sup>، وكانوا يعتقدون أن لكل كاهن تابع من الجن يأتيه بالخبر من السماء. وكان إعتقادهم في كل أعمالهم وتصرفاتهم على ما يصدر من الكاهن من أفكار عن المستقبل في مسائل الزراعة والترحال ونزول المطر والزواج والطلاق... الخ. وربما ظلت آثار تلك الافكار الى يومنا هذا ولكن بنسبة ضئيلة جداً مقتصرة على الأرياف والمناطق المتخلفة تعليمياً والتي تعرف بأخذ الخيرة. فلما قام محمد(ص) بدعوته الى الاسلام، رأى من الضروري لنجاح الدعوة أن يبطل الكهان ويجعل خير السماء مقصوراً على الوحي الذي يأتيه به جبرائيل كيلا تتقبل العرب شيء إلا منه ولا تسمع إلا له. وإلا فمن الصعب أن يجتمع العرب كلهم على الوحي ما داموا يعتقدون بنظيره من الكهان. فمن الطرق المؤدية الى نجاح الدعوة أن تضمحل الكهانة ويضمحل الكاهن. ولذا أبطل الاسلام الكهانة ومن أقوال الرسول محمد(ص) "أن الكاهن والكهانة والمتكهن في النار"<sup>(2)</sup>. ولأجل إبطال الكهانة أغلق الاسلام أبواب السماء في وجوه الشياطين، وملأها حرساً شديداً من الملائكة، وجعل الشهب المتساقطة في الجو رجوماً للشياطين تردهم عن إستراق السمع، وأخذ الإخبار السماوية كما هو مذكور في القرآن. ويعود السبب في إبطال الكهانة بهذا الوجه الذي لا ينطبق على الحقيقة فأن العرب كانوا يعتقدون بأن الجن التابعين للكهان كانوا يصعدون الى السماء ويسترقون الإخبار ويأتون بها للكهان، وكانوا يعتقدون أيضاً أن مجرد سماع الجن بكلمة واحدة فقط مما يقال في السماء

(1) محمد عبد الجباري "العقل السياسي العربي محدثاته وتجلياته" المركز الثقافي العربي ص 211 الدار البيضاء (1990).

(2) صحيح مسلم، "كتاب السلام"، باب تحريم الكهانة. جزء من السنة النبوية الشريفة.

وفي الاجتماعات الدائرة بين الملائكة الصالحين إنما تكفي لعمل الكثير من الاعمال التي يعجز البشر العادي من إنجازها مهما بلغت قدراته الذاتية. لقد تماشى معهم محمد(ص) في عقيدتهم وجاراهم في عقليتهم ولم يكذبهم وإن كان يعلم أنها خرافة، ولكن إبطالها بخرافة مثلها، ليكونوا الى القبول والتصديق أقرب. فإن العقيلة التي تقبل تلك، لا تمتنع من قبول هذه أيضاً، بخلاف ما إذا سلك في إبطالها مسلك الحقيقة، كان يقول لهم: أن عقيدتكم هذه باطلة لا ثبوت لها، وأنها كذب لا أصل له، فإنهم عننذد ربما عاندوا وأصروا على العناد، وإذا يصعب عليهم لأن يتركوا عقيدتهم هذه لعقيدة من جنسها وإن كانت ضدها. ويدل على ذلك أنهم بعد إسلامهم صاروا كلهم يعتقدون أن الشهب (النيازك) أصبحت بعدما بُعث محمد، رجماً للشياطين يمنعون من إستراق السمع، وبأن ذلك من دلائل نبوته ومن علائم صدق رسالته. ومما يجدر الإشارة إليه هو أن سقوط النيازك والشهب وكان كثير الحصول في الليل في ذلك العصر، وهذه حقيقة علمية أكدها العلماء في هذا العصر، حيث أثبتوا أن الفضاء كان ممتلئاً بقطع وأحجار صغيرة منذ الانفجار الكوني الكبير، واستمرت في السقوط على الأرض بأعداد هائلة وهي مستمرة الى يومنا هذا ولكن بأعداد أقل<sup>(1)</sup>. وكشف العلماء في عصرنا أن النيازك عبارة عن كتل معدنية مختلفة الاحجام تلتهب نتيجة سرعتها لدى إقترابها من نقتشرة الأرضية وتتأكسد لوجود الأوكسجين في الهواء لتسقط على الأرض بعد إتمام التفاعل كحجر أسود من أكاسيد معدنية مختلفة. وقد جعل الإسلام من بعض الجن مؤمنين ومعتقدين بالدعوة الإسلامية. فلما رأى محمد(ص) العرب يعتقدون بالجن إعتقاداً شائعاً بينهم، وأراد أن يستغل إعتقادهم هذا للتفنن في أساليب الدعوة، فقص عليهم قصة إستماع الجن للقرآن وإيمانهم به. وهو لم يقصد بذلك إلا دعوة قومه الى الإيمان بما آمن به الجن، فكانه يقول لهم: هؤلاء الجن الذين يأتون كهائهم بخبر السماء، والذين تعوذون بهم في أسفاركم، قد أستمعوا القرآن وأمنوا به، وبأنه كتاب أنزل من بعد موسى، يهدي الى الرشد، فما بالكم لا تؤمنون به ولا تتقادون إليه. وهذا أسلوب ناجح من الأساليب التي سلكها الإسلام لنشر الدعوة. وقد جعل قصة إستماع الجن للقرآن مؤيدة لما جاء في الآيات النازلة في إبطال الكهانة حيث ذكر فيها ما قاته الجن لقومهم حين رجعوا إليهم بعد إستماع القرآن، وذلك بقولهم في سورة الجن: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، ، وأنا كنا نقعد منها مقعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً)<sup>(2)</sup>.

إن تطور العقيدة الدينية في كل مجتمع، لا بد وان تأتي بطريقة تدريجية وسهلة ولا توجد قوة أو أدیان مهما بلغت من قدرات، أن تسمح كل ما موجود من إرث قديم

(1) برنامج تلفزيوني علمي في قناة BBC عام 2004.

(2) سورة الجن الأيتان: 8-9.

مطبوع في عقول البشر وراسخ منذ الآف السنين، لتبني عليه معتقدات وأفكار جديدة مخالفة كلياً لما كانوا عليه في السابق. إن عقل الإنسان ليس مثل أقرص (كاست) الحاسب الالكتروني القابل للمسح والاملاء في أي وقت نشاء كما يحصل في يومنا هذا. إن ما يملئ من افكار في العقل البشري قد يحتاج لأجيال و عقود وأحياناً قرون عديدة لكي يستطيع أن يجد المبرر والظروف الملائمة لتبديلها، خاصة عندما تكون تلك الافكار ذات تماس بمصالح إقتصادية تمسه في معيشتة بالمصميم وترتبط بطبيعة البيئة التي يعيشها. وهكذا نجد أن الاسلام قد جاء بأفكار جديدة في التوحيد المطلق وفي البعث باليوم الآخر وفي الجنة والنار... الخ، إلا أنه أبقى على العديد من المعتقدات الأخرى التي كانت سائدة قبل ظهور الاسلام، كما تمسك بالعديد من الطقوس الدينية التي كانت تمارس قديماً من قبل السومريين والبابليين في بلاد الرافدين<sup>(1)</sup>، مع إدخال بعض التعديلات في الاداء ومواقيت الصلاة والصوم وإنزكاة والحج، بالإضافة الى مراسيم الاعياد ودفن الموتى والقبور وغيرها. أما بالنسبة لنحر الذبائح فقد تحولت من نحرها لصالح الآلهة الى الذبح لوجه الله في المناسبات والاعياد، وعن تعدد الزوجات فقد كانت العادة أن يتزوج العرب العديد من النساء دون تحديد<sup>(2)</sup>، إلا أنها حُددت باربعة أو ما ملكت أيماهم. وهذا التطور كبير بالنسبة لذلك العصر التي كانت المرأة تعتبر فيه متعة للرجال فقط. وأهم من كل هذا أنه حرّم عادة وأد البنات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية في الجاهلية وهناك العديد من القيم الاخلاقية الرائعة والاحكام وأشترائع في كافة نواحي الحياة والمعمول بها الى يومنا هذا، وقسم منها متشابه مع ما جاء به الانبياء الأولين من بني إسرائيل وكانت تمارس تعاليمهم من قبل اليهود في الجزيرة كالتختان وتحريم أكل الخنزير والميتة والدم والخمر وغيرها. أما عن قطع يد السارق ورجم الزانية والزاني والقصاص بالقصاص أي العين بالعين والسن بالسن فقد سنت منذ أيام حمورابي لدى البابليين أي قبل أكثر من ألفي عام من ظهور الاسلام. وأتبعها اليهود الاوائل، وتم تغييرها في زمن متقدم من قبل اليهود ثم المسيحيين، إلا أن الاسلام أعاد العمل بها من جديد في عصر حياة النبي محمد(ص)، بينما أبطلت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (كقطع يد السارق) لزوال أسباب النزول. أما بالنسبة للحجاب المستخدم للنساء فكانت عادة آشورية كما أسلفنا في الفصل الاول من أجل التمييز بين نساء الاحرار ونساء العبيد، واستمر العرب في ممارستها حتى بعد الاسلام ولا تزال عادة مميزة لدى المسلمين في أرجاء العالم كافة، وقد بالغ المسلمون المتمزتون في تطبيقها للنساء

(1) عبد الوهاب حميد رشيد " حضارة وادي الرافدين" ص 93.  
(2) جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج 5 ص 548.

المسلمات وأصبحت الصفة المميزة للمرأة المسلمة عن غيرها من النساء في عصرنا الحاضر.

### 3- إقتران الدعوة الإسلامية بالسيف:-

لعل من أهم المواضيع الحساسة التي لا بد من مناقشتها في هذا الفصل هو إقتران الدعوة الإسلامية بالسيف والتي تميزت بها أكثر من غيرها من الأديان السماوية المعروفة، وذلك نظراً لأن الدعوة الإسلامية لم تقتصر على إتباع دين سماوي فحسب بل كانت من أجل تأسيس دولة أو إمبراطورية عظمى تحكم العالم<sup>(1)</sup>. لقد كان محمد في مكة هو وأصحابه لا قوة لهم على خصومهم من قريش، ولذا كان يدعو الناس الى الإسلام بالوعظ والانداز عن طريق المسالمة كما جاء في القرآن الكريم: (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجدلهم بالتي هي أحسن...) <sup>(2)</sup> فهذه الآية كانت شعاراً للدعوة في مكة، ولكنه لما هاجر الى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى قويت شوكته، وإشند جناحه، بالانصار الذين يبيعوه والمهاجرين الذين تبعوه، وعندئذ قرن دعوته بالسيف، ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين، وتدرج قرار القتال تدرجاً منطبقاً على مقدار ما عنده من قوة حربية، فأول آية نزلت في القتال بالمدينة هي (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير،، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...) <sup>(3)</sup>. فهذه الآية تضمنت أمرين: أحدهما الأذن بالقتال أي جعله مباحاً لهم من غير أن يفرض عليهم فرضاً، والثاني أن إذن القتال إنما هو بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق. فسياق الآية يدل على أن المأثور لهم بالقتال هم المهاجرين لا الأنصار لأنهم لم يُظلموا ولم يُخرجوا من ديارهم، على أنهم لا حاجة للإذن بالقتال للأنصار، لأنهم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمداً على أن يحموه وينصروه. ويجوز أن يكون الأذن عاملاً للمهاجرين والانصار وإن كان سببه خاصاً بالمهاجرين. كانت هذه خطوة أولى في أمر القتال. ثم تقدم فيه خطوة أخرى فأصبح فرضاً على المسلمين، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم إذ قال: (وقتلوا في سبيل الله الذين يقتلونكم...) <sup>(4)</sup> وهذه هي الحرب الدفاعية. واستمر الحال على ذلك الى السنة الثامنة للهجرة. حتى حصل الرسول من القوة والشوكة ما أستطاع به أن يعلن الحرب الهجومية العامة، بأن فرض على المسلمين قتال المشركين كافة، من قاتلهم ومن لم يقاتلهم، وبذلك نزلت سورة براءة التي نيز فيها الى المشركين عهودهم وبرئ منهم وأمهلهم أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرم،

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية"، 305.

(2) سورة النحل الآية: 125.

(3) سورة الحج الآية: 39-40.

(4) سورة البقرة الآية: 190.

وأعلمهم أنه وإياهم في حالة حرب مستمرة فيما عدا هذه الأشهر الأربعة ويجدر التذكير هنا إلى أن تلك الأشهر الحرم كان معمولاً بها لدى العرب قبل الإسلام بقرون. وهكذا تم التدرج للقتال بأربعة أحكام: (الأول) أنه محرم وذلك في أول الأمر حين كان محمد بمكة، والثاني أنه مآذون به أي مباح وذلك في أول الهجرة في المدينة والثالث أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لمن بدأهم بالقتال، والرابع أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين وإن لم يبدأهم بالقتال في غير الأشهر الحرم<sup>(1)</sup> وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة، وقد زاد بعضهم حكماً خامساً وهو: أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين مطلقاً، أي حتى في الأشهر الحرم كما ذكره الحلبي في سيرته نقلاً عن الإمام الأسنوي<sup>(2)</sup>. وهناك في الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي لفظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله، فإذا قالوا عصموا مني نجاتهم وأموالهم إلا بحقهم وحسابهم على الله)<sup>(3)</sup>. هنا لا بد لنا من تعليق حول مدى إتخاذ تلك الآيات والأحاديث النبوية من قبل أشخاص متعصبين جداً أمثال أسامة بن لادن وأيمن الضواهري من الذين يسمون أنفسهم بالقاعدة من حجج وذرائع في غسل عقول البسطاء من الناس وجرهم إلى الأعمال الشيطانية التي يقوموا بها من قتل وتدمير للأبرياء، متناسين أولاً وقبل كل شيء الاختلاف في العصر، فكل ما كان في زمان النبي محمد (ص) في القرن السابع الميلادي قد تغير كلياً في عصرنا هذا، بما في ذلك القيم والمفاهيم والأعراف والتقاليد والبيئة التي نعيش فيها. فقد كان القتال في ذلك العصر يشكل جزءاً من كيان الفرد، وكما أسلفنا في فصول سابقة فإن الحروب التي كانت تبدأ من أسباب تافهة وتستمر لتحصد العديد من البشر، إنما كانت جزءاً من صراع البقاء للقاء في تلك البيئة الصحراوية القليلة الموارد والسبل. لقد تناسوا طريقة الدعوة المحمدية في بدايتها، أيام كان في مكة وإلى أن تعاضمت وأصبحت بمقدورها تحقيق الانتشار والنصر المؤكد بإستخدام السيف، إذ أن المقابل كان يشكل قوة ضعيفة يمكن إختراقها بسهولة، بينما أصبح أصحاب منظمة القاعدة وكأنهم يصارعون الجبال بقوة هزيلة آيلة للسقوط والخذلان حتماً بسبب بطلانها أصلاً. ومهما كانت أسباب القتال ومبرراته فإن على المرء أن يقدر قوة المقابل ليتصرف بحكمة قبل أن يقدم على أي عمل. فلا يمكن لجماعة ضئيلة أن تحارب العالم بأسره وتحقق النصر كما حقق محمد نصرأ

- (1) ابن القيم الجوزي " زاد المعاد- الفصل الثاني، غزوات الرسول/ تحقيق شعيب وعبد القادر الارناؤوط مؤسسة الرسالة- بيروت.
- (2) السيرة الطيبة، 2 مغازيه ص 124.
- (3) صحيح البخاري، " كتب الايمان/ رقم 20/ الجهاد والمير رقم 2727، صحيح مسلم، كتاب الايمان رقم 3103، عن معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ 285.

على المشركين قبل ألف وأربعمائة عام. نعود لمناقشة مقاومة محمد لكفار قريش لكي يتضح لنا مقدار الاحمال الثقيلة التي ورثناها من الاسلاف:

إن محمد (ص) لما قدم المدينة لم يكن له من العرب اعداء يقاومونه غير كفار قريش ولما كانت قريش اهل تجارة، وكانت قوافلهم متتابعة بين مكة والشام ذهاباً وإياباً، وكانت المدينة (يثرب) على طريقهم، لذا كان اول شيء ينبغي فعله للعدو هو أن يقطع عليهم طرق المواصلات، فقد أخذ محمد(ص) يترصد قوافل قريش، فكلما سمع بعير لهم قادمة من مكة أو راجعة من الشام خرج إليها غازياً بنفسه أو أرسل إليها سرية من جيشه. ولم يمر عليه بعد مقدمه المدينة سبعة أشهر إلا وأرسل سرية بقيادة عمه " حمزة " ليعترض قافلة قريش جاءت من الشام تريد مكة<sup>(1)</sup>، وفي الشهر الثامن للهجرة أرسل سرية بقيادة عبيدة بن الحارث ليعترض قافلة لقريش أيضاً<sup>(2)</sup> وبعضهم يُقدم سرية عبيدة على سرية حمزة، وهكذا أخذت السرايا تتوالى، إلا أن محمداً لم يخرج بنفسه إلا في أوائل السنة الثانية للهجرة وأول غزوة غزاها كانت غزوة ودان<sup>(3)</sup> (قرية بين مكة والمدينة) وقد بلغت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعة وعشرين غزوة<sup>(4)</sup>، كما بلغت سراياه سبعة وأربعين سرية. أما جيشه فقد كان مؤلف من سبعون رجلاً في غزوة ودان بينما إزداد تدريجياً الى أن وصل الى اثنا عشر ألف فارس في السنة التاسعة للهجرة في غزوة تبوك التي كان يريد بها الروم<sup>(5)</sup>. إن الدعوة عندما إقترنت بالسيف، أخذ عدد الداخلين في الاسلام يزداد مطرداً بزيادة سيوف الدعوة، فكان كلما قويت شوكته زاد المسلمون زيادة مناسبة لها وكثُر المقاتلون في جيش الدعوة كثرة تتناسب وقوتها. ومن هنا نستطيع الاستنتاج من أن الذين دخلوا الاسلام في المدينة في فترة حياة محمد (ص) كان أكثرهم يدخلون فيه خوفاً من السيف، وإن الذين إعتنقوه كمبدأ ذي غاية شريفة قليلون. وهذا ما يؤيده حصول حروب الردة بعد وفاة الرسول، كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً. بالإضافة لذلك فكان العرب يهابون القوة ويعتبرون ان الحق مع القوي والعدل مع القوي<sup>(6)</sup> مهما كانت دعوته، لذلك فقد أنتشر الاسلام بسرعة من خلال إستخدام تلك القوة. أما عن طبيعة الحروب التي خاضها المسلمون في عصر النبي بعد الهجرة الى المدينة فإن الحرب الدفاعية لم تقع إلا مرتين، الاولى في واقعة أحد، والثانية في حرب الخندق، وفي ما عدا ذلك كانت الحروب كلها هجومية. أو شبه هجومية. وتكون شبه الهجومية منها عندما يأتي خبر أن جمعاً قد تجمعوا لحرب المسلمين، فيذهب الجيش ولم يجد لهم جمعاً

(1) سيرة ابن هشام 595/2، السيرة الطلبية 152/3.

(2) سيرة ابن هشام 591/2، السيرة الطلبية 152/3.

(3) السيرة الطلبية 135/2 سيرة ابن هشام 591/2.

\* هناك العديد من المصادر والكتب المخصصة بعنوان غزوات الرسول يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل. هنا وكان مجموع الغزوات في عصر الرسول محمد (ص) خمسا وستون غزوة. (رل ديورانت-قصة الحضارة).

(5) السيرة الحنبية 71/3، 129/3-151 ( غزوة تبوك).

(6) جواد ظي ( المصدر السابق) ج5 ص 485.



فيضربهم ويرجع بالغنيمة، كما وقع ذلك في حرب بني أسد<sup>(1)</sup> أي أنهم لم يبدأوا القتال فعلاً، وإنما بلغهم أنهم يريدون قتاله. ويمكن تقسيم هذه الحروب إلى قسمين. فالقسم الأول هي حروب إستصلالية كالحروب التي وقعت مع يهود المدينة والتي كانت نتيجتها إستصال اليهود بالمدينة كحرب بني قريظة، وأما أن تكون بالجلء كحرب بني النضير وبني قينقاع<sup>(2)</sup> وهم من اليهود أيضاً. والقسم الثاني حروب إغتمامية أي لم يكن لها نتيجة سوى الغنيمة<sup>(3)</sup>، وأكثر الحروب التي وقعت في عهد الرسول كانت من هذا القبيل. فإن السرايا التي كان يرسلها لتعرض قوافل قريش لم تكن إلا للاغتمام. وكذلك حرب بني المصطلق، حتى أن إحدى السرايا إغتمت مرة أموال مسلمين، وهي سرية زيد بن حارثة إلى جذام<sup>(4)</sup>. وعلينا أن نذكر أن طبيعة الحروب في ذلك الزمان تختلف عن طبيعتها في زماننا هذا. فقد كان الاجهاز على الجريح، وقتل الأسير، وتثبيت القوم وهم نيام في منازلهم مع نسائهم وزرانيهم من الأمور المتعارف عليها، والتي لا يستكرها المحاربون. وعلى الرغم من أن الحروب في زماننا لا تخلو من وقائع وفجائع مستكرة، إلا أننا لسنا مع الحق عندما نطلب من الحروب في العصور السالفة أن يكون المتحاربين كما هم في عصرنا هذا. لقد كان محمد(ص) إذا أرسل جيشاً إلى قوم أمرهم أولاً: أن يدعوه إلى الإسلام، فإن أجابوا فيها، وإلا قاتلوه. وكان يقول لهم المقولة المشهورة: ("أصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً"). وكذلك يقول: ("إغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم ولا تقتلوا امرأة ولا صغير ولا شيخاً فانياً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناءً")<sup>(5)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فقد تمت مخالفة ذلك أحياناً، فلما حاصر بني النضير أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، وقام أبا ليلي المازني وعبدالله بن سلام بذلك. فكان أبو ليلي يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللين. وكانت العجوة خير أموال بني النضير وهي أجود أنواع التمور على الإطلاق<sup>(6)</sup>. وفي الكشاف<sup>(7)</sup> أن رسول الله سأل من كان يقطع العجوة عن قطعها فقال: قطعتها غيظاً للكفار، وسأل الآخر عن تركها فقال: تركتها لرسول الله. وقد حرق بعض نخيلها أيضاً. وقد نزلت من السماء آية قرآنية: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله)<sup>(8)</sup>. والخطاب في الآية للمسلمين أي أن الله هو الذي أذن لكم بقطعها. وكذلك فعل في غزوة خيبر لما حاصر فيها حصون النطاة، فإنه أمر بقطع النخيل التي هي لأهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها حتى

(1) السيرة الحلبية 164/3.

بني نضير وبني قينقاع وبني المصطلق هم من أشهر القبائل العربية اليهودية التي كانت تقطن في المدينة المنورة (يثرب).

(2) محمد عابد الجابري- المصدر السابق نفسه ص 116.

(3) السيرة الحلبية 179/3.

(4) حديث نبوي متواتر/ عن صحيح البخاري، "كتاب المغازي".

(5) السيرة الحلبية، 265/2.

(6) الكشاف، تفسير الآية الخامسة من سورة الحشر/ الزمخشري جار الله/ الكشاف عن خصائص التنزيل.

(7) سورة الحشر، الآية 5.

قطعوا أربعمائة نخلة، ثم نهامهم عن القطع فما قطع من نخيل خيبر غيرها<sup>(1)</sup>. ولا شك أن نهيه عن قتل النساء والصبيان إنما كان نهياً عن تعمد قتلهم، وإلا فإنه لم يواخذ أصحابه على ما كانوا يصيبون من النساء والزراري في البيات. لأن إجتنب ذلك في البيات غير ممكن. فإن جيوشه كانت في أكثر حملاتها تغير على العدو ليلاً وتأتيه بيئاتاً. ومعلوم أن البيات أسلوب من أساليب الحرب المعمول به قديماً وحديثاً، ولكن لا يجوز أن يبيت إلا جيشاً مثله، فأما بيات قوم نيام في منازلهم مع نساءهم وأطفالهم فغير مقبول في العصر الحاضر، إلا أن ذلك كان مألوفاً عند القبائل البدوية، فكان المسلمون في حروبهم الدينية على عهد محمد (ص) يفعلون بعدوهم كما يفعل عدوهم بهم أيضاً. وهناك نماذج من الاعمال ذات الطابع القاسي وغير المقبول في عرفنا الحاضر. نورد هنا نماذج منها لكي نلقي الضوء على طبيعة الحياة والتقاليد والعادات السائدة في ذلك العصر، بهدف تبليغ فكرة عن الأثر التاريخي المخزون في عقولنا من الماضي وكما جاءت في السيرة الحلبية وسيرة ابن هشام عن عمليات إغتيال زعماء اليهود في يثرب وخيبر وغيرهم وكما يلي:

**الأولى:** عن قصة أم قرفة وهي امرأة إسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الغزاوي، وقرفة اسم أحد أولادها. وخالصة قصتها أن رسول الله أرسل زيد بن حارثة في جيش إلى بني فزارة فخرجوا إليهم يكمنون النهار ويسيروا الليل حتى أحاطوا بهم فقتلوه. وأسرت أم قرفة هي وابنة لها ذات حسن وجمال. فأمر زيد أن تقتل أم قرفة لأنها كانت تسب النبي. وكان المأمور بقتلها قيس بن المحسر، فربط برجلها حبلين ثم ربطها إلى بعيرين باتجاهين مختلفين وزجرهما، وقيل فرسين فركضا فشقها نصفين. قال الحلبي في سيرته وأم قرفة هذه كانت في شرف من قومها، وكان يطلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم. وكان لها اثنا عشر ولداً، ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل في العزة والمنعة فنقول: لو كانت أعز من أم قرفة، وتقول أمنع من أم قرفة، قال: وقد قتل أحد أولادها في إحدى غزوات الرسول. وبقيت أولادها قتلوا في خلافة أبو بكر الصديق مع أهل الردة<sup>(2)</sup>.

**الثانية:** قصة مقتل عصماء بنت مروان اليهودية. فإنها كانت تسب الإسلام وتؤذي النبي في شعر لها وتحرض عليه. فبعث رسول الله عمير بن عدي الخطمي ليقتلها. فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وعلى صدرها صبي ترضعه، فمسكها بيده ونحى الصبي عن صدرها ووضع السيف على صدرها وتحامل عليه حتى نفذ من ظهرها. ثم صلى الصبح مع النبي في المدينة. فقال له رسول الله أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم فهل على ذلك من شيء، قال لا ينطح فيها عزان<sup>(3)</sup> أي الأمر في قتلها حين ولا يعارض فيه معارض.

(1) السيرة الحلبية: 34/3.

(2) السيرة الحلبية: 180/3. (المصدر نفسه).

(3) سيرة ابن هشام، 637/4، السيرة الحلبية، 157/3.

إن محمد كان يريد أن يكون مقدساً مطاعاً عند أتباعه المسلمين لأن الغاية التي ينزع إليها لا تتأهل إلا بأن يقده أتباعه ويطيعوه طاعة عمياء. وكان يتحمل كل الأذى في سبيل دعوته إلا المسبه بما يخرج به عن القداسة ويجعله كأحد الناس. فإن ذلك كان يشق عليه مشقة عظيمة، فلم يكن جزاء من سبه إلا القتل<sup>(1)</sup>. وأعتقد أن ذلك التشريع معمول به لدى الآن لدى العديد من المناطق المتعصبة دينياً. والمسبه في واقع الأمر ليست من الجنايات التي تستوجب القتل في كافة الشرائع لأنها لا تتضمن سوى هناك حرمة المسبوب وهناك نص قرآني يقول (...والحرمت قصص...)<sup>(2)</sup>. فهناك الحرمة لا يكون جزاؤه سوى هناك الحرمة أيضاً لا القتل.

**ثالثاً: قتل أبي عنك اليهودي، وقتل كعب بن الأشرف اليهودي أيضاً. أما كعب**

فكان عدواً لمحمد وكان شاعراً يهجو محمداً ويحرض عليه، فقال محمد من لنا بأبن الأشرف فقد أستعلن بعداوتنا وهجاننا، فقال له محمد بن مسلمة الاوسي أنا لك به يا رسول الله هو خالي وأنا أقتله، ثم جمع على قتله هو وأربعة من الاوس هم عباد بن بشر والحارث بن عيسى والحارث بن أوس وأبو نائلة، وكان أبو نائلة هذا أخاً لكعب بن الأشرف بالرضاعة. وكان محمد بن مسلمة قد مكث ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ألا تقوم به نفسه خوفاً من عدم وفاته بما قال، والظاهر انه بقي هذه المدة يفكر في مكيدة يتوصل بها إلى قتل كعب فلم يجد إلا المخادعة ثم قرر أن يذكر الأمر لرسول الله فقال: يا رسول الله لا بد لنا أن نقول أي نذكر ما نتوصل به من الحيلة، فقال له رسول الله قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذل، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب. فتقدموا إلى كعب وكان يقول الشعر فتحدثت معه ساعة وتناشدا الشعر وقال له: أني قد جئتكم بحاجة أريد أن أنكرها لك فأكنتم عني فقال له إفعل قال كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء في بلاء (والمقصود هنا رسول الله) عادتنا به العرب، ورمتنا بقوس واحدة، فقطعت عتا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس، وسألنا الصدقة ونحن لا نجد ما نأكل وأنني أريد أن تبيعني وأصحابي طعاماً ونرهنك ونوثق لك، فقال لهم وماذا ترهنوني؟ قالوا نرهنك السلاح، وأرادوا بذلك أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاءوا به لقتله، وجاءوا إلى رسول الله وخرجوا من عنده متجهين إلى كعب، فخرج معهم مشياً إلى بقيق الفرقد، ثم وجههم. وقال إنطلقوا على اسم الله، والله معكم، ورجع رسول الله إلى بيته، وأمر عليهم محمد بن مسلمة، وكانت تلك الليلة مقمرة فأقبلوا إلى حصن كعب، فهتف به أبو نائلة، وكان كعب قريب عهد بعرب، فوثب في ملحفته، فأخذت

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمية/ 314.

(2) سورة البقرة، الآية 194.

إمراته بناحيتهما، وقالت إنك إمرو محارب، وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في مثل هذه الساعة، فقال لها، أنه أبو نائلة لو وجدني نائمة لا يوقظني، فقالت والله أنني أعرف في صوته الشر، وروي البخاري قالت له إمراته أين تخرج هذه الساعة، فإني أسمع صوتاً يقطر منه الدم<sup>(1)</sup>. قال هو ابن أختي محمد بن مسلمة وأبو نائلة، ان الكريم لو دُعي الى طعنه بليل لأجاب. فنزل عليهم وبدأوا يتمشوا، ثم أن أبا نائلة وضع يده على رأس كعب ثم شم يده وقال: ما رأيت طيباً أعطر من هذا الطيب، فقال كعب وكيف وعندي أعطر نساء العرب، وأجمل نساء العرب، ثم مشوا ساعة ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأس كعب وأستمسك به، وقال لأصحابه إضربوا عدواً، فضربوه فأختلفت عليهم أسياقهم فلم تغن شيئاً، إذ وقع بعض سيفوفهم على بعض ولصق كعب بأبي نائلة وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار، قال محمد بن مسلمة فوضعت سيفي في ثيبيته ثم تحاملت عليه حتى بلغ عاتته فوق، ولما صاح كعب تلك الصيحة صاحت إمراته يال قريضة والنضير مرتين فخرجت اليهود فأخذوا على غير طريق الصحابة فقاتلوه، قال محمد بن مسلمة وأصيب الحرث بن أوس من بعض أسياقنا في رجله ورأسه ونزف الدم. فتخلف عنا وجاءوا رسول الله آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلما عليه وخرج إليهم وأخبروه بقتل عدوهم، وفي رواية أنهم حزوا رأس كعب، وحملوا ذلك الرأس وخرجوا يشتمون، فلما بلغوا بئيع الفرقد كبروا، وقد قام رسول الله يصلي تلك الليلة، فلما سمع تكبيرهم بالبئيع كبر، وعرف أنهم قتلوا عدواً وخرج الى باب المسجد فجأوا ووجدوا رسول الله واقفاً على باب المسجد. فقال لهم أفلحت الوجوه، قالوا أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله<sup>(2)</sup>. والذي جرى في قتل كعب بن الأشرف جرى مثله أيضاً في قتل أبي رافع بن سلام بن أبي الحقيق كبار يهود خيبر، وأسير بن رزام اليهودي في خيبر، وقد بعث رسول الله عبد الله بن أنس لقتل سفيان بن خالد الهذلي ثم الليحاني. أما عن قتل أبي رافع سلم بن أبي الحقيق، فقصة هذه غريبة في وجهتين:

**الوجه الأول:** أن الذين قتلوا أبا رافع، وهم نفر من الخزرج لم ينتدبهم النبي لقتله كما إنتدب رجالاً من الأوس لقتل كعب بن الأشرف، وإنما هم تبرعوا بقتله لينافسوا الأوس الذين قتلوا كعب ويتقربوا الى رسول الله زلفى، لأن الأوس والخزرج كانا يتنافسان فيما يقرب الى الله

(1) صحيح البخاري، "كتاب المغازي"، الحديث رقم: 373.

(2) سيرة ابن هشام، 57-55/3، السيرة الحلبية 160/3-161، تلخيص الطبري 2/561-265.

ورسوله فلا تفعل الاوس شيئاً من ذلك إلا وفعلت الخزرج نظيره، وبالعكس، فلما رأت الخزرج أن الاوس قتلوا كعب وتقربوا بقتله الى الرسول قالوا والله لا يذهبون بهذا فضلاً علينا في الاسلام، وأخذوا يتنصرون من شابه كعب بن الاشرف في العداوة لرسول الله ليقتلوه، فنكروا أبا رافع، وانتدب لقتله خمسة من الخزرج هو عبدالله بن عتيك و عبدالله بن أنس وأبو قتادة والاسود بن خزاعي ومسعود بن سنان الاسلامي، فجاءوا الى رسول الله وأستاننوه في ذلك، فأذن لهم وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة<sup>(1)</sup>.

## والوجه الثاني: هو أن ما فعله هؤلاء الذين تبرعوا بقتل أبي رافع لمجرد

مناقسة الاوس كان أشبه شيء بفعل اللصوص، ونورده هنا لكي نلقي الضوء على ما كان يجري من سلوك وعادات في تلك الفترة الحساسة من تاريخنا الاسلامي عموماً. ويا لها من غرابة تدعوا الى الاستغراب والدهشة بالنسبة لسامع في هذا العصر ولكنها على ما يبدو كانت من الامور المعتادة بلا استغراب وكما يلي: "خرجوا الى خيبر فلما أتوا تسوروا دار أبي رافع ليلاً فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا وأغلقوه على أهله، وكان أبو رافع في عليّة لها درجة، أي سلم من الخشب يُصعد عليه الى تلك العليّة، فطلعوا في تلك الدرجة حتى قاموا على باب تلك المرتفع، فتقدم عبدالله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان اليهود، فاستفتح أي طلب فتح الباب وقال: جنت أبارافع يهدية، ففتحت له امرأته وقالت: ذاكم صاحبكم فأدخلوا عليه، فلما دخلوا أغلقوا عليهم وعليه باب الحجر، ووجدوه وهو على فراشه وما دلهم عليه في الظلمة إلا بياضه، فابتدروه بأسياقهم، ووضع عبدالله بن أنس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول: قطني قطني، ويعني يكتيني يكتيني، وعند ذلك صاحت المرأة مما جعلت الرجل يرفع عليها سيفه إلا أنه تذكر نهي رسول الله في قتل المرأة فكف يده عنها، وخرجوا من عنده وكان عبدالله بن عتيك سيء البصر، فوقع من السلم فوثبت رجله وجرحته، وقال بعضهم لبعض كيف نعلم أن عدو الله مات؟ فقال أحدهم أنا اذهب فأنظر لكم، فأطلق حتى دخل في الناس، وقال وجدت امرأته تنظر في وجهه وفي يدها مصباح ورجال يهود حوله وهي تحنّهم تقول أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي ثم أقبلت تنظر في

(1) السيرة الطيبة: 163-161/3، سيرة أحمد نحلان، 156-153/2.

وجهي، ثم قالت فاضت وآله يهود أي خرجت روحه وقال فما سمعت من كلمة كانت ألدّ الى نفسي منها. ثم جنت وأخبرت أصحابي وقدمنا الى رسول الله، أن قتل أبو رافع في بيته وعلى فراشه ومع إمرأته وتسور الدار عليه ليلاً وهو غافل لا يعلم بوجود عدو يريد قتله، فهذا شيء لا فرق بينه وبين ما تفعله اللصوص، سوى أن هؤلاء فعلوا ما فعلوا للمصلحة العامة بينما اللصوص لمصلحتهم الخاصة، والمصلحة العامة هذه تصب في نصرة الاسلام وإعلاء كلمته والمتمثلة بإعلاء الحق والتوحيد. إن هؤلاء نفر الذين قتلوا أبو رافع كانوا في مناقسة مع الاوس والتزلف لمحمد، إلا أن محمد كان يريد في ذلك المصلحة العامة، وبالتالي يكون التزلف إليه بهذه الطريقة يصب في مصلحة المسلمين العامة ونشر الدعوة الاسلامية، فإن شعار الغاية تبرر الوسيلة تنطبق على ذلك تماماً ويبرر فقهاء الدين في وصف الاغتيالات في العهد النبوي بأنها عبارة عن أمر شرعي بتنفيذ عملية إعدام صدرت بحقهم<sup>(1)</sup>. أما إذا أردنا أن نرى ما فعله خالد بن الوليد لما أرسله رسول الله الى بني جذيمة بعد فتح مكة مباشر فإنه لم يأمره بقتالهم، وكانوا قد أسلموا، إلا أن النبي لم يعلم بإسلامهم فأرسله إليهم مع ثلاثمائة وخمسون رجلاً من المهاجرين والانصار. ومن بني سليم. وكان بين بني جذيمة وبين بني سليم نحول، لأن بني جذيمة كانوا قد قتلوا منهم مالك بن انشريد وأخويه في موطن واحد. وقد فعل الكثير من المجازر التي لا مجال لوصفها هنا كانت بحجة أن الامر الصادر أو البلاغ القادم إليه من أحد الأفراد القاميين من الرسول محمد(ص) قد نقل إليه هذا الخبر خطأ حيث كان القصد بأن لا يُقتل فرد من قريش بينما وصله الخبر يقتل كل من تلاقه. أن الاعمال التي قام بها خالد بن الوليد لا يمكن وصفها هنا ولكن القول بأن خالد قد قال به رسول الله بأنه سيف الله المسلول. ولنترك كل هذه التفاصيل ونأتي بقصة مقتل أبي جهل يوم بدر لما لها من دلالات فلسفية مفيدة في سياق بحثنا هذا. ففي السيرة الحلبية: عن معاذ بن عمرو بن الجموح قال: رأيت أبا جهل وقد أحاطوا به وهم يقولون: أبو الحكم (أي أبو جهل) لا يخلص إليه. قال: فلما سمعها عمدت نحوه وحملت عليه، فضربته ضربة

(1) هادي العلوي " الاغتيال السياسي في الإسلام دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 27.

أطلقت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حتى طاحت كما بالنوأة تطيح من تحت مرضخه النوى، فضريني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جسمي، وأجهضني القتال عنه (أي شغلني وأبعدني) فلقد قاتلت عامه يومي لأستحسها. فلما أنتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها. وبعدما وقع أبو جهل هكذا عقيراً مر به معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق من الحياة. ثم جاء عبدالله بن مسعود<sup>(1)</sup>. فصار ضبعاً لأبي جهل، لأن أبا جهل كان على حافة الموت بعدما أثنخه معوذ، ولكن ابن مسعود لم يأنف من التشفّي بقتل الميت. فعن ابن مسعود قال: رأيت أبا جهل بأخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت له هل خزاك الله يا عدو الله، ففتح عينيه وقال: وبم أخزاني أعار على رجل قتلتموه، أي لا أعار عليّ في قتلكم إياي، وفي رواية أخرى أنه قال: لو غير أكار قتلني، والأكار الزراع يعني الانتصار لأنهم كانوا أصحاب زرع، ثم قال يخاطب ابن مسعود: لقد أرتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً، أخبرني لمن الدبيرة، لنا أم علينا، فقلت: لله ولرسوله قال ابن مسعود: ثم أتني إحتزرت رأسه، ولما ضربته بسيفي لم يغن شيئاً، فبصق في وجهي وقال: خذ سيفي فأحتز به رأسي من عرشي يكون أنهي للرقية، (والعرش هو عرق في أصل الرقية) ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبو جهل، فقال رسول الله: والله الذي لا إله غيره، ورددها ثلاثاً ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله فحمد الله ويقال أنه سجد خمس سجديات شكراً. أن أبا جهل هو من بني مخزوم، وإسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وكان يكنى بأبي الحكم، فغير النبي كنيته بأبي جهل، وكان أبو جهل من كبار سادات قريش وأشرفهم حتى أن دار الندوة<sup>(2)</sup>\* كانت لا يدخلها عند المشورة من غير ولد قصي إلا ابن الأربعين سنة، إلا أبا جهل فإنه كان يدخلها عند المشورة وهو شاب دون العشرين،

(1) السيرة الحلبية، 172/2.

\* دار الندوة: هي أول دار بنيت بمكة، وكانت منزل قصي بن كلاب (جد قبيلة قريش) ثم اتخذتها قريش للشورى، فكانت محل مشورتهم لا يقطعون أمراً إلا فيها (السيرة الحلبية 125/2) والندوة معناها الجماعة، وهي تقع جهة الحجر عند المقام الحنفي الآن وكان بها باب إلى المسجد وهي اليوم غير موجودة لأنها انحلت في المسجد/ انظر محمد عبد الجباري-المصدر السابق.

ومن ثم قيل فيه: ساد أبا جهل وما طر شاربه ودخل الندوة وما استدارت لحيته. وكان أشد قريش عداوة للنبي بعد أبو لهب (عم النبي). ولا ريب أن أثر الانتقام ظاهر في قتل أبو جهل بالنسبة لقاتله الأخير ابن مسعود، وأما بالنسبة للمقتول فإن أثر الإياء والشيم والبطولة كانت ظاهرة في تلك القتلة حين قال أبو جهل لابن مسعود حين وضع قدمه على عنقه وأراد أن يحتز رأسه فإن كلامه ذلك كان يدل على أنه يفضل الموت بالعز على الحياة الذليلة، وعلى الرغم من كون أبو جهل سيداً في قومه شريفاً في نسبه، إلا أنه كان منحطاً في عقليته، وجامداً على التقاليد البالية السخيفة، ولم يكن يوم بدر إلا قتيل جموده على تلك التقاليد الواهية، وكذلك الأمر بالنسبة لغيره ممن اشتهروا بعداوة محمد من كفار قريش، وإلا فإن محمداً لم يكن يريد لهم إلا العز والرفعة، وإن يكونوا ملوك العرب والعجم، حيث قال لهم فيما اجتمع بهم عند وفاة عمه أبو طالب وكان من بينهم أبو جهل فقال لهم محمد: (أرضيتكم أن أعطيكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم). فقال أبو جهل نعم لنعطينها لك وعشراً معها فما هي؟ قال (لا إله إلا الله) وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم دلالة عدم الرضى وقالوا: "يامحمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب"، لقد منعت التقاليد الموروثة لديهم الكثير منهم من الدخول في الإسلام، بينما أدركها البعض في الأونة الأخيرة، وأستطاع أن يركب الموجة العارمة في التغيير أمثال أبو سفيان بن حرب حيث أعلن إسلامه بعد فتح مكة مباشرة وصار من الاسياد وحافظ على كيانه ونفسه من القتل، من خلال إدراكه بالنتيجة الحتمية لمصيره إذا لم يفعل ذلك. وإستطاع أيضاً أن يحفظ لأزريته من الاحفاد أن يؤسسوا للدولة الإسلامية والتي أسست على يد إبنه معاوية حيث تشكلت من خلاله أعظم إمبراطورية في ذلك العصر. أما أبو جهل فذهب فعلا ضحية جهله وعناده غير المبرر وقتل نفسه بسيفه الذي كان يعتز به. أن العبرة والدرس في هذه الحادثة هو أن كل من لم يستوعب التطور التاريخي للمجتمع، ويتزمت في تقاليده وعاداته إنما يكون مصيره كمصير أبو جهل. ولدينا في هذا العصر مثال واضح عن صدام حسين الذي أصبح في عزلة تامة عن العالم ولم يفهم ماذا يجري من تطورات فيه. ونذكر هنا الرسالة التي



وجهها له الرئيس الأمريكي " جورج بوش الاب" حينما أراد منه أن ينسحب من الكويت بعد إجتياحه إياها عام 1990. حيث كان يدعو لإتخاذ موقف من الحكمة وتحكم الضمير بالانسحاب وتجنب ويلات الحرب والخسارة الحتمية المحسومة مسبقا. إلا أنه أي جورج بوش لم يكن على بينة بما في رأس صدام حسين من إرث قديم متراكم منذ آلاف السنين يدعو للتعننت بحجة الكرامة الزائفة، وعدم الاكتراث بأرواح الناس والخسارة التي يمكن أن تلحق بالبلد إذا ما إتخذ قرار عدم الانسحاب والحرب، والذي كان في مقابل كل العالم المتمدن بلا إستثناء تقريبا. فكما ذهب أبا جهل ضحية تعصبه بالتمسك بالتقاليد وقطع رأسه بسيفه المهبيا مسبقا بالقطع السريع والحاد، ذهب صدام ونظامه بذات الطريقة، كما ذهب العديد من المترمئين والمتمعصبين عبر التاريخ، ممن لم يتقبلوا النصح والرأي الآخر. أما أبا جهل فقتل بسيفه ويأمر منه، ربما أدرك مقدار الخطأ الذي ارتكبه في آخر رمقه، إلا أن صدام حسين لم يدرك ما ارتكبه من أخطاء لآخر لحظة من حياته وذلك بسبب الموروث التاريخي الثقيل الذي يحمله في رأسه. وقد تصرف كذلك نتيجة لما يحمله في رأسه من مفاهيم في الكرامة الزائفة تفوق ما لديه من حكمة وعقل منطقي بضمير.

وعودة الى إستخدام السيف في الاسلام. فقد جاء في كتاب معروف الرصافي عن مسألة الانتقام في الاسلام ما يلي<sup>(1)</sup>: " أن محمداً نفسه لم يخلُ من حسّ الانتقام في حرب بدر، فإنه لما بلغ دار بني الصفراء مرجعا من غزوة بدر، أمر بقتل النضر بن الحارث، وفي السيرة الحلبية نقلا عن الامتاع: أن النبي نظر الى النضر بن الحارث وهو أسير أثناء تفقده لجميع الأسرى بعد إنتهاء معركة بدر فقال النضر للأسير الذي بجانبه: ان محمدا والله قاتلي، فإنه نظر إلي بعينين فيهما الموت فقال له الأسير: والله ما هذا منك إلا رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير يا مصعب أنت أقرب من هذا إلي رحما، فكلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه هو والله قاتلي، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا. وكان المقداد هو الذي أمر بقتل النضر. فلما أمر النبي بقتله قال المقداد: يا رسول الله هذا أسيري، فتولى

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية 323/2".

المقداد قتله فقتله، ويقال أن النضر هذا كان يشكك في أحاديث محمد وأنه ذهب الى الحيرة واشترى منها أحاديث الاعاجم ثم قدم بها الى مكة، وكان يشبه تلك الاحاديث والحكايات عن نبي الاولين بالآيات القرآنية، وكان دائماً يجمع الناس في مكة ليوضح لهم درجة تشابه الاحاديث والحكايات الموجودة بالآيات القرآنية مع الاحاديث الموجودة لدى الزرادشتية أو المانوية وغيرها من الكتب المتداولة في بلاد الرافدين في ذلك الوقت. ثم أن محمداً لما ارتحل من الصفراء فبلغ عرق الطيبة (موقع) أمر بقتل عقبة بن أبي معيط وكما قتل صاحب أبي خلف على يد محمد يوم أحد، وقيل أن محمد لم يقتل بيده أحداً غيره. ولا يشك أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لم يقتلا لكفرهما فحسب. وإلا لزم قتل جميع الاسرى من كفار قريش الذين أسروا يوم بدر، وإنما قتلا إنتقاماً وتشفيًا بقتلهم مما كانوا يعلنان بمكة قبل الهجرة، وقد نزلت الآية الكريمة بخصوص الانتقام في تفسير قوله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون)<sup>(1)</sup>. ان البطشة الكبرى هي حرب بدر، وأن صح ما نقول أن حرب بدر كانت حرباً إنتقامية لما فعلته قريش بالمسلمين في مكة<sup>(2)</sup>.

ولا بد من الإشارة هنا الى أن كفار مكة لم يكونوا أقل قسوة من ذلك فتشهير المصادر العديدة الى مقدار ما قاسته الامة المسلمة في مكة والطائف من قسوة على المسلمين، وقد أسهب الكتاب في وصف ذلك في العديد من الكتب لا داعي لتكرارها ونذكر فقط كيف قُتل ياسر (والد عمار بن ياسر) وزوجته سمية في التعذيب على يد قريش. أن نمط الحياة في الجزيرة العربية كانت متميزة باستخدام السيف بالشكل الذي يتلائم وهدف التنازع من أجل البقاء في تلك البيئة الصحراوية وفي تلك المرحلة من تطور العقل البشري. ومن المفيد أن نذكر هنا أيضاً كيف أن المهاتما غاندي (زعيم الهند الراحل) ذكر في مذكراته<sup>(3)</sup> المشهورة أنه قرأ الاديان السماوية كافة ومنها المسيحية واليهودية والاسلام بتفاصيلها وقد أعجب كثيراً في القيم الاخلاقية التي جاء بها الاسلام، خاصة وأن صديقه الحميم محمد علي جناح ذلك المفكر الاسلامي الكبير الذي تأسست دولة باكستان على يده كان دائماً يحثه بأن يصبح مسلماً، إلا أن إعتراضه على الاسلام كان منصباً في إستخدامه السيف في عصر فجر الاسلام دون أن يدرس طبيعة البيئة التي نشأ

(1) سورة النخاع الآية 16.

(2) السيرة الطيبة، 179/2.

(3) مذكرات غاندي.

بها الاسلام وظروف الجزيرة العربية وموارثنا التاريخية لكي يعرف السبب وراء استخدام السيف، وبالتالي لم يكن هناك بديل في نشر الدعوة ونجاحها وتحقيقتها لكل ما كانت تصبوا إليه، لولا استخدام السيف بالطريقة التي وصفناها. وكم ظهرت دعوات ورجالا عظام لم يذكرهم التاريخ وذهبت دعواتهم أدرج الرياح لعدم استخدام السيف. ويمكن الرجوع الى السيرة النبوية وغيرها من المصادر من أجل زيادة المعرفة والإطلاع على الحقيقة بتفاصيلها. لم يكن متوقفاً أن يصبح المهاتما غاندي مسلماً، نظراً لنشأته في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتنا بالإضافة الى كونه متدين بالهندوسية، والتي تمنع حتى قتل الحيوان وحتى استخدام المنتجات الحيوانية لخدمة الانسان كالحليب والبيض. ولابد من الإشارة هنا الى مفاهيم خاطئة كانت سائدة لدينا، من أن الهنود يعبدون البقرة، وفي الحقيقة هذا إفتراء كبير عليهم. وكل ما في الامر أن هناك مصلحين ظهوروا في القارة الهندية أوصوا بالعناية بالحيوانات ومنها البقر لأنهم أدركوا أهمية تلك الحيوانات في مستقبل تلك الأمة وأن القتل العشوائي قد يتسبب في كارثة كما ظهر لديهم واحداً من المصلحين الكبار واسمه ساندرا<sup>(1)</sup> كان يوصيهم بعدم قطع أي شجرة. وكان هذا المصلح الكبير في السن قد عاصر مآسي التصحر والموت الجماعي لقومه أيام طفولته وشبابه ووطن بأن السبب وراء كل تلك المآسي كان التقطع العشوائي للأشجار وهكذا طرأت لديه تلك الفكرة. فحبذا لو ظهر لدينا مصلح من هذا النمط يوصينا بالعناية بالأشجار والنفط والغاز الطبيعي الذي أصبح جزءاً من كياننا ووجودنا لإنقاذنا من مأساة محتملة بعد تناقص تلك الثروة المعدنية الهامة، فيما إذا لم تستغل بالطريقة الامثل لصالح المجتمع وللجيال القادمة خاصة بعد كل ذلك الاستنزاف والهدر في الموارد التي كانت تذهب للأغراض الحربية وغيرها أيام حكم البعث في العراق.

أما عن الموروث التاريخي في ممارسة الاغتيال السياسي فقد استخدم هذا الاسلوب في التخلص من الخصم البارز منذ أقدم العصور. ومُورس الاغتيال السياسي قبل الاسلام بشكل مفرط. وجرت محاولات عديدة في اغتيال الرسول محمد نفسه طيلة فترة حياته، ولم يتمكنوا منه. واستمرت هذه الممارسة بعد ظهور الاسلام ظناً منهم أنها أسهل طريقة للتخلص من الإعداء بطريقة تجنبهم عناء أكبر في حالة عدم قتل المنافس خلسة. وهكذا نجد أن حركات سياسية مهمة تدعى بدوافعها الاصلاحية وقيمها السامية، واقتبست هذا الاسلوب في عصرنا الحاضر كمنهج في ممارسة العمل السياسي، وكما فعل ذلك البعث في العراق منذ ظهوره على الساحة السياسية، وكانت الاغتيالات السياسية تمارس بغزارة أيام بداية التغييرات التي حصلت عام 1958م، عندما قامت الجمهورية في العراق والتي أطاحت بالملكية على يد عبد الكريم قاسم، واستطاعوا أن يُصفوا

(1) برنلمج تلفزيوني في محطة (BBC) عام 2002.

الاعداء والمنافسين لهم عن طريق الاغتيال والغدر المبرر من قبلهم بعقليتهم الانتقامية الموروثة تاريخيا، ومن منطلق "الغاية تبرر الوسيلة" على اعتبار أن غايتهم هي في قمة السموم (حسب عقيدتهم) وذلك في تحقيق مجتمع عربي اشتراكي جديد. ولكن كانت المحصلة النهائية هو الفشل الذريع، وما نحن نحصد نتائجه. لقد مورس الاغتيال السياسي بشكل مفرط في خلال فترة الحكم الاسلامي أيام الدولة الاموية والعباسية وما تلاها وهناك العديد من الامثال في الاغتيال تمت ممارستها في القيادات العليا بين الاخوة أو الأبياء والاخوة جنبا لجنب مع ممارستها للخصوص. ولا تزال عقلية الاغتيال السياسي متغلبة للأسف الشديد، ولا بد من وضع حد لهذا الموروث في عقولنا. وحتى الانقلابات العسكرية التي تروم تغيير أنظمة الحكم، لم تكن سوى وسيلة غدر وخيانة، مورست في منطقتنا العربية والاسلامية بدرجة واسعة تفوق أي منطقة أخرى من مناطق العالم. وأبسط مثل على ذلك أن الهند والباكستان كانت دولة واحدة وعندما انفصلت وأصبحت دولتان، بدأت الانقلابات العسكرية في باكستان تتوالى تباعا بينما لم يحصل أي إنقلاب عسكري لحد الآن في الدولة الهندية غير المسلمة. وهذا دليل واضح وملموس في تأثير الموروث التاريخي في أسلوب التخلص من الخصم لدى الدول الاسلامية، بينما نجد في الدولة التوأم وهي الهند ترسيخ مبادئ الديمقراطية الحديثة دون حصول إنقلاب عسكري منذ تأسيسها عام 1947. ومن هنا يمكن القول أن التوسع في المؤسسة العسكرية والتي تصبح مؤثرة في القرار السياسي أمر خطير في البلدان النامية ويجعل أمر الاستقرار في كف غفريت مهما اتخذت من إجراءات وتحذيرات لمنع حصول الانقلابات العسكرية. وكل ذلك يرجع للموروث الثقافي في هيمنة القوى والاكثر إقتدارا في السيطرة على زمام الامور. لا شك أن هناك عوامل وأدوات أخرى تحرك في حصول الانقلابات العسكرية إلا أن الحاضنة الرئيسية كأسلوب غدر وخيانة كان في الموارث الثقافية التاريخية لبلدان العالم الثالث، ومنها بلاندا التي عانت الاميرين من الانقلابات العسكرية في السابق. وفي إعتقادنا أن خطر الانقلابات العسكرية لا تزال قائمة طالما بقيت عقيدتنا وفلسفتنا في الحياة كما هي قائمة على أساس الغلبة للأكثر شراسة وقسوة. وينبغي اتخاذ كل الوسائل والسبل الكفيلة بطي صفحة الانقلابات العسكرية من حياتنا السياسية ليس فقط بالوسائل الإجرائية بل ترويا وثقافيا وعلى كافة الأصعدة كي نبني مستقبلا زاهرا لأجيالنا القادمة ونلحق بركب الحضارة الحديثة.

#### 4- المرغبات في الجهاد في الاسلام:-

لعل واحداً من أهم الموضوعات التي تعهدنا في الوقت الحاضر هي ما جاء في عصر فجر الاسلام من الأسباب التي تجعل الانسان يضحي بحياته ويدفع بنفسه الى التهلكة من اجل قضية يؤمن بها. ولا بد لنا قبل الخوض بالموضوع أن نعرف معنى كلمة الجهاد، فالجهاد في اللغة العربية معناه بذل ما بالوسع، وهو من الجهد بمعنى الطاقة، ثم أستعمل من القتال لإعلاء كلمة الله، ويقال: جاهدوا العدو. وهذا مصطلح قرآني يعني قاتلوا العدو. ولما جاءت الدعوة الاسلامية الى الجزيرة العربية وكما أسلفنا في الفصل الثاني كيف كان القتال يشكل جزءاً من كياناتهم وحياتهم البدائية التي تغلب فيها الشجاعة والنجدة، وأن يكونوا ذوي جلادة وصبر على الشدائد وإحتمال المشاق. ولا تكون عندهم للحياة قيمة، كقيمتها عند أهل الحضارة والمدينة، وبالتالي يكثر منهم الاقدام على المعارك. وإذا ما انضم الى هذه الصفات ما كان يرغبهم في الاسلام فيه ما يحلل عليهم ويدعوهم للقتال ويحرضهم عليه فأنها تؤدي الى مضاعفة القدرة والانفعا في القتال، وكانت تصب في أمرين: الاول معنوي والآخر مادي.

أما المعنوي فهو الذهاب الى الجنة ونعيمها الخالد المقيم، والمفهوم من الاحاديث النبوية أنه ليس هناك طريق يؤدي الى الجنة تأديه مضمونه بكل سلامة وإطمئنان سوى الشهادة، وهي أن يموت المرء قتيلًا في سبيل الله، فلذا كانت الشهادة أكبر مرغّب في القتال. ومن الاحاديث المروية في هذا الباب، قال النبي محمد (ص): (أن الشهيد عند الله خصالاً: أن يغفر له من أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلي حلية الايمان، ويزوج من الحور العين ويجار من وثاب الفر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوهاج من الياقوته ومنه خير من الدنيا وما فيها، يزوج اثنين وسبعين من حور العين، ويشفع في سبعين انساناً من أقاربه) (1) وجاء مثل هذا في رواية أخرى أنه قال يخاطب أصحابه بعد غزوة أحد: (لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم من اجواف طير خضر ترد انهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأوي الى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لنلا يزهدوا في الجهاد، ولا يتكلموا عن الحرب فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) (2) وجاء في حديث آخر: (لا تجف الارض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجته كأنهما طائرتان أظلتا فصيليهما ببراح

(1) من الترمذي، فضائل الجهاد، الحديث رقم 1586، سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد رقم 2789.

(2) سورة آل عمران، الآية 169.

الارض، بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها<sup>(1)</sup>، والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة فمن أرادها فليرجع الى كتب الحديث التي تخص الجهاد في سبيل الله، ويجدر الاشارة هنا الى أن للجنة تأثير عظيم في نفوس المسلمين الاوائل نورد المثال على ذلك أن أم حارثة بن قيس الانصاري جاءت النبي بعدما قتل ابنها يوم بدر وهو غلام، فقالت: يا رسول الله، حدثني عن حارثة، فإن يكن في الجنة لم أبكي عليه ولكن أحزن؟، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في دار الدنيا، فقال لها: (يألم حارثة، أنها ليست بجنة ولكنها جنات، وحارثة في الفردوس الاعلى)، فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة<sup>(2)</sup>. والاخبار في خطب الرسول محمد قبل غزوات بدر وأحد وحكايات الترغيب في الجنة كثيرة لا حصر لها، ويمكن الرجوع إليها في السنة النبوية المعروفة كما أسلفنا. أما الترغيب المادي: فهو الغنائم والسبايا، ومن المعلوم أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يغتتمون الاموال ويسبون النساء والرجال في حروبهم. فقد استمر الاسلام على هذه العادة الموروثة وأحل لجيوشهم الغنائم، وقد جعل محمد ذلك من خصائصه التي أختص بها وأنفرد دون غيره من قبله من الانبياء والرسل، لأنه عرف طبيعة المجتمع وما كان له أن ينجح لو لم يعمل بذلك كما جاء في هذه النصوص أنه قال: (أعطيت خمساً لم يعطيهن أحد قبلي: أرسلت للناس كلهم عامة، ونصرت بالرعب، وأحللت لي الغنائم، وجعلت لي الارض مسجداً، والتراب طهوراً)<sup>(3)</sup> فكان يرغب أصحابه في الغزو بالغنيمة كما قال لعمر بن العاص لما أرسله في غزوة ذات السلاسل، فعن عمرو بن العاص قال: بعث إلي رسول الله فأمرني أن أخذ ثيابي وسلاحي، وقال: (يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغتمك الله ويسلمك)، فقلت: أتي لم أسلم رغبة في المال، قال: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)<sup>(4)</sup>.

ولما خرج الى تبوك وتجهز الناس قال للجد بن قيس: يا جد هل لك في جلد بني الاصفر. فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني لأني أخشى أن رأيت نساء بني الاصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله وقال له: أذنت لك، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة: (ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني...) <sup>(5)</sup> الآية<sup>(6)</sup> فكانت غنائمهم من حوافزهم على الغزو، ومن مرغبتهم في الخروج للقتال. أما السبايا من

(1) سنن ابن منجه، كتاب الجهاد، الحديث 2392.

(2) السيرة الحلبية، 162/2.

(3) صحيح البخاري، 419، 323، صحيح مسلم 810، سنن النسائي 429، سنن أحمد 2144.

(4) السيرة الحلبية، 192/2.

(5) السيرة الحلبية، 191/2.

(6) سورة التوبة، الآية 49.

الرجال والنساء فكانت كأموال الغنائم تقسم على الجيش أيضاً من ضمن تقسيم الاموال. فتكون السبايا ملكاً لهم أن شاءوا إسترقوهم، وإن شاءوا باعوهم، وأن شاءوا كتبوهم، وأن شاءوا أخذوا فدانهم إذا إفتداهم أهلهم. ولم تكن إذ ذاك قاعدة متبعة في تقسيم الغنائم، وبعد أن حصلت مشاكل عديدة بين الجنود في تقسيم الغنائم، رأى محمد أنه أمام مشكلة يجب حلها عاجلاً لئلا يتسع الخلاف ويمتدأ النزاع، فلم يجد لتلك المشكلة حلاً سوى أن ينزع الغنائم من أيديهم ويجعلها لله ورسوله. وحينئذ يكون الحكم فيها له وحده، وإذا كان الحكم له هان الأمر فأنزل الله من السماء الآية الكريمة: (يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)<sup>(1)</sup>. فبهذه الآية نزعها الله من أيديهم وجعلها لمحمد يضعها حيث يشاء. وقال الحلبي في سيرته: فقلت الآية على أن الغنيمة لرسول الله خاصة ليس لأحد من المقاتلين شيء فيها. أما محمد فإنه لم يخرج عن الشرط الذي شرطه لمن كان له بلاء في ذلك اليوم. فجعل الأسرى لمن أسروهم، وأسلاب القتلى لمن قتلوهم وقسم الباقي على المسلمين بالسوية<sup>(2)</sup>. وكان سهمه كسهم واحد منهم، إلا أن لمحمد الصق، وهو يصطفي ويختار لنفسه من الغنيمة قبل القسمة. ولا ريب لأن آية الانفال لم تكن إلا تديباً مؤقتاً لحسم النزاع، لأن جعل الغنائم لرسول الله يعطيها من يشاء، وكيفما يشاء، ربما يؤدي ذلك إلى التقول من بعض ضعاف الايمان، فالأحوط هو أن يوضع لتقسيم الغنائم حكماً عاماً يكون معمولاً به في كل وقت حتى يرضى كل واحد بنصيبه ولا يتكرر الخلاف والنزاع، فلا بد إذن من آية أن تنسخ آية الانفال. فنزلت الآية الكريمة في تقسيم الغنائم، وهي: (وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتمى والمسكين وابن السبيل...)<sup>(3)</sup> فكان الحكم في تقسيمها هكذا: بعد الصق الذي يختاره رسول الله لنفسه الى خمسة أقسام: فالقسم الأول وهو خمس الخمس لرسول الله يفعل به ما أحب، والثاني لنوي القربى وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب والثالث لليتامى والرابع للمسكين والخامس لابن السبيل.

يفهم مما تقدم ان الجنة من المرغبات العامة، لأنها تصلح للترغيب في الاسلام وفي القتال، بخلاف الغنيمة فإنها لا تصلح إلا للترغيب في القتال، ولما كان محمد بمكة قبل أن تكن الحرب ولم تكن الغنيمة، ولكن كان يرغب في الاسلام بالمانيات أيضاً من خلال قوله في بيت عمه أبي طالب: (أعطوني كلمة

(1) سورة الأنفال، الآية 1.

(2) السيرة الحلبيّة: 184/2.

(3) سورة الانفال، الآية 41.

تملكون بها العرب وتدين لكم العجم) (1) لعلمه بإتتصار قضيته وإمتداد دولته لتشمل البلاد العربية وبلاد فارس والروم في ذلك العصر...  
وهناك أمر آخر لا بد من ذكره هنا: كان محمد يتخذ واسطة للترغيب على القتال لتشجيعهم وتقوية قلوبهم وتثبيت أقدامهم، وذلك عند إشتداد الحرب وحمي وطيسها أو عندما يترأى له خطر الحالة فيها، وذلك بإمداد الملائكة، وهو يريد بذلك ان يطرد الفزع والخوف منهم كما وقع ذلك يوم بدر حيث خطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه(2) وبشرهم أن الله ممدهم بالملائكة يقاتلون معهم ونزلت الآية الكريمة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة ألف من الملائكة منزلين، ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة ألف من الملائكة مسومين، ، وما جعله الله إلا بشرياً لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله...) (3). على أن علماء المسلمين اختلفوا في تفسير هذه الآية فكما ذكر الزمخشري في تفسيره: أن الملائكة قاتلت يوم بدر وأن جبريل نزل في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وأن ميكائيل نزل في خمسمائة ملك على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب، وكانوا في صور رجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذناها بين أكتافهم. بينما قال البعض أنهم لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف لإهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبرائيل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة(4). ومما يؤيد هذا الرأي أن إمداد الملائكة لم يكن حقيقة يوم بدر مما ذكره من عدم الإمداد بالملائكة يوم أحد، فقال الحلبي في سيرته "وقد نزل قبل أن يخرج النبي الى أحد قوله تعالى: (...ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة ألف من الملائكة منزلين، ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة ألف من الملائكة مسومين) (5). وقال فلم يصبروا وإنكشفوا فلم يمد رسول الله بملك واحد يوم أحد" (6). وهكذا الحال بالنسبة ليوم حنين فلم تشترك الملائكة في القتال كما هو واضح في تفاصيل تلك المعركة. وأخيراً ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين وبعد الاندماج بالثقافة الغربية وحصول ذلك التطور العلمي الهائل دون أن تكون لنا مساهمة فاعلة في تطوير بلداننا وأنفسنا، وبالإضافة الى الكم الهائل من العلوم في شتى ميادين الحياة، أما

(1) السيرة الحلبية، 304/1-305.

(2) السيرة الحلبية، 162/2.

(3) سورة آل - عمران الآيات 123-126.

(4) تفسير الكشاف للزمخشري، تفسير الآية 123 من سورة آل- عمران.

(5) سورة آل عمران الآيتين 124-125.

(6) السيرة الحلبية، 163/2.



لحديث صدمة كبيرة في عقول بعض المتمتتين الذين يريدون بنا العودة الى الماضي ومعيشة ظروف القرن السابع الميلادي رغم كل التغييرات، ويجدون من هذا الارث التاريخي مادة غنية لتغذية الشباب من الاعمار الحساسة بين سن 14-20 سنة ليجعلوا منهم مادة سهلة لتنفيذ اغراضهم الارهابية من خلال غسل عقولهم بالاحاديث والآيات التي يفسرونها كما يشاءون. وبالتالي يكون المجتمع بأسره أسيراً لتلك الاعمال الاجرامية البشعة.

أن على المرابين وعلماء الدين أن يبذلوا مجهوداً كبيراً من أجل إنقاذ الدين. وذلك في تكريس الجانب المشرق فيه وتوضيح الظروف والمسببات والبيئة التي كان يعيش فيها الأولين. لكي لا ندع المتعصبين يستغلون النصوص ويكرسونها لتهيئة أذهان الشباب نحو العنف. أن عمليات ترغيب الشباب الذين لم تبلغ أعمارهم العشرين عاماً في العمليات الانتحارية التي تقوم بها جماعة القاعدة هذه الايام بما يغسلون به أفكارهم من أنهم سيذهبون مباشرة الى جنة الفردوس ويكون عشاتهم مع الرسول الأعظم، وما الى ذلك لم تأتي من فراغ، وإنما تستند الى نصوص ومعتقدات كانت سائدة في عصر فجر الاسلام، وبالتحديد بعد الهجرة إلى المدينة. الفرق هنا هو أن الهدف من كل تلك المرغبات في القتال في عصر فجر الاسلام كان سامياً من أجل إقامة دولة وكيان ونشر دين سماوي رافع، ويرقى الى قمة المبادئ والقيم الاخلاقية الرفيعة. بينما لا وجود لهدف في القتال والدمار الذي يفعله الارهابيون في عصرنا الحاضر. سوى زيادة في حجم الدمار والخسارة والتخلف والاساءة الى سمعة الدين الاسلامي الحنيف، وعلى الرغم من أن عدد المرات التي ورد فيها ذكر القتال بمشقاته في القرآن الكريم حوالي (174) مرة<sup>(1)</sup> وأن لغة الصراع في الاسلام تحريضية شديدة النبرة تذكر القارئ بلغة البلاغات الحربية، إلا أن مؤسس الاسلام كان يستجيب في ذلك لمستلزمات وضعه في مهمته التاريخي. فقد كان المجتمع الجاهلي الذي سبقه مجتمع تتاحري لم يعرف السلم إلا كهامش إستراتيجته الأشهر الحرم الاربعة في أضيق نطاق. ولم تستطع المسيحية الشرقية التي اعتنقتها بعض القبائل مثل تغلب أن تخلق من البدوي في الجزيرة العربية انساناً مسالماً كما نعهده في عصرنا الحاضر. ولم تستطع كل الأديان التوحيدية الأخرى من توحيد بلاد العرب كما فعل الإسلام.

يقول توينبي في التعصب الديني ما يلي:

" إن من سخريات التاريخ البشري أن ينبعث التعصب والاضطهاد عن الاستتارة التي تبث في الدين إدراكاً حسيّاً بوجود الله وأخوة الجنس البشري. ومناطق التفكير ما تبعته فكرة التوحيد إذ تطبق على الدين- في معتنقها من الرواد

(1) هادي الطوي " الاغتيل السياسي في الاسلام " ص 55، المصدر السابق.

الروحيين من روح بلغت درجة رفيعة من السمو تستأهل المجازفة في سبيل سلوك طريق قصير يكفل سرعة نقل فكرتهم إلى عالم الحقيقة.

ومهما يكن من أمر فحينما بُثّر بأي دين ذي سمو روحاني (دين سماوي) تبيت حتماً رذيلة التعصب والاضطهاد وهذه خلقتها البغيضة مثلاً.

إن قيام دين يقال فيه أنه دين حق باضطهاد دين آخر يدعى بأنه باطل، يناقض طبيعة العقيدة الدينية نفسها، لأن الدين "الحق" إذ يلجأ إلى سلاح الاضطهاد، يضع نفسه في المكان الباطل ويتخلى عن مقوماته الأساسية في التوحيد. وثمة على الأقل حالة ناجحة الذكر لهذا التسامح المنشود يفرضها النبي محمد (ص) على أتباعه وهو في موضعه الجليل، فإنه قد أمر أتباعه بالتسامح الديني اتجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامي. وقدم محمد (ص) لقاعدة التسامح تفسيراً قوامه أن الأفراد لهاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمين هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ البداية، من تطبيق المسلمين مبدأ التسامح الديني على اتباع زاردرشت الذين خضعوا للحكم الإسلامي، وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه، لورود نص في القرآن الكريم أن بعض الأنبياء لم تذكر أسمائهم جميعاً: "ورسلاً قد قصصتهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك..."<sup>(1)</sup>

وهكذا أيضاً نبذ المسيحيون منازل عساتهم فجاءة (بين الكاثوليك والبروتستانت) أبان النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي لا بسبب اقتناعهما بخطية التعصب فحسب، بل لإيمانهم بعجز أحدهما عن الإيقاع بالآخر. ولعلمهما لم يعودا يهتمان بالاهتمام الكافي بالنزاع على الموضوعات اللاهوتية الناشئة بينهما ولا يستمرنان بذل مزيد من التضحيات في سبيلها. وبالأحرى جحد اتباع الكاثوليك والبروتستانت فضيلة الحمية الدينية واعتبروها في ذلك الحين رذيلة (نأمل أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه جميع أبناء الطوائف الإسلامية هذه الحقيقة أيضاً).

ومهما يكن من أمر باعث على التسامح فإنه ترياق فعال ضد التعصب: ذلك التعصب الذي ينزع الإيمان بالتوحيد إلى استيلاده. وانبنى على الإغراق في التعصب، انتعاش الكراهية ضد الدين ذاته. ويتبلور الشعور ضد التعصب في عبارة مشهورة للوكريتيوس "Lucretius" هي: "فضاعة الشر هذه هل الدين يحرض على إتيانها؟؟" كما نجدتها عن عبارة فولتير الشهيرة "حطموا المرذول" وفي عبارة جاميتا "نفوذ الكهنة ذلك هو العدو"<sup>(2)</sup>. نأمل من علماء الدين المسلمين

(1) سورة النساء الآية (164)

(2) أرنولد توينبي - ج 2 "مختصر دراسة التاريخ" ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف - جامعة الدول العربية (1966) ص 43.

في عصرنا بذل المزيد من الجهد في تكريس الجوانب التي تدعو إلى التسامح ونبذ الرذيلة المتمثلة في التعصب والغاء الأخر.

## 5- شكل نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام:-

كتب العديد من الكتاب والمؤرخين وعلماء الدين في شكل نظام الحكم الإسلامي في عصر فجر الإسلام ووصفوه بالمثالية من حيث تطبيق العدالة والديمقراطية والحرية وغيرها من الاوصاف التي تنطبق وتطلعات الانسان في العصر الحديث. وظهرت مؤلفات عديدة تصب في نفس الهدف ويعنون "الإسلام والديمقراطية" والحداثة في الإسلام... الخ. ورغم سمو الهدف من تلك الدراسات في تكريس الجانب المشرق للإسلام وفي إرشاد الناس الى طريق الصواب، إلا أننا هنا نبحث في الموارث التاريخية للعنف والاستبداد ونظم الحكم الشمولية (الدكتاتورية) التي إستشرت وتآصلت في منطقة الشرق الأدنى عموماً، وعانينا منها الامرين، وما آلت إليه الظروف والاحوال في المنطقة من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة، ونبحث عن الاسباب الرئيسية لكل تلك المشاكل والحروب والمآسي التي مرت في المنطقة عموماً وفي العراق خصوصاً. وأننا إذ نفثس في التاريخ صفحة صفحة من أجل زيادة الفهم في تلك الاسباب وأصل تلك الموارث لا يسعنا إلا أن نسعى الى الحقيقة كما هي لكي نفهم مشاكلنا بشكل أدق. وربما يعود السبب في إختلاف وجهات النظر حول شكل نظم الحكم في عصر فجر الإسلام الى إختلاف الفهم للمصطلحات المستخدمة كالحرية والديمقراطية والعدالة. فهناك من يعتقد بأن الديمقراطية هي مجرد التشاور بين الاصحاب المهمين والنفر المحيطين بالحاكم، لذا فقد سعينا وقبل البدء بمناقشة أي موضوع في وضع تعريف لكل كلمة ومصطلح والذي على ضوءه تبني الدراسة ومناقشتها. لقد سأمنا من التفسير وراء الرموز والاصناف الكبيرة والتي لم توصلنا الى فهم حقيقي لتاريخنا والى حاضرنا وما علينا إلا كشف الامور ومعرفة الاسباب الحقيقية ورائها لكي نستطيع بالتالي معالجتها بطريقة أسهل وأدق. وعودة الى تحديد نظام الحكم في عصر فجر الإسلام نقول أن الهدف الاساسي في بناء دولة الإسلام ووضع الاسس والقواعد الضرورية لتسييرها كانت في توحيد الأمة من خلال التوحيد الإلهي اولا وكانت الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وهي رمز وحدة الأمة وأساس بناء الدولة الإسلامية في ذلك العصر. وقد كتب طه حسين في تحديد شكل نظام الحكم في الصدر الأول للإسلام في كتابه الفتنة الكبرى<sup>(1)</sup> ما يلي: "يظن آخرون أن نظام الحكم أيام النبي وصاحبيه قد كان نظاماً ديمقراطياً، وهذا تجوز في الالفاظ وخروج عن الدقائق من معانيها، وقد ينبغي أن

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول 28/3، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر 1966.

نتبين معنى الديمقراطية بالدقة قبل ان نقول ان نظام الحكم هذا كان أم لم يكن ديمقراطياً.

## تعريف الديمقراطية:-

الديمقراطية لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب، أي على ان يختار الشعب حكامه إختياراً حراً، ويراقبهم مراقبة حرة، وليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته هو لا لمصلحتهم هم، ويعزلهم أن لم يرضى عن حكمهم ولم يطمئن الى الثقة بهم. كذلك فهمت الديمقراطية في العصور القديمة عند اليونان، وكذلك تفهم الديمقراطية في العصور الحديثة عند الامم التي تصطنع هذا النظام، على إختلاف فهم كلمة الشعب. فهذه الكلمة كانت تضيق في أيام اليونان مثلاً حتى لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستون فيها امام القانون، على حين لا تستمع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشيء ولا تساهم من أمور الحكم بنصيب، وكان هذا اللفظ يتسع بعد الثورة الفرنسية الى حيث يشمل عدداً ضخماً من المواطنين يكون لهم الاستمتاع بالحقوق السياسية، لكنه لا يشملهم جميعاً، فهو محدد بملك مقدار المال، أو أداء مقدار معين من الضرائب، أو تحصيل قدر معين من الثقافة، ثم إتسع في آخر القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر) حتى شمل المواطنين من الرجال فقط منذ يبلغون الرشد، ثم إتسع في هذا القرن (القرن العشرين) حتى شمل المواطنين من الرجال والنساء حتى يبلغون الرشد. وللديمقراطية بعد ذلك، سواء أكانت ضيقة أم واسعة، نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه واختياره لحكامه ومراقبته هؤلاء الحكام". هكذا فهم طه حسين الديمقراطية الحديثة ونضيف الى ذلك أن اليونان قد طبقت نظام الانتخابات للحاكم على مدينة أثينا قبل ميلاد المسيح. وعلى الرغم من عدم مشاركة جميع أفراد الشعب في تلك الانتخابات ولا حتى في أي انتخابات كانت تجري في أوروبا وحتى بريطانيا التي مارست الديمقراطية والانتخابات الحرة منذ فترة طويلة من الزمن، إلا أن جماعة محددة (طبقة النبلاء) من المجتمع هي التي تنتخب وتشارك بشكل فعال في صنع القرار السياسي لتلك البلدان<sup>(1)</sup>. ان انتشار مفاهيم الديمقراطية في الغرب والنايعة من استيعابهم لفلاسفة اليونان القدماء كانت سبباً أساسياً في دفع عجلة التقدم، وتطوير شكل الادارة ودفعها الى التقدم الديمقراطي. ويستطرد طه حسين في وصف نظام الحكم في عصر فجر الاسلام ويقول: "فاذا فهمت الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق، فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الاول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطياً، فالشعب لم يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليلبغه رسالات ربه، وليقيم الامر فيه

(1) اوستن وني ( سياسة الحكم) ترجمة حسن علي الننون - بغداد ( 1964 ) عن رأي اموندن برك سنة ( 1792).

بالقسط والعدل، ولكن الله أرسل رسوله فاتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه، وإذا قلنا أن الذين إتبعوا النبي من أصحابه قد أختاروه ليكون لهم حاكماً، فهم لم يختاروه على النحو الذي يُختار عليه الحكام في النظام الديمقراطي، وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه، وإنما كان النبي يستشيرهم فيشرون عليه، وليس من الدقة في شيء أن يقال أن حكم أبي بكر وعمر قد كان حكماً ديمقراطياً بالمعنى الدقيق، فليس كل المسلمين قد أختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة، وإنما اختارهما فريق بعينه من المسلمين، وهم أولوا الحل والعقد من المهاجرين والانصار، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الامر. ثم لم يكن للشعب، بل لم يكن لهذا الفريق من المهاجرين والانصار، نظام معين مقرر محدد يراقبون به سيرة الخلفاء ويحاسبونهم على ما يأتون وما يدعون وإنما كان الخلفاء يستشيرونهم فيشرون عليهم، يستشيرونهم مجتمعين حيناً ومتفرقين حيناً آخر، وكان لمن شاء من المهاجرين والانصار أن يشير على الخليفة حسب فيقبل الخليفة منه أو لا يقبل، إذن فلم يكن نظام الحكم في ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاماً ديمقراطياً بمعناه الدقيق في الفقه الدستوري عند القمامة أو المحدثين. فإذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذي يفهم منه حاجة الحكام الى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم، وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا في الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة، وتبرأ من التسلط والاستعلاء فأنت تستطيع أن تقول أن نظام الحكم في الصدر الاول للإسلام قد كان نظام ديمقراطي بهذا المعنى العام الذي ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود<sup>(1)</sup>. لقد أصبح تاريخ صدر الاسلام من الازمنة المقدسة لدى المسلمين وأحبوها وظلوا يستسيغون سماع أخبارها المتواترة بدقة الى درجة أن البعض اعتبرها جزءاً من الطقوس الدينية الواجبة. ومن هذا المنطلق فلا يحبذون أن توصف تلك الفترة المقدسة بصفات غير مستساغة لديهم، لذلك يتشبه الباحثون الاسلاميون في جلب الانلة والبراهين التي تثبت بأن الديمقراطية كانت الاساس في ممارسة السلطة في عصر صدر الاسلام. وعلى الرغم من ان ذلك يصب في صالح المجتمع من خلال تكريس مفاهيم الحرية والديمقراطية لدى الفئات التي تريد أن تتقبل المفاهيم الحديثة في هذا العصر دون الاسلاف. وقد ذهب البعض من هؤلاء في التفكير في بعث مجد الماضي من خلال التكيف والتوفيق بين مفاهيم الماضي (والمقصود هنا عصر فجر الاسلام) وأحدث المفاهيم في العصر الحاضر. إلا أن ذلك لم ينجح من خلال التجارب التي مرت بها البلاد العربية في القرن الماضي وما ظهر من حركات قومية متنوعة آلت معظمها للفشل. ونحن هنا إذ نكرس في البحث عن الموارث التاريخية المستشرية في عقولنا من موروث العنف والاستبداد في الحكم وعدم تقبل الرأي

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج 1 ص 28.

الأخر إلا بصعوبة، فلا مجال لنا إلا من إلقاء الضوء بموضوعية من أجل الكشف عن مكامن الضعف وأسبابه ومسبباته لكي نستطيع التعامل معه بحكمة ونجاح. ويذهب طه حسين في الاستنتاج عن شكل نظام الحكم الإسلامي بما يلي: "لم يكن نظام الحكم الإسلامي في ذلك العهد إذن نظام حكم مطلق ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى. ولم يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك، وهو لم يكن جمهورياً، فلم نعرف في نظم الجمهورية نظاماً يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى إلى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت، ولم يكن قيصرياً بالمعنى الذي عرفه الرومان فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء، فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق العرب إليه، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه، وهذا لا يعنينا مع ذلك من أن نحمله وتبين دقائمه لنرى إن كان قادراً على البقاء أم كان خليقاً أن يتغير متى تغيرت الظروف التي أحاطت بنشأتهم ثم بتطورهم"<sup>(1)</sup>. لقد كان النظام سماوياً متصلاً بالوحي الذي استمر في الاتصال ثلاثة وعشرين عاماً يصاحبه المسلمون ويماسيهم، وينزل قرآناً مرة، وينطق به النبي حديثاً مرة أخرى، ويجريه النبي بسيرته العملية سنة متبعة مرة ثالثة. قد أيقظ في نفوس المسلمين من خاصة النبي ضميراً دينياً قوياً وحقيقاً وحيًا إلى أبعد غايات القوة والدقة والحياة، فلم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في بقعة أو نوم، فصلته بالرعية إن كان حاكماً، وبالحاكم إن كان رعيه وبنظرانه في حياته اليومية، متأثرة دائماً بهذا الضمير، ويدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثير بالدين<sup>(2)</sup>. وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن اللبنة الأولى التي وُضعت في بناء الدولة الإسلامية كانت معتمدة على خط الرعية من تولى هذا الحاكم أو ذلك ودرجة نكاته، وصحة ضميره ومدى فهمه في تطبيق قواعد واصول العدل والمساواة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فإذا جاء حاكماً ظالماً لا يراعي كل هذه القواعد فما عليهم إلا أن يذبوا لقتله أو القبول بالامر الواقع لحين ما يأتي أجله ويحل محله حاكم آخر عسى أن يكون أفضل من سابقه الآخر. وقد استمر هذا الموروث التاريخي إلى يومنا هذا واستمر الناس يقارنون بين الحكام أيهما كان أفضل من يقيمون الأداء على ضوء ما يتأتى من الحاكم من إستبداد وتعسف ليبينوا بالترحم على ما فات، رغم كل السلبيات التي يمارسها تلك الحاكم في أيامه، والامر الثاني والذي لا بد من

(1) طه حسين/ المصدر السابق ص 32 ج 1.

(2) طه حسين / المصدر السابق/ 33.

الإشارة إليه في مسألة وضع اللبنة الأولى في بناء الدولة الإسلامية في الصدر الأول للإسلام هو أن هناك مجموعة من الناس كانت متصلة بالنبي محمد(ص) إتصالاً وثيقاً ومنذ اللحظة الأولى من الدعوة، وهؤلاء كانوا قد غُذِبوا في سبيل الله في مكة، وهاجروا بدينهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة، والذين آووا ونصروا والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين لازموا النبي يسمعون له بأذنانهم ويكتبون عنه - كل أولئك كونوا طبقة متميزة لم تكن ترى نفسها أحق بالامتياز، ولا أجدر بالاستعلاء وإنما كانوا في تواضع تام يُعطي مكانتهم في نفوس عامة الناس. وكان منهم العبد الذي فُتِن في دينه حتى صادف من المسلمين من إشتراه وأعتقه، وكان منهم الضعيف الذي أقبل مستجيراً بمكة يعيش في حمى حلفب عدها مع هذا الحي أو ذلك من أحياء قریش، وكان منهم من صرح نسبه وحسن مولده، ولكنه كان قصير اليد قليل المال، فهو في عزة من قومه، ولكنه في ضيق من عيشه يكسب حياته كما يستطيع، وكل هؤلاء سوى بينهم الإسلام في الحقوق والواجبات، ولم يكن الإسلام ينتشر حتى إمتازت هذه الطبقة في نفوس المسلمين إمتيازاً طبيعياً، منذ ذلك الوقت نشأت في الإسلام إرستقراطية قوامها القرب من رسول الله، فأصبح الحكم إلى قریش وحدها، وأصبحت المشورة إلى الانصار، وإذا كان الضمير والمبادئ السامية التي يأمن بها هؤلاء هي الحكم الفصل في سلوكهم فإنها لم تتم طويلاً بعد إتقراض هؤلاء المسلمين الاوائل المقربين إلى النبي بعد أجيال متواترة من الزمن. فإذا لم تكن هناك أسس وقوانين ثابتة تحدد مسار الدولة وشكل الإدارة كالنظام الديمقراطي كما أسلفنا، فأنا سنلاحظ الفرق الكبير في سلوك وتصرفات الخلفاء المسلمين بين عصر الصدر الأول للإسلام وعصور الدولة الاموية والعباسية وما تلى ذلك. وإذا كان الكيان الأول صحيحاً وصادقاً إلا أنه قائماً على أفراد فمن يضمن بقاء هؤلاء الافراد الذين يمسكون زمام الامور من الخلفاء، سيسيروا على نفس المبادئ والمثل في الاجيال اللاحقة، وسيبقى سلوكهم وتصرفاتهم الفعلية مطابقة للمبادئ والقيم الاخلاقية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية. لذا نجد أن بعض الخلفاء في الدولة العباسية مثلاً كانوا يسعون لإشباع رغباتهم الذاتية أكثر من سعيهم لخدمة الرعية من الامة المسلمة. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، فقد إمتلك الخليفة المتوكل ابن المعتصم في العصر العباسي عدداً من الجواري يزيد على ثلاثة الآف ومنهم من يقول ستة الآف<sup>(1)</sup>، عدا حياة الترف في المجالات الأخرى، بينما لم يخطر ببال الخلفاء الاوائل أن يتصرفوا مثل هذا التصرف في حياتهم الزاهدة وهناك مثال أقرب من ذلك، ففي خلافة "عثمان ابن عفان" ظهر إنحراف واضح في السلوك الإداري العام أدى إلى حصول ثورة عارمة وكما سيأتي

(1) كارول بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" المصدر نفسه ص 210.

شرحها. أن هذا المبدأ ينطبق على كل مجموعة جاهدت من أجل تطبيق مبادئ سامية تخدم المجتمع، وتطمح الى حصول تحول في حياة المجتمع، ولكن الذي يحصل هو أنه سرعان ما تؤدي تلك المجموعة دورها سواء أكانت قد أنجزت المهمة أم لم تكملها، ليأتي بعدها جيل أو جيلين من القادة تتغير فيه الأوضاع، وقد تعود الى الوراء بسبب عدم معرفة أو تحسس تلك الاجيال من الاحفاد بالمبادئ الأساسية بضمير حي يكون حدا فاصلا بين السلوك والتصرف الفعلي وبين المبادئ الموضوعية لهم مسبقا. وتكون النتيجة إضمحلال تلك القضية السامية وفشلها أحيانا. ونذكر هنا ما حصل في مسألة بناء الاشتراكية في روسيا وبقية البلدان المجاورة في عصرنا الحالي، وكيف تتابعت الإدارات وتغير سلوكهم وحماسهم لقضيتهم الى أن آلت ما آلت إليه الاشتراكية من تدهور على يد غربائشوف وبلسن رغم وجود أسباب جنزيه أخرى لا يسعنا التطرق إليها هنا. ومن هنا نجد أن تتابع الإدارات وتعاقبها مع الزمن تؤدي في كثير من الأحيان الى الابتعاد عن المبادئ والاسس التي قامت وتأسست بموجبها تلك الإدارة أو تلك النظام، وذلك لسببين رئيسيين: **الأول**- عدم ممارسة الاجيال اللاحقة لتحكيم الضمير والتقيّد بالمبادئ بسبب عدم ممارستهم للنضال الصعب وعدم معابشتهم لصعوباته، **والثاني**- هو حصول تطورات وتغييرات جنزية في ظروف المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية خلال تقادم الزمن وحصول تطور في العقل البشري وتطور حضاري مختلف عن الظروف الاولى التي نشأت فيها تلك المبادئ، ذلك التطور الذي يدعو الى تغيير في بعض التشريعات الفرعية بحيث لا يتقاطع مع الظروف المستجدة او يصطدم معها او يجعل امر تطبيقها مستحيلا، لذا نشأت الحاجة في وضع آلية ثابتة لا تعتمد على الخليفة أو الحاكم، ومن هنا جاءت النظم الديمقراطية في اعتمادها على أسس ودساتير ثابتة لا تقسح المجال أمام الحاكم بالاجتهاد والتصرف كيفما شاء وتفرض عليه رقابة صارمة. ولذلك نجد ان البلدان التي طبقت النظم الديمقراطية منذ مدة طويلة قد تميزت بازدياد قوة ومثانة نظامها بمرور الزمن وعبر الاجيال، وذلك من خلال العناء المترامك للضوابط والاسس الموضوعية غير المعتمدة على أهواء وأمزجة الحكام عبر الاجيال والتي تسمى بالدساتير أو القانون الاساس للدولة. وهكذا بدأت الفوارق واضحة في التطور الحضاري الحاصل لدى الغرب، بالمقارنة مع ما نحن عليه في الشرق وفي العالم الاسلامي عموما، والبلاد العربية خصوصا. إذ أصبح الفرق الحضاري واسعا بحيث ادى الى ما يعرف بصراع الحضارات، وأصبحنا نعاني منه الامرين في كيفية مواجهة ذلك التطور ومواكبته والتعايش معه، خاصة بعد أن زالت الفواصل بين الامم وأصبح العالم كله يعرف بالقرية الصغيرة، نظراً لتطور وسائل الاتصال المختلفة، ولا بد من الإشارة هنا في أننا قد بدأنا والحمدلله في وضع الاسس والقواعد الصحيحة لنظام الحكم في العراق حالياً نأمل له النجاح



وتأمل أن يكون الدستور الدائم مائعا لسلوك وتصرفات الحكام اللاحقين غير المنضبطة، كما كانت في السابق.

## 6- نشأة القدسية والغلو في عصر فجر الاسلام:-

لقد ذكرنا في الفصل الاول (انظر موروث الفكر المقدس والندنس في بلاد الرافدين) عن تعريف وأصل القداسة والقدسية للحاكم في حضارة وادي الرافدين، والآن نتابع كيفية استمرار تلك المفاهيم ولكن بشكل آخر واسلوب أكثر تطورا من السابق في قلب الجزيرة العربية، والتي هي جزء من المنطقة الشرق أوسطية ذات الطابع المتشابه لحد كبير في البيئة والمجتمع.

لقد كتب الرصافي في مجال القدسية والغلو في عصر الصدر الاول للاسلام (عصر حياة الرسول محمد) ما يلي: "أن الغاية التي كان يرمي إليها الرسول محمد(ص) هي من الامور التي لا يسعها عمر الانسان (ويقصد هنا من حيث تطبيقها على الواقع بالكامل)، إذن فلأجل الوصول الى تلك الغاية يلزم أولا إحداث نهضة عالمية كبرى، وثانيا استمرار تلك النهضة من بعده، حتى تتم بها الغاية وكلا الامرين لا يمكن إلا أن يكون محمدا مقدسا ومطاعا لتعذر حصول تلك النهضة، ولو حصلت لأستحال إستمرارها من بعده"<sup>(1)</sup>.

لقد ظهر الاسلام في مرحلة العبودية، وكان المجتمع مقسم الى سادة وعبيد، وكان لا بد من التماسي مع طبيعة العقلية السائدة (العقلية الوثنية) في ذلك العصر مع إدخال بعض التطوير عليها. ولما كانت مسألة القداسة مسيطرة على عقول المجتمع ومتجذرة منذ الآف السنين، فكان لا بد لأي مصلح أو حاكم يريد أن يوصل عقيدة وينجح في إيصالها أن يأتي بشيء من القدسية، إلا أن الاسلام جاء بأسلوب أكثر تطورا من السابق (أي من عصر البابليين والسومريين وغيرهم)، فبدلا من أن يكون الملك البابلي نائباً للآلهة الحاكمة، يعمل ما يشاء في رعيته وتعمل الرعية كلها لخدمته، أصبح الحكم في عصر الرسول محمد(ص) هو أنه فرد من عندهم حاملا لرسالة سماوية تدعوهم للتوحيد وعمل الخير والطاعة". ولقد أراد محمداً أن يكون مطاعاً ومقدساً عند أتباعه المسلمين بهدف إيصال رسالته الى الناس بالشكل المقبول والمنسجم مع درجة تطور عقولهم، ومدى تأثير الموروث التاريخي للقداسة في تفكيرهم في ذلك الوقت، ومن أمثال القداسة التي كان يمارسها المسلمون إتجاه النبي محمد في حياته من دون أن يمانعهم من ممارستها هي:- التبرك بنعليه، أو التهاقت على وضوءه أو تلتف بصاقه، ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا حلق شعره تقاسموا شعره،

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية أو سرّ اللغز المقدس" ص 428.

وكانوا يضلون هذا الشعر ويعطوه للمريض فيبراً<sup>(1)</sup>،<sup>(2)</sup> وغيرها من الامور الشائعة والمنسجمة مع عقلية ذلك الزمان. ولم يكتفي المسلمون في التبرك بكل ما يحيط بالنبي محمد، بل إنتقلت القدسية والتبرك في أتباعه وصحابته وآله من بعده، فإذا كانت النهضة التي يريدها محمد للوصول الى غايته لا تتم ولا تستمر بعده إلا بذلك، فإنه كان يحرص كل الحرص على ان يتبعوه فيكون قدوتهم المقدسة ومرجعهم الوحيد في كل شيء، لذلك أحتاج الناس وبشدة الى وجود مرجعية مقدسة يلجئون إليها لكي تكون قدوتهم المقدسة في كل زمان حتى بعد وفاة النبي، وما كان عليهم إلا أن يلجؤا لأطهر الناس وأكثرهم قرباً الى القداسة وهم آل بيت محمد(ص). الذين يرجع نسبهم الى إبنته فاطمة والى أقرب الناس إليه وهو علي بن أبي طالب (ع). وهكذا أصبح الشيعة يتبعون آل البيت بعد وفاة الرسول، وأتخذ أهل السنة التمسك والاقتران بالصحابة على الاغلب وبأقل درجة من التقديس والتبرك بهم. ومن المفيد هنا أن نستدل على ما أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن ثابت، قال: جاء عمر بن الخطاب الى رسول الله فقال له: يا رسول الله، اني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله، فقال عمر: رضينا بالله ربا وبالرسول ديناً وبمحمد رسولا، فسري عن رسول الله وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم إتبعتموه لضللتهم، ثم أنكم حظي من الامم واني حظكم من النبيين<sup>(3)</sup>. فأنظر كيف تغير وجهه لما رأى عمر معجباً بالجوامع التي كتبت له من التوراة لأنه لا يريد أن يراه إلا بالقرآن وحده ولا متبعاً إلا إياه، ولا معتمداً إلا عليه، وكان من طبعه أن يتغير وجهه إذا سمع شيئاً يكرهه أو كلاماً يزعجه ويؤلمه، ولكن عمر عرف لماذا تغير وجهه، ولذا بادره بما يناقح أعجابه بالتوراة ويثبت انه لا يتبع إلا محمداً. إذ قال له "رضينا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا" ثم انظر كيف سري عنه وإتكشف ما بوجهه من تغيير لما رأى عمر قد رجع عما قاله، وترك ما جاء به من جوامع التوراة، وكيف قال ما أنه لا نجاح ولا هداية لهم إلا بإتباعه، وأنهم لو كان موسى حاضرا وأتبعوه لضلوا، وأكد له ذلك بما مضمونه "أنتم لي وأنا لكم" ولهذا السبب، اي لكونه يريد أن يكون مرجعهم المقدس ومتبوعهم المطاع في الامور كلها، كان يتغاضى عما يفعلونه أحيانا من إبتداهم وضوءه. وتبركهم ببصاقه، وأخذهم شعر رأسه، وشربهم دم حجامته، ونحو ذلك من الامور، غير أن غلوم هذا كان والنبي حي بين أظهرهم، وقد توقف عند هذا الحد ولم يتجاوزوه الى ما هو أعظم، ولكنه بعد وفاته أخذ يتعاطم ويتفاقم كلما مرّ

(1) زاد المعاد" ابن القيم الجوزي" مؤسسة الرسالة- بيروت ج1/110 فصل في غزوة الحديبية.

(2) السيرة الحلبية 3/325، 3/88، 3/23.

(3) مسند احمد، مسند المكيين، الحديث رقم 3، 153، مسند الكوفيين الحديث رقم: 17613.

عليه الزمن، حتى بلغ ما يناقض ما جاء به محمد من كتاب وسنة. ولو افترضنا جدلاً أن كل هذا التقديس والعلو غير صحيح وهو من إختلاق الرواة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف إذا تضخم هذا التقديس والعلو الى يومنا هذا الى الدرجة التي أخذ بعض البسطاء من الناس يسعون لأخذ خيط او شريط من القماش يحتفظون به أو يشافون به مرضاهم من شخص قد تكون له صلة النسب مع رسول الله؟ فلا بد وأن يكون لكل سلوك في المجتمع وله جنوره التاريخية وأصله الذي نحن في صدد البحث عنه. فصحيح أن محمداً لم يرد لنفسه من كل ما جاء به إلا أمراً واحداً وهو الذكر الخالد مع التقديس، ولذا قرن اسمه في الشهادة بإسم الله، وجعل الدخول في الاسلام لا يتم إلا بشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمد رسول الله، مع أن الشهادة الاولى تتم بها الدعوة الى الله، فهي وحدها كافية لهمم الوثنية وإقامة دين التوحيد، ولكنه لم يكتف بها، بل جعل الاسلام لا يتم إلا بالشهادة الثانية معها.

وهنا نورد قصة دخول أبي سفيان للإسلام لما لها من أهمية في هذا الصدد ذلك أن محمداً خرج من المدينة في عشرة آلاف يريد فتح مكة، فلما بلغ مَرَّ الظهران (موضع قريب من مكة) نزل به فجاءه عمه العباس بأبي سفيان بن حرب حتى أخذه على رسول الله، فقال له رسول الله: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما احلمك وما أكرمك وأوصلك لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً بعد<sup>(1)</sup>. أن أبا سفيان في كلامه هذا قد اعترف بأنه لا إله إلا الله، ولكن محمداً لم يكتف منه بذلك بل قال له: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي، أما والله هذه فأن في النفس حتى الآن منها شيئاً<sup>(2)</sup>. وفي الرواية أن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام كانا مع أبا سفيان لما جاء به العباس. وأن العباس قال يا رسول الله، ابو سفيان وحكيم وبديل قد أجرتهم، وهم يدخلون عليكم فقال رسول الله: أنخلهم، فنخلوا، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم عن أهل مكة ودعاهم الى الاسلام فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: أشهدوا أنني رسول الله، فشهد بديل وحكيم بن حزام، وقال ابو سفيان ما أعظم ذلك والله، أن في النفس من هذا شيئاً فارجأها (أي أخرها الى وقت آخر)، فقال العباس لأبي سفيان: ويحك اسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فشهد شهادة الحق وأسلم<sup>(3)</sup>. لا ريب أن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من الخوف حيث هدته العباس بضرب عنقه، علماً بأن أبي سفيان كان

(1) السيرة الحلبية، 79/3.

(2) نفس المصدر السابق 79/3.

(3) السيرة الحلبية، 80-79/3.

من مجموعة الدهرية كما أسلفنا في الفصل الثاني (انظر الفصل الثاني الاديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل الاسلام).

ومهما يكن من أمر فإن هذه القصة تدل على أن الاسلام لا يتم بشهادة أن لا إله إلا الله بل لابد مع ذلك من ذكر شهادة أن محمداً رسول الله، وأن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من خوف حيث هدته العباس بضرب عنقه، ومن يدري لعله تذكر كيف قطع رأس أبي جهل بسيفه يوم بدر، وكان أكثر دهاءاً وحكماً من الاخير ففعل ذلك وركب الموجه وفاز بها بعد كل ما عمله من قيادة جيوش قريش في حملاتها ضد المسلمين بادئ الامر. وهكذا صار المسلمون يذكرون محمداً ويتعبدون بذكره في صلواتهم وعلى ماأنهم في كل يوم خمسة مرات ويقومون الذكر لمحمد في كل مناسبة (كالمواليد والاعراس وغيرها) وبذلك أصبح محمداً مقدساً دائماً الى ما شاء الله<sup>(1)</sup>.

وفي السيرة الحلبية أيضاً عن الزهري قال: نهى رسول الله عن أكل ما يذبح للجن وعلى إسمهم. وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله وأسم محمد فحلال أكله، وأن كان القول المذكور حراماً لإيهامه التشريك، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى (لا أذكر إلا وتذكر معي)، فقد جاء في الحديث الشريف: أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت الله أعلم، قال لا أذكر إلا وتذكر معي". اقول أن كان ذكر اسم محمد عند الذبح حراماً لأنه يوهم التشريك، فإن ذكر محمد مع الله في قوله: (لا أذكر إلا وتذكر معي) يلزم أن يكون حراماً لأنه يوهم التشريك أيضاً، غاية ما هناك أنه في الاول تشريك في الذبح وفي الثاني تشريك في الذكر. ولا ريب أن الذكر الخالد مع التقديس الذي أراده محمد لنفسه، قد تم له على احسن ما يرام، إذ صار المسلمون من بعده يذكرونه كما قلنا في صلواتهم الخمس وفي الشهادات وفي سائر أوقاتهم مقرّوناً بالصلاة والتسليم، إلا أن محمد شعر بأن المسلمين من بعده سيغالون فيه وسيخرجون به الى ما فوق البشرية وهو لا يريد ذلك، فقال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فأنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله<sup>(2)</sup>. وكما

جاء في موقعين في القرآن، في سورة الكهف، وفي سورة السجدة (قل إنما أنا بشرٌ مثلكم...<sup>(3)</sup>). إلا أن المسلمين أبوا أن يخرجوا به عن ذلك. فقد جاء في القرآن في سورة الاسراء (ومن أثيل فتهدّ به ناقلة لك عسى أن يبيعتك ربك مقاماً محموداً)<sup>(4)</sup>، ومعلوم ان المقام المحمود الذي يُحمّده القائم فيه ويُحمّده كل من رآه

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية ص 441.

(2) صحيح البخاري، أحاديث الانبياء رقم 3189، الحدود رقم 6328، سنن أحمد بن حنبل رقم 149،

159، 313، 368 رقم 328، سنن الدرهمي، كتاب الرقاق رقم 2665.

(3) سورة الكهف الآية 110.

(4) سورة الاسراء: الآية 79.

وعرفه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ولكن المسلمين اختلفوا فيه حتى حدثت فتنة كبيرة في بغداد بسبب هذه الآية، فقد قال الحنابلة (جماعة أحمد بن حنبل) بمعنى هذه الآية أن يجلسه الله على عرشه، وقال غيرهم: بل المقام المحمود هو الشفاعة العظمى في فصل القضاء، فدام الخصام بين الفريقين الى أن اُقتلوا وقتل منهم خلق كثير كما جاء في السيرة الحلبية<sup>(1)</sup>.

وهناك أمثلة عديدة في تضخيم وغلوا المسلمين بعد وفاة الرسول محمد ويحثهم دوماً لإيجاد صيغ ورموز ملموسة لأجل تقديسها والالتماس منها في حمايتهم وتلبية طلباتهم الحياتية المتنوعة. ولذلك لجأ قسم منهم في تقديس المنتمين في حبسهم الى الرسول، وبالذات الأئمة الأثني عشر من الامام علي بن أبي طالب وابناءه من بعده. وأكثر من ذلك فقد اصبح لقبور الائمة قدسية خاصة سميت بالعتبات المقدسة، يقصد لزيارتها من شتى أنحاء العالم الاسلامي.

ان كل ذلك منسجم مع البيئة الزراعية والرعية التي يعيشها المسلمون طيلة الفترة المنصرمة ومنذ عصر فجر الاسلام، وأن المفاهيم لا يمكن لها أن تتغير نون تغيير في ظروف المعيشة والبيئة. أن القداسة والمعتقدات الدينية المتميزة لدى البعض من الطائفة الشيعية المسلمة قد أستوطنت وتركزت في مناطق كان السومريين والبابليين والآشوريين يقطنونها وقد تركوا بصمات واضحة في طقوسهم ومعتقداتهم الدينية لدى البعض. لذا نجد أن دور الموروث التاريخي للمعتقدات الدينية في بلاد الرافدين مثلاً، قد حدّد شكل الطوائف المسلمة وأماكن تواجدها طبقاً لدرجة تأثير الموروث التاريخي الثقافي في تلك المنطقة دون غيرها من المناطق. بينما نجد الطائفة السنية في تواجدها أكثر عند المناطق الغربية والصحراوية المتاخمة للحدود مع البلاد العربية الاخرى وكانت ديانتهم اقرب الى اسلام الحجاز في التمسك بعمق في التوحيد التجريدي المطلق. ولتلك الاسباب بالذات لم تنفع كل المحاولات التي جرت عبر التاريخ سواء في الاقتناع والحوار المتبادل بين الطرفين أو باستخدام القوة والقمع. لقد حصلت عدة أحداث تاريخية في فترات زمنية متعاقبة إستخدم فيها هذا الطرف أو ذاك اساليب مختلفة في فرض سيطرتها على الآخر، وفرض معتقداتها إلا أنها باءت بالفشل، وزادت في الفارقة سوءاً. ولا مجال للتوغل هنا في تفاصيل تلك الاحداث التي دخلت فيها عوامل اقتصادية وإجتماعية عديدة بالاضافة للموروث التاريخي الذي يحمله الطرفين بدرجات متفاوتة.

وخلاصة القول فإن استخدام القداسة في نشر الدعوة كان فيه أمرين، الاول هو أن الهدف من وراء ذلك كان من أجل الحصول على الطاعة وتنفيذ برامج الدعوة الاسلامية من خلال ذلك إلا أن المسلمين ومن خلال موروثهم التاريخي

(1) السيرة الحلبية، 366/3.

التقافي قد بالغوا فيها، وأصبح فيها تشابه لما كان يحصل في العصور الوثنية من إيجاد وسيلة ملموسة للتقرب الى الله، وأصبحت أيضاً أداة للفرقة من خلال الاختلاف الذي طرأ في وجهات النظر في تفسير الآيات والاحاديث النبوية والسنة فيما بعد. والامر الثاني هو أن منع قراءة أي كتاب ديني عدا القرآن، فكما لاحظنا الحديث الذي دار بين الرسول محمد(ص) والخليفة عمر بن الخطاب حول قراءة بعض فقرات من التوراة، فقد منع الرسول محمد(ص) المسلمين ومنذ ذلك الحين من قراءة كل ما يتعدى محيط ما جاء به الاسلام بهدف المحافظة على القيم الاسلامية ومنعهم من الانحراف الى اديان أخرى، إلا أن ذلك ادى الى تحجيم الفكر وتحديد افق الثقافة، وظل هذا الموروث مؤثراً الى يومنا هذا في تحديد أفق الثقافة والاطلاع على بقية القيم والمعتقدات الدينية وغيرها للشعوب الاخرى. وقد تميز الاسلام في ذلك دون غيره من الاديان، ففي المسيحية اصبح كتاب العهد القديم والذي يضم كل ما جاء به الاولين من الانبياء قبل ظهور السيد المسيح (ع) جزءاً من الكتاب المقدس "العهد القديم والعهد الجديد" يقتدون به عدا ما هو مخالف لما جاء في العهد الجديد أي في الانجيل من أقوال السيد المسيح(ع). ورغم أن التعاليم السماوية واحدة، ولكن تكرار كل ما جاء به الانبياء إنما يزيد من ترسيخ تلك القيم ويعمق من معانيها، وبالتالي يعكس في سلوكهم وأخلاقهم وتمسكهم في تلك القيم السامية كنتيجة لذلك التكرار. إن مسألة دراسة ما جاء في الكتب السماوية الاخرى لدى المسلمين لا زالت تشكل عقبة كبيرة لإستكمال الفهم للاديان الاخرى، وكيفية التعايش معها في عصرنا الحاضر. ونود ان نشير هنا الى أن هناك جامعة واحدة فقط في كل البلاد الاسلامية في عصرنا الحاضر تهتم بدراسة كافة الاديان لطلبة دراسات العلوم الاسلامية، وهي جامعة الزيتونة في تونس. فقد ادخلت دروساً في الاديان السماوية كافة بالإضافة للبوذية والهندوسية والاديان الوثنية الاخرى<sup>(1)</sup>. نتمنى أن تعم هذه التجربة في بلدان إسلامية وعربية اخرى، ومن أجل إرساء دعائم الفكر المتنور الواسع عن الأديان الاخرى بالإضافة الى تعزيز مبدأ التعايش السلمي بين الاديان والطوائف المختلفة في العالم. أن مبدأ الحوار بين الاديان في العالم من شأنه ان يزيد من عمق القيم الانسانية السامية التي جاءت بها كل الاديان ويعمق من فهمنا للآخر وتعاوننا مع الآخر ويؤدي الى زوال العداوات والكراهية بين بني البشر كافة. وأنتي اتساءل ما الذي يمنع من إدخال مفاهيم الاديان الاخرى ضمن المناهج الدراسية طالما نحن نؤمن ببعثيتنا وصحتها، وقد ترسخت تلك العقيدة عبر ألف وأربعمئة عام بشكل ثابت ليس كما كان عليه الحال في عهد النبي محمد (ص)، وخاصة بعد تلاشي المسافات الثقافية بين الشعوب والامم.

(1) العنيف الأخضر " سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي " جريدة المنى، بغداد 2004 ( لا تكرر العدد واليوم).

## 7- الحالة الاقتصادية في عصر فجر الاسلام:-

مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية تعتبر المحرك الاساسي للتغيرات السياسية. ونتيجة لذلك تتغير هي الاخرى، أي أن الحالة الاقتصادية في كل زمان ومكان تؤثر وتتأثر بشكل جذري بالتغيرات السياسية الحاصلة. وقد تم وصف الحالة الاقتصادية في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام في الفصل الثاني، والآن نكشف عما آلت إليه الامور بعد ظهور الاسلام، ولكن قيل ذلك لابد لنا من معرفة الموارد المالية التي تكونت منها خزينة الدولة أو ما يسمى "بيت مال المسلمين" والتي توزع منها الثروة على عامة المسلمين:-

تنقسم الموارد المالية للمسلمين الى أربعة أقسام هي:- الزكاة والغنائم الحربية، والجزية والفيء، والفرق بين الغنائم والفيء هو أن الغنيمة كل ما أخذ من العدو قهراً بعد حرب وقتال، والفيء هو ما لم يوجف المسلمون عليه خيلاً ولا ركاباً، أي ما أخذ من العدو صلحاً بلا حرب ولا قتال. وقد يطلق الفيء أحياناً ويراد به الغنيمة<sup>(1)</sup>. أما الزكاة، وتسمى الصدقة أيضاً، فهي على اغنياء المسلمين، تؤخذ منهم في كل عام مرة وهي اربعة اصناف من المال، **الاولى** الزروع والثمار، **الثاني** بهيمة الانعام من الابل والبقر والغنم، و**الثالث** الذهب والفضة، و**الرابع** أموال التجارة على إختلاف انواعها.

ولكل واحد من هذه الاصناف نصاب إذا هو لم يبلغه فلا زكاة عليه. فنصاب الفضة مائتا درهم. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الحبوب والثمار خمسة أوسق وهو خمسة أحمال من احمال ابل العرب، ونصاب الغنم اربعون شاة، ونصاب البقر ثلاثون، ونصاب الابل خمسة وهكذا، وتفصيل ذلك موجود في كتب الفقه الاسلامي قد يختلف بعض الشيء في التفسير بين مذهب وآخر. وتسمى الاموال الحاصلة من الزكاة بالصدقات أيضاً، تصرف على ثمانية اصناف من المسلمين حسب ما منكور في القرآن الكريم في قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمسكين والغلطين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والقرمين وفي سبيل الله وابن السبيل...) <sup>(2)</sup>. أما الاختلاف في تفسير الآية الكريمة، فقد جاء في الفرق بين الفقير والمسكين، فقيل أن الفقير من يجد القوت، والمسكين من لا شيء له، وقيل الفقير هو المحتاج، والمسكين من أدله الفقر أو غير من أحواله. وفي الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري: "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يقطن له فيعطى"<sup>(3)</sup>. و"العاملون عليها" هم السعاة الذين يقبضونها (أي جباة الضرائب في

(1) معروف الرصافي المصدر نفسه ص 325.

(2) سورة التوبة، الآية 60.

(3) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، الحديث 1385.

عرفنا الحاضر) و"المؤلفة قلوبهم" هم أشراف العرب كان رسول الله يستألفهم على أن يسلموا، فيرضخ لهم شيئاً منها (أو يقلص منها بنسب معينة) حين كان المسلمون قلة. "وفي الرقاب" أي المكاتبون من الأرقاء، ويتم معونتهم من أموال الزكاة. وقيل هم الأسرى، وقيل تبتاع الرقاب فتعتق. و"الغارمون" هم الذين تراكمت عليهم الديون ولا يملكون من تسديدها، وقيل هم الذين تحملوا الحملات، فتدينوا فيها وغرموا" وفي سبيل الله" أي هؤلاء الفقراء من الغزاة والحجيج المنقطع عنهم الرزق. "وإبن السبيل" هو المسافر المنقطع عن ماله.

وهؤلاء الأصناف الثمانية ينقسمون الى قسمين: الأول يعطى من أموال الزكاة لأجل حاجته وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وإبن السبيل. والثاني يعطى لمنفعته للمسلمين وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون ولإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله. ويتضح مما تقدم إن نظاماً عادلاً في توزيع الثروة على المسلمين يجعل للفقراء حقاً من أموال الأغنياء، كما جاء في القرآن الكريم: (وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم)<sup>(1)</sup>. لذا سميت الزكاة صدقة لأن صدق

الرجل في إيمانه وفي عبوديته لله يكمن في أداءه إياها، وإلا فهي حق واجب الأداء لا صدقة. وهكذا استخدم الدين صدق إيمان الأغنياء في الله واليوم الآخر من أجل دفع ما عليه من أموال بدلا من الأسلوب القسري في دفع الضرائب المفروضة علينا في عصرنا هذا. ولكن الفقراء أصبحوا أكثر إيمانا من الأغنياء لأنهم المتلقين للمال، وتجد ذلك واضحاً منذ عصر فجر الإسلام الى يومنا هذا، ومبدأ الزكاة هذا منطبق على مبدأ الاشتراكية، حيث أن الاكثريّة من المجتمع هم الفقراء الذين يعيشون جنباً لجنب مع الأغنياء ويشكلون زمرة إجتماعية من الناس تكون بمثابة بنيان واحد، وهم ارباب الحرف وأصحاب الكد والعمل، وهم المنتجون بكدهم وعملهم، ومن ثم صار لهم حق في أموال الأغنياء. وأما الغنائم الحربية فقد أوردنا الكثير عنها في حقل المرغبات في الجهاد. وأما الجزية التي فرضت على غير المسلمين فقد تم العمل بها منذ السنة الثامنة للهجرة الى المدينة وبعد نزول الآية الكريمة في سورة التوبة وهي (قتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكُتُب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)<sup>(2)</sup>. وقد جاء في كتاب معروف الرصافي" الشخصية المحمدية" (ان سبب نزول آية الجزية قالوا أنها جُعِلت عوضاً لقريش عما فاتها من المكاسب والارباح بسبب منع المشركين من الحج، وإيضاح ذلك أن الاسواق التي كانت تقام في موسم الحج لم تكن نافعة إلا بالحجاج الذين ياتون من كل الجهات، وكانت قريش تربح ارباحاً طائلة من

(1) سورة الذاريات، الآية 19.

(2) سورة التوبة، الآية 29.



تجارتها في تلك الاسواق، وكان المشركون يحجون مع المسلمين الى أن فتحت مكة، وبعد فتحها بمدة يسيرة نزلت سورة براءة، وفيها نذ النبي الى المشركين عهدهم، وأعلن الحرب العامة ومنع المشركين من الحج وكما جاء في القرآن الكريم (...إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا...) (1)، فلما رأت قريش أن مشركي العرب مُنعوا من الحج، أخذت تتخوف من مغبة ذلك، وما نتيجته من فوات الكسب والربح في تجارتها التي لا تروج إلا بكثرة الحجيج. فجعلت الجزية عوضاً لها عما يفوتها من الربح، وكما تدل الآية الكريمة التي جاءت بعد عبارة المنع وهي (...وإن خفتهم عيلة...) (2) أي فقرا بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم من قدومهم عليكم من الافراق والمكاسب (...فسوف يفتيكم الله من فضله...) (3). أي من عطائه بوجه آخر وهي الجزية). وفي تفسير الزمخشري عن ابن عباس قال: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال لهم: من أين تأكلون فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم الجزية (4). من هنا نجد أن بعض الاسلاميين المتطرفين يتغاضون عن أسباب وظروف نزول الآية الكريمة بحق أهل الكتاب، في انجيزة العربية. ويحاولون العمل بها في عصرنا الحاضر، ويعملون أعمالاً إجرامية بحقهم دون الاكتراث بكل التغيرات الحاصلة عبر أربعة عشر قرناً من الزمن. ونود أن ننكر هنا الى أن مسألة النجاسة هي عبارة عن موروث قديم لدى بلاد الرافدين كما تم التطرق إليها في الفصل الاول. وقد اختلف علماء الدين والفقهاء حول من عليه نفع الجزية، فعند أبي حنيفة النعمان: تضرب على كل فرد من نمي ومجوسي وصابى وصرىي إلا على مشركي العرب وحدهم، بينما عند الشافعي لا تؤخذ الجزية من مشركي العجم أيضاً، وقد ذلك ابن القيم في " زاد المعاد" (5).

أما مقدار الجزية فعند أبي حنيفة النعمان: يؤخذ في أول كل سنة من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهم، ومن المتوسط في الغنى ضعفها، ومن الكثير ضعف الضعف اي ثمانية وأربعون درهماً. ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيراً كان أم غنياً، وكان له كسب أو لم يكن.

أما الفيء فهي كما أسلفنا من الغنائم التي يأخذونها صلحاً بلا حرب ولا قتال. وهي لرسول الله خاصة يرضه حيث يشاء، وصار حكمه حكم الخمس من

(1) سورة التوبة، الآية 28.

(2) سورة التوبة، الآية 28.

(3) سورة التوبة، الآية 28.

(4) الزمخشري "الكشاف" تفسير الآية 29 من سورة التوبة.

(5) ابن القيم " زاد المعاد"، 223/3-224.

الغنيمة، حيث تؤخذ لرسول الله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل. بينما يؤخذ الفياء لمحمد فقط. ومثال على ذلك نذكر فذك وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة مرحلتان أو ثلاثة، وفيها عين فوارة ونخيل كثير كما جاء في "معجم البلدان"<sup>(1)</sup>.

وقد وقعت بين المسلمين بعد وفاة النبي محمد منازعات طويلة من أجل فذك استمرت الى عهد المأمون.

وقصة هذه القرية ان رسول الله (ص) لما حاصر اهل خيبر وفتح حصونها، ولم يبق إلا ثلاث حصون وإشدت بهم الحصار، أرسلوا إليه ان ينزلهم عن الجلاء، وبلغ ذلك اهل فذك، فحاقوا وأرسلوا الى رسول الله أن يصلحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم الى ذلك، فكانت فذك ملكا خالصا لرسول الله<sup>(2)</sup> بالمقابل.

وكذلك أموال بني النضير فابتها كانت فينا لرسول الله لأنه بعدما حاصره مدة يسيرة صالحهم على الجلاء، وإن لهم ما حملت الابل من اموالهم إلا آلة الحرب<sup>(3)</sup>. وقد اختلف الفقهاء في الفئ هل كان ملكا لرسول الله او لم يكن. كما جاء في مذهب أحمد وغيره، فقد قال ابن القيم: ان هذا النوع من الاموال هو السهم الذي وقع بعده فيه من النزاع ما وقع الى اليوم، وقال أيضا: لولا إشكال أمره عليهم لما طلبت فاطمة بنت رسول الله ميراثها من تركته وظنت أنه يورث عنه ما كان ملكا له كسائر المالكين. ولما علم ذلك الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ومن بعده من الخلفاء الراشدين لم يجعلوا ما خلفه من الفئ ميراثا يقسم بين ورثته. بل دفعوه الى علي والعباس يعملان به عمل رسول الله حتى تنازعا فيه وترافعا الى أبو بكر و عمر. ولم يقسم أحد منهم ذلك ميراثا ولا مکتا منه عباسا ولا عليا<sup>(4)</sup>.

وقد جاءت مصارف الفئ مذكورة في القرآن الكريم وذلك في سورة الحشر بقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى قلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمسكين وإبن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما أتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فأتتهوا وأتقوا الله إن الله شديد العقاب - للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصديقون \* والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم...)، الى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم...)<sup>(5)</sup>

(1) ياقوت الحموي: "معجم البلدان" دار صادر- بيروت 238/4-239.

(2) سيرة ابن هشام" عن ابن اسحاق"، 337/3، السيرة الحلبية، 41/3.

(3) السيرة الحلبية، 226/2.

(4) ابن القيم" زاد المعاد" 220/3-221.

(5) سورة الحشر، الايت 7-10.

الى آخر الآية. وخالصة القول ان الفئ حكمه مثل حكم الخمس من الغنيمة يوزع لأربع جهات هم نولو القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل فيكون لكل واحد منهم خمس الخمس و يشاركهم فيه غيرهم من المهاجرين والانتصار وأتباعهم. وقال عمر بن الخطاب فيما رواه عنه أحمد: ما أحد أحق بهذا المال من أحد، والله ما من أحد إلا وله من هذا المال نصيب إلا عبد مملوك، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاءوه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته، والله لنن بقتيت لهم لياتين الراعي بجبل صنعاء من هذا المال وهو يرعى مكانه<sup>(1)</sup>. إن ما تركه النبي من مال وفدك كانت موضع خلاف بين المسلمين لفترة طويلة زادت في الفرقة والجدل والعداوة بين الطوائف الى وقت قريب.

يتضح مما تقدم أن هناك ثروة كبيرة قد جمعت ومكنت الدولة من النجاح والازدهار وساعد في توزيع تلك الثروات البسيطة من العيش بأمان أكثر، بالمقارنة عما كانوا عليه في عصر الجاهلية، أيام كانت المنطقة غير موحدة وتعدج بالقبائل البدوية المتصارعة فيما بينها. ولم يكن الفقير وضعيف الحال أن يجد مكاناً له في ضمان العيش والاستمرار بالبقاء خاصة في سنين القحط وتقشي الامراض السارية. ولم يعد لعادة وأد البنات حاجة للاستمرار في ممارستها لتوفر الاطمئنان والضمان في العيش مهما كانت الظروف قاسية في الجزيرة. ويقدر كل تلك المنافع وغيرها كانت هناك مشاكل تولدت للدولة الإسلامية الفتية لم تكن في الحسين يمكن إدراجها على النحو الآتي:-

- 1- لم توضع آلية معينة في جمع الزكاة حيث لم يكن لديهم حسابات وسجلات بالايراد كما معمول به لدينا في الوقت الحاضر، وكان الامر يعتمد كلياً على الضمير الناشيء من درجة الايمان بالقيم والمبادئ الإسلامية السامية والتي كانت حديثة العهد ولم يستوعبها جميع من دخل في الإسلام لذلك فإن عملية جمع الثروة الى بيت المال كانت تشوبها الكثير من الخلل وتؤدي الى خلافات وحساسية وعداوات بين الناس.
- 2- لقد كان جمع المال الوفير مصدر ضعف للدولة حيث أيقظ منافع فردية خاصة كانت نائمة وتبه مآرب كانت غافلة، ولفت اليه نفوس كانت لا تفكر إلا في الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب سواء أكان في عصر الرسول محمد وما بعده من أيام الخلفاء الراشدين والدولة الاموية وغيرها، فتوناً من الترف وخفض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها، ثم عودهم إليها، ثم أخذهم بها اخذاً، إلا قلة

(1) زاد المعاد: 2/13.

قليلة جداً إستائر الدين بها من دون الدنيا وشغلها التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات<sup>(1)</sup>.

3- لم توضع آلية ومؤشرات ثابتة في طريقة توزيع الثروة، فإن تحديد الفقير والمحتاج والمسكين وغيره كانت تتم من خلال تقدير وإدعاء الأفراد أنفسهم، وهذا يؤدي حتماً إلى نشوء التنافس والحسد مهما بلغ حسن هذا التوزيع من عدالة وحكمة. لأن الأفراد غير متساويين في المدينة، فمنهم المهاجرين الذين يستأثرون حتماً في الثروة، والانصار وهم أهل المدينة الاصليين يعتبرون أنفسهم أحق من غيرهم في الثروة، وناهيك عن التوزيع القبلي والعشائري الذي كان مستشرياً ومؤثراً في ذلك العصر أكثر من أي فترة أخرى. ولم تظهر أي مشكلة من هذا القبيل في أيام الرسول محمد ولا في عصر الشيخين، بينما ظهرت واضحاً بعدها في عصر عثمان وما تلاها. يقول طه حسين " أن الابتسام للمال يُعري بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبواباً من الطمع لا سبيل لإغلاقها. وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البقي، ووجد معه زميل آخر هو التنافس، ووجد زميل ثالث هو التباغض، والتهالك على الدنيا وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذي يحرق القلوب للذين لم يتح لهم من الثراء ما يتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان السرّ بين أولئك وهؤلاء"<sup>(2)</sup>، وهذا ما سنجده في بحثنا في الفترة التي تلت وفاة الرسول محمد(ص).

4- إن توفر المال بكثرة إنما يدعو للتفكير في المزيد من الاستعداد للتوسع في الفتوحات لجتي المزيد من الغنائم والفيء لذلك كانت تصرف الاموال في شراء المعدات الحربية والتدريب وزيادة القدرة العسكرية، والتي لا شاغل للمسلمين الاوائل غيرها، وبالتالي المزيد من الضحايا والمشاكل الناجمة عن سفك الدماء وغير ذلك. إستمرت الفتوحات الاسلامية مشغولة في التوسع والحروب وجتي الغنائم، دون الاهتمام بالمعرفة والعلوم وتحسين الاوضاع من خلال إقامة مشاريع ري وغير ذلك من المشاريع التي إهتمت بها الدولة العباسية بعد أن توقفت الفتوحات. بالاضافة لذلك فإن الفتوحات رغم كونها سمة العصر في ذلك الوقت ولا إعتراض على ذلك، إلا أن تلك الفتوحات أدت الى زيادة الثروة وأن زيادة مثل هكذا ثروة أدت الى تكوين طبقة

(1) طه حسين، " الفتنة الكبرى" ج 2 ص 157.

(2) طه حسين، " المصدر السابق نفسه" ج 2 ص 158.

إرسنقراطية متميزة من الاغنياء الذين استأثروا بها لمصلحتهم الخاصة، وإزداد التمايز الطبقي وإزداد الحسد بين الاغنياء وبين من لم تتح لهم الفرصة في الاثراء. وقد ولد ذلك إرثاً ثقيلًا لا تزال نعاني منه من الحسد الذي يحزّ في النفوس بين الاغنياء والفقراء. فالاغنياء لم يأتهم المال عن طريق مهارتهم ونكائهم في التجارة أو مثابرتهم في العمل المثمر وإنما جاء نتيجة لسوء في التوزيع والاستثمار بالثروات القادمة من الامصار والبلدان البعيدة. لقد تغيرت الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد إنتشار الاسلام لكثرة الموارد التي كانت تردهم من كل مكان، وظهرت طبقات من الغنى والفقير أدت فعلها بالنتيجة بالحالة السياسية بعد وفاة النبي محمد (ص) وما سيأتي ذكره في التفصيل خاصة عند الحديث عن الفتنة التي ظهرت في عهد عثمان والتي كان من أهم أسبابها هو رد الفعل ضد إستثمار قریش بأوفر نصيب من الغنيمة<sup>(1)</sup>. أن تغيير الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد الاسلام لم يكن ناجماً عن كثرة الموارد وجني الاموال فحسب بل انها تحولت من منطقة مسيطر عليها إلى أن تكون مركزاً لأعظم إمبراطورية في العالم في ذلك الزمان، وهذا بالتأكيد له مردوداته في إزدهار التجارة في أوسع أرجاء العالم وزيادة متصاعدة في الثروة بالمقارنة عما كان عليه الحال قبيل ظهور الاسلام. وقد نشأت خزينة للدولة تعرف ببيت المال. ولم تكن كل تلك الثروة وكل ذلك التغيير في الحالة الاقتصادية للدولة الفتية ناجماً عن إكتشاف صناعي أو زراعي جديد ولا ثروة معدنية أو نفطية من باطن الارض كما هو عليه الحال في عصرنا الحاضر. ولا إكتشاف أرض جديدة كامريكا أو إستراليا مثلاً ليجنوا منها الخيرات. وإنما كانت كل تلك الثروة وذلك التبدل في الحالة الاقتصادية ناجماً عن إيمانهم بعقيدتهم الاسلامية الرشيدة دون أي تغيير جذري في نمط الحياة العامة.

ولذلك ظل الايمان بالعقيدة أمراً مرتبطاً بالحالة الاقتصادية ورفاهية المجتمع. وبالتالي أصبح التمسك بالعقيدة الدينية يشكل جزءاً مهماً من كيان المجتمع لادب من الدفاع عنه وعدم التفریط بأي من مفرداته. ويعد أن إتضح لديهم البون الشائع بين ما كانوا عليه من حالة إقتصادية بانسة أيام الجاهلية وما آلت إليه الامور بعد إسلامهم. وهكذا هو دائماً الارتباط الوثيق بين المعتقدات والتمسك بها وبين الحالة الاقتصادية والاحوال المعيشية للمجتمع في كل العصور.

(1) محمد عابد الجابري- المصدر السابق ص 213.

وهكذا أيضا لعبت الحالة الاقتصادية دورا هاما في تحديد خارطة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية فيما بعد عندما توسعت لتشمل البلدان العربية وغير العربية، وذلك من خلال ما كانت تعاني منه شعوب تلك البلدان من ظلم واضطهاد إقتصادي في ظل نظام العبودية الجائر وكان الاسلام رحمة بالنسبة لهم بالمقارنة مع كسرى الفرس وقيصر الروم وغيرهم في ذلك العصر.

وهكذا أيضا يمكن تفسير السؤال الذي يتبادر الى الذهن أحيانا ألا وهو لماذا لم يستطع المسلمون من نشر ديانتهم في البلدان الاوربية بثلما استطاعوا من نشره في بلدان المشرق مثلا؟ فقد أصبح من اليسير الاجابة على هذا التساؤل وذلك من خلال كون البلدان الاوربية تتصف بغزارة امطارها وخضرة أراضيها بحيث أنها لم تكن بنفس القدر من الحاجة الى نظم توزيع الثروة بالطريقة الاشتراكية التي جاء بها الاسلام كما أسلفنا في شرحه عن الزكاة وتوزيعها على المحتاجين وغيرهم. بينما أصبحت الديانة المسيحية أكثر رواجاً في تلك البلدان لأنهم اعتادوا عليها وأصبحت جزء من كيانهم السياسي والاجتماعي.

وبينما كانت بلدان المشرق التي تتصف بالصحراوية أو شبه الصحراوية شديدة الحرارة والجفاف وتتصف بنقص الامطار والموارد وبالتالي فإن شعوبهم يصبحوا بأمر الحاجة لتوزيع عادل للثروة، وهكذا فقد كان من السهل عليهم تقبل الدين الاسلامي والتمسك به بإعتباره الاصلح لهم وكما سيأتي شرحه في الفصول القادمة.

وأخيراً يمكن استخلاص ما جاء في الفصل بما ورد في كتاب قصة الحضارة: "لقد نجح محمد (ص) في تحقيق غرضه نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة عبارة عن صحراء جرباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان (على الأغلب) عددهم قليل، كلمتهم متفرقة، بينما أصبحت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماع التعصب والخرافات بقدر كبير، وأقام فوق المسيحية واليهودية والأديان الأخرى القديمة في بلاده دينا سهلا واضحا وقويا وصريحا خلقيا قوامه البسالة والعزة القومية<sup>(1)</sup>، (وهذا ما كانت تطلّبه المرحلة بدقّة). فيما أشار ابن خلدون في مقدمته عن صفات البدو العرب "بأنهم لا يحصل لهم ملك إلا بصيغة دينية، وسبب ذلك أنهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، لما فيهم من صفات التوحش، والغلظة والأنفة وبعُد الهمة

(1) ول ديوانت "قصة الحضارة" الجزء 13-14 ترجمة محمد بران ص 47.

والمناقسة على الرناسة. فقلما تتفق أهواءهم وتتحد منازلهم، إلا إذا أثرت فيهم دعوة دينية، وحصلت لهم بسببها عصبية جامعة، وتبدلت أخلاقهم، وكان الوازع لهم من أنفسهم، فيسهل عند ذلك انقيادهم واجتماعهم، بما يشملهم من الدين المؤلف لكلمتهم والوازع عن تحاسدهم وتنافسهم فيحصل لهم بذلك التغلب والملك. ومع ذلك فإن البدو من العرب أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم، وبراعتهم من نميم الأخلاق، إلا ما كان من صفات التوحش<sup>(1)</sup>. وهكذا قد فعل النبي محمد (ص) في الصدر الأول للإسلام أن ألف قلوبهم ووجد منازلهم بواسطة الدين، وشيد لهم أمر الرناسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وهكذا امتد ملكهم وقوي سلطانهم حتى شمل الأقاليم البعيدة في العصر الأموي والعباسي أيضاً. أما استخدام العنف والقتال في الفتوحات وغيرها فلم تكن سوى نموذج مخفف بالمقارنة عما كان يجري في مناطق أخرى من العالم في ذلك العصر.

إن كل ما ذكر من أعمال عطف حصلت في الصدر الأول للإسلام، لا تساوي شيء بالمقارنة عما كان يجري في الإمبراطوريات الأخرى في العصور الوسطى، وذلك لأن قيمة الإنسان وحياته الدنيوية لم تكن بالمستوى الذي نعرفه في حياتنا في العصر الحاضر، ولم تصل القيم الإنسانية ذلك المستوى ضمن تطور العقل البشري عبر التاريخ. إن تقييم كل حدث أو سلوك تاريخي لا بد أن يبدأ من خلال فهم للمرحلة بكل ما تحتويه من أسباب ومسببات اقتصادية واجتماعية وفكرية كانت سائدة في ذلك الظرف التاريخي.

(1) مقامة ابن خلدون ص151





## **الفصل الرابع**

### **عصر الخلفاء الراشدين**



## الفصل الرابع عصر الخلفاء الراشدين

ليس الهدف في هذا الفصل سرد حوادث تاريخية مفصلة لأن هذه الفترة من عصر الخلفاء الراشدين لا تختلف كثيراً عن سابقتها في عصر حياة النبي محمد (ص) وتعتبر جزءاً مكملاً وتقع أيضاً ضمن عصر فجر الإسلام (وقد أخذت المزيد من البحث والتقصي في كل الحوادث التي جرت لها من أهمية) ولكننا سننتقي فقط بعض الأحداث لمناقشتها لما لها من تأثير مباشر في حياتنا الحاضرة من خلال ما تركته من بصمات مؤثرة ظلت عالقة في أذهان الناس على اعتبار أنها البناء الأساسي للدولة الإسلامية، أو ما يسمى بالحجر الأساس للدولة الإسلامية. لذا ازدادت الدراسات والكتب التي تروي الأحداث بتفاصيلها بنفس القدر الذي كانت عليه في عهد الرسول محمد (ص).

وما كاد الرسول الأعظم محمد (ص) أن يلحق بالرفيق الأعلى حتى أحذقت الأخطار بالرسالة التي وقف حياته في توحيد بلاد العرب دينياً وسياسياً. وكانت أول مشكلة تتمثل بمن سيخلف الرسول محمد (ص) في رعاية هذه الأمة لعدم وجود قواعد وأسس وآليات واضحة في الاختيار. وفي المدينة نفسها أحدث نبأ وفاة الرسول الذي لم يتوقعه أحد اضطراباً هائلاً شغل الناس عن كل شيء، حتى عن جثمان الرسول محمد (ص) نفسه، فلم يدفن إلا في اليوم التالي حيث كان راقداً في بيت زوجته عائشة<sup>(1)</sup>. والحق إن جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي كبتها في حياته، وذلك من خلال نفوذه الأدبي القوي لم تلبث أن نرت قرنهما، فمن ناحية كان عدد المناققين لا يزال كبيراً جداً في المدينة نفسها. ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون يتوقون إلى التحرير من سلطان الأغلبية المتمثل بالمهاجرين، ليصبحوا سادة موطنهم الأصلي كرة أخرى. ولم يكن سوى العمل بما جاء بالقرآن الكريم { ... وأمرهم شورى بينهم... }<sup>(2)</sup>. وقد وفق أصحاب الشورى ممن عينهم النبي محمد السابقون، أن اقتنعوا الناس بالاعتراف بأبي بكر الصديق.

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" المصدر السابق، ص 83.  
"المقصود بالمنافقين هنا هم أولئك الذين أعلنوا إسلامهم بالقول فقط ولكنهم يضمرون السوء

للإسلام والمسلمين في قلوبهم.  
(2) سورة الشورى، الآية 38

والذي كان يحظى بنفوذ كبير مع عمر بن الخطاب، بأن يكون خليفة للمسلمين من بعده، وذلك بعد الاجتماع الذي جرى في سقيفة "بني ساعدة" المشهور ولم يحظى المرشح الآخر عن الأنصار وهو شيخ الخزرج - سعد بن عباد - لتردد الأوس في منحه التأييد<sup>(1)</sup> ولم يعد يوسع أحد من الأنصار والمهاجرين إلا إن يبايعوا الأمير الجديد، على الرغم من الخلاف الشديد الذي ظهر منذ ذلك الحين في أحقية الخلافة للإمام علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة، وقيل إن هناك توصية واضحة من الرسول محمد (ص) بتلك الخلافة من بعده، وسميت تلك الوصية "حديث غدير خم" الذي يقول فيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) وهو من الأحاديث المتواترة طبقاً لتخريج الذهبي<sup>(2)</sup> وذلك في يوم البيعة والذي يعتبر يوم عيد لدى الشيعة سمي بعيد الغدير. ولم تتحقق تلك الوصية باعتبار إن الإمام علي كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر وقد تنازل هو أيضاً وبإيع الخليفة أبو بكر منعاً للفتنة بين المسلمين، إلا إن ذلك لا يمنع من حصول فتنة خفية من عدم قناعتهم بذلك، ولا تزال آثار ذلك موجودة في أذهان بعض المسلمين رغم مرور السنين الطويلة عليها. إلا إنها لم تؤدي إلى عمل فعلي في حينها، وقد سارت الأمور على ما يرام نظراً للأخطار والأعباء الثقيلة التي أدركها الجميع، والتي تقتضي التعاون والتكاتف بين الصحابة من أجل تجاوز تلك المرحلة.

لقد ظل الجدل قائماً إلى يومنا هذا ولم تحصل القناعات لحد الآن لدى بعض الفئات من المسلمين بأحقية الإمام علي في خلافة النبي محمد، وهذا يدل على مدى إدراكهم بأهمية الخلافة والقيادة المخصصة حقاً لبناء دولة تقوم على أسس العدل والحق والمبادئ الأساسية الأخرى التي جاء بها الإسلام. ولكن الذي مضى قد مضى ولا يمكن إرجاعه، وما علينا سوى دراسة الماضي والاستفادة من الدروس التي خلفها.

## 1- فترة حكم أبو بكر الصديق وحروب الردة:-

إن أهم حدث حصل في عصر الخليفة الأول الذي سار على نهج النبي محمد (ص) وطبق الشريعة الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هي حروب الردة. فقد حصلت موجة كبيرة من الارتداد عن الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول، ما لبثت أن طغت على الحياة السياسية والاجتماعية في الجزيرة العربية<sup>(3)</sup>. والواقع إن الدوافع الدينية لم تكن مسنولة عن هذه الموجة إلا نادراً،

(1) هادي الطولي "خلاصت في المسئلة والفكر الميملي في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 54.

(2) أين كثير "البداية والنهاية" ج4، ص 214.

(3) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" المصدر السابق.

وكل ما في الأمر إن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبدية في المدينة. وكانوا يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وقد استاءوا خاصة بعمال النبي محمد (ص) الذين كان يبعث بهم في السنوات السابقة إلى كثير من القبائل ليعلموهم الدين الجديد ويجمعوا منهم الزكاة. فقد كان هؤلاء مصدر إزعاج في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتع بكامل حريتها واستقلالها في أمكنتها الخاصة. وكان النبي قد شغل نفسه في أيامه الأخيرة بأعداد الجيوش للانتقام من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين في مؤتة. فوجد أبو بكر نفسه مسئولاً عن إنقاذ خطة النبي الأخيرة هذه، على الرغم من إن الأنباء المخوفة عن شيوخ الاضطراب في أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة. وهكذا وجه أبو بكر نخبة من جيوش الإسلام إلى الشمال بقيادة أسامة بن زيد، ولكن أسامة وجنوده قضا شهرين خارج المدينة للتهيئة وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين في مركز لا يساعدها كثيراً على الدفاع عن نفسها. والواقع إن بني أسد وخطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة. وعهد بالقيادة إلى (سيف الله المسلول) المجرّب، خالد بن الوليد الذي هزم كلتا القبيلتين عند بئر بزاخة هزيمة حاسمة اضطرتها إلى الاستسلام في الحال. ومما يستحق الذكر هنا ما حدث من فتنة بني حنيفة في اليمامة والتي كانت أشد خطراً من سابقتها. ففيما كان النبي على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل يدعى مسلمة. وأدعى النبوة، وبعد وفاة الرسول محمد (ص) طالب حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوق القائمة (أي دولة المدينة). وكان مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتكسب تشديداً خاصاً، وخفف من وطأة الصيام وحل الخمر، وحض إتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي إلى أن يرزق ابناً نكراً، فحسب، ويقال إن خطبه تقع في كثير من أصدائها على أفكار مسيحية أو فيها كثير من التشابه مع المسيحية<sup>(1)</sup> وقد كان لهذا الرجل على الرغم من سذاجته، أثر كبير في نفوس إتباعه حتى إن كثيراً منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه. ولا ندري لماذا أطلق عليه بعض الرواة اسم "مسلمة الكذاب"، فاسم مسلمة هو للتصغير والاحترار كما كان العرب يستخدمونها للأشخاص الذين لا يكونون لهم الاحترام أما الكذاب فأغلب الظن أنها كانت بسبب مخالفتها للتعاليم الإسلامية. وفي شمال الجزيرة أضرمت امرأة تدعى (سجاج) نيران حركة تشبه حركه مسلمة بين أفراد قبيلة تميم على مقربة من الحدود الفارسية. قد ظهرت بين أخوالها بني تغلب في

(1) محمد عابد الجابري- "العقل الإسلامي العربي"، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ج3، ص 201 ) (1990).

العراق، وكانت النصرانية واسعة الانتشار هناك، حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد من إتباعها إلى أنسابها من قبيلة تميم الذين كانوا يحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب، فهم يؤلهون الشمس. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت إلى الجنوب، وعقدت حلفاً مع مسلمة، ولكنهما لم يوفقا إلى توحيد قوى إتباعهما في نضال مشترك ضد المدينة. وهكذا لم يوفق الحليفان واقتربا، فرجعت سجاج إلى العراق حيث اختتمت نشاطها العام، وماتت بعد مدة على الإسلام. والواقع انه عندما جاء خالد بن الوليد إلى أراضي تميم تقدم إليه القوم بالطاعة في كل مكان تقريباً، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا مالك بن نويرة سيد بني يربوع من حنظله الذي أرتد عن الإسلام، عقب وفاة النبي مباشرة. ولكن خالد بن الوليد ما لبث إن طوقه وجنوده فأضطر إلى الاستسلام أيضاً وأمر خالد بقتله وقتل جميع إتباعه طمعاً منه في زوجه مالك الجميلة على ما تقول الرواية.

وبعد إخضاع تميم انتقل خالد إلى اليمامة لقتال أصحاب مسلمة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية بقيادة عكرمة. وسار مسلمة بعد ذلك إلى إن بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة في عقريه، لم تعرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قبل<sup>(1)</sup>. ولكي يلهب خالد طموح رجاله، فقد جعل كلا من المهاجرين والأنصار والبدو يحارب مستقلاً عن الآخر. وكانت قوة مسلمة التي تتألف من بني حنيفة تفوق قوة خالد عدداً. فقاتلت قتلاً شديداً، فأنكش المسلمون وأشرفوا على الهزيمة. ولكن سخرية بني حنيفة بهم دعتهم إلى أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد، فوقفوا أولاً إلى أن يضعوا حداً لتقدم العدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبه شيئاً فشيئاً. فلما رأى بني حنيفة إن الهزيمة لا بد من وقوعها تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء إن يجدوا في حيطاتها المنفعة ما يقوي مركزهم ويقيهم من هجوم المسلمين، إلا إن هذا العمل انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على الحديقة وسميت بحديقة الموت بعد ذلك، وفتكروا بأعدائهم فتكاً ذريعاً لم ينج منه أحد، حتى مسلمة نفسه. ومن الجهة الأخرى لم تكن خسائر المسلمين يسيرة في تلك الحرب، ويقال إن عدد المستشهدين من المهاجرين والأنصار وصلت إلى سبعمائة رجل، بينهم عدد كبير من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام وحفظة القرآن. وهكذا تم القضاء على تلك الردة التي كلفت المسلمون ثمن غالى. وأستتب الوضع في الجانب الغربي.

إما في الجانب الشرقي من الجزيرة العربية، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج والتي تم إخضاعها إلى سلطة المدينة قبيل وفاة النبي، فقد جرت محاولة أخرى للتخلص من سلطة المسلمين. ففي هجر، العاصمة، تزعم

(1) كلر بروكلمان- المصدر السابق 86.

حركة الردة رجل من نسل المناذرة الذين سبق لهم أن بسطوا سلطانهم على هذه المقاطعات. ولكن العلاء وهو الذي عينه النبي محمد نفسه على تلك المنطقة، اعتمص في حصن يقع إلى الشمال من هجر، وثبت هناك يقوم المرتدين حتى أقبل خالد بن الوليد لنجدته بعد أن قضى على مسلمة، وسار بنفسه إلى هجر فأخضع الثورة في غير مشقة. أما سكان السواحل والذين كان معظمهم من الفرس فقد أبدوا مقاومة أطول وأعنف. والواقع إن زعيمهم فيروز ظل معتصماً في الزارة الواقعة على ساحل البحر (القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر. وعندئذ فقط استطاع عامل المنطقة، العلاء أن يكرهه على الاستسلام بعد أن قطع عنه الماء. أما إذا انتقلنا إلى عمان فنجد إن السكان، ومعظمهم من صيادي الأسماك وقرصان البحر، فقد وقفوا بالاحتفاظ باستقلالهم طوال العصور الوسطى كلها تقريباً، حتى عهد سلاطين مسقط الحاليين، وفي ذلك الحين نشبت ثورة على سلالة الجلندي الحاكمة التي سيطرت على تلك المنطقة فأغتمها المسلمون فرصة للتدخل. وكان الملك عمرو قد دخل في الإسلام، ولكن الأعراب في الداخل ثاروا على جبهة الضرائب الذين وجههم إليهم، بناءً على طلب من الحكومة المركزية. وطلب أبو بكر إلى عكرمة أن يخف لنجدة الملك فأضطر الأعراب إلى الخضوع لقوات المسلمين المشتركة. وهكذا انتهت حروب الردة في فترة قصيرة بعد وفاة الرسول، وقد تكبد المسلمون وغير المسلمون خسائر فادحة، وكانت حرباً ضروس لا يستهان بها عبر تاريخ الأمة الطويل. أما سرعة انتهاء الحرب فيمكن تفسيرها بمقدار ما استطاع المسلمون أن يلمسوا الفوائد التي حصلوا عليها في دخولهم الإسلام، فقد توحدت الأمة، وصار لها شأن كبير وتحسنت أحوالهم الاقتصادية بشكل كبير، بالإضافة إلى الزخم المعنوي العالمي في الإيمان بقضيتهم الدينية والجهاد في سبيل الله والجنة وغيرها من المرغبات على القتال. كما إن الحروب والغزوات التي شنوها في عصر النبي محمد (ص) لم تكن قليلة، فكما ذكرنا أنها كانت سبعة وعشرون غزوة خلال عشر سنوات من الهجرة في المدينة تمت بقيادته، مما اكتسبهم خبرة ومهارة عالية على القتال. ولكن لنعود إلى الأسباب الحقيقية وراء حروب الردة لتعلق ذلك في موضوع البحث فيمكن إن تقسم الأسباب إلى العوامل التالية:-

1- إن سرعة انتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة عموماً وباستخدام السيف لا يمكن إن يجعل الجميع مؤمنين بالدين الجديد إيماناً حقيقياً ومن الأعماق. فعلى الرغم من مبررات استخدام السيف لأغراض الدفاع أو للتوسع في نشر الدعوة، فإن ذلك لا بد وأن يترك الكثير من الضغائن والأحقاد في النفوس ويخلق بيئة من الانتقام والثأر للذين قتلوا أو اضطهدوا بغير ذنب. وكان ذلك لا بد وأن يحدث بغياب التحقيق والقضاء وحكم القانون والحاكم كما هو معمول في

عصرنا الحالي. بالإضافة إلى تراكم تلك الأحقاد الموروثة منذ العصر الجاهلي.

2- إن الانتصار الهائل الذي حققه النبي محمد (ص) في دعوته إلى الإسلام وسرعة انتشاره قد فتح الشهية للعديد من الذين يجيبون السجع العربي من الادعاء بالنبوة وطرح أفكار جديدة تستهوي بعض الناس. وكما نكرنا في الفصل الثاني كيف كان عدد من المفكرين ظهوروا في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام، فقد استمر هذا الظهور في فترة الدعوة وبعدها. ونذكر منهم أمية بن أبي صلت الثقفي وقيس بن ساعدة الأيادي، وفي اليمن ظهر كلا من شعيب بن مهند وعمرو بن الحجر الأزدي وصالح بن الهميسع وحظله بن صفوان وأسعد أبو كرب الحميدي، وسجاح التميمية والأسود العبسي وكل هؤلاء كانت لهم كتب موثقة تاريخياً في السجع يمكن الرجوع إليها، كما مفصل في كتاب محمد عابد الجابري - العقل السياسي العربي<sup>(1)</sup>. ولما كانت حروب الردة تتمثل في تراجع وتمرد على مستوى العقيدة. فإن وفاة الرسول محمد (ص) وما تبعها من انقطاع نزول الآيات السماوية بشكل مفاجئ، أحدث فراغاً كبيراً في عدم التهيؤ وممارسة اتخاذ القرارات الصائبة السريعة حسب مقتضيات الحاجة، كما كان يحدث في السابق. وكان ذلك قد ساعد في حصول فوضى. كما استغل البعض (مثل مسلمة) في كسب الناس لصياغة بعض التعديلات على الفرائض الدينية كأن يجعل الصلاة مرتين في اليوم بدلاً من خمس مرات. وإن يحل لهم الخمر والزنى، وتخفيف في بعض أحكام الصيام وغيرها<sup>(2)</sup>. وكل تلك التعديلات في نظرة تستهوي الكثيرون في حينها.

3- إن عمال الرسول في أرجاء الجزيرة لم يكونوا من الكفاءة والقدرة في إقناع الناس بالدين الجديد وبأحكامه، وقد كانت أسس الدولة قائمة بالدرجة الأساس على درجة الإيمان الراسخ في الدين والمعتمد على تحكم الضمير في إحقاق الحق وإنصاف الناس وكسب رضاهم ولكن ذلك لم يحصل، لسبب إن بعض هؤلاء العمال لم يكونوا بداخلهم بمستوى ما يعهد إليهم من مهام، مما أدى إلى اغتنام الفرص لبعض الناس من الانتفاض عليهم حال وفاة الرسول محمد وحصلت الفوضى المعروفة بحروب الردة. إن التوسع الهائل في الدولة وبفترة قصيرة لم تكن كافية لكسب الخبرة والقدرة على اتخاذ قرارات صائبة بالإضافة إلى ضعف الاتصال بين الأمصار والمركز ووجود بعض المنافقين الذين لم يدخلوا الإسلام إلا لمصالح ذاتية خاصة لا صلة لها بالإيمان العميق للمبادئ التي جاء بها الإسلام.

(1) محمد عبد الجابري - (العقل السياسي العربي) ج.3. مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت (1990)، ص 200

(2) المصدر السابق، ص 216.



إن القضاء على كل التمرد والعصيان الذي حصل في الجزيرة العربية وفي فترة قياسية قد حفز الخليفة أبو بكر بتوجيه جيوشه نحو الخارج لزيادة الفتوحات. وكان المثنى بن حارثة قد شرع الغزوات في جنوب العراق على الحدود الفارسية فاتحاً الحيرة والتي سقطت في أيدي المسلمين عام 633 م. كما وجه جيشاً بقيادة عمرو بن العاص سنة 634 م للهجوم على جنوب شرق فلسطين والآخر بقيادة شرحبيل بن حسنة للهجوم على مقاطعة موآب (البلقاء في الأردن) حتى إذا تمت هذه الانتصارات للمسلمين في الغرب أسرع خالد بن الوليد من العراق إلى الأردن وتولى أمرة الجيش العليا هناك، ومن ثم سار لمساعدة عمرو. وبينما كانت المعارك تدور في الاتجاه الشمالي الشرقي والغربي من الجزيرة توفي الخليفة أبو بكر في المدينة (رحمه الله)، فتولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب ويأبىه الجميع بدون مشاكل بعد إن رشح أصلاً من قبل الخليفة الأسبق أبو بكر قبل وفاته ولكن هذا الأمر غير مؤكد حسب الرواة.

## 2-خلافة عمر بن الخطاب:-

كان عمر بن الخطاب من أقوى المهاجرين وأعلامهم مقاماً، وكان يتمتع بسمة ومقام وجاه في الجزيرة العربية كلها، وقد تميزت خلافته بالتطبيق المتميز لأحكام القرآن والسنة النبوية من حيث تطبيق العدل والحق والمساواة، وحققت انتصارات كبيرة في فتوحاته المتميزة في العراق والشام ومصر. ولا مجال هنا في تكرار تفاصيل ذلك فهي موجودة بغزارة في كتب التاريخ الإسلامي يمكن الرجوع إليها لزيادة التفاصيل والمعرفة. ورغم إن سيرة الشيخين قد أصبحت جزءاً من الأسس التي يستند عليها البعض في تسيير أمور الدولة فيما بعد، إلا إن الحق يقال إن المشاكل التي واجهت عمر خلال الأثني عشرة سنة التي حكم فيها المسلمين لم يكن في ميسوره إن يبتدع نظاماً للدولة أشد أحكاماً. وظلت مشاكل النظام الدستوري غائبا عن الدولة الإسلامية إلى يومنا هذا دون إن ينتبه إليها أحد ويبتذل مجهوداً متميزاً لوضع ضوابط في اختيار الحاكم عن طريق رضا غالبية الرعية ومحاسبة هذا الحاكم وإقصاءه في حالات الضرورة. ومن المفيد هنا إن نذكر بعض الأمور الهامة التي حصلت في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، لما لها من أهمية ضمن موضوع بحثنا هذا. فقد نقل اليهود الذين سمح لهم النبي محمد بالبقاء في خيبر وبقية المناطق، إلى سوريا وظلوا متمركزين في منطقة فلسطين منذ ذلك الحين. وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربياً بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من مواليها<sup>(1)</sup>. وهكذا انتظمت الإمبراطورية الثيوقراطية<sup>(2)</sup>\* التي نشأت بعد وفاة النبي محمد (ص) عن الدولة القومية التي رفع قواعدها بطبقتين متميزتين دينياً، وبالتالي سياسياً. فقد كان المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضاً طبقة المحاربين. وإذا كان العرب

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" ص 107.  
\* الثيوقراطية تعني سلطة الدولة الدينية أي أن الخليفة هو أعلى مرجع ديني في نفس الوقت.

يؤلفون طبقة المحاربين فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية، هم الرعية، وكلمة الرعية هنا مشتقة من القطيع وجمعها رعايا، كما كان يدعوهم تشبيه سامي قديم كان مالوقاً لدى الآشوريين. وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة، كانت الرعية تدفع الجزية لإعانة المسلمين. وكانت الدولة قليلة الاهتمام بشؤون الأعاجم الداخلية. وكان الأساقفة هم الذين تولوا شؤون الرعية في البلدان التي كانت المسيحية منتشرة بنسبة عالية. أما في العراق وبلاد فارس فأحتفظ الدهاقنة أو رؤساء الأقاليم بمكانتهم العليا. ولابد لنا من ذكر حادثة توزيع الغنائم وطريقة التعامل مع السبائيا الذين جلبوهم المقاتلين بعد معركة القادسية المشهورة إلى الخليفة عمر وكيف تصرف معهم كما جاء في كتاب الرصافي " الشخصية المحمدية"<sup>(1)</sup> : " لما فتح سعد بن أبي وقاص مدينة طيسفون المسماة حديثاً بالمندان، والتي كانت عاصمة الدولة الساسانية، أرسلت الغنائم التي اغتتمها جيش المسلمين إلى المدينة، وكان فيها مال كثير من أموال كسرى، ومن جملة ذلك سواراً لكسرى وتاجه ومنطقته، وبساط كبير، وكان هذا البساط بمساحة ستين ذراعاً منظوماً باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان أزهار الربيع، وكان يبسط كسرى في إيوانه ويشرب عليه إذا عمدت الزهور، وأرسلت مع الغنائم السبائيا أيضاً، وهن بنات كسرى، وكن ثلاثاً وعليهن من الحلي والحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه. وأمر عمر بن الخطاب بالمال الذي جن به إن يصب في صحن المسجد، وأخذ يفرقه على المسلمين، وعند ذلك دعا سراقه بن مالك<sup>(2)</sup>، وقال له أرفع يديك والبسه السوارين، وقال له الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس، والبسهما سراقه. ثم قطع البساط إلى عدة قطع وفرقه بين المسلمين، فأصاب علي بن أبي طالب منه قطعة باعها بخمسين ألف دينار". إن حادثة تقطيع مثل هكذا بساط في ذلك العصر قد يكون عادياً لدى البعض، ولكنه بالنسبة للمختصين من الباحثين في عصرنا خاصة ممن يهيمه أمر تاريخ صناعة السجاد اليدوي والأصباغ والحياكة فإنها تعتبر كارثة تاريخية لأن مثل هذه السجادة كانت تعتبر إحدى المعجزات الفنية الرائعة التي تستحق الدراسة والكشف عن كيفية صناعتها بهذا الحجم وماهية الأصباغ المستخدمة فيها للمحافظة على مجهود فكري إنساني قد يضيف إلى سلسلة المعارف كما كبيراً من المعرفة والتقنية. وكان بإمكان الخليفة عمر أن يأمر بالاحتفاظ بها رمزاً للعرب على نصرهم على الساسانيين، ولكن قد أغنى المكتبات العلمية العالمية بالكتب التي تنقل تراث الأقدمين وما وصلوا إليه من

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية" ص 263.

\* مرافقة بن مالك هذا كان له قصة شهيرة في مساعدة الرسول في هجرته إلى المدينة وإخفاؤه عن أنظار قريش.

تقنيات رائعة في مجال صناعة السجاد وصناعة الأصباغ الطبيعية ذات الأصل النباتي والحيواني التي كانت تستخدم للأصواف في ذلك الزمان. إن عملية تقطيع تلك السجادة الثمينة إلى قطع صغيرة قد أضاعت فرصة لا تعوض في بناء قاعدة معرفية وتقنية لحرقة أصيلة في ذلك العصر.

وعوداً إلى توزيع السبايا" فقد جيء ببنات كسرى الثلاث، فوقفن بين يديه وأمر المنادي أن ينادي عليهن، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمين من ثمنهن، فامتتنع من كشف نقابهن، ووكزن المنادي في صدره، فغضب الخليفة عمر وأراد أن يطوهن بالسوط وهن يبكين ولكن الإمام علي قال له: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإني سمعت رسول الله يقول: "أرحموا عزيز قوم ذل وغني قوم أفقر". فسكن غضبه، فقال له علي: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق، فقل له عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن، فقال: يقومن، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن، فقومن، وأخذهن علي، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، فجاءت منه بولده سالم، ودفع الثانية لمحمد بن أبي بكر فجاءت منه بولده القاسم، ودفع الثالثة لولده الحسين فجاءت منه بولده علي الملقب بزین العابدين<sup>(1)</sup>. ويستطرد الرصافي في القول: "إن إساءة عمر بن الخطاب إلى بنات كسرى حين أغلظ لهن في القول والفعل وتقسيمه تلك الغنائم وتفريقها بين المسلمين بعد تمزيقها شر ممزق إذ كان بالإمكان الاحتفاظ بتاج كسرى ومنطقته وبساطه لتكون عند العرب مفخرة لهم من مفاخرهم التاريخية. ولكن عمر لم يكن فيما فعله من بيع البنات وتقسيم الغنائم إلا تلميذاً للنبي محمد (ص). فقد كان يطبق تعاليم الإسلام وسيرة النبي بدقة، ولم يحرف عنها بأدنى شيء. فكما أسلفنا في الفصل الثالث فإن النبي محمد (ص) قد أباح سبي النساء في حروبه وجعلهن ملكاً تحت رق من سباهن، إن شاء وطأهن، وإن شاء ياعن، وأحل الغنائم لإتباعه، وأوجب تقسيمها عليهم بعد أخذ خمسها لله وإرسوله، كما أسلفنا (أنظر الفصل الثالث ص169)، فلا لوم على عمر فيما فعله، وربما لو كان علي مكان عمر لما فعل غير ذلك (حسب ما يظن الرصافي على الأقل). أما إن عمر غضب على بنات كسرى لما امتتنع من كشف نقابهن وأراد ضربهن بالسوط، فليس بأمر جلل، لأن المرأة الحرة سواء أكانت من بنات الملوك أم من بنات السوق بعد إن تكون ملكاً، وتقف موقف الأمة، تباع كما يباع المتاع ولا يكون ضربها بالسوط أمراً غريباً. كانت تلك عادات وسلوك القوم في ذلك العصر. وربما تكون غريبة علينا لأننا نقلب الأوراق عبر أربع عشرة قرناً، وهذا الفارق الزمني ليس بالقليل. الأمر الثاني الذي يستحق الذكر هنا، هو إن الخليفة عمر قد أمر بحرق جميع الكتب الدينية الموجودة ضمن

(1) السيرة الحلبية ج2، 45.

الإمبراطورية الإسلامية من غير القرآن والسنة النبوية. ومن بين تلك الكتب كان الأفتسا (أو الزنداقتا) <sup>(1)</sup>\* وهو كتاب الزرادشتية. كان مكتوباً على جلد البقر أو الجاموس بأحرف من ذهب وباللغة الفارسية، ويتألف هذا الكتاب من 150 ألف قطعة متخصصة في القصص والأحداث التاريخية للأولين وفيها من الأحكام والتعاليم الدينية يمكن إن تعتبر من الكنوز التراثية الثمينة جداً في تاريخ الإنسانية عموماً. ويقال إن عمر بن الخطاب بعد فتحه بلاد فارس (أو جزءاً كبيراً منها) وكان يعرف لغة الفرس، استطاع أن يتعرف على جزء من ذلك الكتاب، وقد وجد فيه تشابه كبير مع ما جاء في أحكام القرآن الكريم ما يبعث الريبة في القلوب، وربما تذكر قول الرسول محمد(ص) له حين جاء به بالحديث عن آيات التوراة التي حدثه بها صديقه وكيف غضب الرسول محمد (ص) لهذا الإعجاب ومنعه من قراءة أي كتاب غير القرآن (أنظر الفصل الثالث ص 180). لقد جاء إحراق الأفتسا بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب من أجل المحافظة على الإسلام وإعلاء كلمته ومنع انحراف العرب إلى أديان أخرى فيما لو أطلعوا عليها، ولكن في الجانب الآخر، قد أحرقت قلوب الفرس في طمس تراثهم المعتادين عليه منذ أكثر من ألف عام وكاد يحرق معه قلوب الباحثين والمؤرخين في الوقت الحاضر لولا الحصول على نسخ أخرى من هذا الكتاب لم يكن في متناول يده. وهي محفوظة الآن في إحدى المكتبات البريطانية في لندن والفرنسية في باريس. ويقال أيضاً انه تم إحراق مكتبة في عهده وهي مكتبة الإسكندرية الشهيرة في مصر والتي تعتبر من أكبر المكتبات التاريخية القديمة في العالم كانت تحوي على كتب تاريخية منذ زمن الفراعنة المصريين. بالإضافة إلى كتب فلاسفة الاسكندر المشهورين. لقد كان القصد من وراء ذلك ترسيخ العقيدة الإسلامية في عقول الناس ونصرة الدين الحنيف. ولم يخطر ببال الخليفة العادل أن يأتي يوم يحتاج إليه الباحثون والدارسون إلى كل تلك الكنوز الفكرية والتي هي ملك لا يعوض لجميع البشر في العالم. إن عملية إحراق التراث الفكري قد تكررت عبر العصور وكانت واحدة من أسباب تخلف العالم الإسلامي.

لقد كان عمر بن الخطاب معروفاً بحبه للعرب. فهو أذن بطل قومي وديني من الطراز الأول في تاريخ الأمة العربية والإسلامية. وقد أوصى بالعرب خيراً عند وفاته، وقال عنهم أنهم (مادة الإسلام) ومعنى ذلك انه كان ينظر إليهم نظرة مخالفة لما كانت قريش تنظر بها إليهم. فقريش كانت في ذلك العهد تتعالى على الأعراب، وكانت تعتبر نفسها قوام الإسلام وأساسه الذي بني عليه <sup>(2)</sup>. وهكذا

\* الزنداقتا - وتعني باللغة الفارسية الكتاب المقدس. ويطلق عليه أحياناً (الزند) أو أفتسا طبقاً للغات المختلفة من الفارسية والكردية

(2) الطبري " تاريخ الرسل والملوك" ج 5، ص 86.

كان تقسيم المسلمين في عهد عمر مكون من طبقتين: طبقة عليا مؤلفة من أشراف قریش، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الأعراب أبناء القبائل البدوية. أما الأعمام فلم يكن لهم شأن في ذلك الحين. إذ لم يكن قد دخل منهم عدد كبير في الإسلام آنذاك. ولذا ظل موروث احتقار الأعمام قائما إلى فترة قريبة في عقول الناس في البلاد العربية. وقد ازداد شدة منذ ذلك العصر والذين كانوا يعتبرونهم موالى، وهي نوع من العبودية بالنسب ولغير العربي من المسلمين. ولكن رغم كل هذا، كانت نقاط مضيئة في عهده وهي إن عمر بن الخطاب قد أبطل بعض الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن كقطع يد السارق وإبطال نصيب" المؤلفة قلوبهم" من الفئء، وبهذا حرم قریشا من عطاء كانت تتمم به في أيام النبي وأيام خليفته أبي بكر.

إن نصيب" المؤلفة قلوبهم" منكرة في القرآن ولكنه نسخ أمرا صريحا جاء به القرآن وكان تبريره لعمله هذا: إن الرسول محمد كان يعطيهم يوم كان الدين ضعيفا محتاجا إلى نصرهم، أما اليوم فقد أصبح الدين قويا لا يحتاج إلى تأليف قلوب قریش أو استرضائهم<sup>(1)</sup> كما انه اتخذ عليا مستشارا له، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها لعلى وجود<sup>(2)</sup>. وقد تزوج من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. وهكذا تميزت فترة خلافة عمر بالاستقرار وعدم استئثار قبيلة قریش بالثروة دون غيرها من القبائل. كما انه أقصى قادة عسكريين أمثال خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين. وقد كان ذلك برسالة تاريخية معروفة وفي الوقت المناسب. وكان ذلك العمل من الأمور الحكيمة التي لا بد من عملها لمنع استئثار قائد حقق انتصارات ضخمة، قد تؤدي في نهاية المطاف إلى الاستئثار بالسلطة عن طريق العنف. ومن الملاحظ إن هذا الإجراء معمول به في البلدان الديمقراطية في عصرنا هذا. إذ إن القادة العسكريين في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال يحالون إلى التقاعد حال انجازهم مهمات قتالية كبيرة على الأغلب، مثلما فعل الخليفة عمر مع خالد بن الوليد. إن ممارسة القتال لفترة طويلة من حياة أي إنسان لا بد إن يترك آثارها في نفسه تقده بعضا من قيمه وأخلاقه مهما بلغ من مقدرة، وتصيبه بداء العظمة. وقد يشكل ذلك خطر على مصير السلطة الإسلامية آنذاك. وربما كان لعمر علما بأنه لو لم يفعل ذلك لاستطاع خالد أن يعمل ما يشبه الانقلاب العسكري على سلطة المسلمين.

### 3- مصرع الخليفة عمر:-

هذا الرجل العظيم ذو الدور المميز في تاريخ العرب والإسلام وصاحب الانجازات الكبيرة المتحققة في عصر خلافته، ليس فقط في مجال التوسع في

(1) علي الوردي" وعظ السلاطين" ص 126.

(2) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 76.

الفتوحات، بل في مجال تطبيقه لأصول الشرع العادلة، وموانمة بعض النصوص لظروف العصر، قُتل في عام 644 م وهو في غمرة نضاله الجليل في سبيل نشر راية الإسلام. وتشير المصادر المتيسرة إلى إن شخصاً فارسياً يدعى أبو لؤلؤة (فيروز) والذي كان يعمل بخدمة حاكم الكوفة - المغيرة بن شعبه - قد جاء من الكوفة إلى المدينة ليشتكي إليه من شدة الخراج الذي كان يتعين عليه جمعه لسبيده في الكوفة، فلم يسمع منه. فما كان الصباح التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس في صلاة الصبح طعنه الفارسي هذا بخنجر ذا رأسين بطعنتين كانت أحدهما قاتلة<sup>(1)</sup>، وفي نفس الوقت غطى نفسه بعباءة سوداء وطعن نفسه ومات في الحال، بينما بقي الخليفة لبعض الوقت وتحدث مع الناس إلى إن وافاه الأجل (رحمه الله). لم يعطي أحد من الكتاب والباحثين تفسيراً شافياً لهذا الحادث، فقد فسر في أغلب الكتب بأنه عمل ناجم عن حدّ دفين بين الفارسي والخليفة لأسباب قومية. وأعتبره آخرون حادثاً عرضياً لا معنى له. ولغرض معرفة الدوافع الحقيقية لابد لنا من تسليط بعض الضوء وراء كل أصحاب العلاقة لما لها من دلالات تخص موضوع البحث. فأولاً من هو المغيرة بن شعبه حاكم الكوفة؟ فقد جاء في كتاب طه حسين في الفتنة الكبرى عن سيرة هذا الرجل: "إن أمر المغيرة بن شعبه غريب كله، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات. غدر في شبابه بجماعة من أهل الطائف، قتلهم جميعاً بعد إن سقاهاهم حتى ذهبت الخمر بعقولهم وناموا لا يعقلون، فوثب عليهم فقتلهم. وكانوا اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً. ولم يستطع إن يعود إلى وطنه في الطائف، فاستاق مالا كثيراً كان هؤلاء الناس قدموا به من مصر، فمضى به إلى المدينة فأسلم وعرض ما ساق من مال على النبي محمد (ص) فأبى إن يقبله، لأنه نتيجة الغدر وليس في الغدر خير. وسأله المغيرة عن مصيره، وقد أسلم بعد إن فعل فعلته تلك، فقال له النبي: " إن الإسلام يُجبّ ما قبله" وقد نصح للنبي بعد ذلك، وتعرض لأخطار كثيرة في حرب الردة وفي فتح الشام، حتى فقد إحدى عينيه في واقعة اليرموك. ثم شارك في فتح فارس فأبلى بلاءاً حسناً، وقد أمره على البصرة. وكان إسلامه لم يكن عميق الأثر في نفسه، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر، وأوشك عمر إن يقيم عليه الحد، ولولا أن جلب أحد الشهود وهو زياد (ابن أبيه) ليشهد إلى جانبه. فأقيم حد القذف على الشهود الآخرين، وعزل المغيرة عن البصرة. وكان صاحب لذة ومسرماً على نفسه وعلى الناس، كثير الزواج كثير الطلاق، لم يكن يتزوج واحدة ويطلق حين يجتمع له أربع زوجات وحين يريد أن يستزيد، وإنما كان كثيراً ما يطلق أربعاً ويتزوج أربعاً، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك. فرغم الكثيرون انه

(1) كارل بروكلمان " تاريخ الشعوب الإسلامية" ص109

تزوج ألف امرأة في حياته الطويلة. وزعم المقلون انه تزوج مائة أو تسعاً وتسعين. وتوسط المعتلون فزعموا انه تزوج ثلاثمائة. وليس من شك في انه كان يؤدي إلى هؤلاء الزوجات مهوراً. وليس من شك كذلك في انه كان يرضي كثيراً منهن على الطلاق السريع. وان ثروته الخاصة لم تكن لتقوم بكل هذا السرف الكثير<sup>(1)</sup>. فقد كان يعتبر إن بيت المال ملك له ولحاشيته. هذه نبذة من سيرته تكفي لإعطائنا فكرة عن سياسة هذا الرجل. أما بالنسبة لأبي لؤلؤة، فقد قيل عنه انه أحد مفكري عصره، وكان عالماً فيزيائياً اكتشف ما يشبه طاحونة الهواء، وقد كان يعاني من مشقة في حياته، ويأمل من سفره إلى الخليفة عبر الصحراء وتحمل كل هذه المشقة إن ينصفه الخليفة ويصفي إليه. وعندما لم يلاقي ما كان يتوقعه حصل له هذا الشعور بالحاجة للانتقام، خاصة انه كان يتمتع بثقة عالية بالنفس واحترام قومه له واعتبر عدم إصغاء الخليفة له بمثابة مهانة كبيرة.

يتضح مما تقدم إن أبي لؤلؤة لم يقصد من مجيئه إلى المدينة بالانتقام من الخليفة، بل إن هناك مشكلة متقائمة في الكوفة كان يريد لها حلاً، ولكن نظام الدولة الإسلامية الفتية لم تضع آلية قادرة على حل مشاكل الأمصار البعيدة بصورة صحيحة. ولما حصل كل ذلك لو أن الخليفة قد أرسل شخصاً ثالثاً حيادي ليطلع على الوضع في الكوفة ويصدر حكمه بعد ذلك. ولم تنتهي الحكاية عند هذا الحد فبالإضافة إلى الخسارة الكبرى في مقتل الخليفة عمر بهذه الحادثة فهناك تفاصيل أخرى هي: "كان مع أبو لؤلؤة شخص آخر هو الهرمزان والذي كان نصرانياً وأسلم فلما مات عمر أقبل ابنه عبيد الله شاهراً سيفه حتى أتى الهرمزان فقتله، ويقول الرواة انه لما أحس عض السيف وقال: لا اله إلا الله ثم أتى جفينة فقتله ويقول الرواة انه لما أحس الموت صلب بين عينيه. ثم أتى منزل أبو لؤلؤة فقتل ابنته. ولم تكذب بيعة عثمان إن تتم حتى شاور المسلمين الذين حضروه في أمر عبيد الله بن عمر هذا الذي ثار لنفسه بنفسه وثار لنفسه عن غير بيعة، فقتل رجلاً مسلماً وقتل نهميين بغير الحق ودون إن يخوله السلطان قتلهما. فأما أهل البصرة والفقهاء وفيهم علي بن أبي طالب فأشاروا بالقود، لأن عبيد الله قد تعدى حدود الله"<sup>(2)</sup>. وزعموا إن عمرو بن العاص قال لعثمان: قد أعفك الله من هذه القضية، فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين بسطان. ويقول المؤرخون إن عثمان قال: "أنا ولي الهرمزان وولي من قتل علي يد عبيد الله، وقد عفوت وأدفع دية من قتل من مالي إلى بيت المسلمين"<sup>(3)</sup>. وقد أثار هذا العفو سخط بعض المسلمين لأن من يعفو عن عبيد الله كونه ابن خليفة ولأنه قتل مسلماً أعجبياً حديث العهد بالإسلام وآخرين من أهل النمة. ففي هذا العفو ما يشبه أن يكون

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج2، ص 201.

(2) طه حسين، المصدر السابق، ص 65، ج 1.

(3) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول، ص 66.

تمييزاً بين المسلمين، تمييزاً بين العربي والأعجمي. والله لم يفرق بين المسلمين فيما ضمن لهم من حرمة دماهم وأموالهم وأعراضهم مهما يكن إباءهم ومهما تكن أجناسهم. وفي هذا العفو ما يشبه أن يكون إهداراً لدماء أهل الذمة على ما تقرر لهم في الدين من الحرمة ورعاية الحقوق ولو ترك الأمر على هذا النحو وأبيح لأبناء الخلفاء وأمثالهم من أبناء كبار الأنصار والمهاجرين إن يثاروا لأنفسهم بأنفسهم، يبتعون في ذلك شهواتهم ونزواتهم، ولا يرفعون أمرهم إلى السلطان، ولا يقيمون البيعة على أصحاب ثأرهم لفسد الأمر وضاع العدل، وكانت الفوضى وطمست آيات الدين". هذا ومن الملفت للنظر إن المؤرخين والباحثين لم يعلقوا على مقتل ابنة أبو لؤلؤة بأي تعليق مما يدل على درجة احتقار المرأة في ذلك العصر حيث لم يدفع أحد دية على قتلها ولم يوجهوا لوماً على أحد. ربما يكون هذا الحادث واحداً من الأسباب التي أدت بأن يكون يوم مقتل الخليفة عمر بن الخطاب عيداً شعبياً لدى الفرس قديماً، يضاف إلى ما فعله الخليفة من إحراقه لكتابهم المقدس (الزندافستا) وما جرى لهم بعد فتح العراق وبلاد فارس من سبي وتقتيل. وقد استمرت مراسيم الفرح تقام كل عام والى وقت قريب. ولم تكن تلك المراسيم نتيجة عدا عابر قومي أو طائفي كما يزعم البعض، بل كانت لها أسبابها وجذورها التاريخية العميقة، وإلا لماذا عمر دون غيره من الخلفاء الراشدين الذين قتلوا غداً. إن الكره أو المحبة لا يمكن إن تبني على جهل أو بدون أي سبب ومهما تغاضى عنها الكتاب والباحثون فلا بد وأن تظهر الحقيقة في يوم ما. ولا بد إن يكون لكل فعل رد فعل. وإن مشاعر الناس لا تأتي من العدم. وبغض النظر عن جواز حصول تلك المراسيم من عزمها فإن ذلك هو الحال.

#### 4. خلافة عثمان بن عفان:-

لم يكن في ميسور عمر إن يتخذ أي إجراء في ما يتصل بمن يخلفه. وكان أبو عبيد ابن الجراح وهو أقرب الناس إليه بعد أبو بكر - قد توفي قبله، وليس بالإمكان إن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عين على فراش الموت أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته. واجتمع للنظر في انتخاب الخليفة الجديد كلا من صهري النبي علي وعثمان وثلاثة من أقرب أصحابه إليه - عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص. أما طلحة الذي كان من المفروض أن يشترك في المؤتمر كعضو سادس فلم يكن في المدينة آنذاك وكل هؤلاء هم من العشرة المبشرين بالجنة<sup>(1)</sup> \* . وقد اتفقوا بتحويل عبد الرحمن بن عوف في حسم الموقف بين إن يختار علي أو عثمان وكان في سؤاله الحاسم إلى الطرفين في إن يلتزم كلا منهما في حكمه بالقرآن والسنة النبوية وسيرة الشيخين، فلم يوافق الإمام علي بالالتزام في سيرة الشيخين. فوقع الاختيار على عثمان بن

\* العشرة المبشرين بالجنة الذين أوصى بهم الرسول محمد (ص) هم: علي وعمر وأبو بكر وعثمان وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ومسيب بن زيد ابن نفييل.



عنان الأموي الذي كان أقل الأعضاء شأنًا بالمقارنة مع الآخرين<sup>(1)</sup>. وهكذا تولى الخلافة عثمان الذي أوصل الأمويين إلى القمة. لأن عهده كان في الواقع عهد أسرته وعشيرته<sup>(2)</sup>. فلقد ترك تصريف الشؤون لنسيبه مروان بن الحكم في المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبي القماماء - الذين أثروا ثراءً ضخماً أثناء الفتوحات والذين اقتتوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في حكمه، أملاكاً مثلها في الطائفة. وأدركوا إن مكانتهم القديمة تؤشك أن تضيق على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى إن تسيطر على كل شيء. وقد حاولوا بادئ الأمر إن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباعته محاولاتهم بالفشل. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصياً. وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس من حوله سوى نفر من الأصدقاء. خاصة بعد إن وقفت عائشة (زوجة الرسول) في جانب خصومه، وكذلك أستطاع أعداء الخليفة إن يستثيروا العرب في كافة الولايات، فانقلبوا على عثمان. وكان الوضع يتدهور وينذر بثورة عارمة ضده. فقد ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، ونشأت الملكيات الضخمة في عهد عثمان، أدت إلى انقسام الناس إلى شيع وأحزاب، ونتيجة لهذا النظام الذي استحدثه عثمان سواء أكان عن رأيه هو أو رأي مشيريه، أو كنتيجة طبيعية لاختلاف نمط الحياة بصورة تدريجية عما كانت عليه الحال أيام الرسول محمد (ص) والشيخين.

ولم تكن هذه النتيجة سياسية فقط بل كانت لها نتائج اجتماعية أيضاً. فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا التحول. فوجدت طبقة أرستقراطية عليا ذات مولد وثراء ضخم وسلطان واسع. ووجدت طبقة البانسين يعملون في الأرض، ويقومون على مرافق هؤلاء السادة. ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويغيرون على العدو ويحمون الثغور، ويؤدون عملاً وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء. وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تتازعها الأغنياء ففروها شيعاً وأحزاباً، والذي يتتبع تاريخ المسلمين، يلاحظ إن الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء ثم بين الطبقة الوسطى والأغنياء. فاما الطبقة الثالثة، طبقة العاملين في الأرض والمقاتلين على المرافق المختلفة، فلم يظهر أمرهم إلا بعد ذلك، ولها قصة أخرى<sup>(3)</sup>. فالفترة في عصر عثمان إنما كانت عربية، نشأت من تراحم الأغنياء على العنى والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء. ولم يكن نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء إلى الانتفاع به، حتى ظهر الشر، وظهر في الكوفة قبل إن يظهر في أي مكان آخر. وظهر في مجلس سعيد بن العاص حاكم الكوفة آنذاك. فقد كان سعيد قد تخير وجوه معينة من الناس ليخجلوا

(1) طه حسين " الفتنة الكبرى " الجزء الأول، ص 63

(2) كارل بروكلمان " تاريخ الشعوب الإسلامية " ص 111.

(3) طه حسين " الفتنة الكبرى " الجزء الأول، ص 109.

عليه دون غيرهم من العامة، وليسمروا عنده في الليل. فقال ذات يوم: إنما السواد - سواد الكوفة - بستان قريش فتغاضب القوم، وكانت كثرتهم من اليمانية، وردوا عليه في ذلك رداً غليظاً، وقالوا له: إنما السواد في إباءة الله علينا، وما نصيب قريش منه إلا كنصيب المسلمين. وغضب صاحب شرطة سعيد، لأن القوم ردوا على الأمير، فقاموا إليه فضربوه حتى أغمى عليه. فقطع سعيد سمه واحتجب عن هؤلاء الناس، فلزموا مجالسهم وأنديتهم، وأطلقوا السننهم في سعيد وعثمان وقريش، وتسامع الناس بهم واجتمع بعض الناس إليهم. فكتب سعيد إلى عثمان يبينه بأمرهم، ويذكر أنه يخافهم من الفتنة. فأجابه عثمان إن يسيرهم إلى الشام، وكتب إلى معاوية يأمره بلقائهم واستصلاحهم. وهكذا أخرج سعيد هؤلاء الناس إلى الشام بأمر من عثمان. والشيء المهم هو إن سعيد قد نفى هؤلاء الناس عن أرضهم. ولم تقم بينة على أن هؤلاء الناس من القراء الصالحين وأصحاب البلاء في الفتنة، قد حاربوا الله ورسوله أو سعوا في الأرض فسداً، فهم لم يخلعوا بدأ من طاعة، ولم ينكروا سلطان عثمان ولا سلطان واليه عليهم. وإنما كانوا يشهدون الصلاة مع هذا الأمير ويؤدون ما عليهم من حق. وكل ما في الأمر إنهم انتقدوا الأمير في بعض قوله، فما كان ينبغي أن يعاقبوا عليه. إن خروج هؤلاء الناس عن أرضهم بقوة السلطان، وإرسالهم إلى دار غريبة لا يطمنون إليها ولا يسكنون إلى أهلها، وسلبهم حريتهم إنما كانت عقوبة بغير حق ألفت بضلالتها على وضع الدولة الإسلامية عموماً. ولم ينتهي الأمر إلى هذا الحد بل إن معاوية لم يقبلهم في الشام وأعادهم إلى الكوفة وبعد مراسلات بين سعيد وعثمان وهؤلاء الناس اضطر عثمان إلى عزل سعيد واختار الناس أبو موسى الأشعري، ووافق عثمان على ذلك، وحصل شيء من الاستقرار ولكنه لم يدم إلا قليلاً، كانت تلك واحدة من الشرارات التي أنذرت باندلاع الفتنة ضد عثمان. إن هذه الحادثة البسيطة في الكوفة تعطي صورة عن حالة النظام في ذلك العصر، ومنذلاتها: أولاً: إن الولايات البعيدة التي كان يحكمها عمال الخلفاء، كانوا من غير أهالي تلك الولايات ولا يعرفون كثيراً عن طبائع الناس هناك، وثانياً: إن الاستئثار بالأرض والأموال، قد خلق نظاماً مقسماً إلى طبقات غنية ومتوسطة وفقيرة ينذر بالمشاكل العديدة لعدم الشعور بالرضا لتقسيم الثروة. وثالثاً: إن العصبية القبلية والتحيز بالإحكام لصالح القبيلة قد ظل متحكماً بشكل رئيسي في القرارات السياسية والاجتماعية والذي لا يزال متحكماً في عقول الحكام وأصحاب الشأن بدء في إفراز سلبياته عليهم. وكان في ذلك ابتعاداً عن روح ومبادئ الإسلام الحقيقية. وهنا لا بد من الإشارة إلى إن تلك المشاكل كانت تظهر للخلفاء دون قصد أو تخطيط مسبق من قبلهم. فأن مشكلة الثراء لقبيلة دون أخرى إنما كان نتيجة طبيعية لتوسع رقعة الدولة الإسلامية وأداء الفرائض والغنائم الناجمة من الفتوحات، بالإضافة لازدهار التجارة بين مختلف الأقطار والأمصار. إن حجب الثروة لجماعة دون أخرى قد تكون ناجمة عن الفرق في القدرات والخبرات والطاقات العقلية بين البشر، وهذا أمر طبيعي في كثير من الشعوب، ولكن كان غريباً بالنسبة للدولة الإسلامية الفتية والحديثة التكوين. إما استئثار قبيلة قريش بالثروة دون غيرها، فمن الواضح إنها مارست التجارة في العصر

الجاهلي، واكتسبت خبرة في ذلك وكانت تحكم الجزيرة بالإضافة لانتساب النبي محمد (ص) إليها مع اغلب أصحابه. ولكن ذلك كان مخالفاً للمبادئ الإسلامية وقد كان سبباً للفتنة الكبرى التي حصلت كما سنرى في الفقرات القادمة.

## 5- مصرع عثمان والفتنة الكبرى:-

لأبد لنا من سرد ملخص عن مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان(رض)، لعلنا نفترن أكثر في تصور شكل الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك الحين. وتفاصيل الأمر إن الجيش المحارب في إرجاء متفرقة من الأمصار، أخذوا يركون شيئاً فشيئاً إن صخب السنوات الأولى من الفتح الإسلامي قد انتهى، وإنهم عملوا ما يتفقى مع مصالحهم الشخصية عندما تركوا الحكومة المركزية في المدينة تستأثر بجميع الغنائم العقارية، وذلك إن هذا الوضع قد مكن الدولة من الاستقلال بنفسها عن الجيش الذي تدين له بكل شيء، بعد إن تفردت بتوزيع الأجر الواجب دفعها، وصارت قادرة على الضرب على أيدي مثيري الشغب بالكامل. إن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الحين والآخر عن طريق الهجوم على صندوق المال الإقليمي وسلبه، وعن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال انفاضة إلى العاصمة بوجه خاص. وفي سنة 655 م أعلن زعماء الأمصار بان مجال النضال الفعال في سبيل الإسلام بات في المدينة المنورة أرحب منه في المقاطعات النائية الواقعة على حدود الإمبراطورية<sup>(1)</sup>.

واندلعت قوة تتألف من ألف شخص في الكوفة وكان على رأسهم مالك الأشتر الذي كان موالياً للإمام علي شخصياً، ضد سعيد رغم إن عثمان قد استبدل سعيد برجل آخر هو أبو موسى الأشعري والذي يرضى عنه الكوفيين. وفي مصر لم يتورع عثمان من خلع عمرو بن العاص ففتح مصر وتعيين نسيبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكماً مكانه على الرغم من إن النبي محمد (ص) قد أهدر مرة دم هذا الأخير واشتدت النقمة على عثمان في مصر وانضم عمرو في تشجيعها بالإضافة إلى محمد ابن أبي حنيفة وهو ابن أبي بكر بالتبني ومن شيعة علي المتحمسين. وفيما كانت إحدى المعارك البحرية الكبرى (معركة ذات الصواري) تدور على الشاطئ البلقاني بين الأسطول المصري و البيزنطيين في عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر إحدى السفن زاعمين إن جهاد الحق قد انتهى، ولما كانت السنة التالية سار جمع من العرب إلى المدينة ليشن هناك حرب ضد العدو الداخلي. وفي سنة 656 م بلغ هؤلاء أبواب المدينة فإذا بمعظم أهل المدينة وأهالي أمصار أخرى قد جاعوا من كل صوب يقفون إلى جانبهم، مما يدل على درجة استياء الجميع من عثمان الذي كان سيد أقوى إمبراطورية على وجه الأرض في ذلك الحين. وكان لا يملك في

(1) كارل بروكلمان- المصدر السابق: ص 113.

قصره جيشاً يدافع عن نفسه ضد الناقمين عليه. ومن هنا تعين عليه إن يياشر بالمفاوضات مع خمسمائة ثائر منهم فوفق لإقناعهم بالانسحاب واعداء إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلبثوا إن اطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على إن يؤكد في خطبة الجمعة التالية إن المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال. فاستاء أهل المدينة لذلك حتى أنهم عبروا عثمان ورجموه بالحجارة فسقط مغشياً عليه، وحمله القوم إلى خارج المسجد الذي لم يطأه قدماه بعد ذلك قط. وتجمهر المدنيون حول منزل عثمان ورفضوا إن يترحلوا من أماكنهم ورجع معهم المصريون أيضاً، مدعين انه قد وقعت رسالة في أيديهم من عثمان إلى والي مصر يأمره فيها بالفتك بحاملي الرسالة عند وصولهم إليه. علماً بأن الخليفة أنكر تلك الرسالة التي وضعت نصب عينيه. وطلبوا منه إن يستقيل ما دام من الممكن إن يجري مثل هذا العمل من دون علمه، ولكن عثمان رفض إن يحقق هذا الاقتراح الجريء. فحاصروا منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسابه وبعض العبيد والموالي. وأستمر الحصار هذا لمدة أربعين يوماً، وحال الثائرون بين عثمان وبين الماء، حتى أشدت الظماً عليه وعلى أهله وعياله وحتى أشرف عليهم ذات يوم فنكرهم بأنه أشتري بئر رومة بأمر النبي وجعلها سقايًا للمسلمين، وأدخل إليه علياً شيئاً من الماء العذب<sup>(1)</sup>. وأشدت الكرب وشاع القتل وعظم البلاء، وجعل عثمان يشرف على الثائرين بين حين وحين فيعظهم ويحذرهم ويخوفهم الفتنة وردوه رداً عنيفاً وقد أجمع القادرون على القتال من بني أمية، وأنضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين، فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثائرين، وكان بينهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا علي ومحمد بن طلحة. وأمر عثمان عليهم عبد الله بن الزبير، وتقدم إليهم في إن لا يقاتلوا. ثم جاءت الإنبياء بأن أمداد العراق قد دننت من المدينة، وبأن أمداد الشام قد وصل إلى وادي القرى. ويقول الرواة إن أهل الدار هم الذين بدؤوا فناوشوا الثائرين. وقد رمى أحدهم بسهم من الدار فقتل واحد منهم. وقال الثائرون لعثمان أدفع إلينا قاتل صاحبنا فنغير منه فقال عثمان: ما أعرف له قاتلاً فادفعه إليكم. ثم حجزت بينهم ليلة منكرة. فلما أصبحوا هجم الثائرون على الدار يحرقون الأبواب، وخرج لهم أصحاب الدار يقاتلونهم، فأشدت القتال وجرح عبد الله بن الزبير وصرع مروان بن الحكم حتى ظن به الموت وقتل آخرون. واقتحمت الدار على أهلها وفي إثناء ذلك فتح عمرو بن حزم بابها وأنفذ من الخوذة أولئك نفر الذين انتهوا إلى عثمان فقتلوه (رحمه الله). وخرج خارج فأذن بالناس: لقد قتلنا ابن عفان ثم فتحت الأبواب ونهبت الدار ونهب بيت المال، ولم يتفرق الناس

(1) طه حسين " الفتنة الكبرى " ج1، ص 212.

إلا وقد وقعت الواقعة وكانت الفتنة وصب على المسلمين بلاء عظيم. وتحدث الرواة بأن سعد بن أبي وقاص دخل على عثمان قبل أن يقتل، وسمع منه ثم خرج يطلب علياً حتى لقيه في المسجد، فقال له هلم يا أبا الحسن، إن خليفتك قد أعطى الرضا فأقبل فأنصره واسبق إلى الفضل في نصره. وإنيما ليتتاجيان حتى جاء النبي بقتل عثمان<sup>(1)</sup>. ودفنت امرأة عثمان - نائلة الكلبية - التي أصيبت هي الأخرى بجراح - جثة الخليفة الصريع في سكينه الليل يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة مع ثياب ملطخة بالدماء تابعة للخليفة عثمان إلى ابن عمه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، والذي تمسك بها بعد ذلك في خطبه على المنبر ليستثير بها حماس الناس للأخذ بثأر الخليفة. وهنا أصبح المثل الشائع بتمييص عثمان إلى يومنا هذا. حيث ثار عدد ممن لديهم أغراض مختلفة بحجة الأخذ بثأر عثمان والاقتصاص من قتلته<sup>(2)</sup>. أما الثائرون فقد تفرقوا دون أي مكسب سياسي محدد أو تغيير في نظام حكم كانوا يصبون إليه مسبقاً. وبشبهه دطه حسين في كتابه الفتنة الكبرى ما حدث في هذه الفتنة في أول صدر الإسلام بما حدث في آخر الجمهورية الرومانية من هذه "اللاتيفونديا" التي أضاعت الجمهورية الرومانية. وهذه بعينها أضاعت الخلافة الإسلامية الراشدة. ففي إيطاليا ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض إيطاليا، فأنقطع الناس إليها وأصبحوا أحزاباً وشيعاً. وملك قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، فأنقطع الناس إليها وانقسموا بينهم شيعاً وأحزاباً<sup>(3)</sup>. ولكن الفرق إن الرومانيين استطاعوا إن يغيروا النظام بشكل واضح ويضعوا نظاماً محله أصلح إليهم من السابق، إلا إن ذلك لم يحصل في البلاد الإسلامية. وهذه الحالة استمرت بعد ذلك في العديد من الأحداث التي حصلت بها فتن وثورات، ونذكر هنا ما حصل في العراق على سبيل المثال فقد ثار الثائرون في عام 1920 ضد الاحتلال الانكليزي للعراق، وعندما وافق المحتلون لتشكل دولة مستقلة لم يجد أحد يختارونه لإدارة البلاد، وذهبوا يستجدون بالشريف حسين شريف مكة لإرسال ابنه فيصل ليكون ملك عليهم. كما لم يأتي الثوار من الجيش العراقي عام 1958 ببرنامج واضح ومؤثر يؤدي إلى تغيير نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وكان جل اهتمامهم أن تزال الملكية دون نضوج خطة واضحة لما بعد هذا التغيير. وهكذا كانت المشاكل التي بقينا نعاني منها إلى الآن. فكان الثائرون على عثمان مثلهم مثل الثائرون على غيره ينهون مهمتهم بقتل الحاكم وترك الأمور مضطربة دون قيادة أو أهداف محددة يجنون ثمارها في

(1) طه حسين "الفتنة الكبرى" ج1، ص 214.

(2) كارل بروكلمان المصدر السابق- ص 114.

(3) طه حسين "الفتنة الكبرى" ج1، ص 109.

الحال. وبقي هذا الإرث لدى بعض الناس المطالبين في الوقت الحاضر برحيل القوات الأجنبية قبل استكمال بناء البيت العراقي بصورة كاملة لنيل السيادة الكاملة. هؤلاء لا يبالون من عودة نظام جانر رغم كل القهر الذي أصابهم منه. أن هذا الإرث المتواتر في عدم رسم خطة واضحة بعد كل تغيير قد يكون ناجما من طبيعة النظام القبلي الذي عاش العرب في ظله لفترة طويلة من الزمن وذلك بالانزواء في ظله دون الحاجة الملحة إلى قيام نظام دولة بشكل مختلف عن المعتاد لديهم منذ القدم. وهكذا نجد إن ضعف سيطرة الدولة تؤدي بالنتيجة إلى انتعاش سيطرة وحكم القبيلة وعلى مر العصور وفي كافة أرجاء البلاد العربية. ولعلنا من هنا نقتررب من فهم درجة مقاومة التغيير التي نعاني منها في الوقت الحاضر والناجمة من عدم حصول تخطيط مسبق لكل حركة تغيير سواء أكانت على شكل فتنة أو انقلاب عسكري أو ثورة شعبية أو غير ذلك. إن التخطيط المسبق والذي يضمن مستقبل أي تغيير في المجتمع كان يتعارض مع العقلية القبيلة والبدواة والموروثة لدى المجتمع الزراعي الرعوي قديما ولا تزال آثاره واضحة ومؤثرة في مجتمعنا الشرق أوسطي عموما في الوقت الحاضر.

## 6- خلافة الإمام علي بن أبي طالب:-

تمت البيعة في الخلافة لعلي في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام. وظهر إن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز والكوفة والبصرة ومصر عدا الشام التي كان يحكمها معاوية ابن عم عثمان. وقد أصبح عليا إماما للمسلمين بايعة من حضر المدينة من المهاجرين والأنصار، وحيث لم يبق من أصحاب النبي من نوي الحظوة في الخلافة سواء وطلحه والزبير. وكانت بلاد المسلمين مضطربة وتفاقت فيها مشاكل يصعب حلها. ولا نريد الخوض في كل التفاصيل والأحداث التاريخية لتلك الفترة فقد استوفى الكتاب والباحثون العديد منها نخص بالذكر منهم عباس العقاد ومحمد عبده وطه حسين وأبن حجر وأحمد أمين وأبن خلدون ومحسن الأمين وعلي الوردي ومحمد عابد الجابري وآخرون. لذا سوف ننتقي بعض الأحداث المؤثرة والتي تخص موضوعنا في الإرث التاريخي التي خلقتها تلك الأحداث.

مما لا يختلف عليه اثنان إن الإمام علي هو من أبرز الشخصيات الإسلامية التي ظهرت في صدر الإسلام، ولم يكن مجرد خليفة للمسلمين، بل كان صاحب فكر وعقيدة راسخة، عمل من أجل تكريس المفاهيم والقيم الإسلامية، ومن أبرز مؤلفاته "نهج البلاغة" رغم إن جمع هذا المؤلف قد جاء بعد وفاته بكثير وظهرت له تفسيرات مختلفة عديدة. وكان من أبرز المساهمين في جمع الآيات القرآنية وتوحيدها. وهو يعتبر من أعلام البلاغة والنحو في اللغة العربية وساهم في وضع نقاط فوق الحروف العربية. بالإضافة إلى إنه كان من أعظم المجاهدين في الحروب التي خاضها المسلمون في حياة النبي ومنها حروب

بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين. وقد قتل علي جميع من بارزهم كأننا من كان، حتى أشتهر بين الناس في ذلك الحين إن علياً لا يبارز أحداً إلا قتله<sup>(1)</sup>.. (2) كما إن النبي قد تبنى علياً منذ طفولته الباكرة ورباه في بيته. ولما كبر علي زوجة النبي ابنته فاطمة. وربما كان النبي يرجو أن يأتي له النسل عن طريق هذا الزواج. لذا كان علياً ربيب النبي وزوج ابنته من ناحية وبطل من أبطال الجهاد في سبيل دعوته من الناحية الأخرى. وكان زاهداً وعادلاً ولا يحيد عن الحق مهما كلف الأمر. وأفضل ما قيل عنه في وصف صفاته: - "صدق إيماناً بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيم لا ينحرف ولا يميل ولا يذهن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير، وإنما يرى الحق فيمضي إليه لا يلوي على شيء ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه إن يجد في آخر طريقه نجاحاً أو إخفاقاً، ولا إن يجد في آخر طريقه حياة أو موتاً، وإنما يعنيه كل العناية إن يجد إثناء طريقه وفي آخرها رضا ضميره ورضا الله<sup>(3)</sup>". وكان لا يهتم لمغريات الجنة ولا يخيفه عذاب النار فله قول مشهور في هذا المجال "اللهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك"<sup>(4)</sup> هذا الحديث مشهور للأمام علي يدل على أنه كان مؤمناً من الطراز الأول وليس لديه طمع مقابل هذا الأيمان. ولعل أول عمل فكر فيه علي بعد تفرغه من مبايعة أهل المدينة هو تغير العمال في اتوليات والذين عينهم عثمان لكي يستتب الوضع ويرضى الثائرين الذين قتلوا عثمان بسبب عمته. وأختار عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار على البصرة، بينما أرسل أخاه سهيل بن حنيف إلى الشام وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر. لكي يرضي الأنصار. أما الكوفة فقد اختار لها عمارة بن شهاب إلا إن أهل الكوفة لم يوافقوا بغير أبو موسى الأشعري، فرجع من حيث أتى. كما اختار علي ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً على اليمن. وسار عمال علي إلى أقاليمهم لكن سهيل بن حنيف عاد بعد إن وصل إلى منتصف الطريق إلى الشام فقد أرسل إليه معاوية تهديداً صارماً بنزله بالعودة من حيث أتى، بحجة تصميم أهل الشام بأن يثأروا لعثمان، ونصبوا قميصه للناس وجعلوا يلتفون حوله ويبيكون، وتعالقت الأصوات باتهام علي بقتل عثمان من أجل تهينة الأجواء لقتال علي. في نفس الوقت كان هناك تحريض آخر للفتنة بين المسلمين ألا وهو إن السيدة عائشة لم تكن مرتاحة لخلافة علي. وكانت مطالبها أن يثأر لعثمان ممن قتلوه، ثم يرد أمر المسلمين شورى بينهم فيختارون لخلافتهم من يريدون عن رضا النفوس. وهكذا تم التهيؤ للقتال متوجهين إلى البصرة وكان مع عائشة كلا

(1) علي الوردي "عناظ السلاطين" ص 186.

(2) هادي العلوي "خلاصات في السياسة والفكر السياسي الإسلامي" ص 98.

(3) طه حسين "الفتنة الكبرى" ج 2، ص 16.

(4) محاضرة خاصة عن "الإمام علي" للأستاذ محمد حسين الفوطي استاذ اللغة العربية.

من طلحه والزبير. وهكذا بدأت الكارثة الأولى بوجه علي ولم يمضي على توليه أمر الخلافة على المسلمين سوى ستة أشهر. فقد أرتحل طلحه والزبير وعائشة يريدون البصرة ومعهم ما يقرب ثلاثة آلاف جندي، وصرف علي همه عن الشام وأزمع الخروج ليرد طلحه والزبير وعائشة عما هما عليه، إلا إنه لم يستطع اللحاق بهم، ولذلك أحتاط للحرب فمضى في طريقه وأرسل إلى أهل الكوفة من يستنفرهم لنصره. وباعت كل المحاولات الرامية إلى تفادي الحرب إلى الفشل ووقعت حرباً سميت بحرب الجمل، لأن عائشة كانت راكبة على جمل وأشدت القتال وراح ضحيته طلحه والزبير وعدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين انتهت بانتصار علي وخذلان عائشة إلى أن عادت نادمة إلى المدينة أشد الندم. هكذا كان تفكير القوم باتخاذ قرارات حاسمة مثل قرار الحرب. وكأنهم يذهبون في بادئ الأمر إلى النزاهة. وبعد أن تقع المصيبة ويذهب من يذهب فهم يشعرون بالندم ولكن دون جدوى. بالإضافة لذلك فإن النصر الذي حققه جماعة الإمام علي قادم لأن يكونوا حريصين على أن يضيفوا نصراً إلى نصر. وبدؤا بالتهيؤ لمواجهة خصمهم في الشام، في حين بدء الخاسرون في الحرب والمصرين على الانتقام بالذهاب إلى الشام للمشاركة في المعركة التالية. وهكذا بدأت حرباً تلد حرباً أخرى. ومن الجدير بالذكر إن حرب الجمل التي كان سببها الظاهري الثار لدم عثمان هو إن قسم من الذين يطالبون بهذا الثار كانوا أنفسهم مع الثائرين، حتى طلحه والزبير اللذان قتلوا في تلك الواقعة وهم من المبشرين العشرة بالجنة كما أسلفنا، فأما الزبير فلم ينشط في الثائرين نشاطاً ملحوظاً ولم ينشط في تحريضهم أيضاً ولكن ظل يتربص وهواه مع الثائرين. أما طلحه فلم يكون يخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ولا أطماع فريقه منهم في نفسه<sup>(1)</sup>. ولم تكن عائشة "أم المؤمنين" على وفاق مع عثمان وكانت دائماً تلقي اللوم عليه في محاباته لعشيرته. وقد اختار الطرفان وهم من أحب الناس إلى قلب النبي محمد إن يخرجوا من المدينة ليذهبوا إلى العراق في قتال ضار لم تكن منه في النهاية غير القتل والدمار وتخليف المشاكل تلو المشاكل ورغم إنهم قد بايعوا الإمام علي بالخلافة بالمدينة. ولسنا هنا في إن نبحث عن الأسباب وإلقاء اللوم على طرف دون الآخر كما فعل الكثير من المؤرخين والباحثين، لأن هذا خارج نطاق بحثنا وإنما ننتمي بعض الأحداث ذات الصلة بالمواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا وننظر إلى الأسباب المؤدية إلى تلك الأحداث من زاوية حركة تطور المجتمع المحلية وتأثير مواريثهم التاريخية وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والمناخية على جعل تلك الأحداث تسير بالمسار التي كانت عليه. وكانت واقعة الجمل هذه مثلاً لما يدور في أذهان الناس في ذلك العصر. فقد كانت الأسباب الظاهرية

(1) طه حسين "المصدر السابق" ج2، ص7.



لذلك المعركة هو القصاص من قتلة عثمان. فلو فرضنا جدلاً إن عثمان قد قُتل من أشخاص محدودة ومعروفة في حين إن العملية جرت من خلال تجمع جمهور كبير يقدر بالآلاف وضمن فترة دامت أربعين يوماً<sup>(1)</sup>. وكان بالإمكان إن يكون القتل أي مجموعة تدخل قبل الأخرى لأن جميع الحاضرين كانوا يبغون ذلك العمل. ولو إن القصاص العادل قد أخذ فعله من القتل الحقيقيين، فهل إن المشكلة التي تسببت فيها الفتنة كانت قد انتهت؟ وكل ما آلت إليه الأمور في عصر عثمان من سوء في توزيع الثروة أو غيرها أو كانت قد وجدت لها حلاً وأصبح كل شيء على ما يرام: الجواب طبعاً كلا. لذا يمكن القول إن الأسباب الحقيقية وراء تلك الحرب والحرب التي تلتها في صفين بين معاوية وعلي لم تكن القصاص من قتلة عثمان، وإنما كانت في عدم اقتناعهم بتولي الإمام علي الخلافة على المسلمين، لأنهم يعرفونه جيداً كيف كان يريد إن يعيد الأصول والأحكام التي كانت سائدة في عصر النبي محمد وعصر الشيخين الراشدين. وكان متشدداً في إحقاق الحق وإعالة الفقراء وما إلى ذلك من قيم وأخلاق سامية. ولكن العصر قد تغير كثيراً بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة الرسول محمد. لقد بدأ الناس ينظرون لندياهم بعد إن انهالت عليهم الأموال من كل جانب ولذلك أصبحوا يميلون أكثر نحو من يقدّمهم إلى المزيد من الفتوحات لكسب المزيد من الثروات من خلال المزيد من الغنائم والجزية وغيرها.

## 7- معركة صفين:-

لعل واحدة من أشهر المعارك بين المسلمين في ذلك الوقت هي معركة صفين التي دارت بين جماعة علي وجماعة معاوية على ضفاف نهر الفرات في منطقة تدعى صفين. فقد صمم الطرفان على إن يخوضا معركة بينهما دون إن تتفع كل الوساطات والرسائل التي دارت بين معاوية والإمام علي من محاولة لمنع سفك الدماء ولكن دون جدوى وتفصيل تلك المعركة التي دارت في صفين معروفة في كتب التاريخ. ولكن الذي يهمنا هنا بعض ما خلفته من آثار في ارتثا الثقافي وعلى هذا النحو: فقد سار معاوية في جموع أهل الشام حين علم بتأهب الإمام علي للمسير وقدم بين يديه الطلائع أيضاً. وقد انتهى قبل علي إلى صفين. فأنزل أصحابه أحسن منزل، وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات. ولكن أصحاب علي لم يجدوا

على الفرات شريعة يستقرون فيها فأرسل علي سفراءه إلى معاوية في ذلك فلم يصفروا منه جواب وعادوا إلى علي بغير طائل. ثم لم يلبث أصحاب علي أن رؤوا معاوية يكثر من الحرس على شريعة الفرات ليظهر علياً وأصحابه الظمأ.

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج1، ص 219.

ولذلك لم يكن بد من إن يقتتل الناس على الماء، وأشدت القتال على الشريعة، حتى أتى النصر لأصحاب علي فغلبوا خصمهم على مورد الماء. وأرادوا أن يضطروهم إلى الظمأ ويتهروهم به كما كانوا هم يريدون بهم مثل ذلك، لكن علياً أبى عليهم ما أرادوا، وأثار العاقبة حتى لا يتعجل الحرب قبل الأعدار إلى خصمه وقبل مناظراتهم فيما بينهم من خلاف. وكره كذلك أن يظما خصمه والله قد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعاً لا يستأثر به فريق دون فريق. وهكذا أتى للقوم إن يلتقوا أميناً أياماً، ليس بينهم قتال ولكن بينهم جدالاً شديداً. ثم رأى علي إن يرسل سفراءه إلى معاوية وأصحابه، فأختلف السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى شي يشبه الصلح. فلما استيأس علي من خصمه عباً أصحابه على راياتهم وجعلت تخرج إلى فرق معاوية، تخرج فرقه في هذا اليوم من أصحاب علي فتخرج لها فرقة من أصحاب معاوية فاقتتل الفريقان نهارهما. وعلي لا يتجاوز ذلك إلى الحرب العامة رجاء إن ينوب خصمه إلى رشدهم وأن يفينوا إلى أمر الله ويؤثروا العاقبة بين المسلمين. ولكن دون جدوى ومضى الأمر على هذا النحو شهراً واستبان للطرفان إن ليس بد من إن يصطدم الجمعان. والملفت هنا إن القوم إذا كفوا عن القتال آخر النهار سمروا، كما تعويد العرب أن تسمر، فتتأشروا الشعر وذكروا المآثر القديمة والحديثة وذكروا بلاء من حسن بلاء منهم أو من عدوهم في أيامهم تلك<sup>(1)</sup>. من هنا لا بد لنا أن ننكر كيف كان القتال لدى العرب يعد أمراً اعتيادياً وجزءاً من كيانتهم ومهنتهم التي اعتادوا عليها منذ زمن بعيد. فبدلاً من تضמיד الجراح والاستراحة والتهيؤ لليوم التالي للقتال كانوا يتسامرون ويمرحون في لياليهم بعد القتال في نهارهم. وربما كان هذا السمر يعكس صورة من صور الحياة التي كانوا يعيشونها في ذلك العصر الذي خلف إرثاً ثقيلاً للأجيال التي تلت ذلك والذي نحن نصندها. وهذا ينكرنا ما حصل في العصر الحديث أيام الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات من القرن الماضي حيث كان الجنود العراقيين والإيرانيين في الجبهة الجنوبية مثلاً يتفقون على أوقات معينة (أوقات الصلاة والغداء) لا يرمي أحدهم الآخر بالمدفعية، دون علم كبار أمريهم بهذا الأمر مما يدل على أن الشعبين لا صلة لهم بما اختلف الرؤساء عليه وهم ينفذون أوامر حربية غير مقتنعين بجدواها. وبعد إن سم الطرفان الحرب المنقطعة الفاترة تعجلوا الكارثة، وتزاحف الجيشان العظيمان فالتقوا صباحاً فاقتتلوا نهارهم كله أشد قتال وأعظمه نكراً وانكشفت ميمنة علي، ثم تاب بفضل مالك الأشتر ومن تاب معه من أصحابه فالتتم جيش علي كعهده أول النهار. وأقبل الليل فلم يكف بعض القوم عن بعض وإنما مضوا في حربهم تلك المجنونة حتى استقبلوا صباح يوماً ثالثاً، وحتى ظهر الضعف في جيش معاوية،

(1) طه حسين (المصدر السابق) ج2، ص 73.

وهم معاوية نفسه إن يفر، لولا مبادرة من عمرو ابن العاص برفع المصاحف بين الطرفين والدعاء إلى ما فيه أمر الله بالكف عن الحرب وطلب اللجوء إلى التحكيم بين الطرفين. وقد سارع رؤساء الجيش من أصحاب علي يدعونه لقبول ما يعرض القوم. فباي عليهم أول الأمر ويبين لهم إن القوم ليسوا بأصحاب قرآن، ولم يرفعوا المصاحف لتبيين إلى ما فيها وإنما رفعوها كائنين يبيغون خصمهم القتلة<sup>(1)</sup>. وقد أشتكوا بالإلحاح على علي بقبول وقف القتال وقد أضطر إلى ذلك كارهاً. وهكذا توقف القتال بعد سقوط أعداد كبيرة من الطرفين. وعلى إن يعقب ذلك تحكيم بين الطرفين، وكما هو معروف فقد كان عمرو بن العاص يمثل معاوية بينما كان أبو موسى الأشعري عن طرف الإمام علي. واجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما أتفق عليه الخصمان من وضع الحرب، وإيثار الحكم واختيار الحكيم وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما وتأمينهما. وعلى الرغم مما رواه الكثيرون عن أمر رفع المصاحف على الرماح، إلا إن هذا الأمر غير مؤكد، لأن المصاحف لم تكن متوفرة بهذه الأعداد في ذلك الوقت أولاً، ولأن المصاحف لم تكن مطبوعة كما هو عليه الحال في يومنا هذا على ورق وبجسم صغير قابلة للرفع على الرماح أو فوق الرؤوس<sup>(2)</sup>، لأن الورق لم يكن قد وصل إليهم. وكان المصحف الشريف قد حفظ في دار الخليفة عثمان بعد جمعه بدقة ولم يستسخ بأعداد كبيرة كما يتصور البعض، ولكن رغم ذلك كانت هناك مكيدة قد دبرت لإنقاذ جيش معاوية من الفناء والعودة إلى الشام منتصرين.

وبعد اجتماع الطرفين المتفاوضين من أجل حل النزاع وجرت مناظرات طويلة ولأيام عديدة. اتفقا على اقتراح لأبي موسى أو عن اقتراح عمرو بن العاص على إن يخلعا من الأمر الخلافة للمسلمين كلا من علي ومعاوية معاً، وإن يتركا للأمة أمرها شورى بينها تختار له من تشاء. لم يكن قد هيا كلا من الطرفين أهداف محددة قبل الاجتماع، وكانت هذه أول مرة تحصل وإن يفض النزاع في قتال ندى العرب بالمفاوضات والحوار، إذ لم تكن لغة الحوار في فض النزاعات قد تبلورت بعد في عقولهم، ولم يكونوا قد هينوا لها مسبقاً كما يجب. وهكذا سارت الأمور ليس فقط في تلك المعركة وإنما في جميع المعارك بعدها وعبر التاريخ، وحتى في القضايا الاقتصادية والى يومنا هذا. فكم أضاع العرب من ثروات نفطية هائلة بسبب عدم قدرتهم أو تفوقهم في الحوار مع الشركات النفطية في الغرب ومنذ إن اكتشف النفط لديهم وإلى الآن....وكم من نداء سفكت دون جدوى، كان بالإمكان حقن وإيقاف إراقتها لو كانت هناك ثقافة حوار وتفاوض يستطيعون من خلالها تقادي كل تلك المصائب. ونخص بالذكر منها ما

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص 74.

(2) كرل بروكلمان-المصدر السابق، ص 118.

عائينا نحن في العراق أيام الحرب العراقية الإيرانية، تلك الحرب العقيمة التي راح ضحيتها ما يقرب المليون شخص من كلا الطرفين. ولم تكن لتستحق قطرة دم بريئة واحدة، عدا الخسائر المادية التي يصعب حسابها. ومهما تعددت الأسباب والدواعي للحرب إلا إنها كان بالإمكان حل كل تلك الإشكالات والمعلقات بين الطرفين بالتفاوض. ولكن غياب الحكمة والعقل حال دون ذلك، وحصل الذي حصل وآلت إلى ما آلت إليه الأمور والأحوال كما هو معروف للجميع. ولا يفوتنا إن نذكر المعارك التي جرت في إقليم كردستان العراق طيلة فترة الحكم الوطني السابق ومنذ عام 1946 ولغاية 2003، فقد راحت منات الآلاف من أرواح الأبرياء وتم تدمير البنى التحتية للبلاد وكانت في غالبيتها تكمن في عدم القدرة في إيجاد لغة التفاوض والحوار البناء، وعدم القدرة في رسم الأهداف المستقبلية ووضع الموازنات في الأولويات وبالتالي القدرة في إقناع الطرف المقابل للوصول إلى الحل الأمثل.

وعودة إلى موضوع حرب صفين، فقد كانت نتيجة المفاوضات بين الطرفين إن تفرق القوم عن غير شيء كأنهم لم يجتمعوا. وكان الظفر في هذا كله لمعاوية، فقد رفعت الحرب عن أصحابه وأتيح له إن يريحهم، وإن يستعد لاستقبال أمره أشد قوة وأمضى عزماً وأعظم بأساً. وورط أصحاب علي في الخلافة والفرقة واضطروهم إلى الفتنة وجعل بأسهم بينهم شديداً<sup>(1)</sup>. إذ خرج عمرو بن العاص وهو يقول بأن الاتفاق تم على توليه معاوية خليفة على المسلمين، وعلى عكس ما أتفق مع أبو موسى الأشعري من تنح الطرفين عن الخلافة وكانت تلك جوهر المكيدة. وهكذا انتهت حرب صفين لتليها حرب داخلية أخرى بين المسلمين إلا وهي حرب الخوارج في النهروان. فما لبث مركز علي في العراق إن تضعف إلى حد بعيد وهو لا يزال في طريق عودته من صفين عندما لأمه جماعة من جيشه معظمهم من بني تميم، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنزول عند قرار هيئة التحكيم. وكان من رأيهم إن الحكم لله وحده. فانشقوا عن علي وانسحبوا إلى قرية حروراء، غير البعيدة عن الكوفة. وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبي خليفة عليهم، حتى إذا ذاع قرار هيئة التحكيم في الكوفة غادر عدد كبير من أشياع علي البلاد كمهاجرين أو خوارج، وانضموا إلى إتباع الراسبي في حروراء. وكان زعيمهم قد أقام معسكراً على طريق بلاد فارس، وعلى جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة. وهنا جرت معركة أخرى تعرف بمعركة النهروان، فقد هجم جيش علي على الثائرين في 17 تموز عام 658 م<sup>(2)</sup> وهزمهم هزيمة شنعاء راح ضحيتها العديد من المسلمين كان من بينهم جماعة

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص 101، ج 2.

(2) كزل بروكلمان- المصدر السابق، ص 120.

من أصحاب النبي المقربين وكانوا من أقرباء أهل البصرة والكوفة معا<sup>(1)</sup>. يقول طه حسين في كتابه " الفتنة الكبرى" في هذا المجال ما يلي " ظن علي إن الأمور قد استقامت له فلم يبق إلا إن يرمي جيشه هذا المنتصر أهل الشام، ولكن الشيء الذي لم يكن يفكر فيه علي، ولم ينتبه إليه أحد يومئذ هو إن الآلاف من الرجال الذين قتلوا في النهروان كانوا كلهم من أهل الكوفة وبعضهم من أهل البصرة، وليس منهم إلا من ينتمي إلى عشيرة في أحد هذين المصرين. وكثير منهم كانت عشايرهم في جيش علي ذلك الذي قتلهم. فقد كان عدي بن حاتم مثلاً مع علي في النهروان. وكان ابنه زيد في الخوارج الذين قتلوا. وما أكثر أبناء الأعمام الذين قتل بعضهم بعضاً في ذلك اليوم. وقل ما شنت في البواعث التي دفعت أولئك وهؤلاء إلى إن يقتل بعضهم بعضاً. كانوا جميعاً مخلصين في الدفاع عما كانوا يرون إنه حق، وكانوا جميعاً يصدرون عن شعور ديني صادق لا شك فيه. ولكنهم كانوا جميعاً ناساً يجدون في قلوبهم ما يجد الإنسان من الحزن على فقد الابن والأخ والصديق". . وبعد كل تلك المعارك وصلت إلى مدارك الناس في العراق إن لا جدوى من القتال بعد كل ما جرى. وكلما كان يحتمل الإمام علي على الجهاد لم يعودوا يستجيبوا لندائه. فقد اعتادوا إن يذهبوا للقتال مع غير المسلمين ويعودوا معهم الغنائم والأموال والتوسع في سلطان الدولة وفتح مساحات أوسع إلى الدولة الإسلامية، في حين لم يحصدوا من كل تلك المعارك التي خاضوها من الجمل وصفين والنهروان سوى المزيد من الضحايا بين المسلمين والمزيد من الاضطراب في الثغور الشرقية منها والغربية فقد أخذ الروم يطمعون باستعادة الشام وهموا بالغزو فلم يتقهم معاوية إلا بالمال<sup>(2)</sup>. وهكذا بدأت كفة معاوية تقوى وتتعاظم شيئاً فشيئاً بينما بدأت كفة علي تضعف، رغم إيمان قومه بصحة وصواب رأيه وبأنه مع الحق ومع الله ومع الدين والرسالة السمحاء. من هنا نقول إن المبادئ والقيم الأخلاقية الرشيدة لا تكفي لوحدها إن تقام وتنتصر، وفي مقابلها ومناقضها مصالح اقتصادية ومنافع دنيوية واضحة المعالم. ومن وجهة نظر علي النوردي في كتابه" وعاظ السلاطين" ما يلي: " إن العرب التقوا حول الإمام علي في البداية ورحبوا به عند مجيئه الكوفة كخليفة للمسلمين جميعاً فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية الإصلاحية. إذ استبدت قريش في بادئ الأمر وبانذات في أيام خلافة عثمان الذي كان ينتمي لإحدى أبرز أركان قبيلة قريش العربية وهم بني أمية. وثار العرب الآخرون يطالبون بالعدل والمساواة.

(1) طه حسين ( المصدر السابق) ج2، ص 106.

(2) طه حسين (المصدر السابق) ص109.

وقد أحست قریش أخيراً بالخطر الناجم عن نعمة العرب عليهم فغيرت سياستها نحوهم وأخذت تستميلهم بثتى الوسائل. وهكذا بدأ العرب ينفرون من علي شيئاً فشيئاً. فهم قد أحبوا علياً أول الأمر لأنه ثار ضد قریش المتعالية عليهم. ولكنهم حين وجدوه يساويهم بالموالي نفروا منه. لقد كان علياً يدعو إلى مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، لا فرق بين شريف ومشروف أو بين عربي ومولى<sup>(1)</sup>. ولكن هناك عامل مهم وهو الاقتصاد فقد تغير الوضع العام بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً على وفاة الرسول، أيام بدء الدعوة الإسلامية وبعد كل تلك الفتوحات والغنائم التي حصلوا عليها. فقد تغير سلطان الدين على النفوس ولم يعد من القوة بالمقارنة عما كان عليه الحال أيام حياة الرسول والشيعين. بينما استأثر سلطان المال والسيف على القلوب والنفوس. وكل شيء يدل على إن علياً، والذين ذهبوا مذهبه في المحافظة على سيرة النبي والشيعين، إنما كانوا يعيشون في آخر زمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء. وعلى العكس من ذلك كان معاوية، فقد كان من دهاة عصره في إغراء الناس بالمال وكسب ودهم ورضاهم. فقد استطاع إن ييسط نفوذه في الشام، وشن حملة على مصر للاستحواذ على سلطاتها ونصب عمرو بن العاص مرة ثانية عاملاً عليها. وبدء يتحرش ويطمع في ضم العراق إلى سلطانه، بعد إن أيقن إن علياً قد أخفق في بسط خلافته على كل أقطار الأرض الإسلامية. وفي الحقيقة انه لم يخفق بالمعنى الحقيقي للكلمة لسبب واضح للجميع، وذلك من خلال ما خلفه من مكانة ومنزلة وقيم وأخلاق لا يختلف عليها اثنين، وخلف طائفة من شيعته تعادل سدس العالم الإسلامي تقريباً في عصرنا هذا. لقد أخفق فنياً لما أراد إن تكون عليه أمور الدولة الإسلامية الفتية من بناء رصين مبني على الحق والعدل والشورى، إلا أنها لم تتجح بسبب عدم نضوج وتقيل الناس في تلك المرحلة الزمنية لمثل هذا البناء. وعادت كما هو معروف إلى عهدا السابق في حكم القبيلة نك الحكم التسلطي الاستبدادي القسري. وهكذا استطاع معاوية التخطيط لبناء الدولة الإسلامية المعروفة بالدولة الأموية لتكون أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك العصر. وهكذا فقد سيطر الموروث التاريخي في سلوك التسلط وحكم القبيلة وفرض نظم القبيلة والبداءة بما فيها من قسوة وعنف في تسيير أمور الدولة الجديدة، التي أريد بها إن تقام على أسس أخرى أكثر تحضراً وثباتاً. من هنا نستطيع القول بأن هناك سلماً ثابتاً للتطور يعتمد على عوامل عديدة لكي يستطيع إن يتم استيعابه من قبل الأغلبية من الناس ويحقق طفرة مميزة في المجتمع أما المبادئ والأفكار السامية لوجدها فأنها لا تكفي ما لم تتغير معها الظروف الملائمة والأرضية الخصبة لنموها ونضجها. وهكذا انتهت خلافة الإمام علي والذي كان آخر الخلفاء الراشدين الذين

(1) أحمد أمين "ضحى الإسلام" ج1، ص 23، عن علي الوردي "وعاظ السلاطين" ص 205.

جاءوا لإدارة دولة المسلمين بعد النبي محمد (ص) وذلك عن طريق الاختيار بالشورى. انتهت بانتهاج الجماعة الذين عاصروا النبي وكانوا معه بالحماسة والحس والضمير نفسه ولكن ذلك قد انتهى بانتهاج الجيل كله ليأتي جيل آخر لا يعرف كل تلك الحماسة والزخم في التغيير. بالإضافة للمتغيرات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي حصلت بعد ما يقرب من أربعين عاما على الهجرة النبوية وما أحدثه الإسلام من تغيير في المنطقة عموماً، وما حصل من تغيير في الوضع الاقتصادي للمسلمين في الشام خاصة والذين كانوا أشد حماساً من غيرهم في قتال البيزنطيين وكسب المزيد من الغنائم بقيادة معاوية.

## 8- مصرع الإمام علي ونهاية الخلافة الراشدة:-

بينما كان الإمام علي يجاهد في سبيل أصحابه ليحملهم على النهوض معه في حرب الشام لإحقاق الحق وفرض سيطرة الدولة في كافة أرجاءها، وبيعت العديد من الوسطاء من أجل رد غارات معاوية على أطرافه في العراق والحجاز واليمن والتي أصبحت تأتي بشكل متتابع. ويجاهد ضد الخوارج الذين أصبحوا يجاهرونه بالعداء. وبينما كان ينصح الناس ويحثهم لدينهم في خطبه التاريخية المعروفة. كان هناك نفر من الخوارج يخطط للغدر والخيانة بالأسلوب الذي اعتادوا عليه في عمليات الاغتيال السياسي والناجمة عن إرث قديم في التخلص من الخصوم بطريقة العنف التي أشرنا إليها سابقاً. وقد اجتمعوا وانتمروا على إن يريحوا الأمة (حسب عقيدتهم) من ثلاثة زعماء كانوا أساساً في اختلاف أمة الإسلام وهم علي ومعاوية وعمرو بن العاص وأن يثاروا لإخوانهم بقتل علي من جهة أخرى. وهناك قصص عديدة رواها الرواة في عملية قتل الإمام علي إلا إن الأقرب إلى المعقول هو أنهم انتدبوا عبد الرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي بينما آخرون ذهبوا لقتل معاوية وعمرو بن العاص واتفقوا على يوم معين ينفذون فيه ما هموا عليه، واختاروا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة وكان ساعة الخروج لصلاة الصبح في اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذلك سنة أربعين للهجرة<sup>(1)</sup>. ولم تفلح خطة قتل معاوية وعمرو بن العاص بينما نجحت في قتل الإمام علي حيث ذهب عبد الرحمن بن ملجم هذا إلى الكوفة وأقام فيها يتربص يوم الموعد وساعته. ثم أقبل في آخر الليل ومعه رفيق له استعانته على ما أراد فانتظر خروج علي للصلاة، فلما خرج تلقاه بسيفيهما وهو يدعو الناس لصلاتهم كعادته يومياً. فأصاب سيف بن ملجم من جهته حتى بلغ دماغه. ووقع سيف صاحبه في جدار البيت. وخر علي حين إصابته الضربة. وقد أخذ عبد الرحمن

(1) طه حسين" المصدر السابق" ج2 ص 166.

بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار، وحُمل علي إلى داخل داره، فأقام فيها يومين وليلة بينهما. ثم مات في ليلة اليوم الثاني (رحمه الله).

ويروي المؤرخون إن علياً أمر من حوله إن يحسنوا طعام ابن ملجم ويكرموا مثواه، فإن برئ من ضربته نظر، فأما عفا وإما اقتصر. وأمرهم إن مات إن يلحقوه به ولا يعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ويروي عنه كذلك انه كان يردد دائماً "لقد فزت ورب الكعبة" والمقصود هنا انه تخلص من كل عناء المسؤولية الموكلة إليه في الخلافة ليذهب مستريحاً إلى ربه. وهكذا انتهت خلافة الإمام علي بطريقة الغدر كما انتهت من قبله خلافة عثمان وعمر. والملاحظ من الإرث التاريخي للعنف السياسي في البلاد إن ثلاثاً من بين أربع خلفاء راشدين ماتوا غدرًا، لتعود الدولة في إدارتها إلى الأسلوب القبلي الوراثي والذي استمر بهدوء نسبي وبدون مشاكل داخلية واسعة. فقد استطاع معاوية إن يعين عماله في الكوفة والبصرة ومصر والحجاز واليمن وتفرغ للتهيؤ لشن حملاته ضد البيزنطيين من أجل توسيع رقعة الدولة في المزيد من الفتوحات. وفي ذلك كان يحاول تحقيق حلم الرسول محمد (ص) في السيطرة على بلاد فارس والبيزنطيين ولكن حكم الرسول كان بالأسلوب الإسلامي في نشر العدالة والمساواة من خلال نشر دعوة الدين الإسلامي. بينما كان معاوية يتستر وراء ذلك ويغخي المزيد من الغنائم والأموال. لقد مات الإمام علي ولم يمت في قلوب جماعته ودفن في النجف بالقرب من الكوفة وأصبح قبره فيما بعد واحداً من أقدس الأماكن لدى المسلمين وخاصة الشيعة. وأكتسب قدسية بعد وفاته لم يكتسبها إلا قليلون غيره، حتى إن الأرض المحيطة بالمقبرة أصبحت واحدة من أكبر المقابر للمسلمين يرومها الكثيرون لدفن موتاهم. وأكثر من ذلك فقد انتقلت القدسية هذه إلى ذريته من بعده والى يومنا هذا. لم يكن كل ذلك محض صدفة أو اعتباطاً، وإنما كان وراءه أمراً مهماً لما فعله هذا الإمام من أعمال مؤثرة في النفوس، وصلت إلى ما وصلت إليه الحال إلى عصرنا هذا. لقد خلف أرثاً كبيراً من القيم والمفاهيم الأخلاقية السامية ظلت تنهل منها الأجيال إلى يومنا هذا، بينما بالمقابل ازدهرت الدولة الأموية مادياً وآلت إلى الأقول ولم تترك ورائها قداسة أو قيم أخلاقية يقتد بها الناس كما سنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب على الرغم من إنها كانت ضرورة تاريخية فرضتها المرحلة وأنت منافع أخرى في العديد من مجالات الحياة. ولابد من الإشارة هنا إلى إن عمليات الاغتيال السياسي في العصر الراشدي لم تقتصر على الخلفاء الثلاثة بل امتدت لتشمل شخصيات إسلامية مهمة منها سعد بن عباد زعيم الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة الرسول محمد (ص) إلى يثرب، وقد تم قتله في الشام في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، ومالك الأشتر الذي اغتيل مسموماً وهو في طريقه ليتولى أمر ولاية



مصر في عصر خلافة الإمام علي ويقال إن ذلك كان بتدبير من معاوية<sup>(1)</sup>. وقد حظى مالك الأشر هذا بوصية من الامام علي قبل وفاته وقبل مغادرته الكوفة بالتوجه الى مصر لأخذ منصبه في إدارة مصر، وكانت تلك الوصية ذات وقع أدبي عميق تدل على مستوى القيم الأخلاقية التي يتصف بها الإمام علي لا بد من ذكرها هنا لكي تتضح الصورة في خلافة آخر الخلفاء الراشدين. وسواء كتبت تلك الوصية من بعده عن طريق الشريف الرضى أم أنها كانت أصيلة فإن الرجوع إليها يعطي إنطباعاً عن خيرة وتجارب الحكم في تلك الفترة الإسلامية الحرجة:

---

(1) هادي العلوي- المصنر المسيق- ص 52.

## مقتطفات من وصية الإمام علي بن أبي طالب الى مالك الاشتر:

"إعلم يا مالك أنني قد وجهت الى بلاد عليها دول قبلك من عدل وجور. وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنتظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عبادة. فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح. فأملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاربا تغتتم أكلهم، فأنهم صنفان، أما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمل والخطأ فأعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فأنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقهم، والله فوق من وراك. وقد استكفك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تتصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه. ولا تتدمن على عفو ولا تبجنن بعقوبة، ولا تسرعن الى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن أنني مؤتمر أمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير. " الخ ثم يمضي فيقول: ليكن أحب الأمور اليك اوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرض الرعية. فإن سخط العامة يجحف برض الخاصة وأن سخط الخاصة يُعْتَقَر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للانصاف، واسأل بالاحاف، وأقل شكراً عند العطاء. وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عن ملمات الدهر من أهل الخاصة وأنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء العامة من الامة فليكن صفوك لهم وميلك معهم... الخ.

ثم يقول: لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانا يضعفك عن الامور ولا حريصاً يزنني لك الشر بالجور فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله. ان شر وزرائك من كان للاشرار. قبلك وزيرا ومن شاركهم في الإثم فلا يكونن لك بطانة فأنهم أعوان الائمة وأخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم وتقادهم وليس مثل أصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آتما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك ألفا.... الخ...

ثم يقول: لا تتقضي سنة سالحة عمل بها صدور هذه الأمة وأجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فليكن الاجر لمن سنها. والوز عليك بما نقصت منها. الخ.

وتتقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقيم أمره الا قليلاً فان شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض أغمرها عرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يتقلن عليك بشيء خففت به المؤونة عنهم، فاته نخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما نخرت عندهم من أجماك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدك عليهم في رفعك بهم. الخ ثم يقول:

" إستوصي بالتجار ونوي الصناعات وأوصي بهم خيراً، والمقيم منهم والمضطرب بماله، والمتفرق ببينه، فأتهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المبادئ والمطارح، في برك وبحرك وسهالك وجبلك، وحيث لم يلتزم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فاته سلم لا تخاف بانقته وصلح لا تخشى غائلته، وتتقد أمورهم بحضورتك وفي حواش بلادك. واعلم مع ذلك ان كثير منهم ضيقاً فاحشاً قبيحاً واحتكار للمنافع، وتحكماً في البياعات وذلك باب مضرة للعمامة وعيب على الولاية. فأمنع من الاحتكار.. الخ.

" لا تطولن احتجاجك عن رعيك فإن احتجاج الولاية عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور... الخ.

ثم يقول: إن للوالي خاصة وبطانة فيهم إستنثار وتناول، وقلة إنصاف في معاملة فأحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال.

ولا تتفغن صلحاً دعاك اليه عدوك والله فيه رضى فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأماناً لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن. الخ.

إياك وإياك والدماء وسفكها بغير حلها، فاته ليس شيء أذى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا اخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. فلا تتوين سلطانه بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله. إياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسك ليمحق ما يكون من إحسان للمحسنين. وإياك

والمن على رعبتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فنتبع  
موعذك بخلفك فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب  
المقت عند الله والناس.

كأنت تلك مقتطفات من وصية الإمام علي لمالك الاشتهر يتضح فيها عمق  
تجربته وعلمه وزهده وعظمته ( رحمه الله).

وهناك مقولة أخرى للإمام علي مأثورة وذات مغزى فلسفي عميق تستحق  
الذكر هنا وهي: "لا تعلموا أولادكم بمثل ما علمتم به لأنهم ولدوا بزمان غير  
زمانكم". وهذا يعني أنه مدرك للتطور الحاصل والذي يحصل بمرور الزمن ناقياً  
بذلك كل الحجج الداعية إلى التمسك بنصوص وتعاليم الأقدمين والتي لا تتسجم  
مع تطور العصر.

## الخاتمة الخلاصة والاستنتاجات

لقد تناولنا في هذا الكتاب أهم المحطات التاريخية التي تجولنا فيها، منها ما كان سريعاً جداً، ومنها ما هو مفصل بعض الشيء وحسب ما جاء في المصادر المتوفرة. وكان الهدف من ذلك هو معرفة أسس الموارث التاريخية المؤثرة فينا، ولا زالت تعيش معنا في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا - بهذا القدر أو ذلك - بهدف زيادة الفهم للإنسان العراقي والعربي المعاصر ومن أجل الوصول إلى طرق ووسائل نستطيع فيها معالجة والتعامل الأمثل في حل مشاكل البلاد. وكانت الجولة السريعة في حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي شكلت حجر الأساس للمعتقدات والأفكار للمراحل التي تلت ذلك. ثم تناولنا تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وتاريخ فجر الإسلام أيام الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين وتوقفنا لهذا الحد، على أمل إن نكمل موارثنا التاريخية للقرات التي تلت هذه العصور في المستقبل نظراً لأهميتها. ولا يمكننا إن نضع الاستنتاجات النهائية لكل العصور لعدم تكاملها ولكننا نستطيع إن نؤشر على الاستنتاجات المتعلقة بالفترة التي وصلنا إليها وهي نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

وقبل البدء في تلك الاستنتاجات لابد لنا من الإشارة إلى السلم تطور حياة الإنسان الحضارية على هذا الكوكب ومنذ البداية. فنلاحظ من هذا السلم إن كل اكتشاف مميز للإنسان يعطي فقرة في حياته بشكل يميزها عن سابقتها من جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وبيها لقاعدة من نمط حياة متميزة مرهونة بذلك الاكتشاف. فكما نلاحظ في الشكل (1) إن القفزة العمودية تمثل اكتشاف أو عدد من الاكتشافات العلمية المميزة التي لعبت دوراً بارزاً وأصبحت حاضنة لحقبة زمنية معينة تتميز وتدين لذلك الاكتشاف وهكذا.... فعلى سبيل المثال، إن اكتشاف الإنسان للنار قد مكّنه من التغلب على العديد من المشاكل منها حصوله على النعم، وطهي الطعام بحيث أصبحت تصل إلى الدماغ كميات كبيرة من المواد الغذائية الرئيسية وبصورة أسرع ساعدة في زيادة حجم الدماغ، وتقليص حجم المعدة وزوال الشعر من الجسم وغيرها (من فضائل النار على الإنسان). وكان ذلك في العصور الحجرية الأولى (قبل حوالي 450 ألف عام). وبعدها تمكن الإنسان من اكتشاف الزراعة التي مكّنته من أن يصنع قوته بنفسه، بدلاً من إن يبقى متجولاً لجني القوت وقد سهل ذلك من تكوين قاعدة أفقية لحياة الإنسان المستقرة في القرى والمدن الآمنة، وكان هذا بنوره عاملاً مساعداً لأن يقوده لاكتشاف الكتابة واللغة، وبدء يدون ما ينتجه من أفكار لكي لا تضيع عليه، وهكذا فإن كل اكتشاف مميز يشكل قاعدة من السلوك

الاجتماعي ونمط حياة معينة لحقبة من الزمن تتميز بكل صفاتها ضمن حصيله ما أنتجه من خدمة وتكليل بعض المصاعب التي يعاني منها لقهر الطبيعة. وهكذا استمرت مراحل التطور بشكل سئم تتمثل بالطفرات العمودية التي تمثل الاكتشافات المتميزة، بينما تمثل في المحور الأفقي شكل ونمط الحياة التي كان يعيشها الإنسان في تلك المرحلة. وهذا يقودنا لاستنتاج إن الفكر البشري مرتبط ضمن مرحلة معينة من الزمن بالمعطيات والنتائج السابقة وعليه إن يتكيف للعيش في كنفها اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً. وإذ يعيش الإنسان المعاصر في الدول المتقدمة في أعلى مراحل السلم مستوعباً كل ما قدمته البشرية من نتاج فكري وتقني، ولتوضيح ذلك فإن الطفرات التي تحصل في فترة زمنية قصيرة من عمر الإنسان لم تأتي جزافاً أو عن طريق معجزة أو قدرة خارقة وإنما نتيجة تراكمية للخبرات والممارسات الإنسانية عبر فترة زمنية طويلة أعطت ثمارها بشكل يبدو لنا بأنه فجائي. أن الأفكار تنشأ من خلال الخبرة وتساعد هذه في توجيه الطاقات الطبيعية لكي تحقق الوحدة والتكامل للخبرة. أن الامكانيات البشرية ما هي الا عوامل واقعية وافتراضات مقصورة على الوعي الذاتي للخبرة، ولا تتعالى عليها، وهذا يعني أنها تعود إلى التواصل الحالي والاختبار الذي يخضع له الإنسان ما بين أعضائه الجسدية والمحيط الذي يعيش فيه. فهي جميعاً جزء من السلسلة الطويلة العريضة للتفاعل (أعمال أو إنجازات أو هزائم أو تأملات جمالية أو إنشغالات ذات فاعلية) في الزمان والمكان من تلك التي تتشكل منها الخبرة. وهكذا فإن سئم تطور العقل البشري يبدو لنا وكأنه يحصل من خلال طفرات سحرية ولكن الحقيقة هي أنّ مجموعة من الأعمال والأفكار تتراكم مع بعضها البعض لتنتج تحولاً نوعياً ملحوظاً. وحسب رأي جون ديوي في كتابه عن "الخبرة والتخيل في فلسفة المثل الأعلى للديمقراطية" يقول<sup>(1)</sup>: " أن الذكاء ما هو إلا قوة تتبثق من خلال تعاملات طبيعية ثم تعود لكي تحولها الى واقع مميز عن سابقه. أن عمق الخبرة يمثل الدرجة التي وصلت إليها المشاركة الفاعلة للكائن الحي في إجتياز الظروف وتحولها وذلك بالانهماك بها كلياً. ثم يمضي فيقول " أن الطبيعة لا مقاصد لها في ذاتها بمعزل عن أنشغال الإنسان بها. ذلك لان الذكاء ظاهرة تخص الإنسان أما العمليات الجارية في الطبيعة في قوة مرنة بامكانها التحرك بتشكيله من الطرق المختلفة وليست أية منها تجري قضاءً وقدرًا. ومع ذلك بما أن المقاصد والغايات تعود إليها الطبيعة، لأن الكائنات الإنسانية هي ذاتها تعود الى الطبيعة وبذا فإن صياغة الغايات المرتبطة والمثل العليا والنشاطات المدروسة التي تبغي وضع الطاقات الطبيعية لتعمل بأنسجام مع هذه المثل العليا تقوم جميعاً بأستكمال ما لا يعد كاملاً في الطبيعة. ولتوضيح ذلك

(1) فصل من كتاب "الديمقراطية والتربية" لجون ديوي- ترجمة متي عراوي، و زكريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمة والنشر- وزارة المعارف- بغداد (1946).

فإن المغامرة الإنسانية التي يقوم بها الإنسان تعد طبيعية إلا أنها بذلك تغدو منظومات أرقى للطاقات الطبيعية. من هنا يتضح أن الأجزاء الذي يحققه الإنسان بنموه وتقدمه الاجتماعي في مرحلة زمنية معينة يتدخل ويعتمد على الخيار الحر المسؤول والمتخذ بعد تفكير عميق فضلاً عن استناده على الفرص المتاحة التي تهيئها الظروف والوسائل المتاحة. أن الخبرة هي طليعة الطبيعة التي تتغلغل فيها وتتشكل من أفق مليء بالمشاركة الهادفة يتسع بالبحث والتفسير وإعادة التفسير للحدث. أن الامكانيات المفترضة المنبثقة من الفعاليات التي توفرها التفاعلات الطبيعية تقوم بصياغة أهداف ومقترحات جديدة تؤدي الى توسيع أفق الخبرة ضمن الطبيعة التي يعيش بها المجتمع. أن للخبرة سعة أفق الى مدى ضمن النوعية المميزة التي يتحلى بها الأفراد في ذلك المجال. وهنا يمكن أن يتدخل الذكاء ليجعل تلك الخبرة أكثر شمولاً وتركيزاً ونفاذاً في مجال الطبيعة المحيطة به. أن الذكاء يمثل الاقوى للغايات المجتمعة القادرة على توسيع مستمر في طريق اقتراح امكانيات جديدة في الوصول الى نتائج أكثر شمولاً ونفعاً. وهكذا وعلى هذا الأساس فقد استمر التطور التاريخي للإنسان ولا يزال مستمراً بوتيرة أعلى نظراً لتراكم الخبرة وزيادة الذكاء الى أن وصل الى ما نحن عليه من تطور علمي وتقني مميز.

بينما نجد إن الإنسان في بعض الدول المتأخرة لا يزال يعيش في المراحل الأوطى من السلم المشار إليه ولم تصله كل نتائج فكر الإنسان المعاصر إليه. وفي كل مرحلة من المراحل التي تكلمنا عنها عبر التاريخ يسعى الإنسان لإيجاد فلسفة تفسر له وتجييب عن كل التساؤلات التي تنشأ في محيطه من أجل الاستمرار في رسم نمط الحياة التي يعيشها بشكل أو بآخر. ونلاحظ انه في ضوء ذلك فقد غدت الفلسفة الحديثة تتسجم مع معطيات العصر الحديث في أول إمكاناتها، إلا وهي تحررها من الوصايا الثيولوجيا التي تكاد تهيمن على المؤسسات والعقول في عالمنا العربي عموماً. فكما جاء في كتاب عبد الوهاب حميد رشيد عن حضارة وادي الرافدين القديمة ما يلي: " إن الدين ظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان نفسه، التصق بعقله وفكره وممارساته منذ أقدم العصور، وقدم خدمات جليلة للبشرية بتقويم سلوك الإنسان في وقت لم تتواجد بعد الدولة والشرطة والقوانين الضبطية الأخرى. وتشير الدلائل الأثرية للقبور المكتشفة إلى إن أشكالاً من المعتقدات الدينية عاشت مع الإنسان منذ العصر الحجري القديم. وفي العصر الحجري الحديث عندما حلت الزراعة والتدجين محل جمع القوت والصيد وانصبت عناية الإنسان على تغيرات فصول السنة، وأصبحت طقوس الزراعة والخصوبة محور الفكر الديني" ، ثم يستطرد فيقول: " لم يلعب الدين الدور الكبير الذي لعبه في حضارة وادي الرافدين في أي مجتمع آخر قط، لأن إنسان هذه الحضارة كان يشعر على الدوام انه يعتمد في وجوده واستمراره كلياً على إرادة الآلهة. بمعنى

إن عقيدة القوم كانت تنسب ذات الإنسان إلى العالم الخارجي (القوى الخارقة) في غياب إرادته - فكراً وممارسة، بل وأكثر من ذلك لا توجد لفظة سومرية محددة بمعنى ذاكرة أو عقل الإنسان، وإن العلاقة بين الفكر والعقل لم تكن قائمة. من هنا غلبت على الحصيلة الدينية للقوم وأساطيرهم الغيبيات والخرافات وغلفت أفكارهم الخيالات الجامحة بالهرولة وراء الأوهام من قوى خارقة وشياطين وعفاريت غير منظورة، واتخاذ الطقوس الدينية مرجعاً ومصدراً ومنهجاً للكشف عنها وتفسيرها والتعامل معها بما يحقق لهم الحياة الأمنة والسلام الذاتي المنشود. وهذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة ممتائلة وذات أهمية متساوية، ولم يستطعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة كما هو حاصل في العصر الحديث" (1)، (2). لقد كانت تلك الأفكار في السلام الأول من سلم التطور منسجمة مع معطيات ذلك العصر. إما الآن وبعد التطور الصناعي الذي شهده العالم ظهرت نظرية تجري على النسق التالي: " في المجتمع الصناعي العلمي، يضعف الإيمان ويخف التمسك بالشعائر الدينية، لأسباب إن عقائد الدين تصارع مبادئ العلم الحديث التي تتمتع بمكانة كبيرة وتكون قواعد وأسس التقانة الحديثة، وبالتالي الاقتصاد الحديث أيضاً. ولهذا يضعف الإيمان الديني، وتتدهور مكانته وهيئته مع ارتفاع مقام ونفوذ منافسة" (3). لقد أصبح الإنسان يقرأ من هنا نظريات ومعادلات رياضية في الهندسة والكيمياء عن عمليات تكرير النفط مثلا ليجد أمامه واقعا ملموساً عن كيفية دخول النفط الخام من جهة ليخرج من الجهات الأخرى إلى منتجات نفطية متعددة من خلال تطبيق تلك المعادلات والأسس العلمية الرصينة ولا مكان للغيبيات والخرافات فيها. وهكذا الحال في جميع المجالات التطبيقية للعلوم الحديثة نخص منها بالذكر مجال الاتصالات مثلا. وبالتالي أصبح العلم هو المتغلب على كل المعتقدات الأخرى، لأنه أصبح يطبق على أرض الواقع، وينتج تقنيات ملموسة لا تقبل الشك. لقد أصبح العلم في المجتمعات الصناعية واقعا ملموساً وليس مجرد كتب تقرأ. بينما بقي مجتمعنا أسيراً للمفاهيم الزراعية التي قامت عليها أول حضارة في العالم وهي حضارة وادي الرافدين، متمسكاً بالأفكار التي تولدت في تلك الزمان وتطورت بعد ذلك إلى إن أصبحت أديان سماوية ثابتة لا مجال للحوار حولها، أو تطويرها وهكذا بقي عمل بعض المؤسسات في بلادنا العربية اليوم تتخذ توجهها إستراتيجياً نحو إغلاق سبيل التفكير واستبداله بسبب التفكير، تلك السبب التي ليست لها من هم سوى القضاء على الإبداع في كل مجالات الحياة. وأكثر من ذلك أصبحت تريد

(1) عبد الرومب حميد رشيد-حضارة وادي الرافدين" ص 218.

(2) جورج رو، ص 128 "العراق القديم".

(3) ارنست غيلفر " ما بعد الحداثة والعقل والدين" ترجمة معين الصام، دار المدى للثقافة والنشر. دمشق (

2001) ص 20.



إن تقضي على الإنسان نفسه عن طريق الانتحار والأحزمة الناسفة. ومن ثم إشاعة الرأي الذي لا يحيا إلا في حياة التشابه والتطابق، ولا يستهدف إلا صناعة عقول جماعية لا تفكر، كما يستهدف استئصال جذور الاختلاف بالرأي، وبالتالي القضاء على أي إمكانية للتقدم المستقبلي. إن إمكان الفلسفة العربية مرهون بالتخلص من وصايا التفكير الهيمني الديني الذي لا يؤمن أصلاً بقدرة العقل عن شق سبيله بنفسه. ولذلك فمن أجل التأسيس لإنتاج فلسفي في الفكر العربي المعاصر، لابد من وضعه في سياق عملية أخرى هي التأسيس لمشروع عربي في النهضة والتتوير أولاً. ولابد من الإجابة على الاستحقاقات التالية على نحو فاعل. وثانياً: ضبط العلاقة بين الفلسفة والفكر وبين الفلسفة والدين والاشتغال على إبداع علاقة متقدمة من التراث الفلسفي والفكر الغربي تاريخياً وراهناً، في ضوء الأسئلة العربية الراهنة أي في ضوء الواقع المباشر، وذلك للإجابة عن سؤال، في أي سلم من التطور التاريخي نحن نعيش الآن. لكي نعرف أنفسنا عدد السلام التي من الواجب صعودها للوصول إلى العالم المتقدم، وما ينبغي علينا عمله من أجل ذلك. وما تقدم في الفصول الأربعة لهذا الكتاب، فقد نشأت أول حضارة إنسانية لدينا، وأستمر الصعود في السلم على ما يرام، ولكن توقفنا كثيراً في أحداها، ولم تتمكن من مواكبة التطور منذ بداية عصر النهضة الأوروبية (منتصف القرن الخامس عشر ميلادي)، بل أستمروا النتاج الفكري والحضاري يصدر ألينا تصديراً شحيحاً. وبقيتنا نتلقى ما ينتج من فكر علمي من الدول المتقدمة. وبداننا نتلقف المنتجات التقنية من ثمرات هذا العلم ونبدي دهشتنا فيها وقد أصابنا الإحباط وبداننا نشعر وكأننا نختلف عنهم، من دون أن ندرى لماذا؟ وحتى إن ذلك ولد لدى البعض شيء من الحقد والكراهية وصراع ضد الحضارة الأوروبية الحديثة وعدم تقبل الحداثة والتتوير. وهنا نورد مثلاً بسيطاً لتوضيح نمط تفكير الأوربي بالمقارنة مع نمط تفكيرنا في البلاد العربية وكما يلي:

ذهب العالم البريطاني كرانت (Dr. Grant) الأستاذ في جامعة كامبردج هو ومجموعة من رفاقه إلى بعثة استكشافية في القرن التاسع عشر من أجل البحث والتقصي عن أصل منابع مياه نهر النيل العظيم في مصر. وقد وصل في جولته إلى مناطق في وسط أفريقيا وجنوبها تتخللها المخاطر من الحيوانات الوحشية والأحراش والأدغال والحشرات الناقلة للأمراض، وتوصل في النهاية إلى نتائج رائعة عن حقيقة منابع نهر النيل عن بحيرة فيكتوريا وغيرها من فروع ومدخل عديدة ورسم خريطة لذلك. وبعد أنجاز هذا العمل تمرض بمرض الملاريا ورقد في الفراش في وسط أفريقيا، وتآل كلمة مأثورة لرفاقه وهو على فراش الموت: إنني ساموت هنا وأنا مرتاح البال لأنني وضعت كل الأحمال التي كانت في رأسي من خلال الاكتشاف والوصول إلى الحقائق التي وجدتها. وهو متيقن أنها ستفيد البشرية، ثم توفي ودفن هناك. هذه القصة البسيطة نوردها هنا من بين المنات

بل الآلاف من القصص التي تدور حول حياة المستكشفين في شتى مجالات الحياة. إن ما يفكر فيه الأوربي هو من خلال ثقته بما ينتجه العقل البشري من إبداع، إذ كان يؤمن بثقة مطلقة بقدرات هذا العقل. وهو يعتقد إن قمة السعادة تكمن في تحديه للمخاطر ووصوله إلى نتائج كان يحلم لتحقيقها. ولغرض المقارنة بين ما نحن عليه من فلسفة تفودنا إلى ترك الأمور كما هي وإن قيمة عقل الإنسان لا تساوي شيء بالنسبة للقوى الأخرى الغيبية. فلم نسمع يوماً إن ذهب مصريا من ذاته طوعا ليفتش عن منابع نهر النيل العظيم الذي عاش الأجداد على ضفافه منذ آلاف السنين، بل لم يكثرث أبناء المنطقة لحل أمور علمية تهمهم وهي أبسط من ذلك كثيرا لأن الإرث الثقافي الثقيل قد أحال دون ذلك. وهكذا لم نجد أحداً من بلاد الرافدين أيضاً إن ذهب ليفتش عن منابع نهري دجلة والفرات من أجل معرفة كيفية التعامل مع هذه المياه التي اعتمدت الحياة بالمنطقة عليها منذ آلاف السنين وأنشأ أول حضارة في العالم بفضلها. إن زيادة المعرفة في موضوع المياه يمكن من تسخيرها لخدمة البلد بشكل أمثل وأضمن.

نعود ونقول علينا إن نبني لفلسفة تفودنا

أولاً: إلى معرفة مكاننا في سلم التطور.

وثانياً: تعزز الثقة في النفس وفي قدراتنا العقلية وتطلقها لتؤسس مجتمعاً قادراً على حل مشاكله بنفسه وعلى الإجابة عن كل التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن الإنسان في محيطه الذي يعيش فيه الآن.

وهنا ربما يسأل القارئ وماذا بعد بناء الفلسفة وكيف نضمن إن تكون هذه الفلسفة قد تم استيعابها وتقبلها والعمل بها. الجواب بسيط جداً، وهو إن علينا الاهتمام بتعليم الأطفال منذ المراحل الأولى وفقاً لمنهاج هذه الفلسفة وإبعاد كل ما يحد من تفكير وثقة الإنسان بعقله وقدرات هذا العقل على الإبداع. وترسيخ قيم العصر الحديث والابتعاد عن الأفكار الميتافيزيقية. إن تقدم كل مجتمع مرهون بتصورات وانطباعات وتلقين الأطفال منذ مراحل نموهم الابتدائية وإلى مراحل الشباب المتقدمة. إذا لم نكن نستطيع تغيير مفاهيم المجتمع بأكمله، فلا بد لنا إن نبدأ بالصغار لكي نضمن نشأتهم على أسس صحيحة، مع مراعاة عدم إهمال الجوانب الحياتية الأخرى كبناء الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والمرأة... الخ. وعلينا أيضاً إن نبدأ في إصلاح أبعاد حلقة في المجتمع إلا وهي القرى النائية. ويجب الاهتمام في نواحي الحياة في القرى لأنها كانت في عهد قريب تشكل مصدر تنفق المشاكل إلى المدينة، وإن إعادة بناء تلك القرى لتصبح مصدراً من مصادر العطاء للبلد وتعمل على تطويره وبناء اقتصاداً متيناً لا يعتمد على النفط كمصدر أساسي للثروة. ويعكس ذلك سوف إن نستطيع التقدم خطوة واحدة. لأن مشاكل بلداننا لا تكمن في الأعمار التقليدية وجلب شركات تبني المصانع وتدخل التكنولوجيا وتعمّر من واردات النفط. فما لم تتم التنمية البشرية بحيث نيشأ لاستيعاب التطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة لا يمكن لنا إن نسير خطوة واحدة إلى الأمام. إن كل دولة لديها إنتاج نفطي كبير تستطيع إن تشتري

كل شيء من بناء ومصانع وزراعة ولكن ما لم يتم الاهتمام بالإنسان فإن كل هذا الأعمار سيصبح في يوم ما خردة ما لم يتم بجانب ذلك حصول تنمية بشرية قادرة على استيعاب ما يدور من حولنا من تطور سريع جدا. وبالتالي إمكانية المحافظة وصيانة هذا البناء وتطويره. لقد مرت بنا تجارب عديدة لم تكن ناجحة بسبب ضعف تشخيص العلة الرئيسية في معاناة هذا المجتمع وعلينا الاستفادة من كل تلك التجارب من أجل الارتقاء إلى أساليب وطرق أكثر نضجا وعتائنية. وإلا فإن الاعتماد على النفط لوحده كمورد أساسي للثروة سيؤدي إلى حصول كارثة لا سألح الله. وأخيرا إن ما نريد قوله لا يعني الابتعاد عن الدين والهوية بل العكس من ذلك يمكن التمسك بكل القيم والمبادئ السامية التي تدعو إليها الأديان في خدمة الإنسان، ولكن علينا أولا إن نستوعب كل ما توصل إليه العلم في العصر الحديث ونضع فلسفتنا في الثقة العالية بقدرات العقل البشري بالإجابة عن كل التساؤلات التي تحيط بنا وحل المشكلات عن طريق البحث والتقصي، ونبذ العنف والغاء الرأي الآخر. ولذلك علينا أولا إن نراجع فلسفتنا ونتساءل لماذا سبقونا؟ وكيف السبيل للالتحاق بسرب الحضارة الحديثة وبعيدا عن تفسيرات المؤامرة التي كنا غارقين ومغرمين في إلقاء اللوم لكل مشاكلنا ضمن هذه النظرية التي أصبحت بالية ولا تجدي نفعاً. إن تسليطنا لبعض الضوء على الأعباء والأحمال التي تحملها المجتمع الراقدين في رأسه من الموارث التاريخية عبر كل تلك العصور الغابرة تدعو للحاجة الملحة إلى التأسيس لفلسفة حديثة تعطي جرعة أكبر للثقة بالعقل والفكر القادر على حل كل المشاكل التي تواجه المجتمع وبالتالي الصعود السلم لمستوى العصر الحديث عصر القرن الحادي والعشرين أسوة بالعالم المتحضر. ولا بد من الإشارة هنا إلى إن بعض فلاسفة العرب الحديثين أمثال ابن رشد قد أشار بوضوح إلى أهمية الاعتماد على العقل والمنهج العلمي في تفسير ما يحيط بنا دون إهمال المعتقدات الروحية والقيم الدينية التي نتمسك بها<sup>(1)</sup>. وكان ذلك قبل تسعمائة عام (عصر المأمون) ولكن للأسف لم يأخذ بتلك الفلسفة أحد من العرب بينما تمسك بها الغرب بعد ترجمتها في باريس وكان ذلك قبل عصر النهضة الأوروبية بمائتي عام. كما لم يؤخذ بأراء الداعين إلى الحدائث في العصر القريب ومنهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم<sup>(2)</sup> وربما كان واحداً من أسباب ذلك هو انشغالهم بادئ الأمر بالوسائل المادية نحو أشباع الحاجيات الأساسية للإنسان كالأكل والملبس والمشرب، نظراً لكون المنطقة التي تعيش فيها ذات طبيعة صحراوية شحيحة الموارد وقاسية الحرارة وذلك قبل اكتشاف النفط لدينا، بالإضافة لتأثير الموروث التاريخي في التسلط والشمولية مما جعل الإنسان يبتعد عن تحقيق ذاته من شدة الخوف الذي يعاني منه نتيجة لذلك التسلط. ولم ترتقي حاجيات الإنسان الشرق أوسطي بعد، وصول إلى تحقيق الذات في السلم الهرمي كما جاءت في نظرية

(1) ابن رشد" جوامع سيماء أفلاطون:.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد" العراق المعاصر" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق سوريا ( 2002 ) 44.

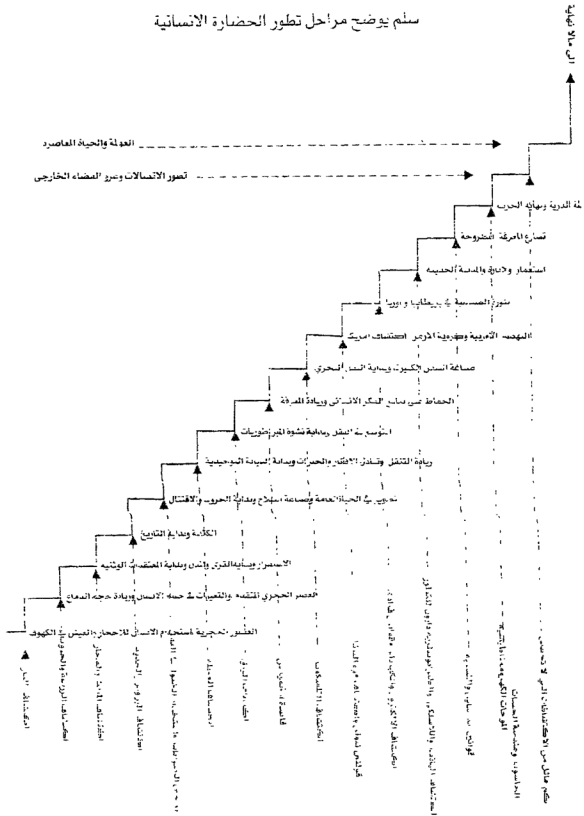
ماسلو<sup>(1)</sup> (Maslow's theory)، والذي أدرج الحاجيات التي يسعى الإنسان لتحقيقها بشكل سلم هرمي بدءاً بالحاجيات المادية الأساسية لتأتي بعدها حاجة للشعور بالأمان ومن ثم الشعور بالانتماء وصولاً إلى القمة في تحقيق الذات. وحيث أن الإنسان الأوربي والأمريكي والياباني قد وصل إليها من خلال ماحققته مجتمعاتهم له من ضمان اجتماعي تتبنى به الدولة كل الحاجات الأساسية وفي المستقبل لذلك قد توجه نحو تحقيق الذات وبالتالي حقق إنجازات هائلة في مجال تطوير العلم والمعرفة والتقنية.

لذا فلا بد لنا من التخطيط مستقبلاً من أجل خلق ظروف تساعد في تنشيط الطبقة المتوسطة التي تسعى غالباً لتحقيق الذات من خلال عمل مميز تستطيع أداءه بحرية ويصب في صالح بناء المجتمع المتطور. ومثلما لم يعد الحافز المادي هو الوحيد للعمل المبدع لدى الإنسان في الولايات المتحدة واليابان وغيرها من البلدان المتطورة والتي دعت المستكشف كرانت للذهاب في رحلته إلى أفريقيا كما أسلفنا. فأن علينا أن نضع سياسة مستقبلية تهدف للوصول إلى مجتمع آمن ومستقر لكي ينشط ويتحفز في تحقيق الحاجة السامية للإنسان في تحقيق ذاته من خلال عمل مميز في مجالات الحياة المتعددة وبالتالي سوف تتبلور كل تلك الأعمال لصالح بناء البلد وأزدهاره ولصالح البشرية جمعاء.

---

Maslow, Abraham, h Motivationand Personality" 2<sup>nd</sup> ed, N ew York, Harper & (1) Row Publishers, (1970) 35-85.

# سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الانسانية



## المصادر

- (1) طه باقر " مقامة في تاريخ الحضارات القديمة" - الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والأعلام، الطبعة الأولى بغداد (1986).
- (2) جورج روو " العراق القديم" ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد (1986).
- (3) ونيم ويلكوكس " من جنة عدن الى عبور نهر الأردن" ترجمة محمد الهاشمي.
- (4) عبد الوهاب حميد رشيد " حضارة وادي الرافدين" دار المدى للثقافة والنشر- الطبعة الأولى، سوريا، دمشق (2004).
- (5) فاضل عبد الواحد علي " من ألواح سومر إلى التوراة" دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (1989).
- (6) هاري ساكز " الحياة اليومية في العراق القديم" (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد (2000).
- (7) جان بوتيريو " ولادة اله التوراة والمؤرخ" ترجمة جهاد الحواش، عبد الهادي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا - دمشق (1999).
- (8) **London " First Great Civilization" Jaquetta Hawkes (1971)**
- (9) كيقن يونغ " العودة إلى الأهور" ترجمة حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، سوريا - دمشق (1998).
- (10) لي أوينهايم " بلاد ما بين النهرين" ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد (1981).
- (11) خزعل الماجدي " الدين السومري" دار الشرق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).
- (12) خزعل الماجدي "متون سومر" الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).
- (13) طه باقر " مقامة في أدب العراق القديم" جامعة بغداد، كلية الآداب، دار الحرية للطباعة، بغداد (1976).
- (14) نائل حنون " العقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة" رسالة ماجستير، الطبعة الثانية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (1986).

- (15) الكتاب المقدس " العهد القديم والعهد الجديد" إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان (1995).
- (16) جورج كونتينو " الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور" ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام بغداد (1997).
- (17) أين خلدون - عبد الرحمن " مقدمة أين خلدون" دار العلم - بيروت، لبنان (1978) الطبعة الأولى.
- (18) أحمد سوسة" حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين" سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للطباعة والنشر، بغداد، (1980).
- (19) ستيفن هيمسلي لونكريك" تاريخ العراق بين عام 1900-1950" ترجمة جعفر الخياط. الطبعة الرابعة، وزارة التربية، بغداد (1968).
- (20) جواد علي" المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، 12 جزء، بغداد (1965).
- (21) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، شباط (1990).
- (22) د.علي الوردي" دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" مطبعة العائلي، بغداد (1965).
- (23) Phillip Hitti" History of the Arabs" Biruit-London (1968).AL-KASHAF House
- (24) حافظ وهبه" جزيرة العرب في القرن العشرين". الجزء الأول القاهرة (1946). الطبعة الأولى- مكتبة النهضة المصرية- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- (25) عبد الجبار الراوي (البادية).
- (26) سلامة موسى" نظرية التطور وأصل الإنسان" نشر إلياس أنطوان إلياس، المطبعة العصرية - مصر (بدون تاريخ) ص228.
- (27) عبد الله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية" ج1، ط1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (2005).
- (28) صباح زنكنة" قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه" مقالة في جريدة الصباح العراقية عدد 488 في 2005/3/1 الثلاثاء.
- (29) شاكر النابلسي" المال والهلال" " الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام" دار الساقى، الطبعة الأولى بيروت - لبنان (2002).

- (30) محمد الشهرستاني "الملل والنحل" الجزء الثالث، مطبعة حجازي، القاهرة (1949).
- (31) عبد العزيز سالم "دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام" مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (بدون تاريخ).
- (32) عبد الله العلايلي "مقدمات لفهم التاريخ العربي" دار الجديد، بيروت (1994).
- (33) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين. بيروت (1977)، الطبعة الأولى (1939).
- (34) أحمد أمين "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- (35) "Nicholson" A Literary History of the Arab
- (36) معروف الرصافي "كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" منشورات الجمل، ألمانيا (2002).
- (37) المس بيل "فصول من تاريخ العراق الحديث" ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الثانية، وزارة التربية والتعليم، بغداد (1971).
- (38) سيرة ابن هشام - عبد الملك أبو محمد بن هشام "السيرة النبوية" تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الكتب العلمية - بيروت، الجزء الأول والثاني والثالث.
- (39) صحيح البخاري "كتاب المناقب"، وكتاب المغازي وكتاب الإيمان، عالم الكتب - بيروت (بدون تاريخ).
- (40) السيرة الحلبية - علي بن برهان الدين: إنسان العيون في سيرة المأمون" أو السيرة الحلبية" دار أحياء التراث - بيروت (بدون تاريخ).
- (41) صحيح مسلم "كتاب السلام" باب تحريم الكهانة، جزء من السنة النبوية الشريفة، عالم الكتب - بيروت (2000).
- (42) ابن قيم الجوزي "زاد المعاد" غزوات الرسول، تحقيق شعيب وعبد القادر الاناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- (43) الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل" تفسير القرآن، الدار العالمية. بيروت (بدون تاريخ).
- (44) سنن الترمذي، "فضائل الجهاد"، مكتبة المعارف - بيروت.
- (45) سنن ابن ماجه "كتاب الجهاد" دار الجيل - بيروت مجلدين (2001).



- (46) طه حسين " الفتنة الكبرى" الجزء الأول والثاني، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر (1966).
- (47) هادي العلوي " الاغتيال السياسي في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا. دمشق الطبعة الرابعة (2004).
- (48) العفيف الأخضر " سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي" جريدة المدى، بغداد (2004).
- (49) ياقوت الحموي " معجم البلدان" دار الكتب العلمية - بيروت لبنان (2002) 7 أجزاء.
- (50) الطبري " تاريخ الرسل والملوك" الجزء الأول، دار الكتب العلمية. بيروت (1987).
- (51) د.علي الوردي" وعاظ السلاطين" دار الورق للنشر، لندن، الطبعة الثانية (1995).
- (52) ابن حجر " الصواعق المحرقة" دار الكتب العلمية - بيروت.
- (53) ارنست غينفر " ما بعد الحداثة والعقل والدين" ترجمة معين الإمام، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2001).
- (54) أبي الفداء ( الحافظ) إسماعيل ابن كثير " السيرة النبوية" (701-774هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، الجزء الرابع (1976) دار المعرفة - بيروت وكذلك " البداية والنهاية".
- (55) محمد عابد الجابري " العقل السياسي العربي محدثاته وتحليلاته" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب (1990) الطبعة الأولى.
- (56) محمود شكري الألوسي " بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب".
- (57) هادي العلوي " خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر - دمشق، الطبعة الرابعة (2004).
- (58) نوح البلاغة- مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي شرح محمد عبده ( منشورات دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة ( 2003).
- (59) جون ديوي "الديمقراطية والتربية" ترجمة متي عقراوي، وذكريا ميخائيل لجنة التأليف والترجمة والنشر - وزارة المعارف- بغداد (1946)
- (60) أرنولد توينبي "مختصر دراسة للتاريخ" ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف، جامعة الدول العربية القاهرة (1966).
- (61) ول ديورانت " قصة الحضارة" ترجمة محمد بدران ج13-14 جامعة الدول العربية القاهرة.

- (62) محمد عبد الرحمن مرحبا "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة، بيروت (2000) ج1.
- (63) حنا الفاخوري وخليل الجر "تاريخ الفلسفة العربية" ج1، دار الجيل بيروت ط3 (1993).

**الجزء الثاني**

**من العصر الأموي**

**إلى نهاية عصر المغول**



## المحتويات

الصفحة	الموضوع
3	المحتويات
13	المقدمة
23	<b>الفصل الاول: عصر الدولة الامويه</b>
26	(1) الفتوحات العربية الاسلامية
29	(2) ازمانت الحكم الداخلية
30	(1-2) الصراعات الداخلية في بداية نشوء الدولة الامويه
35	(2-2) حادثة استشهاد الامام الحسين بن علي
44	(3-2) ثورة عبد الله ابن الزبير
47	(4-2) ثورة زيد بن علي ابن الحسين
48	(5-2) ثورة البربر
48	(3) الاغتيال السياسي في العصر الاموي
48	(1-3) اغتيال الحسن ابن علي
50	(2-3) اغتيال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد

51	(3-3) اغتيال عمر بن عبد العزيز
52	(4-3) وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية
52	(5-3) وفاة مروان ابن الحكم
55	(6-3) التعذيب السياسي في العصر الاموي
64	(4) الحجاج بن يوسف الثقفي
68	(1-4) تحليل ظاهرة الحجاج
72	(5) الجذور الفكرية الاولى للانقسام المذهبي في الاسلام في العصر الاموي
75	(1-5) تبلور الفكر الشيعي في العصر الاموي
80	(2-5) ظهور الخوارج على المسرح السياسي الاسلامي
83	(3-5) ظهور الطور الاول من الاعتزال (المعتزلة) في العصر الاموي
88	(6) اوضاع المسيحيون في الشام في العصر الاموي
90	(7) الحياة الاقتصادية والاجتماعية
94	(8) الحياة الفكرية والثقافية
95	(9) حركة البناء والعمارة
96	(10) بروز التميز العنصري والحركات القومية داخل المجتمع الاسلامي

103	<b>الفصل الثاني :- العصر العباسي الذهبي</b> بداية سيطرة بني العباس على السلطة (العصر العباسي الاول)
121	(1-1) بروز المعارضة واستخدام العنف في العصر العباسي الاول
123	(2-1) الثورات التي قامت ضد نظام الحكم العباسي الاول
124	(3-1) أساليب القمع ضد المعارضه.
126	(4-1) أساليب العنف بين الخلفاء الاخوة والاقرباء والمقربين.
128	(5-1) الصراع بين الامين والمأمون
131	(6-1) حركات العنف والاعمال الاخرى في خلافة المعتصم.
133	(2) بداية عهد الرجوع الى السنه بخلافة المتوكل أو عصر إنحطاط الخلافة العباسية الاولى
135	(1-2) العصر العباسي الثاني
142	(2-2) العصر العباسي الثالث
148	(4) شكل النظام الاداري والمالي العباسي
149	(5) أسباب الاضطرابات والثورات في العصر العباسي
153	(6) الاغتيالات في العصر العباسي على يد السلطة.
153	(1-6) اغتيال أدريس بن عبد الله من أحفاد الحسن بن علي
153	(2-6) تصفية الوزير ثم ولي العهد
155	(3-6) مقتل المتوكل

155	(4-6) اغتيال أبو سعيد الجنابي
156	(5-6) اغتيال علي بن الفضل (الزعيم القرمطي في اليمن)
156	(6-6) اغتيال الب أرسلان
157	(7) الاغتيالات على يد المعارضه.
159	(8) اغتيالات باطنية
159	(1-8) قتل المفكر بالله العباسي.
160	(2-8) اغتيال أمير حرب تركي.
160	(3-8) اغتيال نظام الملك.
161	(4-8) مقتل إبن نظام المك.
161	(5-8) اغتيال الأمر بأحكام الله الفاطمي.
163	(6-8) اغتيال أمر الحرب (الارهابي).
163	(9) التعذيب في العصر العباسي.
166	(10) ثورة الزنج في العراق.
167	(11) حركة القرامطة.
170	(12) ظهور الفرق الاسماعيلية على المسرح السياسي الاسلامي.
178	(1-12) حسن الصباح والدعوة الجديدة للاسماعية
180	(2-12) " قلعة الموت".
181	(3-12) العنف الإسماعيلي.
184	(4-12) نظام الفرقة.



184	(5-12) الاسماعيليين في سوريا.
186	(6-12) الارهاب الاسماعيلي في سوريا.
192	(13) الحركة الفكرية وظهور المذاهب والفلسفات في العصر العباسي الذهبي.
207	(1-13) ظهور المعتزلة (كأحد المذاهب الاسلامية في العصر العباسي الاول أو الطور الثاني للاعتزال).
218	(2-13) أهم رجالات الطور الثاني للاعتزال في العصر العباسي.
221	<b>الفصل الثالث: عصر المغول.</b>
225	(1) غارة المغول على خوارزم.
235	(2) الادارة والاقتصاد في الدولة المغولية.
238	(3) وصول "هولاكوخان" الى الحكم.
240	(4) الهجوم على بغداد.
244	(5) الحركة الادبية في العصر المغولي.
246	(7) حالة الخوف والرعب وآثار هجوم المغول على أوروبا وآسيا.
251	(8) دخول تيمورلنك الى بغداد.
255	المناقشه والاستنتاجات.
277	المصادر



## المقدمة

تضمن الجزء الأول من هذا البحث المتسلسل بعنوان العنف السياسي في بلاد الرافدين "دراسة في جذوره التاريخية" أربعة فصول ابتداءً من تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي كانت واحدة من أقدم الحضارات في العالم. ثم تناولنا في الفصل الثاني تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وشمل الفصلين الثالث والرابع عصر فجر الإسلام أو فترة الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين. وقد استطعنا أن نضع بين يدي القارئ بعض الاستنتاجات من خلال ما تم التطرق إليه من استعراض سريع للأحداث التاريخية المهمة، وتم التركيز على العنف السياسي والظروف والدواعي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المؤدية لتلك الأحداث. وكان من بين الموارد التاريخية المؤثرة علينا في العصر الحالي تلك المفاهيم المنسجمة مع عصر العبودية والتي كانت تصب في خدمة الحاكم أو الملك، وتسلف الديانات الوثنية والأوهام والأفكار الغيبية والخرافية التي كانت سائدة ومهيمنة على عقلية القوم، والتي جعلتهم يهرولون طيلة حياتهم لخدمة الإله والكهنة والملك الذي كان يمثل الإله الحامي بالإضافة إلى وازع الخوف والتشاؤم التي أصبحت إحدى الصفات المميزة لبلاد الرافدين.

وكيف تبلورت فكرة الإله الواحد والتوحيد والتي لم تستطع هي الأخرى إزالة كل آثار الموروث الفكري القديم الذي انطبع في أذهان الناس منذ العهد الوثني - عصر العبودية. وتوصلنا إلى رسم سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الإنسانية يتميز بحصول قفزات حضارية في حياته بشكل مختلف عن سابقتها من خلال اكتشافات علمية مميزة لعبت دوراً بارزاً وكانت حاضنة لحقبة زمنية محددة. وقد وردت تساؤلات عديدة لم يتم الإجابة عليها في الجزء الأول من

الكتاب أو البحث. ونحن نحاول الإجابة على تلك التساؤلات وفك الألفاظ والرموز التي ستظهر بوضوح أكثر من خلال استعراضنا للأحداث التاريخية اللاحقة في هذا الجزء والجزء الذي يليه. وقد تضمن الجزء الثاني من البحث هذا العصر الأموي في الفصل الأول، ذلك العصر المتميز بالفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، وفي الوقت ذاته بطبيعة وشكل نظام الحكم القبلي الوراثي الذي أطاح بمبدأ الشورى وأبقى على النظام القبلي البدائي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان لزاماً علينا أن نستعرض تأثير الموروث التاريخي المتمثل في نظام العبودية على عقلية الناس وسلوكهم وكذلك شكل التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري بالإضافة إلى أمثلة ونماذج عن ممارسات العنف السياسي والحركات والثورات والانتفاضات التي جرت. وهكذا الحال بالنسبة للفصل الثاني والذي تم استعراض الأحداث التي جرت في المنطقة أيام العصر العباسي الذهبي، ذلك العصر الذي تنفنى به ونفاخر به الآن. وبمنهجية مشابهة لما تم التعرض له في الفصل الأول، ولكن تم التركيز هنا على الأفكار والمذاهب التي ظهرت والتي ما زالت موضع جدل ونقاش إلى يومنا هذا. وقد كان عصر المغول هو خاتمة هذا الجزء نأمل أن نكمل الاجزاء الأخرى إلى أن نصل إلى العصر الحديث الذي نعيش فيه.

لقد آليتُ أن أنقل بعض الأحداث التاريخية كما هي من مصادرها الموثوقة والمُعترف بها من قِبل كل الأطراف، وحاولتُ أن أعتمد في الأعم الأغلب على المصادر الأجنبية الرصينة، على افتراض أنها غير متأثرة أو متحيزة لجهة دون أخرى من خلال هدف هؤلاء الباحثين في الوصول إلى الحقيقة فقط.

ولكون أي منهم غير منتمي لطائفة دون أخرى بالإضافة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها والتي تجعله يميل أكثر إلى الموضوعية والحيادية في الطرح. بالإضافة لذلك فإن المصادر العربية المطابقة لتلك المصادر والمعترف بمرجعيتها الرصينة قد اعتمدت أيضاً دون إضافة أو نقصان من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية تخدم البحث في طبيعة وطريقة تفكير الفرد الراقديني، والشرق أوسطي عموماً.

ونحن نعيش اليوم في ظل عالم يحوي على بشر يضعون المتفجرات في بطونهم ويفجرونها على جمع غفير من الناس العزل، لا بد لنا من التوغل في جمع كل المعلومات والاحداث التاريخية من أجل فهم ما يدور في رؤوس هؤلاء بهدف وضع خطة للمعالجة الصحيحة. وقبل البدء بالتفاصيل لا بد لنا أولاً أن نبدأ بتعريف بعض المصطلحات المستخدمة لكي نصل إلى فهم مشترك لما يدور حولها.

لقد وضعت الموسوعة الفلسفية العربية (معهد الإنماء العربي 1986) تعريفاً للإرهاب لا بد لنا من ذكره ونحن نبحث في العنف السياسي.

فالإرهاب لغوياً: تشتق كلمة إرهاب من الفعل الثلاثي "رهب" أي أخاف. والرهبية هي الخوف والفرع. وارهبه ورهبه أي أخافه وفرّعه والراهبة هي الحالة التي ترهب أي تفرع وتخوف. أن "الرهبية" لا تدل على حالة نفسية تعانيها أو تعبر عنها ذات معينة أو شخص معين أو جماعة معينة، وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى سياسي / اجتماعي يقوم على العلاقة القائمة بين نتائج الخوف وبين استغلاله بشكل هادف وواع من قبل فاعل الفعل. أما كلمة إرهاب "Terrorism" فهي تسمح باستخراج علاقة بين نية الذات الفاعلة ونتائج الرهبية على الموضوع الذي

يتحملها، ولكن المعنى السياسي/ الاجتماعي القائم على طبيعة البواعث والاهداف التي من جرائها يحصل فعل الارهاب لم يظهر إلا مؤخراً

إن الإرهاب السياسي باعتباره ظاهرة اجتماعية إنما يتعلق بمجال الوجود والوقائع والنشاط العملي للبشر، ولا يمكن أن نفهم الإرهاب السياسي في مكوناته ما لم نضعه في سياق المنطق التطبيقي للوضع المعين الذي نشأ فيه. كما يجب أن نضعه ضمن الكلية التاريخية التي ينتمي إليها، وهذا يعني أنه لا يمكن فهم هذا الفعل، وتحليله باقتطاع مكوناته من محيطها الديناميكي، وبتربها منه بترأ بهدف ابراز كل منها على حدة، بل يجب أن تعتبر بكليتها قوة محركة وملازمة للفعل نفسه، ومتشابكة مع الوضعية السياسية التي لزم عنها الارهاب.

ومن هذا المنطلق علينا بالعودة إلى فهم الجذور التاريخية وراء العنف السياسي من خلال إعادة قراءة الاحداث التاريخية، والصراعات بين البشر، وتحليل أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، مع الاخذ بنظر الاعتبار مراحل نمو وتراكم الخبرات في العقل البشري، بالإضافة إلى العامل الجغرافي.

الاستبداد "Tyranny" لغوياً: أستبد برأيه على رأي الآخرين أي قدم رأيه على أنه الصواب دون غيره.. والاستبداد ظاهرة قديمة ومستمرة في التاريخ؛ وله أشكال وأنواع عديدة، ويمكن تعريفه بأنه الانفراد بالأمر ورفض طلب المشورة أو قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب أو القبول.

ويأتي على غرور المرء بنفسه أو عدم قدرته على الانفتاح وتبادل الآراء أو عدم إرادته كتم حقيقته لغيره.

## المقدمة

تضمن الجزء الأول من هذا البحث المتسلسل بعنوان العنف السياسي في بلاد الرافدين "دراسة في جذوره التاريخية" أربعة فصول ابتداءً من تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي كانت واحدة من أقدم الحضارات في العالم. ثم تناولنا في الفصل الثاني تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وشمل الفصلين الثالث والرابع عصر فجر الإسلام أو فترة الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين. وقد استطعنا أن نضع بين يدي القارئ بعض الاستنتاجات من خلال ما تم التطرق إليه من استعراض سريع للأحداث التاريخية المهمة، وتم التركيز على العنف السياسي والظروف والدواعي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المؤدية لتلك الأحداث. وكان من بين الموارث التاريخية المؤثرة علينا في العصر الحالي تلك المفاهيم المنسجمة مع عصر العبودية والتي كانت تصب في خدمة الحاكم أو الملك، وتسلط الديانات الوثنية والأوهام والأفكار الغيبية والخرافية التي كانت سائدة ومهيمنة على عقلية القوم، والتي جعلتهم يهرولون طيلة حياتهم لخدمة الإله والكهنة والملك الذي كان يمثل الإله الحامي بالإضافة إلى وازع الخوف والتشاؤم التي أصبحت إحدى الصفات المميزة لبلاد الرافدين.

وكيف تبلورت فكرة الإله الواحد والتوحيد والتي لم تستطع هي الأخرى إزالة كل آثار الموروث الفكري القديم الذي انطبع في أذهان الناس منذ العهد الوثني - عصر العبودية. وتوصلنا إلى رسم سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الإنسانية يتميز بحصول قفزات حضارية في حياته بشكل مختلف عن سابقتها من خلال اكتشافات علمية مميزة لعبت دوراً بارزاً وكانت حاضنة لحقبة زمنية محددة. وقد وردت تساؤلات عديدة لم يتم الإجابة عليها في الجزء الأول من الكتاب أو البحث. ونحن نحاول الإجابة على تلك التساؤلات وفك الألغاز والرموز التي ستظهر بوضوح أكثر من خلال استعراضنا للأحداث التاريخية اللاحقة في

هذا الجزء والجزء الذي يليه. وقد تضمن الجزء الثاني من البحث هذا العصر الأموي في الفصل الأول، ذلك العصر المتميز بالفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، وفي الوقت ذاته بطبيعة وشكل نظام الحكم القبلي الوراثي الذي أطاح بمبدأ الشورى وأبقى على النظام القبلي البدائي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان لزاماً علينا أن نستعرض تأثير الموروث التاريخي المتمثل في نظام العبودية على عقلية الناس وسلوكهم وكذلك شكل التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري بالإضافة إلى أمثلة ونماذج عن ممارسات العنف السياسي والحركات والثورات والانتفاضات التي جرت. وهكذا الحال بالنسبة للفصل الثاني والذي تم استعراض الأحداث التي جرت في المنطقة أيام العصر العباسي الذهبي، ذلك العصر الذي نتغنى به ونفاخر به الآن. وبمنهجية مشابهة لما تم التعرض له في الفصل الأول، ولكن تم التركيز هنا على الأفكار والمذاهب التي ظهرت والتي ما زالت موضع جدل ونقاش إلى يومنا هذا. وقد كان عصر المغول هو خاتمة هذا الجزء نأمل أن نكمل الأجزاء الأخرى إلى أن نصل إلى العصر الحديث الذي نعيش فيه.

لقد آليتُ أن أنقل بعض الأحداث التاريخية كما هي من مصادرها الموثوقة والمُعترف بها من قبل كل الأطراف، وحاولتُ أن أعتمد في الأعم الأغلب على المصادر الأجنبية الرصينة، على افتراض أنها غير متأثرة أو متحيزة لجهة دون أخرى من خلال هدف هؤلاء الباحثين في الوصول إلى الحقيقة فقط.

ولكون أي منهم غير منتمي لطائفة دون أخرى بالإضافة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها والتي تجعله يميل أكثر إلى الموضوعية والحيادية في انطرح. بالإضافة لذلك فإن المصادر العربية المطابقة لتلك المصادر والمُعترف بمرجعيتها الرصينة قد اعتمدت أيضاً دون إضافة أو نقصان من أجل الوصول إلى نتائج



موضوعية تخدم البحث في طبيعة وطريقة تفكير الفرد الرافديني، والشرق أوسطي عموماً.

ونحن نعيش اليوم في ظل عالم يحوي على بشر يضعون المتفجرات في بطونهم ويفجرونها على جمع غفير من الناس العزل، لا بد لنا من التوغل في جمع كل المعلومات والاحداث التاريخية من أجل فهم ما يدور في رؤوس هؤلاء بهدف وضع خطة للمعالجة الصحيحة. وقبل البدء بالتفاصيل لا بد لنا أولاً أن نبدأ بتعريف بعض المصطلحات المستخدمة لكي نصل إلى فهم مشترك لما يدور حولها.

لقد وضعت الموسوعة الفلسفية العربية (معهد الإنماء العربي 1986) تعريفاً للإرهاب لا بد لنا من ذكره ونحن نبحث في العنف السياسي.

فالارهاب لغوياً: تشق كلمة إرهاب من الفعل الثلاثي "رهب" أي أخاف. والرهبه هي الخوف والفرع. وارهبه ورهبه أي أخافه وفرّعه والراهبه هي الحالة التي ترهب أي تفزع وتخوف، أن "الرهبه" لا تدل على حالة نفسية تعانيتها أو تعبر عنها ذات معينة أو شخص معين أو جماعة معينة، وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى سياسي / اجتماعي يقوم على العلاقة القائمة بين نتائج الخوف وبين استغلاله بشكل هادف وواع من قبل فاعل الفعل. أما كلمة إرهاب "Terrorism" فهي تسمح باستخراج علاقة بين نية الذات الفاعلة ونتائج الرهبه على الموضوع الذي يتحملها، ولكن المعنى السياسي / الاجتماعي القائم على طبيعة البواعث والاهداف التي من جرائها يحصل فعل الارهاب لم يظهر إلا مؤخراً

إن الإرهاب السياسي باعتباره ظاهرة اجتماعية إنما يتعلق بمجال الوجود والوقائع والنشاط العملي للبشر، ولا يمكن أن نفهم الارهاب السياسي في مكوناته ما لم نضعه في سياق المنطق التطبيقي للوضع المعين الذي نشأ فيه. كما يجب أن نضعه ضمن الكلية التاريخية التي ينتمي إليها، وهذا يعني أنه لا

يمكن فهم هذا الفعل، وتحليله باقتطاع مكوناته من محيطها الديناميكي، وبتربطها منه بترأ بهدف إبراز كل منها على حدة، بل يجب أن تعتبر بكليتها قوة محرّكة وملازمة للفعل نفسه، ومتشابكة مع الوضعية السياسية التي لزم عنها الارهاب.

ومن هذا المنطلق علينا بالعودة إلى فهم الجذور التاريخية وراء العنف السياسي من خلال إعادة قراءة الأحداث التاريخية، والصراعات بين البشر، وتحليل أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، مع الأخذ بنظر الاعتبار مراحل نمو وتراكم الخبرات في العقل البشري، بالإضافة إلى العامل الجغرافي.

الاستبداد "Tyranny" لغوياً: أستبد برأيه على رأي الآخرين أي قدم رأيه على أنه الصواب دون غيره.. والاستبداد ظاهرة قديمة ومستمرة في التاريخ، وله أشكال وأنواع عديدة، ويمكن تعريفه بأنه الانفراد بالأمر ورفض طلب المشورة أو قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب أو القبول.

ويأتي على غرور المرء بنفسه أو عدم قدرته على الانفتاح وتبادل الآراء أو عدم إرادته كتم حقيقته لغيره.

وإذا كان الأمر متعلقاً بتدبير مصلحة جماعة معينة، فإن الاستبداد يعني التصرف المطلق بشؤون الجماعة بمعنى المشيئة الخاصة والهوى. ولا يبعد معنى الاستبداد عن معاني التعسف والتحكم والاستعباد والسيطرة التامة. ويختلط مفهوم الاستبداد مع مفهوم الطغيان في أكثر النصوص.

فالطغيان بمعناه العام يشتمل على عنصرين لا نجدهما في الاستبداد وهما القهر والجور. فالاستبداد من حيث هو تصرف غير مقيد وتحكمي في شؤون الجماعة السياسية، يبرز إرادة الحاكم وهواة ولا يعني بالضرورة أن تصرف الحاكم ضاعط يعنف على المحكومين غير مبال بقواعد العدل والإنصاف،

بينما الطاغية يعني الحاكم الذي يستولي على الحكم بصورة غير شرعية، ولكنه يحكم بموجب قوانين نافذة. ومن هنا نشأت فكرة الحاكم المستبد المتور، فالاستبداد لا يتنافى في ذاته مع العدل والنور، ولكن تحكم الهوى في التصرف التفردي تبعد الحاكم عن التبصر العقلي في الأمور، وبالتالي عن مسلك النور والعدل (الكواكبي).

وهناك بعض المصطلحات الفلسفية تم التطرق إليها في هذا الجزء من البحث لا بد من تعريفها وهي:

الاستقراء "Induction": فهو نوع من الاستدلال أو الاستنتاج مباشر وغير مباشر، الأول هو استنتاج قضية من قضية واحدة، وغير المباشر هما القياس والاستقراء. والقياس هو استنتاج قضية من قضيتين لا أكثر ولا أقل. أما الاستقراء فهو استنتاج قضية من أكثر من مقدمتين وليس في الاستقراء يقين، وإنما صدقه صدق احتمال وكلما زاد عدد المقدمات زاد احتمال صدق نتيجته<sup>(\*)</sup>.

والاستنباط "Deduction": لغوياً: استخراج الماء من العين من قولهم نبط الماء: إذا خرج من منبعه. ويعني كمصطلح استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة. ويستند الاستنباط، إلى مجموعة من التعريفات والبداهيات والمصادر. ومن هذه جميعاً تنتقل إلى ما يترتب عليها من نتائج وتسمى النتائج بالنظريات. (الجرجاني).

نقد كان هذا الجزء كاشفاً لحقائق تاريخية قلما يتطرق إليها المؤرخون كي لا يتعرضوا لانتقاد أو خدش لمشاعر الناس المغرمين والمتعلقين بحب فترة زمنية معينة أو شخصية تاريخية معروفة، لكننا توخينا الموضوعية وآلينا أن نضع

(\*) راجع الموسوعة الفلسفية العربية - د. معنى زيادة - المجلد الأول، ط 1 (1986) انعمد العربي

للانماء (ص 59).

تلك الحقائق أمام أعين الجميع من أجل إيصال الحقيقة كما هي والقارئ حر في أن يأخذ بها أو يرفضها. أو يعدل ويضيف عليها وينقدها إيجابياً.

لقد تم التطرق للعديد من المواضيع المختصة بكيفية نشوء وتبلور الأفكار والمعتقدات، والمذاهب التي ظهرت خلال الحقبة التاريخية موضوعة البحث والمتمثلة بأكثر من ثمانية قرون ابتداءً من العصر الأموي وإلى عصر الدولة الصفوية والعثمانية وسيطرتهما على معظم أجزاء المنطقة. ولم يكن البحث مقصوداً على الأحداث التي حصلت في بلاد الرافدين فحسب بل شملت أحداث تاريخية شرق وغرب المنطقة ولمديات بعيدة. والسبب في ذلك واضح وهو أن الأحداث التاريخية المهمة مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض. فإذا أصبح العالم الآن يشبه قرية صغيرة بفضل تقدم وسائل الاتصال، فإن العالم في كل وقت مضى على هذا الكوكب واحد، ولا يمكن فصل أحداثه التاريخية عن بعضها.

وكان الإنسان منذ القدم متقللاً لا يعيقه حاجز مروري أو "سمة دخول" أو بروتوكولات رسمية في اختياره المكان الذي يرغب العيش فيه. وقد حاولنا قدر الإمكان التركيز على كل ما يختص بتاريخنا ليس فقط كحدث تاريخي بل من خلال تأثيره علينا كموروث راسخ في عقول الناس في الوقت الحاضر.

وأعطينا تواريخ الأحداث بالسنين الميلادية كما هو مستخدم في أغلب مناطق العالم مع اعتزازنا بالتاريخ الهجري المعمول به في البلاد الإسلامية فقط، وذلك لكي نسهل على القارئ المقارنة بين ما كان يجري عندنا مع ما هو حاصل في تلك الفترة في مناطق أخرى من العالم البعيد. كما وضعنا بعض الاستنتاجات من خلال ما تم استعراضه من أحداث تاريخية ومناقشة بعض الأفكار والمذاهب التي نشأت في المنطقة وكانت تلك استنتاجات أولية يمكن اعتبارها كمقدمة

لما سيأتي لاحقاً والتي ستكون بمثابة وضع الاصبع على الجرح، أو بالأحرى منهجاً علمياً رصيناً يضع النقاط على الحروف من أجل الخروج من دائرة العنف والتخلف السائدة في المنطقة وللحاق بركب الحضارة الحديثة. ونأمل أن نستطيع تفكيك العديد من الألفاظ غير الواضحة والمختلف عليه، ليس فقط في اتجاه منع العنف بل في حل مشاكل التخلف الثقافي والتربوي، وبالتالي الوصول على برالامان وللحاق بركب الحضارة الحديثة ليس فقط في بلاد الرافدين بل بالمنطقة العربية ككل.





الفصل الأول



عصر الدولة الأموية





## الفصل الأول

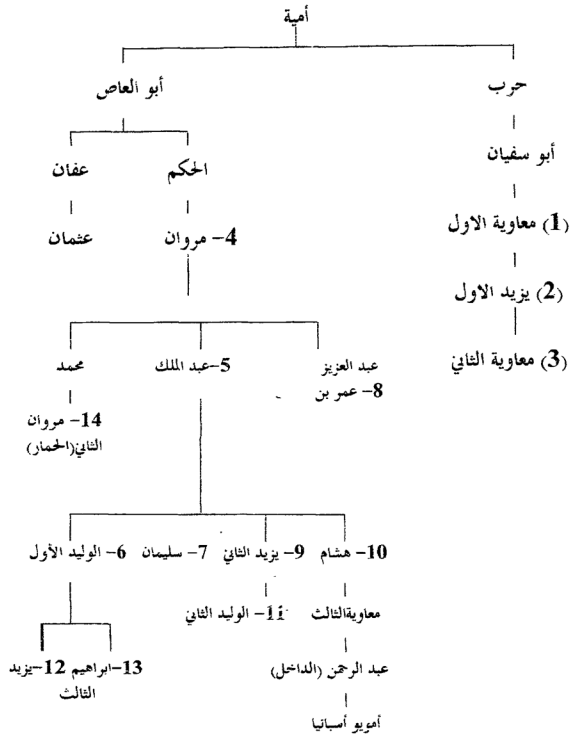
## عصر الدولة الأموية

تبرز أهمية هذا العصر ضمن سياق البحث من خلال ما حصل من تغيير في نظام الحكم في سيطرة العشيرة أو القبيلة (بني أمية) وعودة العصبية القبلية إلى نظام الحكم السياسي العربي بعد كل الإنجازات التي حصلت في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاء الراشدين من بعده. وبرز أكبر إمبراطورية إسلامية في العالم في تلك المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها أوروبا ضمن العصور المظلمة الوسطى (من عام 661م أي منذ تولي معاوية بن أبي سفيان الحكم إلى نهاية الدولة الأموية عام 748م)، وسنحاول التعرض لأبرز ما حصل فيها من ثورات وحركات سياسية، كثورة الحسين بن علي بن أبي طالب. وثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وغيرها من الحركات السياسية وانتهاءً بثورة العباسيين التي بدأت في إيران وأطاحت بالحكم الأموي.

وأهم من ذلك كله العنف السياسي الذي مورس ضد العراقيين من قبل الولاة المرسلين من سلاطين الأمويين إلى العراق وبالأخص الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذلك أهم الانقسامات والفرق الإسلامية التي بدأت بذورها تنمو وتتجذر بمرور الزمن والتي لا تزال نعاني منها إلى يومنا هذا وبشكل بارز وعنيف. لكي نستطيع الاقتراب من فهم الأسباب والدواعي لكل هذه الانقسامات من خلال الاطلاع على النشأة الأولى لها، وما أدت من أعمال عنف وقتل طيلة تلك القرون الغابرة.

وهذا يتطلب أيضاً التطرق إلى أنواع الاقتصاد والاجتماعية والفكرية من خلال دراسة كل ما يتعلق بالمسببات والدواعي التي أدت إلى استعمال تلك

الانقسامات بينما لا يهمننا الدخول في تفاصيل تاريخية عن حكم الخلفاء الأمويين وأعمالهم وما إلى ذلك من سرد تاريخي يمكن الرجوع إليه في المصادر التاريخية المتخصصة في هذا الموضوع. ونكتفي بوضع خارطة جدول للخلفاء لتوضيح تسلسل الخلفاء في توليهم الحكم، وكما هو موضح في الشكل (1) عن كتاب استانلي لين بول "تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء" ترجمة مكي طاهر، عباس اقبال. الدار العربية للموسوعات - بيروت (2006).



1- الفتوحات العربية الإسلامية : تم الفتح العربي بسرعة أدهشت الفاتحين أنفسهم ، ولم يكن الفرض من هذه الحروب في الأساس سوى الغزو<sup>(1)</sup> تحت راية نشر الدين الجديد (الإسلام) إلى كل أرجاء المعمورة ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي انتابه، وتحولت الفكرة الأولى ، الغزو إلى فتح ساعد عليه وسهل أمره الحماسة التي جاء بها الفاتحون المسلمون المهلمون بالعقيدة الإسلامية منذ عهد النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ويكمن الضعف بالأساس في ضعف الامبراطوريتين البيزنطية في الغرب ، والساسانية في الشرق ، وهزيمتهم أمام مقاومة المسلمين بل أن قسماً من سكان البلاد تعاون معهم وعمل على نصرتهم ، وبشكل خاص المناطق الشمالية من الجزيرة العربية التي كان يقطنها أكثرية عربية ، وتتميز بطبيعتها الصحراوية الحارة المشابهة لظروف قلب الجزيرة العربية ، فقد تم فتح سوريا سنة 636م بعد أن بوشربه عام 633م ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام 637م.

أما فتح مصر فقد تم بين عامي 639م و 642م ، وقد تم فتح إيران نهائياً باستثناء بعض المقاطعات الدائرية عام 651م ، وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفاع (الوطني) خلافاً للأمر في الولايات البيزنطية ، إذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة ، ويفرون إلى القسطنطينية إن لم يتواطأوا مع المسلمين الفاتحين ، وقد بات من الصعب على المسلمين بعد أن خفت حماسهم وخف اندفاعهم أن يفتحوا آسيا

(1) الغزو: في تعريف علماء اللغة تعني الطلب. وهو مورد من أهم موارد الرزق عند الأعراب ، لا سيما في سني انحباس السماء وانقطاع المطر ، وقد يقع الغزو لأسباب أخرى لا علاقة لها بانحباس المطر بل بسبب طمع القبائل بعضها ببعض والعادة أن القبائل القوية تطمع في القبائل الضعيفة لتأخذ منها ما عندها من رزق ومال فتغزوها لتستولي على ما طمعت به. أنظر جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج.5، ص.333.

الصغرى بعد أن فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى، حيث أصبح نهر السيرداريا منذ أواسط القرن الثامن، الحد الفاصل بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين، وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول، وكذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا بالأمر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح، ولم يستقم الأمر للمسلمين إلا بعد مساهمة هؤلاء البربر في فتح اسبانيا ثم صقلية بعد ذلك بنحو قرن من الزمن، وكانت معظم هذه الفتوحات قد تمت في العصر الأموي.

أما بالنسبة للأقاليم الجبلية التي يقطنها الأكراد في الشمال فلم يدخل الاسلام إليها إلا بعد قرون بسبب وعورة المناطق الجبلية التي يقطنونها، ولم يتم ذلك بالسيف والإكراه ولكن بالاقناع والافتناع، كما كان الحال في أغلب مناطق الشرق.

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين أقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس شرقاً إلى نهر التاج في اسبانيا غرباً، ومن بحر أورال شمالاً إلى إقليم السنغال جنوباً (افريقيا)، وكلها مناطق تألفت مع طبيعة العرب، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للأمور المعاشية، من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الأصليين، عن احتياجات العرب ومطالبهم الأساسية، ولكن هناك أمران مهمان في الجغرافيا والتاريخ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلدان، لا بد من التويه عنهما هنا، وهذان الأمران هما أنه بعد الفتح جرى تنظيم هذه البلدان في إطار وحدة فضفاضة على أساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم، ففي تلك الحقبة التاريخية لم يكن هناك وسائل اتصالات متطورة، كما هو عليه الحال في عصرنا الحالي، وبالتالي يمكن تصور صعوبات الإدارة ونشر الدعوة الاسلامية بالشكل الذي فهمها العرب بالجزيرة العربية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية والتي

كانت بلغتهم المتداولة. وبدلاً من أن يذوب الفاتحون العرب بين أكتية سكان البلاد الأصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والأخلاق نراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور، فإذا بسكان البلاد يغدون على هذه المخيمات التي لم تلبث أن أصبحت مدنأ عامرة كالكوفة والبصرة مثلاً في جنوب العراق، والفسطاط (القاهرة حالياً) في مصر، والقيروان في المغرب، وكلها مراكز زراعية عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل، بعيدة عن البحر ومواصلاته إذ لم يكونوا قد طوعوه بعد، ولا ألقوا ركوبه، أما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح المؤلف من السيف والرمح، وينال من الخضم، فينقسم إلى فرق تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم (جند الاسلام) تجري عليها الأرزاق والمرتبات من الاسلاب والغانم الحربية كل بحسب مرتبته، أو من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين وغير ذلك من الضرائب كالزكاة التي تفرض على التجار والأغنياء، وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري، تحت إمرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابة والأنصار والتابعين، وكثيراً ما أدت العصبية القبلية التي منعها الإسلام إلى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا إليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي، فمزقت شمله وفرقته شيعاً وأحزاباً أدت إلى إشتباكات دامية استمرت قرناً وأكثر<sup>(1)</sup>.

وسنأتي إلى تفاصيل وأسباب التناحر في الفقرات اللاحقة.

(1) ادوار بروي - تاريخ الحضارات (القرون الوسطى) - ج2 - (1986) - ص 113.

## 2- أزمات الحكم الداخلية؛-

لقد كان لزاماً أن تفضي الأوضاع الجديدة بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل أزمة خلافة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أزمة جديدة أطول وأكثر تعقيداً، فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولم تكن لتخطر على بال أحد، منها مثلاً قضية الحكم، والتي انطلقت من صميم هذه الفوارق والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المناسخ والأهواء الشخصية في الظاهر، والتي أقامت الجماعة وأعدتها، بعد أن زال الجيل الأول الذي صحب النبي وناصره أو لم يبقى منه إلا نفر قليل ممن أصبح شيخاً كبيراً أو عاجزاً عن حمل السلاح. والملاحظ أن وسط وجنوب الجزيرة العربية، قد أصبح هادئ بعض الشيء إلا أن الخلافات أخذت أوارها في شمال الجزيرة بقسميها الشرقي المتمثل في العراق والغربي في بلاد الشام (سوريا وفلسطين) وتعود الأسباب في ذلك إلى ما يلي:

- (1) أن الطبيعة الجغرافية مختلفة بعض الشيء عن شبه الجزيرة العربية الرعوية ذات القبائل المرتحلة والتي تمارس الرعي بينما تجد في العراق والشام مناطق زراعية ومدن مستقرة وذات حضارة قديمة ومتصلة بالثقافات الشرقية والغربية على حد سواء.
- (2) إن انتشار الإسلام بسرعة البرق وما فيه من أفكار وقيم أخلاقية سامية لم يفسح المجال لتطوير الإدارة في أساليب الحكم، بالشكل الذي يلي فيه حاجات ومتطلبات الأقوام والمجتمعات الأخرى. بينما ظهر ما هو عكس ذلك في بروز هيمنة قبيلة الأمويين على جميع مقدرات تلك الجماعات وكانت تزاول القسر والاضطهاد والتعسف لهم.

إن مجرد الخبرة البسيطة والمتواضعة لدى الأمويين والتي جاءت من خلال سيطرتهم وهيمنتهم غير المعلنة في الجزيرة العربية لا تتسجم مع متطلبات المرحلة الجديدة في ولادة امبراطورية كبيرة وواسعة ولا يمكن أن يديرها شخص واحد مهما بلغ من دهاء وقوة. فقد أصبح معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي، المرجع الوحيد الذي تؤول إليه الكلمة في المنطقة ويدير أمورها منذ توليه الخلافة وإلى مفاته، وكيف يمكنه أن يدخل أفكار جديدة في الأذهان دون أن تصطدم مع الأفكار القديمة التي كانت راسخة منذ آلاف السنين؟ وتتج عنها أفكار مختلفة قد تتسبب في إثارة مشاكل وصراعات دموية لا يستهان بها. ويمكن أن تعزى هذه الاختلافات إلى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض والتي يمكن ردها أصلاً إلى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينية إلى النظام الاجتماعي والاقتصادي على حد سواء.

فالتكتلات السياسية التي ظهرت إذ ذاك لم تلبث أن أصبحت أحزاباً وشعباً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية<sup>(1)</sup> التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعها السياسي والديني.

## (1-2) الصراعات الداخلية في بداية نشوء الدولة الأموية:-

إن الدولة الأموية قد بدأت أول الأمر منذ تولي عثمان بن عفان الخلافة، فقد هب الأجراء من خلال تعيينه لعدد من عماله المواليين له والذين ساروا بالامبراطورية إلى حالة من الصراع الطبقي بين من استحوذ على المال وآخرين محرومين إلى أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه من ثورة عارمة إلى مقتل الخليفة الثالث وتولي علي بن أبي طالب زمام الأمور، وهنا برزت للعيان ثلاثة نزاعات لا بد من الوقوف عندها فمنذ البدء نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول، الصعب المنال، الذي يتبدى

(1) اللاهوتية: مصطلح يطلق على كل علماء الدين المتخصصين لجميع الطوائف والأديان وبذلك يشمل القساوسة والكهنة والحاخامات والفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.



لكل دين جديد والذي يرجى للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية وإحيائها، ممثلة خير تمثيل (بقدامى المسلمين)، والفئة الأخرى التي تتألف من هذا الفريق الجري الذي يعمل على الإفادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية، وبعبارة أخرى بين من يقول بالتقية ويتمسك بأهداف الدين الحنيف، وبين هؤلاء الحكام الإداريين من يتولون تصريف الأمور ومعظمهم من آل قريش الذين يهتمهم في الدرجة الأولى أن يسترجعوا في الامة النفوذ الذي كان لقريش في مكة قبل الإسلام ويعيدوا إليها السيادة والنفوذ والذي تمتعت بهما من قبل، وبالتالي العودة إلى حكم القبيلة، ولكن بسطوة أكبر ونفوذ ومال أعظم باسم العقيدة الدينية الجديدة.

وقد كان يتزعم هذه الفئة معاوية بن أبي سفيان الذي تولى أمر الشام منذ عهد خلافة عمر وأسس طيلة فترة توليه أمر الشام مع مجموعة من مناصريه جيشاً لا يستهان به، وحاول من خلال وجود العداء بين القبيلتين العربيتين الكبيرتين الكلبية (القادمة في الأصل من اليمن) والقيسية التي تقطن المناطق الشمالية من الجزيرة أن يميل إلى الكلبيين ويكسبهم إلى جانبه في جميع معاركه. وقد تمكن أيضاً من خلال انتمائه للدين الإسلامي أن يجعل من القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لامبراطوريته يحكم بأسمها، كما حكم من قبله القيصر "قسطنطين الثاني" الامبراطورية الرومانية من خلال تمسكه بالإنجيل والديانة المسيحية ليبسط بها سيطرته عليها. لقد اتخذ معاوية القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لدولته بالاسم في الغالب، بينما كان حكمه يرجع في الأساس لخبرته القبلية الأولى. كما أنه استقر في دمشق وجعلها عاصمة لمملكته، مكرساً بذلك ما كان لا بد منه وهو تحول مركز الخلافة من الجزيرة العربية إلى الشام. مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته مكة والمدينة بإعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً سعى للتوسع إلى خارج الجزيرة العربية. وقد

أضفى انتقال مركز الخلافة إلى دمشق أهميه متزايدة لعرب الشام فأصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها، وأصبحت الشام في المنزلة الأولى بين الأقطار الإسلامية تفضلها جميعاً، ولا سيما العراق حيث كان أنصار أهل البيت أقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم<sup>(1)</sup>. واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل الشام الذين أصبحوا عماد الدولة فأمدوها بالعمال والموظفين من أبناء البلاد، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية في الشام على التقاليد الساسانية المتمثلة في الجانب الشرقي (العراق). وتألفت إدارة الدولة من قطاعين، ينتظم الأول سياسة المسلمين فينتظم منهم شؤون الحرب والسلم وأمور العبادات ويؤمن أقسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الإدارة في عاصمة الخلافة دمشق، وفي الأقاليم موظفون عرب. أما الثاني فيعنى بشؤون البلاد، ولا سيما تنظيم الضرائب وجبايتها ويتولى القيام بها، والإشراف عليها عمال وموظفون من أهل البلاد يتولون كتابة الديون، وضرب السكة بلغة البلاد، ويغير ذلك من أمور الإدارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين. ونرى في القطاع الأول يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين. فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحياة العامة والخاصة بحيث لا يمكن إدخال أي تغيير عليها أو تعديلها وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد، والنظام الساري المفعول كما هو الحال مع كل فتح جديد، وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على شؤون البلاد عندها، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام، فمرجعه الحكومة. أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض، فكان أمره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة، مع أنها هي التي تتولى أمر تعيينهم

(1) ادوارد برودي "تاريخ الحضارات العام" - ج 2 - القرون الوسطى - ص 118 المصدر السابق.

وتأمين مرتباتهم، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة قد أصدرته. ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الأمور الخاصة، ولا سيما في الأمور العائلية منها. وهكذا برز البطارقة والأساقفة والرؤساء الأعلى لطوائفهم تلو سلطتهم الموظفين الإداريين المحليين حتى أن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين ويريانتهم ويحاحامهم الأكبر في منطقة فلسطين والشام يقول هادي العلوي في كتابه فصول من تاريخ العرب السياسي<sup>(1)</sup>:

"ولما استتب أمر الخلافة لمعاوية، ويعد أن قام أهل العراق بإعلان أن الحسن بن علي خليفة شرعي للمسلمين، لكن معاوية تمكن من جعله يتنازل وأوعده بالولاية من بعده، ثم ما لبث أن تمكن عن طريق زوجته جعدة ابنة الخائن المحترف الأشعث بن قيس من دس السم إليه. وقد انزوى الحسن مكتئباً بهبه سنوية منحه إياها معاوية نفسه، حتى مات مسموماً وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

لم يكن الصراع متكافئاً بين معاوية والحسن، فقد كانت الخبرة المتراكمة لدى معاوية والتي حصل عليها من والده أبو سفيان وأسلافه الآخرين أيام العرب الأوائل قبل الإسلام وما يتمتع به من أساليب الدهاء والفتك والحنكة، وكانت لديه كل الأسلحة القادرة على القضاء على أي معارضة، ولكنه لم يدخل مثل هذه المعارك غير الضرورية محاولاً جذب كل القوى لدعم حكمه، مجهزاً على خصومة بطرق قاتلة سرية لا تثير غضباً اجتماعياً. ثم واصل دفع ذلك التيار الحربي السياسي القوي، وهو تيار الفتوحات الذي كان دائماً الجاذب الأكبر للقبائل العربية والذي يشغلها عن الصراع السياسي، ويملاً أيديها بالفنائم". لقد حقق معاوية في ذلك الأمر حلم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في اليمنة على بلاد المشرق (الدولة الساسانية) والمغرب (الدولة البيزنطية) خلال

فترة حكمه، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يوعد العرب قبل إسلامهم بأنهم سوف يسيطروا على تلك البلدان، إذا ما اتبعوا دين الإسلام، وآمنوا بالله ورسوله أيام كان في مكة، ومنذ بداية الدعوة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

فقد دخل معاوية بالاضافة لذلك قبائل الشام العربية والمسيحية في الفتوحات محولاً إياها إلى الإسلام فعدت الدعوة القبلية لحكمه، مشعل الخلاف بين القيسيين والقحطانيين، كما ذكرنا، وكان منتظماً جدياً لأدوات التحديث، كإنشائه الجيش المنظم والاسطول البحري وإنشائه مصلحة البريد الهامة، وديوان التسجيل... الخ. وهكذا تحولت الخلافة التي كان يراها المسلمون بأنها استمرار للنبوة، وأن يحكم الخليفة بلا امتيازات، وأن لا يسكن في قصر ويأخذ من بيت المال راتباً يكفيه لمعيشة وسط إلى أن أصبحوا ملوك. وقد قال ابن كثير في (البيداء والنهاية): "أن السنة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال خليفة"<sup>(2)</sup>. والأمر الآخر الأهم من كل ذلك هو أن يولي يزيد ابنه الى الحكم من بعده، وبالتالي تحول النظام الإسلامي من نظام شورى إلى نظام وراثي للأبناء، وكان ذلك انقلاباً مدوياً، فقد أطيح هنا بحكم الشورى، ودخلت الدولة في الملكية المطلقة، ولم يعد ثمة أهمية للقب أمير المؤمنين أو الخليفة الذي يموه كلمة الملك، وهذا تبدل جذري حصل منذ تولي يزيد بن معاوية مقاليد الحكم، واستمر في ذلك إلى نهاية حكم الدولة العثمانية دون منازع، مما يدل على تأثير الموروث التاريخي والعوامل الجغرافية والاقتصادية وغيرها في تجديد شكل الإدارة في المنطقة، وفي التمسك بالاعتقاد بأن الملك أو الحاكم يستمد سلطته من السماء. لقد جرت عملية الانتقال هذه بعد كيار الخلفاء، ووقعت في حضن مراهق نزق هو يزيد بن معاوية

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة منير بعلبكي، وبينه أمين، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت (1977).

(2) "محطات في التاريخ والتراث"، هادي العلوي، المصدر، ص 115.

الذي تراكمت في يديه كل نتائج تطور جهاز الدولة، وأدوات القمع وشراء الذمم من أسلافه، وكانت النتيجة لهذا الانتقال، تعرض الإمام الحسين بن علي في الواقعة المؤلة الكبرى الدموية بمعنى الكلمة، مما ترك آثاراً مأساوية لا تمحى في ذاكرة المسلمين<sup>(1)</sup>. وفي معرض بحثنا في العنف السياسي وجذوره التاريخية، لا بد لنا من تسليط ضوء بخصوص حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)

ونبدأ هنا أولاً بما جاء على لسان طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى"، وكذلك آراء بعض الكتاب والمستشرقين الغربيين الموضوعيين والبعيدة عن الانحياز لطائفة دون أخرى نظراً لأهمية هذه الحادثة في تاريخنا القديم والحديث والتي لا زالت آثارها تعيش فينا نحن العراقيين شأننا أم آيينا وكما يلي:

## (2- 2) حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي:

"أقام الحسين بن علي بمكة رافضياً بيعة يزيد، وبددت الرسل تتواصل بينه وبين شيعة أهل البيت في الكوفة وهم يمثلون أكثرية السكان هناك، وقد استجابت هذه الشيعة للحسين إماماً لهم، فدعوه إلى أن يأتي الكوفة لكي يساعد في خلع يزيد، وإخراج عامله آنذاك النعمان بن بشير. وقد كثرت هذه الكتب حتى منحها الحسين كثيراً من عنايته، وأراد أن يستقضي أمر هؤلاء الناس، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليلقى أهلها ويعلم علمها، فإن أنس منهم نية صادقة وعزيمة مصممة على الخروج، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم إلى ما يزيد من خلع يزيد كتب إليه بذلك ليرحل إلى الكوفة، فمضى الفتى إلى الكوفة، ولكنه اضطرب أن

(1) عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ط1، ج1، (2005)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص139.

يستخفي بأمره عند بعض أهلها، وجعلها وجوه الناس ورؤساءهم حتى إذا استوتق منهم جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين. وفي هذه الأثناء ولي يزيد أمره الكوفة إلى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة بدلاً من النعمان بن بشير لكونه أكثر صراماً وحزماً للأمر الخطيرة المقبلة. وكان مسلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشر ألفاً وكتب بذلك إلى الحسين وألح عليه بالقدوم إلى الكوفة ولم يكذب يزيد يستقر في سلطانه الجديد حتى طلب مسلماً سراً وعلانية وجد في الطلب حتى عرف مكانه عند رجل يدعى هاني بن عروة، فلم يزل بهاني هذا حتى أحضره بين يديه، ثم لم يزل به حتى فرر بأن مسلماً مختبئ في داره، ثم حبسه وهاج الناس لحبسه فلم يبلغوا بهياجهم شيئاً. وثار مسلم آخر الأمر ونادى بشعاره، فثار معه العرف من أهل الكوفة، فمضى حتى بلغوا المسجد ولكنهم لم يثبتوا، ونم يكذب الليل أن يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً، وقد جئ به عبيد الله بن زياد آخر الأمر، فقتله في أعلى القصر وألقى رأسه، ثم ألقى جسده إلى الناس. وقتل هاني بن عروة وصلب القتيلين معاً. وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة وجعل الناس يلحون عليه أن لا يفعل ذلك ويذكرونه بأس يزيد وبطش ابن زياد، وغدر أهل الكوفة، وقد مضى مع الحسين نفر من بني أبيه ومن بني أخيه الحسن، واثنان من بني عبيد الله بن جعفر ونفر من بني عمه عقيل، ورجال آخرون حرصوا على أن ينصروه. ولما رأت الأعراب قدمه إلى العراق منابذاً ليزيد طمعوا في صحبته وانتظروا منها الخير، فتبعه منهم خلق كثير، ولكنهم تفرقوا عنه بعد علمهم بأنها الحرب بينه وبين خصمه زياد حال تقربه من العراق. ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلاً من أقرب الناس إليه وهو عمرو ابن سعد بن أبي وقاص، وأرسل معه جيشاً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، ومضى عمرو حتى لقي الحسين فسأله فيم قدم؟ فقال له الحسين، كتب إلي أهل مصر يستقدموني

وهكذا فقد بذروا بذوراً لا يفنى كان قد ألقيت في الأرض لتزيد من قوته تأثيرات أخرى، فثبتت في المستقبل حصداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى بها حتى يومنا هذا. وهكذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه أيام معاوية وابنه يزيد إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه الأمور في بدايات تولي يزيد زمام الأمور (السنة الأولى لحكمه). فقد انتهت محنة الحسين بصدمة كبرى لأهل الحجاز وللصالحين في كل مكان في البلاد الإسلامية، وأصبح سلطان يزيد قد أمعن في نظرهم في الخلاف عن أمر الله فلم تصبح طاعته لازمه، بل أصبح أمر الخروج عليه واجباً حين يتمكن الناس من ذلك، ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الإحساس بالغضب على الأمويين لم يقتصر على الشيعة (شيعة علي) في ذلك الزمان فحسب، بل شمل كل المسلمين، وحتى المسيحيين منهم وقد ساهم نفرٌ من المسيحيين معاً في القتال في كربلاء.

لقد برزت مفاهيم مخطوءه عبر الزمن، بأن أهل السنة كانوا ولا زالوا مع يزيد في حربه ضد الإمام الحسين، وهذا خطأ فادح وتجنّي كبير على أبناء السنة، فلم يكن في ذلك الحين الاستقطاب الحاصل الآن بين الطوائف المسلمة، وهناك أدلة عديدة على صحة ذلك، فقد كان العباسيين الذين سكنوا إيران يحرضون المسلمين ضد الخلفاء الأمويين، وقاموا بثورة كبرى ضدهم وهم من أبناء السنة في حينها، وكان أول ما يستشهدون به في تحريضهم هذا ضد الأمويين هو قضية استشهاد الحسين.

يقول عبد الله خليفة في كتابه: اتجاهات مثالية في الفلسفة الإسلامية<sup>(1)</sup> إن هذا المصير المتضاد بين الخلفاء الأئمة (ويقصد الحسين) وبين الملوك الأمويين، بين النهج الوسط المعتدل القريب للجمهور، ونهج الأشراف العفيف، الذي يعبر عن

(1) عبد الله خليفة "المصدر السابق نفسه" ص 138.

الانتقال العنيف والسريع للبنية الرعوية من خلال الأصول الرعوية لعرب الجزيرة الى الفتوحات العظيمة، والثروة المتراكمة لعائلة بعد كل ذلك القحط، دون وجود مراحل وسط، وبدون فصح مجال لتراكم المنجزات الحضارية فكراً في قلب الجزيرة العربية القائدة، ويعكس الصراع غياب السياسة عند الجيل الجديد، فالعزوف الموضوعية للثورة والتهيئة النضالية الطويلة وقراءة الأصول المادية للناس، كلها تغيب عن نظر الجانب المكافح من هذا الجيل، في حين تغيب عن القسم الآخر الحكمة وبعد النظر وحلول العنف اللامبرر. وهكذا دفعت تلك النتائج الأجيال القادمة (التي تلت تلك الأحداث) بالاستقطاب إلى فريقين، فريق أهل البيت ومحبيهم في الغور في الدين والغيب بصورة أكبر، والاتصال بالسماء تعبيراً عن طرق جديدة في العمل السياسي بينما تمدت الفرق التائهة في الابتعاد عنه، والاهتمام بأمر الدنيا<sup>(1)</sup>.

وهكذا كانت فرق المسلمين بعد حادثة استشهاد الحسين مباشرة، لكنها زرعت بذرة أو أصبحت بمثابة قطعة الثلج المتدرجة من أعلى الجبل لتكبر وتتفاقم في النهاية الى فريقين رئيسيين هما السنة والشيعة.

أما دوزي<sup>(2)</sup>، فقد قال بهذا الصدد ما يلي :

"إن انتصار بني أمية كان في حقيقة الأمر نكراً لفرق تعادي الإسلام من كل قلبها، وبسبب هذا الانتصار أصبح أولاد أقدم أعداء الرسول وأشدهم كراهية له -دون أن تتغير قلوبهم- يدعون خلافة الرسول والنيابة عنه- ويأتوا يسكتون بسيوفهم من يجراً على معارضة بدعهم، ولن نذهب بعيداً للبحث عن أسباب المعارضة والاستياء حتى في خلافة معاوية، فقد أنشأ معاوية بلاطاً فخماً في دمشق وخلق حاجزاً بينه وبين الطبقات الفقيرة، وبدلاً من أن يُقتدأ بتواب الرسول

(1) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص139.

(2) دوزي: "تاريخ الدولة الإسلامية"، طبع لندن، (1863)، ترجمة فكتور شوون، القاهرة.



الأول (الخلفاء الراشدين) اتخذ من بلاط أباطرة الروم الشرقية وملوك إيران قدوة يحتذى بها. وينفس الروح، اختار ابنه يزيد للخلافة وقد فرض هذا الاختيار البغيض بالقوة على أهالي المدينتين المقدستين مكة والمدينة<sup>(1)</sup>.

لقد كانت أم يزيد بدوية<sup>(2)</sup>، وترى في جو الصحراء الطليق الحر، ويطرب لصيد، ويضرح وينشد الأشعار اللطيفة<sup>(3)</sup>، ويلعب نرد العشق، ويعشق الشراب والموسيقى، ويميل إلى اللهو واللعب، ولا يعير للدين اهتماماً. ورغم ما أتمس به من إعراض عن ربه وطيش وإسراف وتبذير، فإنه لو لم يكن الوصمة السوداء التي اقترنت بإسمه -وعني بها فاجعة كربلاء- لجاز لنا بسبب جمال محيّا<sup>(4)</sup>، وأشعاره العذبة، وصفاته الملكية واللذة التي كان ينالها من سعيه وراء مباحج الحياة.. أن نعدل عن رأينا الذي كونا عنه، ونخفف من حكمنا عليه".

وفي كتاب الفخري جاء بخصوص حادثة مقتل الحسين:

"استمر حكم (يزيد) ثلاثة سنوات ونصف، وفي السنة الأولى قتل الحسين بن علي، وفي الثانية هاجم المدينة وسلب كل ما بها في ثلاثة أيام، وفي الثالثة هاجم الكعبة، ونتيجة لهذه المصائب الثلاثة، وخاصة قتل الحسين تملكت العالم الإسلامي بأسره رعدة الخوف والنفور والبغض، إن من إوتي ولو قدراً ضئيلاً من الإحساس، لا بد وأن يتأثر لدى سماعه تلك القضية المحزنة، إن حادث كربلاء ليست جريمة فحسب، بل هي خطأ جسيم، فيزيد وأتباعه - أمثال ابن زياد وشمر وغيرهم- قد تسببوا بفعلتهم هذه- في أن يتخلى أحباب الرسول

(1) ادوارد راون، "تاريخ الأدب في إيران"، الباب الأول والثاني، ص336، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، (2005).

(2) طباطبغا (محمد بن علي المعروف بأبن الطنظقي)، ألفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية"، القاهرة، (1938)، ص316.

(3) طباطبغا، المصدر السابق، ص137-138.

(4) طباطبغا، المصدر السابق، ص67.

وأتباعه دينه تماماً عن تقاؤلهم وأعضائهم الضمني عن تصرفات الأسرة الأموية، لقد صار مجرد تذكر صحراء كريلاء المملوطة بالدماء -حيث هلك حفيد الرسول عطشاً، ووجد جسده بين أجساد القتلى- كافياً لإثارة مرجل الغضب واليهاج في قلب أبرد الناس وأقلهم اهتماماً. وسيطر الحزن والهم على النفوس، وعزجاً بالروح في مدارج الكمال، فصار التعب وإلا لم والخطر والموت بالنسبة لها أمراً تافهاً.

فما إن يأتي العاشر من شهر محرم من كل عام حتى يتذكر الشيعة أينما كانوا في إيران، والعراق، والهند، وباكستان، وأواسط آسيا وغيرها -مصيبة كريلاء- ومن الذي يستطيع أن، يرى طقوس العزاء الشيعية- ولو كان ينتمي لمذهب آخر- ولا يؤثر في وجدانه على نحو ما.. مع صدق ما تعبر عنه هذه الطقوس من مشاعر مذهبية جياشة سامية؟ أي قلب لا تؤثر فيه عبارات التعازي الشيعية؟ والآن وقد قمت بشرح تلك القصة، تتجسد أمام عيني تلك الأفكار والنخاطر وأسمع أشعار العزاء والبكاء والنحيب، وأرى مواكب المعزين والأكفان البيضاء التي يصبغها الشيعة باللون الأحمر من دمهم وحالة السكر التي تتملكهم نتيجة غرقهم في الهموم والأحزان. انتهى كلام كتاب الفخري. وهكذا أضافت تلك الأحزان وذلك الهم والخوف والتشاؤم إلى الإرث التاريخي القديم في بلاد الرافدين الزاخر بالأحزان والمصائب وجسمت شخصية الفرد الرافديني المتسمة أصلاً بالحزن والتشاؤم<sup>(\*)</sup>.

\* وإيم موير: "تاريخ الخلافة الأولى"، (طبع لندن 1883م)، ص324. "حياة محمد وتاريخ الإسلام" في أربعة أجزاء، "الخلافة رفعتها وانحطاطها وسقوطها"، الطبعة الثانية، (1892).

وها هو الفخري<sup>(1)</sup> يبدع في هذا الموقف فيقول: "لا أريد أن أسترسل في الكلام حول تلك الفاجعة فهي مثيرة للهم والغم إلى حد كبير، مولدة للخوف والنفور، فالواقع أنه لا توجد في الإسلام فاجعة تجلب العار كما تجلبه هذه الفاجعة، لقد كان مصرع الإمام علي طامة كبرى ولا شك، لكن هذه الواقعة كانت أشد وأقسى، فقد ارتكبت فيها مذيعة شنيعة، وقتل فيها عدد من الأسرى، وعذبوا واودوا إلى حد يبعث الرعدة في أوصال السامعين، لكني أفضل القول لسبب آخر، وهو أن يقف كل شخص ووقفاً شاملاً على أخبار تلك البلية الكبرى والمصيبة العظمى. إن كل من شارك في هذا العمل أو أمر به أو سرتة نتيجته بأية صورة لعنه الله ولا يقبل توبته ولا فوائده، ويحشره في زمرة أشد الناس إضراراً بالناس، وهم الذين يفنون عمرهم سعياً وراء الحياة الدنيا الفانية.. ظناً أنهم يحسنون صنعا".

أما سيروليم موير فيقول<sup>(2)</sup>: "لم تحدد فاجعة كربلاء مقدرات الخلافة ومصيرها فحسب، بل حددت مقدرات ممالك الامبراطورية الإسلامية ومصيرها لفترة طويلة بعد انقراض الخلافة وزوالها.. من الذي يرى مراسم العزاء وما يسودها من صخب وضجيج، ويعلم أن مسلمي العالم يدقون صدورهم كل عام ويصرخون في حزن وجنون، ويرددون كلاماً موزوناً ويقولون دون كلل وملل "الحسين..الحسين" من الذي يرى كل هذا ولا يتخيل الحرية المشرعة والسيف البتار اللذين وضعهما الأمويين في يد أعدائهم؟ إن الانتصارات التي أحرزها عبد الله بن الزبير بعد تمرده وعصيانه، والسنوات الثلاثة التي شغل فيها منصب الخلافة مستقلاً في المدن المقدسة شأنها شأن ثورة المختار الخطيرة المخيفة (683- 687)، كانت تستند من حيث المبدأ إلى الانتقام العام من قتلة الحسين

(1) انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب، "العنف السياسي في بلاد الرافدين"، ص77 لتوضيح ذلك.

وأله، ولم تكن فرقة الشيعة وحدها في ذلك الحين المساهمة في طلب الثأر بل ساهم معها الكثير من أهل السنة، وحتى الخوارج الذين ساهموا في قتل أبيه علي<sup>(1)</sup>.

وهكذا بقيت قصة مقتل الحسين تتداول عبر الأجيال واستُغلت من قبل الرواة الذين بدأوا يزيدون في آلام الناس من خلال الوصف الحزين أولاً، ويزيدون البطولات الأسطورية للإمام الحسين وجماعته، لأن ذلك يضيف قدسية أكبر من خلال موروثهم التاريخي الذي يكمن في "أن الحق والعدل مع القوي"، إلى أن وصلت بعض القصص والروايات في يومنا هذا إلى الحد الذي لا تجده سوى قصص الأطفال الأسطورية من بطولات وهمية تنسب إلى الجماعة التي ناصرت الحسين، ومنها بالذات إلى أخيه العباس، فقد أصبحت تلك القصص وسيلة يعتاش منها البعض، وقصة البطولات التي تنسب إلى العباس، وهو أخو الحسين من أبيه، وكانت والدته من أصل بدوي مما يدل على اعترافهم بقوة البدو وصلابة موقفهم القتالي وقد استمرت رهبة وسطوة العباس في قلوب الناس إلى يومنا هذا، فلا يحلف الاعرابي الشيعي في أمر مشكوك فيه أمام قبر العباس توقياً من ضربه غيبية قد تأتي منه حتى وهو في قبرة في كربلاء منذ زمن بعيد. وهكذا إنتهت حادثة مقتل الحسين بن علي والتي كان سببها تمسك الرعاة القادمين من قلب الجزيرة العربية بالسلطة والجاه والمال ولا يبالون من عمل كل شيء للحفاظ على تلك السلطة.

## (2-3) ثورة عبد الله ابن الزبير:

ننتقل إلى المصيبة الأخرى التي قام بها يزيد في السنة الثانية لخلافة، فقد جاء في كتاب "الفتنة الكبرى" لطفه حسين: "لقد عظم في الحجاز أمر عبد الله بن

(1) وليم مورير "المرجع السابق"، ص 223.

الزبير وكثر أصحابه وأشياعه، وجعل يزيد يجد في أن يفرغ منه كما فرغ من أمر الحسين وانتهى الخبر إلى يزيد بأن أمر المدينة قد اضطرب، وقد وصلت الأحاديث إلى عبدالله بن الزبير بمكة بثورة أهل المدينة وخرجهم عن عامل يزيد، فأرسل يزيد إليهم جيشاً قوامه اثنا عشر ألف من أهل الشام يأمره مسلم بن عقبة المري، ورسم له خطه أولها حق وآخرها باطل، وهي أن يأتي المدينة فيدعو أهلها إلى الطاعة ويعذر إليهم وينتظر بهم ثلاثاً. ولم يكتفي بهذا الحد، وإنما مضى إلى الباطل من خطته، فأمر مسلماً إذا انتصر على خصمه من أهل المدينة، أن يبيحها ثلاثاً لأهل الشام يصنعون بها ما يشاؤون وينهبون أهلها من أموالهم ومتاعهم ما يحبون، وقد جاء مسلم إلى المدينة فقاتل أهلها وقتل منهم خلق كثير، ثم أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا واستباحوا من محارم الناس ما عصم الله. ثم أخذ من بقي من أهل المدينة بالبيعة ومن أبى منهم هذه البيعة ليزيد أمر به فضربت عنقه، ثم تحول الجيش إلى مكة فعاصروا فيها ابن الزبير ومات مسلم في الطريق، فقام بأمر الجيش بعده الحصين بن نمير السكوني<sup>(1)</sup>، وقد شدد أهل الشام الحصار على مكة، ثم لم يقضوا عند ذلك، وإنما رموها بالمجانيق، وحرقت الكعبة واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد، فقفلوا راجعين إلى الشام دون أن يلقي ابن الزبير منهم كيداً. والغريب المنكر من هذا كله، هو تجاوز الحد والغلو في الإثم، فقد كانت السياسة تقتضي أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى الطاعة. فأما المثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين لوحده، وإنما السياسة والتقاليد العربية الأصيلة، وهي بعد ذلك تلمي القلوب ضغينة وحقداً. وهكذا مات يزيد ولما يملك إلا ثلاث سنوات ونصف من تسلمه السلطة بعد وفاة أبيه معاوية، وذلك من خلال مسابقة مع قرد أسقطته عن فرسه سقطه كانت نتيجتها الموت.

(1) طه حسين، الفتحة الكبرى، ج2، ص246.

لقد أصبح للمسلمين بعد موت يزيد مثل من هذه الأمثال العليا الكثيرة التي دعا إليها الإسلام، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما نريد، وإنما تسفك الدماء، وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم وديناهم. وهذا المثل الأعلى هو العدل الذي سيملاً الأرض وينتشر فيها الإسلام والعافية والذي تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً حتى استيأس من قربه الشيعة ولم يستيئسوا من وقعه، فاعتقدوا بأن إماماً من أئمتهم سيأتي في يوم من الأيام فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. لقد حصل هذا الاعتقاد وزاد ترسخاً بعد العديد من الثورات الأخرى التي قام بها زيد بن علي بن الحسين وغيره من الثائرين، والتي لم توصل جميعها إلى النجاح في التخلص من حكم الظلم والجور في العصر الأموي أو العباسي أو غيره.

إن الانتصارات التي أحرزها عبدالله بن الزبير، والتي أدت إلى أن أغار جند يزيد على المدينة (682م) فقتلوا ثمانية عشر رجلاً من أصحاب الرسول وأكثر من سبعمائة من حفظة القرآن الكريم، فزاد قتلهم وعدم احترام مكة نار الغضب، والحقد إشعالاً، وتصاعدت فكرة الانتقام، فانتمم المختار انتقاماً هائلاً من أجل كربلاء (686م)، وعذب وقتل ابن زياد وشمر وعمرو بن سعد والمئات ممن يقلون عنهم شأنًا.. لأنهم شاركوا في هذا الأمر، ثم قتل مع سبعة آلاف من مرافقيه - خلال أقل من عام على يد مصعب بن زبير (أخ عبدالله بن الزبير)، وفي شهر يونيو 688، تصاعدت خلافات العالم الإسلامي بصورة ملحوظة.. حيث شارك أربعة من الرؤساء المتناحرين في أداء شعائر الحج كل على رأس طائفته، وهم عبد الملك الخليفة الأموي، ومحمد ابن الحنفية (بن علي)، وابن الزبير، وتجدد من الخوارج. وحركة المختار هذه هي حركة شيعية، تصاعدت فيها صرخات المطالبة بالانتقام للحسين وأصحابه، واستهدف المتنادون بها الحصول على حق ابن

الحنفية<sup>(1)</sup>. وكان بين أتباع المختار عدد كبير من أصل غير عربي يطلق عليهم الموالي.. ومعظمهم من الإيرانيين.. وكان بين جنوده البالغ عددهم ثمانية آلاف - وهم الذين سلموا لمصعب بن الزبير - أقل من العشر (حوالي 700 جندي) من أصل عربي<sup>(2)</sup>. وفي دراسات ممتازة قام بها فن قولتن حول أسباب اشتراك المسلمين من غير العرب في جيش المختار<sup>(3)</sup>، نجد تفاصيل أكثر عن حركة المختار هذه.

#### (2- 4) ثورة زيد بن علي ابن الحسين؛

في عهد الخليفة هشام ابن عبد الملك، كان خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق، الذي جاء بعد الحجاج، وما كان العراق أن ينجو من قبضته الحديدية حتى زائله الاستقرار والأمن، فخرج في الكوفة زيد ابن علي ابن الحسين بن علي مطالباً بحق بيته في الخلافة، فبايعه الناس وعلى الرغم من أن أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي، استطاع أن يخمد الثورة في غير صعوبة بعد أن قتل زيدا في معركة دارت في الشوارع، فالحق أن ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التي أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين، وفي القرن التاسع، أسس أتباع زيد بن علي بن الحسين هذا دولة في اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاونة، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التي لا تزال آثارها ومريديها متواجدين الى اليوم. وتذهب الزيدية إلى أن للقيادة الروحية "الإمامة"، دون غيرها يجب أن تكون في آل علي، وتتكرر المتطرف في العقائد الشيعية، ومن هنا لم يكن الخلاف بينهما وبين الأكثرية السنية حاداً جداً، ولا تعتبر الزيدية من الشيعة الاثني عشرية<sup>(4)</sup>.

(1) تاريخ اليعقوبي، طبع هوتسا، ج2، ص308.

(2) موير، ص336، "تاريخ الخلافة"، المصدر السابق نفسه.

(3) Van voltan, Recherches sur la Domination Arabe, etc:

(4) كارل بروكلمان، "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ترجمة منير بعلبكي، (1977)، ص157.

## (2- 5) ثورة البربر:

كان أهل أفريقيا الشمالية من البربر يظهرون الامتياز وعدم الرضا، وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية، على الرغم من كونهم مسلمين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدسة (الجهاد)، واندلعت في أفريقيا نيران ثورة هائلة، امتدت من مراكش إلى القيروان، وكان الولاة الأفريقيون أعجز من أن يخمدوا هذه الثورة العارمة، بالرغم من أن عقبة أمير الأندلس قد هرع لتجديتهم من اسبانيا، ومن هنا تعين على هشام عام 741م أن يواجه لقتال البربر جيشاً سورياً يقوده كلثوم بن عياض، ولكن هذا الجيش نفسه سقط دون الغاية في وجه شجاعته الفاتقة، والواقع أن معركة كبرى نشبت بين الفريقين على ضفاف نهر "نوام" سنة 741م دارت الدائرة فيها على العرب فقتل قائدهم كلثوم، واضطر نسيبه بلج بن بشر إلى أن يقاتل أشرس قتال ليشق طريقه إلى الأندلس بثلاث جيشه الباقي، فلم يوفق إلى ذلك إلا في عسر كثير. ولقد كان على العرب أن ينتظروا عاماً واحداً حتى يحرزوا نصراً يضمن لهم على الأقل الاستيلاء على القيروان لكن هذا لم يحصل.

## (3) الاغتيال السياسي في العصر الأموي:

في إطار البحث في "العنف السياسي وجذوره التاريخية" لا بد لنا أن نعرض بعض النماذج عن الاغتيال السياسي الذي حصل في العصر الأموي، وكما جاء في كتاب هادي العلوي عن "الاغتيال السياسي في الاسلام" نورد ما يلي:

"لقد مورست ظاهرة الاغتيال السياسي في العصر الأموي بشكل واسع يمكن أن نستقصي أشهر الاغتيالات منها:

(3- 1) اغتيال الحسن ابن علي: ثمة ما يشبه الإجماع على أن الحسن مات مسموماً مع الميل إلى تحميل زوجته بنت الأشعث ابن قيس الكندي مسؤولية ذلك.



ومن بين الذين أكدوا تسميم الحسن "المدائني"<sup>(1)</sup> وهو من أقدم كتب السير. وتقيد بأن الحسن توفي بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعده بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتلته بالسم فلك مئة ألف درهم، وأزوجك من يزيد ابني، فلما مات الحسن وفي لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اطمئنانه إليها. وقد ورد في رواية ابن عساكر<sup>(2)</sup> أن الحسن بعد السم كان يوضع تحته طست ويرفع نحو من أربعين مرة إشارة على ما أحدثه السم في بطنه من تأثير قوي، وكذلك ذكر ابن عبد البر في كتابه "الاستيعاب"<sup>(3)</sup> وأورد آخرين أن جعده سمته بتدسيس من معاوية. وأشار إلى موته مسموماً كلاً من ابن حجر في "الإصابة" في تهذيب وابن الأثير في "أسد الغابة". كما رأى ابن كثير في "البداية والنهاية" (حوادث 49) أن الحسن مات مسموماً بتدبير من معاوية وأن دس السم كان من قبل خادم له، وفي روايات أخرى زوجته جعده، وربط أبو الفرج مشروع البيعة ليزيد بن معاوية بالتخليص من شخصيتين مهمتين هما الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الإسلام الكبار عاصروا خلافة معاوية.

إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه ابن أبي أصيبعة لدى ترجمته للطبيب السرياني ابن أثال، فقد جاء في "عيون الأنباء"<sup>(4)</sup> أن ابن أثال كان متخصصاً بالسموم وأن معاوية كان يقربه لذلك كثيراً. وقد مات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم. وكان من بين تلك الشخصيات سعد بن أبي وقاص، ولكن لم يهتم المؤرخين في تفصيل

(1) المدائني، المجلد 4، ص 5.

(2) ابن عساكر. "تهذيب تاريخ ابن عساكر"، دمشق، ج 4، ص 229.

(3) ابن عبد البر، "الاستيعاب"، الترجمة 555، الحسن بن علي، ص 389.

(4) ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء"، في طبقات الأطباء، ط بيروت (1965)، ص 11.

حادثة تسمم سعد مثل اهتمامهم في حالة الحسن، ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص في تحضير السموم هو إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر ولا يمكن متابعة الفاعل. ويذكر أن موت الحسن قد جاء بعد سقاية السم لمرات عديدة، ولم يظهر لها مفعول إلا بعد استعمال وصفه أشد مفعولاً هي التي قتلتها، وكانت الأولى مبالغ في لطافتها. وكان الهدف واضحاً في موت الحسن فقد بدأ معاوية بعدها بمساعيه العلنية لمبايعة ابنه يزيد ولياً لعهد، وكان هذا حدثاً فاصلاً في التاريخ الإسلامي من خلال تحول الخلافة إلى ملكية وراثية بدلاً من الاختيار بالشورى، كما كان معمولاً بها أيام الخلافة الراشدة، فإن موت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي كما ذكرنا سابقاً.

### (3-2) اغتيال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد:

بعد أن أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حروبه لإخراج البيزنطيين من الشام والتي جلبت له شهرة واسعة أضيفت إلى رصيده الموروث من والده، حتى أخاف معاوية من تأثيره عندما قدم من بلاد بيزنطيا إلى حمص، فأمر ابن أثال المتخصص في صناعة السموم أن يحتال في قتله، وقد دس إليه ابن أثال شره مسمومة وفيها غسل فمات منها.

وكافأ معاوية ابن أثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته، وتعيينه والياً على خراج حمص<sup>(1)</sup>. وقد كانت هذه شخصية أخرى قد تكون منافسة لمبايعة يزيد بالخلافة من بعد معاوية<sup>(2)</sup>. وقد تمت عملية اغتيال عبد الرحمن بن خالد بسهولة

(1) الطبري، "تاريخ الأمم والملوك"، حوادث سنة 46، ط الاستقامة، القاهرة (1939)، ج5، ص227.

(2) ابن أبي اصيبعة، "عيون الأنباء"، ص174.

(3) أبي الفرج، "الاصفهاني" ج16، ص140، ط بيروت، بلا تاريخ.

أكبر بالقياس إلى اغتيال الحسن، ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا، نظراً لعلاقاته الطبيعية مع معاوية، وقد حدثت قبل اغتيال الحسن، وقبل شيوع الحديث عن بيعة يزيد، لكن العملية انكشفت بعد وقوعها وأدت إلى ردود فعل مباشر انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال، وقد قام بذلك ابن المقدور ابن أخيه، وتقيد الرواية التي أوردها أبو الفرج الأصفهاني أن هذا الشخص (ابن أخ عبد الرحمن) كمن لابن أثال في مسجد دمشق، وكان يمشي مع معاوية فلما خرج من القصر حاذاه ووثب عليه فقتله، وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده متي سوط وأغرمه الديه ألفي دينار، وبقي في السجن حتى وفاة معاوية، وكانت تلك العقوبة خفيفة بسبب كون القاتل طبيباً غير مسلم وأن مكانه القاتل بوصفه حفيد خالد بن الوليد ذات شأن كبير في الشام<sup>(1)</sup>.

### (3-3) اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تتجه معظم الروايات إلى القول بأن عمر بن عبد العزيز مات مسموماً في عمر لم يكمل الأربعين. وقد أورد الطبري في "حوادث 99" التي أعقبت استخلاف عمر بن عبد العزيز "وذلك بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج. أن بني مروان بن الحكم "خافوا أن يخرج ما عندهم من أموال ففسدوا إليه من سقاة سمأ"، وذلك بعد أن توصل الوفد إلى اتفاق وشيك بين الخليفة والخوارج يعلن فيه الخوارج تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، وكان يزيد ولياً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك. وقال الكتبي في "الوفيات"<sup>(2)</sup>: سقاة بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما بأيديهم من أموال. وقد أورد الغزالي في إحياء علوم الدين "إن أعراض تسمم ظهرت في مرض عمر الذي توفى

(1) ابن عساکر "المصدر السابق"، ص 95.

(2) الكتبي "الوفيات"، ط بولاق، 1282هـ، ج 20، ص 105.

فيه، وقد اكتشف ذلك طبيب وأخبره بها فقال عمر أنه قد أحس بالسم حين وقع في بطنه<sup>(1)</sup>. وقد وردت وفيات مشبوهة أخرى في العصر الأموي وجاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوعة يمكن وضعها في نفس العداء ومنها:

### (3- 4) وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية:

شاب تولى الخلافة بعد والده، ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده، وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف في منزله، ومات وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وتقول رواية أنه مات مسموماً وذلك بعد تنازله واعتزاله السياسة، وهناك مصادر تشير إلى أنه مات في الطاعون.

### (3- 5) وفاة مروان ابن الحكم:

يقال أن مروان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية بقصد إذلال وشم الإبن الثاني ليزيد بن معاوية واسمه خالد، فقد انتقلت الخلافة بتولي مروان بعد معاوية بن يزيد من آل بني سفيان إلى آل الحكم. ويقال أنه شتمه مرة فقال له "يا ابن الرطبة!" فأبلغ خالد أمه ولامها على الزواج من مروان، فحمت ووعده بالانتقام منه. وفي الليل انتهزت فرصة نوم مروان وتواطأت مع جواربها، فألقت مخدة على عنقه وقعدت عليها حتى اختنق. بينما أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في اللبن<sup>(2)</sup>، بينما ذكرت بعد المصادر أنه مات بالطاعون وهو بالسبعين من عمره.

(1) "الحلبي" كتاب "الموت"، ج 4، ص 465 (1296هـ) أيضاً ابن الجوزي "سيرة عمر بن عبد العزيز"،

القاهرة (1331هـ) ص 277.

(2) اليعقوبي "التاريخ الإسلامي"، ط النجف (1358هـ)، ج 3، ص 4، المصدر السابق.

ومن القصص والروايات المشكوك في أمرها، هي وفاة علي بن الحسين وابنه محمد الباقر، وكذلك وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم مسمومين، وهم جميعاً (عدا الإمام زين العابدين علي بن الحسين)، قد توفوا وهم في أعمار الشباب، ولم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر. أما الاغتيالات التي تمت من جانب المعارضة للأمويين، والتي تتألف من الشيعة والخوارج والقدرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين، فقد شملت المختار بن يوسف الثقفي في الكوفة، وابن الأشعث في العراق، والحارث بن سريج في خراسان، وقد تخصص الخوارج دون غيرهم بأسلوب قريب من حرب العصابات، يعتمد على القواعد المتحركة والهجمات الخاطفة التي تقوم بها مجموعات صغيرة، وكان من المتوقع للخوارج أن يتبعوا تكتيك الاغتيال الذي يعتمد في المعتاد على الضربات المباغته والانسحاب السريع، وقد انفرد الخوارج بهذا الأسلوب إذ لم تحدث أية عمالية مماثلة في هذه الحقبة على يد الشيعة أو القدرية أو المثقفين الذين أيدوا العمل المسلح وشاركوا فيه<sup>(1)</sup>، لأن هذه الأطراف اتبعت نهج الانتفاضات في محاولاتها لاستعادة السلطة من أيدي الأمويين ولم يكن الخوارج أقل تمسكاً بقواعد الأخلاق المرعية في المجتمع العربي / الاسلامي لذلك الوقت من أقرانهم في جبهة المعارضة، مما يدل على ذلك تجنبهم استعمال السم في الاغتيالات واقتصروا على الاغتيال بالسلاح، مكرسين بذلك نهج القوى المعارضة التي تقاوت من أجل قضية تراها عادلة من وجهة نظرها، ضد سلطة ظالمة، حيث تغلب سيكولوجيا الشجاعة المقترنة بأخلاقيات العنف الثوري على سيكولوجيا الغدر المقترنة بأخلاقيات العنف القمعي، مما يرسم خطأ فارقاً بين اغتيالات الأمويين، واغتيالات المعارضة.

(1) هادي العلوي "الاغتيال السياسي في الإسلام"، (ص2004)، دار المدى، ص79.

ولم تستعمل الاغتيالات لتحقيق الوصول إلى السلطة لأنها لم تطل الخلفاء، بل طالت أعوان السلطة ممن قام منهم بأعمال قمع ضد الفرقة، فاتخذت الاغتيالات لذلك شكل الرد الفوري غالباً، بقصد الانتقام والتأديب وقد أعطت بعض المفعول حين جعلت هؤلاء يججمون أحياناً عن تنفيذ المهام الموكلة إليهم ضد الخوارج، تحسباً من الرد.

وفي كتاب "أنساب الأشراف" للبلاذري (أن عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة أعرب عن حيرته أمام الخوارج لأنه كلما أمر يقتل رجل منهم اغتالوا قاتله)، كما حصلت عمليات اغتيال أخرى خارجية (أي من أشخاص خارج الدولة والمعارضة) فمثلاً: أسر عبيد الله بن زياد خارجياً وأمر بإعدامه علناً في أحد ميادين المدينة، وقد أوكل لهذه المهمة رجل يدعى المنثم بن مشرح البياضي، وكان جلاداً محترفاً شديد السطوة.. ووضع الخوارج خطة لقتله مقابل صاحبه، وذلك باقتياده عن طريق إغرائه بشراء لقحة (التوق الغزيرة اللبن)، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب من ورائه وباغته رجلان من الخوارج فقتلاه. وبعد قتله شقوا بطنه، ووضعوا في داخلها دراهم كان يحملها معه ثم دفنوه في نفس الدار.

كما قُتل أبو بلال مرداس بن عمرو وهو من وجوه الخوارج في الكوفة، وذلك إثر خروجه مع جمع من الخوارج وإعلان العصيان على حاكمها آنذاك، وهو "عبيد الله بن زياد"، فأرسل إليه الأخير جيشاً بقيادة رجل يدعى "عباد بن أخضر" فاشتبكوا مع الجيش في معركة غير متكافئة انتهت بقتلهم جميعاً بما فيهم مرداس، وقد تم قتل "عباد ابن أخضر" هذا بخطة من الخوارج بعد فترة وجيزة انتقاماً لفعلة هذه، وقد قام الخوارج بآخر وأكبر تحرك لهم ضد الأمويين في خلافة مروان الحمار آخر خلفائهم، وقد أخذ هذا التحرك شكل انتفاضة واسعة شملت اليمن بما فيها حضر موت، وامتدت إلى الحجاز. وكانت بقيادة أبو حمزة، فعين مروان لإخماد الانتفاضة قائداً يدعى "أبو عطية" وأرسله مع جيش

كبير فاحتل مكة والمدينة، وقضى على الخوارج الذين كانوا فيها. وقد قتل أبو حمزة في المعارك التي خاضها ضد الجيش الأموي مع جميع أصحابه واستسلم من تبقى منهم وعددهم (400) مقاتل فأعدمهم أبو عطية جميعاً، ثم اتجه إلى اليمن فهاجمها وسحق حركة "طالب الحق" وأباد من معه من الخوارج، وأقام بعد ذلك في حضر موت، ولكنه قُتل في كمين نصبه الخوارج أثناء رحلته للحج إلى مكة، وعند اقترابه من الكمين خرجوا عليه وقتلوه مع حراسه التسعة عشر.

ويصف ابن أبي الحديد مقتله على الوجه التالي: "كان الكمين بقيادة أخوين من كندة، فبارز أحدهم فضربه بسيفه ضربه كادت أن تقضي عليه، لولا أن عاجله الآخر، فطعنه برمح فصرعه.. ونزل إليه الأول وقعد على صدره. فقال له أبو عطية: هل لك في أن تكون أكرم العرب أسيراً؟ فرد عليه: يا عدو الله أتظن أن الله يهلك أو تطمع في الحياة وقد قتلت "طالب الحق وأبا حمزة"، ثم ذبحه ذبحاً<sup>(1)</sup>".

استمر الخوارج في استخدام أسلوبهم هذا حتى في الخلافة العباسية ولكن بوتيرة أقل، ومن أشهر ضرياتهم آنذاك، كانت اغتيالهم "معن بن زائدة"، أحد كبار القادة المخضرمين.

### (3- 6) التعذيب السياسي في العصر الأموي:

لقد مورس التعذيب السياسي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، بقصد توفير الردع الذي يمنع المقت الشعبي دون أن يتحول إلى تحرك يهدد سلطة الحاكم، وكان معاوية يملك قاعدة شعبية متينة في الشام ساعدته على أن يشتهر بالحلم المأثور عنه، لكن استقلاله بالسلطة بعد تنازل الحسن بن علي أثار في وجهه عدة إشكاليات منها: أن موقف جمهور المسلمين الذين اعتادوا حكم الخلفاء المقيد

(1) ابن أبي الحديد، ج1/ ص463.

بالشرع الإسلامي قد تم تجاوزه من قبل معاوية من خلال إنفراذه بالسلطة، وأن موقف العرب الذين لم يتعدوا أصلاً الخضوع لسلطة مركزية من خلال الموروث الجاهلي أيام كانت القبائل في صراع دائم فيما بينها، قبل أن تتوحد في عصر الفجر الأول للإسلام، بالإضافة إلى معارضة أهل العراق المتمسكين بالولاء لعلي بن أبي طالب وأولاده وظهور الخوارج الذين لا يؤمنون إلا بحكم الله وحده، والذي جعل من العراق مركزاً للنشاط المعارض للحكم الأموي الجديد، فلم يستطع معاوية من السيطرة على المعارضة، وقد لجأ أول الأمر إلى المبادرات، فولى المغيرة بن شعبة، أحد دهاة العرب لحكم العراق، ولكن دهاء المغيرة لم يكن كافياً في تخفيف حدة المعارضة، فعزل بوالي آخر هو زياد بن أبيه، وقد أظهر زياد مواهب إرهابية نادرة في ذلك الوقت، وصار قدوة لمن جاء بعده من الولاة والحكام المسلمين وكان مشرعاً لعدة قوانين سارت عليها السلطة الإسلامية فيما بعد، فمثلاً منع التجول والقتل الكيفي والذي يعرف حالياً بالقتل على الهوية، وكان يعرف عندهم في ذلك الحين بالقتل على التهمة أو على الظن، وقتل البرئ لإخافة المذنب، فمثلاً قتل فلاح خرج ليلاً للبحث عن بقرته الضائعة خلافاً لقرار منع التجول في الليل من أجل إخافة الأقوياء في عدم مخالفتهم لأوامره<sup>(1)</sup>. كذلك قتل النساء وهو أمر غير مألوف عند العرب. ويذكر الطبري أن وكيل زياد على البصرة وهو الصحابي "سمره بن جندب" أعدم ثمانية آلاف من أهلها تطبيقاً لمبدأ زياد في القتل على التهمة أو الظن<sup>(2)</sup>.

ويروي السمعاني في "الأنساب" أن زياد أمر بقطع لسان رشيد الهجري<sup>(3)</sup> وصلبه لأنه تكلم بالرجعة<sup>(4)</sup>.

(1) هادي العلوي "من تاريخ التعذيب في الإسلام"، دار المدين (2004)، سوريا، دمشق، ص9.

(2) الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، طبعة القاهرة (1939)، ج4، ص176.

(3) رشيد الهجري: صحابي يوجد له مقام حالياً في الكوفة، بالقرب من مسجد الكوفة الكبير.

(4) الباب في تهذيب الأنساب آين الأثير السمعاني القاهرة (1357هـ)، ج2، ص85.



إن الحكم بقطع اللسان تطوير مبكر لفن التعذيب، يدل على السرعة التي تقدمت بها الدولة الإسلامية في طريق تكاملها كمؤسسة قمعية لا تراعي حقوق الإنسان واستمرت في نهجها هذا إلى عصرنا الحاضر، فقد مورست هذه العقوبة بكثرة لمن تكلم سوءاً بنظام الحكم السابق في العراق مثلاً، وقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي نسخة متطرفة من زياد، فقد تمت على يده فرض حالة من الإرهاب شملت الناس على اختلاف فئاتهم ولأسباب مختلفة، منها سياسية، وأخرى عادية، وقد أنشأ سجن الدعاس المشهور، وكان بلا سقوف وقد رعد من كان فيه عند وفاته بعشرة آلاف من الرجال والنساء. وكان التعذيب يطبق على الأسرى والمعتقلين تبعاً لحالاتهم، ولكن الشكل السائد لإرهاب الحجاج كان القتل الكيفي بوسيلته الشائعة، وهي قطع الرأس بالسيف، وأضاف الحجاج الصلب بعد القتل للأشخاص الذين لهم وزن خاص في حركة المعارضة أمثال ميثم التمار، صاحب الإمام علي بن أبي طالب ومن المقربين له، وكذلك فعل في الصحابي سعيد بن الجبير، وسنأتي لاحقاً إلى تفاصيل ذلك الفعل في فقرة الحجاج. استمرت سياسة التعذيب لأجل الإرهاب طيلة فترة الحكم الأموي عدا استراحة قصيرة في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذت مدى جديد على يد هشام بن عبد الملك في الشام وولاته في الأقاليم، ومارس هشام بنفسه طريقة القتل بقطع الأيدي والأرجل أولاً، والقتل بالآخر، كما في بعض الحالات المشددة مثل إعدام غيلان بن مسلم الدمشقي بتهمة القول بالقدر، وبنفس التهمة أعدم خالد القسري الذي كان عاملاً في العراق "ألجعد بن درهم"، وقد نفذ الإعدام ذبحاً، وإعدام هذين الرجلين ملابسات سياسية معروفة في تاريخ القدرية (أو المعتزلة)<sup>(1)</sup> وكانت في بدايات نشأتها كما سنأتي لشرحها لاحقاً.

(1) القدرية: فئة من الناس ظهرت في ذلك الزمان تقول بالقدر ضد إيجاب بني أمية في حكم الناس، وكان لغيلان موقف سياسي ضمن المعارضة الإسلامية للحكم الأموي، وقد انضم إلى عمر بن

أما خالد القسري فكان والياً على الحجاز قبل ذلك وأصدر حينذاك تحذيراً لمن يطعن في الخليفة أن يصلبه في الحرم، أي في داخل بيت الله الحرام في مكة، وكانت الشريعة قد حرمت قتل حتى الحيوان في هذا المسجد المقدس، واختلف الفقهاء في جواز قتل الأفاعي والعقارب فيه. ويروي الطبري أن الإحراق استخدم في خلافة هشام لإعدام داعية من غلاة الشيعة هو المغيرة بن سعد العجلي، وكان قد خرج على الدولة في ظاهر الكوفة أيام ولاية خالد القسري<sup>(1)</sup>، لقد كانت خلافة هشام صعوة الموت للأمويين خاصة بعد أن استتشق الناس بعض الإصلاحات الإنسانية التي أدخلها عمر بن عبد العزيز، وذاقوا طعم العدل والإنصاف في أسلوب الحكم، وقد ورثه خلفاء قصار العمر لم يستطيعوا من تثبيت أركان دولتهم وسط الاضطرابات المتلاحقة والتي انتهت بانتصار ثورة العباسيين التي قضت على مروان بن محمد (الملقب بالحمار)<sup>(2)</sup>، وبيع لأبي العباس السفاح كأول خليفة عباسي.

وظهر التعذيب أيضاً في معاقبة الهاربين من الجيش بشكل ملفت للنظر في أيام خلافة عبد الملك بن مروان، وتتم بإقامة الهارب حاسراً في مكان عام للتشهير به، وقد أضاف مصعب بن الزبير والي العراق إلى نزع العمامة وحلق الرأس واللحية، وكانت هذه العقوبة مهينة جداً في ذلك الحين، وفي ولاية بشر بن مروان - شقيق عبد الملك - للعراق فرض التعذيب الجسدي، فكان الهارب

---

عبد العزيز فعينه لبيع الأموال المصادرة من الأمويين وكان ينادي عليها في المزاد متشفياً، واختفى بعد وفاة عمر إلى أن قبض عليه هشام وأعدمه سيأتي تفصيل أكثر في هذه الفئة في الفصل الثاني.

(1) الطبري "تاريخ الامم والملوك"، المصدر السابق نفسه القاهرة (1357هـ)، ج 4، ص 442.  
 (2) يقال أن لقب "الحمار" الذي أطلق على الخليفة مروان كان بسبب مجيئه في السنة التي دارت على الحمار حسب التقويم الصيني. ولذلك لقب بالحمار ولا علاقة لها بصفات الخليفة كما تشير أغلب المصادر المعتمدة بهذا الخصوص. بينما تشير مصادر أخرى أن قوة صبرة ودماثة ولا يوجد رأي قاطع بهذا الخصوص.

يرفع عن القاع ويسمر في يديه مسماران في حائط -على طريقة صلب المسيح- ويترك لشأنه ربما يبقى معلقاً حتى الموت أو يخرق المسمار كفه ويسلم<sup>(1)</sup>.

أما حمل الرؤوس المقطوعة على الرماح والتي تدخل في باب المثلة بالميت، فقد بدأها الأمويين في زمن معاوية، ويقال أن أول رأس حمل في الإسلام هو رأس "عمرو بن الحمق" أحد أتباع علي بن أبي طالب وقد قتله زياد بن أبيه، وكان ذلك قبل حمل رؤوس الحسين وأصحابه بعد معركة كربلاء<sup>(2)</sup>.

ومن أساليب التعذيب التي تستحق الذكر هنا، هي التبريد بعد الجلد، فإن عبد الملك بن مروان عندما خطب ابنة التابعي "سعيد بن المسيب"، وكانت مشهورة بجمالها لإبنة الوليد، رفض سعيد تلك الخطبة لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد وألبسه جبة صوف ثم صب عليه جرة ماء بارد<sup>(3)</sup>.

ويُذكر أن "خالد القسري" الذي كان والياً على الحجاز ثم على العراق أيام هشام بن عبد الملك، وقد عزل خالد وأبدله بيوسف بن عمر الثقفي، ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة وكانت طريقة قتله كما يلي:

وضع عمود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه، ثم وضع العمود على ساقيه فكسرت بنفس الطريقة، ثم نقل إلى فخذيه ومنهما إلى حقوية وانتهى العمود إلى صدره وعندها مات، وكان خلال ذلك ساكناً لا يتأوه<sup>(4)</sup>. أما طريقة التعذيب بقلع الأظافر، فيذكر أن وليمة قريشية

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ في أخبار الحجاج".

(2) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، المصدر السابق، ص 21.

(3) مصعب الزبيري "نسب قريش"، ج 2، ص 240، كذلك الزبيري بكار "نسب قريش"، ج 1، ص 380.

(4) الطبري، المصدر السابق، ج 5، ص 536.

قد أقيمت وحضرها هشام بن عبد الملك حين كان أميراً مع أحد الوجهاء ويدعى "عمار الكلبى"، واقتضى ترتيب الوليمة أن يجلس عمارة فوق هشام، فاستكثرها منه وآلى على نفسه أن يعاقبه متى أفضت إليه الخلافة، فلما استخلف (أي صار خليفة على المسلمين كافة) أمر أن يؤتى به وتقلع أضراسه وأظافر يديه ففعلوا به ذلك<sup>(1)</sup>.

أما التعذيب بالقصب فيذكر أن "فيروز بن حصين" الذي كان قائداً في انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج في العراق قد أسرب بعد فشل انتفاضة وأمر الحجاج بتعذيبه فعري جسده ولفه في قصب مشقوق ثم أخذوا يجرون القصب فوق جسده، ولزيادة إيلامه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التي يسببها القصب، وبعد أن يئس الحجاج من انتزاع اعترافاته قطع رأسه.

يتضح مما تقدم أن التعذيب قد تفاقم في أيام الأمويين وكان ذلك متلامزاً مع تحول دولة المدينة البسيطة إلى امبراطورية تعد من أكبر الامبراطوريات في العالم آنذاك، وكل تلك الامبراطورية يحكمها شخص واحد هو الخليفة حكماً مطلقاً لا يخالفه الرأي أحد، بالإضافة لذلك فإن التعذيب لم يكن من صنع الأمويين أولاً بل سبقوهم في ذلك آخرين أيام الخلافة الراشدة، ولكن بدرجة أدنى وباستثناء عمر بن عبد العزيز الذي حكم فترة تقل عن ثلاثة سنوات ويزيد الناقص الذي حكم حوالي ستة أشهر، فإن الباقيون كانوا قمعيين بدرجات متفاوتة، وظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عقبة المري والحجاج وقرّة بن شريك، وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسري وأخوه أسد، واشتهر الحجاج من بين هؤلاء رغم أن فيهم من لا يقصر عن شأوه وتقول رواية شعبية أنه كان إذا أعدم أحداً

(1) أمالي القاضي، بيروت، ص 57.

يستمي على نفسه، وهذا دليل على اقتران الحالة السيكلوجية بين الجنس والعنف والتي تعرف في عصرنا بالسادية<sup>(1)</sup>.

لقد خلفت لنا تلك الأحداث آثاراً لا يستهان بها من التطبيع على أساليب فرض السلطة بالبطش بالناس، دون الاكتراث في الاعتبارات الإنسانية الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا، أن فقهاء المسلمون لم يتطلعوا يوماً لإلغاء عقوبة الإعدام في عصرنا هذا لأن ذلك يعتبر من العقوبات الأبدية المفروضة على الإنسان كما جاءت في القرآن الكريم وهو كتاب الله لا يستطيع أحد أن يجتهد فيه أو يحوره أو يبدله، وإنما يمكن الاستدلال على تخفيف العقوبة من خلال الحديث النبوي "أعف الناس قتله أهل الإيمان" أي أن المؤمن إذا اضطر إلى القتل نذره بأقل الوسائل إيلاًماً، وقد استتج "ابن تيميمه" من هذا الحديث أن القتل يقصد أسرع بحيث لا يتعذب المحكوم به<sup>(2)</sup>، ويبيّن على ذلك أن الإعدام يجب أن ينفذ بالسيف ونحوه لأن ذلك أرحم أنواع القتل ويقصد هنا أن المحكوم به لا يتعذب ما دامت الوسيلة الأقل إيلاًماً، فإذا وجدت وسيلة أخرى حلت محله، ولكن ذلك لا ينطبق على وجود نصوص أخرى في القرآن الكريم تقترن بالتعذيب مثل قطع اليدين والرجلين والصلب والرجم بالحجارة للزاني والزانية المحصنين (أي المتزوجين وهي وسيلة كانت مطبقة لدى السومريين والبابليين كما ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب، وقد انتقلت إلى الإسلام).

لقد كانت عقوبة الزانية المحصنة هي الحبس في منزلها حتى الموت حسب الآية (15) من سورة النساء، ثم نسخت بالرجم، وقد أثار حكم الراجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة وعدم النص عليه في القرآن من جهة أخرى فأنكره

(1) هادي العلوي، المصدر السابق، ص 11.

(2) ابن تيمية "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، ص 77- 78.

فريق من المسلمين بينهم الخوارج وتساهل آخرين في تنفيذة، ولكن هذا الأمر لا يزال معمولاً به في بعض الدول الإسلامية إلى يومنا هذا.

والأمر الآخر هو أن في معارك المسلمين أيام الفتوحات: كان يتحارب الجيشان المتخاصمان وعند حلول الانتصار تبدأ عملية السلب والنهب واغتصاب النساء وهذا أمر محلل اعتادوا عليه منذ عصر الجاهلية، وتحدثت المصادر الإسلامية عن شخصية نموذجية من هذا النمط هو "مسلم بن عقبة المري"، وكان من قواد يزيد بن معاوية، وقد أرسله يزيد على رأس جيش لتأديب أهل المدينة الذين أعلنوا عليه العصيان، وبعد أن اقتحمها مسلم أباحها لجنوده ثلاثة أيام، قتلاً ونهباً واغتصاباً للنساء، ويروي أن المفتصات ناهزن السبعة آلاف تم إحصاؤهن على أساس الولادات الغير شرعية التي حصلت في المدينة بعد تلك الحادثة، ويستدل من هذا الرقم على فظاعة ما جرى حينذاك، ولو أننا لا نستطيع أخذه على علاقة مع احتساب العدد الكلي لسكان المدينة آنذاك، ومهما يكن من مبالغة في الأرقام، فلا بد أن يكون هناك عملاً بشعاً قد حصل بأقل تقدير، والغريب أن القائد مسلم بن عقبة المري هذا قد قام بهذا الفعل من منطلق تدين بحيث أنه مات مقتعاً بنوال رضا الله وغفرانه<sup>(1)</sup>، لأن خروج أهل المدينة على الخليفة هو عمل سياسي أي دنيوي، والتعاليم الإسلامية التي نصت عليه هي تعاليم سياسية تتحدد خارج العلاقة الدينية التي تجمع بين المسلم وربه.

والإسلام كما نعلم هو حركة دينية سياسية، إن هذا الشكل من الاتهامات يقترب دائماً بالخلافات بين أبناء الملة الواحدة، وهو جزء من العقلية الدينية التي تحدد التدين في إطار مذهبيتها الخاصة بها وتنفية عن كل ما عداها، لقد حكم الحجاج وفقاً للشريعة وهو نفسه الذي كان يعتبر بطل

(1) البلاذري "أنساب الأشراف"، ج2، ق2، ص46، الجامعة العربية، القاهرة، 1959 (أحمد بن يحيى بن جابر).

الإرهاب في عصر فجر الإسلام، وكان دائماً مضطراً إلى الرجوع للمشرية ويستفسر من أنس بن مالك، وفي أخبار الحجاج في "مروج الذهب" للمسعودي يلقي الضوء على هذه الحالة فيقول: "جئ برجل من بني عامر من أسرى الجماجم، فقال له الحجاج والله لأقتلك بشر قتلة، فقال الأسير "والله ما ذلك لك" قال ولم؟ قال: لأن الله يقول في كتابه "إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب. حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها"، وأنت قد قتلت فأثخنت وأسرت فأثخنت، فأما إن تمن علينا أو تضدينا عشائرتنا، فتراجع الحجاج أمام النص وأطلق الأسير. ووفرت الثقافة الأدبية للحجاج رادع آخر عدا الرادع الديني، فكان البعض يتخلصون من القتل بعبارة يطرب لها فيعفوا عنهم، وتدخل في باب البلاغة مواقف مصارحة تعجبه فيضج عن أصحابها، ويمكن القول: أنه لم يكن للحجاج فلسفة تنظر للعنف الدموي الذي مارسه طيلة حياته، فيما عدا الخلفية الدينية التي استمد منها إسوة بغيره من المتدينين حتى يكون في السلطة مقومات وجدانه القمعي، والحجاج كان من المتدينين كما تشير إلى ذلك كل سيرته الشخصية، سوى أنه كان يؤمن فوق ذلك وبيالغ في إيمانه بالحق الأموي للخلافة، وكانت أدبيولوجيته تتكرس في الحق الأموي المصعد إلى مرتبة الحق الإلهي، وكان يؤمن بالخليفة الأموي إيماناً دينياً هو الذي جعله يتوغل في العنف والإرهاب<sup>(1)</sup>

لقد ظهرت العديد من الدراسات والأطروحات التاريخية تشير إلى قدرة الحجاج على الخطابة والبلاغة وتمجد من إنجازاته العمرانية والاصلاحات الإدارية وفي إدارة الجانب الشرقي برمته للامبراطورية الإسلامية، لفترة ليست بالقصيرة وتشير أيضاً أنه مؤمن بدين الإسلام من الطراز الأول ولا يهمهم كل

(1) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، ص 93.

أعمال القمع والتعسف والقتل التي قام بها، لأن الإيمان يسبق الأفعال ولا علاقة بكل أفعاله بإيمانه، وهكذا يتم عندهم تقييم كل الطغاة والمستبدين عبر التاريخ من هذه النظرية، إن ظاهرة الحجاج تحتاج لفقرة مستقلة قادمة سنتناولها على انفراد لما لها من أهمية في تاريخ العنف السياسي في العراق.

#### (4) الحجاج بن يوسف الثقفي:

لعل واحداً من أبرز الشخصيات التي اشتهرت في القمع والاستبداد في العصر الأموي، وربما في تاريخ العراق عموماً هو الحجاج، وأصبح رمزاً ومضرباً للأمثال لا يمكن أن يغيب عن البال<sup>(1)</sup>، ومن هذا المنطق ونحن نبحث في الجذور التاريخية للعنف السياسي في العراق، لا بد لنا من زيادة المعرفة عن هذه الشخصية التي طبعت بصماتها في تاريخ العراق عبر القرون، ولا يزال الناس يتذكرونه ويتذكرون أفعاله كلما مرت بهم مصيبة من حاكم مستبد.

الحجاج بن يوسف بن الحكم، ولد في الطائف عام 40هـ، ونشأ فيها وهو من قبيلة ثقيف الحجازية، التي استوطنت الطائف في العصر الأموي، ويرجع تسمية ثقيف لهذه القبيلة لكثرة اهتمامها بالمعرفة واقترن اسم الثقافة باللغة العربية من خلالها، وكانت هذه القبيلة قد هجرت البداوة واشتغلت في الزراعة باستقرارها في الطائف، وهي بلدة تمتعت بوفرة المياه فكانت من الأرياف العربية المتميزة في الجاهلية، وقد استزرعوها بني ثقيف وقريش، التي اعتمدت في معيشتها على البلدة، فالتحقت فيها البساتين والمزارع وصاروا ينتج وتصيف، وأشتهرت بالكروم وحدائق الزهر، وكان استقرار ثقيف في المنطقة سبباً في التحول في تكوينها الاجتماعي والذهني بالمقارنة مع قبائل عربية أخرى في الحجاز، والتي كانت موغلة في البداوة، وقد ولد الاستقرار الزراعي هذا إلى

(1) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، ص 93.



توجه أفراد من بني ثقفيف إلى تحصيل المعرفة، فعلى سبيل المثال سافر "الحارث بن كلدة" إلى إيران في مدرسة جنديسابور الطبية التي كان يديرها السريان. وهو مصدر مهم من مصادر تاريخ العلوم العربية وطبيب العرب الأول، وقد عاصر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعارضه ولم يؤيده، وبقي على حالة هذه بعد استكمال أسلمة الجزيرة العربية وعاش إلى عهد خلافة معاوية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه المرضى للاستطباب عند الحارث، ولا بد من ذكر شخصيات أخرى من ثقفيف ساهمت مع النبي صلى الله عليه وسلم في التأسيس من جوانب الدولة الإسلامية العسكرية والسياسية مثل المغيرة بن شعبه الثقفي، كأحد دهاء العرب، وقد استعان به النبي صلى الله عليه وسلم في المهام الجليلة والمواقف الصعبة، وكذلك التمع المختار بن عبيد الثقفي، ومحمد بن قاسم الثقفي، الذي قاد جيشاً من المسلمين نحو الشرق، ووصل السند والهند وكان عمره يقل عن العشرين عاماً، وفي مجرى التقاقم اللاحق للاستبداد الأموي حظيت هذه الدولة بزعميين من ثقفيف تمثلت فيها حاجة المستبد إلى أدوات قمع مكافئة لمتطلبات الحرب الأهلية التي استقرت في خلافة عثمان الأموي، واشتد أوارها مع انفراد بني أمية بالخلافة وهما الحجاج ويوسف بن عمر الثقفي، وقد كان الأخير رديف لهشام بن عبد الملك كما كان الحجاج رديف لوالدة عبد الملك، وقد كانت بداية خدمة الحجاج في الجهاز الأموي هو اشتغاله شرطياً بإمرة "روح بن زبناح" الذي كان بمثابة وزير لعبد الملك، وظهرت كفاءته في الجهاز مبكراً فعهد إليه عبد الملك بقيادة جيش جرار إلى الحجاز للقضاء على أنفصال عبد الله بن الزبير، وأنجز مهمته على الوجه المطلوب فأعاد الحجاز إلى الطاعة، وورد عنه في أثناء ذلك ما يدل على المعية تقتضي أن لا يخضع في أدائه السياسي لوساوس العقيدة، فقد حاصر ابن الزبير في الكعبة وأمر برميها بالمنجنيق، وحدث أن تجمعت غيوم راعدة فنزلت صاعقة على جيش أهل الشام

وقتل عدد منهم، فتطير الشاميون واعتبروا ذلك رد إلهي على قصف الكعبة<sup>(1)</sup>، فأوضح لهم الحجاج أنا ابن تهامة وهذه صواعقها" وطلب إليهم التريث حتى يصيب عدوهم ما أصابهم.. وفي اليوم التالي نزلت صاعقة على جيش ابن الزبير وقتلت عدد منهم.. وبذلك استطاع تجاوز الأزمة في معسكره، وعينه عبد الملك بعد تصفية ابن الزبير والي على الحجاز، ثم ولاء على العراق فصار الحجاج حاكم البقاع الممتدة من العراق إلى نهاية الثغور في آسيا الوسطى والهند، حيث كان الوالي على العراق يتولى شؤون المشرق الإسلامي برمته<sup>(2)</sup>. ومثلما كان الوالي الأموي ينظم نشاطات المشرق السياسية والعسكرية، كان المعارضون من الشيعة والخوارج ينظمون حركة المعارضة في الولايات والأطراف مع الامتداد شرقاً. وقد ترتب على الحجاج وهو يواجه مسؤولياته الجسام في إدارة امبراطوريته لحساب الأمويين أن يتعامل مع حركة المعارضة بالقمع الدموي المنفلت.

لقد اتبع الحجاج سياسة قمع استثنائية في تاريخ الإسلام ولا شك أنه اتصف بخصائص جلاذ متميز من بين الجلادين المسلمين، وقد بدأت تلك الحقبة التاريخية كأنها بداية لتأسيس الاستبداد الإسلامي بهدف تثبيت أركان الامبراطورية التي أصبحت واسعة الأطراف وعالية المقام في العالم، لقد تبلور في الوعي الإسلامي زمن الحجاج نوع متميز من القمع الدموي والنظر إليه من هذه الناحية يمثل نظرة الناس إلى حكامهم بوصفهم من ورثة الحجاج، وفي خطابه الأول حينما وصل الكوفة يوم استلم ولاية العراق كان له قول ماثور لا يزال يتردد على ألسن الناس، فقال الحجاج عبارته المشهورة "إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها" ويعتبر الحجاج خطيب من البلاغ حيث وصفه الحسن البصري بقوله "ما سمعت الحجاج يخطب إلا وظننت أن أهل العراق يظلمونه"<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عساکر "من تاریخ دمشق"، دار المسيرة، بيروت، (1979).

(2) لم تكن هناك حدود فاصلة بين العراق والمشرق الإسلامي كما هي عليه الآن.

وقد جمع بين رؤوس البشر وعناقيد الكروم التي اعتاد على قطفها عند النضج أيام كان في الطائف. لقد استعان الحجاج في سعيه إلى بلورة سياسة القمعية من خلال ما وجد من تفسيرات القرآن والسنة النبوية، واستقصى الحجاج سيرة زياد بن أبيه للاستفادة من تجاربه، ولعله تعرف على تجارب أقدم الملوك البيزنطيين والساسانيين، وألتمس له سنه من السنن فسأل الصحابي أنس بن مالك عن أقصى عقوبة عاقب بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فحدثه حديث العرنيين، وهم جماعة وفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم متظاهرين بالإسلام فتقبل إسلامهم ولما خرجوا ارتدوا ولقوا في طريقهم راعياً كان يرعى الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم فمثلوا به وغرسوا الشوك في عينيه فوجه إليهم قوة ساقطهم إليه ففعل بهم مثلما فعلوا بالراعي، ونزلت الآية الكريمة بحقهم وهي من سورة المائدة<sup>(1)</sup>. وكان أنس يداري الحجاج وغيره من أهل السلطان لتمشيه أموره المعيشية، ويوضح له بأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك على سبيل المقاتلة بالمثل "العين بالعين والسن بالسن.. الخ"، وقد استخدم الحجاج أكثر وسيلة للقمع عن طريق الإعدام بقطع الرأس بالسيف. ويقدر المؤرخون عدد الذين أعدمهم في غضون عشرين سنة التي حكم فيها العراق والمشرق ما بين مائة ألف ومائة وثلاثين ألف. وبالرغم من المبالغة في الرقم إلا أنه يفوق أي عدد في تاريخ الإسلام إلا عدد الذين أعدمهم أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية. واقتدى بزياد بن أبيه في إعدام النساء واقتبس طريقة زياد أيضاً في توسيع المسؤولية الجنائية لتشمل أقرباء المطلوب من الأبرياء<sup>(2)</sup>. كما اتبع سياسته في منع التجمهر، ومن أبشع إجراءاته القمعية كانت إنزال الجنود مع العوائل بدلاً من أن

(1) الآية رقم 33، سورة المائدة.

(2) هذه العقوبة طبقت على العراقيين في أيامنا، في فترة حكم صدام حسين عندما كان يريد أن يرمم أحد على الاعتراف فيرسل على أقارب المطلوب ويمنعهم أيضاً.

يبني لهم معسكرات خاصة بهم يعيشون فيها ، وكان هذا الإجراء من أسباب ثورة عمت العراق والمشرق هي ثورة الفلاحين "لابن الأشعث" ، أما الأسباب الأخرى المساعدة على تلك الثورة فقد كان توسع الحجاج في أعمال السخرة التي استخدمها معاوية فكانت معظم منشأته ومشاريعه تبني بتسخير الفلاحين النبط ، فبدأ الفلاحون يهجرون قراهم إلى المدن ، وسببت الهجرة انخفاض مريع في الانتاج الزراعي فشن الحجاج حملات لإعادتهم إلى الريف واستئناف الزرع ، وكانت هذه المظلمة سبب آخر لوثة ابن الأشعث التي ساهم الفقهاء في تأجيحها إلا أنه مع كل ذلك القمع الوحشي ، فقد استطاع أن يحقق عدداً لا يستهان به من المشاريع الاروائية والزراعية المهمة منها نهر حفره من الفرات عند بابل وسماه نهر النيل مضاهاة لنيل مصر وبنى حول النهر مدينة سماها مدينة النيل استمرت عامرة عدة قرون ثم تقلصت بتمصير الحلة المزديية في أواسط القرن الخامس الهجري ، وقال "ياقوت الحموي" عن النيل انه خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير. وحفر الحجاج نهر آخر من دجلة في جنوب وسط العراق سماه نهر آلعين ، ونهر ثالث هو نهر الزاب (غير الزاب الموجود في كردستان) واستزرع البقاع المحيطة بهذين النهرين وفي بنائه لمدينته واسط أظهر الحجاج خصاله الشخصية كحاكم متمدن كان الغرض من بناءها هو الابتعاد عن الكوفة المعادية له .

وأخيراً كان آخر ضحية للحجاج هو سعيد بن جبير وهو فقيه حبشي تتلمذ على يد ابن عمر وابن عباس في المدينة وأقام في الكوفة ثم انضم الى حركة ابن الأشعث ، وبعد اندحار الحركة لجأ إلى مكة فقبض عليه واليها الأموي وأرسله إلى الحجاج فقتله في واسط ، وصادف أن مات الحجاج بعده بأقل من سنة .

#### (1-4) تحليل ظاهرة الحجاج:

كتب ابن عبد ربه في "العقد الفريد" فصلاً بعنوان "من قال أن الحجاج كان كافراً" استوفى فيه أقوال الفقهاء وغيرهم في تكفير الحجاج والتكفير

هنا لازمه عن سياسته لا عن عقيدته لكن الفكر الديني تخرج في إداة الحجاج ونبه رجال الدين السنة إلى تدين الحجاج وإيمانه الصادق، وعند أهل الفقه أن المسلم إذا لم يكن من أهل الأهواء (خارجي أو معتزلي أو وباطني) فهو يستحق الغفران ولا يجوز لذلك الحكم عليه بشيء من أفعاله لأن الإيمان لا يضر معه شيء، وفي المذاهب السنية يوضع الإيمان قبل الفعل والإيمان مشروط عندهم بعدم الانخراط في مقولات أهل الأهواء وهم الخوارج والباطنية والمعتزلة والمتصوفة وفئات أخرى جنحت إلى التأويل، والحجاج عند أهل السنة يبرئ من جرائمه الدموية بسبب إنتمائه إلى الأمويين، أما الخوارج والمعتزلة فكانوا أقل تأدلاً فيما يخص مدانتيهم فالخارجي الفاسق يكفر ويخلع وكذلك المعتزلي عند أصحابه، ورأى الخوارج والمعتزلة في الحجاج متأثر بأفعاله أكثر مما بانتمائيه الأموي، ولم يعرف الخوارج والمعتزلة اسلوب التبرير لجرائم المدانين إلا في مرحلة متأخرة من تطورها.

يقول "حسين مروة" في كتابه "نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية"<sup>(1)</sup> عن الحجاج ما يلي:

كان الحجاج أموي النزعة أولاً وقوي الشخصية ثانياً، جرى في ضرب الخصوم بالقوة، ولأنه ثالثاً خطيب ساحر العبارة يعرف كيف يتلاعب بنفسه سامعيه بلغة البأس والإرهاب.

بدأ الحجاج إقامته في الكوفة حاضرة العراق الأولى يومئذ، ومركز الثورة المضادة" للأمويين من مختلف الفرق والمذاهب فضلاً عن كونها منبت الحركة الفكرية، ومبعث كل صراع أيديولوجي" بين الأحزاب السياسية، استطاع الحجاج في البدء أن يدخل الرعب في نفوس الكوفيين، إذ جمع زعماءهم في

(1) حسين مروة "نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ج1، ط3، دار الفارابي- بيروت(1980)،

مسجد الكوفة التاريخي، فخطبهم بلهجة القوة والتهديد فكان من تأثير خطبته الأولى المشهورة في تاريخ العراق الأدبي والسياسي لذلك العهد، إن لم يجرأ أحد من الحاضرين على إجابته بغير الصمت العميق، ولكن تأثير الخطبة لم يستمر طويلاً، فقد نشطت المعارضة السياسية من الشيعة والخوارج، نشاطاً لم يستطيع إرهاب الحجاج أن يقضي عليها، وهو في الكوفة، فقد ألقاه مكانه في الكوفة وفيها انتفاضات الخوارج، حتى اضطر أن يبني مدينة أخرى له آمنة سميت بمدينة واسط، لقد بسط الحجاج على العراقيين سيف البطش والإرهاب طوال عشرين عاماً وحين مات ترك في سجون العراق من المعارضين خمسين ألفاً من الرجال وثلاثون ألفاً من النساء كما يقدرها المؤرخون العرب<sup>(1)</sup> و<sup>(2)</sup> (3)، وكانت استراتيجيته أن يأخذ أهل العراق جميعاً بالإرهاب الدموي دون تمييز، فقد كان حكمه أشبه بما نسميه في عصرنا بالحكم العرقي أو نظام الطوارئ المعمول به في أيامنا هذه، فكل مواطن هناك مذنب حتى تثبت براءته وكان الإعدام هو العقاب المفضل لدى الحجاج، كما ذكرنا سابقاً، وكان الفلاحون والمشتغلون في الزراعة والفقراء والكادحون في المدن هم أكثر من أصابهم الاضطهاد في عصر الحجاج، صحيح أنه عمل كثيراً لتوسيع الأراضي الزراعية، وتحسين وسائل الري في العراق، ولكن اضطهاده للفلاحين منع تحقيق الهدف من هذه الأعمال الإصلاحية، فلم تستثمر الأرض استثماراً يلبي حاجة الدولة من موارد الضرائب الزراعية على أقل تقدير، ولم تكن هناك تنمية بشرية لاستثمار تلك المشاريع، وتقلص الانتاج الزراعي من خلال هجرة أهل الريف الواسعة إلى المدينة، وبذلك عرقل تطور القوى المنتجة بل هدها بالانهيار<sup>(4)</sup>.

(1) البلاذري "فتوح البلدان"، ص 294، 371، 374، المسعودي "مروج الذهب"، ج 5، ص 391.

(2) أنساب الإشراف، ج 2، ص 373، الطبري "تاريخ..." ج 2، ص 854.

(3) المقدسي "أحسن التقاسيم"، طبع ليدن، 1887، ص 137.

(4) البلاذري "فتوح البلدان"، ص 371.

لذلك كانت هناك انتفاضات للفلاحين على حكم الحجاج، وكانت دعوة الخوارج لقتال الأمويين تلقى استجابة واسعة لديهم، حتى استطاع الخوارج أن يقودوا بعض تلك الانتفاضات، غير أن أعمال العنف الدموي التي مارسها الحجاج خنقت كل الانتفاضات حتى لم يستطيعوا فيما بعد من تجميع قواهم، ولا أن ينتشروا، فلم يبقى منهم بعد الحجاج سوى قلول ضعيفة، ثم انقسموا فرقاً عدة فزادوا ضعفاً، وقد انتهوا منذ ذلك الحين ولم يبق لهم أثر يذكر ليس فقط بسبب البطش بهم، بل لضعف الأسس النظرية التي قامت عليها حركتهم كما سنرى في فترة لاحقة، ولم يكن بطش الحجاج بالخوارج هو وحده سبب إضعافهم، بل كان هناك سبب آخر أهم ينطلق من نظريتهم الإيمانية. فقد كان الشيعة خصومهم الألداء منذ البداية، وكما ذكرنا عن الضربة الموجعة التي وجهها لهم علي بن أبي طالب في بادئ الأمر، فقد ظهر من بين الشيعة الحسن ابن الحنفية، وهو أحد أبناء محمد ابن الحنفية، أي أحد أحفاد علي بن أبي طالب، ولكن ليس من نسل فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو بذلك لا يعتبر من الأئمة المعصومين لدى الشيعة. فقد حارب الخوارج نظرياً من خلال تعارض نظريتهم في الإيمان، فإذا كانوا هم يرون أن المعصية تبطل الإيمان فيصبح مرتكب المعصية كافراً، لأنه لا إيمان إلا بالعمل الموافق مع الاعتقاد عندهم، فقد واجههم الحسن ابن الحنفية بالمبدأ القائل أنه لا يضر مع الإيمان معصية، ذلك لأنه يرى (كما يرى أبناء الشيعة كافة) أن العمل ليس عنصراً مكوناً لمفهوم الإيمان، فمرتكب المعصية أو "الكبيرة" مخالفاً للشرعية، ولكنه يبقى مؤمناً ما دام باقياً على اعتقاده بالمبادئ الأساسية لعقيدة الإسلام.

لقد أبدى الحسن ابن الحنفية نشاطاً كبيراً في مقاومة نظرية الخوارج، فأرسل العيينة من الرسائل إلى الناس في مختلف البلدان والأمصار التي تمتد إليها سلطة الإسلام معلناً شجبه لنظرية الخوارج، داعياً إلى دحضها والأخذ بنظرية

سائر المسلمين في التفرقة بين الإيمان الداخلي والعمل، ويجدر الإشارة هنا إلى أن العديد من علماء الشيعة والسنة قد تصدوا لحرب الخوارج نظرياً وكان من أبرز هؤلاء أبا حنيفة النعمان المعروف بالمذهب الحنفي عام 767 في أوائل القرن الثاني للهجرة، وكان الرأي عند هؤلاء أنه لا يجوز الحكم بالكفر على مرتكبي الكبائر ولا الحكم بخلودهم بالنار<sup>(1)</sup>.

وهكذا ازداد الضعف لدى الخوارج وأخذوا يلجئون إلى الأعمال الانتحارية من خلال تبيينهم للاغتيال السياسي كما أشرنا إليه سابقاً. إن أعمال العنف المتمثلة في اغتيال أطراف غير فاعلة في إدارة الدولة تنعكس دائماً على أصحابها، ويؤدي بهم إلى الهاوية، وإذا ما قارنا أطراف المعارضة الأخرى للسلطة الأموية كالشيعة، نجد أنهم لم يتبنوا أعمال الاغتيال أو الغدر في أحلك الظروف، بل كانوا إما أن يتخذوا جانب الصمت، أو أن يثوروا بانتفاضة عارمة توول بالفشل على الاغلب، ومهما يكن من أمر فقد شمل الفكر الشيعي والفئة الشيعية، إحدى المكونات الأساسية للفكر والفرق الإسلامية والى يومنا هذا، بينما انقرضت فئات وجماعات أخرى اتخذت من الاغتيال والغدر وسيلة في عملها. وينطبق هذا المبدأ على الحركات السياسية غير الدينية أيضاً.

##### 5- العنود الفكرية الأولى للانقسام المذهبي في الإسلام في العصر الأموي؛

لقد كانت مسألة الجدل في تكفير مرتكبي الكبائر أو عدم تكفيرهم إحدى الجوانب الأساسية في ظهور نظريات ومفاهيم ظلت تمتد وتتبلور ضمن البحوث الفكرية حتى عصر نشوء الفلسفة العربية، وكانت قد أدت لحصول الانقسامات الإسلامية منذ الفجر الأول للإسلام، وكما رأينا كيف نشأ

(1) حسين مروة "النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ج1، ط3، (1980)، دار الفارابي، ص515.



الخوارج انطلاقةً من نظريتهم في هذه المسألة بعينها، إذ لم يحاربوا علياً والأمويين إلا بناءً على الأصل النظري في مسألة "الكبائر" والذي حكموا بمقتضاه على علي والأمويين بالكفر ثم بوجوب مقاتلتهم، بينما هناك مواقف للشيعفة ومواقف أخرى للسنة تختلف وتباين، بشأن مرتكب الكبيرة، ومن هنا يتبين أن الجدل في هذه المسألة كان في أصل الانقسام المذهبي، ونشوء الفرق المذهبية الأولى. ويجدر الإشارة هنا إلى أن حركة المعتزلة التي ظهرت في العصر العباسي كانت هي الأخرى قد نشأت من خلال حركتهم، إلى الاعتزال عن الحركة السياسية، وكان السبب يعود إلى الجدل الدائر بشأن مرتكب الكبيرة؟

ويرجع المحرك الأول لهذا الجدل إلى أول حادث تاريخي احتدم في الصراع السياسي بين الفرق والأحزاب مخضباً بالدماء، وذلك في حادث مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وانتقال الخلافة بعده بحكم قاعدة الشورى - إلى علي ابن أبي طالب، ولم تتخذ تلك الحادثة مجالها النظري، إلا عند ظهور الخوارج، فهم أول من حاول تنظير المسألة في هذا النطاق، فعند خروج طلحة والزبير لقتال علي في حرب الجمل، كانت حجته أن علياً واحد من قتلة عثمان، فتمت محاربه لأنه قاتل، والقتل عند الإسلام إحدى الكبائر، إذن كان يدور في خلد هذين الصحابيين ما أفصح عنه الخوارج بعد ذلك بشكله النظري، وذلك يعني أن التذرع بادعاء أن علياً واحد من قتلة عثمان، وأن القاتل مرتكب لإحدى الكبائر هو المبرر لإشعالهما حرب الجمل ضد علي، ويمكن الاستنتاج من هذه المسألة أن مرتكب الكبيرة دخلت حلبة الصراع السياسي أولاً، من خلال عدم قناعتهم بتولي علي الخلافة السياسية ثم تحولت إلى حلبة الصراع النظري الفلسفي.

وهكذا الأمر بالنسبة للموقف من معاوية وعلي، فإن المطمع السياسي معاوية طوال العشرين سنة التي بقي فيها في الشام، قد بلورت مطعمه السياسي

في الحكم متذرعاً بحجة القصاص من قاتلي عثمان، وأن من يشارك بسفك دم مسلم يعد قاتلاً أي مرتكباً لإحدى الكبائر، وذلك يبرر محاربهته والخروج على طاعة الخليفة المنتخب بطريقة الشورى، وأكثر من ذلك منازعته الخلافة للمسلمين كافة.

وكان هناك فريق آخر من الصحابة ممن لهم موقف سياسي معارض لعلي أيضاً ولكن أقل حدة من مواقف طلحة والزبير، لأن طموحهم لم يبلغ درجة التطلع إلى نيل منصب الخلافة، ولذلك كان لهم رأي في مسألة مرتكب الكبيرة يعبر عن الموقف السياسي الوسط، ونعني بهم سعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهم من الذين وقفوا على الحياد من محاربة علي في حرب الجمل. ولم يكن هؤلاء رأي قاطع لا في صحة الادعاء بأن علي قاتل ولا في صوابية القول بأن مرتكب القتل (وهو إحدى الكبائر) تجب محاربهته بالسلاح، أو قتله. أي أن هؤلاء "الحياديين" كانت حجة الحياد عندهم هي التردد بالرأي في مسألة ارتكاب الكبيرة، والتردد بالرأي كالجزم به نوع من الاجتهاد، وللمسلم أن يجتهد برأيه وأن يعمل وفق اجتهاده، ومن هذا المنطلق أيضاً أصر الخوارج على نظريتهم بأن مرتكب الكبيرة كافر، وأن العمل جزء من الإيمان، وأن نتيجة كل ذلك توجب عليهم قتال كل من علي ومعاوية، لكي يبرروا موقفهم الذي اندفعوا إليه بعد حادث التحكيم في صفين، وقد ناضل الشيعة ضد الخوارج وهم يعلمون أن وراء هذه النظرية طعناً بموقف الإمام علي، بل وحتى طعناً بصحة إيمانه، أما علماء السنة الذين وقفوا الموقف نفسه في معارضة الخوارج، إنما كانوا يدافعون عن كل من تناله هذه النظرية من خلفاء المسلمين بالإساءة والطعن، وبغض النظر عما يفعله هذا الخليفة أو ذاك من كبائر.

## (5- 1) تبلور الفكر الشيعي في العصر الأموي؛

كما ذكرنا سابقاً أن ظهور الشيعة على مسرح السياسة الإسلامية يمكن اعتباره قد بدء منذ مقتل الإمام علي على أيدي الخوارج، فقد أخذت النظرية الإمامية والاثني عشرية خصوصاً تأخذ مكانها في الفكر الإسلامي، وخاصة في العراق وقد أصبحت الإمامة بالنسبة لهم حقاً إلهياً، لكون أن سلطتها مستمدة من سلطة إلهية وليست سلطة دولة مستقلة عن الدين، ومن قولهم بعصمة الإمام، واشتراطهم أن يكون الإمام أعلم أهل زمانه إطلاقاً ويجب أن يكون من آل البيت أي ينتمي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة بالتحديد. ولم يأتي هذا الاعتقاد اعتباطياً، فقد تعودوا أن يسمعون أن حكم الاسلام من القرآن وهو كتاب الله المنزل عن طريق ملكه جبريل، والسنة النبوية التي يعتقد بأنه كان يوحى له بالقول والفعل، وليس من سلوك فردي منفصل عن السماء، فكيف يا ترى يمكن لهم أن يعودوا ليحكموا بواسطة فرد ينتمي لقبيلة كانت هي المسيطرة على القبائل الأخرى أيام الجاهلية من أمثال بني أمية، وبالتحديد معاوية بن أبي سفيان المعروف بشغفه للأمور الدنيوية؟

إن معرفة الله وأسرار الكون والخليقة والروح، ومعرفة الشريعة التي هي قانون الله للناس، مرجعها النبي في حياته ويعتقدون بوجود كون مرجعها بعد ذلك لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، لاعتقادهم بأن في هؤلاء شيء من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينتقل بالوراثة جيلاً بعد جيل، فكل إمام في زمانه هو المرجع لإدراك هذه المعرفة، ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبي، والنبي مخبر عن الوحي الإلهي<sup>(1)</sup>، وإذا كان للعقل من حق في هذا المجال فهو حق مقيد يجوز الكشف عما يؤيد المصارف الإلهية أو يبرهن عليها، وليس له أن يعارضها، لأنه

(1) حسين مروة، المصدر السابق نفسه، ص503.

عاجز أن يبلغ مبلغها من إدراك الحقائق الكونية وأسرار الوجود، فضلاً عن أسرار ميتافيزيقيا الكون والوجود، وهنا نرى أن المعرفة هذه مرتبطة بالإيمان الديني وتابعة له، وخاضعة لمعطياته لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدوده. وإذا كان الشيعة المعتدلة قالوا بالاجتهاد بالرأي في مجال التشريع الإسلامي ولم يفلقوا باب الاجتهاد في تاريخهم قط، ولا يزالون يعملون به إلى يومنا هذا، وبالرغم من أن المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسية لأهل السنة قد أغلقت باب الاجتهاد منذ نحو القرن العاشر الميلادي، وإذا كان الشيعة المعتدلون قد عملوا بالاجتهاد في مسائل التشريع الإسلامي، فإن هذا لا يغير شيء من طبيعة نظريتهم الإلهية في المعرفة، لأن هذا الاجتهاد مقصور ومقيد في حالات لا يوجد فيها نص واضح وصريح من القرآن الكريم والسنة النبوية، وخاصة بعد مرور حقبة من الزمن، لا بد وأن تستجد فيه مسائل فقهية لم تكن موجودة في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد يرجعوا إلى ما قاله أوسنة أحد الأئمة الاثني عشر من خلال كلام أو سلوك موثق لأحد هؤلاء الأئمة يستندون عليه في إطلاق الحكم على قضية مستجدة، ويكون ذلك الاجتهاد عبر إجماع لعدد من الفقهاء الحاضرين، وهذا الإجماع يعني بالنسبة لهم أن رأي الإمام الثاني عشر الغائب المنتظر والذي لا يزال على قيد الحياة، موجود بين تلك الآراء التي تحقّق الإجماع عليها، لأن هؤلاء العلماء هم من أوصياء الإمام المنتظر، وهم وحدهم لهم الحق في الافشاء في أمور الناس عامة.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع في انقسام المسلمين إلى فرق وأحزاب منذ ذلك الحين فلا بد لنا من زيادة في شرحه بتفصيل أكثر لما له من انعكاسات على واقعنا الحاضر، وتنبهوا أولاً بتعريف كلمة الشيعة:

يقول طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى" أن الشيعة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي وإنما

وجدت بعد موته بزمن غير طويل، وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هونفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن الكريم في قول الله عز وجل من سورة القصص: "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَّاخَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ"<sup>(1)</sup>، وفي قول الله عز وجل في سورة الصافات: "أَوْ أَنْ مِنْ شِيعَتِهِ لِابْرَاهِيمَ"<sup>(2)</sup>، فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرها من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيها، وأن الرجل الذي كان من شيعة موسى عليه السلام كان رجلاً من بني إسرائيل، والرجل الذي كان من عدو موسى كان رجلاً من المصريين. بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإبراهيم كان من شيعة نوح، أي على سنته ومنهجه ويرى رأيه ويدين بدينه، فشيعة علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء من قاتل معه ومن لم يقاتل، ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم وإنما كان لمعاوية شيعة أيضاً، أي من الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم ومن الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمان والحرب في ذلك الحين يقام أئسده على قاتليه، وقد جاء في نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بين معاوية وعلي بعد حرب صفين ما يلي: "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي علي علي أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كل من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين".

(1) الآية 15، سورة القصص.

(2) الآية 83، سورة الصافات.

لفظ الشيعية هنا لا يضاف إلى علي وجماعته من أهل العراق لوحده بل معاوية وأهل الشام ويريد كاتب الصحيفة هذه أن يذكر من يناصر علياً وأهل العراق من المؤمنين والمسلمين ومن يناصر معاوية من أهل الشام من المؤمنين والمسلمين أيضاً، وبالتالي فإن الصحيفة تعني لزوم الفريقين المختصمين بما فيها ولا تلزم هذه الفئة والقليلة من المعتزلة الذين أبوا أن يشاركوا أي من الفريقين في القتال، وهناك مثال آخر فقد حدثنا الرواة بأن العباس (عم النبي صلى الله عليه وسلم) قد بسط يده لعلي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه بالخلافة، فأبى علي أن يحدث الفرقة بين المسلمين، كما فعل أبي سفيان إذ أراد علياً على أن ينصب نفسه للخلافة حتى لا يخرج الأمر من بني عبد مناف، فأبى علي على أن ينصب نفسه للخلافة في حينها، ولكن لا أحد يقول بأن العباس وأبو سفيان كانا شيعة علي، وإنما عرض لهما هذا الرأي فلما لم يستجب لهما علي بايعوا أبا بكر، ودخلا فيما دخل فيه الناس، كما فعل علي نفسه مع الخلفاء الثلاثة الذي سبقوه.

وخلاصة القول أن الإمام علي قُتل وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة، بل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم إجتماع الأمر لمعاوية وبايعه الحسن بن علي<sup>(1)</sup>. وبعد أن رحل الحسن بن علي إلى المدينة، وقد ولى معاوية أمر الكوفة التي كانت مركز الخلافة الإسلامية أيام علي إلى المغيرة بن شعبة، كما ولى عبد الله بن عمر أمر البصرة، فغادر إليها بعد أن كان قد فارقه عند مقتل عثمان، وعاد معاوية إلى الشام يدير أمر دولته في دمشق، وهكذا تولى معاوية خلافة المسلمين وصفى له الجو وتفرغ لاستعادة قواته لمواجهة أنبيزنطيين وغيرهم، وقد ذهب وفد من أهل الكوفة إلى الحسن بن

(1) طه حسين "الفتنة الكبرى" المصدر السابق ج2، ص175.

علي في المدينة لاقعاه بالعودة إلى الحرب ضد معاوية، لكنه رفض وأقنعهم بالجنوح إلى السلم المؤقت حتى يستريحوا، ويحسنوا الاستعداد. ويعتبر لقاء الحسن بهذا الوفد هو اليوم الأول الذي أنشئ فيه الحزب السياسي المنظم لشيعة علي وبنيه. لقد تم تنظيم الحزب في المدينة المنورة إذن وفي قلب الجزيرة العربية في ذلك المجلس، وأصبح الحسن رئيساً له. وعاد أشرف أهل الكوفة إلى من وراءهم ينيؤونهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة، كما سمعوا من الأبن الأكبر للإمام علي بن أبي طالب، وكانت خطة طويلة ومؤثرة تبا بولادة فرقة جديدة من المؤمنين وهم الشيعة، وكانوا يهيؤون الناس لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتي الأمر بآثارها من الإمام المقيم في المدينة. وكان برنامج الحزب في أول نشأته يتمثل في طاعة الأئمة من بني علي والانتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثوروا. ومضى أمر الحزب على هذا المنوال، فجعل الشيعة يلقي بعضهم بعضاً يتذكرون أمورهم، ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج. ولكنه لم يفعل ذلك. ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة، ولكنها كانت منتشرة في آفاق البلاد تقل في بعضها وتكثر في بعضها الآخر. وكانت أمزجتها تختلف في معارضتها للسلطة القائمة (معاوية) باختلاف كثرتها وقتلتها وباختلاف سياسة الولاة لها. وكانت الرسائل التي تتداول بين معاوية والحسن تشير إلى خلافة الأخير لأمر الأمة بعد وفاة معاوية، وقد تمت مبايعة الحسن لمعاوية على هذا الأساس، إلا أن ذلك لم يحصل وخلف ابنه يزيد من بعده، وكان ذلك مثار غضب الناس في أرجاء البلاد الإسلامية كلها.

وهكذا انتقلت الخلافة ليزيد ابن معاوية وصارت رئاسة الشيعة إلى أبي عبد الله الحسين بن علي رحمه الله بعد وفاة أخيه الحسن، وهكذا كانت البذرة الأولى لنشأة الفرقة الشيعية في الإسلام. وهكذا أوضح "طه حسين" وغيره من

الكتاب المستيرين البذرة الاولى لنشأة الفرقة الشيعيه في الاسلام، ليست كما يصورها البعض هذة الايام من أنها حركه صفوية الاصل أو غير ذلك.

### (5- 2) ظهور الخوارج على المسرح السياسي الاسلامي:

أن كلمة الخوارج قد اشتقت لغوياً بمعنى كل من خرج عن الأصول الإسلامية الأولى، والخوارج هم الذين بالفوا بالفلو لعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين رغم أنه كان يكره الفلو. وقد حاربههم في حرب ضارية كما أسلفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب<sup>(1)</sup> وأحرق منهم ثمانية رغم أن عقوبة الحرق هي من صلاحية الله وحده، ولا يجوز لأحد غيره أن يمارسها. ويمكن أن يستدل عن رأي الخوارج من خلال ما جاء في ردهم حول مسألة التحكيم للخلافة بين علي ومعاوية لاعتقادهم بأن الله وحده هو الذي يحكم في الناس في الأمور اليسيرة والكبيرة فكيف يمكن أو يحق لأحد غيره أن يحكم بالأمور الكبار التي تمس اجتماع الأمة وحقن الدماء، وكما جاء في ردهم ما يلي:

“أن ما نص الله عليه من الأحكام لا تجوز المخالفة عنه، وما أذن للناس فيه في الرأي جاز لهم أن يجتهدوا فيه برأيهم. إلا ترى إلى أمر الله في الزاني والسارق وقاتل النفس المؤمنة بغير حقها، فليس للإمام أن يخالف عن هذا الأمر ولا أن يغير فيه، وأمر الله في معاوية وأصحابه واضح في آية الطائفة الباغية، فلم يكن لعلي أن يغيره وإنما كان الحق عليه أن يمضي في قتال هؤلاء البغاة حتى يفيؤوا إلى أمر الله”<sup>(2)</sup>.

فالخوارج إذن قد رأوا أن المؤمنين سواء فيما بينهم أصلاً، فإذا كان لا بد لهم من أمير يتولى الأمر بينهم فأولاهم به من هو أقربهم إلى الله دون النظر إلى الأصل

(1) انظر الفصل الرابع، الجزء الأول من هذا الكتاب "العنف السياسي في بلاد الراشدين وجذوره التاريخية".

(2) طه حسين "الفتنة الكبرى"، ج 2، ص 95.



أو العرق مع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه وديناه من المسلمين، باعتباره مارقاً، خارجاً عن جادة السبيل ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي السائد في ذلك الحين عند العرب. من هنا يتبين تأثير الموروث التاريخي الثقافي للأمم في سلوكها ومعتقداتها. لقد كانت بلاد الرافدين منبعاً ومولداً للإرث الديني وكانت شدة ارتباط الناس بالعبادة الوثنية واللاهوت تشكل السمة الغالبة على حياتهم الاجتماعية والسياسية عموماً، ولما جاءت العقيدة الدينية الموحد من الجزيرة العربية والمتمثلة في الإسلام، وما جاء به من الآيات القرآنية المنزلة من السماء التي انتشرت بسرعة فائقة من خلال درجة ترابطها بالسماء، لأن كل ما جاء في هذا الدين مرتبط بالله وحده ولا يحق لأحد غيره أن يتلاعب أو يجتهد في أمورهم من خلال ما يراه مناسباً لهم، ناهيك عن معرفتهم بأن هذا الشخص المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان رجل يعمل لديناه أكثر مما يجب. من هنا يظهر إن من الصعب على القوم في ذلك الحين أن يؤمنوا بتنازل علي لمعاوية بشأن أمر ولاية الشام عن طريق التفاوض وفض النزاع حقناً للدماء.

أما الشيعة فإن التمسك بالإسلام الحنيف إنما يفي في نظرهم التمسك بعتره النبي ولا سيما أهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن أبي طالب فالأمر عندهم أكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية وهو الرفض بالتسليم بما يذهب إليه أهل السنة؛ بأن صاحب الأمر الإمام أو الخليفة (أي خليفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين)، ليس سوى حاكم يتصف بالحكمة والدراية والقوة والحزم في إدارة أمور الأمة. لقد احتفظ الشيعة عن يقين بأن الوحي المحمدي الذي كان ينزل عليه عن طريق جبرائيل أو يوحى إليه من الله لا يلد وأن يكون له بديل أو صدى، في أهل بيته بشكل غيبي لا نعرفه، وبذلك يبقى الخليفة الإمام نهادي المهدي في أمور الدين وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة وإدارة أمور الدولة إذ ليس من السهل عليهم أن يقبلوا في ذلك

الوقت أن الخليفة هو مجرد حاكم منهم ليس له صلة بالسماء بشكل أو بآخر وذلك من تأثير المرور التاريخي الذي تكلمنا عنه سابقاً.

وهكذا أعتقد الشيعة بأن هؤلاء الأئمة المعصومين لديهم القوة الفوق بشرية أو أنهم يختلفون عن بقية البشر بقريهم إلى الله عز وجل.

وهناك رأي آخر في أصل الخوارج<sup>(1)</sup> "يعتبر أن الخوارج على عكس ما هو شائع لدى بعض المؤرخين، هؤلاء لم ينشأوا في نشأتهم الأولى من حرب صفين ولا بسبب التحكيم الذي حصل بين جيش معاوية وعلي، بل أنهم سبقوا صفين والتحكيم، لقد كانت نشأتهم في العراق وإن لم يعرفوا بهذا الاسم الذي لزمهم فيما بعد، حين ثاروا وخرجوا في صفين على الإمام بسبب قبوله التحكيم الذي كانوا أول القابليين به والداعين إليه. لقد كان هؤلاء الخوارج قد ارتبطوا بتنظيم قبل صفين والتحكيم وحين ساروا إلى صفين ساروا وهم يحملون فكراً وعتيدة غير ما يحمل جيش علي، وتصميماً على أن يجعلوا من ساحة المعركة في صفين التي جمعت ذلك العدد الضخم من المسلمين، سبيلهم إلى نشر فكرهم وعتيدتهم وجر المسلمين للانضمام إليهم وتبني دعوتهم. وعلى عكس ما يريد المؤرخون المحدثون تأكيدهم من أن الخوارج لم يعرفوا الحرية في تعاملهم، لا مع المسلمين الآخرين ولا مع بعضهم بل لم يكن عداءً لحرية الرأي من هؤلاء الخوارج، سيما الأزارقة، منهم وهم أكبر وأشهر فرقهم، إذ كانوا متعصبين ويرفضون الآخر وكل من لا يشاركونهم في عقيدتهم يعتبرونه عدواً لهم، يسري عليه ما يسري على عدوهم، لا يستثنون في حكمهم هذا أحداً. لقد كان السيف شعارهم ووسيلتهم إلى فرض عقيدتهم. وإذا كان السيف قد أربى المسلمون وأخافهم لفترة، فما كان له أن يستمر في إرهابهم وإخافتهم، ولا بد أن يأتي يوم

(1) أحمد فرج الله نظرة حديثه لقضايا قديمه في الإسلام (2004)

يرتد فيه إلى من جردوه وهو ما حصل فعلاً، ذلك أن عقيدة الخوارج قامت على تكفير جمهور أئمتهم، وهذا ما لا يرضاه المسلمون، ولذلك وقفوا موقف الحياد منهم.

### (5-3) ظهور الطور الأول من الاعتزال (المعتزلة) في العصر الأموي:

اعتبرت حركة الاعتزال أهم حركة فكرية دينية إسلامية نشأت في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وقد اعتبرها أغلب الدارسين المعاصرين بأنها حركة "العقل" للدين الإسلامي أو حركة "العقل المستبصر" في الإسلام والمعتزلة بحق أسياذ الوعي الثقافي في تاريخ البشر، وقد صدق أحمد أمين عندما قال عنهم في الضحى والفجر "مات العقل في الإسلام عندما مات المعتزلة"<sup>(1)</sup>.

وقد وضع ميلاد خاص للمعتزلة الذين رفضوه البعض واعتبروا الخلفاء الراشدين من ضمنهم. فقد صور المؤرخون بزوغ المعتزلة حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وأجاب إجابة مختلفة عن سؤال مرتكب الكبيرة، هل هو فاسق أم مؤمن؟ وأجاب بأنه لا مؤمن ولا كافر. وكانت هذه الإجابة وذلك الانعزال عن حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة، يحددان لدى المؤرخين بداية تشكيل فرقة من أهم الفرق الفكرية السياسية، والتي ستلعب دوراً محورياً في تجديد الفرق المذهبية الإسلامية والتي ستساهم بقوة في تغيير نظام بني أمية، وانتشار "العقلانية الدينية" في العصر العباسي الأول، وسوف نأتي إلى تفاصيل ذلك في الفصل الثاني في شرحنا لظهور المذاهب الإسلامية في العصر العباسي. ويرى عبد الله خليفة في كتابه "الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية" ولأجل لقاء الضوء عن فلسفتهم مايلي: - حيث أنه على الرغم من ظهور الطور الأول من الاعتزال في العصر الأموي إلا أنه بطبيعته الحال لم يصل إلى حد

(1) دعلي شلق "العقل الفلسفي في الإسلام"، ص112.

التجريد الفلسفي للتوحيد الإلهي". وكل ما ينقل عن واصل بن عطاء مؤسس الفرقة: "إن واصلًا كان ينكر القول بقدّم الصفات الإلهية القديمة ويقول برأي القدريّة في القدر"<sup>(1)</sup>. لقد ركز واصل على المسائل الأخلاقية والسياسية وطرح المعنى العام للتوحيد الذي تمثّل في قوله للإمام الصادق (جعفر بن محمد الباقر): "الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه المتعال عن كل مذموم والعالم بكل خفي مكتوم، نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه". ثم يقول: "إن مواد العصر العلمية غير مسعفه في ردم الهوة بين التوحيد المطلق في العالم الغيبي وبين ما هو من صنع الإنسان والتاريخ، أي تأثيث الوجود البشري الطبيعي، أما الخيارات السياسية والأخلاقية فهي من صنع البشر"، وبطبيعة الحال هناك فجوات معرفة كبيرة، فالتاريخ هنا يصير الأهيا، وبالتالي فإن أي معرفة موضوعية به تبقى معدومه، فالتاريخ لا ينطبق سوى على الخيارات الراهنة الصراعية مع الدولة الأموية، وتبقى صيغة تدخل الله في التاريخ أو عدم تدخله أمور غامضة وغير محلولة فكرياً، فإذا كان الله خارج الوجود الحسي، فكيف يمكن أن يتموضع في الوجود والتاريخ، ثم أين مسؤولية "المكلف" إذا كان التدخل الإلهي شاملاً وكلياً؟ ولكن حتى في هذا المستوى فإن القرآن يطرح صيغة التدخل الإلهي المستمر في الحياة التاريخية والسياسية المباشرة للأفراد، فالله هو الذي شكل العالم في ستة أيام ثم استوى على العرش، وخلق آدم ووضع له جدول السلوك وكان خرقه لذلك هو الذي سبب النزول إلى الأرض ثم ظهرت النبوات لهداية البشر.. الخ.

(1) د. علي شلق المصدر السابق، ص 126.

إن كل هذه المواد تثبت التدخل الحسي من الله في الوجود، وفي حياة البشر والمشاركة المباشرة في صنع التاريخ، فكيف يمكن التوفيق بين التوحيد الاعتزالي التجريدي ونفيمهم للصفات، وبين صناعة الله للوجود والتاريخ؟<sup>(1)</sup>

في مرحلة واصل بن عطاء لم تبحث مثل هذه المسائل ولكن مقدماتها موجودة، والتناقضات الوجودية والفكرية يتم تجاوزها باللغة الانشائية كقول واصل "الحمد لله العدل في قضائه، الجواد بعبثائه.. الخ"، فهذه اللغة التقديسية لن تجيب الأسئلة والتضادات، فهذا التصوير يتضاد بين الانفصال العادل عن الوجود والتدخل في كل شيء.

إن هذه المرحلة (التاريخية) التي لم تنمو فيها العلوم الإنسانية ولا الطبيعية المختلفة بالدرجة التي تكفي لأن تعبر بشكل واضح وصريح عن دور الإنسان وعقل الإنسان في تقدمه التاريخي، لكن التناقض الذي نشأ في مسألة التوحيد منذ ذلك العصر، قد ساعد المعتزلة في تشكيل أدوات جديدة في المرحلة الثانية من طور الاعتزال، وعلى كل حال، فلن يكون هناك انقلاباً في الرؤية بل هي تطورات محدودة لسد النقص بين الإله المتعالي المجرد، وبين المادة الطبيعية والاجتماعية، فسيغدوا الله علماً بذاته وحيّاً بذاته وقديماً في ذاته، ولكن الله مع هذه الهيمنة الشاملة في مفهوم المعتزلة لن يتدخل مع هذا في اختيارات الإنسان، وإلا لما أنزله إلى الأرض، وما بعث الأنبياء إليه، ووضع لحسابه الجنة والنار.. الخ. إن هذا التدخل الإلهي الذي هو ليس كلياً، حيث بقيت منطلق إرادة الإنسان حرة، يبقى متضاداً مع تجريد الإله وعدم ماديته، فهذه الذات الإلهية التي لا تتغير ولا تتحرك الموجودة في كل مكان هي التي تصنع التغيير والحركة والوجود والمكان والزمان<sup>(2)</sup>.

(1) عبد الله خليفة "المصدر السابق"، ص 226، ج 1.

(2) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص 227.

ومن الناحية الفلسفية فإن التوحيد الاعتزالي المعبر عن توحيد الذات الالهي يبدو فقيراً، متناقضاً غير قادر على خلق تماسك منهجي في تصوراته، وليس ذلك إلا بسبب الاضطراب في بنيته الفكرية بين المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية. فقد كان حجم المثالية الموضوعية ضئيلاً في تصور المعتزلة الأوائل، وفي عدم التناسب بين الجانبين الذاتي والموضوعي، تكمن مسائل تخلف الوعي وغياب العلوم، وإحلال الذات الالهية في كل شيء تعبيراً عن عجز قراءة السببيات المختلفة.

لقد شكلت الحركة السياسية الاعتزالية في العصر الأموي نواة لجسم الحركة السياسية الاعتزالية في العصر العباسي، وهي تدخل ميدان الكفاح العملي والثوري بعد أن كانت فكراً نظرياً غير متكامل الأبعاد.

ويمضي خليفه بالقول بشأن العبودية المعممة في العراق منذ العصور القديمة كما يلي:

"إن تطور المدينة كحقل مملوك مشاعياً وكمعبد، يعبر عن الخصائص الجوهرية التي هي بمثابة قوانين موضوعية، كامنة في الخلية الأولى، حيث نرى العبودية في الحقل والمعبد ورموزه والمسيطرين على الرموز. وهذه السيطرة المطلقة التي لا تبدو مطلقة يوضعها التطور، حيث تتمركز السلطة المطلقة في الآلهة المحددين والملك، ثم تتسع الملكية وتتجذر مطيحة بالمدن الحرة، والفئات المستقلة والأنواع الثقافية جاعلة كل شيء تحت سيطرتها. لهذا لا نجد مجالس شوري وحكام مستقلين في عهود حمورابي وسرجون ونبوخذ نصر. إن ابتلاع العبودية العامة للثروة المادية يقود إلى تدهور الأنواع الفكرية والإبداعية المستقلة وتحول العلوم إلى ملاحق للقصور والمعابد، كما أن الإبداعات الدرامية والمنحمية، التي حصلت على بعض البنود في أزمنة المدن الحرة تختفي كلياً، ولا يجد الوعي طريقاً لاكتشاف تناقضات الوجود الاجتماعي إلا عبر الدين المؤسسة الفكرية

الشاملة المرافقة للعبودية العامة - . ولا يتعارض هذا مع الازدهار الموقت للمملكة أو حتى الامبراطورية - فاتساع المملكة يترافق ونمو التجارة والعلوم والآداب الجزئية، ولكن الدولة المقامة على الغزو المستمر وتحويل الشعوب الأخرى إلى عبيد نيمسوا سياسيين فقط بل عبيداً كاملين، يؤدي إلى زيادة النفقات العسكرية والبذخية والمنشآت (الأسطورية)، كالأهرامات وحدائق بابل (برج بابل) والقصور الخ. ثم يؤدي إلى انتفاضات الشعوب الأخرى وحروبها المضادة، وانتهيار الممالك المزدهرة.

وكما أن نمو وازدهار المجتمع يرتبط بنمو مؤسسة الملكية وتوسعها الجغرافي والتجاري والحربي حيث البحث المستمر عن الخامات، فإن الانهيار مرتبط بهذه المؤسسة، حيث يغدو المجتمع كله تابعاً وعبداً، للملك، الإله، الرجل المعبود، للفرعون أو لنبوخذ نصر الذي ينحني ملوك الأرض كلها تحت قدميه.

إن هذه السمات تحدث في أول حضارة بشرية جنوب العراق، والتي يزداد عنقها مع تصاعد ونمو مؤسساتها الحاكمة، وتغلغل القبائل السامية البدوية في عروقها السومرية، وهي الحضارة المسالمة السابقة، وهي المائلة للحضارة المصرية قبل أن يأتي الهكسوس، ويدفعونها للعنف المتزايد والتوسع واستئجار المحاربين والأنطفاء في خاتمة المطاف.

إن العبودية المعممة هي إذن استعباد النظام السياسي للجمهور العامل، ولهذا نجد تلخيصها الرمزي في "الفرعنة"، ولكن لا يمكن تعميم سمات النظام في أول تشكله مع مساره القادم، حيث أن حرية القبائل العربية وهي تخرج من الجزيرة هي غيرها حين تنقطع جذورها الرعوية كلياً. إن جهاز الدولة إذن يسمح بالقفز على التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية وتجاوزها دون القيام بالمحو التام لآثار الماضي، وهذا الذي يطبع تطور العلاقات التاريخية في المنطقة، ولهذا ستمت

التطورات بالطابع السياسي المهيمن والمراوحة بين الأطوار والتراجمات الحادة والقفزات. وستغدو التشكيلات متصفة بهيمنة الدولة، فالعبودية ستغدو عامة، أي عبر سيطرة الدولة، والاقطاع سيفدو مركزياً، أي تحت هيمنة الدولة المركزية الأموية - العباسية، وسيغدو لا مركزياً عبر سيطرة الدولة الأندلسية والايوبية.

يوضح خليفه هنا "علاقه الصراعات السياسية بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والفكري للمجتمع الاسلامي في ذلك العصر" وسيوضح لدينا أكثر من خلال استعراضاً لذلك الوضع في الفقرة اللاحقه في الحياة الاقتصادية والاجتماعيه للعالم الاسلامي في العصر الاموي.

وأخيراً نقول: "إن هيمنة الرموز السماوية في الشرق هي التي راحت تتوجه للعالم المفارق معبرة عن وحدة صراعية خاصة بسبب عدم قدرة الناس على خلق تاريخهم بشكل عقلائي، أي ليست لديهم إمكانية مادية وفكرية للسيطرة على الطبيعة والمجتمع. والرموز السماوية هنا تعبيراً عن دور القوى الفاعلة المالكة والمثقفة في إدارة العمليات التاريخية الكبرى"، (غياب الديمقراطية) وبالتالي صنع التاريخ بقرار الحاكم.

وسنأتي بتفاصيل أكثر عن فرقة المعتزلة في الفصل الثاني في البحث عن الطور الثاني للاعتزال. كما جرت العادة في تسميتها.

#### 6- أوضاع المسيحيين في الشام في العصر الاموي :-

لا يمكن فهم تاريخ المجتمع دون الاخذ بنظر الاعتبار الديانه التي كانت سائده قبل وصول الاسلام اليه، لذلك فقد أصبح لزاماً علينا أن نلقى ضوء عن أوضاع المسيحيين في الشام في العصر الاموي. لقد أخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة الإدارة المركزية في بيزنطية، ينضمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينية



والكنسية الخاصة بعد أن تخلصوا من مضايقات العاصمة وأزاعاجها، واقتصرت علاقتهم مع الامبراطورية البيزنطية في العصر الأموي على بعض الاتصالات الإنسانية بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم، وقد راحت بيزنطية تشعر بالأسف المرير لفقدانها أغنى ولاياتها الروحية وكان واحد من كبار الموظفين في البلاط الأموي يدعى "يوحنا الدمشقي" قد كثر بالعالم وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا، القريب من القدس وكان من أشهر لاهوتي الكنيسة الشرقية الملكية في تلك الحقبة من الزمن، وقد لعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين<sup>(1)</sup>، وقد عرفت هذه الكنيسة بالملكية لبقائها على ولاء الملك أو الامبراطور وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية. كما لحقها أذى كبير من جراء فقدانها السلطة الكنسية ولشغول كراسي بطريركيته في المرحلة الأولى، ثم لتوليها فيما بعد من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافة الإسلامية ومنهم بطريركية القسطنطينية، وقد بقيت بالرغم من هذا نشيطة من خلال سيرة القديس يوحنا الدمشقي، وإلى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي أخذت اسمها من اسم راهب يدعى مارون، إلا أن أبتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية أنطاكية (في تركيا) جعلها تتردى في الهرطقة المونوثولية<sup>(2)</sup> أو القول بمشيئة الواحد في السيد المسيح في الوقت الذي تكررت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها، وقد أخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع بين بين، من الانشقاق والانفصال تحت إدارة بطريرك خاص بها، وبدون قصد معين، وبالرغم من عداوة أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا يعممون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في أعينهم، أخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على

(1) أدور بروي "تاريخ الحضارات العام" (1986)، ج2، القرون الوسطى، ص118.

(2) المونوثولية: شبيهة بالديانة التوحيدية المطلقة وبعيدة عن التثليث المسيحي.

سفوح جبل لبنان الغربية بعد أن أخذوا في حرثها واستغلالها، وبعد أن رأوها أمنع جانباً وأمن لسكانها من تلك الهضاب والنواحي الواقعة إلى الشمال من سوريا والتي لا يزالون يسكنوها إلى اليوم، أما أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبه وأقباط وأرمن ونساطرة، فقد استطاعوا في أول عهد السيطرة الإسلامية (الأموية) أن يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم، وقد وضع البطريك أيشونيهب الثالث النسطوري<sup>(1)</sup> سلسلة من التشريعات الدينية والقانونية، ثم انصرف إلى التأليف في الأمور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي، بالإضافة إلى الحركة العلمية التي نشطت إذ ذاك ولا سيما الطب، كما برز عند اليعاقبة شخص يدعى يعقوب الرهاوي الذي كان أحد علماء زمانه في الأدب والشعر والتاريخ والتفسير والتشريع ويعتبر فيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة. وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني. وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية لغة واحدة مع بعض الفوارق البسيطة، فقد أثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الأقباط والأرمن، بينما تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الأقطار الوسطى من آسيا.

#### 7- الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ولا على السواد الأعظم من سكان المدن أي تغيير يذكر في سير الحياة، ونهجها، وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، فقد وزعت الأراضي في الريف إلى قسمين

(1) النسطورية واليعقوبية - طوائف مسيحية مذهبية نسبة إلى بطريركها المسمى نسطور ويعقوب وهكذا.

متميزين: الأملاك الخاصة والأملاك العامة، ثم أضيف إليها الأملاك التي فقد أصحابها ملكيتهم لها، لفرارهم من البلاد عند الفتح الإسلامي أو لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها آنذاك، فالقسم الأول من هذه الأراضي ترك أصحابها، شريطة أن يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل الدولة البيزنطية أو الساسانية (حسب الموقع الجغرافي)، أما القسم الثاني من هذه الأراضي، فقد أُجر إلى المزارعين أو المرابمين (إقطاع) ومعظمهم من العرب بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة، وقد رأى فيها بعض الفقهاء من أهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا له طويلاً مع أن الدولة الجديدة التي لم تكن قد ألفت بعد مثل هذه الثروة اعتبرتها أملاكاً تشبه في ملكيتها تلك الأراضي المعمول بها في الجزيرة العربية قبل الفتح، فالإقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية كيفما يشاء، فعلى سيد الأرض أن يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ويجعل مما يتصدق به عشر ربحه أو مدخوله، فهو لا يتمتع بأي من الامتيازات التي تحقق قانوناً للسلطات العامة على الأقطاعيين أو المستأجرين، فسلطته عليهم أخف من سلطة أصحاب الأملاك على مزارعهم في عهد البيزنطيين والساسانيين، وعلى هؤلاء المزارعين أن يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الأملاك من الفلاحين.

وهكذا نرى أن هاتين الفئتين من الأراضي لم تخضعا لنظام اقتصادي يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً، وبالتالي فإن الفتح العربي للمنطقة لا يمكن اعتباره استثماراً أو سيطرة أجنبية إلا ما جاء به من استثمار أو استغلال للأراضي الغير قابلة للحرق والزراعة. وهكذا نرى أن الفتح العربي كان أخف وقعاً بكثير على الأهلين، وكان شعورهم بالارتياح واضح بالمقارنة مع غزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية على سبيل المثال، لذلك استطاع معاوية بن أبي

سفيان أن يكسب جموع الشام بسهولة ويمسر بعدما كانوا يعانون من تسلط البيزنطيين لروح من الزمن. إن هرب أرياب الأراضي البيزنطيين من البلاد وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم في تنظيم الإقطاع لم يجلب معه الحرية للفلاحين، وكان بالإمكان للعرب أن يصادروا أو يختلسوا أملاك سكان البلاد كما هو المعتاد في الأقوام المحتلة إلا أن ذلك لم يحدث في الواقع الفعلي، مما ساعد الشعور بالراحة والسرور من الخلاص من المحتل المستعبد المقيت. وكذلك فإن فقدان الإدارة والتنظيم الذي ساد البلاد في أول الفتح، قد ساعد بعض القادة العرب وزعمائهم (الأمويين) على اقتناء قرى وضيعات ضموها إلى ممتلكاتهم السابقة من الجزيرة العربية، واهضت تلك الممتلكات من ضريبة الخراج، فلم تستقد الدولة منها إلا العشر، ومثل هذا الوضع لم يكن سائداً في جميع أنحاء الامبراطورية الإسلامية، ففي العراق وإيران مثلاً أسقط في أيدي أسياد البلاد وكبار الملاكين، وسدت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا أن ينجوا بأنفسهم، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه. وإذا رأى زعماء العرب أنفسهم معزلة عن كل رقابة حكومية مباشرة (لبعد المسافة عن المركز) قاموا بعدد من التجاوزات التي حدث منها اضطرابهم للتغيب كثيراً عن أملاكهم بداعي الجهاد وعدم خبرتهم ودراباتهم بسياسة الأرض والعناية بها، وتمسك الفلاحين بالأرض وتعلقهم بها في عهد الإدارة الساسانية السابقة. ولذا كان لابد من الكشف عن الهارين لإجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن أملاكهم في الريف من ضرائب ورسوم لأنهم لا يزالون مسؤولين قانوناً عنها أمام الإدارة المالية، ولذا نرى الوثائق البردية في مصر حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على أشدها. تأتي على ذكر هؤلاء الفارين، لدرجة أنها اصطلحت على تسمية ضريبة الأعناق أو الجزية المستحقة عليهم بكلمة "جوالي" أي اللاجئين وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة

الأعناق أو الجزية بقطع النظر عن الأراضي أو العقارات التي يملكونها. وهذه الضريبة الثانية أي الجزية التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح الإسلامي عليهم، إذ كانت بينظية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً أو لم يكن حراً (كان نظام الأحرار والعبيد سائدة في العالم)، وهكذا فالحياة وطرق الجباة، بقي على ما كان عليه قبل الفتح ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة، وهو أمر لم يكن ليكثر له الأهلون أو ليهتموا له بقليل أو كثير.

أما المؤسسات البلدية والخاصة في المدن فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في نظام سارت عليه الإدارة الجديدة.

أما في التجارة، فقد تم إلغاء الاحتكارات الرسمية كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية على الأسواق في مصر، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين أسباب تموين العاصمة القسطنطينية. أما في شمال الشام فقد خفت أن لم تكن قد توقفت تماماً الحركة التجارية لا سيما تصدير الزيت والزيتون إلى مقاطعات آسيا الصغرى (تركيا)، في حين حصل توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على أيدي بعض التجار. كما أن الانتاج بقي على وفرته حتى في حال توقف حركة التصدير، وتحولت إلى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء، جديدة كانت أم قديمة وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الأموية.

وخلاصة القول أن توحد البلاد وتوسع الفتوحات كان لها وقع طيب في الأوساط التجارية مع أن الناس لم يتحسوا فائدة تلك الوحدة إلا بعد حين، وكان الجمل في الصحراء والخيول هي الوسطة الأكثر انتشاراً في نقل البضائع التجارية.

والمهم أن نلاحظ هنا على ضوء سوء فهم ناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة أنه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية لا في بحر الهند الذي سيطر الإيرانيون على التجارة فيه ولا في البحر المتوسط، فالعرب لم يكونوا رجال بحر كما هو عليه الحال بالنسبة للبيزنطيين أو الأوروبيين وخاصة الإنجليز الذين اشتهروا منذ نشأتهم الأولى بسطوتهم على البحار والمحيطات في عصر القراصنة، وكانت واحدة من أسباب توسع آفاقهم ومخيلتهم الفكرية.

### 8- الحياة الفكرية والثقافية:

لقد تميزت حضارة العرب في القرن الأول للهجرة بالشعر العمودي، كما هو عليه الحال في العصر الجاهلي وبعد أن أخذ ينعم برعاية الأمراء والخلفاء الأمويين بعد أن كان محرماً تقريباً في الفجر الأول للإسلام، فقد تلقى الأدب بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الأمراء لاستدراار عطائهم أو كتصوير حياة الأحزاب وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الرعية والورع التي أخذ العرب بإسبابها عند دخولهم الإسلام، ومن بين الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة في المدح والهجاء ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بني أمية وهم الأخطل من قبائل الشام النصرانية، والفرزدق وجريير، وهناك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنوا في نظمهم، بماثر الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة، كما نظموا في موضوعات شتى كالحماسة والموعظة والثناء وفي العقائد وفقاً للأحزاب التي ينتمون إليها. وكذلك في التشبيب والتشبيب شعراً يلتهب حباً عذرياً، كما نرى في شعر مجنون ليلى أو يفيض أسى ولوعة فيضيّف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة على أنغام المغنين والمغنيات، وهكذا بالنسبة للنثر وهذا يزيد اللغة طواعية ومرونة ويسلس قيادها مع المفسرين والمحدثين لتصبح في أواخر القرن السابع لغة التدوين والدواوين، كذلك انتشرت حركة الترجمة ونقل

العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند إلى العربية، وقد التمع اسم المؤرخ الأمري سبيوس والكاتب يوحنا نيكيو الذين عاصروا الفتح العربي وتركوا بعض الترجمات الأثرية في القرن السابع.

### 9- حركة البناء والعمارة:

اقتصرت الحركة المعمارية في ذلك الحين في بناء المساجد والامتداد بها من حيث المقاييس ونقوش الزينة من الداخل وتحليته بطراز مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الأهلية يبرز أكثر في المباني المدنية بحيث أن نسبة قصر المشتى في الأردن تبقى أمراً مشكوكاً فيه ولا يمكن بالتالي التسليم به بصورة مطلقة، ومن أشهر الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا، مسجد عمرو بن العاص في مصر (الفسطاط) ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، والذي بني في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في أواخر القرن السابع، ويعد ذلك بقليل المسجد الأموي الكبير في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك، والذي كان أساساً كنيسة القديس يوحنا المعمدان، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر، ولم نجد في عصر الخلافة الأموية ولا العباسية مباني أثرية باقية على حائها من قصور الخلفاء والمشاهير وهذه لها أسباب كثيرة فمن وجه نظرنا أولاً: إن الحاجات الإنسانية لهؤلاء لم يرتقي لدرجة تخليد الذات في صنع قصور دائمية ثابتة تبقى للأجيال لكونهم قد تعودوا على الترحال في الصحراء وترسيخ ذلك الترحال في أذهانهم كموروث تاريخي. وثانياً: لانشغالهم المفرط في الحروب والنزاعات الداخلية وتكريس اهتمامهم في السلاح والعدة وفي التحوط من أعمال الغدر والاعتقال، وربما هناك سبب ثالث في عدم وفرة المواد الأولية اللازمة لعمل النقوش والتماثيل الفنية أو قد

تكون عملية نقلها صعبة ومرهقة، هذا بالإضافة إلى أن الدين الإسلامي قد حرم التماذي في مثل هذه الأعمال الدنيوية الصرفة، ولهذا نجد أن أغلب الخلفاء والسلطين في الدولة الإسلامية وعلى مر العصور يتماذون في البذخ في المأكل والزواج في العديد من النساء والجواري وكل ما تيسر لهم ذلك لعدم وجود نص قرآني يمنع عليهم ذلك ولاشباع حاجة مادية أساسية من أولى الحاجيات التي يفكر بها الإنسان أولاً، ولم تكن لتخطر ببالهم أن يخلدوا تحفاً فنية تستحق الذكر والتخليد للأجيال اللاحقة. وقد استمر هذا السلوك ليس فقط في العصر الأموي بل شمل العباسي وما بعده من خلفاء وسلطين حكموا البلاد الإسلامية إلى بداية القرن العشرين.

#### 10- بروز التميز العنصري والحركات القومية داخل المجتمع الإسلامي؛

إن المنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي طمع بها المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الإسلام، إذ أن اعتناقهم الإسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فإن اعتناق الإسلام بالجملة كان في نظر القوم إشباعاً لهم طبقي ولشهوة اجتماعية، وتحقيقاً لرغبة أو لحلم طالما راودهم بتحسين وضعهم الاجتماعي. ولم تأتي حركة انتشار الإسلام على نفس المستوى من الإيمان في كل مكان إذ بقي في بعض الأقطار أقلية دينية متراسة العدد، كما هو عليه الحال مثلاً مع الطائفة المارونية في لبنان والطائفة اليهودية في فلسطين، وقد كان المسيحيون على الإجمال أكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزرادشتية في العراق وإيران مثلاً. ويعود السبب في ذلك إلى القوة الأدبية التي كانت تتمتع بها المسيحية لدى بعض المناطق التي نشأت فيها تلك الديانة أصلاً، وتغلقت بين الطبقات الشعبية في المجتمع القائم، بالإضافة إلى تأثير المحتل البيزنطي الذي اتخذ من المسيحية



منهجاً سياسياً له قبل دخول الاسلام إليهم، ويتضح من جهة أخرى أن العرب خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل أخذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى أن يقبلوا على اقتباس ديانه البلاد التي فتحوها. ومهما بلغ من حدة الجدل الديني وعنّف الحرب التي قامت بين الاسلام والديانات الأخرى، فقد كانت هذه وتلك الديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط، إذ كان من العسير على المؤمن أن يدرك أو أن يفهم كما يجب أو أن يميز بين رجال اللاهوت، فبعد أن ملّ النصارى وسئمت نفوسهم من المناقشات التي أدت إليها الأديان والمذاهب المختلفة، وهذه الشروح والتفسير والتعاليل الفلسفية اللاهوتية التي آلت إليها أو شُجرت عنها فقد رأوا في الإسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم غايته الاستمرار والتركيز، وهذا الاسلام الذي أقبلوا عليه واقتنعوا به كأنه لم يكن في نظرهم، ذلك الاسلام الذي خرج بين يدي محمد(ص) من مكة في قلب الجزيرة العربية. فهو دين طرأ على اتباعه تطوراً كبيراً منذ إن أصبح في تماس شديد مع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها، ويعد أن أدخل عليه معتقوه من الأعاجم ما أدخلوا من رواسب تراثهم الروحي ويعد أن لقحوه بما لقحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة. ولكي نفهم من جهة أخرى، حركة اعتناق الاسلام بالجملة علينا أن لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي طمع المؤمنون الجدد في قطعها من اعتناقهم الإسلام إذ أن اتخاذ الاسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة، ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فاعتناق الاسلام قد هوّن عليهم مورد الذل والهوان أكثر مما هو إرضاء لنزعة دينية صرفة، أو لمطلب أسمى من مطالب النفس البشرية السامية. فالمرتدون عن الاسلام لم ينالوا حالاً المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية التي طمعوا بالحصول عليها. فالإسلام الذي اعتنقوه لم يكن دائماً هو الإسلام المتمثل في الحكومة والإدارة المركزية،

فهو كثيراً ما كان إسلام هذه الملل والنحل الإسلامية المعارضة، وهكذا فلكي تقوي هذه الملل من جانبها المستضعف وتشد من أزرها أمام الإسلام الدولة أو الإسلام الرسمي، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الأصليين، لحملهم على اعتناق الإسلام وفقاً لتعاليمهم أو حزبيتهم الخاصة. فالدولة الأموية كرسست سيادة العرب وسيطرتهم، فقي نظر الفاتحين، العربي والمسلم شيئاً أو وضعان مترادفان. فالاقبال على الإسلام واعتناقه بالجملة من قبل سكان البلاد ميعان هذا الترادف وذهاب بهذا التوافق، إذ في مثل هذه الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الأمر أبداً، فالذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب الأوائل قد أنزلوا منزلة من القبيلة فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناءه بالتبني، ويسمون "بالموالي" بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم، وقد كان وضع هؤلاء الموالي دون مستوى أبناء القبيلة، وهو وضع تألموا له كلما ازداد عددهم، وكلما تباعدت عن الأذهان ذكريات الفتح، وأخذت الدولة الجديدة في تنظيم أمورها بعد أن أصبحوا دخر الدولة ويرفدون بها بالعنصر الإداري. وقد اقتصر وضعهم في الحرب على دور ثانوي، لا يخولهم أي حق بالغنائم والأسلاب التي يصيبها العرب في فتوحهم، وفوق هذا فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مرحب فيه. فاعتناقهم الإسلام كان يجب أن يؤدي في نظرهم إلى اعفائهم من الجزية المفروضة عليهم قبل اعتناقهم الإسلام كما كان يجب أن تحول ضريبة الخراج المترتبة عليهم إلى عشر فلم يحدث شيء من هذا عملياً، ولم يكن معقولاً لدى الدولة أن تقبل بمثل هذا الرأي وقد أوشكت حروب الفتح على الانتهاء، وإن تقبل بمثل هذا الفياء الذي يدمغ الذميين والخاضعين للإسلام، على أن تستبدل فيما بعد برسوم أخرى تحل محلها، وإن بقي تصنيف الأراضي من الوجهة الضرائبية على ما كان عليه منذ الفتح، فتبقى أرضاً يترتب عليها الخراج. هذه الأراضي

التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام، وهكذا استمرت هذه الظاهرة قائمه في عدم المساواة ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ذلك النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة.

وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة قام المرتدون على الاسلام يطالبون بإجراء العدل بالسوية وتأميم المساواة بين المسلمين من أي جنس أو عرق كانوا، وليس بين العرب فقط، وهكذا فحركة التذمر التي ارتفعت إذ ذاك لم تتجه ضد سيادة الإسلام وسيطرته ولا ضد الديانة الجديدة فقد استهدفت إلى السيطرة على مركز الإدارة من الداخل وعلى هذا الأساس قامت الحركة في إيران والعراق وفي المغرب الأقصى بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتياهم عبداً ويعد ذلك في إسبانيا بين المولدين، هذه الطبقة التي تألفت ممن اعتنقوا الإسلام من السكان الأصليين. وقد بلغت أشد الحركات هذه في إيران، من خلال شعورهم بأن الأمويين اعتمدوا على أهل الشام وحدهم في تدبير أمور دولتهم الموحدة، بينما رأى سكان الولايات الأخرى أنفسهم يذهبون ضحية لهذا النظام، بالاضافة لذلك فقد كانت إيران من بين هذه الولايات القطر الوحيد الذي كانت له تقاليد الوطنية والقومية المتميزة قبل الإسلام، إذ كانت إيران مركز لامبراطورية الساسانيين الذين حكموا المنطقة لعدة قرون مضت وهكذا تلتقي في مجال نظام الضريبي جنباً لجنب مع القضية القومية والقضية الاجتماعية لتزيد في حجم المشكلة التي تعاضمت في ظل نظام الملكية التي عملت به الدولة الإسلامية. ففي إبان الفتح تركت للعرب الحرية في أن يقتنوا شراءً أو غلاباً الأراضي التي كان على سكان البلاد مبدئياً أن يحتفظوا بها، إلا أنهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التلجأ وهي ضرب من التوحيد أو الارتفاق، يلجأ إليه المستضعفون من الناس ليأمنوا شر الجباة الشرهين، وسوء معاملاتهم أو عجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من

السنين المأجلة الدفع، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي يعد أن يجعلوا أملاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية. أما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود فكثيراً ما عمد العرب في غفلة من الخليفة أو الأمير إلى اغتصاب أملاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ولم تتاح لهم الفرصة بمعرفة ماذا يجري في مركز الإدارة، ويعد أن يسيموهم الهوان ألواناً كما فعلوا مثلاً مع قبائل البربر في المغرب. أما في إيران فإن كبار الملاكين من سكان البلاد قد عقدوا صلحاً مع القادة من أمراء الجيش انطلاقاً من مبدأ استثمار الطبقات الشعبية السفلى. وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية، وفي هذه المعارك التي لم تلبث أن قامت بين المسلمين نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه عرباً وغير عرب من الأنصار، أما على الصعيد العاطفي فقد وقع الاصطدام بين أشد العرب تمسكاً بالتقاليد وبين أشد سكان البلاد ثورياً، فبينما راح الفريق الأول يطالب بالتطبيق الحرفي للشريعة الإسلامية والتمسك بالتقاليد الإسلامية الأولى، ويعني هذا التوقف ضد الدولة الأموية التي تعتبر في ذلك الحين نصف علمانية، بينما رأى الفريق الثاني في تطبيق الشريعة الإسلامية المساواة بين المسلمين على صعيد الأطر والأملاك ومراكز الإدارة العليا منذ بداية الفتح الإسلامي ويدون أن يوضحوا مطالبهم بدقة. إن الأهداف التي يرمون لها كلا الفريقين هو مطالبه بالأخذ بتعميم النظام الإسلامي وتوسيعه على أمثل ما يرام. وهذا التحالف التلقائي استطاع أن يجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع أن يطفأ بالدم جميع الانتفاضات التي قامت ضده هناك، وياتحاد واسع وشامل، وهذا الاتحاد على ما حف به من غموض في الأهداف المستقبلية الغير معقولة قد أدى بهم إلى النصر المرتجع وأدى إلى سقوط الدولة الأموية ومطاردة الأمويين أينما وجدوا في أرجاء البلاد ولم ينجو منهم إلا نفر قليل ممن استطاع الهرب إلى إسبانيا (بلاد الأندلس) ليشكلوا دولة

أموية سميت "بالدولة الأموية في الاندلس". وسنأتي في الفصل القادم الى كيفية ولادة الدولة العباسية وانتقال مركز الإدارة من دمشق الى بغداد.

وهكذا نجد أن التوسع السريع في الفتوحات الاسلامية أيام الامويين لم يكن منسجماً مع تطور قدرتهم الاداريه المتمثلة بالخليفه لوحده. وقد خلف لهم مشاكل لم يستطيعوا من تجاوزها، وكانت سبباً رئيسياً لتدهور وانهيار الدولة الاموية برمتها. ولم تستطع الخبرة المتواضعة في الادارة القادمه في قلب الجزيرة العربيه في ادارة الاميراطورية الاسلاميه المتراemie الاطراف، وبتلك الوسائل من الاتصال والتنقل المتخلف جداً في ذلك العصر.





## الفصل الثاني



## العصر العباسي الذهبي





## الفصل الثاني

## العصر العباسي الذهبي

بداية سيطرة بني العباس على السلطة (العصر العباسي الأول):

لقد اتخذت المعارضة للدولة الأموية أشكالا شتى، واتسعت بشكل لم تستطع تلك الدولة الآيلة للسقوط أن تصمد أكثر مما يجب؛ وحتم عليها الظرف التاريخي بالانتهاء ومجيء سلطة ثانية، تتمتع بدرجة أكبر من القبول والشرعية، ومن هذه الأشكال كان الخوارج قد نالوا تأييداً مؤزراً في كل من إيران ومصر، وكذلك في المغرب حيث استفحل أمرهم وعظم شأنهم، بعد أن استجاب الأهلون من البربر لهذه الدعوة لترافقها مع النزاعات الفوضوية الدينية المتأصلة بينهم، غير أن بعد بلاد البربر من جهة، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة أخرى، إذ كانت طبائعهم طبائع أهل البادية الذين عرفوا بالعنف والتهور، كل ذلك حال دون أن يحققوا فوزاً فاصلاً.

وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة، أو بالأحرى في هذا الشعور العام الذي كان الشيعة خير من يمثله، ألا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبها الأمر من الله رأساً، مناقب خاصة فكرة تستهوي معاً أصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية، كما تبسّم للإيرانيين الذين أنفوا حكم الساسانيين وارتاحوا إليه وكان الشيعة يطالبون بأن يكون الحكم في أولاد علي بن أبي طالب وذريته، بينما راح غيرهم يتمسك بأسرة النبي دون أن يخصصوا منها فرعاً معيناً، وأظهروا استعدادهم لمناصرة أية حركة ذات شأن تخلصهم من حكم الأمويين.

وهكذا استطاع أحد أولاد العباس عم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بما تم له من دراية وحُسن سياسة أن يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من إيران) هو أبو مسلم الخراساني، وأن يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس وأن يُسقطوا الخلافة الأموية عام (750) فيؤسسوا دولة جديدة، استطاعت أن تستمر في الحكم، ولو مبدئياً على الأقل إلى القرن الثالث عشر الميلادي<sup>(1)</sup>.

وهكذا لم تأت كل الشدة والقمع التي استخدمت من قِبل بعض الخلفاء الأمويين بعلاج للمشاكل التي ظهرت بمرور الوقت، ومن بينها اعتناق الإيرانيين للإسلام بالجملة على أساس أن الحكم لله وحده، وعلى أساس أنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الأخرى، وقد عرفت تلك الدعوى "بالشعبوية"، أي لا فرق بين الشعوب والقوميات من حيث الحقوق والواجبات، لكنها لم يُقد شيئاً ولم تجد فتيلاً في تأخير إعلان الثورة، ولا في إنهاء أجل سقوط الخلافة الأموية.

وكان العرب ينظرون إلى الموالي على أنهم حُفراء، يفضلون العبيد قليلاً عليهم ويقول "الطبري" المؤرخ المعروف مُعلقاً على ثورة المختار ما يلي: "لم يفضب عرب الكوفة من شيء قدر غضبهم من مُطالبة المُختار بسهم من الغنائم للموالي، وقد احتج أهل الكوفة قائلين: لقد أخذتم الموالي منا، بينما أعطاهم الله لنا غنيمة مع هذه الولاية بأسرها، وقد حررناهم ابتغاء ثواب الله فلا تتبعوا أنفسكم ثانية، وتسعوا في أن يكون لكم نصيب في غنائمنا"<sup>(2)</sup>.

(1) تاريخ الحضارات العام، ج2، القرون الوسطى، أدوار بزوي، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1986، ص125.

(2) المصدر السابق، ص16.

وهكذا استفاد العباسيون في دعوتهم من العوامل العديدة التي نجم عنها رضا الناس وسُرورهم، من تقويضهم صرح قدره بني أمية وقلبيهم قصر أسرتهم - خلال ثلاثين عاماً - رأساً على عقب.

وكان دُعاة هذه الدعوى يتميِّزون بالكفاءة والفضائية، ويبعدون عن الثورات الطائشة التي لا ثمر لها، ولكي ينجحوا في مساعهم عمدوا إلى التضحيات، واستفادوا بصورة خاصة من مشاعر الخراسانيين وسخطهم من الأمويين، وقد أخذوا يدعون الناس إلى اتباع الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم (والد أبو العباس)، واستغرق ذلك عامين من جانبهم، فلمَّا عادوا إلى سوريا والتقوا بالإمام أخبروه بأنهم غرسوا غصناً في خراسان، وأنهم يأملون أن يثمر الغرس في موسمه.

وقد ولى الإمام محمد ولده الذي أسماه أبو العباس وقال لهم هذا مولاكم، وقد استغل الدعاة فرصة تعرض الإيرانيين للمهانة والظلم فاستظهروا بهم وأستفادوا من عقليتهم ودراستهم التي تأصلت فيهم من خلال ماضيهم<sup>(1)</sup>.

وهكذا أستمريت دعوة العباسيين في صمت وجدية، وكانت الدولة تقتل دعواتهم في بعض الأحيان، وفي حدود عام (743م) مات محمد بن علي العباسي بعد أن اجلس ابنه إبراهيم مكانه وأختار من بعده ولديه الآخرين أبا العباس وأبا جعفر (المنصور) وفي حدود عام (747 - 748) م قُتل الإبن الأول (إبراهيم) وبقي الإثنان الآخران ليستفيدوا من ثمرات الكفاح المرير الطويل، والمتاعب الكثيرة التي قاساها الدعاة العباسيون ويؤسسوا الخلافة العباسية.

(1) ادور براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج 1، الباب الثاني، ص 351، ترجمة أحمد كمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.

وفي نفس الفترة برز إلى الميدان رجل غير عادي يدعى أبو مسلم (الخراساني)، وقد ساهم أكثر من غيره في إنقراض بني أمية وانتصار العباسيين، ثم راح في النهاية ضحية حسد الذين يدينون لهيئته ويطوق أعناقهم جميل شهامته<sup>(1)</sup>. لقد كان أبو مسلم أول من رفع علم العباسيين الأسود في تموز عام (747م) في قرية سيندنج قرب مرو<sup>(2)</sup>. وكانت الآية الكريمة التالية مكتوبة على العلم وهي في الواقع شعار له معناه ومغزاه: (أذَنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)<sup>(3)</sup>.

ورغم هذا فإن حركة أبي مسلم لم تتجاوز حدود الشمال الشرقي لخراسان والأطراف. يقول فن فولتن<sup>4</sup> كان أبو مسلم شخص عبوساً عنيداً قاسياً لا يهتم باللدائد الدنيوية، وكان حُب أصحاب العباة السوداء له، وإقبالهم عليه يفوق كل حد، حتى أنهم يضعون رقابهم تحت أمرته، وكانوا لا يقبلون فدية أسير، ويقتلون عدواً دون أمر رؤسائهم، أما العرب القادمين من قلب الجزيرة العربية الذين اعتادوا على الترحال والاقتيال من أجل الحصول على الفنائم، فلم تتاح لهم الفرصة في تبلور الإيمان بحب الوطن، والشعور بالإنتماء اتجاه دولتهم التي كانت أساساً قائمة على الظلم والجور والطمع (عدا فترة حكم عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل).

وهكذا استمر هذا الأمر موروثاً تاريخياً لا نزال نعاني منه إلى يومنا هذا، وكثيراً ما تتقلب الأنانية وحب الذات فوق كل شيء، من خلال الطبيعة البشرية في الصحراء. إن تلامي الشعور بحب الوطن والمواطنة، والثقاني من أجل الوطن، يحتاج للعديد من العوامل: أولها القناعة بأن رأس الدولة أو الحاكم يحصل على

(1) براون المصدر السابق، ص 354.

(2) فن فلوتن، المصدر السابق، ص 63-65.

(3) سورة الحج: الآية (39).

درجة عالية من الرضى، وأنه واحداً منهم، ويعمل لأجلهم، وكان هذا من النادر أن يحصل ولم يصلوا بعد هذه المرحلة من التطور .

عودة إلى الثورة العباسية، فقد عهد "أبي العباس" عبد الله السفاح (الملقب بالمهدي) أول خليفة عباسي بدأ حكمه في 30 أكتوبر عام (749م)، وألقى في اليوم المذكور الخطبة التي تُلقي في هذه المناسبة، وكان النصر والفتح والتقدم نصيب أبي مسلم، وحليف سائر الأئمة العباسيين بصفة دائمة (وكان هو نفسه من أطلق على نفسه لقب السفاح في تلك الخطبة)، وهزم مروان بن عبد الله الملقب بالحمار هزيمة مُنكرة في 25 يناير عام 750م، وبعد ثلاثة شهور سقطت دمشق عاصمة بني أمية على يد أعدائهم، ووقع مروان في الأسر ثم هرب، وكان متوارياً في مصر، وتمّ قتله في الخامس من أغسطس من نفس العام وأرسل رأسه إلى أبي العباس.

وفي العام التالي تعرّض أفراد الأسره الأموية للقتل العام، في كل مكان وجُدوا فيه، وقد تمكّن شخص يدعى عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك من الوصول إلى إسبانيا آخر الأمر، وقد رحّب العرب بقدومه، وأقام في هذه البلاد وأسس الدولة الأموية القرطبية التي استمرت ثمان قرون، وكانت تدم العباسيين بسبب احتقارهم خلفاء بني أمية في دمشق ونبش قبورهم<sup>(1)</sup> وكان يلقب بعبد الرحمن الداخل أو(صقر قریش).

وهكذا نجحت ثورة بني العباس بعد تهيئة وتحضير دام ثلاثين عام، تمت خلالها تهيئة الأذهان لقبول الوضع الجديد، وتهيئة جيش كبير قادر على حماية الدولة وكل ما يتطلب من مُستلزمات النجاح لها، رغم أن عملية التغيير، لم تكن في حياة الناس من شيء ملحوظ إلا بأمور بسيطة جداً، وعلى العكس من

(1) موير، المصدر السابق، ص 435-436.

الثورات السابقة ابتداءً من ثورة الحسين وحفيدة زيد بن علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم، فلم يحصل لها أن هيأت ما ينبغي كي تُكَلَّلَ بالنجاح، وهذه حالة كل محاولة للتغيير عبر التاريخ.

لقد جاءت دولة بني العباس بعد أن آلت الدولة الأموية إلى الأفول ولم تعد قادرة على البقاء أكثر من ذلك. يقول "الفخري" وهو كتاب التاريخ السحري<sup>(1)</sup>: "وأعلم أن الدولة العباسية كانت دولة خداع ودهاء، وغدر، وكان قسم التحيل والمُخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة خصوصاً في أواخرها. فإن المتأخرين منهم بطلوا قوة الشدة والنَّجدة وركنوا إلى التحيل والخداع، إلا إنها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمة المكارم وأسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب نافقة، وشعائر الدين فيها معظّمة، والخيرات فيها دائرة، والدنيا عامرة، والحُرُمات مرعية، والثغور محصّنة، وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها، فانتشر الجبر واضطرب الأمر، وانتقلت الدولة". إن جُلَّ ما يميّز هذه الفترة هو نهاية عهد الفتوحات الإسلامية وحصول الاستقرار النسبي الذي أدى إلى ازدهار العلوم والمعرفة".

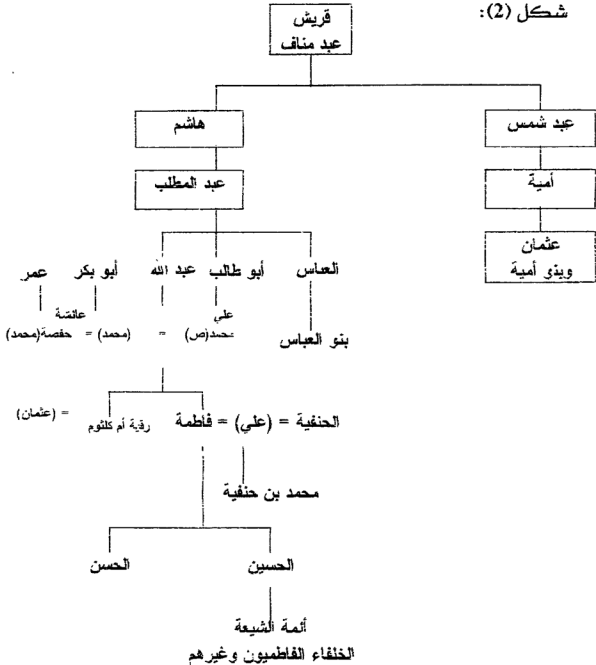
لقد غطت المؤلفات العديدة شروحاً وافية عن سير الخلفاء، واستفاضة المكتبات بالدراسات والبحوث فيما يخص الدولة العباسية. ولكي تُسهّل على القراء عناء البحث في ذلك نورد هنا جدولاً بأسماء الخلفاء العباسيين الذين حكموا في أوائل هذا العصر، نقلاً عن كتاب ستانلي لين بول "تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء"<sup>(2)</sup> ابتداءً من عبد مناف (قريش وإلى الخلفاء العباسيين الأوائل):

(1) محمد بن علي طباطبا أو ابن الطقطقي "الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية" مراجعة محمد عوض إبراهيم، طبع وزارة المعارف - مصر، (1938)، ص 137 - 138.

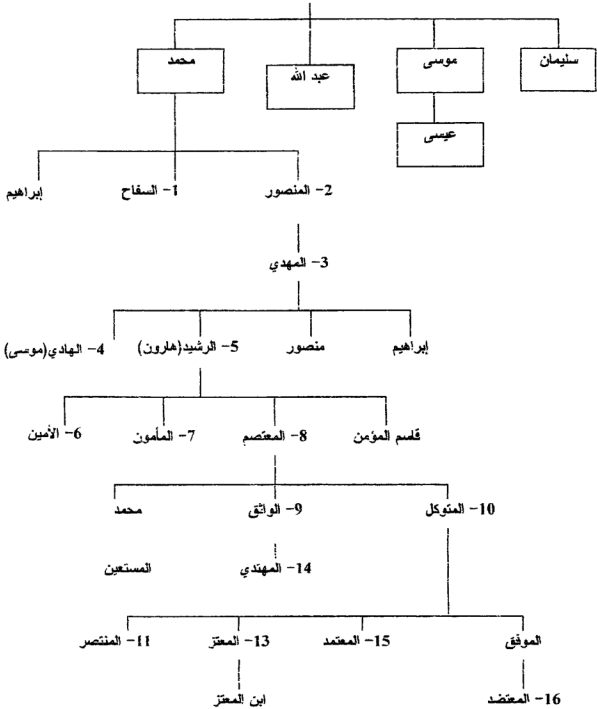
(2) ستانلي لين بول "تاريخ الملوك والسلاطين والأمراء"، ترجمة مكي طاهر، عباس إقبال، الدار العربية للموسوعات، بيروت، (2006).

هذا الشكل يشير الى العلاقة العائلية لبني العباس وعلاقتها بالرسول محمد(ص) وتمثل علامة = ابنه و( ) الزوج.

شكل (2):



شكل (3)  
تسلسل سلالة بني العباس الاولى:  
علي بن عبد الله بن عباس (عم النبي)





لقد كان هدف العباسيين المعلن في بداية دعوتهم، التمسك بأهداف الدين محل ما يسمونه "الإلحاد" الأموي، فالنظام القائم هو نظام إسلامي لأن صاحب الأمر فيه هو من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فأتاح له ذلك أن يتمتع بوصفه الإمام بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار، دون أن تكون له القوة بالفعل، ليغيّر شيئاً من الشريعة أو أن يعدل فيها أو يكملها بما يتلائم ومتطلبات العصر وتوسّع رقعة البلاد، وهذه الصفة الفاتكة للبشر تجعلها أن تعيش في بذخ كما كان عليه بلاط الخليفة وعزلته عن الناس، بحيث لا يتيسر لهم رؤية إلا في المناسبات الخاصة.

لقد اعتمدت الإدارة العباسية المناهج الإدارية التي عوّل عليها البيزنطيون والساسانيون من قبل، وهي إدارة تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة - ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان هما (Douane و Pivan) - ، يشرف عليها موظفون إداريون كبار أشبه ما يكونون بـ (Sekreta) لدى البيزنطيين، دون أن يتألف من مجموع رؤساء هذه الدواوين مجلس الوزراء<sup>(1)</sup>. وكان الوزير يتعهد بتأمين العمل الإداري، مستعيناً بذلك على عدد من العمال يأتي بهم من بين أنصاره ورجاله، لذا كان يخشى من نفوذ سلطانه، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة<sup>(2)</sup>، هذه الأسرة الفارسية التي أثارَت بما بلغت من غنى

(1) تاريخ الحضارات العلم، "بروي"، المصدر السابق، ص 127.

(2) البرامكة: من آل برمك، الذي عهد لهم تصريف شؤون الدولة كلها تقريباً في عهد الرشيد والمنحدرين من أسرة كهنوت متقدمة في نوبهار، إحدى الصوامع البوذية في بلخ، وقد أدعت الرواية الفارسية في ما بعد بدوافع من النعرة القومية، إن هذه الأسرة كانت من الكهنة الفرس، فقد استوزر أبو العباس السفاح خالد بن برمك أو عينه كاتباً أول حتى إذا كانت خلافة المنصور، احتفظ خالد بالأشراف على الشؤون المالية، ولع اسمه بشكل خاص في بناء بغداد، وشغل مناصب عديدة واستحوذ على ثروة ضخمة، وتسلم ابنه يحيى ولاية أذربيجان، وقد استُدعي هذا إلى بغداد في عهد خلافة المهدي، وعينه هارون الرشيد رئيساً لأمناء سره.

انظر كارل بروكلمان، (المصدر السابق نفسه). ص 186

سُودد وسلطان، هو اجس الخليفة هارون الرشيد فتكبتها شرّ نكبة، ونكّل برجالها وقضى عليها آخر أيامه، ومن أهم الدوائر التي يهـم الوزير انتظام العمل فيها، هي دائرة جباية الرسوم والبريد، وديوان الرسائل، وكان البريد يؤمن، أحياناً نقل بعض الأمتعة الخاصة، إنما الغاية الكبرى منه، تأمين تبليغ العمال في الولايات، الأوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة، كما يحمل إلى الإدارة المركزية مطالب الأهليـن في الملحقـات ومطالبهم.

فالبريد كان يلعب في هذا المجال دور الأمن العام في حكومات هذا العصر ويقوم بأعمال البريد سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات، من خلال قطع أبعاد متساوية كمحطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة.

أما الدواوين القائمة بمعـية الوزير، فكانت تقوم بإعداد الأمر وتعيين الموظفين والكتابة والعمال وتأمين المراسلات الدبلوماسية، بعد أن يمهرها الوزير بخاتم السلطان.

وهذه الإدارة التي عولت أكثر على الدواوين، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات، كما تكثر من السجلات الرسمية، وهي إدارة مركزية قامت دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد، وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الإدارة العامة ما تحتاج إليه من معلومات، كما كانت تُشرف على إصدار الأوامر والتبليغات، وتؤمن استلام رسوم الجباية بعد حسم تكاليف الإدارة المحلية، وكانت إدارة الملحقـات تمتاز هي أيضاً بالدقة كالأدارة المركزية، وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة، كما أن الوزير كان يتمثل فيها بحاكم مدني أو عامل، إليه أمر الولاية وضبط الإدارة، يستقل الواحد عن الآخر، يشرف الأول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج إليها الإدارة، أما العدل الذي كان أمره أبداً على هامش الإدارة

والحكم فقد بقي من اختصاص القاضي غير أن عدم كفاءة القانون أحياناً وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة أو الاعتراض وعجز القاضي عن تنفيذ الأحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين، كل هذا اضطر الدولة لإيجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضي؛ هي "ديوان المظالم" الذي كان ينظر في أمور التجاوزات على حقوق الآخرين.

لم يكن استقلال القضاء عن السلطة المركزية قد وصل إلى مدارك المسؤولين بعد، واستمر الحال على ما هو عليه إلى يومنا هذا، حيث ورثنا حملاً ثقيلاً من تدخل السلطة في القضاء، ومُحابيات القضاء للمسؤولين الكبار، وإعطاء هؤلاء المسؤولين حصانة خاصة يفعل كل ما يشاء من مُخلفات قانونية دون رادع.

أما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يُساعد على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وهكذا استمر أطلال قضاء الدولة إلى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي. بينما كانت دوائر الشرطة تسهر على تأمين الأمن وراحة العباد، مستعينة في تحقيق ذلك على فرقة من "الأحداث" أو الفتوة وتدعى باللهجة العراقية "الشقاوات" يتم اختيارهم من قبل رئيس الشرطة للتجوال ومراقبة أحوال الناس داخل الأزقة والمدن الكبرى.

لقد اختلفت الإدارة العباسية عن روح الإدارة في دمشق في العصر الأموي، فلم يعد في ميسور عامة الناس أن يقرّبوا من الخليفة كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك مثلاً.

فخليفة بغداد لم يكن بأي حال شيخ من شيوخ القبائل العربية، لكنه كان متأثراً بسنوك ملوك الفرس الكبار الذين عاشوا في المدائن القريبة من بغداد، لحقبة طويلة من الزمن تركوا فيها طبائع وعادات، لا بد وأن تبقى لها أثر في النفوس والعادات.

وفي السنوات التالية، نشأ أسلوب التشريعات الذي كان يتبعه الساسانيون في طريقة محاكاة الملوك، فلم يعد التقدم في البلاط والمكانة في الحكومة إمتيازاً وراثياً مقصوراً على الإشراف، بل أصبح الخليفة يقدم من يشأ ويؤخر من يشأ.

وأنتهت الخلعة التي أشتقت منها كلمة (gala) بالفرنسية<sup>(1)</sup>، ولم تكن معروفة في زمن الأمويين الذين كانوا يكتبون في أغلب الأحيان بحاجب يُيطون به أمر إدخال الناس عليهم، نجد أن عدد الحُجَّاب والخدم في البلاط العباسي يزداد بإطراد، ولا عمل لهم الا الحوول بين الخليفة وأفراد الشعب، وإقامة العقبات بينه وبينهم.

وهكذا يمكن اعتبار أن الخلفاء العباسيين قد نفضوا أيديهم تقريباً من تصريف شؤون الدولة مُلقين عبء ذلك على عاتق الوزراء إلا في العقوبات التي تتصل بالموت والحياة، فقد كان الجلاد، (وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية من قبل) يلازم الخليفة دائماً، وكان النطق حاضراً أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المقطوعة من المغضوب عليهم.

كذلك هناك فارق آخر بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية، في تقريبهم إلى البلاط علماء الفقه والحديث، وبالتالي تحقيق المثل الأعلى للسلطة الثيوقراطية، خاصة بعد أن تولى آل البيت من مؤسسي أقدم المذاهب، والأمر الذي لا شك فيه أن إثنين من مؤسسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية إلى اليوم، كانا يعطفان على العلويين، فأما أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي، فكان

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية"، المصدر السابق، ص 179.

جدة عبداً أسيراً أثناء فتح كابل (عاصمة أفغانستان) ثم أعتقه سيده، وكان من بني تيم الله<sup>(1)</sup>.

فقد عاش أبو حنيفة بوصفه مؤي تيم الله مُستغنياً عن الناس، عن طريق التجارة بالحرير في الكوفة. ولقد كان من مؤيدي زيد بن علي بن الحسين، وتوفي عام (767) في سجن بغداد، ودفن في الجانب الشرقي من دجلة (الأعظمية)، وكان يعد حلقة للتدريس في الكوفة، ويفتي في المسائل الشرعية، وهو في فتاواه يلزم السنة (الحديث) لزوماً شديداً، ولا يُفسح المجال أمام الاجتهاد بأكثر مما فعل أي من أصحاب المذاهب الأخرى، كما وفق أبو يوسف بوصفه قاضياً للقضاة في الإسلام، إلى أن يظفر بإقرار رسمي لمذهب أبو حنيفة، كذلك وضع كتاباً أساسياً لهارون الرشيد في الخراج، وقد أصبح هذا الكتاب بمثابة الدستور الدائم للدولة، وسيأتي في فترة لاحقة شرح لنشوء المذاهب في العصر العباسي.

إن ما يمتاز به العصر العباسي بصفة عامة بالمقارنة مع العصر الأموي كما يقول وليم موير<sup>(2)</sup>: "إن أبرز الاختلاف بين هذا العصر وسابقة يقع بثلاثة نقاط: أولها: إن نُفوذ الخلافة لم يعد مواكباً لنفوذ الإسلام (فإسبانيا لم تقبل حُكم بني العباس مُطلقاً وكان ولاء أفريقيا للخلافة مزعماً). ثانياً: إن حماسة العرب الحربية قد فُثرت، وحرارتهم المذهبية قد خمدت، وياتوا لا يلعبون الدور الأول في تاريخ الإسلام كما كان شأنهم في السابق.

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران / ج 1، الباب الثالث، ترجمة أحمد كمال الديسي، ص 90.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص 47.

وثالثاً: إن نفوذ الإيرانيين في جهاز الدولة - (ومن بعدهم الأتراك منذ عصر المتوكل) - قد بلغ أوج الكمال، وكان مقر هذا النفوذ قد انتقل من سوريا إلى العراق<sup>(1)</sup>.

ويقول موير<sup>(2)</sup> وكما تزايد نفوذ الإيرانيين، تناقصت خشونة حياة العرب، وبدأ عصر الثقافة والانطلاق والبحث والفحص العلمي وأثبتت الروايات الشفهية، واحتلت جانباً من الروايات التاريخية - وساد الميل إلى التحقيق والتقصي - من خلال الاحتكاك بالشرق - في الإسراع بوجوب هذا التغيير، وربما كان الوهن المتزايد في البناء الأخلاقي، والسلوك البغيض المتفشّي في البلاط، والعقائد والأفكار المتعالية التي اعتبرت الإمامة جماعة الأمر الإلهي، وفوق عقول البشر، والتقدم السريع في مضمار حرية التفكير، وإعطاء العقل البشري حرية أكبر في التفكير بعيداً عن القيود الدينية، ربما كان كل ذلك نابعاً عن نفس المصدر<sup>(2)</sup>.

ومن خصائص القرن الأول من العصر العباسي، رواج العلم وإتقان صياغة الملحمة والطرفة في بلاط الخلافة، وسيطرة أصول عقائد المعتزلة سيطرة كاملة، وهم ذوو الأفق الواسع والنظرة التحررية كما أشرافنا لذلك في الفصل الأول.

ولكن في الجانب الآخر فإن العباسيين بعد عبورهم بحار الدم، ووصولهم إلى الخلافة بعد أن صاروا أصحاب النفوذ في أمبراطورية الإسلام الشرقية بلا منازع، لم يتمكنوا من بسط العدل في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكانوا أبعد ما يكونون من تحقيق ذلك. وهكذا استولى اليأس التام على الكثيرين ممن عملوا

(1) Sir William Muir: "Life Of Mohamed and History Of Islam", (4Vols), London (1858).

(2) 3d Edition (1895). (P-432-430).

بجدية من أجل الثورة، وبعد أن قامت الثورة<sup>(1)</sup>، سيطر اليأس على الشيعة خاصة، لأن العباسيين كانوا يصدرون دعايتهم باسم بني هاشم، وأغفلوا الشيعة الداعين لأسرة علي، وقد عرف الشيعة الحقيقة بعد فوات الأوان، وتبهبوا إلى أن لذرية الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بين بني أعمامهم الهاشميين أعداء يفوقون في عداوتهم بني أمية الذين لا تربطهم بهم صلة رحم قريبه، ولم يعف العباسيون حتى عن زعماء عمالمهم الذين كانوا قد اختاروهم ليكونوا اليد المحركة، والمنفذة لمخططاتهم قبل تحقيق نصرهم الكامل.

فقد قتلوا أبا سلمة غدرًا عام (749 - 750م)، ولقى أبو مسلم نفس المصير بعد أربعة أو خمسة سنوات (755م) مع أن النصر الذي ناله العباسيون كان يرجع في معظمه إلى همة هذا الرجل ونبوغه ونشاطه وجديته<sup>(2)</sup>.

وحقيقة الأمر إن كفاءة أبي مسلم قد سببت في الجانب الآخر في قتل مائة ألف شخص غير من هلكوا في الحرب، كما قال الآخرون قتلوا (600) ألف شخص بدورهم<sup>(3)</sup>، لكنه مع ذلك قد ولد عند أتباعه شعور الفدائية على نحو قل نظيره

وإن لم يكن قد نجم عن الثورة التي أوصلت العباسيين إلى سدة الحكم أي أثر، فهي على الأقل غيرت وضع الإيرانيين تماماً، ونعني بذلك أن القوم الذين كانوا تابعين يؤدون الخراج ويتعرضون للعن والإهانات، قد ارتفعوا عقب هذه الثورة وشغلوا أكبر القيادات نفوذاً بفضل قوة السيف، وما لهم من إرث ثقافي عبر تاريخهم القديم في الأمور المذهبية والفكرية، ولما آلت الخلافة إلى الخليفة العاشر (المتوكل)، زاد نفوذ الأتراك وحل محل نفوذ الإيرانيين (وكان الأتراك

(1) كتاب فن قولتين، المصدر السابق (ص99).

(2) أورد براون تاريخ الأدب في إيران، المصدر السابق، ص361.

(3) موير، هامش ص446، المصدر السابق نفسه.

يتصرفون دائماً تصرفات همجية تبدو في أكثر من صورة ولا تتفق مع الأفكار الحرة والأراء المستتيرة)، وقد اندثرت أصول العقائد التي قبلها عامة الناس في ذلك الزمان، ومثبت الدراسات الفلسفية بخسارة فادحة، وبرزت مشاعر عداثية على مسرح الوجود ضد التشيع، واستمرت فترة من الزمن، ونتيجة لهذه الأوضاع انضردت الخلافة في بداية العصر العباسي بميزة خاصة سواء من جهة السيطرة العنصرية أو من جهة الميول المذهبية المتعصبه.

وقد بلغت هذه الخلافة أوج عظمتها إبان خلافة المأمون الزاهرة، نقد تميز هذا الخليفة عن غيره من الخلفاء العباسيين بحبه وعشقه للعلم والعلماء وتشجيعه لهم من خلال تمسكه بأفكار المعتزلة.

ومن بين التطورات الحاصلة في الإدارة هو تأسيس الوزارة، فلم يعد الخليفة العباسي منفرداً لوحده في إدارة شؤون الامبراطورية بأسرها، فإن منصب الوزير وهو أحد مناصب جهاز الخلافة، ولفظ وزير مُشتق من الكلمة العربية "وَزَّر" بمعنى الكل والعبء، لأن حمل عبء مسؤولية إدارة شؤون المملكة الثقيل يُلقى على عاتق الوزير.

وقد جاء في كتاب ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية)<sup>(1)</sup> "إن الوزير هو الرابطة والوسيط بين الملك ورعاياه، ولذا ينبغي أن تتفق طباعة مع طباع الملوك من جهة وطباع العامة من جهة أخرى ليحسن التصرف مع الجانبين بصورة يقبلها هذا وذلك..".

ويقول اللغويون أن لفظ (وَزَّر) معناها الملجأ والملاذ، وإن وَزَّر بمعنى الحمل، وهذا يعني أن كلمة وزير إما أن تكون مُشتقة من وَزَّر (بكسر الواو) فيكون الوزير عندئذ الشخص الذي يتحمل العبء الثقيل أو أن تكون مُشتقة من وَزَّر

(1) ابن الطقطقي "الفخري"، (المصدر السابق)



(يفتح الواو والزاي وسكون الراء)، فيكون الوزير عندئذ من يلجأ الملك إلى رأيه وفكرة وتدبيره.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التطور في إدارة شؤون المملكة، يُعتبر طفرة تطورية كبيرة بالمقارنة مع ما كان عليه الحال في العصر الأموي، عندما كان الأمر والنهي يعود لشخص الخليفة فقط، دون استشارة أحد فيما يخص البلاد التي تزيد مساحتها عن 20 مليون كيلومتر مربع. إن تعيين وزير للخليفة في العهد العباسي قد أتاح للخليفة التأني والتبصر في اتخاذ القرارات بأقل تقدير، ولكن لا تزال الكلمة الأولى والأخيرة بخصوص الأمور المصيرية يكون مرجعها للخليفة نفسه، ولا يمكننا أن نتخيل في استمرار التطور في تلك المرحلة التاريخية لتشمل مجلس شورى أو انتخابات أو أي شكل من أشكال المسحة الديمقراطية، كونها لا تزال تلك الأفكار بعيدة عن نمط التفكير القبلي المثقل بأفكار العبودية والتسلط.

ولكن هناك جانب سلبي في تعيين الوزير، هو انحراف مسار الدولة باتجاه تحيز ذلك الوزير إلى أبناء قومه سواء أكان إيرانياً، في أوائل أيام الدولة العباسية أو تركيا منذ أن استلم المتوكل السلطة وما بعدها، وسنأتي لشرح ذلك بتفصيل أكثر في فقرة لاحقة.

### (1) بروز المعارضة واستخدام العنف في العصر العباسي الأول؛

خلف أبو العباس أخوه أبو جعفر المنصور ليكون هو المؤسس الحقيقي لسلطان بني العباس، وكان عليه أن يمكن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبد الله بن علي الذي هبَّ يطالب بالخلافة، وكان يقيم في شمالي سوريا مع الجيش الموجه لقتال البيزنطيين، ولكن أبو مسلم الخراساني ما لبث أن هزمه، وكان أبو مسلم قد أظهر للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرد بالأمور، فكان

هم المنصور الأول أن يبعد أبا مسلم عن خراسان، وهي معقله ومستقر قوته وسلطانه، ولكنه رفض في تولي إمارة مصر، وقد سمح لنفسه بأن يستدرج إلى العراق حيث قُتل على عيني الخليفة قرب العاصمة القديمة "المدائن"، ولقد وجد من يثار له في شخص "سنباذ الفارسي" الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغّل حتى بلاد الجبال، وهناك بين همدان والرّي، هزمته جيوش الخليفة وقضت عليه<sup>(1)</sup>، والأمر الثاني هو إخضاع العلويين من الشيعة، فقد ثار العلويين عام (762) بقيادة محمد "ذو النّفس الزكية" وهو أحد أحفاد الحسن بن علي من جهة أبيه، والحسين من جهة أمه، وكان ذلك في المدينة، المركز الرئيسي للبيت العلوي، والذي بدأ بأن عامل المنصور هناك قد سجن عدداً كبيراً من العلويين، وأطلق الثائرون سراح المعتقلين من ذوي قرياهم، لكن المنصور وجه الجيش الخراساني إلى المدينة للقضاء على الحركة وقاوم محمد مقاومة باسلة قُتل على إثرها، وصودرت ممتلكات أسرته، وانتهت الحركة.

أما ثورة العلويين بقيادة إبراهيم أخو محمد في البصرة فكانت أعظم خطراً، وقد وفق في احتلال البصرة، واستطاع بما استخلصه فيها من أموال أن يكسب ولاء فارس والسوس، لكنه رفض أن يسير إلى الكوفة، حيث كان المنصور مُرابطاً بجيش هزيل، فما كان من قائد جند المنصور عيسى بن موسى الذي استطاع أن يخمد الثورة في المدينة قبل ذلك، إلا أن تقدّم إلى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد، ولكن بعد قتال عنيف.

وأخيراً عزم إبراهيم على مهاجمة الكوفة، ولكنه قُتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخمري، جنوبي الكوفة عام (763).

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية"، المصدر السابق، ص 175.

## (1 - 2) الثورات التي قامت ضد نظام الحكم العباسي الاول:-

كان بني العباس يستهدفون بين الحين والآخر الخطر الذي يأتيهم من الثورات المذهبية المضطربة في خراسان الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الامبراطورية الإسلامية، حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء السامانية التي انتشرت قبل الإسلام في أواسط آسيا، بحكم اتصالها المباشر بالهند الموطن الرئيسي للديانة البوذية، بالإضافة للديانات الإيرانية القديمة التي ذكرناها سابقاً.

وكان ذلك كله مؤثراً في عقول الناس لرفضهم السيطرة العباسية بالشكل الذي كان عليه الحال من قهر وتسلط، وعدم تلمسهم روح التسامح التي جاء بها الإسلام، ومما لا شك فيه أن المنصور بعد تخلصه من أبي مسلم عام (755)، قد أمر بالفتك ببعض المتعصبين ضده من أهل خراسان، حيث ظهر لهم رجل فارسي من مرو سنة (778) واسمه حكيم وادعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية، بعد موت مولاه وإذ كان يبرز دائماً للجماهير وعلى وجهه نقاب موشى بالذهب يزعمون أن الفرض منه أن يحجب كنقاب موسى (عليه السلام)، بهاء الذات الإلهية عن العيون الدنسة غير الجديرة بالنظر إليه، ولهذا السبب عُرف في التاريخ بلقب "المقنع"، وفي قلعة سنام قرب كاش في ما وراء النهر، استطاع هذا التأثير أن يخضع الإقليم كله، في حين كانت ثورة أخرى من ثورات الخوارج تتدلع نيرانها في خراسان.

والواقع أن الخليفة قد سير إليه جيوشاً عديدة فتقلب عليهم، وأخيراً وفق جند الخليفة إلى حصاره في قلعته فما كان منه إلا أن أضرم فيها النار، فالتهمت وزوجاته وأتباعه عام (780)، وكانت العقائد التي بشر بها مزدك في العهد

الساساني، قد بعثت من جديد قبل عام واحد في مقاطعة جرجان، لتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة على عهد هارون الرشيد.

أما في شمال أفريقيا فقد شبت ثورة جديدة من ثورات البربر، ذلك بأن هؤلاء القوم على الرغم من دخولهم الإسلام، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الاموية إلى تعريبهم، واحتفظوا بحس قومي لا يزال حياً إلى الوقت الحاضر، نجده أكثر بروزاً في الجزائر، حيث يطالبون حكماً ذاتياً بين الحين والآخر، وقد وجد الخوارج أرضاً خصبة لبث دعايتهم ونشر أفكارهم هناك.

وتوالى الانتفاضات على عمال الخلفاء العباسيين منذ عهد المنصور، واستمرت إلى عهد الرشيد من غير انقطاع. وهنا أعاد الأمن إلى نصابه باديء الأمر، إبراهيم بن الأغلب الذي قُتل والده الذي كان أميراً على شمال أفريقيا - (وأصله من مرو الروذ) - في ثورة سنة (767) وفي سنة (795)، عهد إلى إبراهيم في الولاية على إقليم الزاب الواقع جنوبي الجزائر على جانبي بسكرة، وبعد أن طرد الثوار خلف أبيه (محمد) ابن مقاتل هرع ابن الأغلب إلى نصرته سنة (799)، وببراعة فائقة أقر الأمن والنظام في تلك الأرجاء، فكافأه الرشيد على حسن بلائه بأن كتب له بالعهد إلى أفريقيا لقاء خراج سنوي قدره أربعون ألف دينار، وفي الحال شرع ابن الأغلب في إنشاء مدينة جديدة على ثلاثة أميال جنوبي القيروان (تونس) دعاها (العباسية) وجعلها قاعدة لإمارته.

### (1 - 3) أساليب القمع ضد المعارضه :

إن الثورات المذهبية التي سبق أن أشرنا إليها، والتي اشتعلت في إيران، حملت الخليفة على أن يراقب بشدة بالفه حياة رعاياه العقلية في قلب الامبراطورية أيضاً، والواقع إن الماتوية (لا الزرادشتية الخالصة) كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على أولئك الذين دخلوا حديثاً في الإسلام، ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً

لشعائرة الصارمة، ولأساليب تطبيق السلاطين الذين اعتبروا خلفاء الرسول أصحاب المركز الإلهي للكلمة في نظرهم، ووجدوا أن الأمر يُناقض بشكل كبير ما تعودوا عليه في الماضي في تعاليم المانوية دين الطبقات المثقفة (سابقاً)، وكان من أول أعمال المنصور أن أمر بقتل عبد الله بن المقفع - الكاتب الإيراني المشهور - ، وكان اسمه بالفارسية روزبه، وهو ابن رجل كان يجمع الخراج في زمن الحجاج بن يوسف، وكان من أتباع عيسى بن علي عم السفاح والمنصور وقد أسلم على يديه، ومن أبرز نشاطاته نقل إلى العربية تاريخ الفرس "خدائنامة" والترجمة الفارسية لكتاب الأمثال الهندية الموسوم "كليلة ودمنة"<sup>(1)</sup>، ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسية على ما جاء عند الإيرانيين.

وكان سبب قتل المنصور له هو أنه بالغ وشدد في إعداد صيغة يتعهد بها المنصور بأن لا يغدر بأخيه أبو العباس إلا أن هذه التهمة مشكوك فيها، والسبب الحقيقي هو نشاطه السياسي الديني الذي أثقل كاهل المنصور.

وكانت طريقة قتله بشعة للغاية، حيث وُضع في تور، وقطعت أجزاء من جسمه ورميت أمام عين المنصور نفسه إلى أن فارق الحياة. وفي عهد المهدي لقي الشاعر صالح بن عبد القدوس الذي دعى في أحاديثه الدينية بالبصرة إلى الشوية، والثوية في إيران تعني وجود إله خير وإله شر، وهذا أمر مخالف للشريعة الإسلامية التوحيدية، وحاول أن يتقاضي عاقبة النعمة التي أثارها هذه الدعوة عليه في الأوساط الفقهية بالفرار إلى دمشق، إلا أن رجال المهدي تعقبوه ورجعوا به إلى عاصمة الخلافة، ليُصلب سنة (783) بتهمة الزندقة<sup>(2)</sup>.

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص 88، ج 1، باب ثالث.

(2) الزندقة: لفظة شائعة على من ينسب له بدعة في ذلك العصر، وهذه الكلمة مشتقة من زند، وهي مختصر لكل من يجرد على تفسير "الابستاق"، تفسيراً جديداً وهو كتاب زرادشت، وكانت تطلق على أتباع ماني ومزدك على حد سواء أيضاً.

وهكذا كانت نهاية هذا الشاعر المفجعة، كما كانت قبله نهاية ابن المقفع، والتي فتحت الباب في ملاحقة الزنادقة في عهد المهدي، والذي أوكل عامله الخاص ويدعى "العريف" الذي نشط في محاربة كافة الآراء المذهبية التي كانت تزعج الحكومة المركزية.

ويقال أن الزنادقة في عهد المهدي قد شكلوا نسبة كبيرة لا يستهان بها في بغداد، تم القضاء عليهم.

#### (1- 4) اساليب العنف بين الخلفاء الاخوة والاقرباء والمقربين:-

من الجدير بالذكر هنا أنه بعد وفاة المهدي خلفه ابنه موسى سنة (785) متخذاً لنفسه لقب الهادي، وفي 15 أيلول عام 786 قُتل الهادي وهو في دار حريمة قرب الموصل بتحريض من أمه "الخيزران"، التي سبق لها أن شاركت مشاركة كبيرة في تصريف شؤون الدولة إبان خلافة زوجها، وكانت في الأصل جارية بربرية.

ويقال أن موسى يكره أخاه هارون (الرشيد)، مما أثر أمة للتخلص منه، وتتصيب هارون على العرش بدلاً منه، وكانت هذه بداية للآفة التي أدت الى هلاك الأسرة العباسية من خلال النزاعات الداخلية بينهما وقد قتل موسى على يد هارون في مؤامرة بشعه. كما أن المنتصر تأمر في قتل ابيه المتوكل. ونفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون اول سنة 1861 في الجعفري - وهو القصر الذي كان المتوكل قد أقامة على ابواب سامراء قبل ذلك بفترة غير طويلة<sup>(1)</sup>. وسنأتي لتفصيل ذلك في فقرة لاحقه.

(1) كارل بروكلمان (المنصر السابق نفسه) ص 214

والحادثة الأخرى التي تستحق الذكر هنا؛ وهي مقتل جعفر بن يحيى البرمكي في عصر الرشيد، مفادها كما وردت في الروايات أن خلافاً حصل بين الرشيد وجعفر أحد أقرب وزرائه إليه بسبب حادثة غرامية، مفادها أن الخليفة عقد لجعفر على أخته العباسة عقداً صورياً حتى يكون في ميسورة أن يأنس بالإجتماع بهما في وقت معاً، ولكن جعفرأ أساء إصطناع هذه الحرية التي تمت له، فلم تكد أم الخليفة (الخيزرانة) أن توفت سنة (790) حتى انتزع الرشيد خاتم الدولة من جعفر، وحول جزءاً من صلاحياته إلى خصمه وخلفه، الفضل بن الربيع، وفي أوائل عام (803) عندما ذهب الرشيد إلى الحج - وكان يتولى أمرته في أغلب الأحوال بنفسه - أمر بجعفر أن يُقتل في ليل 29 كانون الثاني، ويعلق رأسه على الجسر المركزي ببغداد، ويقطع جسمه نصفين، يُعرض كل منهما على واحد من الجسرين الآخرين، أما أبوه وأخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم.

وهكذا انتهت نكبة البرامكة والتي اضطرت الرشيد من نقل مقره إلى الرقة على الفرات<sup>(1)</sup>، ولم يخل عهد الرشيد الذي اتسم بالهدوء والإزدهار، وكان يُعتبر من العصور الإسلامية الذهبية لم يخلُ من ثورات تعاقبت في داخل الإمبراطورية.

ففي سوريا اندلعت نار الخصومة القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب سنة (796)، وفي دمشق اغتتمت السوق فرصة الاضطرابات للإمعان في أعمال السلب والنهب، ولم يستتب الأمن إلا بعد أن خرج جعفر البرمكي بنفسه، وأمر بتجريد السُكان من السلاح جميعاً.

(1) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 187

وامتدَّ القتال ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد، ولكنه لم يؤت من نتائج مُثمرة سوى زيادة في إكراه الامبراطور "نقفور" بعد فتح هرقل سنة (806). وكان ثمة اضطراب متصل في آسيا الوسطى أيضاً، إذ ثار "رافع بن ليث" في سمرقند سنة (805)، وبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها (الهند)، مما اضطر الخليفة هارون الرشيد لتجهيز جيشه والسير بنفسه لمقاتلته، ولكن الأجل لم يُمهله فما كاد الوصول إلى الطوس في خراسان حتى مرض وتوفي يوم 24 آذار سنة (809).

#### (1- 4) الصراع بين الأمين والمأمون:

كان الإبن الأكبر للرشيد محمد الأمين ولياً للعهد وأميراً على سوريا، وكانت أمه زبيدة حفيدة المنصور، أما ولده الثاني عبد الله المأمون، فقد كان ولي عهد على الولايات الشرقية، وكانت أمه أمة فارسية. بعد أن نصَّ على أن أي اعتداء يقوم به الأمين على حقوق أخيه يترتب عليه فقدان العرش، وكان الرشيد قد عين لولده الثالث القاسم أميراً على الجزيرة الفُراتية، فتقلصت بذلك سلطة المأمون وضاعت، ومع أن الأمين تمكن أن يجعل إمارة القاسم مقتصرة على قنشرين فقط، لكنه لم يجرؤ على التعرُّض لسلطة المأمون، على الرغم من تحريض وزير أبيه الفضل بن ربيع. ومن جهة أخرى اضطر المأمون بإدب الأمر إلى التسليم بحقوق أخيه، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثه على توحيد الامبراطورية، إلا أنه كان يخشى الخطر الذي يتهدد الدولة من المشرق، فقد قُدِّر لأهل التبت، إبان الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، أن ينتصروا في سلسلة من المعارك ضد الصين، بمعونة عرب كاشغر ولكنهم (أي التبتيين)، انتهوا بعد أن أستشعروا الخطر من تقدم القوى الإسلامية، ومن هنا ناصرُوا "رافع بن ليث" في ثورته في سمرقند، وأصبحوا يهددون بالهجوم على بلاد



ما وراء النهر، وقد اضطر المأمون سنة (810م) أن يلقي بالتحفظ عرض الحائط وقطع جميع علاقاته ببغداد، وعهد إلى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية ضد أخيه الأمين، الذي كان ينوي إعطاء ولاية العهد لابنه موسى، بيد أن علياً هذا ما لبث أن قتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش الأمين يقودها طاهر بن الحسين في الري. وإنما كتب النصر في تلك الواقعة لجند المأمون، فلم يكن من الأمين إلا أن بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت أيضاً، وعندما رفض الجند الذين وجههم إلى الشرق للمرة الثالثة أن يتقدموا إلى أبعد من خانقين على الحدود العراقية، فقد نشبت ثورة أخرى ضد الأمين في سوريا، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين بن قائده علي الذي قتل في الري، ولكن نفرأ من الذين أقاموا على الإخلاص له عادوا فأنقذوه من أسره، وهكذا تقدم المأمون نحو بغداد حيث تساقطت المدينة منطقة إثر منطقة، مما اضطر الأمين آخر الأمر إلى الاستسلام، ثم ساروا به من قصره في أواخر أيلول (813) وهاجمه رجال طاهر وقتلوه.

وهكذا استعادت الدولة وحدتها وكان المأمون قد مكث في بادئ الأمر في مرو، وقد خرج في هذه الأثناء محمد بن إبراهيم طباطبا في الكوفة أوائل عام (810) وادعى الخلافة، لكن هرثمة قد هزمه بسهولة ويسر، ولكن "هرثمة" نفسه انتهى بعد هذا النصر الجديد إلى أن يكون خطراً على الخليفة ووزيره، فأمرأ به أن يُعتقل بعيد دخوله مرو، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أمر بقتله فقتل. أمأ طاهر بن الحسين وكان يستحق من الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقتها هرثمة، فقد أرسل على رأس جيش هزيل إلى الرقة على الفرات، حيث كانت الثورة تلي الثورة. وفي سنة (817) دعى البغداديون المنصور بن الخليفة المهدي، إلى تولى السلطة فلم يستجب لهم بل أقام على ولائه للخليفة وسعى إلى إقرار الأمن باسمه، وحسب المأمون أن باستطاعته اكتساب عطف العراقيين إذ عقد لعلي بن

موسى الرضا على ابنته، وسمّاه ولياً للعهد، والواقع أنه أقدم على هذا العمل بإشارة من وزيره الفضل بن سهل، واستبدل رايات العلويين الخضر برايات العباسيين السود، ولكن العراقيين أبوا مبايعة علي، ونادوا بإبراهيم بن المهدي الموسيقى الهاوي خليفة عليهم، وفي 24 حزيران من سنة (817)، اضطر المأمون أن يتخذ إجراءات فعالة في مركز الامبراطورية، ولم تكن الأحوال في الشرق ادعى إلى الاطمئنان من الأمور في العراق، ذلك أن العقائد التي بشر بها أبو مسلم الخراساني وتلاميذه أمثال "المنقذ" والقائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الإلهية لم تلبث أن بقت في أذربيجان على يد بابك (الخرمي) الذي أجمع حوله خلق كثير، واتسع سلطانه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب. ومهما يكن من أمر فالواقع أن المأمون انطلق في سبيلة إلى الطوس مباشرة ليستمد القوة عن طريق الصلاة على ضريح أبيه الرشيد، وبينما هو في بعض الطريق قتل وزيره، وهو في الحمام بمدينة سرخس. وفي طوس أيضاً توفي صهره عن طريق دس السم إليه ودفن هناك بجوار هارون الرشيد، وكان قد رفعته الشيعة إلى مرتبة الشهداء، فإن المدينة الجديدة التي سميت المشهد قد أصبحت مزاراً مهماً لتحل محل طوس القديمة.

وإذ غلبت السوداء بعد ذلك على الحسن بن سهل أخي الوزير الفضل وأمير العسكر في وسط آنذاك، وكان العراقييون يكرهونه كرهاً شديداً، وتغير عقله حتى شد في الحديد وحُبس في أحد البيوت بحجة من الاختلال العقلي<sup>(1)</sup>، فقد خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودعوا المأمون بالخلافة، فدخل العاصمة في آب (819). ولم يكذ ينسحب من خراسان حتى رفع الخوارج راية الثورة فيها، فعهد المأمون في إخمادها إلى طاهر الذي وفق خلال فترة قصيرة إلى إقرار النظام في المقاطعة كلها، لكنه استقل بعد فترة في تلك الولاية ليؤسس الدولة الطاهرية

(1) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 200.

والتي افقدت الامبراطورية الاسلامية أقصى ولاياتها الشرقية، كما أفقدتها أقصى ولاياتها الغربية<sup>(1)</sup> في آن معاً.

ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن نار الفتنة القديمة بين القبائل قد اندلعت مرة أخرى بين عرب الشمال وعرب الجنوب، إبان الحرب بين الأمين والمأمون، فقد ناصرت القيسية الأمين بينما ناصرت الكلبية المأمون، ولم تكد وحدة الامبراطورية تستقر ثانية حتى اندلعت القلاقل مرة أخرى عندما أقبلت جماعة من الأندلس، واستولوا على الاسكندرية في مصر لكن عبدالله بن طاهر الذي تولى الإمارة بعد أبيه استطاع في فترة وجيزة من إجبارهم على الانسحاب إلى أقرطش وإقامة الآلة الحكومية من جديد. وكان المأمون يعهد القيادة الحربية إلى كبار رجاله العسكريين، فقد واصل الحرب ضد البيزنطيين بنفسه، واشترك لثلاثة سنوات متعاقبة في حملات ضد البيزنطيين إلى أن ألتبس من الامبراطور "توفيل" الصلح سنة (832) عقب سقوط "لؤلؤه" أمنع الحصون البيزنطية على الحدود قرب "طرسوس"، وفي آب سنة (833) توفي المأمون في "البدندون" قرب "طرسوس" في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين.

### (1- 6) حركات العنف والاعمال الاخرى في خلافة المعتصم:

رقي العرش بعد وفاة المأمون أخوه محمد، وكان أميراً على مصر متخذاً لقب المعتصم بالله، ذلك لأنه اعتصم ولم يتدخل بين خلافة الأخوة الأمين والمأمون. ويعتبر عصره بداية لدخول الأتراك وتزايد نفوذهم في التاريخ الإسلامي، وكان ذلك في البداية حين استعان المعتصم بالأتراك الذين جاءوا من أواسط آسيا، إما عن طريق النخاسة أو على سبيل الجزية يؤديها الأمراء الوطنيين إلى خزانة الدولة الإسلامية، وقد عهد المعتصم بتصريف شؤون الفرقة إلى رجال من

(1) W.Rothstein "Zn asch-scha bustis Bericht uber der Tahiriden" Orietai Studies. Giessen (1906), I, 155-170.

غير الموالي، ولكنه لم يلبث أن ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصيين مُبالغة منه في الحرص على سلامته الشخصية. والواقع أن هؤلاء الزعماء انتهوا في وقت مُبكر إلى أن تكون لهم سُلطة على الدولة حتى إذا انقضت فترة غير طويلة أصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين. وكان طبيعياً أن ينكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكى، من الرجال منذ ذلك الحين.

وهكذا ألقى "ابن سعد" (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) على لسان أحد الأصحاب نبوءة مفادها أن الأتراك سيردّون العرب في يوم من الأيام إلى بواديهم، (وقد تحقّق لهم ذلك للأسف الشديد)، إلا أن أشهر قوَاد المعتصم ظلّ من دون شك، رجلاً فارسياً اسمه "حيدر ابن كاوس"، ويدعى بالأفشين (وكان هذا منذ عهد المأمون الذي تعاطف مع الفُرس في السنوات الأولى من خلافة)، وقد استطاع "الأفشين" من القضاء على حكم بابك بأذربيجان بعد أن افتتح قلعة عنوة واستباحها في خريف عام (837).

ثم انقض "الأفشين" على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الامبراطور "توفيل" الجزيرة العربية وشمالى سوريا، ولكنه هُزم على يد "الأفشين"، بعد أن استولى الأخير على عامورية في غلاطية بعد أن لجأ إثر حصار متطاوّل إلى الخدعة، ولكن من الجائز جبراً أن تكون هذه الانتصارات بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له، وعلى الرغم من أنه أحبط بعد رجوعه من حرب البيزنطيين، مؤامرة جديدة هدفت إلى تصيب العباس بن المأمون خليفة بدلاً عن المعتصم، لكنه أتهم بالارتداد عن الاسلام سنة (840)، وحُبس في بناء خاص ثم منع عنه الطعام إلا القليل حتى مات، إذ لم يجروُ أحد أن يُنزل به عُقوبة الصلْب المألوفة، وذلك للرّصيد الذي حصل عليه من الشجاعة في حملاته الحربية المتعاقبة.

عزم المعتصم على أن ينشيء سنة (836) مقراً جديداً لنفسه في سامراء، وعهد في بناءها إلى "أشناس" أحد قوَاد الأتراك، فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة

نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة، بالإضافة إلى نهر دجلة منعه حصين، وكانت المدينة تتظّم من قبل بثمانية أديرة نصرانية، وقد شيّد قصر الجوسق للمعتصم، أولاً حتى إذا جاء من بعده خلفاءه وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن، حلّوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة.

وكان أبرز تلك الأبنية المسجد الكبير والملوية والتي كانت على طراز الأبراج البابية، ذات السّلالم، والذي يبلغ ارتفاعها 328 ياردة<sup>(1)</sup>.

لقد كان القوادم الأتراك قد انتهوا في عهد ابن المعتصم "الواثق بالله" (482- 847) إلى غاية في النّفوذ في بغداد حتى اضطر الخليفة أن يخلع على "أشناس" لقب السلطان اعترافاً له بحقوق يعدو نطاق إلهام العسكرية، حتى توفي "الواثق" أصبح هذا القائد مؤثراً بشكل يستطيع تصيب من يرغب له كخليفة للمسلمين، وقد نصّب محمد بن الواثق في بادئ الأمر، إلا أنه سرعان ما استبدل بعمّه جعفر المتوكل على الله، وهو بداية عهد جديد للخلافة العباسية.

(2) **بداية عهد الرجوع إلى السنة بخلافة المتوكل (847 - 861) أو عصر انحطاط**

### انحطاط الخلافة العباسية الأولى:

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل، وقد كان عهد خلافته طويلاً نسبياً، وموجباً للأسف، وما يتعلّق بهذا العهد من الوجهة السياسية هي سيادة الترك وقمع العرب وقمع الإيرانيين إلى حدّ ما، وكذلك رد الفعل الذي بدأ إزاء عقائد المعتزلة التحريرية وميول الخلفاء السابقين الفلسفية، والنزور والكراهية التّاجمان عن التعصّب لعلي وشيعته، واحتلال التّرك من الجنود المنتقمين المشوشين مكان البرامكة وسائر الإيرانيين ذوي الأصل العريق.

(1) كارل بروكلمان، "المصدر السابق"، ص 211.

إن هؤلاء الجنود هم في الأصل العبيد الذين أسرهم في الحروب الدينية ضد القبائل التركية المُلحدة على حدود خراسان (تركمانستان حالياً)، وتطبق أسماءهم الوحشية تماماً على أعمالهم المهجية التي ارتكبوها، مثل بُغا (بمعنى الثور)، وبغا الصغير، وبغا الكبير، وباجر، وأنامش الذي وصل إلى الصدارة بعد قتل المتوكل بعامين أو ثلاثة، وبيايك، وكلبتكين، وأمثالهم.

ومع أن أمثال هؤلاء الجنود المأجورين قد اتخذوا لهم أسماء عربية فإن أصلهم ونسبهم يكشف حقيقتهم، فوصيف مثلاً، وهو أحد رؤساء المتآمرين الذين قتلوا المتوكل اسمه كاشف، وقد كان في الأصل خادماً<sup>(1)</sup>، ويقول موير<sup>(2)</sup>: "لقد ظهر تعصب المتوكل المذهبي ضد التشيع بصفة خاصة، وبدأ ضد اليهود والنصارى في كل القوانين والقرارات الغير مستقرة، وكان تعصبه هذا يُعادل تماماً ميله الطبيعي للترك، ولهذا تجد تشبيهه بسلطان أسود القلب متعصب من سلاطين العثمانيين، ومختلفاً عن سابقيه كالمنصور والمأمون أمراً طبيعياً".

لقد تصرف مع الشيعة على نحو نجم عنه سفك دم العديد منهم، ومن جملة من قتلهم معلّم أبنائه "ابن السكين"، العالم النحوي المشهور (857)، وعيسى بن جعفر، فقد تم ضربه أمام الخليفة وبأمره (855) إلى أن أسلم الروح، وبدلاً من أن يوارى جسمه الثرى، ألقى به في نهر دجلة، وبهذا العمل وجهة إنذاراً (وفق تصوّره) لأهل البدع والضلال ممن يعادون جماعة المؤمنين<sup>(3)</sup>.

بالإضافة لإراقة دم الشيعة وعدوانه لكبار أئمتهم، فقد وضع اليهود والنصارى موضع احتقار وإذلال، بعد أن كانوا موضع احترام الخلفاء السابقين، ففي أوائل خلافته (850) وبعد ثلاثة سنوات أصدر أمره ضدهم لأول مرة،

دويزي "Supplement aux Dictionnaires Arabes", P-810. (1)Dozy.

(2) موير "الخلافة الإسلامية"، ط2، ص525.

(3) تاريخ الطبري، ج3، ص1424-1426.

وألزمهم أن يلبسوا طيلساناً عسلي اللون، وأن يضعوا شارات ملوّنة وقتنمسة، وجزاماً على شاكلة السنّلة، وأن لا يركبوا سوى البغل والحمار الأسود، وأن يختاروا عربات خشبية وسرج ذات رسومات عجيبة، وأن يعلقوا تصاوير الشيطان على أبواب منازلهم، وقد حُطمت معابدهم الجديدة البناء، وأخذت شكل المسجد، وقد صدر الحكم بأن يكون سطح الأرض قبوراً لهم، ولم يكن مسموحاً لأطفالهم أن يتعلموا العربية والعلوم الأخرى لدى المعلمين المسلمين<sup>(1)</sup>.

### (2-1) العصر العباسي الثاني:

في عام (861) قُتل المتوكل أثناء سكرة بيد حرسه من الترك وبتحريض من ولده "المنتصر" الذي لم يعيش أكثر من عام بعد قتل أبيه، وقد بلغ مجموع سنوات حكم هذا الولد -قاتل أبيه- وثلاثة ممن خلفوه -وهم "المستعين" و"المعتز" و"المهتدي"- تسع سنوات فقط، وقد قُتل الثلاثة الذين وردت أسمائهم -المستعين والمعتز والمهتدي-، بصورة غاية في الوحشية والبشاعة على يد الأتراك الذين كانوا آنذاك في أوج اقتدارهم، وقد أبدى المهتدي روحاً أعظم وأسمى لمساندة العرب غير أن الأجنبي كانت لهم آنذاك الغلبة والتفوق من جهة العدد والانضباط<sup>(2)</sup>. لكنه على أي حال قد حاول بتعقل أن يخمد كبرياء هؤلاء المأجورين، ويقضي على نخوة هؤلاء المدعين سفكة الدماء، وعلى اندافهم وقسوتهم، وقد استفاد خليفته بشتى الطرق من ثمار مساعيه وجهوده.

وفي هذا العصر المضطرب بالهياج، ونتيجة لنشاطات يعقوب بن الليث الصفار من تأسيس دولة جديدة في إيران باسم الدولة الصفارية، وقد بدأت منذ ذلك العصر تتمكك الدولة العباسية إلى دويلات متعددة، نتيجة لضعف المركز،

(1) موير "كتاب الخلافة"، ص521.

(2) موير "كتاب الخلافة"، ص535، المصدر السابق نفسه.

وعدم قدرة الإدارة من تطوير نفسها بشكل يسمح من السيطرة على كل أركان الامبراطورية الواسعة، بالإضافة إلى صعوبة المواصلات والاتصالات في ذلك العصر، وكل المناطق غير العربية بدأت تبحث في إحياء قوميتها من خلال السيطرة والاستحواذ على الأراضي التي تقطن فيها، وقد بدأت أولاً في إيران، تلك البلاد الواسعة التي شعرت بالغبن والتفويض عن صنع القرار منذ فترة طويلة، خاصة وقد كانت تلك الأمة تتزعم الامبراطورية الساسانية قبل دخولهم الإسلام، وكان لديهم فكر وديانات قديمة عريقة مما جعل أمر سيادة العرب عليهم أمراً غير مقبول من وجه نظرهم.

ثاني حدث كبير حصل في هذا العصر، هو ثورة الزنج، تلك الثورة التي سببت الفزع والاضطراب البالغين لعاصمة الإسلام مدة أربعة عشر عاماً (869-883)، ومكان وقوع هذا الحدث وظهور هذه الثورة العنيفة، - التي كالتت بالنجاح لفترة طويلة - هو المستنقعات (الأهوار) الواقعة بين البصرة وواسط، وكان زعيم هذه الثورة هو "علي بن محمد (من أهالي وريزن -قرب الري- إيران)، وهو من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وقد أعلن تمسكه بمبدأ الخوارج<sup>(1)</sup>.

أما من ناحية مشاهير الكتاب والأدباء الذين اشتهروا في ذلك العصر فهم: أبو حاتم السجستاني (ت 864)، والجاحظ (ت 869)، والبخاري (ت 870) جامع الأحاديث الشهيرة المسماة باسمه (صحيح البخاري)، كذلك مسلم النيسابوري صاحب كتاب (صحيح مسلم)، والترمذي، والنسائي، وغيرهم.

والآن نصل إلى عام (873-874)، وهو العام الذي حصلت فيه أحداث مهمة كالاتي:

(1) Noldke, Sketches from Easter Hestory (P-146-175) تولدكه



أولاً: غيبة الإمام الثاني عشر في مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكان ذلك حدثاً كبيراً بالنسبة للشيعة وضعتهم في حيرة كبيرة، وأدت بهم إلى الكثير من الانقسامات الفكرية، رغم توصيته بالرجوع الى اربع مراجع ككتاب عنه.

ثانياً: بداية تبليغ الإمامية السبعية أو الإسماعيلية التي تُعد إحدى فرق الشيعة والتي انتهت مباشرة بقيام القرامطة، وتأمين الخلافة المناهضة للعباسيين، أي خلافة الفاطميين في شمال أفريقيا ومصر<sup>(1)</sup>.

ثالثاً: استقرار الأسرة السامانية في خراسان، ورحيل العارف الكبير "بابزید البسطامي" عن الدنيا، وولادة "أبي الحسن الأشعري" (أحد علماء الدين)، الذي تسبب في توجيه ضربة قاصمة قاضية إلى نُصُوذ المعتزلة، وتفوقهم في العالم الإسلامي، وأفلق في تشكيل عقائد من كانوا يملكون محيط فكر أضيق، ويمارسون قدراً أكبر من التعصب، وادخلنا في مرحلة فيها الدين الإسلامي ديناً ثابتاً يتصف بالشدّة والصلابة، وسوف نتحدث عن هذه الأزمة الدينية في مكان آخر من البحث.

لقد استمر الحُكم في سلسلة سامان حوالي 125 عاماً تقريباً في إيران والجانب الشرقي للأمة الإسلامية، إلى أن قوى الغزنويون واستطاعوا إسقاطها<sup>(2)</sup>.

لقد كان السامانيون في إيران بعد موت الخليفة المعتضد وجلس ابنه المكتفي قد بلغوا ذروة قوتهم، بينما ثبت طائفة القرامطة المخيفة بقيادة (زكرويه) الخبير الكفوء أقصى درجات الرُعب في القلوب في انحاء بغداد والْبصرة، وفي سوريا واليمن. ولا يمكن أن يُقال أن هذا الرُعب لا أساس له، لأنه

(1) أنظر أبو الحسن محمد النوبختي "فرق الشيعة"، النجف (1936)، وكذلك محمد رضا المظفر "عقائد الإمامية"، القاهرة (1961).

(2) إدوارد براون "المصدر السابق"، ج 1، ب ب / 3، ص 216. لتجد فيها تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع.

في إحدى الغارات التي تعرّضت لها قافلة من قوافل الحُجّاج، وفي أثناء عودتها من مكة، كان عدد أجساد الموتى التي بقيت ملقاة في الصحراء (كما يقال) عشرين ألفاً<sup>(1)</sup>.

يقول أبو منصور الثعالبي في كتابه "الطوائف والمعارف"<sup>(2)</sup>: (من أعجب الحروب حريان: الأولى هي نفس المعركة التي دارت بقوة الصفارين، واستطاع فيها الجيش المكون من 50 ألف محارب أن يلوذ بالفرار على الرغم من هزيمته، ونجا فيها كل الجنود ولم يقع في الأسر سوى قائد الجيش وحده، والثانية هي المعركة التي وقعت بين "العبّاس بن عمرو" والقرامطة في هجر، والتي هلك فيها جنود "العبّاس بن عمرو" كلهم وعددهم عشرة آلاف وفرّ قائد الجند وحده).

ونصل إلى فترة خلافة المقتدر، وهي فترة طويلة نسبياً (908 - 932)، وأهم حدث سياسي فيها هو استقرار الأسرة الفاطمية أو الإسماعيلية في شمال إفريقيا، وهي التي قامت ضد الخلافة العباسية، وقد اتخذت هذه الأسرة "المهدية" عاصمة لها (يقصد عبيد الله المهدي أول خلفاء هذه الأسرة)، وقد استمر نشاط القرامطة، ولم يتوقف على الرغم من وفاة زعيمهم زكرويه والجنابي الأكبر، ودخلوا البصرة عام (924)، وفي العام التالي، أغاروا ثانية على قافلة الحج، ثم سيطروا على مكة نفسها عام (929)، وحملوا معهم الحجر الأسود، وأبقوه في ديارهم 20 سنة، وأثاروا بين كل المؤمنين الرعب والثُفور مما يعجز البيان عن وصفه.

وفي السنوات الأخيرة من خلافة المقتدر، دخل القرامطة الكوفة، وسيطروا على عمان، إلا أن نشاطهم في تلك الأثناء بات محدوداً، ولم تكن تلك المحدودية اعتبارية، بل كانت فضيحة ظهور المهدي الكذاب سبباً في انتهاء نشاطهم.

(1) ادوارد براون، المصدر السابق، ص223.

(2) أبو منصور الثعالبي "الطوائف والمعارف"، طبعة De long، ص88.

والمهدي المدعي هو ابن أبي زكريا<sup>(1)</sup>، الذي ذكر أبو ریحان خلاصة تعليماته الكريمة والمثيرة للنشأوم المنذرة بالنحس في كتابه "الأثار الباقية"<sup>(2)</sup>، وكان القرامطة بعد ذلك بعدة سنوات يأخذون من زوار مكة مبلغاً بصفة "خفارة" (ضريبة طريق)<sup>(3)</sup>.

وسقطت الأسرة الصفارية تماماً بحدود عام (910)، وأن طاهر ويعقوب حفيدي عمرو قد وقعا في الأسر وأرسلوا إلى بغداد، بينما ورث نصر الثاني العرش، والتاج الساماني وتوفي عام (942).

ولابد أن نذكر أن المقام الأول بين علماء هذا العصر كان بدون شك لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت932)\* صاحب كتاب التاريخ الكبير. يقول ابن الأثير: (وُلد هذا المؤرخ عام (839)، ودفن في منزله ليلاً لأن جمعاً من الناس تجتمعوا وقالوا: أنه كان رافضياً (من الشيعة)، بل كان مُلحداً حسب اعتقادهم، وعارضوا دفته في النهار)، كما عاش في ذلك العصر الحسين بن منصور الحلاج، الذي حصل على شهره وطيده في التصوف، وقد قبض على ابن منصور في عام (913) بسبب تعاليمه المبتدعة التي شاعت في بغداد وضواحيها<sup>(4)</sup>، وقتل في عام (921) بقسوة بالغة، وما علق بالأذهان من الاتهام الذي وجه إليه هو أنه حال الجذبة كان يصرخ: "أنا الحق"، ويرى الصوفية أن قوله هذا ناجم عن الوجد والحال، فإن العارف في حال شهود جمال الحق يغيب عن نفسه، ولا يرى كل ما

هنضع علامة الحرف ت وتعني سنة الوفاة فقد جرت العادة في العالم الاسلامي في ذلك الحين أن لا يعبروا إهتماماً بالميلاد لأي شخصيه كانت وتاريخ الوفاة هو المعول عليه.

(1) دوخويه "قرامطة البحرين"، ص131.

(2) "الأثار الباقية عن القرون الخالية" أبو ریحان، ترجمة زاخو، طبع ليبترج (1982)، ص 197-196.

(3) دوخويه، المصدر السابق، ص140.

(4) الطبري "التاريخ"، ج3، ص2289.

في الوجود من مظاهر خارجيه وحقائق. ويرون أن ذنبه هو أنه أفضى الأسرار وأبداها ويعتبرونه أحد القديسين والشهداء. وقد ترك وراءه العديد من المؤلفات والرسائل الهامة<sup>(2)</sup>.

ومن الشعراء "أبن علاف" (ت930)، من أصدقاء ابن المعتز، قُتل ظلماً ولم يتمكّن النَّاس من إقامة العزاء له علناً عند موته<sup>(1)</sup>. وهو من أشهر علماء المعتزلة في طورهم الثاني.

وقد نال منصب الخلافة بعد المقتدر -خلال مدة قصيرة- أربعة خلفاء هم: القاهر والراضي والمقتضي والمستكفي (932- 946)، وتلقّت قوة آل بويه وسيطرتهم النظّر إلى حد كبير، وقد ورد الحديث عن بداياتهم، وبفضل مُساعدة عسكر الديلمي والكيلاني، فإن أولاد بويه الثلاثة، أي عماد الدولة، وحسن ركن الدولة، وأحمد معز الدولة، أدخلوا في طاعتهم أصفهان وأرجان ونو بندجان، وكازرون وشيراز وكرمان والأهواز واحدة بعد الأخرى.

وقد سيطروا أيضاً على بغداد خلال المدة القصيرة التي تولى فيها المستكفي الخلافة، وقد منح المستكفي أخاه الثالث منصب ولقب أمير الأمراء<sup>(2)</sup>، وكان البويهيون إيرانيون وشيعية، وقد اشتهروا في ترويج العلم والأدب وحماية العلماء بسخاء وكرم، وقد وجدت الفلسفة على الأخص روحاً جديدة في ظلهم، بعد أن تعرّضت للخنق إثر تصوق الأتراك قبلهم (أيام المتوكّل وما بعده)، وتعبّص الحنابلة، وازدياد قوة الأشاعره (أصحاب أبو الحسن الأشعري)، واتساع محيط انتشارهم، وسرعان ما ظهرت من وسط دائرة أهل المعرفة جماعة متأخية غاية في

(1) ابن خلكان، المصدر السابق، طبع دي سلان، ج1، ص400- 401.

(2) أو "الخلافه الاسلاميه" لين ص144- 139. "Mahamedin Dynasties" Lane (2)  
(2)ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء الثاني المجلد الرابع ترجمة محمد بدران (13- 14)لجنة التأليف والترجمة -جامعة الدول العربية -القاهرة- ص214.

الأهمية تُسمى (إخوان الصفا) في البصرة، وقد لخصت العلوم الطبيعية وعلوم ما وراء الطبيعة (ميتافيزيقيا) الشائعة في ذلك العصر، في إحدى وخمسين رسالة. تُرجمت تلك الرسائل ضمن دراسات مُتعددة، وأصبحت في متناول يد الأوروبيين، وبالتالي ساهموا في نقل الإرث الحضاري البشري بين الأمم والحضارات المختلفة. وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الالحاد فحرقوها عام(1150)<sup>(1)</sup> ولكن رغم هذا ظلت تتداولها الأيدي، وكان لها أثر شامل وعميق في الفلسفة الإسلامية واليهودية، وهم مجموعة تنتمي إلى المذهب الاسماعيلي.

نصل إلى فترة خلافة المطيع الطويلة (بعد المستكفي) (946- 974)، فقد حصلت فيها تغييرات قليلة، إذ كان آل بويه يحكمون بغداد بصورة فعلية باسم أمير الأمراء، وفي السنوات العشر الأخيرة من هذه الفترة سيطر المعزّ (أبو تميم) على مصر، والمعز هو أحد الخلفاء الفاطميين الذين أسسوا الخلافة المنافسة المعارضة.

وقد نقل المعز عاصمته من المهديّة إلى القاهرة، فكانت القاهرة من وقتها حتى انقراض تلك الأسرة عام (1171)، مركز القوة ومقر الحكم والنفوذ الإسلامي تقريباً. ففي نفس الفترة شبّ نزاع بينهم وبين القرامطة الذين كانوا يظاهرونها من قبل.

وفي حدود عام(971)، عقد القرامطة عهد اتحاد حتى مع العباسيين، ومن مشاهير العلماء والحكماء في ذلك العصر هم أبو نصر الفارابي (مات عام 950)، وعالم الجغرافيا أبي زيد البلخي، والشاعر الكسائي، وكذلك المسعودي المؤرخ الكبير صاحب كتاب "مروج الذهب" (ت 956)، والذي يقال أنه كان يعيل إلى

(1) ول ديورات قصة الحضارة (المصدر السابق نفسه) (ص207).

المعتزلة، كذلك الزمخشري (959) صاحب كتاب "الكشاف"، وغيره. كما ولد عام (961)، أبو منصور عبد الملك الثعالبي مؤلف "يتممة الدهر"، والعديد غيرهم. يتضح لنا أن كل فترة تاريخية يُصاحبها الهدوء يبرز في الطرف الآخر العلم والأدب والفلسفة، ولا يفوتنا أن نذكر أن الشاعر العظيم المتنبي توفي عام (965)، وقُتل أبو فراس الحمداني في الحرب عام (968)، وكذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب "الأغاني" في نفس الفترة تقريباً، ويُقال أنه كان عضواً في حاشية سيف الدولة<sup>(1)</sup>.

وتعد السنة الأخيرة من خلافة المطيع سنة مهمة، لأن شخصين مهمين قد ولدا فيها هما أبو العلاء المعري، وأبي ریحان البيروني.

أما في خلافة "الطايغ" (974-991)، فشهدت تلك الفترة ولادة الفيلسوف والطبيب الكبير أبو علي بن سينا، وفي عام (988) أُلّف أبو الفرج محمد بن اسحق النديم "الفهرست"، وهو واحد من أهم مصادر الدراسات التاريخية، والذي توفي بعد ذلك بستة أعوام، ولكن نهاية القرن العاشر التي اشتهرت في ميادين العلم والأدب والحركات المذهبية والفلسفية، قد بدأت معها من الجانب الآخر رجحان كفة أحد الأتراك، وهي فترة حافلة بالمخاطر بالنسبة للخلافة من جهة وحضارة الإسلام ومدنيته من جهة أخرى.

### (1- 8) العصر العباسي الثالث:

إن ظهور تركي آخر فجأة على مسرح الأحداث تتهي هذه الفترة تقريباً، وهذا التركي كان السلطان محمود الغزنوي الذي أبدى قوة لا حد لها، (تولى السلطنة عام (988) وتوفي عام 1030).

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص 240.

وقد بدأ "محمود" سلطنته في إقليم صغير كان قد ورثه عن أبيه "سبكتكين"، وأسقط الأسرة السامانية المزعزعة وحارب الهند 12 مرة، وجعل هذه البلاد مسرحاً لكرمه وفروقه وهجماته، وقد وجه هذا السلطان ضربة إلى آل بويه واستخلص أصفهان من قبضتهم.

لقد قتل محمود من عبده الأوثان عدداً يفوق الحصر، وخرب العديد من معابد الأوثان، وأدخل البنجاب في دائرة حكمه إلى الأبد، وسخر بلاد الغور، وضم ما وراء النهر إلى بلاده<sup>(1)</sup>.

يتضح مما تقدم أن التقدم العلمي والأدبي الحاصل في البلاد الإسلامية، وهي موارث مشتركة لكل الشعوب التي اعتنقت الإسلام، لم يكن لها حاضنة تحميها من هجمات القبائل المتوحشة المحيطة بها، وذلك يرجع للطبيعة الجغرافية المفتوحة دون حواجز منيعة رادعة لهجمات القبائل الهمجية، وكذلك عدم اكتراث الملوك والأمراء بتأسيس جيوش قوية قادرة على صد تلك الهجمات، ولم تكن كل تلك الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت على الكتاب والأدباء إلا قبل فتنة المغول في القرن الثالث عشر، ولم تكن الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت أثر هجوم المغول - قد حدثت بعد... لأن هذه القبائل الهمجية الكريهة كانت تلجأ إلى القتل العام حيثما حلت، وتُشعل النار في المكان - وبعد ذلك التاريخ لم تشغل علوم الممالك الإسلامية - في العصور التي تلت ذلك إلا بصورة محدودة، ولما كانت بغداد قد خربت، والخلافة قد زالت، فإنه لم يعد هناك وجود لأي مركز من مراكز الثقافة والعلم والمعرفة، ولا لأي مركز لتوحيد جهود العالم الإسلامي العلمية، وتمركزها والخلط بينها.

(1) ادورد براون، المصدر السابق نفسه، ص 246، ج 1، البابان الثالث، والرابع.

وهكذا نجد أن ولادة النهضة العلمية في البلدان الإسلامية قد تم وأدها وهي في المهد، بسبب تقشي العنف بها وعوامل الخوف والتشاؤم الذي لم يفسح لهم مجالاً لتأسيس قاعدة ومرجعية ثابتة يمكن لها أن تتطلق، وتؤسس لمجتمع متطور لا يتقبل العودة إلى الوراء.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الانقسامات المذهبية والطائفية التي ظهرت بعد غيبة الإمام المهدي، من الإسماعيلية (السبعية) والقرامطة. وكانت في الأساس تدعوا لدفع الغبن عن فئة كبيرة لم يصيبها شيء من الثروة التي استحوذ عليها بني العباس كما فعل قبلهم بني أمية. يقول رينه دوسو عن الإسماعيلية ما يلي<sup>(1)</sup>: "تسبب بعض المغالين في أن تكون هذه العقائد موضع نفور المتمسكين بالشرع من المسلمين، وهؤلاء أنفسهم هم قطعاً سبب إدانة تلك العقائد، أن علينا أن نعلم أن الإسماعيلية كانوا قد استعادوا الكثير من أحكامهم من المعتزلة، والمعتزلة ينكرون -ضمن ما ينكرون- صفات الحق، ويؤمنون بمبدأ الانتخاب والاختيار، ومع أن الإسماعيلية -من هذه الوجهة- لم يبتكروا شيئاً من عند أنفسهم إلا أن حكم علماء الغرب بشأنهم كان على ما يبدو قاسياً أكثر مما ينبغي. فإنه إن تخطى هذه الفرق في حق بعضها، فتعرض كلها مجتمعة لسبهام التوبيخ، كما يتعرض علماء الإسلام عامة للذم، لخطأ ولا شك".

ثم يمضي فيقول في نهاية الصفحة: "حتى تلك الفئة الإسماعيلية التي كانت تسمى "بالحشاشين"، لم تكن أول جماعة استفادت من هذه الحرية، حرية الفتك الذي هو القتل، ويدعى الآن الاغتيال، إنها الحرية التي استخدمتها الأقلية المظلومة ضد المظالم والظالمين -وطبقاً لما هو سائد- يوصف شيخ الجبل نفسه، بأنه لم يكن ظالماً مجرماً، وقد أطلق اللفظ أي الحشاشون أو القتل السفاحون

(1) رينه دوسو "تاريخ النصرية ومذهبهم"، طبع باريس (1900)، ص 49.



في الأصل على هذه الجماعة نفسها"، وسنأتي بالتفصيل عن هذه الجماعة في مكان آخر من البحث.

وعودة إلى التاريخ، ففي عام (930) قام القرامطة بأكبر عمل لهم، ففي الأيام الأولى توجه أبو طاهر في جيش مكون من 600 فارس و 900 من المشاة إلى مدينة مكة المقدسة، وقام بالقتل والسلب، وكما هي العادة آنذاك عمد إلى الأسر الجماعي، ومما أوقع الرعب في قلوب المسلمين الأتقياء، إن حمل معه الحجر الأسود\* وسائر الآثار المقدسة باعتبارها من التراث الوثني (حسب عقيدتهم)، ويقال أن ثلاثين ألف مسلم قد قتلوا في هذه الكارثة العظيمة، وأن ألفاً وتسعمائة شخص من القتلى قد استشهدوا في حرم الكعبة، وكان مقدار الفنائم التي نهبها عظيماً جداً، ولا يمكن وصف المشاهد التي اقترنت بهذه الأعمال النجسة الشريرة التي نجمت عن هتك حرمة الكعبة<sup>(1)</sup>، ولا داعي لأن نذكر تفاصيل بقية العمليات التي قام بها القرامطة، والتي تتمثل في السلب والقتل العام وتحصيل الضرائب من الزوار، تلك العمليات التي استمرت بلا انقطاع حتى وفاة أبو طاهر عام (944)، وكان أحد الخلفاء الفاطميين واسمه القائم أو المنصور، قد أصدر أمره إلى القرامطة بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لكن نزاعاً قد نشب بين القرامطة والفاطميين، بعد أن سيطر الفاطميون على مصر (969)، وقد ثار بعض القرامطة ضد رؤسائهم القدامى بموالاته العباسيين، وذلك بعد عام أو عامين من تلك الحادثة<sup>(2)</sup>.

(1) دوخويه، المصدر السابق، ص 104 - 113.

♦ أن رفع الحجر الأسود من الكعبة الشريف كان انطلاقاً من تمسكهم بمعتقدات المتصوف في ذلك العصر، من خلال الاتحاد مع الله، وأن الله ذات موجود في كل مكان وكل شين وبالتالي لا داعي للحج ولا لوجود رمز مادي كالحجر الأسود. للمزيد من التفاصيل أنظر كتاب قصة الحضارة لول ديورانت الجزء 13 صفحة 214 (التصوف).

(2) دوخويه، المصدر السابق، ص 399 - 401. وكذلك ص 177 - 178.

ويبدو أن القرامطة كانوا يجمعون بين مبادئ وقوانين متناقضة، بمعنى أنهم كانوا يعتقدون أن نبذ الإيمان أساس الخلاص والتحرر من القيود الأخلاقية، وكانوا يساندون نفوذ الناس وحكمهم، ويؤيدون السلب والنهب.

أما الفاطميون فكانوا يؤمنون بأمر الله، وسلطان رجال الدين وتقوذهم وحكمهم، وحسب رأي دوخويه: "كان حُكم الفاطميين يقوم على أساس العدل والإحسان"<sup>(1)</sup>، كما قيل فإنه لا يعلم جيداً ماهية الروابط التي كانت بين القرامطة والاسماعيلية، وهذه النقطة مبهمة قليلاً، ومع أن الخلفاء الفاطميين كانوا يُنكرون علاقتهم بالقرامطة أو يخفونها، لكن القرامطة كانوا يعترفون رسمياً بسيطرة الخلفاء الفاطميين الكاملة في شؤونهم المذهبية وغير المذهبية، لقد أخذت فرقة الاسماعيلية إسمها -قبل كل شيء- من إمامها السابع "إسماعيل"، لكنها كانت إلى جوار تلك التسمية تسمى بأسماء أخرى من قبيل السبعية، والتعليمية، والفاطمية، والقرمطية، والملاحدة، والحشاشين.

وسبب تسميتها بالتعليمية يعود إلى أنها كانت تعتقد أن التعليم الحقيقي يجب أن يؤخذ بواسطة الإمام وحده، وسبب التسمية بالفاطمية هو أنهم كانوا يؤمنون بأولاد وأحفاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجة علي بن أبي طالب، وسبب التسمية بالقرامطة هو أن حمدان بن قرمط (كان والده يوصف بالقرمط لقصر قامته)، وكان هذا داعيه فرقتهم ومبغها، أما الملاحدة فقد أطلقه عليهم أعدائهم، وكانت تسمية الحشاشين قد جاءت نتيجة لدعوة "حسن الصباح" وسوف نتحدث عنه بتفصيل أكثر في فقرة أخرى لاحقه.

إن عقلية هؤلاء القوم كثيراً ما كان محورها العدد "سبعة"، وقلماً كان محورها العدد "إثني عشر"، وياتت هذه الأعداد تطبق سواء في عالم الوجود أو في

(1) دوخويه "المصدر السابق" ص 177-178

بدن الإنسان، بمعنى أن السماء بها سبعة كواكب سيّارة، وإثنا عشر بُرجاً، وأن الأسبوع به سبعة أيام والعام فيه إثنا عشر شهراً، وأن الرقبة بها سبعة فقرات، والظهر فيه إثنا عشر فقرة، وقسّ على ذلك.

وينطبق على ذلك أيضاً السماوات السبع والأراضي والأقاليم السبعة، وفتحات الرأس والوجه (ثقباً الأذن، محجر العين، فتحتا الأنف والضم)، ويتمثل الفاصل بين الله وخلق الإنسان بسبعة خطوات استوى في السابعة على العرش<sup>(1)</sup>، ولا يستطيع الإنسان أن يبلغ الحقيقة اعتماداً على سعيه وجهده دون تأييد إلهي، وهو بحاجة إلى التعليم، ويجب أن يأخذه عن العقل الكلي، ويتجلى العقل الكلي في صورة الرسول أو الناطق وهو يعلمه في كل مرحلة من مراحل التجلي على التوالي الحقائق الروحية اللازمة لقيادة البشر وإرشادهم، بصورة أتم وأكمل، طبقاً لتحول فهم البشر وتكامله، ولا يتم ذلك إلا عن طريق من أوصى بهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ينتمي إليه نسبياً، وللبتوة سبع دورات، ست منها ترد على النحو الآتي: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وآخرون، وأما الدورة السابعة فقد بدأت بظهور محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق القائم أو صاحب الزمان، وتظهر عقيدة الباطنية التي هي حالة الأنبياء الحقيقية والقلبية والكيفية الداخلية، والمفهوم الواقعي للشريعة لأول مرة في تلك الدورة، ولكل واحد من الأنبياء أو الناطقين سبعة خلفاء، أو أئمة صامتون ويلقبون بالأساس أو السوس (بمعنى الجذر) والسوس هو جليس الناطق المقرب، ومحرم أسراره ومخزن تعليماته الباطنية<sup>(2)</sup>.

(1) ادورد براون، المصدر السابق، ص 300.

(2) Sylvester de Sacy "Expose" المجلد الأول، الملاحظ من التفاصيل انظر الكتاب،

## (4) شكل النظام الإداري والمالي العباسي:

لم يستطع النظام العباسي الجديد بالرجوع بالنظام المالي إلى ما كان عليه الحال من بساطة في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد الخلافة الراشدة، فلم يدخل أي تغيير على نظام الخراج، ومع ذلك فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة، فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون، إنما يرجع أصلاً لعرب العراق الذين ناصبوا الأمويين في الشام العداء، وكانوا بذلك دُخِر الدولة العباسية وسيقها المصلت في بداية الأمر<sup>(1)</sup>، أما البدو من العرب فقد أبعُدوا إلى الصحراء بعد أن يتسوا من تطويرهم وتكليفهم، كما أبعُدوا كذلك عن الجيش الذي تألفت صفوفه من الخراسانيين فأقبلوا ينخرطون في كتائبه، وأصبحوا العنصر الفني فيه، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها، وتأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية هي بغداد، وقد انتقل معظم السكان في المدن الأخرى إلى العاصمة الجديدة، ونقلوا معهم عاداتهم وأعرافهم، وهكذا زالت سيادة أهل الشام وذهبت سيطرتهم على أرجاء العالم الإسلامي مع ذهاب سيطرة الدولة الأموية، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة من الشام (دمشق)، القريبة من البحر المتوسط، إلى بغداد، الأقرب إلى المحيط الهندي وبحر العرب.

إن انتقال المركز الإداري في ذلك العصر من مكان إلى آخر والذي كان من سمات الامبراطورية الإسلامية له آثاره الكبيرة على سياسة وسيرة تلك الدولة في كل فترة من خلال المؤثرات البيئية والمواريث التاريخية المتأصلة لأهل المنطقة والتي تنعكس بالتالي على سيرة الخلفاء وقراراتهم المهمة وبالتالي مستقبل النظام ككل.

(1) أدوارد بزيوي "تاريخ الحضارات"، ج2، القرون الوسطى، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1986، ص125.

## 5- أسباب الاضطرابات والثورات في العصر العباسي:

لم يستطع هذا النظام من أن يحلّ كل المشاكل العارضة أو أن يزيل أسباب شكوى الشاكين، أو الناقمين التي قامت عليها ثورة العباسيين، واستولت على السلطة على أساس أنها سوف تحل كل تلك المشاكل التي واجهت الدولة الأموية من قبل.

فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تقف شيئاً من حدتها إذ لم يؤخذ شيء من أصحاب الأملاك الكبيرة عرباً كانوا أم أجنب، لإرضاء هذه الطبقات أو للحد من المعارضة الدينية للدولة الجديدة.

إن عملية الإصلاح لا يمكن أن تتم بمجيء حاكم قوي دون أن يكون له حزب سياسي يمتلك الايديولوجيا والمنهاج المتكامل للتغيير مستنداً في ذلك على تأييد أغلبية كبيرة من أبناء العامة، فكيف يمكن أن يحصل التغيير لمجرد انتقال السلطة من بني أمية إلى بني العباس، وتغيير مركز السلطة من دمشق صاحبة الإرث البيزنطي إلى بغداد القريبة من المشرق الساساني؟ وكيف يمكن أن يرضى الشيعة مثلاً عن عهد ليس رجاله القائمون على أمره من أولاد الأمام على بن أبي طالب؟ وهكذا بقيت الحزبيات والعصبيات راكمه تحت الرماد أو أنها انبثقت من جديد تحت مظاهر وأشكال جديدة، تظهر بشكل ثورات وانتفاضات كلما تهيأت لها الظروف بذلك<sup>(1)</sup>، وإذا كان الإيرانيون هم وقود ثورة بني العباس في خراسان، والتي أوصلتهم إلى السلطة فبقوا على تشكياتهم يتدمرون بمرارة. ولعلمهم قوبلوا بشيء من الأسف والحسرة، بروز بعض الأعراب الذي ساعدهم انتصارهم على الظهور فسارعوا بعد أن تمت لهم الغلبة للتخلص من بطلهم بالقضاء على أبو مسلم الخراساني الذي أمن النصر للعباسيين.

(1) يشار إلى الثورات والانتفاضات في أغلب كتب التاريخ بالفتن ويشيدون بالخلفاء الذين يقضون عليها.

لأن كل هذه الأمور تبقى غامضة مبهمة مجهولة تصعب معرفتها بالتفصيل المرتجى إلا أنها واضحة في خطوطها الكبرى، بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً أن هذا الغليان الفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي هباً للثورة العباسية لم يهدأ بعد أن تمت له الغلبة وحقق النصر، وهكذا نجد في التاريخ أن العباسيين لم يواجهوا استقراراً سياسياً في بداية الأمر وانقسمت الخلافة إلى ثلاثة مراحل على الأقل كانت المراحل الأولى منها تشهد اضطراباً وعنفاً ربما يكون أكثر مما كان عليه الحال في العصر الأموي، هذا الاضطراب الذي ضرب سرديّة عالياً في كل مكان:

1- في إسبانيا استطاع أحد الأمراء الأمويين بعد أن نجا بنفسه من المذابح التي أعدها لهم العباسيون، أن ينشئ له دولة مستقلة عن الدولة العباسية في المركز.

2- في المغرب كانت هناك نزاعات مع الخوارج نتيجة الصعوبات الناجمة عن الأتجار مع بيزنطية، وفي سوريا التي لم تغفر العهد الجديد اغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها وانتقالها إلى عدوّها التاريخي من أهل العراق، ومما هو أوقع مدلولاً من هذا كله، الاضطرابات التي شجرت في إيران نفسها، حيث نرى إطلاله لمظاهر دينية ومطالب أدهى وأكثر تعقيداً.

وملخص القول فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وأرمينيا وما إليها من سكان سوادهم يعيشون في جوانب الإسلام في هذه المناطق الجبلية التي تُشرف على بحر قزوين، تبقى أبداً في غليان من جراء الدعوات الدينية المتتالية التي أدت إليها بعض التعاليم الدينية الإسلامية وتصادمها مع ما هو مترسّخ في عقول الناس في تلك المناطق من الديانات المانوية والزرادشتية والمزدكية، هذه القوالب الدينية التي ابتمت إلى الديانة الإسلامية في باديء الأمر ولكنها تبقى تحنّ إليها دوماً وبشكل خاص نفوس الطبقات الفقيرة والشعبية في إيران القديمة لما تجد فيها

من طقوس وتقاليد وتعاليم وتجدها أقرب إلى قناعاتها الباطنية من التعاليم الإسلامية في تلك المرحلة التاريخية بالذات والتي لم يكن للإسلام من وسائل إيضاح وشروح بلغات تلك الأقوام تكفي لاستيعاب الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، بفترة زمنية قصيرة.

وهكذا كشفت هذه الأقوام عن وجود معارضة قوية، قومية واجتماعية انتصبت في وجه هذه الأوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها، في المجالين الديني والسياسي بمصير العباسيين، ومن أعماق بعض الانتفاضات انطلق عجاج المطالب الصاخبة، فرددت أصداؤها طبقات الفلاحين الرأزحين تحت جور كبار الملاكين، فراحوا ينزلونهم وفقاً لنزعتهن الدينية منزلة الغريب المغتصب.

ولعل أشهر هذه الثورات تلك الثورة التي قام بها الخرمية وانطلقت من مبدأ الخير والشر وأقرت عبادة أبي مسلم الخراساني، وقالت بتناسخ الأرواح والإباحية الجنسية، وباستواء الأديان جميعاً، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية. والعرقية وعلى أساس إنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الأخرى وقد عرفت تلك الدعوة "بالشمعية" في ذلك العصر.

وقد ذكرنا سابقاً عن حركة بابك الخرمي على سبيل المثال، فبعد أن هُزم بابك الخرمي في مطلع القرن التاسع في أذربيجان، انضمت بعض فرقهم فيما بعد إلى الثورة التي قام بها مزيار<sup>(1)</sup>، وإذ ذاك أصبح الفلاحين يهاجمون الملاكين من العرب في هذه الأقطار الجبلية الواقعة جنوب بحر قزوين مهاجمة قاسية جداً، وبعد أن سيطر الخرميون وأتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة لفترة من الزمن، انهزموا شرّ هزيمة في عهد المعتصم على يد قائده "الأفشين"، كما ذكرنا سابقاً

(1) من تاريخ الحضارات، ج2، المصدر السابق، ص131.

إلا أن إبادتهم لم تود قط، إلى آية تهدئة في المعارضة التي أخذت تعتمد منذ ذاك على عناصر إسلامية خارجية.

صحيح أن العباسيين خرجوا من المعمة ظافرين كاسبين، إلا أن للمجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هذه التغييرات العسكرية التي أفضت بهم إلى الهاوية بعد حين.

إن العنف السياسي في عصر الدولة العباسية يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أشكال:

1- حوادث القتل البشعة التي حصلت بين الخلفاء والأمراء العباسيين أنفسهم من أجل الاستحواذ على السلطة.

2- الحركات السياسية المعارضة من ثورات وانتفاضات ناجمة عن مطالبية مستضعفين يحقوقهم وعدم حصولهم على درجة الرضى من السلطة، ويسمي بعض المؤرخين تلك الحركات (بالفتن) حسب انحيازهم لهذه القضية دون أخرى.

3- حركات الجيوش والسلطات الأمنية في قمع المعارضة وكل ما هو خطر عليهم وأعمال الاغتيالات وأحكام القتل والغدر للمفكرين والعلماء ولأصحاب البدع والأفكار الغريبة التي كانت قد نشأت هنا وهناك.

لقد وجدنا تفاصيل عن كل تلك الأحداث الدموية في العديد من المصادر التاريخية التي تتمتع بقدر كبير من الموضوعية مثل كتاب هادي العلوي في هذا الخصوص<sup>(1)</sup> ننتمي قسم من تلك الأحداث وغيرها، في الفقرة الآتية لكي نعطي نماذج من أشكال العنف السياسي الذي مورس في العصر العباسي الذهبي، والذي قد يفوق ما شهدناه في الفصل الأول من البحث .

(1) هادي العلوي "الاغتيال السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط4(2004).



## 6- الاغتيالات في العصر العباسي على يد السُلطة:

(1-6) اغتيال إدريس بن عبدالله من أحفاد الحسن بن علي:

الذي شارك في تمرد قادة أحد أبناء عمه بالحجاز في خلافة موسى الهادي أخ الرشيد، حيث هرب بعد سحق التمرد إلى مصر، ومن هناك واصل سيره إلى المغرب.

حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين، انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في إفريقيا، وكانت حركة إدريس الثاني حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الاندلس بزعامة عبدالرحمن الداخل، وقد ارتأى الرشيد الجوء إلى المكيدة لضرب إدريس وحركته، بدلاً من استخدام القوة العسكرية ويتفق معظم المؤرخين على أن إدريس مات مسموماً، وذلك عن طريق شخص مُرسل من الرشيد، وُدس إليه السُم عن غفلة<sup>(1)</sup>، ومات إدريس وكافأ الرشيد ذلك الشخص الذي دبر له هذه العملية بتعيينه موظفاً كبيراً في مصر.

وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعوانه حتى ولدت له ولداً سمّوه إدريس وتعهّدوه ليكون وريثاً لوالده، واستمروا في هذه الأثناء يُدبرون شؤون البلاد حتى بلغ الوريث سن الرشد، وقد استطاعوا بذلك صيانة الدولة ادارياً ومنعها من السقوط، فلم يتحقق للرشيد الهدف الذي كان يتوخّاه من اغتيال مؤسسها.

## (6-2) تصفية الوزير ثم ولي العهد:

بعد أن انفرد المأمون بالخلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان في خراسان استدعى الإمام علي بن موسى الكاظم (الرضا)، وهو الإمام الثامن لدى الشيعة،

(1) أبو الفرج الأصفهاني "مقاتل الطالبين"، القاهرة (1949)، ص489، (انفصل المخصص لإدريس عبدالله).

وقرّر تعيينه ولياً للعهد، وقد سبب هذا الإجراء تمرداً في بغداد قاده عم المأمون إبراهيم بن المهدي، وتم فيه خلع المأمون ومبايعة إبراهيم بالخلافة، وكانت أخبار التمرد تصل إلى الوزير الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يريد أن يعالج الموضوع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير، فاضطر على موسى الرضا إلى مكاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجري في بغداد، ويبيّن له أن العباسيين وأنصارهم في بغداد قد خرجوا عن طاعته بسبب ولاية العهد، وأن الفضل يستر عنه الأخبار، وقرّر المأمون أن يتوجّه إلى بغداد لتدارك الأوضاع.

وفي مدينة سرخس كان الفضل بن سهل الذي رافق الخليفة في عودته يفتسل في الحمام، فشّد عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً، وكان المهاجمون من حشد المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل لمن جاء بهم جائزة قدرها عشرة آلاف دينار، فلما مثلوا أمامه قالوا: "أنت أمرتنا بقتله"، فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل شقيق الفضل، وكان معتمد المأمون في واسط<sup>(1)</sup>.

وقد بعث المأمون مع الرؤوس كتاباً يرثي فيه المغدور ويبكيه، ويخبر الشقيق أنه قد صيّر مكان شقيقه، ويبدو أن المأمون من سلوكه هذا أنه سياسي بارع من طراز معاوية، ورجل دولة دقيق الحساب، وبعد مقتل الفضل في سرخس، واصل المأمون سيره إلى بغداد فنزل في طريقه بمدينة طوس، ليقيم أياماً عند ضريح والده الرّشيد، وهناك مات ولي العهد فجأه (على موسى الرضا).

وقد وردت روايات عديدة تشير إلى أنه مات مسموماً بأكل العنب أو بأخذ ماء الرمان عندما شعر بألم في أمعائه، ولكن تسميم الرضا غير متفق عليه من قبل جميع الرواة<sup>(2)</sup>.

(1) أنظر الطبري "الكامل في التاريخ"، حوادث، 202م.

(2) أنظر الطبري "الكامل في التاريخ"، حوادث 203م.

## (6-3) مقتل المتوكل؛

قُتل المتوكل بتدبير من ابنه المنتصر وحاشيته التركية، فقد باغته المسلحون وهم أنفسهم من أفراد القصر في حجرته، وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات، ويعود سبب غدر الإبن بأبيه لأنه قدّم عليه في ولاية العهد أخاه الأصغر، بالإضافة للأسباب الرئيسية الأخرى في كون أن المتغلبين الأتراك في عهد المتوكل قد اشتد بأسهم، وأخذوا يتأهبون للانتفاض على الخلافة وانتزاع السُلطة الفعلية منها، وكان المتوكل قوياً مهيباً، والدولة في عهده لا تزال مُحفظة بوحدها وتكاملها المركزي، فلم يكن في ميسور أحد أن يتناول على سلطته، فدبروا خطة لاغتياله، وانتهزوا فرصة تأخير الإبن الأكبر لأداء المكيدة، والدليل على ذلك أنه بعد قتل المتوكل استخلف الإبن بقوة الحاشية التركية خلافاً لعقد الولاية، وبهذا تمت للأتراك السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة آخر الخلفاء الأقوياء، ويمكن اعتبار السيطرة التركيّة على الأمة الإسلامية قد بدأت بوادرها تظهر منذ ذلك الحين.

## (6-4) اغتيال أبو سعيد الجنابي؛

مؤسس الحُكم القُرمطي في شرقي الجزيرة العربية، حيث قتله خادمه في الحمام، ويقال أنه راود الخادم في الحمام فاضطر إلى قتله، وقد يكون الاغتيال نتاج خطة مدبّره في بغداد، لأن الخصم الأكبر للقرامطة يكمن هناك، ومما يُعرّز ذلك واقع الصراع الدموي بين العباسيين والقرامطة، ولم تترتب نتائج خطيرة على اغتيال أبو سعيد فقد استلم بعده ولده الأصغر أبو طاهر الذي واصل سياسة والده وبلغ فيها إلى مدى أبعد مما بلغه الوالد نفسه.

## (6- 5) اغتيال علي بن الفضل - الزعيم القرمطي في اليمن :-

حيث تقول الرواية أن "ابن أبي يعفر" شجّع هذا الرجل على ما جاء من أجله من العراق إلى اليمن، وتعهّد له أن يُشاطره ماله، وعلى هذا الأساس ذهب الرجل إلى المُذَيخِرة حيث يقيم علي بن الفضل، حيث استدعاه ابن الفضل ليقصد عرقاً له سقى مبضعه سماً وأعدّه لهذا اليوم، فلما فسد العرق التهب جسم علي فمات. وقد هرب الفاعل، ولكنه أدرك فقتل. أدى اغتيال علي بن الفضل إلى إضعاف الكيان القرمطي في اليمن ومع أن السلطة اشتدت، واشتدت بعده إلى ولده المُسمى "بالفأفأ" فإن الكيان لم يصمد أمام هجوم موحد من بعض العشائر اليمنية بقيادة ابن أبي يعفر، وقد استطاع المذكور أن يبسط سلطانه على معظم اليمن ويعيدها إلى الخلافة العباسية<sup>(1)</sup>. يمكن الاستدلال من أن مصير هذه الدولة كان مرهوناً بقيادة مؤسسها، وأن عملية الاغتيال هذه قد لعبت دوراً حاسماً في القضاء عليها.

## (6- 6) اغتيال أئب أرسلان :-

أما اغتيال السلطان السلجوقي أئب أرسلان، فقد اغتالته زوجته زمرد خاتون لكي تولّي ابنها الأكبر "تنش" السلطنة بعد وفاة والده الذي سمّته في عنقود عنب، وقد قام بعده الابن الآخر "بوري"، ولم يعجبها هو الآخر فألحقته بأخيه وأجلست مكانه "شهاب الدين بن بوري" لكي تضمن لها التحكم في السلطنة إلى أمد أطول.

كل هذه إغتيالات مارستها السلطة العباسية ضد المعارضة، أما المعارضة فقد مارست الاغتيالات التالية:

(1) حسين بن حمد العرش "بلوغ المرام"، القاهرة (1939)، ص 23. "كشفت أسرار الباطنية"، أخبار علي بن الفضل.

## (7) الاغتيالات على يد المعارضة:

اتسعت حركة المعارضة في الخلافة العباسية مع تقادم وتعمد الأزمان الاجتماعية في عموم المجتمع الإسلامي، وحصلت في أثناء ذلك تبدلات في مواقع وفصائل الفرق المعارضة، فقد استمر الخوارج من خلال تشعباتهم المعروفة بحرب أشبه ما يكون حرب عصابات قبل انحسارهم في رقعة جغرافية ثابتة.

أما القدرية فقد تطوّروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المعارض إلى عهد المأمون الذي تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة، وقد اشتركت المعتزلة في أوائل العصر العباسي في حركة مسلحة كبرى قادها إبراهيم بن عبد الله الحسين في البصرة، وكادت أن تقضي على الخلافة العباسية، لكنها فشلت، ولم يظهر لهم نشاط سياسي هام بعد ذلك.

وقد ظهرت الزيدية من الشيعة وقاموا بنشاط ملحوظ متراوحاً بين الشدة والخفوت حتى انطقت جذوره نهائياً بوصولهم إلى السلطة في اليمن، وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، بدأت الاسماعيلية الباطنية نشاطها السري الذي تطوّر إلى حركة كاسحة غطت العالم الإسلامي من مَشْرِقه إلى مَغْرِبِه، وكانت وسيلتهما العمل المسلح.

إلى جانب ذلك ظهرت حركات مُسلّحة أخرى أخذت شكل انتفاضات في أماكن معينة وعلى يد قيادات غير مُرتبطة بتنظيم فرق كان من بينها انتفاضة الرُّنَج في جنوب العراق، والبابكية "الخزمية" في أذربيجان، وقد واصل الخوارج أسلوب الاغتيال ولكن على نطاق ضيق، والعملية التي قاموا بها هو اغتيال القائد البارز "معن بن زائدة"، الذي كان من قوَاد الأمويين في أواخرهم، ثم انضم إلى العباسيين في عهد المنصور، وكان إرهابياً سفكاً عَيْنَه المنصور والياً على اليمن، وكانت قد وقعت فيها قلاقل، فقمعها بوحشية وأباد الكثير من أهلها،

ثم أرسله المنصور إلى سجستان، فأساء السيرة فيها، وهناك عزم الخوارج على تصفيته.

وكانت المجموعة الضدائية التي تكفلت بالعمل قد تنكرت في زي عمال بناء، وكان معن يبيّن منشآت في منزله، فدخل هؤلاء مع العمال وكانوا يدخلون إلى المنزل ويخرجون عند انتهاء ساعات العمل ينتظرون الفرصة المناسبة في أثناء ذلك، وعندما استدعى معن حجاجاً واختلى معه في غرفة ليحجم له، فأخرج الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حُجْرته وهتف آخر وهو يخبطه بالسيف: "أنا الغلام الطاقي"، نسبة إلى قرية سجستان تسمى طاق<sup>(1)</sup>.

وكانت الإسماعيلية قد ملأت الشّاغر الذي تركه الخوارج وقد لجؤا إلى استراتيجية العمل المسلّح في مرحلة الظهور، وقد تجلّى ذلك أول الأمر في انتفاضات كبرى هي التي تمخّضت عن الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا، والكيانات القرظية في العراق واليمن وشرقي جزيرة العرب.

لقد بدأت الإسماعيلية بإنشاء مواقع النفوذ ثم الكيانات لكنها انتهت إلى الاغتيالات، ويقترن هذا التحول عند الإسماعيلية بمقدمات دخولها مرحلة الأفول، متمنّئة في انحسار الخلافة الفاطمية في مصر، وشروعها في التدهور، وانكماش الحركة القرظية في شرقي الجزيرة ثم زوالها في أواخر القرن الرابع الهجري بعد أن صفت تماماً في العراق والشام، وهكذا يمكن القول أن استراتيجية الاغتيالات السياسية لم يكتب لها النجاح لأي حركة مهما بلغت من سموّ للأهداف فإنها تأول إلى الأفول في نهاية المطاف.

ومن الناحية الدينية الإسلامية، فإن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تحمل أبعاداً فردية وجماعية فإنها حسب تفسير الفقهاء، يتعين على

(1) الطبري "الكامل في التاريخ" حوادث سنة 151م، وفيات الأعيان ص703.

المسلم أن يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له ، وحسب شروطها وظروفها ، ومن ذلك استخدام السلاح سواء أكان هذا السلاح في حرب مكشوفة ضد السلطة ، أم أعمال قتل متفرقة.

وقتل الحاكم الجائر مبدأ إسلامي قديم ، فإن الإسلام لم يحرم الاغتيال السياسي ، وإنما حرم الاغتيال الشخصي فقط.

وهكذا نجد اعتماد العديد من الفرق الإسلامية المتطرفة في عصرنا مبدأ الاغتيالات السياسية كإستراتيجية عمل تبيحها الشريعة الإسلامية ، على أن التعليل الشرعي للاغتيال لا ينفي دلالة الإستراتيجية ، بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار التي أصيبت بها الحركة الاسماعيلية على سبيل المثال وهو من هذه الناحية تعويض عن فشل الثورة. ولو كان عند الاسماعيلية تعويضاً باهظ الثمن للمعسكر المعادي ، وقد ساعد في بعض حالاته على انتقال سلطة أو انتهاء كيان كما أعطى الاسماعيلية وهي في مرحلة تراجعها هيبة في عيون أعدائها جعلت لها حضوراً مؤثراً في الأحداث. أن الاحباط والفشل في تولي السلطة يدفع مثل هذه الجماعات بالتمسك بأعمال العنف كي تكسبهم هيبه واحترام الناس تعويضاً عن الفشل حسب المفاهيم السائدة عندهم.

### (8) اغتيالات باطنية<sup>(1)</sup> :

(8- 1) قتل المقتدر بالله العباسي: عاصر المقتدر نهوض الدعوة الاسماعيلية وتوطد دولتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب ، إغتيال المقتدر سنة (320هـ) ، حين كان يُحارب مؤنس الخادم المتمرد عليه ، وتوصف عملية الاغتيال بأن جماعة من المغاربة والبربر التابعة لقوة في ظاهر بغداد قد شهرها سيفوفهم عليه حين انهزم فقال: "ويحكم أنا الخليفة" ،

(1) المقصود بالباطنية هنا هي الحركات والتنظيمات السرية التي تشكلت من قبل الاسماعيلية.

فقالوا: "قد عرفناك يا سيفلة قد عرفناك أنت خليفة إبليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير"، (يشيرون في ذلك للمكافآت التي كان يعطيها لمرتزقة عن كل قتيل أو أسير بأسرونه). ثم ضرب أحدهم بسيفه على عاتقه فطاح على الأرض، وجلس الآخرون على صدره، وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنون. إن اغتيال المقتدر هو من أوائل العمليات الكبرى التي نفذها الإسماعيليين، لكن مردوده كان ضئيلاً لا سيما أن مركز السلطة الفعلية كانت حينذاك بأيدي أمراء الحرب الأتراك المتسلطين على الخلافة (السلاجقة).

(8- 2) اغتيال أمير حرب تركي عام (440هـ) أي بعد أكثر من قرن على اغتيال المقتدر، وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آف سنقر، وقد جرى قتله في كمين نُصب له في طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك في توقيف هذه الفئة والعناية بشؤونها، وكان اغتيال هذا الأمير فاتحة عهد لموجة الاغتيالات التي نفذتها الإسماعيلية على امتداد حوالي القرن والنصف، وهذا يأتي مع ظهور القبلاع الإسماعيلية في المشرق الإسلامي حيث أخذت الحركة بالانكفاء في مواقع تقوّد صغيره كانت تتطوّر منها لتنظيم الدعوة في الخارج، وفي هذه الحقبة من الزّمن اتخذ الإسماعيلية هدفاً آخر، حيث حدثت الحروب الصليبية، فقد صار الفدائيين الباطنيين مصدر رعب غير عادي لأولئك الغزاة، وكانت هناك حملة اغتيالات واسعة ضد الصليبيين.

(8- 3) اغتيال نظام الملك: وهو وزير مشهور في عصر السلاجقة، وكان بمثابة يد ضاربة للمعسكر السلفي الذي بدأ يستحوذ على العالم الإسلامي في ظل حُكم الأتراك السلاجقة، ويتكرس ذلك من خلال كتابة "سياسة تامة" الذي ضمنه البرنامج السياسي للسلطة، وتم قتل نظام الملك بسبب قتله



لنجار كان قد قتل مؤذناً من أهل أصفهان، كانوا قد عرضوا عليه الدعوة فلم يستجب، فخافوا أن ينم عليهم بعد أن كان قد عرفهم، وكان الذي تولى قتله نجار باطن، وقد قبض نظام الملك على النجار فأمر بقتله، فقتله تحت التعذيب، فقتل الإسماعيليين نظام الملك إثر ذلك.

وهناك روايات عديدة أخرى في أسباب مقتل نظام الملك حسب ما تحدث به ابن الأثير، وكان مقتل نظام الملك ضربة موجة لدولة ملكشاه، الذي توفي بعده بخمسة وثلاثين يوماً، فانحلت الدولة وعمتها القلاقل مما أعطى مُتفَسِّساً للإسماعيلية، وصان "قلعة الموت" من الاجتياح.

#### (8 - 4) مقتل ابن نظام الملك:

وكان يُدعى "فخر الملك"، اغتالته الباطنية سنة (500هـ)، ولم يُذكر سبب معين لقتله، أما طريقة قتله، فقد كان خارجاً من داره إلى دار النساء عند العصر، فسمع في الطريق صياح رجل مُتظلم شديد الرقة، وهو يقول: "ذهب المسلمون فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد مهوف"، فأحضر الرجل إليه فسأله عن أمره، فدفح إليه ورقة مكتوبة بمظلمته، وبينما فخر الدين يتأمل الورقة عاجله المتظلم بطعنة سكين فقضى عليه.

والثيرة في هذه العملية أن الفدائي الإسماعيلي حين قبض عليه، واستُجوب من جماعة من كبار المسؤولين، قال أنهم وراء خطة الاغتيال فأخذ هؤلاء وقتلوا جميعاً، ولم تكن لهم علاقة بذلك، وهكذا ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد.

#### (8 - 5) اغتيال الأمر بأحكام الله القاضي:

تولى الأمر الخلافة بعد والده المُستعلي الذي اغتصب الخلافة من أخيه الأكبر نزار بن المستنصر، وكان لنزار أصحاب من الإسماعيليين داموا على ولائهم له

واعتبروا المستعلي وابنه غاصبين، وكان من مرتكسات هذه الخلافة ظهور الطائفة النزارية (نسبة إلى نزار بن المستنفر) التي استعصمت فيما بعد، "بقلة الموت" تحت قيادة الحسن بن الصباح، وكان الأمر بعد أن اغتصب الخلافة لم يُحسن سياستها مما جعله معزولاً عن جمهور الدعوة مكرهاً من عامة الناس، فعزم النزارية على إنهائه، أما الطريقة التي استخدمت في اغتياله فتتلخص بما يلي:

خرجت مجموعة فدائية من عشرة أفراد إلى القاهرة، وبقيت هناك تتحين الفرصة لغرض الاغتيال، ومر وقت طويل نسبياً فتهاهى خبرهم إلى الأمر فاحتاط لنفسه وأخذ في تعقبهم، ولما فش أمرهم اجتمعوا للتداول، وكانوا يريدون أن يتأكدوا إن كانت السلطات في القاهرة قد استطاعت تشخيصهم، فاقترح أحدهم أن يقتلوا واحد منهم ويرموا رأسه في المدينة، فإن تعرفت عليه السلطات وجب على الباقي الانسحاب منها، فترددوا في بادي الأمر من هذا الاقتراح لكن الذي اقترح ذلك قال لهم أليس من مصلحتنا ومصلحة من تلزمننا طاعته أن نفعل ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: وما دلتكم على نفسي، وأخرج سكيناً وطعن بها نفسه فمات بين أيدي أصحابه، فأخذوا رأسه ورموه في الليل في مكان محدد، وفي الصباح خرجوا متفرقين ليستطلعوا الحال فوجدوا الناس يبحثون في شأن الرأس وصاحبه دون أن يعرفه أحد منهم، وأيقن التسعة أن السلطات لم تتوصل إلى تشخيصهم فاطمأنوا إلى الإقامة في المدينة لأداء ما كلفوا به، وجاء يوم أحب الأمر أن يذهب للنزهة في جزيرة تسمى الروضة، وكان عليه للوصول إليها أن يمر على جسر ممدود من القاهرة إلى الجزيرة، وكان من عادة الخلفاء أن يعلنوا نيتهم في الخروج بين الحاشية حتى يكونوا متأهبين لما ينبغي من الخدمة، فسرى الخبر إلى المجموعة النزارية، فسبقوه إلى الجزيرة وكان في قبالة الجسر قرن فدخلوه ودفعوا إلى القران دراهم واقره ليعمل لهم فطيره بسمن وعسل، فأخذ

الفران يخبز لهم وهم يأكلون، وكانوا في أثناء ذلك يتطلعون صوب الجسر حتى طلع الأمر منه، وكان الجسر ضيقاً ولا يسمح بمرور موكب فرأه منفرداً عن حراسه، فوثبوا عليه ومزقوه بسكاكينهم، ولكي يتأكدوا من الإجهاز عليه قفز أحدهم فركب وراءه وطعنه طعنات مميتة، وفي هذه اللحظات وصل الحرس إلى خليفتهم ولكن بعد أن كان قد انتهى غير أنهم أدركوا الرجال التسعة وقتلوهم.

### (8-6) - اغتيال أمر الحرب الإرهابي:

كانت مدينة الموصل شمال العراق قد خضعت لأمر الحرب الأتراك، الذين تداولوا السلطة بالوراثة أو التغلب. وكانت في ذلك الحين من مراكز النشاط الاسماعيلي، فتصدى لها أمراؤها الأتراك على طريقتهم، وكان أشدهم في ذلك أمير حرب متدين، يسمى قسيم الدولة آف سنقر البرسقي. يقول ابن الأثير<sup>(1)</sup>: "إن هذا الرجل قد تولى استقضاء الباطنية في الموصل"، ووصله خبر أنهم يجتمعون لدى إسكاف في درب إيليا، (من أحياء الموصل)، فقبض عليه واستجوبه فلم يخبره بشيء، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وعضوه التناسلي، ثم رجموه بالحجارة حتى مات، فترصد الباطنية لآف سنقر حتى وجدوا منه غفله وهو يصلى الجمعة، فانقض عليه بضعة عشر رجلاً منهم بالسكاكين، وكان منفرداً عن حراسه فقاتلهم بنفسه وجرح ثلاثة منهم، لكنهم استطاعوا القضاء عليه.

### (9) - التعذيب في العصر العباسي (2):

نأتي إلى العباسيين فتجد أكثرهم دموية، وهم المهدي، وإبنة هارون الرشيد قد عرفا بالتشدد في الدين، فالمهدي خاض في دماء المثقفين الذين مثلوا في عهده، منحه التتوير الإسلامي، بحجة مكافحة الزندقة.

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، حوادث سنة 520 م، (المصدر السابق نفسه).

وقُتل على يده صالح بن عبد القدوس، شاعر الحكمة والداعي إلى الرُّهد، قالوا أنه شطره نصفين بضرية واحدة على هامته، وعلّق جثته بنصفها في إحدى ساحات بغداد، وكان قد شاخ وأدركه العمى، وأعدم بشار بن برد جلدًا وقد بلغ السبعين من العمر. ويشغل المهدي مكانة خاصة عند رجال الدين بسبب سلوكة هذا، وذلك في ملاحقته للزندقة، التي تمت بدوافع سياسية لأنهم كانوا ضمن فئات المعارضة للعباسيين الأوائل كما أسلفنا سابقاً.

أن إدارة عمليات الملاحقة على يد المهدي بالذات قد تمت بدلالة خاصة مُستمدة من شخصية المهدي الذي عُرف بشدة الغيرة الدينية، وتُجسّد طريقة إعدامه صالح وبشار، حقد العباسيين الدموي على المتورّين، أما الرّشيد فقد عُرف بكثرة سفره إلى مكة لغرض أداء فريضة الحج، ويُقال أنه كان يحج سنة ويفرز سنة، وكان مولعاً بالمواظف فكان يستدعي الواعظين أمثال "أبو العتاهية" ليتلوا عليه من زُهدياته حتى يُبكيه، ويقول ابن الأثير: "أنه كان يُصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن قارق الدنيا"<sup>(1)</sup>.

ومن بين آخر أعمال الرّشيد إعدامه أحد الخارجين عليه في المشرق، ويدعى "بشير بن الليث"، وتبعاً لرواية الطبري في تاريخه، كانت طريقة إعدامه هذا الرجل تعكس روح العذاب الأخرى ونزعة القرينة التي كانت معمولة في الأزمنة القديمة في تقديم البشر قربانين للآلهة، فقد استدعى الرّشيد أحد الجزائين وأمره أن لا يشحذ مدينة، ثم أحضروا فأخذ الجزار بقطع أوصاله بمدينة الكيلة حتى فصله 14 قطعة.

يلاحظ مما سبق بوجه عام أن أقل الخلفاء العباسيين تديناً وأبعدهم عن السفينة الدينية كان أقلهم إرهاباً فمثلاً كان المأمون قد مارس القمع بطريقة

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ" حوادث 197هـ، في الكلام عن الرّشيد.

(2) هادي العلوي "التعذيب في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).

دنيوية، مُقننة بالحفاظ على مصالح دولته، ولم يصدر عنه ما يدل على تعطش للدم أو نزعة غربية تتلذذ بالتعذيب.

وكان المأمون في عداد الإسلامية المعتزلية، وكان سلوكه بشكل عام يُعتبر في عداد جيل التتوير الإسلامي، الذي كان قد بدأ تألقه قبل زمانه بوقت طويل، ولكن رغم كل هذا فإن اعتباره إمبراطور طاغية تأتي من خلال إمكانية السيطرة على بلاد تشكّل مساحتها بحدود عشرين مليون كيلومتر مربع ولا بد له إلا أن يكون كذلك وإلا لم تستقيم له شؤون إدارة هكذا دولة في ذلك العصر بالذات وقد دامت فترة حكمه عشرون عاماً.

أما خلفه المعتصم الذي تابع خلفه المعتزلي قد عُرف بنزعة دموية كانت تقترن في نفس الوقت بعدم تمتعه بعنصر تتوير عقلاني من الطراز الذي عُرف به المأمون. وكان المعتصم أقرب إلى السلفية منه إلى المعتزلة. ولم يكن استمراره في الخط المعتزلي إلا على سبيل الوراثة التي تسلمها من المأمون، أما الخليفة المعتضد فقد تميزت سيرة حياته على دلالات مُرضية واضحة، وقد تكون حالة استثنائية من الجذر الديني للتعذيب في الإسلام محكوماً بدوافع دنيوية من النمط المعتاد في تاريخ التعذيب عند الأمم أو الأفراد الغير مُنتمين لدين -أو دين سماوي على الأقل- . والمعتضد ظهر في أواخر فترته القلب التركي على الحكم وكان مدفوعاً بالحرص على استعادة هيبة الخلافة من الأتراك، ويُستفاد من وقائع التعذيب التي جرت على يديه أنها كانت موجهة في الأساس إلى أفراد حاشية أو جيشه أو في الإدارة القريبة من ديوان الخلافة.

ويبدو أنه اتخذ الإرهاب وسيلة للسيطرة على المتغلبين الذين اتبعوا نفس الأسلوب مع أسلافه من الخلفاء المُستضعفين، وربما كانت حالة المرضية نتيجة لاتباعه هذا الأسلوب وليست سبباً له.

ومن أهم المصادر التي تدخل في تفاصيل أساليب التعذيب في الإسلام والتي اعتمدها:

1- "الصواعق المحرقة على أهل البدع والضلال والزندقة"، لإبن حجر الهيثمي - (القرن العاشر الهجري).

2- "سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد"، لإبن عصفور - (القرن 12هـ)، في الرد على شارع نهج البلاغة.

يمكن الرجوع إليها للمزيد من التفاصيل

### (10)- ثورة الرنج في العراق:

إن جماعة من الرنج جاءوا من إفريقيا الشرقية، كانوا يعملون لمصلحة بعض المتعهدين البصريين في كسح السبّاح العظيمة، القائمة قرب البصرة (الملح الذي يمنع الزراعة هناك).

فظهر رجل يدعى علي بن محمد، ينتسب إلى علي وفاطمة من طريق زيد بن علي بن الحسين، ودعا الرنج إلى الخروج على مُستثمريهم.

وكان يُنادي بالإصلاح في الأحوال الاجتماعية، ووعد الشعب المظلوم والعييد وعداً قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم، وهو ما يصدّر في دعوته وعلى أساس من حقوق أسرته العلوية بل وأكثر من ذلك جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي، والتي بدت سائغة عند أتباعه على الخصوص من الأعاجم وغير العرب. وقد ظهر علي بن محمد سنة (869)، وبعد فترة قليلة استولى على ضواحي البصرة، وسيرت عليه حكومة بغداد جيشاً بعد جيش، فهزمت جميعاً، خاصة وأن المرتزقة من الرنج انحازت عموماً إلى جانبه. وسميت الحركة بأسمهم، وكذلك فإن سكان البصرة الذين نذروا أنفسهم لحرية في 23 تشرين أول (869)، طاقة على الثبات في وجه شجاعة رجاله الضارية، وسرعان ما قامت على قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها بسبب

من تعدد القنوات الصغيره والمستنقعات القائمة حولها ، بلدة جديدة هي المختارة ، ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع أولاً ، ثم جهّزت بالفنائم العظيمة التي استولى عليها ، وهكذا بسط سلطانها على دجلة من مصبه ثم حمل على خوزستان<sup>(1)</sup> .

ولكن بعد تولي الموفق بالله أمر الجيش الخلافة عام (870) بعد أخاه المعتمد بن المتوكل. وقد سير جيشاً لقتال الزنج عام (871) ، ولكنه لم يستطع أن يشترك معهم في معركة حاسمة على الرغم من بعض الانتصارات الأولية التي تمت له ، وكانت قبائل البدو الضاربة في الإقليم المجاور ، قد انضمت بدورها إلى صفوف الثائرين. وفي أيلول (871) أوقع صاحب الزنج وأتباعه بالبصرة فتهبوا المدينة الغنية ، عملوا السيف في رقاب أهلها ، فمات منهم ثلاثمائة ألف على ما تقول أبعد الروايات عن المبالغة وأشعلوا النيران في مبانيها ، وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نيسان عام (872) فلم يقدر على شيء. وصادف أن برز من الشرق خطر جديد فاضطر الموفق إلى أن يترك الزنج وشأنهم فترة من الزمن كي يستطيع التفرغ نحو الشرق وقد دامت سيطرتهم والقرامطه قرابه ثلاثين عاماً.

### ( 11 ) حركة القرامطة :

وفي عهد الخليفة المعتضد الذي خلف أباه الموفق سنة (891) ثم خلف عمه على العرش أصابت البلاد المحيطة بقلب الامبراطورية هزة جديدة سببها حركة دينية شعبية سياسية ، فقد نشأ القرامطة كفرقة أول ما نشؤوا في العراق سنة (890) ، في المنطقة المحيطة بمدينة واسط. بعد أن أخدمت ثورة الزنج ، فهناك نشأ رجل يدعى حمدان قرمط ، مركزاً لاتباعه دعاة "دار الهجرة" هذا وكانت الألفة

(1) Th. Noldeke "Aservil war in the east" in Sketches from Eastern Hestoty, J. S. Black, 1892. 146-172.

والشراكة في الأموال بين المجموعة أساساً لتجمعهم وكانوا يقيمون الولائم التي يعتبرها المريدون بولائم المحبة ويتناولون فيها "طعام أهل الجنة" متبعين في ذلك على أغلب الظن مثل إحدى الفرق الصائبة "الغنوسية" الأصيلة في تلك الديار منذ القدم. ومن بين معتقداتهم التي تلاحقت بين المعتقدات القديمة والإسلامية وهي أن عبدان وهو صهر حمدان، قد وضع كتاباً شرح فيه طريق المرید أو الناجي إلى بلاغات القرقة السبعية (الاسماعيلية). والغاية من هذه البلاغات السبعة التي رُفعت بعد إلى تسعة أن تنتهي بالمرید إلى أن يؤمن عن طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني بأن جمال العقيدة الكلبي لما ينكشف له بعد، ومن ثم إلى أن يشك في أساسها. وبذلك يصبح خاضعاً لسلطة الإمام المُستتر وممثلة الذين بقيت أشخاصهم مكتومة عنه دوماً.

ويعلم أن كل ما أوحى به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية إنما يمثل حجاباً معني باطنياً لا يدرك إلا بالتأويل.

حتى إذا أعد المرید هذا الإعداد أخيراً بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه، وحرر من جميع القيود العقائدية، ومن جميع أغلال القانون في وقت معاً. ثم أن أحد الدعاة الرئيسيين وهو "صاحب الناقة" (والآخر وهو صاحب الظهور) اللذين كان من المفروض أن يكونا مستقرين خارج العراق، استبدل بعبدان وهو داعية أعظم نشاطاً منه، ويدعى "زكرويه الدندان" ووجهه إلى سوريا، فتجس سنه (900) في تحريك الإعراب من بني العليص للإنتقاص على الدولة الطولونية<sup>(1)</sup> التي كانت قد انتهت آنذاك إلى حال من الضعف بعيد جداً.

(1) الدولة الطولونية: نسبة إلى أحمد بن طولون في مصر وهو مملوك تركي من بخارى، وكان قائداً لحرس الخليفة في عهد المعتمد، وكان قائداً عسكرياً بارعاً، استطاع من التصدي لهجمات البيزنطيين الشمالية، وأهم أعمالهم تأسيس جامع ابن طولون (المصدر السابق، ص 224).



وعاث القرامطة فساداً في جميع المدن السورية، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق وحدها، وفي سنة (901) توفى خليفتهم (أبي عبد الله محمد الذي زعم أنه من نسل الإمام علي) فقام بالأمر من بعده أخوه عبد الله أحمد (صاحب الخال)، ولكنه لم يلبث أن أُسر بعد عامين وقُتل في بغداد، وبعد فترة قتل زكرويه أيضاً.

وكانت حُكومة بغداد قد سيطرت على سوريا بعد أن تم سُقوط الطولونيين، وأصبح في ميسورها القضاء على القرامطة هناك وفي العراق، ولكنهم وفقوا في الذهاب إلى الإحساء والبحرين والمناطق المحيطة بالخليج، وتمكنوا من إنشاء دولة مستقلة هناك جعلوا عاصمتها "المؤمنيه" بدلاً من "هجر" العاصمة القديمة وتعرف اليوم بمدينة "هفوف" في السعودية.

وحكموا هناك بوصفهم مفوضين من قبل الإمام المستر، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الاعرابي القديم، فسمحوا لشيوخ القبائل بأن يشاركوا في اتخاذ القرارات السياسية.

وقد قام "ابن أبي السعيد" وخليفته بالإغارة على العراق أكثر من مرة فسلب ونهب كما أغار على قوافل الحجاج (914 - 943) واستولوا سنة (930) على مكة.

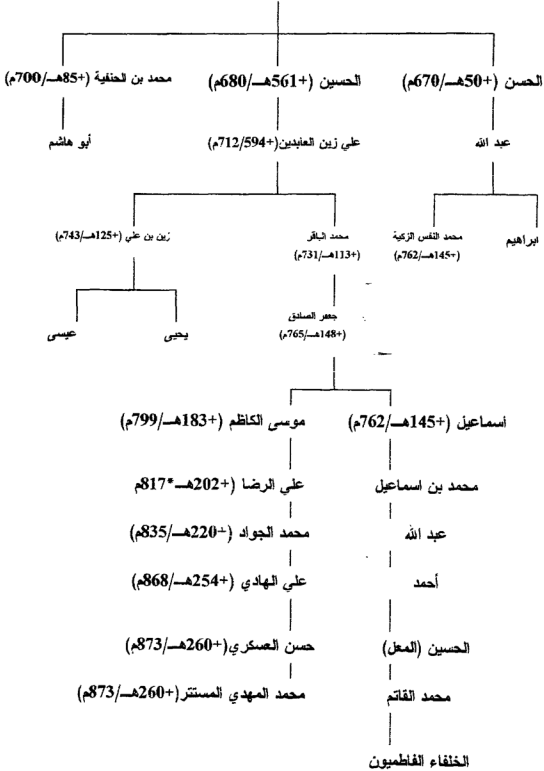
لقد أستغرقت الحرب على القرامطة في عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد (902 - 908) والواقع أن حرب الزنج وغارات القرامطة، عملت على شل حركة التجارة والمواصلات لسنوات متطاولة.

أما ترف الطبقات العليا فلم يكن يعد له من حيث التطرف والتأهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع على الرغم من الإقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون آنذاك.

(12)- ظهور الفرق الإسماعيلية على المسرح السياسي الإسلامي:

لكي نفهم أساليب العنف الناجم عن الإضطاد السلطوي لا بد لنا من استعراض الأساليب التي استخدمت من بعض فرق الإسماعيلية لما لها من أهمية في عصرنا الحاضر، ولا يمكن فهم الإسماعيلية الا بعد معرفه سلالة علي لأن الفرق المختلفه سميت بأسماء أبناء صهَر الرسول محمد (ص) وأحفاده، وكما في الشكل (4)

علي بن أبي طالب (توفي سنة 40 هـ / 661م)



لقد وُجد الأسماعيلية مراكز وقلاع تحصنوا فيها في كلا من سوريا وإيران، ونظراً لترباط المنطقة مع بعضها البعض، وعلاقة الحركات السياسية في المناطق المجاورة للعراق، لا بد لنا من استعراض بعض النشاطات الثورية التي قامت بها تلك الفرق في ذلك العصر، لما لها من دلالات كبيرة في الموروث التاريخي للعنف السياسي السائد في عصرنا الحديث.

ونورد أولاً أسطورة الفردوس<sup>1</sup> كما رواها الرحالة الشهير "ماركو بولو" الذي ذهب من البندقية في إيطاليا إلى الصين عبر الشرق الأوسط في عام (1273)، فقد وصف "قلعة الموت" في شمال غرب إيران التي ظلت طويلاً مقراً للفرقة وكما يلي<sup>(1)</sup>:

انهم يُسمون شيخ الجبل في لغتهم الودين (علاء الدين) وقد قام بأغلاق وإد بين جبلين، وحوّله إلى حديقة فيحاء أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين. وملأها بكل أنواع الفواكه، وأقام فيها قصوراً، ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمير واللبن والعسل والماء، وأقام على خدمة الحديقة فانات من أجمل نساء العالم يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية، ويفغين بأصوات رخيمة، ويؤديان رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحى لشعبه بأن هذه هي الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظمها بالوصف الذي جاء به القرآن "الكريم" للفردوس كحديقة جميلة تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء مليئة بحور العين.

ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقاً، ولا يُسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يُراد لهم أن يكونوا حشاشين

(1) برنارد لويس "الحشاشون"، تعريب محمد الغرب موسى، مكتبة مدبولي ط2، (2006) القاهرة، ص20.

(Ashishin) وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة تبلغ من القوة والمناعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم ، وليس هناك طريق آخر للدخول ، وهو يحتفظ في بلاطة بشبان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، وهو السن الملائمة للجندية والمغامرة ، وتعود أن يقصّ عليهم قصصاً عن الجنة ، وهم يعتقدون فيه ثم يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة بعد أن يجعلهم يشربون مخدراً معيناً يسلمهم إلى نعاس عميق ، ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك ، وهكذا فإنهم عندما يستيقظون يجدون أنفسهم في الجنة!!

وهكذا فإنهم عندما يستيقظون ويجدون أنفسهم في مثل هذا المكان الأخاذ يحسبون أنه الفردوس حقاً ، وتفازلهم السيدات والفتيات بما يملأ قلوبهم حبوراً حتى يُشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون ألا يفادروا هذا المكان أبداً.

والآن هذا الأمير الذي يسمونه الشيخ أقام لنفسه بلاطاً عظيماً رائعاً ، وجعل سكان الجبل البسطاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه نبيّ عظيم ، وعندما يريد أن يُرسل أحد حشاشيه في مهمة فإنه يأمر بإعطاء المخدر الذي تحدثت عنه من قبل إلى أحد الشبان في الحديقة ، ثم يحملونه إلى القصر ، ولذا فإنه عندما يستيقظ يجد نفسه في القلعة وليس في الفردوس ، ثم يؤتى به إلى حضرة الشيخ ، فيركع أمامه في احترام بالغ ، معتقداً أنه في حضرة نبي حقيقي. وعندما يسأله الأمير من أين جاء؟ فيجيبه الشاب أنه جاء من الفردوس! وأنه كما موصوف في القرآن تماماً وهذا بالطبع يُفعم الحاضرين الذين لم يشاهدوا ذلك المكان بأكبر رغبة في الدخول إلى هناك.

ولذا فإنه عندما يريد الشيخ أن يقتل أميراً ما ، فإنه يقول لمثل هذا الشاب اذهب واقتل فلاناً أو فلاناً ، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس ، وإذا مت

أرسل ملائكتي لتحملك إلى هناك. وهكذا أجبرهم الشيخ على الاعتقاد، ولذا فإنهم يُسارعون إلى تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس.

وهكذا أيضاً بثَّ الرعب في قلوب جميع الأمراء يدفعون له الجزية من أجل أن يمنحهم السلام والمودة، وكذلك فإن الشيخ لديه أشخاص آخرون تحت إمرته ينسخون أقواله وينصرفون تماماً كما يفعل، وقد أرسل واحداً منهم إلى إقليم دمشق وأرسل آخر إلى إقليم "كردستان".

وهكذا تلت قصص أخرى عمقت تأثير الحشاشين السوريين في مخيلة أوروبا، فشاعت قصص عن حداثق الفردوس، ثم انتشرت في أدب التاريخ أو الرحلات إلى الشعر والحكايات والأساطير.

وهكذا اتخذت كلمة (Assassin) في أوروبا لتعني "القاتل" وعملته (Assassination) وتعني الأغتيال في الإنكليزية والفرنسية، ولم تعد تستخدم للدلالة على أية علاقة محددة بالطائفة التي ينتمي إليها هذا الإسم في الأصل ويقول سلفستردى ساسي في كتابه "تاريخ الحشاشين" ما يلي: "إن هذة الجماعة من السفاكين الذين سقطت تحت نصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء، لأنهم ولمدة ثلاثة قرون استطاعوا أن يبيثوا الرعب في قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش في يد الخلافة التي كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين"<sup>(1)</sup>.

وأثناء الحكم الطويل للخليفة الثاني المستنصر (1036 - 1094) وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أعلى ذراها ثم تهاوت إلى الإنحلال السريع، ولدى وفاته تمرقت الرسالة الاسماعيلية في أكبر انقسام داخلي في تاريخها<sup>(2)</sup>.

(1) برنارد لويس "المصدر السابق" (ص29)

(2) برنارد لويس، المصدر السابق، ص59.

وفي بداية الدولة الفاطمية كانت للخليفة سيطرة تامة على كل الشؤون، ولكن منذ وفاة الحاكم بدأ العسكريين يزيدون من قوتهم على حساب المدنيين، بل والخليفة نفسه والواقع أن النكسات والكوارث والانقلابات في أواسط القرن الحادي عشر، قد زادت من سرعة هذا التطور الذي بلغ أقصاه في عام (1074) عندما قام الخليفة المستنصر باستدعاء بدر الجمالي حاكم عكا العسكري للحضور إلى مصر بقواته ليأخذ بزمام الأمور، وسرعان ما أصبح بدر الجمالي سيداً للبلاد يحمل الألقاب الثلاثة التي منحها الخليفة له، وهي أمير الجيوش وداعي الدعاة والوزير، دلالة على سيطرته على الفروع الثلاثة في مهمات الدولة وهي العسكري والديني والإداري، لكن أصبح يُعرف باللقب الأول.

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد الحقيقي لمصر هو أمير الجيش الذي يحكم البلاد عن طريق قواته، ثم أصبح وراثياً فخلّف بدر الجمالي ابنه ثم حفيده ثم سلسلة من الأتوقراطيين العسكريين الآخرين، وكانت تلك نهاية حزينة لأسر حاكمة تدعي الزعامة الروحية والسياسية لكل العالم الإسلامي وانحطاطاً يُناقض بصورة بارزة العقائد والأمال التي تتعلّق بها العقيدة الإسماعيلية.

وكان حتماً أن يُثير هذا التغيير السُخّط والمعارضة بين العناصر الأكثر تماسكاً ونضالية من أعضاء الفرقة، ومما زاد في معارضتها لما يجري من الأمور أن تلك الفترة شهدت تجدداً للنشاط بين الإسماعيليين في فارس.

غير أن هذه المعارضة لم تكن بذات بال، وكما لم يترتب على اختفاء بدر الجمالي، وحلول ابنه الأفضل محله عام (1094) أي تغير ذي بال في مجرى الأمور، وعندما تولى الخليفة المستنصر بعد ذلك بشهور واجهت أمير الجيوش الأفضل ضرورة إختيار خليفة له. لم يكن الإختيار صعباً، فمن ناحية كان هناك نزار الإبن الأكبر الناضج الذي عينه المستنصر ولياً لعهد وقيبله الزعماء

الإسماعيليون بهذه الصفة، ومن جهة أخرى كان هناك أخوه الأصغر المستعلي، وهو شاب بدون حلفاء أو مؤيدين، وبالتالي على استعداد لأن يعتمد كلياً على نصيره القوي، ولا شك أن ذلك كان في ذهن أمير الجيوش الأفضل حين دبر زواج ابنته من المستعلي، ولدى وفاة الخليفة المستنصر أعلن الأفضل زوج ابنته خليفة، وفرّ نزار إلى الإسكندرية، حيث هب في ثورة محلية أحرزت نجاحاً مبدئياً، ولكنه لم يلبث أن هزم وأسر وقتل بعد ذلك.

وباختيار المستعلي خليفة، استبعد جميع أتباع الإسماعيلية في بلاد الإسلام الشرقية، وحتى داخل حدود الدولة الفاطمية التي ظهرت فيها حركات معارضة. وقد رفض الإسماعيليون الشرقيون الإعتراف بالخليفة الجديد وعلنوا ولائهم لنزار وخطته وقطعوا كل علاقاتهم بالمؤسسة الفاطمية الواهنة في القاهرة، وهكذا تم الإنقسام بين الدولة والعناصر الثورية، الذي بدأ ظهوره منذ بداية تكوين الدولة.

وفي عام (1130) اغتيل "الأمير" ابن المستعلي وخليفته بأيدي النزاريين، ورفض أتباعه أن يعترفوا بالخليفة الجديد في القاهرة، وتمت بينهم عقيدة بأن ثمة إبناً طفالاً ضائعاً للأمير، يدعى "الطيب" هو الإمام المخفي والمنتظر، ولن يكون هناك أئمة بعده، وحكم في القاهرة بعد ذلك أربع خلفاء فاطميين ولكنهم لم يعودوا أكثر من أسرة حاكمية مصرية محلية، بدون قوة أو نفوذ أو أمل.

في عام (1171) عندما كان آخر واحد منهم يرقد ميتاً في قصرة أمر القائد الكردي صلاح الدين الذي كان في ذلك الوقت السيد الحقيقي لمصر، بالدعاء للخليفة في بغداد على أعواد المنابر، وهكذا أعلن رسمياً إلغاء الخلافة الفاطمية، التي كانت قد ماتت فعلاً كقوة دينية سياسية بين عدم الإكتراث المطلق للجماهير، وجمعت الكتب الإلحادية الإسماعيلية، وأحرقت وعادت مصر بعد أكثر من قرنين إلى حظيرة الجماعة السنية.



ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك أسماعيين في مصر ولكن الفرقة استمرت في الحياة في بلاد أخرى بفرعيها الرئيسيين اللذين انقسمت إليهما بعد وفاة المُستَصر، أما أتباع المُستعلي فقد ذهبوا إلى اليمن والهند - حيث لا يزالون هناك - وأصبحوا يسمون "بالبهرة" ويُطلق على عقيدتهم أحياناً "الدعوى القديمة"، حيث أنها تسير على التقاليد الرئيسية للفترة الفاطمية، وبينما كان المستعليون يجنحون نحو الركود في المراكز البعيدة عن العالم الإسلامي كان منافسوهم النزاريون، أتباع نزار يدخلون في مرحلة من التطور النشط سواء في العقيدة أو العمل السياسي، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً مهماً ومثيراً في الشؤون الإسلامية .

في القرن الحادي عشر انكشف الضعف الداخلي المتزايد في العالم الإسلامي نتيجة تعرضه لسلسلة من الغزوات أهمها تلك التي قام بها الأتراك السلجقة ، حيث أنشأوا إمبراطورية عسكرية جديدة تمتد من أواسط آسيا إلى شواطئ البحر المتوسط، وواكبت هذه الغزوات تغيرات اقتصادية وإجتماعية وثقافية مهمة كانت لها آثار عميقة في تاريخ الإسلام، فكما هي العادة بعد الغزوات اقتطعت أراضي شاسعة، ومنحت دخول مالية كبيرة لضباط الجيوش التركية المنتصرة الذين كونوا مع بني جلدتهم من المسؤولين والموظفين الأتراك طبقة حاكمة جديدة حلت محل الأرسقراطية العربية في الأزمنة السابقة، وذهبت القوة والثروة والمناصب إلى رجال كانوا في الحقيقة وأهدين غريباء لم تمتصهم المدنية في الشرق الأوسط الإسلامي، وقد ازداد مركز الطبقة الممتازة القديمة ضعفاً نتيجة لعوامل أخرى منها هجرة البدو إلى المدن وتغيير طرق التجارة وبداية التغييرات الكبرى التي أدت إلى نهضة أوروبا والإنحلال النسبي للعالم الإسلامي، وفي هذه الأزمنة من الإضطراب والخطر استطاع الأسياد الترك الجدد أن

يحافظوا على قدر من القوة والنظام ولكن بثمن مرتفع تمثل في زيادة الإنفاق العسكري، وأحكام القبض على الحياة العامة والتشدد الفكري.

ولم تعد القوة العسكرية التركية قابلة للإهتزاز، ولم تعد مدارس الفكر السلفي مُعرضة لتحد خطير، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم، ومرة أخرى قَدِّمَت الإسماعيلية في شكلها الجديد نقداً مُغرياً للمعتقدات التقليدية التي تحميها إمبراطورية السلاجقة، وذلك بعد أن إنتهجت إستراتيجية ثورية جديدة وفعّالة.

لقد فشلت "الدعوة القديمة" للإسماعيلية، وأخذت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة وظهert الحاجة إلى "الدعوة الجديدة" وأسلوب جديد وهما ما قدمها ثوري آخر يدعى حسن الصباح، ولأهمية هذا الشخص لا بد من توضيح أعماله.

### (12 - 1) حسن الصباح والدعوة الجديدة للإسماعيلية:

وُلد حسن الصباح في مدينة قم، وهي إحدى المراكز الأولى التي استوطنها العرب في إيران. وكانت معقلاً قوياً للشيعنة الأثنى عشرية منذ أن دفنت فيها فاطمة الملقبة "معصومة" ابنه موسى ابن جعفر (الإمام السابع) بعد وفاتها أثناء رحلة قامت بها لزيارة أخيها علي موسى الرضى في خراسان أيام الخليفة المأمون. كان والد حسن الصباح من الكوفة، ويُقال أنه من أصل يمني<sup>(1)</sup>، وكانت ولادة حسن في أواسط القرن الحادي عشر، وعندما كان طفلاً انتقل الأب بأسرته إلى مدينة "الري" - بالقرب من مدينة طهران الحديثة - وهناك تلقى تعليمه الديني، وكانت الري مركز لنشاط الدعاة الإسماعيليين منذ القرن التاسع، وكان تلميذ شخصية إسماعيلية معروفة اسمه "عميره زاراب"، وكذلك

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 67.

"عبد الملك بن عطاءش" كبير دعاة الإسماعيلية في غرب إيران والعراق، ثم غادر الرّي عام (1076) وذهب إلى أصفهان ومنها سافر شمالاً إلى أذربيجان ثم إلى مياهارقين، حيث طُرد من المدينة بواسطة القاضي، لأنه أي حسن أصرّ على أن الإمام وحده له الحق في تفسير الدين، نافياً بذلك سُلطة علماء السُنّة، فواصل رحلته عبر العراق وسوريا حتى وصل دمشق ثم إلى مصر ووصل القاهرة في (1078) ومكث فيها ثلاث سنوات، ثم أُبعد من مصر إلى شمال إفريقيا ولكن السفينة الإفريقية التي كان مُسافراً بها تحطمت وأُنقذ، وحمل إلى سوريا وهناك سافر إلى حلب ووصل إلى أصفهان في (1081) وراح خلال السنوات التسع التالية يسافر في اتساع في بلاد الفرس ناشراً الدعوة الإسماعيلية، ومن وسط إيران عاد إلى أصفهان ثم اتجه جنوباً ليقضي ثلاثة أشهر في خوزستان<sup>(1)</sup>. بعدها أخذ يركز إنتباهه على أقصى الشمال الفارسي على أقاليم الخزر كجيلان ومازندران وبالتحديد على الهضبة المعروفة بأقليم الديلم.

وتقع هذه الأقاليم إلى شمال سلسلة جبال تحيط بالهضبة الإيرانية الكبرى. وكان يسكن تلك الأقاليم أناس شجعان مُحبين للقتال مستقلون عن بقية العالم حتى أن حُكام إيران لم يستطيعوا من إخضاعهم على نحو فعّال. ولم يستطع حتى الحجّاج بن يوسف الثقفي أن يدخل تلك المناطق بعد أن أستعان بخريطة عن الممرات الجبلية، ولذلك لم ينتشر الإسلام في الديلم بالفتح العسكري ولكن بمرور الزمن، انتشر بالتغلغل السلمي كما هو الحال بالنسبة لإقليم كردستان الجبلي.

كان الديلم من آخر الخاضعين للإسلام في المنطقة. ومن أول من أكدوا ذاتيتهم فيه، سياسياً بقيام سلسلة من الأسر الحاكمة المُستقلة، ودينياً باتخاذهم

(1) حسن الصباح "شذرات قصة حياتي".

عقائد غير سلفية. ومنذ نهاية القرن الثامن عندما لجأ أعضاء من العلويين الهاربيين من الاضطهاد العباسي إلى الديلم ووجدوا التأييد لديهم أصبحت الديلم مركزاً للنشاط الشيعي، وأستطاع الديلميون أن يدافعوا عن إستقلالهم بغيرة فائقة ضد خلفاء بغداد وغيرهم من الحكام السنة.

وأثناء حكم بني بويه نجح الديلميون في فرض سيطرتهم على معظم بلاد فارس والعراق، بل وأصبحوا لفترة أوصياء على خلفاء بغداد أنفسهم حتى وضع مقدم السلاجقة نهاية للحكم الديلمي والشيعي في الامبراطورية الاسلامية وبدأ يضعط بشدة على الديلميون أنفسهم.

لقد لجأ حسن الصباح بين هؤلاء الأقوام الشماليين - ومعظمهم من الشيعة - ومتأثرون بالدعوة الإسماعيلية، وكانت لدعوته النضالية جاذبية كبيرة بين سكان جبال الديلم ومازندران المتمردين والمحبين للقتال، وكان حسن الصباح يتفادى المدن ويشق طريقة عبر الصحارى من خوزستان إلى شرق مازندران.

وأخيراً أستقر في دماغان حيث بقي ثلاثة سنوات، وقد أخذ يتقل بين سكان الجبال لنشر دعوته، وسرعان ما نمت نشاطه انتباه، الوزير نظام الملك الذي أمر السلطات في الري باعتقاله، ولكنها لم تنجح وسافر إلى قزوین التي كانت أنسب قاعدة لحملته في بلاد الديلم.

## (12 - 2) قلعة الموت (Alamot)؛

وقع اختيار حسن الصباح على قلعة "الموت"، وهي حصن مقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة في قلب جبال البورج (Al-Berg)، وسيطر على واد مغلق صالح للزراعة وبارتفاع أكثر من 6000 قدم فوق سطح البحر.

وقد أصبح حسن الصباح سيداً "لقلعة الموت"، ولم يغادرها حتى وفاته بعد خمسة وثلاثون عاماً، وقد كانت المناطق الجبلية هذه ذات ميزة واضحة بالنسبة للتوسع الإسماعيلي، وكانت هناك مناطق أخرى مماثلة تقع في الجنوب الغربي من إيران في المنطقة بين خوزستان وفارس، حيث توافرت الشروط اللازمة للنجاح من بلاد منيعة وسكان قلقون ساخطون وتراث محلي قوي موالي للشيعنة والاسماعيلية. وقد كان الزعيم الاسماعيلي في تلك المنطقة يدعى أبو حمزة وهو إسكافي من عرجان، كان قد ذهب إلى مصر، وعاد داعياً فاطمياً واستولى على قلعتهين تبعدان عدة أميال عن عرجان استخدمهما كقاعدة لمزيد من النشاط.

### (12- 3) العنف الاسماعيلي:

1- الحادث الأول أن مجموعة من ثمانية عشر إسماعيلياً اعتقلوا بأمر من أمر الشرطة لاشتراكهم معاً في صلوات خاصة، وكان هذا هو لقاءهم الأول، وقد سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم، ولكنهم حاولوا تجنيد مؤذن من سافا كان يعيش في أصفهان ولما رفض الرجل الاستجابة لندائهم خشوا أن يفشي بهم للسلطات فقتلوه.

يقول المؤرخ العربي ابن الأثير أنه عندما بلغت أنباء الاغتيال الوزير نظام الملك، أعطى أوامره بإعدام زعيم الجماعة وهو نجار يدعى طاهر وكان ابن واعظ تقلد عدة مناصب دينية تم قتله بعض الرعا في تبركمان بشبهة أنه إسماعيلي، وقد أعدم طاهر وجعل عبره وأمثلة وسحلت جثته في ساحة السوق.

2- في عام (1092) قام السلاجقة بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الإسماعيلي بالقوة العسكرية، فأرسل السلطان ملكشاه حملتين عسكريتين أحدهما ضد قلعة "الموت"، والأخرى ضد كوهستان. وقد أمكن صد الحملتين بمساعدة مؤيدي الاسماعيليين والمتعاطفين معهم من سكان

رودبار وقزوين، ويروي المؤرخ الجويني "إن السلطان ملكشاه بعث في البداية أميراً يدعى أرسلان تاش، ونزل هذا الأمير بعسكره أمام "الموت" في نفس السنة، ولم يكن لحسن الصباح في "الموت" أكثر من ستين أو سبعين رجلاً وكان لديهم مؤن قليلة.

وقد عاشوا على القليل مما لديهم واستمروا في المعركة ضد محاصريهم إلى أن أقبل رجل يدعى "بو علي" الذي أرسل بدوره 300 رجل، وأسلحة ومعدات لمساعدة حسن الصباح وقاموا بمساعدة حامية "الموت"، ويتأييد من بعض سكان رودبار الذين كانوا متحالفين معهم خارج القلعة شنوا هجوماً مفاجئاً على جيش أرسلان تاش، وبتوفيق العناية الإلهية استطاعوا دحر الجيش فرحل عن "الموت"، وعاد إلى ملكشاه، ثم رفع الحصار عن المركز الاسماعيلي في كوهستان، عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان في تشرين ثاني (1092).

وهكذا أحرز الاسماعيليين أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار ينسب إليهم، وهو فن الاغتيال السياسي، وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه، الذي أدت جهوده في بذر بذور الشقاق، ونشر جرائم التعطيل بينهم، إلى جعله أخطر عدو لهم<sup>(1)</sup>.

وقد دبر حسن الصباح الاغتيال بعناية، ويقول المؤرخ رشيد الدين\*: "إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يعدّ أول كل شيء هدفاً كبيراً كنظام الملك، ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت، وبهذه الأعمال ذاع صيته وعمّت شهرته وأرسى أسس القدائية، وقال: "من منكم يخلّص هذه الدولة من شرور

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 79.

\*رشيد الدين: صاحب كتاب "جامع التواريخ" وأحد من أشهر الكتب التاريخية عن تلك الفترة وهو رشيد الدين فضل الله من مدينة همدان الايرانية ولا يزال كتابه من المخطوطات النادرة غير منشورة ويصعب تداولها.

نظام الملك الطوسي؟" فوضع رجل اسمه "بو طالب اراني" يده على صدره علامة الموافقة، وفي منطقة ساهنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخفٌ في ثياب الصوفيين، إلى محفة نظام الملك الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمة وطعنه بسكين، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيين وقال (مولانا -عليه ما يستحق- أن قتل هذا الشيطان هو بداية البركة):

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة، أدت في خلق رعب محسوبة إلى إنزال الموت المفاجيء بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام بل ورجال دين ممن أدانوا نظريات الاسماعيلية وافتوا بقمع من يقول بها، إذ يقول أحد هؤلاء الخصوم الأتقياء "إن قتلهم أحلى من ماء المطر ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزمهم ويقتلوهم وينظفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز الاتصال معهم في زواج، وأن سفك دم ملحد منهم أكبر جزاءً من قتل سبعين من كفار الروم".

كان الحشاشون يبدون في عيون ضحاياهم مجرمين متعصبين ضالمين في مؤامرة شيطانية ضد الدين والمجتمع، أما رفاقهم الاسماعيليون فكانوا ينظرون إليهم باعتبارهم (قوة نخبة) في الحرب ضد أعداء الإمام، وأنهم يقتلهم للطفاء والمفتصبين يعطون دليلاً ناصحاً على إيمانهم وولائهم ويحصلون على البركة الخالدة العاجلة، وقد استخدم الاسماعيليين أنفسهم تعبير "الفدائي" لوصف القاتل منهم، وحفظ لنا الزمن قصيدة إسماعيلية ممتعة تمتدح شجاعتهم وإخلاصهم وتضحياتهم، كما حفظت سجلات "الموت" المحلية التي استشهد بها رشيد الدين وكاشاني في قائمة شرف للاغتيالات، تسجل بها أسماء الضحايا وأسماء المؤمنين الثقات الذين قاموا باغتيالهم.

## (12 - 4) نظام الفرقة:

كانت الحركة الاسماعيلية من حيث الشكل جمعية سرية لها نظامها الخاص وقسمها وشعائرها، ولها درجات من الوظائف والمعرفة، وكانت أسرارها تحفظ جيداً فلا يعرف منها سوى شظايا متناثرة مضطربة، وقد كان الكتاب الاسماعيليون ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعميقة أن يطلع عليها، إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد. وكان التعبير الشائع الذي يطلق على تنظيم الفرقة هو "الدعوة" والقائمون بها هم "الدعاة" الذين يماثلون القسوس المعينين، وفي المراحل المتأخرة انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشرين والمعلمين والمجازين، ثم المستجيبون وهم الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة وفوقهم يوجد الحجة وهو الداعية الأكبر، وكانت كلمة "الجزيرة" تستخدم لتدل على الاختصاص الإقليمي في العرقي الذي يرأسه الداعي، وكان الاسماعيليون كغيرهم من الفرق والطوائف الإسلامية - يسمون زعماءهم الدينيين بالشيخ وكان الاسم الشائع لعضو الفرقة "الرفيق" ويتخاطب الأعضاء فيما بينهم كرفاق.

## (12 - 5) الاسماعيليين في سوريا:

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم "بقلعة الموت" وكانت كلماته وأسلمته تحمل رسالته إلى سكان إيران وأمرائها، قامت ثلة صغيرة من أتباعه برحلة طويلة خطيرة عبر أراضي العدو نحو الغرب، وكانت سوريا هي وجهتهم وكان غرضهم نقل (الدعوة الجديدة) إلى الاسماعيليين القدامى في تلك البلاد وامداد الحرب ضد السلطة السلجوقية التي أصبحت تقرض ظلها على كل المنطقة من آسيا الصغرى إلى حدود مصر، ولكن كان يوجد في العراق عدد من المتعاطفين مع الاسماعيليين، إلا أن طبيعة الوديان النهرية المسطحة لم تكن لتتيح



سوى مجال ضئيل للاستراتيجية الاسماعيلية القائمة على التغفل والتحصن والهجوم. أما سوريا\* فكانت شيئاً آخر إذ تمتد فيما بين جبال طوروس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً أرض شاسعة تتخللها الجبال والوديان والصحاري التي تووي سكاناً يتباينون فيما بينهم تبايناً شاسعاً ولديهم نزعة محلية قوية للاستقلال. وخلافاً للمجتمعات النهرية المجاورة في العراق ومصر لم تعرف سوريا الوحدة السياسية إلا نادراً، كان نظامها السائد يقوم على التشنر الطائفي والإقليمي والصراع المتواصل والتغيير.

وبالرغم من أن السوريين كانوا يتحدثون العربية كلسان سائد إلا أنهم منقسمين إلى العديد من العقائد والفرق وبعضها ذات نزعة شيعية متطرفة، والواقع أن أول داعية شيعي ظهر في سوريا كان في القرن الثامن الميلادي، ومع انتهاء القرن التاسع وابتداء القرن العاشر كان باستطاعة الأئمة الاسماعيليين المختبئين أن يعتمدوا على تأييد محلي كاف ليجعلوا من سوريا مركزاً لمقرهم السري، ومسرحاً لأول محاولة يتذللونها للوصول إلى السلطة وبعد إنشاء الخلافة الفاطمية في مصر وامتدادها إلى آسيا دخلت سوريا تحت حكم إسماعيلي متقطع في أواخر القرن العاشر، وخلال القرن الحادي عشر وفتحت البلاد أمام الدعاة الاسماعيليين وتعاليمهم<sup>(1)</sup>.

لقد أدى دخول السلاجقة في سوريا إلى استجلاب كثير من مشاكل التغيير الاجتماعي والتوترات المألوفة في الشرق، كما أن صدمة الغزو اللاتيني الصليبي ضاعفت من هموم السوريين وشعورهم بالإحباط وجعلهم أكثر استعداداً للترحيب بحمكة رسالة تُبشّر بالأمل، لا سيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة، وكان الفاطميون في القاهرة لا يزال لهم أنصار في سوريا

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص 145.

يعتقون "الدعوة القديمة" للاسماعيليين، ولكن الضعف المخزي للنظام القائم في القاهرة وفشلة في مقاومة الخطر التركي والغزو الصليبي على السواء دفع الكثيرين من أنصاره في سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الاسماعيلي الآخر الذي كان أكثر نشاطاً وأكثر ميلاً إلى الجهاد وبالتالي بدأ أكثر قدرة على النجاح.

حقاً لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنّة على ولاءهم القديمة، ولكن كان هناك الكثيرون ممن انضموا حول القوّة الجديدة التي بدأ أنها وحدها القادرة على تهيئة التصدي الفعّال للغزاة القادمين من الخارج والحُكّام القابضين في الداخل.

### (12 - 6) لإرهاب الاسماعيلي في سوريا:

قبل الختام لا بد لنا من القاء ضوء عما كان يجري من أعمال عنف في سوريا نظراً لأهمية تأثير الاسماعيليين في تلك المنطقة.

تبدأ القصة الأولى باغتيال مشير لجناح الدولة حاكم حمص في المسجد الجامعة بالمدينة أثناء صلاة الجمعة، وكان قتلته فارسين متخفين في زي الصوفية وقد هاجموه لدى إشارة من شيخ كان يصحبهم وقام عراك دام قُتل فيه عدد من حُرّاس جناح الدولة وقاتله ومما له دلالة خاصة أن معظم الأتراك في حمص فرّوا إلى دمشق عقب الحادث.

كما شنّ الاسماعيليين أول هجوم لهم في سوريا ضد أفاميا (Afamiya) في عام (1106) وكان حاكم هذه المدينة يدعى "خلف بن ملاعب" وهو شيعي وربما كان من أنصار الاسماعيلية في القاهرة.

وفي عام (1096) استولى على أفاميا من رضوان الحاكم السلجوقي لحلب، واستغلّ موقع المكان في استخدامه كقاعدة لحملات ناجحة واسعة النطاق

لقطع الطريق. وقرر الاسماعيليون أن أقاميا تخدم أغراضهم جيداً، ودبر أبو طاهر (زعيم الحشاشين)، خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعته، واشترك في المؤامرة بعض سكان أقاميا وكانوا من الاسماعيليين المحليين، وزعيمهم يدعى "أبو الفتح" وهو قاضي من سارمين (Sarmin) المجاورة، وقدمت مجموعته تضم ستة حشاشين من حلب، لتنفيذ الهجوم فاستولوا على حصان ويغل وتجهيزات تابعة للأفرنج بما فيها درع وسلاح وتقدموا بها من حلب إلى أقاميا، وقالوا لخلف: "لقد جئنا إلى هنا لندخل في خدمتك، وعثرنا بفارس من الإفرنج وقتناه وجئنا لك بحصانه وبنقله وتجهيزاته". فرحب بهم خلف ترحيباً كبيراً، وسمح لهم بالإقامة في قلعة أقاميا بمنزل ملاصق للسور، واستطاعوا أن يتقربوا ثغره في السور نفذ خلالها أنصارهم في أقاميا وقتلوا "خلف" واستولوا على الحصن".

حدث ذلك في (1106) ولم يلبث أن وصل أبو طاهر بنفسه من حلب لتولي القيادة، ولكن الهجوم على أقاميا لم ينجح بالرغم من بدايته فإن "تانكريد" (Tancred) الأمير الصليبي في أنطاكية المجاورة استغل الفرصة لمهاجمة أقاميا، وحاصر المدينة وأرغمها على الاستسلام وأسر "أبا الفتح السارميني" وعذبه حتى القتل وأخذ "أبا طاهر" وزملائه كسجناء، ثم سمح لهم بإفتداء أنفسهم والعودة إلى حلب.

كان هذا أول صدام بين الحشاشين والصليبيين، إلا أنه لم يؤدي إلى تحويل انتباه الحشاشين من الأهداف الإسلامية إلى الأهداف المسيحية بل ظل صراعهم الرئيسي موجهاً ضد رؤساء الإسلام، وكان هدفهم المباشر الاستيلاء على قاعدة مهما يكن أصحابها، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة السلجوقية أينما ظهرت.

وفي عام (1113)، أحرز الاسماعيليون أكثر ضريباتهم طموحاً حتى ذلك الحين بقتلهم الأمير مودود في دمشق، هذا الأمير السلجوقي حاكم الموصل الذي

جاء على رأس بعثة عسكرية من الشرق إلى سوريا، بحجة مساعدة المسلمين السوريين في حريهم ضد الصليبيين، ولكن الحشاشين رأوا في هذه البعثة خطراً واضحاً عليهم، ولم يكونوا وحدهم في مخاوفهم تلك، فعندما وصل مودود وقواته إلى حلب عام (1111)، أغلق رضوان أبواب المدينة في وجههم وجمع الحشاشون حوله لمساعدته، وقد حدثت عام (1111)، محاولة أخرى فاشلة لاغتيال ثري فارسي مقيم بالمدينة ومن خصوم الاسماعيليين الأقوياء، وأدت إلى انفجار حملة سُخط شعبي عليهم، والواقع أنه بعد وفاة رضوان اتضح خطر الحشاشين على نُفوذ السلاجقة في الشرق عام (1113)، حيث خلفه ابنه ألب أرسلان (Alp Arslan) الذي اتبع أول الأمر سياسة أبيه، وتنازل للاسماعيليين عن حصن على الطريق إلى بغداد، ولكن لم يلبث أن حدث رد فعل، فقد وصل خطاب من السلطان السلجوقي محمد إلى أرسلان، يحذره فيه من خطر الاسماعيليين ويحثه على تدميرهم.

وقام ابن البديع زعيم سكان المدينة وقائد حرسها الوطني بالتقاط المبادرة، وحثَ الحاكم على اتخاذ تدابير عنيفة ضدهم، "فاعتقل أبو طاهر وقتله، كما قتل اسماعيل الداعي وأخ الحكيم المنجم وزعماء هذه الطائفة في حلب واعتقل حوالي 200 منهم، وسجن بعضهم واستولى على ممتلكاتهم، وقد سمح فيما بعد بإطلاق سراح البعض بينما ألقى بالآخرين من سطح القلعة فقتلوا، وتمكن البعض من الهرب والتفرق في أنحاء البلاد".

ولكن استطاع الاسماعيليين أن يحتفظوا لأنفسهم بموضع قدم، وفي عام (1119) ثم طرد عدوهم "ابن البديع" من المدينة وهرب إلى ماردين، وكان الحشاشون في انتظاره، وهو يعبر القُرات فقتلوه هو وابنه، وفي العام التالي طلبوا من حاكم حلب أن يمنحهم إحدى القلاع، ولكن الحاكم كان غير راغب في ذلك ولجأ إلى الحيلة بأن دمر القلعة بسرعة مُتظاهراً بأن أوامر سابقة صدرت له

بذلك، وقد اغتيل القائد الذي أشرف على تدمير القلعة بعد ذلك بعدة سنوات. ولكن نهاية نضوذ الاسماعيليين في حلب جاءت عام (1124)، عندما اغتيل الحاكم للمدينة العميل الاسماعيلي المحلي لكبير الدعاة، وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا.

كان يرأس الاسماعيليين في حلب في ذلك الوقت عميلاً محلياً وليس كبير دعاة نفسه، وبعد إعدام أبي طاهر نقل خليفته "بهرام" مركز النشاط السياسي للفرقة إلى الجنوب، وسرعان ما بدأ يلعب دوراً نشطاً في دمشق، وكان بهرام كأسلافه فارسياً وهو ابن أخ الأسترابادي الذي أعدم في بغداد عام (1101)، وقد ظل لفترة من الوقت يعيش متخفياً في سرية تامة مخفياً شخصيته باستمرار مما كان يمكنه من الانتقال من مدينة إلى مدينة، ومن قلعة إلى قلعة دون أن يعرفه أحد، ويحكي المؤرخ كمال الدين ابن النديم فيقول: "إن كل الذين هاجموا قد قتلوا فيما عدا شاب واحد جاء من "كفر ناصح" من إقليم أزاز (شمال حلب)، وقد استطاع أن يهرب دون أن يصاب بأذى، وكانت له أم مُسنة عندما سمعت بأن البرزقي قد قتل، وأن ابنها من بين قتلته ابتهجت وكحل عينها وامتلأت سروراً، وبعد أيام عاد ابنها سليماً فحزنت ومزقت شعرها وسودت وجهها".

وفي عام (1126) قامت عصابات من الاسماعيلية من حمص ومن كل مكان بالاشتراك مع قوات "توتيجين" (الحاكم التركي لدمشق) في هجوم فاشل ضد الصليبيين، وقرابة انتهاء العام ظهر بهرام علناً في دمشق، ومعه خطاب توصية من "الغازي" حاكم حلب الجديد، حسب المؤرخ الدمشقي "ابن القلانيسي"، وكان أول طلب له بعد استياله في دمشق هو الحصول على قلعة، وقد منحه "توتيجين" قلعة بانياس على الحدود مع مملكة القدس الصليبية، كما حصل

الاسماعيليون على بناية في دمشق أسموها القصر "وبيت الدعوة" واتخذوها مقراً لهم.

ولم يكن الحاكم التركي "توتيجين" محباً للاسماعيليين ولكن يتماشى معهم لأسباب تكتيكية حتى يحين الوقت كي يوجه إليهم ضربة حاسمة، أما المؤرخون الآخرون فإنهم يلقون بالمسؤولية الأساسية على الحاكم ويعززون ما فعل إلى تأثير "الغازي" الذي أنشأ معه بهرام علاقات حميمة عندما كان لا يزال في حلب.

وفي خلال تلك الفترة كان الحشاشون يكافحون عدواً آخر إلى جانب الترك فقي نظرهم كانت الخلافة الفاطمية التي لا تزال تحكم في القاهرة غاصبة، ومن الواجب المقدس العمل على طردهم، وإنشاء إمامة من خط نزار محلها وخلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، نشبت في القاهرة أكثر من ثورة موالية للنزاريين وأمكن إخمادها، وبذل الحاكم في القاهرة إهتماماً كبيراً في مواجهة دعاية النزاريين بين المواطنين، وأصدر الخليفة "الأمير" مرسوماً خاصاً دافع فيه عن حقوق خطة الخاص في الخلافة ورفض دعاوي النزاريين.

وفي عام (1121) اغتيل "الأفضل" قائد الجيوش في مصر، والرجل المسؤول بصفة أولية عن خلع الخط النزاري، وقد سبق أن ذكرنا عن أسلوب اغتيال هذا القائد في فقرة سابقة.

وقد عرفت حالاتان حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين، والجيوش الصليبية كانت من حلب وقلعة بانياس، وفي السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة، والتي استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم في سوريا، وكانت في جبل البهره إلى الجنوب الغربي من موقع محاولتهم الأولى في جبل السماق، وقد تمكنوا من ذلك بعد محاولة فاشلة قام بها الأفرنج للسيطرة على المنطقة.

ففي عام (1132) باع السيد "المسلم" في منطقة الكهف "قلعة قد موسى (Qadmus)" الجبلية للحشاشين، وكان قد استعادها من أيدي الأفرنج في العام السابق، وبعد سنوات قليلة تنازل ابنه لهم عن منطقة الكهف كلها في سياق صراع مع أبناء عمومة على التملك، وفي عام (1136- 1137) طردت حامية للإفرنج في "الخوريبة" (Khariba) بواسطة جماعة من الحشاشين تمكنوا من إعادة سيطرتهم بعد أن طردوا مؤقتاً بواسطة حاكم حماه. أما مصيف (Masyaf) فقد استولوا عليها عام (1140 - 1141)، من حاكم عينه عليها بنو منقذ الذين اشتروا القلعة عام (1127 - 1128)، وهكذا استطاع الحشاشون الحصول على العديد من القلاع<sup>(1)</sup>، كانوا يحتمون بها إلى أن جاء المغول واحتلوا كل تلك القلاع وتم القضاء على الحشاشون في إيران قضاءً تاماً أما في سوريا فلا يزال قسم كبير ينتمون إلى الاسماعيلية دليل على جنورهم التاريخي المتبقية منذ ذلك التاريخو كما سيأتي ذكره في الفصل الثالث.

(1) برنارد لوييس، المصدر السابق، ص 158.

13- الحركة الفكرية وظهور المذاهب والفلسفات في عصر الإسلام الذهبي (العباسي)س:  
لا بد لنا من البحث في الحياة الفكرية للناس في ذلك العصر وما كان يدور  
في أذهانهم من أفكار وفلسفات كنتاج للظروف الاجتماعية والاقتصادية  
والسياسية السائدة ولاهية الموضوع على واقع حياتنا الحالية سوف نتطرق بشيء  
من التفاصيل عن ذلك.  
لقد تميّز هذا العصر بظهور المذاهب، وكانت أهم الفرق الإسلامية في  
البداية:

- 1- فرقة الخوارج - دعاء الجمهور.
  - 2- فرقة الشيعة - ترى أن الإمامة من حق أسرة النبوة.
  - 3- فرقة المرجئة - يغلب عليها الجانب السياسي.
  - 4- فرقة القدرية أو المعتزلة - يغلب عليها الجانب الديني والفكر الفلسفي.
- الصرف أكثر من أي شيء آخر.
- والمرجئة - كلمة مُشتقة من المادة (أرجأ) بمعنى (أخر)، ويسمى القوم  
بالمرجئة. لاعتقادهم أن المسلم توجل عقوبته إلى يوم القيامة. وأن كل مؤمن -  
مهما بلغت درجة معصيته- يجب أن يكون ملعوناً (كافراً)<sup>(1)</sup>، وكانت هذه  
الفرقة الإسلامية في الأصل - على خلاف الشيعة والخوارج- تقر الخلافة لبني  
أمية، أما من جهة الأصول العقائدية فإنها تتفق إتفاقاً تاماً مع أهل السنة  
والجماعة، وكان أفرادها يسعون جاهدين كما يقول فون كرممر إلى تلطيف  
الجوانب الموحشة وتخفيفها إلى أقصى حد. وكانوا يرون أن أي مؤمن لن يخلد في  
جهنم إلى الأبد<sup>(2)</sup>. وكانوا يقدمون الإيمان على العمل.

(1) لين، (Lane, Arabic, English Lexicon) الكتاب الأول، (المصدر السابق) ص1033.

(2) فون كرممر تاريخ عقائد الإسلام المهمة الشائعة، ص25.



ولعلمهم في ذلك يسايرون البلاط الأموي الذي لم يكن يتفق مع روح أي شيعي أو خارجي على الإطلاق، ويمكن وصفهم بأنهم مسايرون لعصرهم وأبناء وقتهم، غير أن أبا حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة قد خرج من بين صفوف هذه الفرقة<sup>(1)</sup>.

وكانت فرقة القدرية أو المعتزلة تفوق سابقتها أهمية إلى حد كبير، وكانت تسادي بحرية الإرادة وتساند طريقة التفويض والاختيار، ويقول شتاينر في حقهم<sup>(2)</sup>: "وأفضل ما نصف به المعتزلة أن نقول أن ظهور هذا اللون من الفكر يعد بمثابة اعتراض دائم وجّهة الفعل البشري السليم ضد الأحكام الظالمة والأوامر المضرة المقننة".

وكان المعتزلة يرون في أنفسهم أهل العدل والتوحيد أو أنصار العدل الإلهي والتوحيد، وكانوا يقولون أن الجانب الأزلي - وفقاً لأهل السنة - هو تحديد الله لمصير كل شخص مسبقاً، وهو سبحانه يعاقب على الآثام التي قد فرضها جبراً على البشر، وليس للبشر قدره على مواجهة التقدير والمصير.

ويرى القدرية أن هذا اللون من الفكر مخالف للعدل الإلهي، كما أن أهل السنة يرون أن القرآن - شأنه شأن الحق الواحد - أزلي أبدي، ويرون أن صفات الحق منفصلة عن ذات الحق أو هي قابلة للانفصال، لهذا فإنهم "مشركون".

نقد ظهر الطور الأول من الاعتزال في أواسط العصر الأموي، عندما اعتزل واصل بن عطاء في الإجابة الواضحة عن مصير مرتكب الكبيرة، وقال أنه غير مؤمن ولا كافر كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول (أنظر صفحته 73).

(1) فون كرم، المصدر السابق، ص 6.

(2) شتاينر "حول المعتزلة"، ص 4.

وأشتقت كلمة المعتزلة من اعتزال واصل عن المجلس، وهناك إجماع على صحة ما ذكرنا فيما يتعلق بأهل هذه الفرقة ونشأتها، وهو يدل على أن العراق كان مسقط رأس هذه الفرقة ومهددها، والعراق هو نفسه بابل القديمة التي كانت محل التقاء الجنسيتين السامية والسومرية واختلاطهما، ولم يمضِ وقت طويل حتى صارت تلك البلاد مركزاً للعلم، ثم صارت بعد ذلك بقليل - في زمن الخلافة العباسية - مقراً للحكم<sup>(1)</sup>.

لكن فون كرمير يقول: "أن محل تكوين معتقدات هؤلاء القوم، ومحل تكاملها كان في دمشق، حيث كانت تحت السيطرة البيزنطية، وكان من بينهم يحيى الدمشقي وثيودور أبو قرعة"<sup>(2)</sup>. والإسم الآخر لهذه الفرقة هو "القدرية"، وهو نبيء عن إيمانهم بحرية الإرادة<sup>(3)</sup>، أي أنهم قادرون من خلال إعطاء حرية للعقل من أداء أي عمل يشاؤون.

ويقول أشتاينر: "لإثبات وجود البشر قيل بوجود أصل آخر في مقابل إرادة الله، وهو إرادة البشر"، ومن بين أقوالهم التي ذكرها الطبري عدا خلق القرآن وأنه غير قديم، هو أن الله سوف لا يتجلى يوم القيامة لأعين خلقه<sup>(4)</sup>. وهذه الأمور محل موافقة الشيعة والمعتزلة اليوم، ومعارضة أهل السنة المتمسكين بالنص القرآني بشدة وبالسنن النبوية المتمثلة بأقوال الرسول محمد(ص).

وربما كان تبنّي المعتزلة إلى هذا التفسير يجعل الدين بالضرورة محصوراً في دائرة ضيقة محدودة ثابتة جامدة، على نحو يقضي على إمكانية التعاطف

(1) دوزي (Dozy)، (عالم مستعرب هولندي من أصل فرنسي)، دار المعارف البريطانية، الطبعة 14، (المصدر السابق) ص 201.

(2) فون كرمير، المصدر السابق، ص 9-7.

(3) أشتاينر، المصدر السابق، ص 26-28.

(4) الطبري، ج 3، ص 1533-1534.

والتلاقي مع الأوضاع الجديدة عبر الزمن، ولا يتيح الفرصة لإدخال العقيدة والإيمان في ذهن الأذكياء من الناس.

ولعلمهم فكروا أيضاً في أن الإيمان بإمكانية رؤية جمال الحق تعالى يؤدي إلى تصور باطل، يلزم من وجوده أن تبدو ذات الله على صورة البشر، والمهم أن ما قرّرت تلك الطائفة وما لم تقرّره كان علة انتصار المتمسكين بالموازن والمقولات العامة<sup>(1)</sup>.

وقد شرح دوزي بوضوح واختصار مظاهر التقدم العديدة التي حققتها المعتزلة<sup>(2)</sup>، بقوله "عدلت مبادئ عقائد المعتزلة، وانتشرت فيما بعد في صورة أكثر جدية، وفي ثوب آخر وصورة مختلفة، خاضعة لنفوذ فلسفة أرسطو، وطبقاً لما تقتضيه طبيعة الأشياء وماهيتها"....

انقسمت فرقة المعتزلة بدورها إلى عدة فرق، لكنهم جميعاً كانوا متفقين في آرائهم، من حيث إنكار وجود صفات الحق وكل ما يخالف مبدأ التوحيد.

ولما كانوا يؤمنون بأن الله منزّه ومبدأ عن أي عمل يخالف العدل، فقد اعتقدوا بأن الإنسان حر، ومخيّر تماماً في سلوكه وعمله، وقد نصت إحدى تعاليم المعتزلة على أن كل الحقائق اللازمة لخلاص البشر ونجاتهم من المعاصي ومن العقاب، مرتبطة بالعقل، وفي ظل العقل وحده ويقوته وسلطانه، يمكن تتبع حقائق الأمور، ويصدق هذا الأمر قبل نزول القرآن وبعده، على نحو يقيد الإنسان بهذه الحقائق في كل زمان ومكان".

لقد أتبع المعتزلة طريقة العقل والأستدلال بفضل تدبرهم وتأملهم في أحكام الشرع. وعن هذا الطريق برزت إحدى مقولاتهم الأساسية، ومفادها أن القرآن

(أ) إبراهيم تاريخ الأدي في إيران، (المصدر السابق) ص 112، ج 1 باب/3.

(2) دوزي، حول الإسلام، ترجمة شون، ص 205.

حادث لا مخلوق"، رغم مخالفة هذا الكلام لقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وكانوا يقولون أننا نعتبر القرآن - أي كلام الله - في زُمرة المخلوقات، فلا يمكن اعتباره - بناء على ذلك - مُرتبطاً بذات الخالق، لأن ذاته لا تتغير. وعن هذا الطريق تزلزل أساس نزول الوحي إلى حد كبير. وصرح العديد من المعتزلة علانية، بأن كتاباً نظيراً للقرآن - بل وأفضل منه - أمرٌ ممكن، وكان اعتقادهم في الله أظهر وأسمى من اعتقاد أهل الشرع والتمسكين بأوامر الله، والموازن الشرعية وأهل السنة، لأن المعتزلة لم يخضعوا قط لفكره القائلة بأن خالق الدنيا يمكن أن يظهر على صورة جسمانية، بل ولم يكن لديهم استعداد لسماع هذا الكلام.

وقد ورد في الحديث أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قال: "سوف ترى ريك يوماً كما رأيت قمر التمام في حرب بدر"<sup>(1)</sup>. ولما كان التمسكون بالشرع يتلقون الكلام المذكور وفق منطوقه، فإن هذه المسألة كانت دائماً حجر عثره في طريق المعتزلة، مما ألجأهم إلى التفسير والتوضيح. ومما قاله المعتزلة: أن الانسان سوف يرى الله بعد الموت - يعني الروح المبصرة - أي بدليل العقل، كما أنهم أنكروا القول بأن الله الكريم هو خالق الكافرين، ولم تكن المعجزات الواردة في القرآن الكريم موضع قبولهم، فقد أنكروا أن يكون البحر قد جفَّ ليعبره بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، كما أنكروا أن تتخذ عصا موسى صورة الحية، وأن يُحى عيسى عليه السلام الموتى بعد موتهم<sup>(2)</sup>. وغيرها من القصص التي يعتقدون أنها غير مقبولة عقلياً وكان قسم منهم يعتقد بعدم وجوب الانتجاب غير المحدد أو اعتباره واجباً دينياً. (ولو كان قد

(1) شرح عقائد النسفي للتفتازاني، طبع مصر، ج 1، ص 140، (1936).

(2) ادورد براون تاريخ الأدب في إيران، ج 1، ب 3، (المصدر السابق) ص 115.

طُبق مثل هذا المبدأ منذ ذلك الزمان لكننا قد تخلصنا من أكبر مشكله توجه الوطن العربي اليوم وهي الزيادة السكانية غير المسيطر عليها).

لقد أعطت دراسات المعتزلة الفلسفية مساحة واسعة للعقل في التفكير بحريه في شتى المجالات الطبيعية والعلمية، وأنتجت في العصر الذهبي العباسي أيام المأمون وإبنيه الواثق عدداً كبيراً من العلماء، وكان أبرزهم "الفارابي" (توفي عام 950م)، وإبن سينا (ت 1037م)، وإبن رشد (ت1198)، الذين كانوا من حكماء الفترة التالية، ويستحق كل منهم عن جداره أن يلقب بالحكيم، وقد أناروا الطريق أمام فلاسفة عصر النهضة الأوروبية في مراحلها الأولى والتي بدأت عام (1453)، في إيطاليا بعد ترجمتها من العربية إلى اللاتينية عن طريق البيزنطيين، وكان ذلك يتمثل في إعطاء مساحة واسعة للعقل في التفكير لتقهر الطبيعة وحل مشاكل الإنسان بنفسه بعيداً عن الاتكال على الأمور الغيبية ودون المساس بالاعتقاد بوحدة الخالق والديانات المختلفة كلاً حسب اعتاقه وانتسابه الديني. وقبل هؤلاء الحكماء عاش الكندي<sup>(1)</sup> المتوفي عام (864)، الذي اهتم اهتماماً خاصاً بالمسائل التي شغل المعتزلة ببحثها، أما "ابن رشد" فلم يكتف بالسعي في إثبات أن الدراسات الفلسفية جائزة إنما تجاوز ذلك إلى محاولة إثبات أنها فرضية وأن القرآن الكريم قد حكم بذلك، وقد تبع نفس الطريقة وسلك نفس المسلك فيما يتعلق ببقية المسائل، واشتملت آثاره على موضوعات فلسفية وعلمية واسعة.

وبهذه الطريقة أوجد "ابن سينا" صدعاً بين الفلسفة وأحكام الشرع، وكانت فرقة المعتزلة قد استفذت قوتها في مشاحنات مدارس البصرة وبغداد، تلك المشاحنات المرتبطة بالموضوعات الدقيقة واللطيفة وكل ذلك كان بعد اتصالهم بالفلسفات اليونانية بعد ترجمتها الى العربية ودراستها بتفحص ودقه.

وقد كان أبو الحسن البصري - أحد معاصري ابن سينا - هو آخر من درس تعاليم المعتزلة مستقلة عن غيرها وأكمل بعض النقاط، وقد أورد الزمخشري<sup>(1)</sup> في كتابه المشهور "الكشاف" (ت1144) التعاليم والعقائد المعتدلة التي أتبعها أسلافه بصورة مقبولة، ونعتها بكمال الدّوق وطبقها في مهارة ودقة على تفسير القرآن الكريم، غير أنه لم يتمكن من بسط هذه التعاليم والتوسع فيها بالقدر المناسب<sup>(2)</sup>. والحق يقال أن كل تلك النهضة العلمية التي قامت في العصر الذهبي العباسي كانت بفضل تلك الياقة من العلماء والفلاسفة المعتزلة الذين شكّلوا قاعدة فكرية للانطلاق نحو التفكير الحر.

ولكن يبدو أن الشّعلة التي انتقدت في العالم الإسلامي لم يُكتب لها البناء والاستمرار لكي تضعنا في سلم التقدم والحضارة المُستدامة، فقد جاء الخليفة المتوكل ووجه لها ضربة قاصمة، ويذكر الدوزي جانباً من وحشية هذا الحاكم الظالم الذي لا يرمي الحق<sup>(2)</sup>، حيث قال: "ومع هذا كان المتوكل في طريق السنة - وبلا حدود - متمسكاً أو مشرعاً، ولذا فإن حكم رجال الدين عليه يختلف عن حكمنا تمام الاختلاف".

ويعتقد ابن كثير (أبو الفداء) أن المتوكل كان يُفالي بعض الشيء في كراهيته لعلي بن أبي طالب، إذ أن أتباع السنة والجماعة يعزونه ويوقرونه إلى حد بعيد، باعتباره ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وصهره، لكنه يعتبر المتوكل ذو مكانة عالية لأنه حرم الاعتقاد بحدوث القرآن، وكان الخليفة المتوكل يشرب الخمر وينغمس في الشهوات، وحين يعمد إلى الظلم يلجأ إلى

(1) الزمخشري: هو جار الله محمود بن عمر من إقليم خوارزم، وكان قد ولد في زمن ازدهار المعتزلة واعتنق مبادئهم وأقبل على دراسة العلوم اللغوية والدينية وأقام في بغداد وتوفي عام 1144. (عن تاريخ أدب إيران، ص122).

(2) دوزي "كتاب الإسلام" ترجمة (Chauvin) ص 248.

القدر، ويتحول إلى شيطان مريد، وكان لا يخاف من ارتكاب كل معصية، وكان حاد المزاج شديد الإصرار يعاقب كل من يفكر بأسلوب مُغاير ويعذبهُ وينكُلُ به بدلاً كل جهده في هذا السبيل، حريصاً على أن يهلك أمثال هؤلاء ويبطش بهم، وقد بالغ - بطريقة أسوأ - في إحياء ما كان قد صدر من قرارات في حق النصاري واليهود، وهي القرارات التي كانت في طي النسيان في عهد سابقيه من الخلفاء<sup>(1)</sup>، ومن بين أعماله أنه خرب قبر الحسين بن علي شهيد كربلاء، وحُرثت الأرض التي كان يقع عليها وزرعت ومُنعت زيارته، كما وجهت الاتهامات إلى أسمى العلماء الريانيين مقاماً وأشرفهم منزلة، أمثال "البخاري"، المحدث الكبير ونسبت إليهم البدع الدينية".

ومن جانب آخر ظهر الأشاعرة (نسبة إلى أبو الحسن الأشعري)، بعد موت المتوكل بثنتي عشر عاماً شتوا حملة ومقاومة مستميتة ضد آراء المعتزلة، وكان لأبي الحسن نشاط عظيم في الأمور الأدبية فبعد اصطدامه بأستاذه الجبائي - أحد علماء المعتزلة - وبعد اعتزاله أيامه، كتب ما يقرب من مائتي رسالة رفض<sup>(2)</sup>.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن آل بويه وهي أسرة شيعية إيرانية احتلت مكان الأتراك عام (945م) ولفترة من الزمن، وكانت هذه الجماعة التي تغلقها الأسرار - إلى حد ما - تواصل سيرة المعتزلة وتستهدف التأليف بين العمل والدين، وتطبيق شريعة الإسلام على أسس الفلسفة اليونانية، وتركيب العلوم الكلية في صورة دائرة معارف وقد أنتجت هذه الجماعة خمسين رسالة<sup>(3)</sup>.

(1) الطبري، التاريخ، ج3، ص1389 وما بعدها و ص1419.

(2) دوزي، ص62 - 81.

(3) دورد براون، تاريخ الأدب في إيران، ص130.

كذلك ظهر في بغداد حجة الإسلام الغزالي عام (1091) والمتوفي عام (1111م)، ويرى أشتاينر<sup>(1)</sup> أنه كان يحس في قرارة ضميره أن الانتساب للإسلام يستوجب منه الدفاع عنه علمياً، كما يستوجب إقرار مباني الدين التي تعرضت للتهديد بقوة البراهين والأدلة - وتشبيدها مرة أخرى على أساس أكثر استقراراً وأدعى للطمأنينة، لقد أخذ من حكمة أرسطو، وتصوّف المتصوّفة أسمى ما فيها وأكمله، وطبّقه على شريعة الإسلام على أساس من الحزم والاحتياط، وفي ظل تعاليم "أخوان الصفا" - في بادئ الأمر - ثم في ظل "ابن رشد" (الحكيم المغربي)<sup>(2)</sup>، صارت البلاد الإسبانية إحدى المراكز الفلسفية الرئيسية في العالم وفي القرون الوسطى أخذت أوروبا نور المعرفة عن إسبانيا، فيما يخص المسائل الفلسفية وبناءً على قول ديتريس<sup>(3)</sup> فإن صراعاً قد دبّ في الوجود الذهني أو خارجه بين المذاهب نوعاً وجنساً، مما عرض دنيا العلم - عدة قرون للقلق والاضطراب، وخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، تسبب الجدال بين المذاهب الفلسفية المذكورة في إثارة النشاطات الذهنية في المشرق بأسره.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن مؤسسي المذاهب الأربعة - الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي - قد شبّوا جميعاً في عهود سيطرة المعتزلة وسيادتهم، ويتقدم أبو حنيفة النعمان عن الباقيين زمنياً، فقد ولد عام (700م)، وتوفي عام (767م)، بينما كانت ولادة مالك عام (713)، ووفاته عام (795م)، وكان المنصور يسيء به الظن ولما كان يعتقد أنه لا يجب الأسرة العباسية، فقد قام

(1) أشتاينر "كتاب المعتزلة"، ص 12.

(2) عاطف العراقي "النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد"، القاهرة (1968).

(3) ديتريس "متون وتراجم ورسالات" (1858)، ص 161.



بجلده دون رحمه<sup>(1)</sup>. والشافعي ولد في نفس السنة التي توفي فيها أبو حنيفة وتوفي عام (820م) في مدينة القاهرة بمصر، بينما ولد أحمد بن حنبل وهو من أهالي مرو عام (780م) وعاش في بغداد وتوفي عام (855).

وهكذا يمكن القول إن ظهور المذاهب السنية الأربعة كان بمثابة ردة فعل مقابل ظهور المعتزلة للمحافظة على الأصول السلفية، وفي هذه الفترة أيضاً انشقت فرقة الشيعة إلى فرقتين الفرقة السبعية أو الاسماعيلية، والفرقة الإمامية الإثني عشرية، وبالنسبة لأصول إمامة كلتا الفرقتين يسود الاتفاق والاعتقاد بأن الرياسة الدينية السامية تصل إلى أحد أخلاف علي بن أبي طالب، وإن الإمام يُختار من جانب سلفه، ويُمنح سجايا فوق الطبيعة، (لا يتمتع بها البشر -خارق للعادة-)، بل ويُمنح صفات شبه سماوية، أو بعبارة أخرى معصومين ولهم مكانه خاصة عند الله مختلفه عن غيرهم.

ويتفق قول الفريقين حول الأئمة السنة الأول، ويبدأ الخلاف بينهما عند الإمام جعفر الصادق الذي رحل عام (765م).

لقد عين الإمام جعفر الصادق -أول الأمر- ابنه الأكبر "إسماعيل" خليفة له، لكنه عاد فأخذ منه الإمامة وأسندها إلى أخيه الأصغر "موسى الكاظم"، وما لبث إسماعيل أن مات -فُتْرِك جسده- قبل إيداعه الثرى- تحت بصر العامة، وعلى مرأى منهم، حتى لا يكون هناك شك في وفاته<sup>(2)</sup>. لكن الاسماعيلية اعتقدوا بأبنة محمد وبأنه لا يزال حي وسيظهر مره أخرى عند الضرورة.

(1) ابن خلكان، ترجمة دي سلان، ج2، ص547 طبع بولاق (1866) القاهرة، "وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان".

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص136.

كما ظهرت طائفة أخرى وهم الصوفية، وهؤلاء يميلون إلى وحدة الوجود أو الاتحاد بين الجسد والخالق إلى حد الإفراط، في نشاطاتهم الخارجية لنيل درجات دينية عالية، ويجاهدون في سبيل تهذيب أنفسهم وأفكارهم الداخلية، ومن أشهر هؤلاء أبو هاشم (ت 778)، وذي النون المصري (ت 860م)، والجنيد البغدادي (ت 910)، وإبراهيم بن الأدهم (ت 777)، وداود الطائي (ت 778)، وفضيل بن عياض (ت 803 م)، ومعروف الكرخي (ت 815)، وأشهرهم جميعاً الحسين ابن منصور الحلاج، ويدرج البعض الحسن البصري في زمرةهم رغم أنه أدرج أثناء البحث من مؤسسي المعتزلة، وذلك حسب قول دوزي بأنه كان يتباين بين المذهبين، وكذلك رابعة العدوية (ت 753)، التي قال عنها ابن خلكان<sup>(1)</sup>، بأنها قديسة طوت طريق الحقيقة بخطوات أفضل ونذكر من أقوالها: "من لا ينسى الله حين يفكر في مولاة لا يكون صادق الإيمان"<sup>(2)</sup>، ويرى فون كرمر "أن التصوف بالمعنى الصحيح للكلمة - كما يبدو من تصرفات الدراويش المختلفة قد نشأ على أساس من عقائد الهند وأفكارها، ومبدأ التصوف ومبناه على الأخص أحد مذاهب الهند الفلسفية المعروفة بالفيدانتا (Vedanta)<sup>(3)</sup>". وأغلب المتصوفة كانوا من الإيرانيين ويعود السبب في ذلك لمحاذاتها للهند<sup>(4)</sup>.

وقبل أن نترك موضوع المذهبية الخاصة بتلك الفترة لا بد لنا من الإشارة إلى الديانات الأخرى التي كانت سائدة في العالم الإسلامي، وفي العراق بالذات عدا اليهودية والمسيحية، والزرادشتية والمناوية، فقد كان هناك ولا زال المندائيون الصائبة الحقيقيون في الأهوار بين واسط والبصرة، وكانوا يشكلون مظهراً من

(1) دوزي، طبعة ناسوليز، ص 319.

(2) فون كرمر "حول تاريخ تمدن الإسلام"، المصدر السابق، ص 67.

(3) وليم براندت، كتاب حول الفدائيين، ج 1، ص 100.

(4) ول ديورانت قصة الحضارة المصدر السابق ج (13-14) ص 214.

مظاهر الحضارة البابلية القديمة في بلاد الرافدين، وكان العرب يسمون الماندائين "المقتسلة" إذ كانت هذه الجماعة تكثر من ممارسة آداب الاغتسال ومراسيمه ولم يفهم البحاره البرتغاليون - في القرن السابع عشر ميلادي - معنى هذا اللفظ ومغزاه، فأطلقوا عليهم بطريق الخطأ تسمية (نصارى يوحنا المعمدان)، واعتقد البعض بذلك خطأ أيضاً<sup>(1)</sup>.

وقد جاءت تسمية الصائبية المندائيون خطأ منذ أيام خلافة المأمون بناءً على الحدث التالي:

بينما كان المأمون في نهاية حربه مع البيزنطيين الشرقيين، يمر في ولاية حران، شاهد بين المستقبليين عدداً من الأشخاص ذوي أشكال غريبة غير معهودة، وشعور طويلة للغاية، ويرتدون عباات ضيقدهش المأمون لرآهم وسألهم عن هويتهم، فأجابوا: "حرانيون"، وسألهم ثانية، فأجابوا: "لسنا مسيحيين ولا يهود، ولا مجوس"، وعندما حاول معرفة إذا كان لهم كتاب مقدس أو رسول، سمع منهم جواباً مبهماً، فأيقن آخر الأمر أنهم من الزنادقة أو عبدة الأوثان، وعندها أمر بأن يقتلوا أو يعتقوا الإسلام، أو يدخلوا أي دين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم (القرآن الكريم)، وأمهلهم حتى عودته من الحرب ليعطوه قرارهم، وقد أخافت هذه التهديدات الحرانيين وملأت قلوبهم رعباً، حتى أنهم قصّوا شعورهم الطويلة، وخلعوا ملابسهم الخاصة، واعتق الكثير منهم الإسلام أو المسيحية، وأن بقي بعضهم على دينه، وإزاء قلق الكثير منهم واضطرابه، أبدى فقيه مسلم استعداده لحل مشكلتهم هذه لقاء أجر ومكافأة، فتصحهم أن ينسبوا أنفسهم - حين يعود المأمون من سفره ويسألهم - إلى طائفة الصائبين، لأن الصائبية ذُكرت في القرآن الكريم، ولما كانت الأخبار المتعلقة بهم قليلة، فإن

(1) وليم برانندت "كتاب حول الصائبية المندائية"، ص 100

تغيير الاسم لن يستلزم بالضرورة تغيير المعتقدات أو الآداب والماراسيم والطقوس التي تعودوا عليها، ودهام الموت المأمون قبل عودته من سفره، فترك أغلب الحرانيين ممن اعتنقوا المسيحية -الدين المسيحي على الفور- وارتدوا إلى دينهم السابق، ومن دخلوا الإسلام لم يجرأ على الارتداد إلى دينهم السابق، لأن القتل في الشريعة الإسلامية جزاء المرتد.

وهكذا ومنذ ذلك الحين أصبح أبناء تلك الديانة محفظين باسم "صابيء" لأنفسهم، وأصبحوا يدعون بالصائبية المندائين<sup>(1)</sup>، والذين لا يزالون يشكلون أحد مكونات الشعب العراقي، لكن أصل ديانتهم هي البابلية القديمة، وقد أصبحوا يشكلون في العصر العباسي جماعة من المثقفين والعلماء. وسعوا لكسب العلم وشحنوا مؤلفاتهم العديدة بآداب السريانية والعربية، والحق أن السريانيين -بصفة عامة- كانوا أفضل وسيلة لانتقال علوم اليونان للمشرق، ثم عادت هذه العلوم على يد العرب من المشرق إلى المغرب (أوروبا)، وكان من أشهر العلماء الصائبة الطبيب والرياضي المشهور "ثابت بن أبي هريرة"، بينما اشتهر من بين المانويين (الزنادقة) في ذلك العصر، صالح بن عبدالقدوس\* ومطيع بن إياس، وكان المانويون يتعرضون للمطاردة والإيذاء إبان حكم المهدي والهادي (780 - 786)، وفي خلافة هارون الرشيد كان هناك قاضٍ خاص يطلق عليه "صاحب الزنادقة"، وكان مكلفاً باكتشافهم ومعاقبهم<sup>(2)</sup>، بينما لم يكن وضع الزنادقة يقابل في خلافة المأمون بنفس الدرجة من التشدد، لأن المأمون كان مولعاً بدراسة المذاهب السرية، ولهذا لقب (بأمير الكافرين)<sup>(3)</sup>.

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج 1، باب/3، ص 1.

(2) هون كرم "حول تاريخ تمدن الإسلام"، ص 210.

(3) اليعقوبي، طبع هو تسما، ص 546.

وخلاصة القول، إن نشأة المذاهب والفلسفات وكل العلوم الطبيعية في العصر الإسلامي الذهبي، قد جاءت نتيجة لاستقرار الدولة، وانتهاء عصر الفتوحات والحروب، التي كانت قائمة بلا هوادة في العصر الأموي أولاً، وثانياً فإن تشجيع الترجمات والاطلاع على كل ما أنتجته الشعوب الأخرى من الهند والصين وإيران شرقاً، إلى اليونان والرومان غرباً، وجلب عمال من الصين لصناعة الورق في بغداد، قد شكّل قاعدة أساسية للتدوين والتوثيق، وفتحت الباب أمام جميع المفكرين بتوفير كل المعلومات المطلوبه وساعدت العقل البشري في فتح نافذة أمام الاستقراء والتقصّي من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولم يعد للأفكار الغيبية والسّحر والخرافات المكان الوحيد لتهيمنة على عقول النّاس، ولذا بدأ المفكرون يضيفون إلى المذاهب والمدارس المختلفة حسب اطلاعاتهم على المؤلفات الجديدة وموروثهم التاريخي وبالشكل الذي يتلائم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من العوامل.

وقد بدءوا أول الأمر في علوم تفسير الحديث والقرآن الكريم، وتدوين الأحداث التاريخية ثم جاءت تلك القراءات من خلال انتماء تلك الجماعات واطلاعهم على الديانات القديمة، وحتى الوثنية منها بينما لم تتاح لهم فرصة قبل ذلك من الاطلاع على أفكار وديانات وفلسفات أخرى خارج الدين الإسلامي، وكان أول من ظهر هم المعتزلة بكل فرقها وأشكالها مما حدى بالآخرين في تصحيح المسار، حسب اعتقادهم من خلال التأسيس لمذاهب إسلامية متعددة منها مذاهب أهل السنة الأربعة.

إن جذور نشأة مذاهب السنة الأربع كانت في الأساس ترمي إلى تشريع قوانين ومبادئ تحافظ على الشريعة الإسلامية في ذلك الوقت الذي ظهرت فيه مذاهب

• إنهم الشاعر صالح بن عبد القدوس بالزندقة وأعدم على اثرها كما ذكرنا ولكن لا احد يعلم ان كان فعلاً يعتق المانوية أم لا، لأن هذه التهمة كانت تلصق بكل من يخالف الخليفة الرأي.

وأفكار فلسفية متعددة أخذت تبتعد - حسب نظرهم - شيء فشيء عن الأصول الإسلامية، بالإضافة إلى أن حاجة الدولة في إيجاد صيغ تشريعية للمسائل المستجدة بعد مرور قرنين أو أكثر على ظهور الإسلام أصبح أمراً ملحاً وضرورياً من أجل تسيير أمور الدولة بالاتجاه الصحيح. أما أبناء الشيعة، فكان لهم إمام يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ويستعينون بأقوال وأحاديث الأئمة المتوفين عنهم لحد تلك الفترة من الزمن، بينما حصلت إنشقاقات وفرق عديدة (40 فرقة كما يُقال)، بعد غيبة الإمام الثاني عشر (المهدي)، وكان أبرز تلك الفرق هي الفرقة الإسماعيلية والتي تم شرح أصولها وسلوكها سابقاً.

كما ظهرت فرق أخرى في المشرق الإسلامي (إيران وأفغانستان وآسيا الوسطى وباكستان)، وقد أطلقوا على بعض تلك الفرق أسماء على ألوان الملابس أو الأعلام التي كانوا يرفعونها، فمثلاً "الحمرة"، كانت تطلق على أتباع بابك، أو "الخرميون" نسبة إلى "خرمة" زوجة مزدك التي فرّت حين قُتل زوجها مع شخصين من مريديه قاصده الريّ، حيث قامت بالدعاية وحققت نجاحاً، وسمى من آمنوا بدين زوجها "المزدكية" نسبة له، أو أطلق عليهم (خرمية أو خرم دينية) نسبة إليها<sup>(1)</sup>. كما أطلق إسم "المبيضة" على جماعة في ما وراء النهر (ذوي الملابس البيضاء)، وكل هؤلاء يُعدّون من غلاة الشيعة أصحاب المبادئ المُبتدعة الأربعة وهي: التشبية، والبدء، والرجوع، (أي عودة المرید ثانية إلى الحياة ليكمل رسالته) والتناسخ (أي انتقال الروح من شخص إلى آخر)، ولا تزال تلك المعتقدات ومريديها موجودون إلى يومنا هذا في مناطق مُتفرقة من العالم الإسلامي.

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج1، باب3، ص163.

(13 - 1) ظهور المعتزلة (كأحد المذاهب الإسلامية في العصر العباسي الأول) أو

### الطور الثاني للاعتزال؛

لقد شرح لنا حسين مروة المبادئ الأساسية لمذهب المعتزلة بما يلي<sup>(1)</sup>:

"يبدأ عندهم البحث في التوحيد على أساس أن الله واحد، ولكن لا بالمعنى الأول الذي يأخذ به السلفيون (أهل السنة والجماعة) من المسلمين، بل بمعنى أن ذاته بسيطة، بالمفهوم الفلسفي لكلمة "بسيط". أي غير مركبة فإنه يستحيل التركيب على الذات الإلهية، وذلك لأن التركيب يقتضي أمرين لازمين له أولهما عدم إمكان تحقيق "الكل" إلا بتحقيق كل "جزء" من أجزائه، وهذا يعني افتقار "الكل" إلى واحد من الأجزاء. فلو كانت "ذات" الله مركبة لكان الله مفتقراً إلى "أجزاء" تركيبه، في حين أن الله لا يمكن أن يكون كذلك، لأن الافتقار بذاته ضعف وعجز، وثانيهما أن التركيب يقتضي التعدد، والتعدد يناقض الوحدانية، وتوضيح ذلك أن التركيب يقتضي أن يكون كل جزء غير كل جزء آخر، وغير "الكل" أيضاً، وهذا التعدد، لأنه يحصل من ذلك عدة أشياء، الأجزاء كل واحد منها بذاته "شيء" غير الآخر، ثم "الكل"، وهو شيء أيضاً غير الأجزاء بذاتها، هذا ومن جهة أخرى، محذور الافتقار هنا أيضاً، لأن كل واحد من هذه "الأشياء" المتعددة، مفتقر في وجوده إلى وجود الآخر، ثم يُمعن بالقول: "وبناءً على هذه الملامزات المقترنة بمقولة "الكل والجزء" ينتفي التركيب عن ذات الله، وتثبت لها "البساطة" التي هي جوهر معنى "الوحدانية"، فمعنى أن الله واحد، إذن هو كون ذاته لا كثرة فيها مطلقاً لا من حيث الكم، ولا من حيث "الماهية"، وهذا يعني - بالنتيجة - نفي كل عرض من أعراض الأجسام

(1)، حسين مروة "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، دار الفارابي، ج 1، بيروت،

(1981)، ص 649.

الطبيعية والبشرية عن ذات الله، أي نفي صفات التشخيص والعضوية وصفات اللون والرائحة والأبعاد والجهات التي هي بطبيعتها تقتضي الجسمية، أي التركيب، وكون الله "واحد" لا تعني "الوحدة" العديدة بمعناها الساذج الذي يفهم من اللفظة بدلالاتها اللغوية، بل يعني أن "ليس كمثلته شيء" كما جاء في القرآن الكريم<sup>(1)</sup>.

فإن السلفيين كانوا يأخذون من آية "ليس كمثلته شيء" معناها الإجمالي بصورة إيمانية مطلقة، كما يأخذون بالآيات والأحاديث النبوية التي تعارض هذا النص، أي التي يظاهرها على تشبيه الله بالكائنات العضوية، أخذاً إيمانياً مطلقاً دون محاولة للنظر إلى هذا التعارض أو تأويله، اعتباراً منهم أن القرآن الكريم كلام الله، فيجب الإيمان به وتصديقه، كما جاء من عند الله، وأن كل تأويل له يؤدي إلى الأخذ بالمعنى الذي يصل إليه أهل التأويل، لا بالمعنى الذي جاء من عند الله، هذا من جهة ثم أن التأويل من جهة أخرى عمل بشري يجوز عليه الخطأ، وهو باختلاف الآراء والمواقف، وخوفاً منهم من أن يؤدي ذلك بالخروج عن الدين والانحراف بعيداً في حالة التوغل أو التمادي في تأويل الآيات والأحاديث.

يقول حسين مروة في كتابه المذكور<sup>(2)</sup>: "لقد خالف المعتزلة هذا الموقف من جهتين: خالفوه أولاً: بالنظر العقلي في مفهوم الألوهية الخالقة للكون، وثانياً: بالنظر العقلي في النصوص الدينية الإسلامية التي وردت في تحديد ذلك المفهوم، أما من الجهة الأولى: فقالوا أن العقل بحد ذاته يحكم النفي كل ما يلزم منه "التركيب" في ذات الله، وكل ما تقتضيه طبيعة "التركيب" من مستلزمات جسمية، كالأجزاء والأعضاء والأبعاد والجهات والمكان والزمان والجوهر

(1) سورة الشورى، الآية (11).

(2) حسين مروة، المصدر السابق، ص 652.



والطول والعرض، لأن كل شيء من ذلك ينال في "الوحدانية" الواجبة في ذات خالق الكون. فالوحدانية بهذا المعنى الذي ينزّه الله عن الجسمية، ضرورة في الخالق الأزلي. فإذا ثبت ذلك بحكم العقل، وجب أن تؤول الآيات تأويلاً يخضع الجسمية كآيات التالية (يد الله فوق أيديهم) لسورة الفتح - الآية: 10، (ويبقى وجه ربك) لسورة الرحمن - الآية: 27، و(تجري بأعيننا) لسورة القمر - الآية: 14، و(الرحمن على العرش استوى) لسورة طه - الآية: 5، وكلها تُظهر أن لله يداً ووجهاً وأعين وإثبات الجلوس المادي على شيء مادي (العرش، بمعنى الكرسي)، و(أمنتم من في السماء) لسورة الملك - الآية: 16 الظاهر في إثبات "المكان" له، و(يخافون ربهم من فوقهم) لسورة النحل - الآية: 50 الظاهر في إثبات الجهة (فوقهم).. إلخ.

وعلى هذا الأساس لجأت المعتزلة إلى تأويل هذه الآيات تأويلاً عقلياً ينبغي دلالتها المادية الظاهرة، فاليد - مثلاً - تُشير إلى القدرة، والاستواء على العرش يشير إلى السمو والمهابة، والأعين إلى الرعاية والإدارة.. إلخ، وهذا النحو من التفسير قادهم إلى التفرّد بالتزام وجهات نظر عقلية في عدة مسائل منها: مسألة الصفات ونظرية الكون، ومسألة رؤية الله، ومسألة خلق القرآن، والعديد من الفلسفات الأخرى.

لقد وردت في القرآن الكريم صفات أسندت إلى الله مثل: عالم، قادر، حي، سميع، بصير، متكلم، وكان السلفيين من المسلمين يقولون بأن هذه الصفات قديمة (أزليه) بقدم الله، لأنها مُلازمة لذاته ما دامت ذاته قديمة صفاته قديمة. وجاء المعتزلة مثل "جهم بن صفوان"، زعيم الجبرية فأحدث القول بنفي الصفات عن الله، خلافاً لما اتفق عليه السلفيون قبله، لأن إثباتها لله يؤدي إلى تشبيهه ببعض المخلوقات كالإنسان، لأن الإنسان يوصف بأنه سميع، بصير، متكلم، .. إلخ، وكان قولهم هذا مستنداً على أساس ما أقرّوه من مفهوم التوحيد.

فما دام قد ثبت عندهم بحكم العقل أن "وحدانية الله" تعني أن ذاته "بسيطة" لا يجوز عليها التركيب بالمعنى الفلسفي للبسيط والمركب، فقد التزموا إذن بنفي كل صفة قديمة من الصفات الزائدة عن الذات أو المغايرة لها، لأن الزيادة أو المغايرة تقتضي تعدد الآلهة".

وهكذا فقد وضع هؤلاء المفكرين (المعتزلة) بعد مطالعتهم كتب الفلسفة، وانتهى بهم الأمر في تعيين وحدة الصفات واكتفوا بصفتين إيجابيتين هي أن الله عالمٌ قادراً، لأن هذه الصفات ليست شيئاً آخر غير ذاته، فليس هناك شيء واحد هو "ذات" الله، وقد ظهرت اختلافات كبيرة فيما بينهم في العديد من المسائل الفلسفية لا مجال لذكرها هنا، ويمكن الرجوع إلى المصادر المشار إليها للمزيد من التفاصيل.

أما مسألة خلق القرآن الكريم، التي أثارت ضجة كبيرة في التاريخ، فممنشأها يرجع إلى مسألة الصفات عند المعتزلة، فهم بعد أن قرروا وحدة الذات الإلهية وصفاتها، وقرروا بناءً على هذا المبدأ نفي الصفات الزائدة عن الذات، كان لابد لهم أن ينظروا ما ورد من هذه الصفات داخل النصوص الدينية، فيخضعوها للتأويل العقلي بما يوافق مقولتهم "التوحيدية"، وخلال النظر في النصوص وجدوا فيها صفة "الكلام" منسوبة إلى الله، على نحو ما جاء في الآية القرآنية: (وكلّم الله موسى تكليماً)<sup>(1)</sup>، ووجدوا أن القرآن في هذه النصوص موصوف بأنه "كلام" الله على نحو ما جاء في الآية (وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)<sup>(2)</sup>، والمقصود بـ (كلام الله) في هذه الآية القرآن نفسه.

(1) سورة النساء، (الآية: 164).

(2) سورة التوبة، (الآية: 6).

هنا إذن قد وصف الله بأنه "متكلم" ووصف القرآن بأنه "كلام الله"، فما موقف المعتزلة من هذه الصفة؟، فهل يقولون أنها من الصفات التي هي عين الذات؟ إذا قالوا بذلك كان عليهم أن يلتزموا بكون هذه الصفة ثابتة غير متغيرة، وفقاً لمبدأ المعادلة المطلقة بين الذات الإلهية وصفاتها. كما هو مقرر عندهم. وما دامت الذات غير قابلة للتغيير باتفاقهم جميعاً على ذلك فإن الصفات يجب أن تكون كذلك. ولكن الالتزام صفة "الكلام" المنسوبة إلى الله ثابتة لا متغيرة، يصطدم بنصوص القرآن نفسها فإن هذه النصوص متنوعة ومتخالفة، فمنها الأوامر والنواهي، ومنها الوعد والوعيد، ومنها الكلام التشريعي "والكلام الإخباري والكلام الوصفي فإذا كانت الصفة "المتكلم" عين الذات. وإذا كان القرآن الكريم "كلاماً" لله، فقد لزم من تنوع هذا الكلام وتخالفه أن تكون الذات متنوعة متخالفة أي منقسمة أي متعددة. واللازم الأخير ينفي وحدانية الذات وهذا بالنتيجة ينفي لأصل التوحيد عند المعتزلة، بل عند المسلمين جميعاً<sup>(1)</sup>.

من هنا لجأ المعتزلة إلى القول بأن كلام الله ليس "قديم" أي ليس من الصفات المعادلة للذات إنما هو حادث، فالقرآن -وهو كلام الله باتفاقهم- حادث إذن أي "مخلوق" ككل مخلوق في الكون، ومعنى كون الله متكلماً -إذن أنه خالق للكلام- وهكذا ذهب المعتزلة في إثبات أن القول يقدم القرآن الكريم وأزليته لا ينافي مبدأ التوحيد وحسب، بل ينافي كذلك العقلانية التشريعية للقرآن الكريم، فإنهم قالوا: "إذا افترضنا أن القرآن الكريم كلاماً أزلياً، أي صفة للذات الإلهية الأزلية، كان معنى هذا أن الأوامر التي يشتمل عليها القرآن أزلية، أي صادرة قبل أن يوجد المأمورون بها، أي أنها كانت غير

(1) حسين مروة، المصدر السابق، ص 678.

ذات موضوع قبل وجود البشر المكلفين بها ، فإن البشر هم موضوع هذه الأوامر ، فكيف يعقل أن يوجه الله أوامره إلى المعدوم؟

إن ذلك نوع من العبث الذي لا يجوز على الله ، بل مُحال وقالوا إن الكلام لكي يتحقق شرط وجوده يحتاج إلى مكلم (بكسر اللام) ومكلم (بفتح اللام) وقبل وجود المكلفين ليس هناك سوى مكلم من غير مكلم ، بذلك يكون القول بأزليين القرآن نفيًا لعقلانية التشريع ، وهو باطل<sup>(1)</sup>.

ثم برهنوا على المسألة من وجه أخرى ، فقالوا أن كلام الله "مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه ، فإن ما وجد في محل عرض قد فنى في الحال"<sup>(2)</sup> ، ويقول ابن الهذيل العلاف: "إن القرآن الكريم كلام إرادي تشريعي يقع في محل ، فما هو هذا "المحل" ؟ يجيب العلاف: "إن هذا المحل ليس ذات الله طبعاً ، لأن ذاته لا يمكن أن تكون محلاً للأمر والنهي والأخبار ، فلا بد أن يكون هذا محل غير الله ، وإذا كان القرآن الكريم كلاماً يقع في محل غير الله ، فهو عرض مخلوق كسائر الأعراس".

من هنا برزت أهمية التأويل لكل النصوص القرآنية لكي تتماشى مع المنطق المعقول ، وما وصل إليه الإنسان من تطور في عقلته يمكنه أن يربط بين المفاهيم المختلفة ويطابق بعضها ببعض إلى أن يحصل على قناعة وإيمان بما يقال له ويسمع به ، وقد نشأ مبدء الاحتكام للعقل من موقف المعتزلة الذي أملت عليه ظروف التطور الفكري؛ والتكديس الثقافي لمجتمعهم في مرحلتهم التاريخية المتحركة بقدر ما ساعدت عليها ظروفهم الاجتماعية والسياسية التي انطلقت منها الأفكار الفلسفية التي أمدتهم بالوسائل المعرفية باستخدام البراهين الفعلية وأدواتها المنطقية لدعم مبادئهم. وكما نحن بحاجة اليوم للتأويل في النصوص

(1) أحمد أمين "ضحى الإسلام" ، ج3 ، ص 34-35.

(2) الشهرستاني "الملل والنحل" ، ج1 ، ص 49.

القرآنية كي نعين الشباب في عدم الانخراط في تيارات العنف التي تدعي الإسلام. لقد حصلت معركة خلق القرآن في عصر المأمون التي وضعت حداً لعصرٍ كامل، وأدت إلى مجيء عصر آخر، فهي إذ تمثل تنويجاً لكيفية القراءة الحديثة "للقرآن الكريم" وهو كتاب المسلمين المقدس وأساس النهضة التحويلية الواسعة العميقة في المنطقة. وتكوين مجموعات من القبائل والشعوب كأمم جديدة، فإنها تعبر كذلك عن صراعات إجتماعية "وقومية"، وعن عجز القوى القائمة المنفضة عن فهم القرآن الكريم، وتشكيل معنى حديث ومنسق وشامل عنه. ونحن نعيش في هذا العصر، ونرى كيف ينخرط الشباب إلى تنظيم القاعدة وغيرها من خلال سوء الفهم وعدم تأويلهم الآيات التي تمسكوا بها واتخذوا منها ذريعة لأعمالهم العنيفة والدموية.

يقول عبدالله خليفة<sup>(1)</sup>: "إن عملية الترجمة الكبرى من الإغريقية إلى العربية، والذي يعني تلاقحاً كبيراً بين لغة كانت بدوية إلى مدى قريب، وبين لغة فكرية متقدمة، وتوجه الترجمة إلى قمتها التجريدية في المنطق والفلسفة والتي تتداخل مع الرياضيات والفلك والطب... إلخ، كانت تستهدف تطور المناخ الثقافي العام، وعدم جعل أصحاب الثقافة التقليدية مهيمنين على الوعي، لكن ذلك لم يكن متلبوراً كسياسة ثقافية محدودة، ويُذكر هنا حلم المأمون ورؤيته لأرسطو، الفيلسوف اليوناني الأول، وأنه دعاه إلى فكره".

يعلق "محمد عابد الجابري" حول هذا الحلم قائلاً: "وإذن فحركة الترجمة تلك التي اتجهت إلى أرسطو بالذات كانت جزءاً أساسياً ورئيسياً من استراتيجية جديدة لجأ إليها المأمون لمقاومة الأساس المعرفي لإيدولوجية خصومه السياسيين"<sup>(2)</sup>.

(1) عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (2005) بيروت، ج2، ص473، ص475.

(2) محمد عابد الجابري "بنية العقل العربي"، السابع 2004 مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، ص224.

إن ملوك النهضة في منطقة الشرق الأوسط، كانوا يعتبرون هذه الفلسفة شرطاً ثقافياً مهماً للتقدم، وبمعنى ما، فإنها تتجاوز ثقافة الأديان التي كانت فكراً توحيدياً في البداية، ثم ما لبثت أن تحوَّلت إلى مذاهب تُهدد بتفكيك تلك الامبراطوريات التي تربع على عروشها أولئك الأباطرة، متصورين أن اللجوء إلى الفلسفات المتقدمة يمكن أن يجنبهم مصير التفكك المنتشر والمتفجّر، وهذا ما هيمن على وعي المأمون الذي تعطي سيرته هذه العملية المزدوجة المتناقضة أي عمليتي: الترجمة المتحضرة، وفرض تصوّر سياسي بالقوة في مسائل فكرية ودينية مقدّسة ومحفوظة بالمخاطر.

لقد حصلت ثورات عديدة في عصر المأمون كان أبرزها الثورة الفلاحية في مصر، وثورة بابك الخرمي في الأقسام الشمالية من إيران ثم ثورة في الشام.. الخ، وقبل أن تتجزّء البلاد، فقد وجد أن هناك حاجة ملحة إلى توحيد مُطلق وكلي وتجريدي للأدلة.

وبدأت بذلك مسألة خلق القرآن تختمر في وعي المأمون، بالتوافق مع حملاتة العسكرية ضد تلك الثورات، وفي الوقت الذي فقد فيه العرب أهميتهم العسكرية في الجيش وتدقّق فيه الأتراك والأكراد أو التركمان، فلقد بدأ بدو جُدد في الحلول محل العرب في تأدية وظيفتهم التاريخية، وبالتالي وجد نفسه مُرغماً في مُسيرة التطور الفكري المنسجم مع تلك الأقوام للمحافظة على وحدة البلاد والقصر من التوارث والأخطار الأخرى، وإذا كان للمأمون مشروع الفكري والسياسي بتركيز السلطة السياسية في العاصمة (بغداد)، وبين يديه وأسرته، واتخاذ معركة خلق القرآن انكريم كوسيلة لتأكيد قيمة الفكرية المطلقة، ولتحديد ما هو الإيمان وما هو الكفر، فإن (سلطة) أخرى كانت تتشكل على مدى التاريخ الإسلامي السابق، إن رجال الدين المسلمين كانوا يتغلغلون في شرايين النظام الاجتماعي والسياسي عبر العقود الماضية، وقد بدأ رجال الدين في العصر العباسي يتحولون إلى جزء من النظام، حين هزمت الثورة

الزيدية الاعترالية المشتركة، وحين أطبقت الدولة بقواها العسكرية الهائلة على الأقاليم المختلفة، ولم تعد ثمة قوة معارضة يعتد بها في مركز السلطة وغدت السلطة ذات وجه ديني بارز، فلم يعد الخليفة سلطاناً وملكاً فقط، بل صار إماماً أيضاً فجمع في يديه كافة السلطات، وتحول خليفة مثل المهدي إلى قائد ملاحقات فكرية اضطهادية، وأنشأ ديوان (الزندقة)، وعبرت ملاحقاته للمانويين عن الخوف من تمزق الأقليم المحكومة بواسطة العاصمة، وخاصة إيران المركز الأساسي للمانوية والزراداشتية والمزركية، وهكذا تم تحويل الأهداف السياسية تحت ستار الدعوى الإيمانية إلى وسيلة قمعية لكبح جماح الفلاحين وغيرهم، وقد تبلور ذلك في ذهن المأمون لما يتمتع به من وعي فكري متميز، ووجد الايديولوجيا الاعترالية التابع غير المستقل فكراً وسياسياً<sup>(1)</sup> له.

أما عن أسباب تراجع فكر المعتزلة في العصور التي تلت عصر المأمون فيقول عبد الله خليفة<sup>(2)</sup>: "إن البنية الرعوية لا يمكنها أن تستوعب بشكل جماهيري العمليات الفكرية المجردة، وقد واصل المعتزلة إنتاج خطاب تجريدي عن الأدلة، دون ربط ذلك بقراءة الطبيعة والمجتمع، فلم يتوجه النظر إلا إلى ملاحظات جزئية عن الطبيعة، كالبحث في توالد الأسباب، وقد احتاجت العملية علاقة وثيقة بالتقنية وهراء المادة، ودرس التاريخ بدرجة أوسع، إلا أن المعتزلة لم يقدرُوا على فعل ذلك، دفعه واحدة نظراً للاتجاه الغيبي المسيطر، ولغياب الإمكانيات والموارد الفكرية.

أن شكل الوعي الاعترالي المرتبط بحاجة القصر هو مماثل للانتاج الحرفي المرتبط بالقصر، وذلك يتمثل بجمع المالية من كل الأقطار التابعة له، ولما كان القصر هو الذي يضع سقف التطور للانتاج الروحي (الديني) والمادي معاً، فهما

(1) عبد الله خليفة. المصدر السابق، ص 478.

(2) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص 486.

يشتغلان لحاجات بذخية، فينفصلان عن بعضهما، كما ينفصلان عن مسار تطور المجتمع وتلبية حاجاته الأساسية". وقد ظلت الأبحاث الفكرية مرهونة بحاجة القصر الفكرية، بشكل ما أو بآخر.

إن البذخ الرهيب للموارد كان يقود إلى الإفلاس الفكري، وهو يبعث المستويات الأيديولوجية لما قبل التراكم المالي المعرفي الراهن. فالعقل الاعتزالي يتوقف عن التغلغل في أسرار المادة الطبيعية والاجتماعية، مثلما لا يقوم رأس المال بتجاوز مرحلته التجارية (النقدية)، للصعود إلى رأسمال صناعي مثلاً في العصور المتقدمة.

إن الحديث عن القرآن الكريم مخلوق رغم جوانبه العلمية الإيجابية المفيدة إلا أن هؤلاء الأفراد من المعتزلة عبّروا عن انهيار حركتهم وتبدل مسار نضالهم الذي بدأ على يد واصل بن عطاء مستهدفاً مراقبة المال العام، والعدل وانتخاب الحاكم، فأخذوا هذا المسار إلى دهاليز الة صور وأهدافها، وهذا لا يعني أن الجماعة المضادة للاعتزال، كانت تقود المسلمين إلى الهدف الصحيح، فإنها كانت ترى القضية مجردة وفكرية مفصولة عن إعادة تشكيل حياة الناس، واعتبار الأمر بدعة، وهي تعيد الناس إلى حالة البنية الرعوية والمستويات الفكرية السائدة فيها. لقد كان المعتزلة يواصلون الدفاع عن وحدة الحضارة العربية الإسلامية عبر تأكيدهم الكلّي على رمزها الوحيد الخالد الذي هو الله، وفي ذات الوقت كانوا يحاولون خلق خربة معينة للبشر في هذه الحضارة، عبر تلك الإزاحة الكلية للتدخل الإلهي المباشر في كل حياة البشر وفي العالم، لكنهم في نفس الوقت كانوا يفتقدون النسق الفلسفي الكلّي المترابط والمتنامي بين صورة الإله وبين الطبيعة والحياة الاجتماعية، على مستوى تراكم المعرفة العلمية بالطبيعة والمجتمع وعلى مستوى كفاحية تلك الفئات الوسطى للخروج من هيمنة الخلافة، وكلا الجانبين كانا مفقودين، وهكذا كانت مؤسسة



الخلافة" أيام المأمون تقوم بحركة تنوير ثقافي مفصول عن العمليات الديمقراطيةه  
مثلا أو أي عملية من شأنها أن تقوّض أو تُضعف السلطة المركزية الفردية  
السائدة في ذلك العصر.

فتوجّه حركة الاعتزال نحو التأكيد الشديد على الوحدانية الإلهية وفصل  
القرآن عن تلك الوحدانية، وإضافة إلى كونها حركة فقه فلسفية نخبوية، فإنها  
حجّمت من العملية الديمقراطية التحويلية للحياة مقتصرة إياها على نشر تصورها  
عن الذات الإلهية، أي غدت العملية التنويرية مقتصرة على تعجر طاقات الثقافة  
العربية الإسلامية في خدمة هدف استبدادي، مترافق مع إلحاق اضطهادي  
للأقاليم وإلحاق اقتصادي واجتماعي وفقهي لمثقي الطبقة الوسطى (إن وجدت).  
لكن استمرار الفكر التنويري على ما يبدو وبعد فترة طويلة من الزمن،  
انتقل إلى أوروبا في بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر، وفي  
تصاعد مُستمر إلى أن أوصلنا إلى ما نحن عليه من فكر وحضارة حديثة، وهذا  
ما يدل على أن العقل البشري مُترابط في كل أنحاء العالم ويقينا نحن نتباكي  
على تلك الومضة البسيطة من جماعة المعتزلة في التنوير واعطاء الحرية للعقل  
دون فعل ايجابي مستمر آخر.

لقد تهيّأت ظروف أكثر ملائمة الأوروبيين في السير قُدماً نحو الاصلاحات  
الفكرية الفلسفية بعد فترة من الزمن لعدم وجود قيود التمسك في النص أصلاً  
في دياناتهم المسيحية وهذا عامل مهم في حصولهم على طفرة كبيرة في مجال  
الإصلاح الديني بالإضافة للعوامل الأخرى التي لا مجال لنا في بحثها هناوسنأتي  
لتوضيحها في فقره لاحقه.

## (13 - 2) أهم رجالات الطور الثاني للاعتزال في العصر العباسي :

اعتمد معتزلة الطور الثاني على الأسس الفكرية التي تمت صياغتها في الطور الأول، فقد ظلت تحكم بحث المعتزلة الجدد، وأدخلت عناصر مكتشفة جديدة في عباءة المبنى الفكري الجديد، ومن أبرز شخصيات المعتزلة في هذه الفترة هو أبو هذيل العلاف، توفي في (235هـ)، في بداية خلافة المتوكل، وقد حدد العلاف العلاقة بين الإنسان والخالق بوضع حرية للإنسان بإعطائه إمكانية الحركة والسكون والكلام والمشاعر النفسية، وفي هذه الإمكانيات تبرز اختياراته وتتشكل أغراضه، أما الجوانب المادية والموضوعية الخارجية كألوان الجسم والأشياء وظاهرات الطبيعة المختلفة بما فيها الحياة والموت، فهي خارجة عن إرادة الإنسان.

إن العقل الاعتزالي هنا يبحث عن فعل الإنسان الحر المرتبط بهيمنة إلهية، والإنسان هنا فرد خارج التاريخ وسيرورة الطبيعة. فالألوان البشرية - حسب مستوى إدراكنا الآن - تدخل دائرة الصناعة التاريخية عبر تقبل البشر في أرجاء الكرة الأرضية، ولكن البشر يصنعون ألوانهم عبر علاقاتهم المتعددة بالبيئة.

ويمثل "أبراهيم بن سيار" الملقب "بالنظام" وقد لقب كذلك لأنه كان يحترف نظم الخرز في سوق البصرة في بداية حياته، أكثر العقليات الاعتزالية جرأة واقتراباً من الفلسفة (وقد مزج في قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة، وانفرد في نظرتة، بأن الله لا يقدر على فعل الشر وأنه يفعل الأصلح لعباده، وقوله بنفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، وقوله أن الله خلق الكائنات دفعة واحدة، معادن، ونبات، وحيوان، وإنسان، غير أن الله أكمُن بعضها في بعض)<sup>(1)</sup>.

(1) شوقي ضيف "العصر العباسي الأول"، دار المعارف، ط11، ص431.

وفي قوله أيضاً أن العالم الطبيعي والنباتي والحيواني في تشكيلة واحدة متفاوتة التطور والزمن، وبهذا فإنه يقترب من موضوعية الوجود، وإن صورة الخالق التي يشكلها هي هيمنة على الوجود (كما يطرح ذلك أبو الهذيل العلاف) لكنها في مسألة الفعل البشري غير مهيمنة، أي أن البشر أحرار فيما يفعلون ولديهم العقل القادر على التمييز بين فعل الخير وفعل الشر، إن النظام يدفع الموقف التثويري إلى الأمام عبر إعادة النظر في الموروث الإسلامي ذي الطبيعة الخارقة، مُركِّزاً على العِلل المعقولة، واستبعاد الجوانب السحرية والخرافية، ولهذا فإنه لا يعطي الجن إمكانية الظهور والتأثير في العالم، ويلقي مسائل الحظ والنجوم. من هنا غداً أنصار المعتزلة أكثر جرأة في مواجهة مسائل الشعوذة، وأصبح أنصار الحديث يعتبرونهم الخطر الأكبر على الدين، إذن "فالنظام" يقبل بالإرث الديني السابق مع بعض التجديدات، وبغريزة النصوص الدينية، وبملاحظات إجتماعية نيرة في أحيان عدة، فإنه يتجه نحو مهمات فكرية تثويرية في ظل النظام القائم تقوده ظروفه المعاشية الصعبة إلى أن يقترب من السلطة، مُصارعاً قوى فكرية مختلفة ومتقدمة في الحياة، هكذا يمكن اعتبار أن "النظام" صاحب فكر أكثر حداثة عما هو عليه الحال من بعض السلفيين في عصرنا.

وفي نفس تلك الفترة كان المعتزلي "معمر السلمي" (في مدينة البصرة) يطرح أفكاراً جديدة توسع الطابع الفعلي في الوعي الفلسفي الديني، فهو صاحب فكرة (وُجد العالم بما لا يتناهى من المعاني) أي أن الكون مُتوحد ومتصل، وقد ظهر العديد من المعتزلة في العصر العباسي، نذكر منهم ثمامة بن الأشرس وهشام النوطي والجاحظ وأحمد بن داؤد وكلهم وأصلوا العلاقة المفيدة مع الدولة، لكن بشر بن المعتز لم يرق مثل هذه الصلوة وقد سجنه الرشيد، ومنذ ذلك الحين تعرّض قسم كبير من المعتزلة إلى القتل والتشرد، لذلك بقي الفكر محصوراً ومحدوداً بالشكل الذي لا يمسّ السلطة الحاكمة (القصر)، لكي

يكون مقرباً منه، وكان من بينهم في عصور تلت ذلك علماء وأطباء وفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا، وابن رشد، وابن ماجه، وابن طفيل وغيرهم. ورغم تعرض العديد من هؤلاء إلى الاضطهاد والتشرد لكنهم استطاعوا أن يوصلوا رسالتهم إلى العالم الآخر (الغربي)، بعد قرون وبعد أن ترجمت أعمالهم إلى لغات عديدة. وقد تعرضت الكثير من مؤلفاتهم إلى الحرق من قبل الخلفاء في بغداد والاندلس<sup>(1)</sup>.

وقد ظهر طور ثالث من المعتزلة كانت في أواخر العصر العباسي شملت مجموعة من العلماء والمفكرين الذين قدّموا خدمات جليلة للفكر والمعرفة الإنسانية، ولكن الموقّعات التي أحالت دون الاستمرار وإحداث نهضة اجتماعية واقتصادية وعلمية مُستدامة كانت تكمن في بُعد هؤلاء عن الأغلبية الساحقة من الجمهور وعدم توفّر الظروف والعوامل الأخرى كتلك التي توفّرت للأوروبيين في بداية عصر النهضة.

يتضح من كل ما تقدم أن أصلاً فكرياً كان لا بد منه في المفاهيم الدينية التي لم يتم تأويلها، وكان لا بد لها أن تستمر وتتشط لكي تعطي حريه فكرية اكبر، لأن الاعتماد الكلي في أبسط الاعمال واكبرها على القضاء والقدر وعلى الخالق يجعل الانسان عاجزاً عن الابداع والعمل المفيد المثمره وكان ذلك سبباً رئيسياً وراء تخلف العالم الاسلامي طيلة العقود الماضية، وان الشعله التي أوقدها المعتزلة في العصر العباسي كانت قد أنطفأت ولا بد لنا في العصر الحديث من إيقادها ثانياً كي نواكب العصر الحديث، وبعد زيادة معرفتنا بمجتمعنا واحتياجاته.

(1) ول ديورانت قصة الحضارة ج(13- 14) ص197



## الفصل الثالث



### عصر الفول



## الفصل الثالث

## عصر المغول

لقد أصبح واضحاً للجميع أن حادث الهجوم المغولي، قد أصاب العالم الإسلامي في آسيا بضربة قاصمة، لم تستطع أن تفيق من شدتها حتى الآن، فهم بتحطيمهم للخلافة العباسية في بغداد، قد قضوا نهائياً على وحدة العالم الإسلامي، وقد بدأ الهجوم المغولي بغارة "جنكيز خان" في بداية القرن الثالث عشر عام (1213)، بينما كانت الفارة على بغداد وقتل الخليفة العباسي "المستعصم" على يد "هولاكو خان" في سنة (1258)، وكان الخراب الذي أصاب الجزء الشرقي (الآسيوي) الإسلامي شديداً، فقد كانت جموع المغول كالذئاب المتعطشة إلى الدماء، فأخذوا يقتلون كل من يُصادفهم، ويحرقون ويدمرون كل ما يعترض سبيلهم، دون أن تأخذهم في قسوتهم رحمة، أو شفقة حتى آثر عنهم هذا القول المشهور بأنهم "جاءوا وخربوا وحرقوا وقتلوا وسلبوا وذهبوا"، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل أن هذه الكارثة كانت فعلاً الوحيدة التي سببت لنا كل ما ورثناه من تخلف عن ركب الحضارة، وابتعاداً عن كل تقدم علمي وأدبي وحضاري منذ ذلك الحين وإلى الآن؟ وهل كان التخريب الشامل الذي أحدثه المغول لنا وحدنا بهذه الدرجة من القسوة أم هناك مناطق وشعوب أخرى أصابها ذلك الدمار واستطاعوا أن يتجاوزوه؟ ولماذا لم يوضّح لنا المؤرخون والكتاب في الكتب المدرسية عن تلك الفترة ما يكفي لتتضح لنا الصورة بشكل موضوعي نستطيع من خلالها أن نفهم ما تُعاني منه من موروث لا يزال يؤثّر علينا بهذا القدر أو ذاك؟

كل هذه التساؤلات سنحاول تفكيكها في هذا الفصل من خلال إلقاء ضوء على أهم الأحداث المؤثرة ويقدر ما متوفر من مصادر تاريخية عنها، وبمقدار مساهمة تلك الأحداث في موروث العنف السياسي الذي تعاني منه المنطقة الشرق أوسطية حالياً.

لقد شملت الهجمة المغولية مناطق واسعة من العالم، فوصلت ما بين اليابان شرقاً، والصين والهند وأواسط آسيا برمتها إلى ألمانيا غرباً، وذلك يشمل أجزاء كبيرة من روسيا وأوكرانيا ورومانيا وبولندا، وكل أوروبا الشرقية وإلى ألمانيا<sup>(1)</sup>. لقد أصابت الجنس البشري بكثير من الشرور التي لم تُحدثها كارثة أخرى في تاريخ العالم المعروف ألا وهي كارثة "غارة المغول". فهذه القارة أشبه بثورة جامحة من الثورات الطبيعية، ولكنها لا تُشبه بشيء مما نعرفه من أحداث التاريخ الإنساني، لأنها امتازت بالمفاجأة، والتخريب الشامل، والقسوة النابية، والغلظة الجافية، والشدة التي لا تقاوم، والتعطيم الذي لا رحمة فيه، والدمار الذي لا مقصد من ورائه...!!

وقد قامت بهذه الأفعال جميعاً قبائل متوحشة لم يكن يعرفها أحد، حتى أشد الناس اتصالاً بهم من جيرانهم. لكن وكما هو معلوم فإن مناطق عديدة وصل إليها التدمير المغولي لكنها تجاوزت كل ذلك الخراب، واستطاعت أن تبني من جديد، ولا نريد الخوض في تفاصيل دقيقة عما قام به المغول من تخريب، ويمكن الرجوع إلى المصادر التي نخص بالذكر منها على سبيل المثال:

1- إبن الأثير "تاريخ المغول"، وكان معاصراً للأحداث.

(1) طلب المغول من اليابان الخضوع لسلطانهم في سنة (1270) وهاجموها ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة (1283)، وقد حطم أسطول المغول في سنة (1280) كما حطمت الارمادا الاسبانية تماماً، أما غارات المغول في أوروبا، فقد حدثت ما بين سنة (1236) وسنة (1241).



2- ياقوت الحموي "تاريخ المغول" والذي عاصر الأحداث وكان صديقاً لابن الأثير.

3- دوسون (D'ohsson) "تاريخ المغول". (مؤرخ فرنسي معروف)

4- السير هنري هوورث (Sir Henry Howorth). (مؤرخ انكليزي معروف)

5- شهاب الدين محمد النسوي "سيرة السلطان جلال الدين المنكبرتي".

وغيرها من المصادر التي ذكرت تفاصيل يومية لمعظم الأحداث التي حصلت ورغم ما فيها من مبالغة وتهويل في الأرقام إلا أننا نستطيع أن نفهم ما جرى من خلال الترابط والتحليل العلمي والعقلاني.

### 1- غارة المغول على خوارزم:

لا بد لنا أولاً أن نعرف ما الذي ساعد في ظهور المغول البغيض، وما امتازوا به من عادات قبيحة كرهية على زيادة الفرع الذي استولى على القلوب، بسبب ما عرف عن غلظة لا تقف عند حد، وقسوة لا مزيد عليها، لقد وصف دوسون المغول<sup>(1)</sup>: "لقد فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية، فقتلوا جميع من وقع في أيديهم من أهل البلد التي فتحوها، ولم يبقوا على رجل أو امرأة أو طفل وأحرقوا البلدان والقرى، وأحالوا الديار العامرة إلى مغارات مقفرة، ولم يكن يحفزهم على ذلك كله رغبة في ثار أو حب لأنتقام فقلما كانوا يهتمون بالكشف عن هويتهم أو الوقوف على شخصيتهم".

ولربما ظن البعض أن التاريخ تفالى في وصف مآسيهم وفظائعهم، ولكن جميع المراجع التي دونت عنهم في بلاد مختلفة، تتفق تمام الاتفاق على ما امتازوا به من غلظة وعنف، وكانت عاداتهم أن يسترقوا البقية الباقية من أهل البلاد التي

(1) دوسون "تاريخ المغول من جنكيز خان إلى تيمور لنك" المجلد الأول، ص6، (مترجم من الانجليزية إلى العربية)، طبع القاهرة.

يفتحونها وأن يعذبوها أشد العذاب، بحيث كان من ينجو برأسه من سيفهم لا يستطيع أن ينجو بنفسه من عسفهم وظلمهم، وكانت حكومتهم تعمل على نشر الفساد فتقضي على كل من عُرف بالشرف والثَّبل، وتقرب لسادتهم من ذوي القلوب الغليظة بكل ما يتمنون من مال أو قوة أو سلطة، يستطيعون بها، التعسف مع ذوي قرياهم وأبناء جلدتهم. وقد أصبح تاريخ المغول بما انفرد به من وحشية وعنجهية، سجالاً لكثير من حوادث الفزع والرعب، ولكن ذرأته على الرُّغم من ذلك واجبة على كل من يريد تفهّم الحوادث الهامة التي وقعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، خاصة وأن تاريخهم قد اتصل بتاريخ جملة من الممالك والامبراطوريات، والرأي المتأخذ أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهّلت وتيسّرت حدوثها على العالم الإسلامي بواسطة ما عُرف من ملك خوارزم في إيران<sup>(1)</sup> المدعو "علاء الدين محمد" من طمع وخيانة وتردد، فطمع ظاهر كما يقول ابن الأثير "في أنه استولى على البلاد وقتل ملوكها وأقتاهم، ليبقى هو وحده على مملكة نخرة هاوية، فلما انهزم أمام المغول، وفرّ أمام جيوشهم تاركاً بلاده للقدر يفعل بها ما يشاء، لم تجد هذه البلاد أميراً إسلامياً واحداً يستطيع أن يلمّ شعنتها ويوحّد جهودها أمام الجيوش المُغيره من المغول. فقد كانت الامبراطورية الإسلامية ممزّقة أصلاً إلى ولايات ودول عديدة تصغر وتكبر بين فترة وأخرى.

وتظهر خيانة علاء الدين محمد هذا واضحة عندما قُتل رُسُل المغول وتجارهم، فأعطى بذلك لـ "جنكيز خان" الحجّة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، ولإثبات أوجه الضعف والخذلان التي تسود الحالة في خوارزم، كذلك فإنه عند

(1) تقع مملكة خوارزم في الشمال الشرقي من إيران وقد توسّعت المملكة لتشمل أجزاء عديدة من أواسط آسيا وأفغانستان وإلى حدود الصين، وكانت تضم عدة قوميات ولها حدود مجاوزة مع منغوليا.

أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى إظهار الفزع والخوف بدل ما كان بيديه من غطرسة وتحذّر، ولم تكف تنقضي سنتان على قتله لرُسل المغول حتى نجده في النهاية يموت شريداً طريداً في إحدى جزر بحر قزوين.

وهناك سبب آخر يرجع إليه ضعف المقاومة الإسلامية في وجه المغول، وهو الخلاف الذي نشأ بين ملك خوارزم "محمد" والخليفة العباسي "الناصر" في بغداد، فقد كان هذا الخليفة يخشى ملك خوارزم، وازدياد قوته وطمعه في الاستيلاء على "بغداد"، فسمى كما كان يفعل الخلفاء المتأخرين إلى إضعاف منافسه والإيقاع به وتدبير المكائد له، وأخذ يُشجّع المغول على مهاجمته، كما أشار "ابن الأثير" إلى ذلك، وكذلك صرح "المقريزي" في كتاباته، ومن العجب أن أعقاب هذا الخليفة قد هلكوا على أيدي هؤلاء المغول الذين أبادهم جميعاً وحطّموا دولتهم واستولوا على بلادهم<sup>(1)</sup>، ويبدو أن الكارثة قد بدأت عندما علم ملك خوارزم عند استيلائه على مدينة غزنة<sup>(2)</sup>، بأمر المراسلات المتبادلة بين الخليفة وحاكم "غزنة" من أعقاب "سبكتكين"<sup>(3)</sup>، بالإضافة للخلاف الحاد الذي نشأ بين الخليفة العباسي في بغداد وملك خوارزم التي بلغت درجة عالية من التهيج لحرب بينهما، وكان السبب الآخر هو اشتداد البرد وقسوة الشتاء في ذلك العام بشكل سهّل على المغول الهجوم المباغت لأنهم اعتادوا عليه، بينما كان غريباً على أهل إيران، ومن المحتمل أن الحرب كان لا بد لها أن تقع مهما اختلفت وتعددت الأسباب.

(1) دوسن "تاريخ المغول"، (المصدر السابق) ج1، ص211.

(2) مدينة غزنة: إحدى المدن التاريخية المهمة، وتقع في الجنوب الغربي لمدينة كابل في أفغانستان حالياً، وكانت عاصمة للمملكة الغزنوية.

(3) أي الغزنويين من أعقاب محمود الغزنوي بن سبكتكين.

فقد رأى "جنكيز خان" أن يُرسل جماعة من التجار محملين بمصنوعات بلاده إلى مدينة حدودية إسمها "آترار"، وقد قتلهم حاكم أترار جميعاً بتعريض خفي من ملك خوارزم، بعدما ألقى في روعه أنهم ليسوا تجاراً بل جواسيس للمغول، فلما قتل هؤلاء التجار، أسرع "جنكيز خان" بإرسال بعثه إلى ملك خوارزم مكونة من عضوين مغوليين وثالث تركي إسمه "بغرا" وكلفهم بأن يحتجوا لديه على ما أصاب رُسله من إهدار لحقوق الضيافة: وتضييع لواجبات المجاملة المتعارف عليها، وأن يطلبوا إليه أن يسلمهم حاكم "آترار" وإلا فليعد العدة لحرب طويلة قاسية، ولم يجبههم ملك خوارزم إلى ما طلبوا، بل على العكس من ذلك قتل الرسول التركي "بغرا" وأمر الرسولين المغوليين الآخرين بالعودة إلى مولاهم بعد أن حلق ذقنهما، وثار "جنكيز خان" لإهانة رسله، فعقد جمعية عامة من المغول وقرر مهاجمة "خوارزم"<sup>(1)</sup>.

وبدأت الحرب بانتصار تامة فاز به "محمد خوارزمشاه" ولكنه بقي مع ذلك خاملاً مبتعداً بنفسه عن موقع الخطر تاركاً أمر المدافعة عن حدود بلاده التي أغار عليها المغول إلى حكامها، منتظراً لحظة مباركة يشير بها المنجمون لبيدأ فيها منازلة خضمة، وكانت آثاره الحروب في ذلك العصر تظهر من خلال أسباب بسيطة وتبدأ بالاشتعال بعدما بيّت في أمرها المنجمون والسحرة\*، وهكذا بدأت الشرارة الأولى للهجمة المغولية، فقد عصفت العاصفة بشدة فيما وراء النهر (بخارى وسمرقند وخوارزم وكافة مناطق آسيا الوسطى)، وسقطت مدينة "آترار" عام(1219) بعد حصار دام خمسة أشهر وقبض المغول على حاكمها الذي أمر

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران" ج2. ترجمة إبراهيم بن الشواربي، ص55، القاهرة (1954).

\* لا يقدم الملوك والامراء على أي عمل قيل أن يسأل ويستشير السحرة والمنجمون أو انعرافه في ذلك الزمان عن مدى نجاح أو فشل القيام بأنهمه من عدمها.

بقتل تجارهم، فأعدموه بأن صبوا الفضة المصهورة في عينية وأذنية، ثم ساقوا أمامهم من نجا من غارتهم على هذه المدينة، فدفنوا بهم إلى مدينة "بخارى" لينتفعوا بهم ضد مواطنيهم وأهلهم.

وهكذا استمرت غارة المغول بالسيطرة على مدن خوارزم مدينة بعد أخرى، إلى أن وصلوا "بخارى" وعملوا الفارة فيها وأحرقوها وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها واستحيوا النساء وهتكوا الحرمات، وقد أثر الموت جهاداً جماعياً من سكانها لم يرضوا بحياة العار والدل فاستشهدوا مقاتلين، وكان من بين هؤلاء القاضي "بدر الدين" و"ركن الدين" وابنه، وجاء التسلسل إلى "سمرقند" بعد ذلك فحاصرها المغول أربعة أيام خضعت لهم في النهاية، فأغاروا كعادتهم ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها واستعبدوا من نجا من حد سيوفهم، واستمر "محمد خوارزم شاه" في التقهقر والتراجع، وأخذ ينصح سكان البلاد التي يمر بها أن يعملوا ما بوسعهم<sup>(1)</sup> لحماية بلداتهم. واعتقد أن المغول سوف لا يقدرّون على عبور نهر جيحون فتوقف في مدينة "نيسابور" لكن لم تمض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى سمع أنهم دخلوا خراسان، فأسرع إلى الهرب باتجاه قزوين. وعندما وصلها توجه إلى كيلان ومازندران، وهناك تركه أتباعه وكان مصيرة إن مات في إحدى جزر بحر قزوين.

وهكذا سقطت مملكة خوارزم وكانت قد قاومت المغول مقاومة شديدة أثارت حفيظتهم، فلما وقعت في أيديهم عملوا سيوفهم في رقاب أهلها جميعاً، ولم يبقوا من سكانها إلا على أصحاب الحرف والصناعات التي تقيدهم، وقد نقلوهم كعادتهم إلى "منغوليا"، وقد ذكر في كتاب "جامع التواريخ" أن الجيش المنغولي كان يبلغ خمسين ألف مقاتل وإن وكل لكل واحد من هؤلاء أن يقتل

(1) دوسون، المصدر السابق، ج 2، ص 477.

أربعة وعشرين رجلاً من الأسرى الذين وقعوا في قبضتهم بعد الاستيلاء على هذه الولاية، وكمثال على ما عمله المغول في هذه الولاية، أن عجوزاً في مدينة "ترمد" ابتلعت جوهرة لتخفيها عنهم فأمروا جنودهم بإخراج القتلى وشق بطونهم بحثاً عن الدرر والجواهر ظناً منهم أن عدداً كبيراً قد كرر فعله العجوز قبل مماته .

وهكذا ازدادت قسوة المغول وغلظتهم كلما ازداد نجاحهم ونفوذهم وأخذت انفلطة والفظاعة تزداد أكثر فأكثر. وتمسح الرحمة والشفقة حيال سكان المدن النبائسة التي وقعت تحت أيديهم، بل أخذوا يبيدونهم عن آخرهم، كما فعلوا بسكان "بلخ" و"نصرت كوة" و"نسا" و"نيسابور" و"مرو" وأماكن أخرى كثيرة من المدن الإيرانية؛ وقد قدر ابن الأثير القتلى من أهل "مرو" بـ 700.000 قتيل، بينما قدرها آخرون بأكثر من ذلك بكثير، وفي نيسابور قطع المغول رؤوس قتلاهم، ووضعوها على هيئة أهرام عائلية إحداها لرجال والأخرى للنساء والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتائه بين الأشلاء والجثث المترامية، (أي قد ينجو أحداً من الجرحى بعد أن يستفيق من جرحه ويظهر لهم ثانياً وكان ذلك سبباً وراء قطع الرؤوس في الحرب كي يتأكد لهم الموت الحتمي).

لقد ثبت عبر التاريخ أن من يقتل بشراً بهذه البشاعة يتوغل بالقتل أكثر فأكثر بمرور الزمن، ويزداد تعطشاً لسفك الدماء إلى النهاية. ونم يأل "المغول" جهداً في إيقاع الدمار والخراب بالأماكن التي اجتاحتها وكانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلل التي تزيد على حاجتهم، وكثيراً ما كانوا يعودون إلى البلدان التي أغاروا عليها فيفتشونها من جديد ويقتلون البقية الباقية من أهلها الذين اختبأوا أثناء الغارة الأولى وأخذوا يخرجون الآن بأحثين عن الطعام

والشراب، وفعلوا ذلك مع أهل "مرو" واستطاعوا أن يقتلوا أثناء عودتهم خمسة آلاف رجل نجو في غارتهم الأولى.

وكانوا يلجأون إلى شتى الوسائل لتعذيب الأسرى للاعتراف بأماكن النقود والكنوز التي أخفوها...<sup>(1)</sup>، أما كنوز الآداب والقنون التي كانت تخر بها المدن القديمة التي فتحوها فقد حطمت تمام التحطيم وكان هذا طبيعياً ومنتظراً من قوم يستهينون بكل ما هو إنساني<sup>(1)</sup>.

وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد، التي ينوون الإغارة عليها وكانت قلوبهم تتخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد: "لسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم...!!"<sup>(2)</sup>.

أما عن ديانتهم فقد كان المغول لا يعرفون الدين في بادئ الأمر، وكانوا يتساهلون في أمور الدين وقد ساووا بين رجال الدين في مختلف العقائد والمذاهب، وقد أمتاز "جنكيز خان" على العموم بتسويته بين الأديان جميعاً دون أن يعتق واحداً منها، أما من جاء بعده "قبلاي خان" وهو أحد أحفاده (1257- 1279)، فكان أول من اعتنق البوذية، وأما أول من اعتنق الإسلام فهو "أحمد" "تاكدار خان" (1282- 1284)، ثم غازان خان (1295- 1304)، ومنذ ذلك الحين بقي المغول يدينون بالإسلام، وقد ظهر كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام أصبحوا من كبار المتفهمين في تعاليمه<sup>(3)</sup>، ومهما قيل عن غارة المغول، وأنها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة وأنها جنت على العلوم والمعارف الإنسانية، وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليماً معافى في إيران والعراق طوال

(1) دوسون "تاريخ المغول"، ج1، ص350.

(2) دوسون، المصدر السابق، ص394.

(3) دوسون، المصدر السابق، ج3، ص651، ج4، ص79.

القرون الستة التي تلت الهجمة المغولية الأولى، فإن هذه الغارة كانت مُجلبية لبعض عناصر الخير بالرغم من كل ما عرف عنها من شدة وغلاظة بصورة غير مباشرة ولا مقصودة وخاصة بالنسبة للغرب الأوروبي.

وربما كان من بين فظائنها أنها كانت سبباً في المزج بين شعوب العالم المختلفة المتباعدة، مما أتاح عنه فيما بعد تجديد العقليات التي طال ركودها وخمولها، وإذ بقي الحال خاملاً في منطقة الشرق الأوسط لفترة طويلة بسبب تلك الهجمة الوحشية، وذلك لهشاشة بناء الدولة والوضع الاجتماعي والاقتصادي بما في ذلك من سوء في توزيع الثروة والمواريث القديمة في عقلية العبودية، وروح المقدس السمائي الذي يستمده الحاكم. لكن في أوروبا اختلف الحال فقد كان تأثير المغول واضحاً عليهم، فقد أصبح حافزاً ومنبهاً للمفكرين والعلماء في التوغل لإيجاد فلسفة شافية "تستطيع أن تسيّرهم إلى الأمام بخطوات كبيرة، وكانت بداية عصر النهضة الأوروبية. لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر بيكون (1210 - 1290)، وعدد كبير من العلماء الأوروبيين ظهروا في ذلك العصر، وكانت فلسفاتهم مأخوذة من معلومات ترجمت من العربية إلى اللاتينية<sup>(1)</sup>. ويقول أدورد براون عن ذلك: "لقد كان المغول سبباً هاماً في حركة النهضة الأوروبية، فهي التي دفعت بالأتراك العثمانيين من الزحف من خراسان (تركمانستان) إلى أبواب القسطنطينية (اسطنبول حالياً)، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير في تحطيم الامبراطورية البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار المفكرين اليونانيين وكنوزهم العلمية في مختلف البلاد الأوروبية وبالذات إيطاليا (فلورنسا) التي بدأت فيها أول نشاط فكري قاد إلى النهضة الأوروبية".

<sup>1</sup> (1) أحمد صالح العلي "العراق في التاريخ" دار الحرية للنشر - بغداد (1983) ص 483.



وقد استطاعت هذه الغارة أيضاً (أن تحطّم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والممالك، فمكّنت بذلك لبعض الرّحالة من أمثال "ماركوبولو" أن يجوبوا الأقطار النائية من آسيا وأن يجعلوا المعارف التي لم يكن بالمستطاع الوصول إليها لشدة المحافظة عليها (خاصة الصين)، وكما كانت سبباً في البداية في خلق التّطاحن بين الفرس والعرب من ناحية، وبين الصينيين وأهل التبت من ناحية أخرى، فإنها كانت كذلك سبباً في إيجاد التوافق والتعاون بينهم، بمساواتهما بين "الفقيه المسلم" و"القس المسيحي" و"الايلاما البوذي" و"البخشي المغولي"، وكل رئيس لدين آخر أو مذهب مخالف، وكانت هذه أول بادرة للمساواة بين الأديان التي كانت قبل هذا التاريخ سبباً لصراعات دامية<sup>(1)</sup>.

وهكذا فإن عملية نشر وتمازج الثقافات بين الشعوب المختلفة تدعوا للحاجة إلى الإصلاح ومراجعة الذات، وهكذا ظهرت أول ما ظهر من إصلاح ديني هو دعوة لوثر في ألمانيا بإدخال إصلاحات إلى الديانة المسيحية (الكاثوليكية)، وكانت تلك الدعوة وغيرها من الدعوات نواة تبلوت بعدها عملية الإصلاحات النهضةية خلال القرون التي تلت ذلك، وبالتالي نستطيع القول بأن الهجمة الغولية جاءت حافزاً لأوروبا، لكي تستفيق من سباتها في القرون الوسطى الأيل للأفول بالاضافة للظروف والعوامل الأخرى التي ساعدت على ذلك، بينما لم نستفيق نحن من تلك الصدمة وإلى الآن والسبب في ذلك هو ما سنحاول الاقتراب للوصول إلى تفسيره ضمن هذا البحث.

يقول أدورد بروي في كتاب "تاريخ الحضارات، ج3"<sup>(2)</sup>: "لقد برهن الإسلام في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى في نشاطات وحيويّات

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص563.

(2) أدورد بروي "تاريخ الحضارات العام" المجلد الثالث القرون الوسطى. ترجمة يوسف أسعد داغر،

متنوعة، لم تقل فقط عمّا تم له منها في دول المماليك في مصر، فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الأديان في بدء أمرهم، أخذوا في أواخر القرن الثالث عشر يعتقدون الإسلام، بتأثير مزدوج من السكان المسلمين الذين خضعوا لهم، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم أولى القبائل المغولية التي دخلت إيران، فقد برهنوا عن تساهل عظيم أمام جميع الأديان والمعتقدات دون أن يفرّقوا عند اعتناقهم الإسلام بين الشيعة والسنة، ولم يخلُ هذا الوضع بالذات من بعض الأثر على الإسلام، إذ فقد شيئاً كان يجعله في أعين الآخرين الذين المميّز والمفضل، وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور، بحيث أصبح التشيع بعد ذلك بقرنين المذهب الرسمي في إيران (أيام إسماعيل الصفوي).

ولم يتسبّب غزو المغول عن أي تغيير يذكر في البلاد التي أخضعها لسيطرته من الوجهة الطائفية، فقد بقي الترك على الأثنية السنية، وقد دفع المغول أمامهم عدداً من الأقوام والشعوب التركمانية، لم يلبث أن أُلّف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية التي غطت بمدها آسيا الصغرى وجنوب روسيا فأمدتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصيّت فيها دماً جديداً، وقد استطاع التركمان أن يؤثروا على المغول تأثيراً كبيراً، وراحوا يمتصونهم، ولم يبق على نقاء وصفاء عملية التتريك سوى بعض الجاليات المعزولة.

وهكذا انتهت جالية المغول وحلت محلها أقوام أخرى عُرفت في جنوب روسيا بأسم التتار أو التتار، وهو اسم عنى به إذ ذاك وأريد به المغول، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغةً وعرقاً ولهجةً، وهكذا يتضح لنا أن المغول والتتار هم أقوام رعويه واحدة تمازجت فيما بينها لأهداف الإغارة والهجوم على الأقوام المحيطة.

## 2- الإدارة والاقتصاد في الدولة المغولية:

إن الإدارة العامة بقيت في أيدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الأصليين، ومن كل المذاهب مثل رشيد الدين الخطيب، وهو يهودي أعتق الإسلام، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للایلخان غازان<sup>(1)</sup> عام (1300)، أما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش، وبالقرارات السياسية المهمة مستعيناً في عمله بإرشادات المجلس الأعلى للمغول، وسار على قانون "جنكيز خان"، وقد لفت أنظار الناس إلى بعض الأشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمان والأنواط المعدنية التي أنعم بها على بعض القادة، والخاتم الذي تُمهر به أوراق الديوان (الطرفة) والذي يشبه شيئاً كبيراً الصفراء عند السلاجقة، ويعد أن رسخ النظام واستقرت أسسه، كان على الدولة أن تسيرو وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن. فالفرض الذي رمت إليه في الدرجة الأولى كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والإرهاب، حتى إذا ما حلَّ الرُعب في قلوب السكان بعد أن اقتقرت البلاد وجفَّ منها الزرع أخذت الحكومة المغولية تتبع نهجاً إدارياً أكثر انتظاماً من قبل. وقد وفّرت الفتوحات للدولة الأيلخانية - المغولية على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية أملاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة، فالاصلاحات التي قامت بها (وكلها مستوحاة من مغول الصين أي من المناهج الصينية) ساعدت على وضع نظام مالي مُبسّط، ووفّرت لها محصولاً أطيب من الواردات، وكل هذا لم يُساعد في حلِّ مشاكل الدولة التي تفاقمت عليها في أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لحجم الدمار الذي أصاب البلاد. ولذلك حاولوا استخدام العملة الورقية كتجربة لتسيير الأمور وإعطاء رواتب للجنود، لكن ذلك لم ينجح،

(1) الأيلخان غازان: لقد أصبحت تعرف المملكة المغولية في إيران بالمملكة الأيلخانية في عصر المغول نسبة إلى هذا اللقب الذي يعني في لغتهم الأسود القائد أو ما يشبه ذلك (ادورد براون - المصدر السابق).

ومُنيت بالخيبة لقلة تجربة القوم، وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لمثل هذه التعاملات من قبل. ومن الفوائد التي أدت إليها الوحدة المغولية، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا، والتسامح الديني والسياسي الذي عُرفت به هذه الدولة والذي مكّن لعدد من المُرسلين من رهبانيّات الدومنيكان والفرنسيسكان أن يتوغّلوا بعيداً في أواسط آسيا، وأن يقيموا لهم مراكز للتبشير من شواطئ البحر الأسود وحتى مشارف الصين. حتى إن القوافل التجارية للإيطاليين انضموا لأول مرة في التاريخ إلى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب أقطار الهند والصين، وتم تبادل الممثلين السياسيين بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب، وقد نتج عن ذلك ولأول مرة في التاريخ، نوع خاص من اتساع الأفق أمام الاتصالات البشرية، كما وضع كثير من الرحالة الغربيين، أوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها أرجلهم لأول مرة، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء، وظه رت لأول مرة في التاريخ كتب عديدة أمثال "جامع التواريخ" وغيره.

إن كل هذه الأمور وغيرها كانت واحدة من العوامل الهامة بعد مرور فترة زمنية قصيرة، وفي الدول الأوروبية بالذات إلى توسيع مدارك العقل البشري، وبدء التفكير بكروية الأرض ودوران الأرض حول الشمس وما إلى ذلك، إلى أن دفع المغامرين من الرحلة المعروفة لاكتشاف طريق آخر للهند، وهو الذي أدى إلى اكتشاف القارة الأمريكية. ولا بد من التنويه هنا إلى أن هذه التجربة لم تعمّر طويلاً في آسيا، فلم يمر ثلاثة أرباع القرن حتى عادت آسيا إلى الانقسام، وأوصدت أبوابها في وجه الغربيين، ففي عهد الوحدة (الدولة الالخانيه) لم تكن طرقها مأمونة المسالك، إذ أن الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر، ومن بين الطرق التي فُتحت للتجارة هو الطريق الذي يصل بين البحر الأسود والصين، ماراً بالأقطار الخاضعة للدولة الالخانيه، وكانت

المنافسة بين هذه الطرق على أشدها، كما كانت على مثل هذا الوضع بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها، وهذه المنافسة حالت دون حصول المماليك (في مصر) على ما يرغبون فيه من الرق من أسواق القوقاز، ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرة بالبحر الأسود وما يقع حواليه من الأقطار، عن طريق المضائق، وبالالتفاق مع بيزنطية، وعلى أساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الإيطالية المقيمة في شبه جزيرة القرم<sup>(1)</sup>.

ولكي نكون فكرة عن حجم التوسع المغولي، لابد من الإشارة إلى أنه بعد موت "جنكيز خان" في الصين عام (1227)، وكان يبلغ من العمر الستة والستين عاماً، أنجب ابنه "أوكداي خان" الذي استطاع من غزو روسيا وبولندا ما بين سنتي (1236 و 1241)، وقد ابلى المغول روسيا وبولندا بنفس الأحوال التي أبلو بها إيران فتحمل الكثير من مدنها شتاعات المغول وخاصة "موسكو" و "روستوف" و "ياروسلاف" و "تقير" و "شيرنيكوف" و "كريف" و "كاراكاو" و "يست". وفي بولندا، وحدها جمع المغول (3) أكياساً ملأوها بأذان ضحاياهم وقتلهم فبلغ مجموع ما جمعه 270000 أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفتخرون به من بأس و سطوة... وكان هذا الحاكم أقل قسوة ويوصف بحبه للشفقة والرحمة بالمقارنة مع أخيه الأكبر "جفتاي"<sup>(2)</sup>، وبعد وفاة أوكداي تولى ابنه كيوك السلطنة ومات عام (1253)، وتولى ابن عمه "منكو" عرش المغول، وصار إخوانه "قبلاي خان" حاكماً على الصين بينما "هولاكو خان"، فقد أرسل لاحتلال بغداد وتولى الحكم في الولاية الغربية كلها، والذي سوف نتحرى عن حركاته لترابطها بالأغراض التي نصبوا إليها من البحث في الفقرة التالية:

(1) ادورد بروي، المصدر السابق، ص 555.

(2) ادورد برون، المصدر السابق، ص 574، وكذلك ناساوليز (طبعة القاهرة)، ص 380 - 396.

## 3- وصول "هولاكو خان" إلى الحكم:

لقد توسعت الامبراطورية المغولية ومات مؤسسها "جنكيز خان" وجاء الأولاد والأحفاد ليقسموا تلك المملكة الكبيرة بينهما، إلى تقسيمات إدارية لا علاقة لها بالمركز، فأصبحت إيران مستقلة عن المركز وموسكو ووارشو والصين والهند وغيرها، كلاً أصبح في مركز مستقل بذاته. ويعد صراعات دامية وصلت إلى قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه للاستيلاء والحصول على السطوة والجلوس على عرش السلطة والتسلط لما فيها من جاه ومتمعة، والتي أبقت تلك الحالة موروثاً تاريخياً لا يزال يلعب دوراً كبيراً في تاريخنا، وتاريخ غيرنا من الشعوب في البلدان المتخلفة والبعيدة عن الفكر الديمقراطي إذ أن من يصل إلى كرسي الحكم يجد في نفسه صاحب تقويض الأهي لا يمكن انتزاعه بسهولة. ولكي نصل إلى موضوع احتلال بغداد على يد "هولاكو خان" أحد أحفاد "جنكيز خان"، لا بد لنا من متابعة مسار "هولاكو خان" منذ البداية، فيعد أن خرج من عاصمتهم "قواقورم" عام (1253) مزوداً بتعليمات مشددة بأن يستأصل شأن "الحشاشين" في "الموت" الإيرانية وأن يتوجه نحو مركز الخلافة العباسية في بغداد، وكان يصطحب في حملته عدداً كبيراً من المهندسين ورجال المدفعية من أهل الصين (وكان ذلك بعد اكتشاف البارود في الصين وأول ظهور استخدام المدافع في الحرب، ولكن لم يُذكر أي دور فعال في حسم معارك مهمة لأن المدفع لم يصل بعد لهذه الدرجة القتالية الفعالة بعد)، ليستعين بخبرتهم في أعمال الهجوم والمحاصرة، وكان سيرة في البداية بطيئاً، وأمضى صيف عام (1254) في تركستان، ثم وصل إلى سمرقند في خريف (1255)، وبقي فيها أربعين يوماً، ثم توجه إلى إيران والتقى بحاكمها المغولي "آرغون" الذي تولى الحكم في إيران والذي عين من قبل "منكو" أحد أحفاد "جنكيز خان"، وقد أصحبه في أشد معاركه وحضر معه غارته على حصن قلعة "الموت" معقل الحشاشين، وبعد أن هيئوا أنفسهم وبعد

مراسلات ومفاوضات واستخدامه التهديدات والوعود التي اعتمد عليها المغول ، تم الهجوم على أكبر حصون الاسماعيلية "الموت" وقد استولوا عليها ثم اتبع ذلك بقتل جميع الاسماعيليين الذين سلموا معاقلمهم له ، ولم يستثني من ذلك أحداً منهم بل وقتل الأطفال في مهدهم...<sup>(1)</sup> واستيأس جماعة من أشداء الاسماعيليين من مقاومة المغول وحصل لهم "ركن الدين خورشيد" أحد قادة الاسماعيليين في إيران على عفو كتابي من "هولاكو خان" ، ولكنهم استمروا على مقاومة المغول ، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً منهم ، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تستطع أن يؤجل النهاية التي كانت تنتظر طائفة الاسماعيلية ، حينما سلم "ركن الدين" نفسه إلى المغول سنة (1256) ، وحينما استولى المغول على قلعتي "الموت" و "ميمون دز" ، فعملوا فيها غارة كبيرة وأشعلوا النار بعد ذلك ، واستولى المغول على بقية معاقل الاسماعيلية في إيران ، وأخذوا ركن الدين إلى همدان وأحسنوا معاملته وسمحوا له بأن يتزوج فتاة مغولية ، أعجب بها ومنحوه مائة من الجياد الفارحة كان يتسلى برؤيتها وهي تتعارك مع بعضها. هكذا ، كان يفكر الفزاة فهم في أحلك الظروف قد وجدوا قرابة مع أعدى أعدائهم ، وقيموا علاقات تناسب وصلات قرابة. وقد أرسله المغول إلى العاصمة "قراقورم" ليقيم نفسه إلى الامبراطور الكبير في المركز ، وكان في ذلك الوقت "منكو خان" وهو أكبر حاكم (امبراطور المغول) ، وقد أمر هذا الأخير بقتله بسبب استخدامهم خيول البريد في إيصاله ، وهكذا قُتل وهو في طريقة ولم يصل سوى بخارى ، وأمر بعد ذلك بقتل جميع أتباعه حيثما كانوا ، وكان العدد الذي هلك منهم كبير جداً<sup>(1)</sup>.

(1) دوسن "تاريخ المغول" ، المجلد الثالث ، الفصل 4 ، 5.

ويذكر أن نظام استخدام خيول البريد بشكل كفوء كان قد استخدم لأول مرة من قبل "جنكيز خان" قد اعتبره الكثير من المؤرخين السبب الرئيسي في انتصار المغول وتوسعهم في أرجاء آسيا وأوروبا، وهو ضمن الأعمال التاريخية المتميزة للقائد "جنكيز خان"، لذلك أصبح هذا العمل مقدساً لدى الأعداء ووجب عليهم احترامه والمحافظة عليه.

#### 4. الهجوم على بغداد:

إن قرار الهجوم على بغداد قد اتخذ من قبل الامبراطور المغولي "منكو خان"، وأرسل "هولاكو خان" لهذا الغرض، وليس مجرد فكرة خاصة بهذا الأخير كما تعودنا أن نسمع في كتب التاريخ المدرسية والتي تحاول دائماً الاقتضاب في الحديث عن تلك الفترة، ويشكل غماض يثير التساؤل لدى الكثيرين، فبعد أن تم القضاء على "الحشاشين" في إيران، فاز "هولاكو خان" بإعجاب أهل السنة في العالم الإسلامي، ولكن خطوته التالية اقترنت بكثير من الرعب، إذ أرسل "هولاكو خان" إنذاراً إلى "المستعصم" بأن يسلم نفسه إليه، ويسلم مدينة بغداد التي ظلت عاصمة للمسلمين طيلة القرون الخمسة الماضية، وبعد شهرين بدأ "هولاكو خان" معركته في تشرين ثاني سنة (1257)، وكان يصطحب معه جملة من أمراء المسلمين، وكان الخليفة العباسي قد بادر بإرسال "شرف الدين ابن الجوزي" إلى "هولاكو خان" في همدان، وزوده برسالة إليه، ولكن هذا القائد المغولي اعتبر رسالة الخليفة غير مرضية وغير قاطعة، فأخذ يوجه الجزء الأساسي من جيشه إلى بغداد ليحيط بها من ناحية الشرق، وأمر جيشاً آخر بقيادة "بابوناويان" أن يتحرك من الشمال عن طريق "تكريت"، وأن يلتف حول المدينة من ناحية الغرب، وكان قوام الجيش الأول يزيد على ثلاثين



ألف محارب<sup>(1)</sup>، بينما تذكر مصادر أخرى أن قوام الجيش الثاني كان يبلغ ثمانين ألف جندي<sup>(2)</sup>.

وتلاقت جيوش المغول مع جيوش الخليفة في تكريت، واستطاع جند الخليفة أن يحيطوا الجسر القائم على "دجلة" وكان القائد المغولي "بابوناويان" يريد عبوره ولكن انتصارهم هذا كان قصير الأمد، وما لبث المغول أن اندفعوا إلى "الدجيل" و"الاسحاق"، ونهر الملك ونهر عيسى وأماكن أخرى كثيرة بالقرب من بغداد. واستولى الفرع على سكان هذه البلاد، فأخذوا يفرّون أمام المغول ليذهبوا إلى عاصمتهم الكبرى بغداد، واستغل ملاحوا القوارب حالة الفرع هذه فأخذوا ينقلون الشخص من ضفة الشاطيء (دجلة) إلى الضفة الأخرى لقاء أجر كبير (سوار ذهبي أو أمتعة ثمينة غالية)<sup>(3)</sup>، ثم تلاقى الجيشان (جيش المغول وجيش الخليفة المستعصم) بالقرب من الدجيل مرة ثانية في كانون الأول (1258)، وتمكن جيش الخليفة بقيادة "مجاهد الدين أيك" الملقب "بالدويدار الصغير" والملك "عز الدين فتح الله"، من إحراز نصر بسيط رغم قلة الجند الذين كانوا تحت قيادتهم، ثم انتظر المغول قليلاً، واستعانوا بالمهندسين الصينيين الذين كانوا في رفقتهم ثم غمروا معسكر المسلمين بالماء، فتمكنوا بذلك من إنزال الهزيمة بجيوش الخليفة ومن الإيقاع بالمشاة الأسرى الذين وقعوا في أيديهم بعد ذلك، وبهذا تيسر لهم طريق الوصول إلى بغداد بعد ذلك، وأصبح بيد المغول بعد أن هلك عدد كبير ممن نجوا من المعركة في الأوحال التي نتجت عن غمر الأراضي بالمياه، ولم ينج إلا من استطاع أن يعبر النهر سباحة وأن يدخل البرية،

(1) ابن الطقطقي "كتاب القمخي"، المصدر السابق ص 300.

(2) كتاب "طبقات ناصري"، ص 426 طبع (Nassan Lees) لم يذكر اسم مؤلف الكتاب وقد يكون هذا الرقم مبالغ به كثيراً.

(3) ابن الطقطقي "كتاب القمخي"، المصدر السابق ص 305.

ويمضي على وجهه إلى الشام، وقد نجا "الدويدار" مع جماعة صغيرة من أتباعه واستطاعوا أن يدخلوا بغداد، ثم أخذ هو و"عز الدين" يحرّضان الخليفة على مغادرة بغداد والذهاب إلى البصرة، ولكن الوزير "ابن العلقمي" لم يوافقهما على هذه الخطة، وتردد الخليفة ولم يستطع أن يقطع برأي وإذا بجيوش المغول تحيط ببغداد من كل ناحية وتضرب عليها الحصار ابتداءً من يوم 22 كانون أول وبدأ المغول هجومهم العام في الثلاثين من الشهر المذكور وبعد أربعة أيام أرسل الخليفة رسوله "ابن الجوزي" ثانية إلى "هولاكو خان" ليقدّم له في هذه المرة كثيراً من الهدايا القيمة مشفوعة برضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم تمض على ذلك بضعة أيام، حتى خدعه المغول بالوعد الكاذبة فسلم نفسه إليهم مع ولديه الأكبرين أبو العباس (أحمد) و"أبي الفضائل (عبد الرحمن)"، ولكن "هولاكو خان" سرعان ما أمر بإعدامهم جميعاً دون شفقة أو رحمة، أما طريقة تنفيذ الإعدام فقد ذكر الشاعر الانجليزي (Long fellow) أنهم حبسوا الخليفة في خزائنة وبيت ماله وتركوه هناك يموت جوعاً<sup>(1)</sup>. بينما ذكر آخرون أنهم لقّوه في سجادة ثم انهالوا عليه ضرباً بعصيهم ودبابيسهم حتى الموت، وهذا الاحتمال أقرب إلى الصحة لأنهم كانوا يحرّمون إهدار دم ملكي، وكانوا إذا أرادوا إعدام أحد أمرائهم يتبعون طريقة وحشية اختصوا بها في إعدام الأمراء بدون إهدار دم بل يكتفون بكسر ظهورهم، أو ما شاكل ذلك دون أن يخرجوا الدم..!!

لقد بدأت الغارة على بغداد في 13 شباط (1258)، واستمرت أسبوعاً كاملاً، أعدم فيه المغول عدداً يبلغ 800,000 من سكانها<sup>(2)</sup>، واستولوا خلالها على الكنوز المادية والأدبية والعلمية التي تجتمعت في بغداد خلال القرون الطويلة والتي ظلت فيها بغداد عاصمة زاهرة للخلفاء العباسيين.

(1) ادور براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج3، ص586، المصدر السابق.

(2) "كتاب الفخري"، المصدر السابق.

أما الخسارة التي أصابت الحركة العلمية الإسلامية فلا يمكن وصفها، ولم ينحصر أثر هذه الكارثة في خسارة العدد الكبير من الكتب القيّمة التي أبيدت تمام الإبادة، ولكنها امتدت فأهلكت من رجال العلم عدداً كبيراً، ولم يُبق منهم إلا على فئة قليلة مشردة الأذهان، ولم يحدثنا التاريخ أن مدينة زاهرة بالحضارة الإسلامية قد اختفت في مثل هذه السرعة التي اختفت فيها بغداد، وأصبحت طعمة لتلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المرهقة. ثم تبع ذلك أن أقتحم العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً فجري من القتل السريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة، فما بالك بالتفاصيل<sup>(1)</sup>.

وقد استمرت الحملة في المدن الأخرى من العراق، وتهاوت وتساقت كل المدن واحدة بعد الأخرى لمجرد سماعهم بسقوط المركز، واستمر "هولاكو خان" بالزحف نحو الغرب واحتل بلاد الشام حتى أوقفها مماليك مصر في موقعة "عين جالوت" التي وقعت في 3 أيلول 1260، وفاز فيها المصريون فوزاً كبيراً اعتبر أول فوز أصابه المسلمون ضد "المغول" على مدى السنوات الثلاثين التي تلت موت "محمد جلال الدين خوارزمشاه"، ومنذ ذلك التاريخ إنحدرت موجة العنف المغولي، وأخذ المسلمون يرون أن القول بأن أعداءهم لا يقهرون، كان مجرد خُرافة وكذبة وهمية، فاستجمعوا قوتهم من جديد وتمكنوا من أن ينتصروا عليهم في كثير من المواقع الفاصلة وخصوصاً موقعة "عين تاب" في (1277)، عندما تمكن "الظاهر بيبرس" من هزيمة المغول، هزيمة نكراء واستطاع أن يقتل منهم في هذه الموقعة 6770 جندياً<sup>(2)</sup>. وربما كان فوز المصريين أكبر وأوضح في موقعة "مرج الصفر" بالقرب من دمشق سنة (1303)، فقد استطاع الملك الناصر أن يجلب عند عودته إلى القاهرة 1600 أسير مغولي مصنفين في الأغلال، وقد

(1) أنظر كتاب "الفخري لابن المظطقي"، المصدر السابق، ص 300 فما فوق.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص 568.

حمل كل واحد منهم رأس قتيل مغولي، تتدلى من سلسلة في عنقه وسار بهم في المدينة، يتقدمهم ألف فارس من رجاله، قد شهروا حراهم، وعلى كل واحدة منها رأس قتيل مغولي جليوه معهم من الموقعة..<sup>1</sup>

وهكذا بدأت تتقهقر امبراطورية المغول في أوائل القرن الرابع عشر، ففي إيران تهدمت إمبراطوريتهم بموت أبي سعيد" في سنة (1335)، وتهدمت إمبراطوريتهم في الصين بعد خمسين سنة من ذلك التاريخ، بينما ظلت في روسيا الجنوبية حتى نهاية القرن الخامس عشر<sup>(1)</sup>، وكانت آخر بقاياهم في خوارزم ويخارى ( وقد فقدتا استقلالهما في سنة 1868 وسنة 1872) وكذلك في القرم التي زالت قبل ذلك في سنة (1783).

#### 5- الحركة الأدبية في العصر المغولي:

رغم كل الدمار الذي لحق بالعالم الاسلامي في فترة الغزو المغولي وحرقهم للكتب والمخطوطات الثمينة، إلا أنهم لم يشكلوا خطراً على مسار الحركة الأدبية والعلمية. ولا بد من ذكر بعض مشاهير الكتاب والأدباء الذين عاصروا وكتبوا في تلك الفترة والذين خلدهم التاريخ وأهمهم: ابن الأثير، وابن عسري، والجرجاني والجويني، وابن خلكان، وابن أبي أصيبعة، وياقوت الحموي، وفخر الدين الرازي، وناصر الدين الطوسي، وابن ميمون، وابن البيطار وشهاب الدين السهروردي وابن تيمية وآخرون وكل هؤلاء من فقهاء وشعراء وكتاب تاريخ وأطباء وعلماء. وكان ناصر الدين الطوسي وهو أحد علماء الشيعة في القرن الثالث عشر (1201- 1274) الذي أسس مرصداً فلكياً في مراغا بأمر من "هولاكوخان" وحمد الله المستوفى. لكن كل هؤلاء وغيرهم كانوا ثمرة لبذرة كانت قد زرعت في العصر العباسي الذهبي، والدليل أنه لم يظهر مثل هؤلاء

(1) دوسون، المصدر السابق، ج2، ص183- 186.

فيما بعد. وأمام نوابه هذا الزمن والمحن التي نزلت على الناس، كانت النتيجة أن الحياة الدينية تميل لدى القوم سنةً وشيعه على السواء نحو التصوف، ليس على طريقة كبار المفكرين، بل عن طريق تكاثر رجال الدين والأولياء الذين راحت التقاليد والأساطير الشعبية تُنسب إليهم المعجزات والخوارق، أو عن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا بأعمالهم وحركاتهم أن يتوصلوا بالألوهية مباشرة أو بوصفهم أعضاء في جمعيات الأولياء وأن يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة<sup>(1)</sup>. وهكذا ظلت المنتجات الفكرية والادبية مبعثرة لم تتجذر في كل المراحل لعدم توفر المناخ الملائم.

وراح الأثر التاريخي في الإستعانة المطلقة بالآلة ورجال الدين أيام المحن العvisية كنتيجة حتمية للتخلص من مخاطر الإنقراض والهلاك، ولم يكن لدى الناس ما يملكون لحماية أنفسهم سوى الدعاء والتمسك بالعبادة والمبالغة في تأدية الطقوس الدينية لدرء الأخطاء وكان ذلك موروثاً تاريخياً منذ عصر السومريين والبابليين لدى العراقيين.

#### 6- نهاية الدولة الأليخانية (المغول) :

أن انقراض الدولة المغولية الذي جاء نتيجة لعوامل عدة منها الإنقسامات الداخلية التي وقعت في قلب الدولة الأليخانية، فعملت كل نشاط فيها، وشلت كل حركة، وعجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة، بعد أن قل عددهم، فعادت الى حياة البداوة القديمة، ولم يعد داع إلى الفتح يدعوهم للإتحاد مع عناصر السكّان الأخرى. وقد حال الرجوع إلى حياة البداوة في بعض الولايات، دون الإبقاء على إدارة مالية صحيحة تؤمّن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة، واكتسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية

(1) أدورد بروي "تاريخ الحضارات العام"، ج3، المصدر السابق، ص555.

نُفوذاً فاق بكثير النُفوذ الذي تمتع به "الجيش النظامي"، فإنما جاء المغول بأقل نسبة عددية، برزت المطالب القومية في الولايات، وقام يغذيها فريق من ذوي الأطماع. وهكذا لم تلبث الدولة الإليخانية أن توزّعت إلى دويلات وإمارات، صار قسم منها من أبناء البلاد، بينما ظلّ القسم الآخر من أمراء التركمان والمغول، فقد سيطر التركمان في الولايات الغربية، بينما أصبح العراق وأذربيجان وأرمينيا طوال قرن وأكثر مسرحاً للمنافسات الدامية بين الإتحادين المتخاصمين هما: "الخروف الأسود والخروف الأبيض"<sup>(1)</sup>، فكان أحدهما على المذهب الشيعي، كما كان الآخر على المذهب السني، وهي مُنافسة أحتدمت وطالت، فأثّرت في بعض النواحي وساعدت في تكوين الدولة العثمانية في آسيا الصغرى (تركيا) والدولة الصفوية في إيران بعد أن حصل فراغاً في السُلطة في المنطقة<sup>(2)</sup>، وسيأتي الحديث عنها في القسم الثالث من البحث.

#### 7- حالة الخوف والرعب وأثار هجوم المغول على أوروبا وآسيا:

لكي نفهّم ما فعله المغول في بلادنا، لا بد لنا من تسليط ضوء على ما جرى من خراب في مناطق أخرى. ومما لا شك فيه أن حالة الرعب والخوف التي بدأت تصل أخبارها إلى بغداد منذ هجمة المغول على بلاد خوارزم عام (1219)، وتسرب تلك الأخبار التي تدعو للقلق والرّيبة والذي خلفه هؤلاء المتوحشين من منغوليا وتركمانستان وما وراء النهر(آسيا الوسطى) والتي تسببت في اضمحلال أسرة الخلافة العباسية (العربية) وهروب الأتراك العثمانيين من تركمانستان إلى آسيا الصغرى ثم إلى داخل أوروبا(القسطنطينية).

(1) التسمية تعود إلى نوع الشّعار الذي يرفعه كل طرف في الحرب.

(2) بروي، المصدر السابق، ص556.

لقد كانت آثار أو نتائج هذا الهجوم المشؤوم والذي تكلل بالوحشية المفترطة، وكما يذكر دوسون المؤرخ في كتابه "تاريخ المغول"، فيقول: "كان ممكناً أن تنتهم باطلاً المؤرخين الشرقيين بالمبالغة، والإغراق في وصفهم، وقائع العصر المغولي، وإن وصفهم في كل وقت لا يتفق والشهادة المباشرة للمؤرخين الغربيين تماماً، إلا أن هؤلاء الغربيين قصوا بدورهم ما فعله المغول في الجنوب الشرقي لأوروبا بما يشبه رواية المؤرخين الشرقيين تمام الشبه، ولم يذكرُوا وحسب إغارتهم على روسيا وبولندا والمجر، بل في داخل سيليزيا ومرابا ودا الماسيا، حتى ما حدث في واقعة ليجنتز المهولة (في التاسع من إبريل 1241)، حين انهزم جيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي ألماني ونمساوي ومجري وبولندي تحت قيادة هنري الملقَّب بالورع (Henry the Pious) دوق سيليزيا أمام الجيش المغولي، وقبل ذلك التاريخ بنحو عامين ظهر فزع واضطراب عظيمان بسبب هذا الجيش السفاح في أوروبا الغربية إلى حد أن المؤرخ الحولي لذلك العهد ماثيو باريس (Matthew Paris) ذكر في تاريخه - في ذيل وقائع عام (1238) أن صيادي الأسماك من أهالي جوث لاند (Goth Land) وفريز لاند (Fries Land) لم يجدوا جُرأة على عبور بحر الشمال في يار موث (Yarmouth)، ونتيجة لذلك زادت في ذلك العام سمكة (الهرينك) في إنجلترا ورخص سعرها حتى بلغ سعر أربعون أو خمسون سمكة منها بعملة فضية واحدة حتى في الأنحاء البعيدة عن شاطيء البحر. وفي تلك السنة نفسها قدم وفد من طرف الاسماعيلية أو فدائي قلعة "الموت" إلى فرنسا وإنجلترا يطلبون مساعدة فرنسا والدول الأوروبية الأخرى ضد هؤلاء الأعداء المرعبين، لكن أسقف وينشستر (Bishop of Winchester) لم يجيب على طلبهم وقال في وصفهم: (علينا أن ندع هؤلاء الكلاب يبتلع بعضهم

بعضاً حتى يفنوا ويهلكوا جميعاً، وإذ ذاك نبني فوق خرائبهم الكنيسة المقدسة  
 وحينذاك، سوف تصير الدنيا بأسرها رعاية واحدة لها راعي واحد<sup>(1)</sup>. ومن المفيد  
 أن ننقل هنا رواية ماثيو بشأن المغول حين يذكر عن وقائع عام (1240) ما يلي:  
 "بما أن سعادة الإنسان الفاني لا يجب أن تدوم وتبقى ولا تستمر السعادة الدنيوية  
 بدون ميحن والآم طويلة، ففي هذه السنة هاجم شعب مكروه منشأه شيطاني  
 اسمه "عسكر التتار" الذي لا يُحصى ما هو جارح بلادهم الجبلية، فشقوا  
 الصخور الصماء (جبال قوقاز)، وهاجموا المعالم مثل شياطين جهنم  
 (تارتاروس)<sup>(2)</sup> وعفاريتهما، ولهذا السبب نفسه يجب حقاً تسميتهم التتار، غطوا  
 البسيطة مثل الجراد وأحلوا ببلاد شرق أوروبا الشقاء الفظيع، وأحالوا هذه  
 المناطق دماءً ونيراناً، ويعد أن عبروا أراضي المسلمين سوّوا المدن بالتراب، وخربوا  
 الرياض والجنان وأهلكوا الحضر والمدر، وإذا ما نجا من حد سيوفهم مصادفة  
 مسكيناً استأسروه وأنزلوا أحط درجات العبودية به، ووضعوه في الصفوف  
 الأولى لقتال إخوته وجيرانه، أما من قصر عن الحرب، أو استتر أملاً في الحياة  
 فقد بحثوا عنه وأهلكوه، ومن حارب من أجلهم بشجاعه أو هزم لهم جيشاً أو  
 فتح لحسابهم فتحاً عظيماً لم يسمع منهم كلمة شكر تواباً، وبخاصة أنهم  
 كانوا يسلكون مع أسراهم كأنهم حيوانات ويهائم لأنهم ليسوا بشراً بل  
 حيوانات مُقرسة وضارية وعفاريت في صورة بشر، متعطشة للدم جعلوا من لحم  
 الإنسان والحيوان غذاء لهم، لباسهم من جلد البقر المدعم بأخ الحديد  
 وأجسامهم قصيرة القامة وسميكة وقوية لا تمل أو تتعب أو تهزم، جردوا  
 ظهورهم من الكساء ودرعوا صدورهم بالدرع، كانوا يتجرعون بلذة وسعادة  
 دماء أبناء نوعهم، خيولهم عظيمة وقوية تأكل الأغصان بل حتى الأشجار، وبما

(1) دوسون "تاريخ المغول"، المصدر السابق، ص 7.

(2) ماثيو (Hakluyt Society) المجلد الرابع، ص 76-78، لندن (1900).



أن راكبيها قصار القامة فكانوا يمتطونها بمعونة سلالم. هؤلاء الناس يمدون كل القوانين والقواعد الإنسانية ولا يعرضون الراحة واللذة وأشد فتكاً من الأسود والديبة، لهم قوارب مصنوعة من جلود البقر، ولكل عشر أو اثنا عشر منهم قارب واحد، يتقنون دقائق الملاحة والسباحة حتى أنهم يعبرون أعظم الأنهار وأسرعها بلا خوف أو وجل. إذا لم يتيسر لهم الدم يشربون الماء المخلوط بالطين، لكل منهم سيف له حد واحد والعديد من الخناجر، وهم رماة سهام مهرة لا يماثلهم مخلوق ولا يفرقون بين الشاب والعجوز والرجل والمرأة، هاجموا بسرعة البرق البلاد المسيحية، وثغورها وانصرفوا إلى حُب الدم وسفكه وأحلوا في القلوب الرُعب والفرع بما لا مثيل له، ولهذه الأسباب أراد المسلمون الاتحاد مع المسيحيين على أمل أن يقاوموا هؤلاء الشياطين بقواتهم المتحدة..الخ).

لقد أصبح واضحاً الآن أن الهجمة المغولية لم تكن مقتصرة على بلادنا، بل أنها جاءت متأخرة إلينا من قبل "هولاكو خان" بعد أن أخذت أكلها في أنحاء مختلفة من آسيا وأوروبا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا استطاع الآخرون من تجاوز تلك الكارثة بينما لم يستطع العالم الإسلامي الشرقي (الجزء الآسيوي) من أن يستفيق منها ويحذو حذو الآخرين في السير قدماً نحو التقدم في طبيعة العالم المتحضر، بل وأكثر من ذلك فإن الهجمة المغولية لم تصل إلى شمال إفريقيا والاندلس المسلمه ولم يمس تلك الأقسام أي تخريب أو أذى بينما ظلت تلك الاجزاء هي الاخرى مختلفه بنفس الدرجه. ولا نريد هنا أن نعيد ما نُشر في كتب التاريخ الكلاسيكية التي تُعدد الأسباب وتسطرها تسطيراً رتيباً في البحث عن أسباب سقوط الخلافة العباسية ابتداءً من ضعف الملوك وخيانة القادة والوزراء من أمثال إبن العلقمي وما شاكل ذلك من إلقاء اللوم على هذه الفئة أو تلك في التواطؤ مع العدو. إن السبب الرئيسي هو أن المسلمون لم يؤسسوا لدولة رصينة ثابتة مُستتدة على أسس ومبادئ تتسجم مع طبيعة المرحلة التي كان

يعيشها الناس في ذلك العصر. ففي أوروبا مثلاً استطاعوا في ذلك الزمان أن يؤسسوا لفلسفة تربط العلاقة بين الفرد في المجتمع والحاكم، وقد استندوا منذ البدء على الأسس الفلسفية التي وضعها فلاسفة اليونان أمثال سقراط وأفلاطون، بينما بقينا على العقليات والمبادئ التي أملتنا علينا مرحلة العبودية بما فيها من أفكار وعقائد لا تفسح مجالاً للإنسان في أن يستخدم عقله في التفكير لحل مشاكله بنفسه، وبقيت قيم البداوة وحُكم القبيلة هي السائدة عبر التاريخ منذ عصر الجاهلية وما قبلها وحتى بعد تأسيس معاوية للدولة الأموية الإسلامية المستندة على الحكم الوراثي وتداول السلطة بالوراثة وحكم الخلافة لإدارة شؤون الامبراطورية من قبل الخليفة دون الاستعانة حتى بمجلس شورى أو أي شكل من أشكال تبادل الآراء والخروج بصيغ صائبة، تستطيع أن تجنّب البلاد من الكثير من المشاكل والمحن.

لقد وصل إلى سدة السلطة رجال سمّوا أنفسهم خُلفاء (بالوراثة) كان بعضهم لا يستطيعون من إدارة قرية واحدة<sup>(1)</sup>. لقد أثبتت حادثة الهجوم المغولي وزوال الدولة العربية الإسلامية على هشاشة الإدارة وسلطة الدولة وتماسك المجتمع برمته. إن المجتمع المبني بهذه الهشاشة لا يستطيع استعادة كيانه مرة ثانية بسهولة، لقد حصل قبل هذا التاريخ حادثاً مماثلاً رغم اختلاف الظروف، وكان ذلك هو هجوم (القائد الفارسي) كورش من الشرق وتحطيمه للدولة البيابلية وتوغّله نحو الغرب إلى مصر، وكان ذلك للسبب نفسه وهو اعتماد القوم على القضاء والقدر، وتمسّكهم بإكتساب الحاكم "القدسية الأليمة" من خلال

(1) شاعر النابلسي "خلفاء المسلمين". (كتاب حديث يبحث في سيرة الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين أشار الى القنرات الفردية لهم ضمن الفروقات في الصنات العمرية؛ شاء توليهم سدة الحكم خاصة في المراحل الاخيرة من العصر العباسي.

عقلية العبودية ، التي مكّنت الأعداء من التوغّل وإنهاء حضارة بأكملها ، لم يبق منها سوى الأحجار والصّخور والمنحوتات والكنائيات والكتابات المسماة . وهكذا نجد مرة أخرى كارثة تأتي من الشرق وتكتسح حضارة بُنيت على هشاشة وبدون ركائز وأسس متينة تمكّنها من استرجاع قوتها والمضي قدماً إلى الأمام بعد زوال تلك الكارثة إسوةً ببقية الأمم التي أصابها كارثة مماثلة وربما بدرجة أقوى وأكثر عنفاً . هذا من ناحية ، ومن جانب آخر فطالما نجد الأرضية الخصبة في العودة إلى البداوة وحياة الصحراء باقية كما هي ، يصبح من السهل العودة إليها وترك متاعب المدنية والتقدم ، والذي لم يكن بنائها رصيناً ومستوعباً من قبل الأكثرية بحيث يصبح التمسك بتلك الانجازات أمراً حتمياً ، ولا يزال هذا الموروث قائماً إلى يومنا هذا ، إذ نجد القيم البدوية تتغلب كلما مرت البلاد في ظروف صعبة ، ولا غرابة إذن في حجم التحطيم للبُنى التحتية الذي حصل بعد سقوط النظام الدكتاتوري عام (2003) في العراق الحديث ، مباشرة بسبب هشاشة بناء الدولة في عصرنا الحاضر بالإضافة للأسباب الأخرى لا مجال لذكرها هنا .

#### 8- دخول (تيمورلنك) إلى بغداد:

بقي لنا في ختام هذا الجزء من البحث أن نلقي نظرة في مذبحه بغداد على يد غازي آخر هو "تيمورلنك" . فقد ولد في 8 إبريل عام (1336) ، تيمور الذي يعرف بلنج "الأعرج الطويل" . وقدّر له أن يصل إلى ما وصل إليه تقريباً "جنكيز خان" من العظمة والقوة ويكوّن عقاباً مؤملاً لمسلمي آسيا الغربية والوسطى<sup>(1)</sup> ، بينما لا يزال يعتبر في مدينة "سمرقند" بطلاً قومياً من الطراز الأول .

(1) أنورد براون ، المصدر السابق ، ج3 ، ص191 .

لقد بدأت الهجمات الأولى لهذا القائد على إيران حيث جرت عام (1380) حينما فتح خراسان وسيستان بينما وقع هجومهم الثاني على مازندران، واتسعت أعماله الحربية فوصلت أذربيجان وعراق العجم وجرجان وانتهت بفتح شيراز، وذبح سبعين ألفاً في أصفهان وبدأ هجومه الثالث عام (1389)، على شيراز وهراه، وكانت كل تلك المناطق تحكمها أسر تسلطت نتيجة لوجود فراغ سياسي بعد انهيار المغول وزوالهم من المنطقة وكانت بغداد تُحكم من قبل آل جلاير والمسمون بالجلاتريون بينما كان آل المظفر يحكمون فارس وعراق العجم وكرمان، وهكذا فقد قدم في فترة انحطاط الدولة المغولية وزوالها رجلان اسمهما شيخ حسن لقب أحدهما بالكبير والآخر بالصغير، أما الصغير فهو حفيد الأمير تشويبان، الذي تعالت عظمته وقوته عام (1319)، بسبب زواجه من ستي بيك، ابنة "أولجايتو" وأخت "أبو سعيد بهار" (المغوليين)، وكانت له بنت اسمها "بغداد خاتون"، وفي أواخر عام (1392) رفع تيمور راياته صوب جنوب إيران بعد أن عبر ولايات الدامغان وسمنان والري وقزوين والسلطانية وكدرستان وبروجود في عام (1393)، وأهلك أثناء سيره جمعاً عظيماً من الأتوار ووصل إلى دزفول، ودخل الشوش وتوجه إلى شيراز، وأثناء طريقه فتح القلعة المنيعه "قلعة سعيد"<sup>(1)</sup>، وبعد ذلك قتل جميع الأسرة المظفريّة وأمر بترحيل أصحاب الجرف والصنّاع في بلاد فارس والعراق إلى سمرقند، ثم توجه إلى بغداد واستولى على قصر السلطان الجلثري "أحمد" بعد أن فرّ من أمامه ولحقوا به بالقرب من كربلاء وأسروا بعض نساءه وأولاده وعادوا بغنائم كبيرة. ولكن أحمد هرب بنفسه ونجا من الأسر، ثم فتح القلعة المعروفة في تكريت التي كان جنودها يدافعون عنها بشجاعة وأقام فيها بعض الوقت ثم عبر كركوك وأربيل والموصل.

(1) شرف الدين علي اليزيدي "ظفرنامه"، ص 619.

### المناقشة والاستنتاج (Discussion and Conclusion) :

لعلنا بدعنا نقرب أكثر في فهم الشخصية العراقية، والفكر العراقي بعد هذا الاستعراض السريع لمراحل تكوين الدولة الاموية والعباسية والعصر المغولي. تلك المراحل الحساسة والهامة في حياتنا، والتي تركت بصماتها واضحة في حياتنا الحاضرة، من خلال ما ظهر فيها من انشقاقات مذهبية وطائفية وصراعات دموية، ألفت بظلالها في ترسيخ عداوات، لا يمكن إنكارها أو غرض الطرف عنها لتطيب الخواطر. لقد كانت جولة في التاريخ صاخبة بالاحداث الدموية والصراعات العنيفة، ورؤيا سائل يسأل: إن كل هذه الحوادث والعنف السياسي المتمثل بالثورات والانفاضات والاغتيالات ووسائل التعذيب، كانت قد استخدمت وأكثر عنها في مناطق عديدة من العالم، وتم تجاوزها والتغلب على آثارها بينما لم تستطع البلاد العربية والاسلامية من تجاوز ذلك، وبقيت متخلفة عن ركب الحضارة الحديثة. لماذا؟ للإجابة على هذه التساؤلات، لا بد لنا من استعراض سريع لكيفية حصول النهضة الاوروبية التي قادت العالم لكل ما نحن عليه من ازدهار حضاري عالمي في الوقت الحاضر، لا يوجد فيه وجه للمقارنه مع الحضارات القديمة.

أولاً: كما قلنا في الفصل الثالث بأن الهجوم المغولي أتاح الفرصة للأوروبيين للتوغل في أنحاء آسيا وبالذات إلى الصين واستطاعوا من خلاله نقل العديد من منتجاتهم الفكرية ومخترعاتهم العلمية، بالإضافة إلى نقلهم للعديد من المخطوطات العربية إلى اللاتينية ساعد في بلورة وتحديث فلسفات وأفكار تعطي حرية أكبر للعقل البشري في البحث والاستقراء والاستنتاج والتجريب وإلى حل المشاكل والمعوقات التي يواجهها المجتمع.

لقد استبقت الفلسفة الحديثة إلى الظهور عندما وحيثما بدأ كل شخص في التفكير بصورة مستقلة عن المعتقدات والديانات، التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي كانت ضمن مرحلة العبودية والاقطاع مُسجمة مع عقلية القوم في تلك المرحلة ناتجة عن ظروف تلك المرحلة الاقتصادية والاجتماعية.

وبعد التطور الحاصل في المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ظهر جيش من المفكرين والفلاسفة الذين أسسوا لقاعدة تُبنى بموجبها المجتمعات المتطورة. وقد كان في بدايتها الفيلسوف روجر بيكون<sup>(1)</sup> (1214 - 1294) وعلى الرغم من أنه لم يكن له سوى تأثير ضئيل على المفكرين الآخرين. فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر بيكون وآخرون أخذوا كثيراً من علومهم من الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية<sup>(2)</sup>. وكان إحياء دراسة الأدب اليوناني واثروماني في إيطاليا منذ عام (1440) في محاولة واعية لفهم الفلسفة اليونانية والتي بدأت بشكل فاعل عام (1453)، والتي اعتبرت بداية للنهضة الأوروبية بعد أقول مفاهيم القرون الوسطى. وذلك بعدما استولى الأتراك (العثمانيين) على القسطنطينية، وقضوا على الامبراطورية البيزنطية بالكامل على يد محمد الفاتح. حيث جاء معظم الباحثين اليونانيين إلى إيطاليا. وثار فيهم الرغبة لفهم الفلسفة اليونانية القديمة من وجهة نظر علمانية. ولقد اعتبر هذا العام (1453) بداية لعصر النهضة الأوروبية من قبل المؤرخين. وكذلك لا بد أن نذكر أن المترجمات التي وضعت لمؤلفات العلامة المغربي "ابن رشد" وغيره من علماء الطور الثالث للمعتزلة، الذين ظهروا في العصر العباسي المتأخر كانت لها الأثر الكبير

(1) روجر بيكون: هو ليس فرنسيس بيكون أنذي ظهر في عصر العلم الطبيعي عام 1600، وكلاهما انكليزيان.

(2) أحمد صالح العلي "أعراق في التاريخ" المصدر السابق نفسه (ص483).

في ازدهار الفلسفة الحديثة في عصر النهضة الأوروبية<sup>(1)</sup>. إن حقبة الفلسفة الحديثة التي بدأت عام (1453)، قد اتخذت مراحل متعددة ولم تكن مجرد أفكار في مرحلة معينة، إذ أن كل مرحلة صاحبها تطور تقني في الجانب الآخر وقادها إلى مرحلة أخرى أكثر تقدماً وهكذا. وتقسّم تلك المراحل كما يلي<sup>(2)</sup>:

1- الفترة الأولى - هي الفترة الانسانية التي بدأت من عام (1453) حتى موت برونو(Bruno) عام (1600) وكانت قيادة الفلسفة في إيطاليا، وقد اتسمت ببعث الروح الفلسفية من دراسة الفلاسفة القدماء أمثال أفلاطون وأرسطو.

2- الفترة الثانية - فترة العلم الطبيعي :- ابتداء من عام (1600) حتى عام (1690) ويظهر فيها اهتمام كبير بما أنتجه العلم الحديث مثل اسحق نيوتن وغاليليو وكوبر نيكوس وغيرهم.

وقد لمع فيها فرنسيس بيكون، وتوماس هوبز في إنكلترا، وديكارت، واسبينوزا، وليبنس في قارة أوروبا، وقد قبل جميع فلاسفة تلك الفترة بوعي مناهج ووجهات نظر العلماء الطبيعيين المعاصرين لهم، ولم يترددوا في تطوير مذاهبهم بما ينسجم وتلك المخترعات العلمية، أمثال كروية الأرض، وأن الكواكب تدور حول الشمس، وقوانين نيوتن وغيرها من علوم الفيزياء والكيمياء والطب والاحياء والرياضيات والهندسة و علم الجيولوجيا.

3- عصر التنوير - وتشمل الفترة بين(1690 - 1781) ومن أبرز المفكرين فيها: لوك، وباركلي وهيوم في بريطانيا، وفولتير وروسو في فرنسا: وقد

(1) عبد الله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية"، ج3.

(2) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة الحديثة" ترجمة محمود سيد أحمد "المجلس الأعلى للثقافة" القاهرة، (2005).

اعتقدوا أن الموضوع المناسب لدراسة الجنس البشري هو الإنسان لا الكون، لقد كان هؤلاء الفلاسفة هادمين أقوياء للخرافة ومناصرين للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وقد حركت الثورة الانكليزية (عام 1688)، فكرهم، وكان تأثيرهم سبباً من أسباب الثورة الأمريكية (عام 1776) والثورة الفرنسية (عام 1789).

4- الفترة المثالية: وتشمل تلك الفترة ما بين (عام 1781) وحتى وفاة هيغل (عام 1831) ومن أبرز فلاسفة ذلك العصر هم: كانت وهيغل وفشته، ولقد قاد الألمان بأصالة تفكيرهم الفلسفي العميق العالم بالدرجة الأساس بينما عبّر شعراء إنجليز من أمثال: ورد ودورث وشيلي وكولبريدج، وتينسون وبراوننج، بالإضافة إلى اميرسون في أمريكا، عن أفكار تشبه إلى حد كبير أفكار الفلاسفة المثاليين الألمان.

5- الفترة المعاصرة منذ 1831 وحتى الآن: لقد قدمت هذه انفسفة قبول التطور قبولاً عاماً في علم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، والتي أسهمت في تقبل نظرية التطور وأصل الانسان لجارل دارون، وقدّمت متهاجاً مختلفاً من التفسير للتاريخ، والعلوم الاجتماعية المختلفة. وقد خلقت الفترة المعاصرة هذه المذهب الواقعي والبرجماتي، تلك المذاهب المميّزة للقرن العشرين في بريطانيا وألمانيا وأمريكا، ونذكر من بين فلاسفة هذه المرحلة: شوبنهاور، وكونت، وهل وسينسر، ونيتشه، ورويس وماركس وإنكلز، وجيمس، وبرجسون، وديوي والكسندر ورسل وغيرهم.

من هنا يمكن القول بأن النهضة الأوروبية لم تكن قائمة بمحض من مصادفة أو بين ليلة وضحاها، بل مرّت بسلسلة من التطوّرات الفكرية المترابطة مع بعضها البعض، كانت بمثابة مفاتيح تقود المجتمع والعالم نحو الرقي،



والتّقدم ومواجهة المصاعب. وقد استغرق ذلك البناء الفكري فترة طويلة من الزمن، تم استيعابه عبر الأجيال ومنذ النشأة الأولى في مرحلة الدراسة الابتدائية فصاعداً، ويعد أن أصبح التعليم لديهم مُنتشراً بشكل كامل، ليشمل معظم فئات وطبقات المجتمع. وقد استطاعت تلك الفلسفات أن تجد مناخاً للنمو والتجذر عندهم من خلال ملائمتها مع الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لديهم.

وفلسفياً تبدو للوهلة الأولى، أنها بسيطة وليست بذات أهمية، لكنها تلعب الدور الأكبر في قيادة المجتمع، نحو التّقدم والسمو، إذا ما تم استيعابها من قبل الأغلبية ولتوضيح ذلك:

لا بد لنا من تلخيص أهم المبادئ التي جاء بها هؤلاء الفلاسفة المحدثين ولنبدأ أولاً بمرحلة العلم الطبيعي، لما لها من علاقة في واقعنا، وحياتنا الاجتماعية:

ففي مرحلة العلم الطبيعي ميّز فرنسيس بيكون بين أربعة أوهام وأخطاء تلازم عقول الناس، وتغوق سعيهم إلى الحقيقة وبحثهم عنها. وأول هذه الأوهام هي أوهام القبيلة (Idea of Tribe) التي يشترك فيها الجنس البشري كلّهُ، وتلازم طبيعة البشر الخالصة. ومن هذه الأوهام الميل إلى افتراض نظام وأطراد في العالم أكثر مما هو موجود بالفعل، ولذلك اعتقد العلماء أن الأجرام السماوية تتحرك في دوائر كاملة، وأن كثافة ما يسمى بالعناصر تُساوي عشرة إلى واحد. ومن تلك الأوهام أيضاً إذا تبيننا رأياً ما، فإننا قد لا ننتبه إلا إلى الدليل المؤيد له، ونُهمل الدليل المناقص له. وذلك يُفسر اعتقاد الإنسان في الطالع والأحلام والتنجيم وخرافات أخرى، ويوجه عام فإن الأمثلة التي تؤيد رأياً ما ينتبه إليها في الغالب أكثر من الأمثلة السلبية، على الرغم من أنه يجب إعطاء

كلتيهما أهمية متساوية. ومن تلك الأوهام أيضاً: أَنَّ الأشياء التي تُداهم العقل وتدخل إليه متأنية، وتملاً بالتالي الخيال، وتؤثر في النَّاس بقوة، حتى أنهم يفضلون إلى نتيجة مؤداها أَنَّ كل الأشياء الأخرى لا بد أن تكون مُتشابهة (وهذا ما يُسمى الآن بمغالطة التعميم المُتسرع). إِنَّ "الدَّهْن البشري ليس موضوعياً غير متحيز" بل "تخيّم عليه" سُحب الانفعالات والرغبات، حتى أن النَّاس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يرغبونه، ولذلك يستعجلون ولا يتأنون في البحث، ويندمون بالتالي على وقائع حقيقية، تكمن وراء آمالهم، ويأسفون عندما يناقض نور التجربة كبرياتهم، وغرورهم ويعوق الدَّهْن البشري، علاوة على ذلك "بلادة الحواس، وعجزها وخداعها" حتى إن ما يمكن رؤيته مباشرة يفوق المبادئ غير المرئية التي تستبطن من استدلال قائم على تجارب. وكم كُنَّا ولا زلنا نُعاني نحن في بلاد الرافدين، من هذه الأوهام ولا تزال تعيش فينا إلى اليوم شيئاً أم أبيضاً.

وثاني هذه الأوهام، أو هام الكهف (Cave)، وهي خاصة بكل إنسان فرد، لأن كُلاً منا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارة خاصة، وله طريقة خاصة بالتفكير ترجع إلى الوراثة والتربية والعادات والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نعيشها.

ولذلك يغالي بعض النَّاس في التشابهات بين الأشياء، بينما يغالي بعضهم في الاختلافات بينها. ويحب بعضهم القديم بإفراط ويحترمون السابقين بشكل فوق المعتاد، إِنَّ المبالغة في حب القديم والقدماء جعلهم يتصوِّرون بأنهم عمالقة من نوع خارق للعادة، فمثلاً كان يتصوَّر البعض أن القدماء كانوا طوال القامة، بحيث إذا أرادوا أن يصطادوا السمك، يذهبون إلى البحر، ويمسكوا بأيديهم آية

سمكة، ويدفعوها مقابل عين الشمس حتى تتحمّص، وتؤكل مباشرة<sup>(1)</sup>، وكما  
كنا نسمع عن عوج بن عنق، ونحن أطفال.

هذا التكبير والتحويل بمن يحبون، يصل بهم إلى تصوّرات خيالية في حجم  
أولئك الناس وسطوتهم، في حين وبالمقابل نجد أن بعض الناس أسرى لكل ما هو  
جديد. ونجد مثلاً على ذلك، من يتفنى بكل ما يأتي من الغرب المتقدّم ويعتبره  
مثاليّاً بالملق في عصرنا الحديث هذا.

وثالث هذه الأوهام، وهي أوهام السوق (Market) حيث يتقابل الناس معاً،  
ويتساهمون عن طريق اللّغة، ولأن الكلمات يكون أصلها في عقل الإنسان  
العادي، فكثيراً ما لا تكون مناسبة لبحث علمي دقيق، فتكون النتيجة أنّ  
الناس يتجادلون حول الكلمات، يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة، فبعض  
الكلمات موروثّة من آراء غامضة من الماضي، ويمكن تجنبها عن طريق رفض  
النظريات التي أدت إليها، مثل الحظ، والمحرك الأول، وعنصر النّار، وهناك  
كلمات أخرى، تضرب بجذور عميقة في الاستعمال البشري، حتى أنه يصعب  
التخلّص منها، مثل كلمة "رطب" وحديثاً مملوء بمثل هذه الكلمات، التي تؤدي  
إلى خلط لا حدّ له، فإذا لم يكن هناك اتفاق على تعريف لتلك المصطلحات  
يصبح الجدل فيها هراء وعبث.

وآخر هذه الأوهام، أوهام المسرح (Theatre) التي تتسرّب إلى عقول الناس  
من معتقدات الفلاسفات المختلفة. فجميع المذاهب التي وصلت إلى عصرنا،  
لم تكن في رأيه سوى "مسرح كبير جداً يمثّل عوالم من خلق أناس" على غرار  
نموذج غير واقعي وخيالي". وتحت هذا النوع من الأوهام يرى أرسطو، من حيث

(1) طه حسين، "في الشعر الجاهلي"، دار المدى للثقافة والنشر دمشق (2001)، (الطبعة الأولى،

(1926))، ص 123.

أنه ممثل للفلاسفة العقلي، ولأنه حاول أن يقنع العالم في مقولات من اختراعه الخاص، دون أن يرجع أولاً إلى الطبيعة، ويُلاحظ الوقائع الفعلية، بل حدّد من البداية نتائجه. ثم عاد بعد ذلك إلى التجارب ليؤكد ما قرّره سلفاً. لقد كان سيكون يعتقد أن بعض المعتقدات الدنيوية، مثل وحدة الآلة، يمكن البرهنة عليها عن طريق العقل البشري، دون الحاجة إلى نزول وحي أو معجزات، ويندرج ذلك ضمن مجال الدين الطبيعي. لكن ما يعارضه بشدة هو محاولة إقامة أي شيء علمي أو فلسفي على تطبيق جريء لتوكيدات الدين الموصى بها. إن إقامة مذهب للفلسفة الطبيعية، على الاصطاحات الأولى من سفر التكوين، أو سفر أيوب هي كما يقول "بحث عن الميت بين الأحياء". وقد حاول بيبكون أن يُحرر العلم والفلسفة من اللاهوت الدجماتيكي<sup>(1)</sup>. ولم نعد اليوم نتوقع أن يُدخل عالم من علماء الفيزياء أو عالم من علماء البيولوجيا، مُعتقدات دنيوية في دراسات علمية خالصة، ولا أن يشعر على أي نحو أنه مُكّرم بأن يفسّر الطبيعة بطريقة تجعلها مطابقة للمعتقدات الدنيوية<sup>(2)</sup>. وهو ليس شاكاً دينياً، لأنه يعتقد أنه يمكن البرهنة على وجود الله من الناحية الفلسفية. وأن أركان الدين الموحى بها تقوم على الإيمان بسلطة الإنجيل والكنيسة، وليس بيبكون شاكاً علمياً، لأنه يعتقد أن في الإمكان اللامحدود لتقدم المعرفة. ويعتقد أيضاً أن الواقع يوجد مُستقلاً عن أي شيء نُفكّر فيه، ولا يتأثر بما نعرفه عنه، وأنه يجب علينا دراسة الطبيعة كما هي، لكي نسيطر عليها، وليست الحقيقة بأي معنى لها رهناً برغبتنا وإرادتنا<sup>(2)</sup>. ولا نندري كم هو حجم الاوهام التي تكبل عقول الكثيرين من

(1) H.Hoffding, History of Modern Philosophy, Vol. 1.

(2) William Kelley Wright "A history of Modren Philosophy.

الشباب في عصرنا الحاضر ونحن بأمس الحاجة لمن يزيلها ويخلصنا من الاقدام على بعض الاعمال الارهابية التي تؤدي الى التهلكه والدمار.

أمّا توماس هوبز (1588 - 1679) فيُعد أكثر الفلاسفة الإنجليز أهمية، في الفترة من بيكون إلى لوك، وهو صاحب العقد الاجتماعي المعروف. ويرى هوبز أن كل إنسان في حالته الطبيعية، تلك الحالة السابقة على تكوين الدولة السياسية<sup>(٤)</sup>، كان يبحث عن بقائه، وإشباع رغباته الخاصة بلذات أنانيّة، مثل المغنم والمجد. ولا وجود للأخلاق كما نعرفها الآن. ولكل واحد الحق الكامل فيما يستطيع الحصول عليه، والمحافظة عليه، ولا وجود لشيء مثل القانون أو الظلم. والنتيجة الحتمية لذلك هي "حرب الكل ضد الكل"، لأن الناس إما أن يكونوا في حالة حرب فعلية بصورة مستمرة، أو يكونوا في خوف دائم من أن يُهاجم بعضهم بعضاً. لأن الحرب لا تكمن فقط في القتال، بل تكمن أيضاً في الخوف الدائم والاستعداد للصراع. ولا تكمن الحرب في القتال الفعلي، بل في الميل للقتال في جميع الأوقات التي لا يكون فيها السلم مضموناً، وليس هناك معنى للأمان، وليس هناك حافظ على الصناعة، الكل في خوف وقلق دائمين. ولا بد أن تكون الحياة البشرية "مُنعزلة" فقيرة بدائيّة، وحشيّة، قصيرة الأمد<sup>(١)</sup>.

هكذا كان هوبز يعتقد أن هذه الحالة كانت موجودة بالفعل، وأنها حالة تاريخية، وهذه الحالة يمكن ملاحظتها الآن بين "الهمج" ولكنها متضمنة في داخل النُفس البشرية المتمدّنة. وإذا كان هناك شك في ذلك فدعه يتأمّل ذاته، فهو عندما يقوم برحلة، فإنه يُسلِّح نفسه، ويحاول أن يُسافر مع رفيق جيّد،

(٤) المقصود بالحالة الطبيعية في الزمن الذي كان يعيش فيه الانسان القديم في العصور الحجرية الاولى وقبل نشأة التجمعات البشرية الاولى.

(١) وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد أحمد ط/ (2005)2، ص 69، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

وعندما يذهب إلى النوم يُغلق أبوابه بإحكام، وحتى وهو داخل منزله يغلق خزانته... الخ.

وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات الدولية هي باستمرار في تلك الحالة (الطبيعية) فني جميع الأزمنة يكون الملوك وأصحاب السلطة العليا في يقظة تامة، وفي حالة استفار ووضع الجلاذ شاهرين أسلحتهم مصوّبة تجاه بعضهم البعض، وأعينهم مركّزة على بعضهم البعض، أي أن حصونهم، وجنودهم وينادقهم، متمركزة على حدود المملكة، وأعين الجواسيس مركّزة باستمرار على جيرانهم<sup>(1)</sup>.

ثم يقول "أن الناس يرغبون بصورة طبيعية في السّلام والأمن، والهروب من البؤس والفرع من حالتهم الطبيعية هذه، فدفعهم ذلك إلى تأسيس دولة تقوم على رضى مُتبادل يوافق فيها كل فرد على طاعة أوامر صاحب السيادة، الذي يكون رجلاً واحداً وخلفاءه (النظام الملكي) أو مجموعة من الناس (الارستقراطية أو الديمقراطية وفقاً لحجم المجموعة)، وكان صاحب السيادة في إنجلترا فرد واحد، وسلطة صاحب السيادة المطلقة، وهو لا يمكن أن يرتكب خطأ يمكن أن يخضع بسببه للمسائلة من الناحية القانونية، فهو ليس مسؤولاً أمام الله وضميره فحسب، بل مسؤولاً أمام الناس يُحاسب ويُساق إلى المحاكم ويتلقى جزائه حسب حجم فعلته. وبالمقابل يتعهد الآخريين بطاعته، وهو لم يتعهد لهم بشئ بل له سلطة من القوانين وتعيين القضاة، وإعلان الحرب والسّلام وتوقيع العُقوبات وتحديد دين الدولة... الخ".

(1) Hobbes "the thirteen Law of nature are stated and expounded in Leviatharn".

ولما كانت الدولة قد تكونت بوضعها مصلحة أنانية فردية فإن خضوع الرعايا لصاحب السيادة يجب أن يفهم على أنه يدوم ما دام يملك من الفترة المستمرة ما يمكنه من حمايتهم، وليس أطول من ذلك<sup>(1)</sup>.

من هنا يفهم أنّ فلسفة هوبز الأخلاقية والسياسية، تقوم على مذهبي الأنانية واللذة تماماً، فالتّاس يسلكون ويجب أن يسلكوا وفقاً لمصلحتهم الخاصة فحسب. لقد كان للمرء في حالته الطبيعية حق طبيعي في أن يفعل ما يحلو له، وأن يمتلك ما يمكن أن يستولي عليه، ويخوضه من الآخرين. غير أن القانون الطبيعي يختلف تماماً عن الحق الطبيعي.

فالقانون الطبيعي هو فكرة أو قاعدة عامة يكتشف الإنسان عن طريق عقله أن من مصلحته طاعتها، ومن ثمّ فهو مُلزم بأن يفعل ذلك (فالمصلحة والواجب الأخلاقيّ هما شيء واحد في هذا المذهب الطبيعي الأخلاقي).

والقانون الطبيعي والأساسي الأول هو أن التّاس ينبغي عليهم أن "يبحثوا عن السّلام ويتبعوه" وينتج عن ذلك القانون الثاني وهو "ينبغي أن يكون لدى الإنسان الرّغبة في السّلام، وعندما يكون لدى الآخرين نفس هذه الرّغبة، وأن تكون لديه رغبة في الدّفاع عن نفسه، عندما يجد أنه لا بد أن يفعل ذلك، وأن يتنازل عن هذا الحق (الطبيعي) في ملكيته لجميع الأشياء، وأن يقنع بذلك القدر من الحرية، إزاء الآخرين الذي يسمح به للآخرين أزاءه". ويحدث التّخلي المتبادل والإرادي عن الحقوق الطبيعية، عن طريق اتفاق أو عقد. ولذلك يعد هوبز واحداً من الأوائل الذين أعلنوا في العصور الحديثة أن الدولة تدين بأصلها إلى العقد الاجتماعي. من هنا يبدأ الفرق بالتفكير في مفهوم الدولة لدينا (وفي الشرق عموماً) وإلى وقت قريب من أن الدولة هي سلّطة مستمدة من المفاهيم اللاهوتية،

(1) Hobbes, T., "Leviathan", chap. xxj

وتحكم بحق إلهي مُنزل من السماء، ومن صُلب الواجب الديني، هو إطلاعة الحاكم، وكانت تلك المبادئ هي من أولى البنى الارتكازية، التي قامت بموجبها الدولة الإسلامية في العصور التي نحن بصدد البحث فيها. فلم نجد في تاريخنا عقداً اجتماعياً بنيت عليه دوله من دولنا الماضيه والى وقت قريب كالذي وضعه هوبز.

ومن جانب آخر فإن البداوة المحاذية للمدن العامرة، لديها مفاهيم خاصة لا يدرك المرء فيها بالحاجة إلى العقد الاجتماعي المتمثل بالدولة، ويحكم معيشة المرء في الصحراء مُعزلاً بنفسه بعيداً عن المدينة والتمدن، فإن القوانين التي تحكمه ويؤمن بها محصورة بينه وبين الأرض والسماء، ولا يشغل باله سوى التوسع في الأراضي الرعوية، وتسهيل مهنة التجارة، التي هي الشغل الشاغل نشيوخ القبائل<sup>(1)(2)</sup>، وهكذا بقيت المنطقة مقيدة بتلك القوانين دون تطوير. وأدت لحصول انفلات وحوادث غير منظمّة وغير ملتزمة وحروب كثيرة، وأعمال عنف مروعة. ولا يزال الموروث الثقلي المذكور يتحكم بالكثير من الناس مؤثراً في سير الحوادث التي نعيشها في العصر الحديث.

أمّا القانون الثالث لهوبز فيقول "ينبغي أن يلتزم الناس بتففيذ ما يبرمونه من عقود"، والتي بدونها تُصبح العقود، بالطبع، عديمة الجدوى، ويتبع عشرة قوانين طبيعية أخرى وهي: "الالتزام بالإرادة الخيرة، التكيّف المتبادل، العفو عن التائب، العقوبات لا تكون إلا من أجل إصلاح المعتدين أو ردع الآخرين، وليس من أجل الانتقام، الامتناع عن ازدراء أو كراهية الآخرين، الاعتراف بأن جميع الناس مُتساوون، امتناع الإنسان عن الاحتفاظ بأي حق لنفسه دون غيره، أي ينبغي على المرء أن لا يرضى لنفسه أن يحتفظ بأي حق لا يرضى أن يحتفظ به كل إنسان آخر لنفسه، التوزيع العادل أو بالنسب الصحيحة للخيرات التي تكون



مُلكاً للجميع، السلوك الآمن، وحلُّ المنازعات عن طريق الجهة القضائية. والقوانين الطبيعية تلك قوانين ثابتة، وأبدية، لأنَّ الظلم، وُكران الجميل، والتكبر والكبرياء والبغي والمُحاباة وغيرها، لا يمكن أن تكون على الإطلاق أموراً مشروعة وقانونية، لأنه لا يمكن مُطلقاً القول بأن الحرب يمكن أن تُحافظ على الحياة وأنَّ السَّلام يدمرها<sup>(1)</sup>.

لقد وصل هوبز إلى تلك الأخلاق، لا عن طريق دراسة حركات في المخ والقلب، وإنما عن طريق تحليل البواعث البشرية، من خلال المُلاحظة والاستبطاء، وصياغة للسلوك في سلسلة من قضايا تم استنتاجها من مُقدّمات الأنانية.

وهكذا بدعت تتطور المفاهيم بشأن حق الناس رغبتهم في أن يختاروا، ويغيروا شكل حكومتهم في الدولة والكنيسة (الدين) بعيداً عن سُلطة المؤسسة الإلهية. وقد أثبتت الثورة الإنكليزية (1688)، أنه يمكن للنَّاس أن يُغيروا دستور الدولة دون أن يُسبب ذلك خطأ واضطراباً عاماً، أي أنَّ رعايا الدولة يكونون مسؤولين عن القواعد التي يمكن أن تقرّها من الناحية الأخلاقية، وأن الحرية الفردية في مسائل الدين، والكلام والنشر والأنشطة الأخرى، يمكن أن يُسمح بها، ويجب أن يُسمح بها للمواطنين في أي بلد مستبّر ومتحرر.

لقد قام هوبز بمجهود طيب لكي يخلص الأخلاق من اللاهوت، ويؤكد أنه يجب تعريف الخير والشر، عن طريق ما تُحققه الرغبات البشرية أو ما لا تحقّقه. لقد رأى أن الدولة تعبر عن مصالح بشرية مُشتركة واتفاق عام، حتى لو لم يقدر النتائج الكاملة لهذه الحقيقة وهكذا وضع الحجر الأساس لسلسلة من الأفكار والفلسفات التي قادت لتطوير مفاهيم الإنسان حول الأخلاق والقوانين، وما له

(1) توماس هوبز "المصدر السابق" (chaps.xiii.xiv)

وما عليه من التزامات إجتماعية، ضمن الرقعة التي يعيش فيها، وبالتالي كانت تلك الأفكار بمثابة القاعدة التي قامت عليها حضارة الغرب الحديثة، بينما ظلت مناطقنا بعيدة كل البعد عن التقدم، وظلّ الإنسان أسير أفكار العبودية والإقطاع، خائفاً مضطرباً لا يرى في حياته الدنيا أي لذة أو معنى متأملاً أن يلقي سعادته في الآخرة وبالتالي لا يهتم كثير في تحسين حاله في الدنيا.

إن ما وضعه هوبز وغيره من الفلاسفة في ذلك العصر، لم يقطف المجتمع ثمارها في عصره ولا حتى بعد موته، ولكنها كانت نواة تبلورت حولها أفكار ومبادئ لصالح المجتمع بعد قرون، وقد برزت ثمارها في القرن العشرين وما بعده، ولم تكن كل أفكار أولئك الفلاسفة على صواب مطلق، بل جرى تعديل وتطوير، وما زال في طور النقد والتعديل، كلما ازداد تطور المجتمع، وازدادت حاجته لوضع أسس تتسجم مع العصر بكل ما فيه من تغييرات اجتماعية واقتصادية، وأهم من ذلك التطور العلمي والتقني.

من هنا تتضح الإجابة على تساؤلاتنا التي طرحناها في الجزء الأول من هذا البحث، حول الأسباب الرئيسية وراء أحداث التخريب والدمار الذي حصل في العراق بعد سقوط النظام السابق في 2003/4/9 ولا زالت تحدث الى الآن.

فقد برز انعدام وجود أي عقد اجتماعي أو قيم أخلاقية دينية أو غيرها، بين الناس، فلمجرد شعورهم بيزوال السلطة القسرية عادت الهمجية والسلوك الإجتماعي الأولى أيام الجاهلية الأولى إلى الوجود، وسادت وتقلبت على كل شيء، وبرزت صفة الأنانية الفردية على الغالبية من الشباب الذي يفتقر للوعي والثقافة، حتى إن كاتب هذه السطور كان شاهداً على الأحداث، وقد شاهدت واحداً من رجال الدين (المعمّنين) وهو يحمل قطعة مسروقة من إحدى دوائر الدولة وهو معتقداً أنها غنيمة، ومن حقه الاستحواذ عليها.

وحدث شيء آخر، ذي دلالة هامة لا بد من ذكره هنا، وهو أن أحد خطباء المساجد كان ينادي بإعادة الممتلكات الحكومية إلى محلّها، ولكنه يدعوهم بالاحتفاظ بالسلاح والعتاد (المسروق من مخازن الجيش) على اعتبار أنه يفيدهم في وقت لاحق، ويجيز لهم ذلك دينياً وأن ذلك الكلام على شيء فانما يدل على درجة أهتمام القوم في السلاح والاستحواذ عليه بأي طريقة كانت.

ومن هنا تأتي أهمية أن يكون هناك عقداً اجتماعياً يتفق عليه الجميع يتم استيعابه من قبل الجميع، ويرضى عنه الجميع، ليُحدد موقف الجميع من الوطن، وممتلكات هذا الوطن، وكيفية التصرف بها بعيداً عن سلطة اللاهوت، أو أي سلطة أخرى، ويجب أن نبدأ به من الآن لأنه وحسب استعراضنا للفصول الثلاثة في هذا البحث، لم يأت أحداً إلا من الحكام ولا من المصلحين من استطاع أن يبني أساساً راسخاً لهذه الأمة، تستطيع أن تنهض وتتخلص من الهمجية في العقل الباطن والسلوك الفردي المفرد بالأنانية، فلم تؤسس الدولة الأموية ولا العباسية، وسقطت الدولتان على يد المغول، واستمرت تلك الحالة فيما بعد أيام الدولة العثمانية، ولا نزال نعيش في موروث ثقافي لا يؤسس (للأسف الشديد) للحرص على المال العام، ولا يكرس للمفاهيم الديمقراطية الحديثة، وأصبح الفساد الإداري آفة يصعب التخلص منها.

لم يكن ذلك السلوك من تخطيط وصنع أجنبي أو أي جهة مُعدية، بل كان سلوكاً أصيلاً نتيجة للشعور بالظلم والغبن، الذي أصاب المواطن العراقي طيلة الفترة السابقة.

وعودة إلى سلوك الفرد الابتدائي الغير منضبط بعقد اجتماعي في أذهان الناس، والهشاشة في البنى والقيم الاجتماعية والثقافية، فقد شمل التخريب كل شيء، ولم يكن لتلبية الحاجات الأساسية من غذاء وأموال بل أطلال كل

الهيكل الارتكازية للحياة الحديثة من مجاري المياه، والكهرباء، وقطع أثرية، ومكتبات، ومُستشفيات، ومدارس، وحتى المساجد ودور العبادة وغيرها. صحيح أن هناك اسباب أخرى وممارسات وأخطاء من المسؤولين، إلا أن حجم الدمار الذي حصل لا بد وأن يكون انعكاساً لما يدور في فكر الانسان العراقي وما كان يعاني منه من ظلم وما يحمله من قيم وأخلاق طارئة وغير أصيلة.

ولا يزال التُخريب ساري المفعول إلى ساعة كتابة هذا الجزء من البحث، فإذا جاء المغول لبلادنا في منتصف القرن الثالث عشر، وخربوا كل شيء، لكنهم جاؤوا لآسيا برمتها وشرق أوروبا، وخربوا أكثر مما خربوا عندنا، ولكن الجميع استطاع من استعادة كل ذلك الخراب، لكن هشاشة البنى الارتكازية الاجتماعية والثقافية والسياسية عندنا لم تكن كافية لاستعادة البناء المجتمعي السليم، في ذلك الحين، نأمل أن نتجاوز ذلك في هذا العصر وبعد أن يدرك المسؤولين هذه الحقائق أولاً.

وهكذا نجد أن فئة من الداعين للعنف استطاعوا ببساطة أن يكسبوا الشباب والأطفال (بين سن 14 - 20 عاماً) لينضموا إليهم بدعوى ومبادئ سلفية قديمة، تدعوا لتحطيم كل ما هو حديث ومتطور، وتريد بنا العودة إلى حياة القرون البدائية المظلمة، وقد لاقت رواجاً هائلاً لم تستطع أي قوة من إيقافها بسهولة للأسف الشديد. والملفت أن هؤلاء الشباب هم بأمر الحاجه لمن ينقذهم من الوهم الذي يعيشون فيه فسرعان ما يتكلم معهم أحد ويقنعهم نجدهم يغيرون رأيهم رأساً على عقب. ويتحولون الى افراد طبيعيين 100%.

المسألة هي بوضوح أننا نُعاني من خلل تربوي وثقافي بالدرجة الأساس والتي يجب أن تكون مُستتدة لفكر فلسفي يفضي لوصول فهم مشترك للمجتمع،

لإيجاد عقد اجتماعي يربط بين الناس. هذا العقد يختلف عن دستور الدولة المعروف. إنه عقد يعيش في ضمير الناس منذ الصغر.

لم تكن الحضارة الأوروبية الحديثة وليدة يوم وليلة، فقد ظهرت النهضة الأوروبية للوجود منذ سقوط القسطنطينية عام (1453)، ولا نستطيع هنا من الخوض في تفاصيل كل الأسس والفلسفات، التي ساعدت في بناء تلك الحضارة الدائمة والتي لا يستطيع تنظيم القاعدة أو غيره من تحطيمها، وإذا استطاع أن يهدم بئى أو هياكل حجرية، فكيف يمكنه أن يحطم أسس ومبادئه راسخة في العقول. لقد مرت على أوروبا عصور مظلمة وعانوا الكثير من وسائل القتل والتعذيب لكنهم تجاوزوها.

ولا بد لنا أن نُشير لبعض الفلاسفة الأمريكيين الذين ساهموا في فترة الفلسفة المعاصرة في تكريس مفاهيم الديمقراطية، ونخص بالذكر منهم جون ديوي، فقد قدم آراءه السياسية في كتابه "الجمهور ومشكلاته"<sup>(1)</sup> المنشور عام (1927)، وكما يلي: "إن الوحدة الاجتماعية النهائية هي "الجمهور" - أعني كل أولئك الذين يتأثرون بالخير والشر، عن طريق المصالح المشتركة - وقد اعتاد الجمهور أن يجد في لقاء المدينة وسيطاً، حيث يستطيع أن يعلن عن نفسه في مسائل ذات اهتمام عام، ويتخذ إجراءً ذكياً.

والدولة السياسية إذا كانت ديمقراطية، فهي الجمهور الذي ينظّمه ويوجهه موظفون ممثلون يختارهم الشعب. وتصبح الدولة في الاتساع والتعقيد حداً يضيع معه الجمهور، ويشعر بحيره بالتأكيد، ولا يعرف هو نفسه أموراً معينة، ويوجه موظفيه الممثلين بفتنة وذكاء. ويعمل هؤلاء الموظفون استجابة لضغط مجموعات. ويوجه المجتمع في كل المسائل غير السياسية متخصصون مندربون. والمشكلة

(1) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة الحديثة"، المصدر السابق، ص 522.

الجوهرية هي تطوير منهج النقاش، والحوار، والاقناع، حتى يحمل البحث والعلانية محل الكتمان، والمُحاباة، والتمويه، والدعاية، والجهل المطلق، ويستطيع الجمهور أن يكون سياسات اجتماعية عن طريق التفكير التأملي.

إن الحياة المشتركة تمتلك شيئاً يشبه الذكاء (العقل)، (وهنا لدينا مثل شعبي يشير إلى أن رأى الجماعة أكثر رجاحة وذكاءً من رأي الفرد الواحد).

ولا بد من إستعادة هذا الشيء ولابد أن يمتد إلى الأمة وإلى العلاقات الدولية. ولدينا أمثلة عديدة من بلدان تحولت من النظام الدكتاتوري الفردي إلى النظام الديمقراطي حديثاً كاليابان وألمانيا، وكوريا الجنوبية، وماليزيا وغيرها.

ونجد أن وثيرة التقدم أخذت في التصاعد شيئاً فشيئاً، من خلال الممارسة الديمقراطية في كل نواحي الحياة، في المنزل والمدرسة والجامعة وفي العمل بالاضافه للعمل السياسي.

وقد نشر ديوي كتابه "الحرية والثقافة" عام (1939)، يستبعد فيه رفض للتعميم المطلق التي جاءت بها المذاهب الدينية التي تؤكد هذه القيم، وتتسبب إليها مصدراً وسلطة خارج الطبيعة، إن الدين في الغالب محافظ للغاية في وجه نظر ديوي ولا يريد إعادة بناء متغير لكي يواجه ظروفاً جديدة.

ويعرّف ديوي من ناحية أخرى الخدمة التي أداها الدين في الماضي، والتي تتجلى في إحداث الوحدة، والإدارة المميزة، والتعاون في المجموعات الاجتماعية، وللدين مكانة في المستقبل، لو أنه استطاع أن يتعلم التخلي عن صنوف المطلق<sup>(1)</sup>، وينسلخ عن العادات والتقاليد، والحرص على الدنيا، وربط الرجال والنساء معاً في صداقة مشتركة، والعمل من أجل إصلاح الجنس البشري وتقدمة.

(1) لتوضيح المقصود بالمطلق هنا كل ما لا يقبل النقاش والمجادلة حوله في الأمور الحياتية والمعتقد، ويشكل قيوداً على العقل ومانعاً للتطور.

إن مفهوم الله يمكن أن يبقى بناءً على هذه الشروط، فالانتباه سيكون موجهاً نحو حاجات بشرية وطموحات من أجل مجتمع أفضل معيشة في هذه الدنيا. وقد كان ديوي باستمرار محبوباً من قبل القساوسة ورجال الدين، وكان له تأثير ملحوظ على فكر اللاهوتيين والليبراليين وفلاسفة الدين<sup>(1)</sup>. وقد قدم آراءه عن الدين بصورة كاملة في كتابه "الإيمان المشترك"<sup>(2)</sup>.

لم تعد الديمقراطية تعني حكم الشعب بالشعب وللشعب، وحسب بل تطورت إلى مفاهيم وقيم شاملة، فقد أصبحت صياغة معدلة تؤكد التنظيم الاجتماعي للظروف الاقتصادية، ولا بد أن تكون حرية التفكير والتعبير عن الرأي كاملة، ولا بد أن تكون حرية الفعل غير مقيدة وتتفق مع الصالح العام، ويجب منع الأطفال من العمل المضني. ولا بد من مراعاة تشريع المصنع في حماية العمال، ولا بد من الدفاع عن المفاوضات المشتركة عن طريق نقابات العمال بناءً على قوانين العمل، والتأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة، والمرض، والبطالة، وتوزيع الدخل بالتساوي، ويصبح التعليم في متناول الجميع، وإذا استطعنا أن نطلق على كل ذلك وغيره اسم "الديمقراطية"، فإننا ننظر إلى الديمقراطية على أنها قيمة سامية تتحقق عن طريق تفكير عملي، وتشمل المساواة بين البشر بدون تحفظ.

وهكذا نجد أنفسنا ونحن نعيش في الشرق الأوسط، ونقلب في صفحات تاريخنا القديم والحديث لنجد أننا بعيدين كل البعد، عن تلك المفاهيم ولم تكرر من قبل مفكرينا وفلاسفتنا ومصالحينا أيًا من تلك المفاهيم، وأكثر من ذلك كان هناك خنق لكل من حاول أن يشير لمثل تلك المفاهيم في العصور الماضية.

(1)، وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة المدنية"، المصدر السابق، ص 523.

(2) J. Dewey and Tufts, "Ethics", (1932) ed., pp 280-287.

وكان مصير كل من نادى بتلك المبادئ القتل والتعذيب، وقد وجدنا مثلاً في المعتزلة أيام العصر العباسي الذهبي كيف أنه مجرد إعطاء فسحة بسيطة للعقل في التفكير بحرية استطاعت أن تنتج باقة من العلماء والمفكرين، الذين هم فخر الأمة واعتزازها، استطاعوا من نقل التراث الحضاري البشري من الشرق إلى الغرب وقدموا دعماً راسخاً لبناء الحضارة الإنسانية الحديثة.

وثانياً: لقد كان انتقال صناعة الورق من الصين إلى بغداد أيام العصر العباسي، ومنها إلى أوروبا عن طريق إسبانيا، الأثر الكبير في زيادة التدوين ونقل العلوم، وهنا نذكر مره سأل العالم الأمريكي المعروف توماس أديسون، ذلك المخترع الذي نورّ العالم بالمصباح الكهربائي، وغيرها من المخترعات، سأل تلاميذه في الجامعة: ما هو أهم اكتشاف في التاريخ الذي لعب دوراً أكبر في تطوير حياة الناس؟ وكانت الإجابة الصحيحة حسب اعتقاده والتي أجابها هو: إنه الورق.

فقد كان الإنسان يدون على الرقيم الطيني، أو قصب البردي أو جلود الحيوانات المعرضة للتلف، وعندما انتقلت إلى الورق، فإنها كانت طفرة كبيرة، شكّلت مرحلة جديدة من مراحل التطور العلمي للإنسان، بالإضافة لذلك فإن اكتشاف آلة الطباعة في أوروبا (فرنسا)، قد ساهم في سهولة نشر المعلومة، وبالتالي أصبح بإمكان أكبر عدد ممكن من المجتمع أن يطلع ويقرأ ويتتقّف. وكان ذلك عاملاً أساسياً في النهضة الأوروبية الحديثة من خلال شمول أعداداً كبيرة من المجتمع بالثقافة والتفاعل مع المنتجات العلمية والفكرية المختلفة، بدلاً من قُصورها على عدد محدود من الناس، كما كان الحال في الشرق في العصور المذكورة.



وهكذا بدأت تتسع الهوة بين المشرق والمغرب، ووصلت إلى حد أن كل مجتمع كأنه يعيش في كوكب مختلف عن الآخر، وإلى أن جاء احتلال نابليون لمصر في بداية القرن التاسع عشر ويعدها، وأخذت البعثات الدراسية التي توالت من البلدان العربية والإسلامية في محاولة للتأسيس لنهضة فكرية حديثة، كل تلك العوامل ساهمت في التقليل من الفوارق. وهناك اكتشافات أخرى انتقلت من الصين إلى أوروبا كانت مؤثرة في تطوير الحضارة الحديثة تلك هي إكتشاف البارود والمدفع الذي ساهم في تقليص الحروب والهمجيه. وكذلك التلقيح ضد الامراض الساريه كالطاعون والكوليرا والتي كانت بالأساس إكتشافاً صينياً. انتقل وتطور في أوروبا بعد فترة طويله.

**ثالثاً:** مارس الأوروبيين الملاحة البحرية بشكل واسع جداً في القرن السادس عشر، وكان ذلك ضمن موروثهم التاريخ فمنهم من كان في جنوب أوروبا، من أصل فينيقي أو شمالها من أصل أنكلو سكسوني، وكل تلك الأقوام كانت تعيش على سواحل البحار، وكانت تلك الحياة والممارسة قد اكسبتهم حالة من عدم الشعور بالخوف، وأصبحوا يولدون ويموتون دون أن يدخل في قاموس حياتهم شيء اسمه خوف، لأن البحر فيه من المخاطر والكوارث ما يجعل القدرة والموهبة في مجاببتها، والتعامل معها بعقلية متفتحة وأفق واسع.

بالإضافة إلى ذلك فإن الذي يصول ويجول في البحار والمحيطات يكتسب سعة في الأفق، ويصبح متفتح عقلياً، لتفسير الظواهر المحيطة به بعيداً عن الخرافات والشعوذة، (إن الإنسان الخائف يصبح لقمة سائغة للخرافات والشعوذة، ولا يستطيع أن يعمل عملاً ناجحاً ومثمراً). وكان ذلك أمراً مضافاً لتسارع في عجلة التقدم، وبالتالي ظهرت النهضة الأوروبية الحديثة منذ منتصف القرن الخامس عشر، واستمرت في التصاعد إلى يومنا هذا. بينما بقي الشرق

الأوسط يواجه صراعاً عنيفاً بين المدينة والبادوة، وأصبحت المدينة تواجه هجمات الرعاة بين الحين والآخر، لتحقيق هدفهم في زيادة رقعة الرعي، وفي ممارسة التجارة والسيطرة على الطرق.

وهكذا بدأت عندنا ما يُعرف بصراع الحضارات، عندما أصبح الفارق كبيراً بين ما توصلوا إليه من علم وتقنية، وما نحن عليه من حياة بدائية تتطلب المزيد من الإصلاح لتقريب تلك الفوارق، إن الزيادة في الثروة الناتجة عن الإنتاج النفطي لبعض البلدان العربية والشرق أوسطية، لا تكفي لوحدها من تقريب تلك الفوارق كما يظن البعض.

بل هناك سلسلة من الإصلاحات التربوية والثقافية، لا بد من العمل الدؤوب من أجل التوصل إلى حلول لها لأن التقدم الحقيقي لا يشتري بالمال وحده.

لقد أصبح واضحاً الآن أن مُشكلاتنا في البلدان النامية تتعلق في نمط التفكير والمفاهيم التي نحملها والناجمة عن الموروث التاريخي القديم، والذي يحتاج إلى تحديث جذري.

وهكذا نتهي هذا الجزء من البحث على أمل التواصل بهدف الكشف في المُسببات الأساسية وراء التخلف ذي الخلفية التاريخية، ولكي نصل إلى المراحل الحديثة، وما سببته لنا من مشكلات معاصرة في المستقبل القريب إنشاء الله.

الى اللقاء في الجزء الثالث من البحث.

## المصادر :-

- (1) جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، 12 جزء بغداد(1965).الجزء الخامس.
- (2) أودرد بروي — تاريخ الحضارات العام(القرون الوسطى) الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية(1986).
- (3) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الاسلامية" ترجمة منير بعلبكي ونبية أمين، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت (1977).
- (4) هادي العلوي "محطات في التاريخ والتراث"، دار الطليعة الجديد.
- (5) عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الاسلامية" الطبعة الاولى، الجزء الاول والثاني والثالث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت(2005).
- (6) دوزي "تاريخ الدولة الاسلامية" طبع لندن، ترجمة فكتور شوون، القاهرة(1863).
- (7) ادورد براون "تاريخ الادب في ايران" 5 اجزاء ترجمة أحمد كمال الدين حلمي وآخرون، المجلس الاعلى للثقافة القاهرة(2005).
- (8) طباطبا (محمد بن علي المعروف "بابن الطقطقي) "الفخري في الادب السلطاني والدول الاسلامية" القاهرة(1938).
- (9) السيروثيم موير "تاريخ الخلافة الاولى" حياة محمد وتاريخ الاسلام" (في اربعة اجزاء) الطبعة الرابعة(1982).
- (10) طه حسين "الفتنة الكبرى" الجزء الاول والثاني، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر(1966).
- (11) اليعقوبي (ابن واضح) "تاريخ اليعقوبي"، النجف الاشرف(1883)..
- (12) ابن ابي أصبغه "عيون الابناء" في طبقات الاطباء، طبعة بيروت(1965).
- (13) الطبري (محمد بن جرير): "تاريخ الامم والملوك" القاهرة(1939) 4 اجزاء.
- (14) هادي العلوي "الاغتيال السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق الطبعة الرابعة(2004).

- (15) هادي العلوي "التعذيب في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).
- (16) ابن الاثير "الكامل في التاريخ" القاهرة (1938).
- (17) البلاذري "فتوح البلدان" وأنساب الاشراف تحقيق محمد رضوان، الجامعة العربية، القاهرة (1959).
- (18) ابن عساكر "تهذيب تاريخ ابن عساكر" دار المسيرة، بيروت (1979).
- (19) حسين مروة "نزعات مادية في الفلصفة العربية الاسلامية" الجزء الاول، والثاني، الطبعة الثالثة، دار القارابي بيروت لبنان (1980).
- (20) المسعودي "مروج الذهب" طبع باريس، 9 اجزاء (1861 - 1877).
- (21) أحمد فرج الله "نظرة حديثه لقضايا قديمه في التاريخ الاسلامي" بغداد (2004).
- (22) فون كرورم "تاريخ الفرق الاسلامية" طبع لايبزج (1868).
- (23) فون كرورم "الاثار التاريخية حضارة الممالك الاسلامية"، طبع لايبزج (1873).
- (24) فون كرورم "تاريخ وثقافة الشرق في عصر الخلفاء" مجلد عدد 21 (1875 - 1877).
- (25) دو خوين "ملاحظات حول قرامطه البحرين والفاطميين، لين (1886).
- (26) تولدكه "تاريخ الشرق" الترجمة الانكليزية، طبع لندن، وارنبور (1892).
- (27) أخوان الصفا: "رسائل اخوان الصفا" القاهرة (1888).
- (28) ستانلي لين بول "تاريخ الملوك والسلاطين والامراء"، ترجمة مكّي طاهر، عباس اقبال الدار العربية للموسوعات، بيروت (2006).
- (29) W.Rothstein "Znash-scha bustis Bericht uber der Tahiriden" oriental studies, Giessen, I. (1906).
- (30) النويختي (أبو الحسن محمد) "فرق الشيعة" القاهرة (1961).
- (31) الثعالبي (أبو منصور) "الطوائف المعارف" طبعه Delong، القاهرة (1934).
- (32) ابن خلكان "وفيات الاعيان" طبع دي سلان، الجزء الاول مصر (1858).
- (33) دي ساس (سلفستر) شرح عقيدة الدرور "طبع باريس (1874).
- (34) نظام الملك "سياستنامه"، طهران (1320هـ).

- (35) أبين قتيبه(عبدالله بن مسلم) "عيون الاخبار" ،مصر(1960).
- (36) المظفر (محمد رضا) "عقائد الامامية" ، القاهرة(1961).
- (37) أبين التديم (محمد بن اسحق) "الفهرست"مصر (1929).
- (38) التويري(شهاب الدين احمد) "نهاية الارب في فنون الادب"القاهرة(1955).
- (39) رينه دوسن "تاريخ التصريه ومذهبهم" طبع باريس(1900).
- (40) برنارد لويس "الحشاشون" ترجمه محمد العزب موسى ،مكتبة المديولي، الطبعه الثانيه ، القاهرة(2006).
- (41) H.steiner "المعتزلة أو ذوو التفكير الحر في الاسلام" طبع لايبزج(1865).
- (42) بروناو (Bruno) "الخوارج" طبع ليدن(1884).
- (43) حسين بن جمد العرش "بلوغ المرام" القاهرة(1939).
- (44) التقزازاني "شرح عقائد النفس" طبع مصر ، الجزء الاول(1936).
- (45) حسام محيي الدين الالوسي "فلسفه الكندي واره القدامى والمحدثين فيه" بيروت(1985).
- (46) محمد عابد الجابري "بنية العقل العربي" دراسة تحليليه تقديمه لنظم المعرفه في الثقافه العربيه" ط7 مركز دراسات الوحدة العربيه - بيروت(2004).
- (47) دوسون "تاريخ المغول من جنكيز خان الى تيمور لنگ" المجلد الاول، القاهرة.
- (48) عاطف العراقي "الترزعة العقلية في فلسفه ابن رشد" القاهرة(1968).
- (49) الغزالي(ابو حامد محمد) "أحياء علوم الدين" القاهرة(1888).
- (50) فؤاد عبد العطي الصياد "المغول في التاريخ" الجزء الاول بيروت(1970).
- (51) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفه الحديثه" ترجمه محمود سيد أحمد المجلس الاعلى للثقافه ، القاهرة (2005).
- (52) فريدريك كويلستون "تاريخ الفلسفه الحديثه" ترجمه محمود سيد أحمد المجلس الاعلى للثقافه ، القاهرة(2005).

(53) Thomas Hobbes, "Latin works", edited by Molesworth, Vol.1,2.

(54) H.Hoffding History of Modern Philosophy . Vol . I .

- (55) New Atlantis (in the works of Francis Bacon , edited by speeding Ellis and Health , Vol . III) . London ,
- (56) طه حسين في الشعر الجاهلي دار المدى للثقافة والنشر، دمشق(2001).
- (57) Thomas Hobbes "leviathan" several edapters, works edited by Molesworth.
- (58) Dewey J , "Experience and Nature" .
- (59) Dewey J, Ethics (with James H. Tn fts) (1932).
- (60) محمد عابد الجابري تكوين العقل العربي الطبعة التاسعة، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت(2006).
- (61) ول ديورانت قصة الحضارة ترجمه محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر جامع اندول العربية 34 جزء.(جزء 13 - 14)
- (62) فون كرمر "تاريخ عقائد الاسلام المهمة الشائعة".
- (63) الشهرستاني - محمد عبد الكريم المال والنحل مطبعة حجازي، القاهرة(1949) ج1، ج2.
- (64) جون ديوي الديمقراطية والتربية ترجمة متي عقراوي، وزكريا ميخائيل، لجنة :تأليف والترجمة والنشر - وزارة المعارف - بغداد(1946).
- (65) ياقوت الحموي "معجم البلدان" دار الكتب العلميه - بيروت - لبنان(2002) 7 أجزاء.
- (66) الموسوعة الفلسفية العربية رئيس التحرير معن زيادة، المجلد الاول، الطبعة الاولى(1986) معهد الانماء العربي دمشق - سوريا.
- (67) جميل صليبا "تاريخ الفلسفة العربية" دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية(1973).
- (68) آرنولد توينبي "مختصر دراسة التاريخ" - 4 أجزاء ترجمه فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غريال لجنة الترجمة والتأليف والنشر - جامع الدول العربية(1966) القاهرة.
- (69) عبد الرحمن بدوي "مذاهب الاسلاميين" الجزء الاول المعتزلة والاشاعرة - دار انعم للملايين بيروت ط3 (1983).

- (70) محمد عبد الرحمن مرحباً من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلاميه المجلد الاول- عويدات للنشر والطباعة، بيروت- لبنان(2000).
- (71) أحمد صالح العلي "العراق في التاريخ" دار الحرية للنشر والطباعة بغداد(1983).
- (72) عمر فروخ "تاريخ الادب العربي" ط2 دار العلم للملايين- بيروت- لبنان(1984).
- (73) عبد الباقي سرور "رابعه العدويه والحياة الروحية في الاسلام" القاهرة- مصر.
- (74) الحسيني(عبد الرزاق) "الصائبه قديماً وحديثاً"، القاهرة- مصر(1931).
- (75) الزمخشري(محمود بن عمر بن محمد جاد الله أبو القاسم) "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الاقاويل من وجوه التنزيل" مطبعة الاستقامة- بيروت(1947).
- (76) حنا الفاخوري - خليل الحرّ "تاريخ الفلسفة العربية" الجزء الثاني دار دجلة - بيروت لبنان - الطبعة الثالثة (1993).

## الكاتب

حصل على شهادة الدكتوراه عام 1979 من جامعة مانجسترو وقد عمل محاضراً في الجامعة لفترة قصيرة. ثم عاد إلى العراق وعمل في الصناعة ومحاضر خارجي في جامعة بغداد، تخرج على يده العديد من الطلبة. وعمل في مجال البحث والتطوير وأنجز العديد من البحوث العلمية الأصيلة نشرت في مجلات عالمية معروفة ولديه عدد من براءات الاختراع. وعمل الكثير من الدراسات المتخصصة في مجال الصناعات البتروكيميائية ومنها دراسات جدوى فنية واقتصادية تم الأخذ بالقسم منها لأغراض التطبيق العملي في بعض دول الخليج. أنجز العديد من المؤلفات منها دراسات في السيطرة النوعية في اليابان، والقواعد الأساسية لفعاليات البحث والتطوير وسبل نجاحها في البلدان النامية لصالح (NCCMD) في بغداد عام 1988. وأنجز أعمالاً استشارية عديدة في القطاع الصناعي العام والخاص. وكان عضواً بارزاً في جمعية الصباغين والملونين البريطانية في يوركشاير وعضواً استشارياً في العديد من الجمعيات والنقابات المهنية في العراق. تفرغ منذ عام 2003 للدراسات الإنسانية ليضع بين أيديكم هذا الكتاب يحاول التقرب لفهم الظواهر التاريخية بمنظار علمي وموضوعي.













# هذا الكتاب

قراءة جديدة بأسلوب علمي موضوعي ومركز لتاريخ تطور الفكر الرافديني خصوصا والشرق أوسطي عموماً، منذ النشأة الأولى لحضارة وادي الرافدين . لقد تعرض الكاتب الى موضوعات اجتماعية واقتصادية وسياسية كانت بمثابة بحث علمي هادف للوصول الى زيادة الفهم لما يعاني منه الانسان في الشرق الأدنى من احمال ثقيلة من خلال ما يحمله من موروث أثر الأحداث والتطورات التي حصلت في المنطقة .

وقد تضمن الجزء الاول من الكتاب التركيز في تفسير أسباب العنف السياسي والتسلط الفردي في الحكم ابتداءً من النشأة الأولى لحضارة وادي الرافدين وصولاً الى عصر فجر الاسلام وإلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين ، بينما تضمن الجزء الثاني عصر الدولة الاموية والعصر العباسي الذهبي وإلى نهاية عصر المغول والتتار . وقد اتسمت تلك الفترة بأهمية بالغة جدا لتعرض الكاتب الى موضوعات فكرية وفلسفية في غاية الاهمية بالإضافة الى الاسباب الحقيقية التي تكمن وراء تجذر العنف السياسي في منطقة الشرق الاوسط عموماً ، والعراق خاصة .

لقد استطاع الكاتب أن يتوصل الى استنتاجات وتوصيات في غاية الأهمية في مجال بناء استراتيجية مستقبلية ناجحة للعراق وللمنطقة من أجل اللحاق بركب الحضارة الحديثة من خلال زيادة الفهم لطبيعة العقل العراقي والعربي وأثر الموروث التاريخي في سلوك وعادات وتفكير الانسان في المنطقة خاصة ونحن نمر في ظرف عصيب ومخاضة تحول متميزة نحو مستقبل أفضل .

الناشر

ISBN 9957-71-033-8



9 789957 710330 >

دار جلتة

ناشرون وموزعون



عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيس التجاري

تلفاكس : ٤٦٤٧٥٥٠ ٦ ٠٩٦٢ خليوي : ٥٢٦٥٧٦٧ ٧٩ ٠٩٦٢

ص ب : ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ - الأردن

بغداد - شارع السعدون - عمارة فاطمة

تلفاكس : ١٨١٧-٧٩٢ ٠٩٦٤ ٧٧٠٢١٥٧٥٥

خليوي : ٠٩٦٤ ٧٩٠٢٢٢٥٥٤٩ ٠٩٦٤ ٧٧٠٥٨٥٥٦٠٣

E-mail: dardjlah@yahoo.com

Bibliotheca Alexandrina



0696797

